

كلمة من الله

د. توحيد الزهيري



كلمة من الله

رقم الإيداع
٩٣/٩٣٠٠
I.S.B.N.
977-00-5928-5

الطبعة الأولى
حقوق النشر محفوظة للمؤلف
أكتوبر ١٩٩٣

كلمة من الله

د. توحيد الزهيري

(١)

السائرون الى الظلمات

(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا)

«مريم : ١٩»

خرج بنو إسرائيل يقرون و«فرعون»^(١) الذي أسرف في تعذيبهم وبالغ في أهانتهم يطاردهم يريد اصطيادهم قبل أن يفلتوا من قبضته .

كان رسول الله النبي «موسى بن عمران» يقودهم والأمل يحدهم في أن ينجوا من بطش «فرعون» وأن يتخلصوا الى الأبد من معيشة العبيد ومذلة الخضوع للكافر الغريب .

ولما عبر الله بهم اليم في القرن الغربي للبحر الأحمر حيث أغرق «فرعون» وجنوده وعاین القوم المستضعفون منة «الله» عليهم وقدرته على الجبار العنيد انبعث الأمل في قلوبهم أن يحيوا حياة السادة الأعزاء الذين أختارهم «الله» من بين خلقه ليجعل فيهم النبوة والكتاب .

وذهب «موسى» الى ميقات ربه ليتلقى في حضن الجبل كلمة «الله» أمرا قومه بانتظاره حتى يرجع اليهم . لكن القوم لم يصبروا حتى يعود اليهم «موسى» بالنور الذي يخرجهم من الظلمات ويهديهم الصراط المستقيم . فأسرعوا بوحى «السامري» يعبدون عجلا صنعه لهم من الذهب الذى سرقوه من المصريين قبل الخروج . وعاد «موسى» إليهم غضبان أسفاً . فحطم الألواح الحجرية التى حفر عليها «روح الله» الوصايا والشريعة . وجعل «الله» القتل شرطا لتوبته على من سجد للعجل فالذين

تابوا الى «الله» أحبوا لقاءه وقبلوا أن يضعوا أعناقهم تحت السيف فظفروا بالحيا
الأبدية لما سقطت رؤوسهم على الأرض بسيف التوبة . وفر الذين لم يتوبوا وكرهوا
لقاء «الله» أسرعوا يهربون من القتل لأنهم أحبوا أنفسهم أكثر من «الله» الذى يهد
أنفسهم الحياة فتركهم «الله» يمضون يضربون فى الضلالة وحرّمهم من الحيا
الحقيقية إذ جعل مصيرهم الجحيم .

ثم أخذ «الله» الميثاق (٢) على من بقى من بنى اسرائيل عند «جبل الطور» فرفعه
فوقهم وخروا على الأرض سجدا وهم يمثلون بالرعب خوفا من أن يفلت الجبل من
قبضة «روح الله» فيسقط عليهم فيسحقهم . وفى هذه الرهبة التى لا يستطاع وصفه
أمرهم «الله» بطاعته وأن يتمسكوا بالتوراة التى أعطاه «لموسى بن عمران» عبد
ورسوله إليهم . أعطوا العهد ونزل الجبل الى مكانه . وقام بنو اسرائيل من سجوده
الإضطرابى المضطرب وقد ظفروا بكتاب «الله» وقالوا لأنفسهم أنهم بهذا الخطاب قد
أصبحوا «شعبا مقدسا» إذ ظنوا أنهم تحولوا الى شعب من الأنبياء .

لكنهم سرعان ما فقدوا صبرهم وأخذوا يتذمرون لأن سيناء شحيحة الماء قليلا
الثمار وليست كبنت النيل التى عاشوا فى أحضانها ففجر «الله» لهم بعصاة «موسى
الماء فى الحجر وأنزل لهم طعامهم من السماء المن والسلوى .

لكنهم عادوا الى التذمر قائلين «لن نصبر على طعام واحد» . لم يحبوا الطعام .
الذى ينزل طاهرا نقيّا من السماء ويأتيهم فى يسر دون مشقة كانوا يشتاقون إلى نباد
الأرض الذى يخرج من الطين وتخصبه القاذورات «ما الذى دفع بنا الى هنا ؟ لماذا
جئنا بنا إلى هذه الأرض القاحلة ؟ . ماذا سنفعل على هذه الرمال وبين هذه الجبال؟» .

كانوا يريدون أرضا يستقرون عليها ويمارسون فيها سيادتهم يزرعون ويحصدون
بأيديهم فلا تبقى حياتهم متوقفة على منحة السماء إن شاعت أعطت وإن شاعت منعت
كانوا يريدون الاستغناء عن «الله» .

اشتتهى بنو اسرائيل أرضاً خصبة مباركة كأرض مصر التى عرفوا فيها الاستقرار وكانت فلسطين التى يسمونها أرض «كنعان» حينئذ هى مضرب الأمثال تعلقت بها قلوبهم وتطلعت إليهم أنظارهم وصار دخولها هو حلم الليل والنهار .

طلبوا من «موسى» أن يدعو ربه أن يمكنهم من أرض «اللبن والعسل» فأجابهم وأمرهم بدخولها . وكان نهر الأردن يشهد على كلتا صفتيه عمراناً كبيراً وعلى الأخص «المغرب» التى بارك «الله» فيها للعالمين ^(٣) كانت الأرض تمتلئ بالشعوب والقبائل التى استقرت فيها منذ مالا يحصى من السنين وكونت بمرور الوقت مجتمعات ثابتة ذات نظام سياسى . كانت دولا صغيرة أو «دويلات» يحكم كل واحدة منهن ملك . ولكل واحدة منهن جيش منظم خاض الحروب ويمارس الناس حياتهم فى سياق نظام اقتصادى يعتمد على الزراعة والرعى والتجارة .

الى الغرب من «نهر الاردن» كان «الكنعانيون» وعلى الساحل الجنوبى للبحر الأبيض المتوسط الذى ينحدر إلى سيناء - مصر - كان «الفلسطينيون» أقوى الشعوب حينئذ وفى الجنوب كان «الأدوميون» وقبائل «العمالقة» التى يبدو أنها قبائل «مصرية» استقرت على الحدود منذ زمن طويل لأن «الفراغة» أهل «مصر» القدماء كانوا فى نظر الشعوب الأخرى دائماً هم العمالقة أو الجبابرة لتعاليمهم فى البنيان وشدة بأسهم ويطش حكامهم .

وإلى الشرق من نهر الأردن كان «العمونيون» و«المؤابيون» و«المديانيون» (أهل مدين) ثم القبائل البدوية الأخرى التى استمرت تندفع فى موجات لا تتوقف من جزيرة العرب ، الأرض التى ولدت البشرية كلها وفى الشمال كان «الفينيقيون» و«الآراميون» سكان سوريا .

هكذا كانت الأرض التى اشتهاها بنو اسرائيل وأمرهم «الله» بدخولها تمتلئ

بسكانها وتحيط بها المجتمعات المستقرة والدول القوية من كل جانب ولم يكن بنو اسرائيل حين عبر «الله» بهم القرن الغربى للبحر الأحمر أكثر من قبيلة تولدت من أسرة واحدة هى عائلة النبی «يعقوب» التى تركت جبال السامرة فى أرض «كنعان» عند حدوث مجاعة منذ أكثر من أربعمئة عام ونزلت ضيوفا على نجم العائلة الساطع «يوسف بن يعقوب» الذى كان حينئذ بمثابة رئيساً لوزراء مصر . لقد تكاثر عددهم فى كرم الضيافة . ولكن «فرعون» (١) أعمل فيهم التقتيل وتجاوز فى البطش بهم كل حد وها هم يخرجون فارين من بطشه بلا سلاح يذكر ليجدوا أنفسهم فى الصحراء . استبدت بهم الظنون أنهم سيعودون كما كان آبائهم الذين دخلوا «مصر» رعاة للغنم بدوا لا يعرفون الإستقرار فى مكان ؟! . يرحلون مع أغنامهم حيث سارت تبحث عن الكلأ ؟! ورفضوا هذا المصير وطلبوا أن يدخلوا أرض «البن والعسل» وها هو يأمرهم أن يدخلوها لكن كيف سيواجهون هذه الشعوب وجيوشها القوية ؟ كانت هذه الأرض المشتهاة هى الطريق التى ما فتئت تشهد زحف الجيوش والحروب التى ما كانت تتوقف لحظة حتى تتدلع من جديد بين الملوك الذين حلموا بالسيطرة عليها لتتم لهم السيادة على كل البلاد فى المنطقة . لأن أرض «البن والعسل» تربط بين القارتين «آسيا وأفريقيا» وتصل بين البحرين الأبيض والأحمر .

وبالنسبة لمصر فقد كانت بابها الشرقى الذى منه يدخل كل راغب فى السيطرة . لقد انتبه «الفراعنة» من زمن بعيد إلى أهميتها لأمن مصر . فحرص الأقوياء منهم على ادخالها ضمن الامبراطورية المصرية أو على الأقل بسط نفوذهم عليها . ومن هؤلاء كان «فرعون» الذى اضطهد بنو اسرائيل وخرج فى جيشه يتعقبهم فأغرقه «الله» وجنوده أجمعين فى البحر الأحمر .

لقد نجح «فرعون» بعد حروبه مع «الجيشين» فى أن يعقد اتفاقاً معهم يضمن له السيادة على الأجزاء الجنوبية الغربية من «الشام» ومن بينها أرض «كنعان» مشتهى الأسرائيليين . ولا شك أن قواتا مصرية كات ترابط هناك على الحدود بين «مصر

وفلسطين» وفي أرض كنعان نفسها عنوانا على السيادة المصرية وتأمينا لباب «مصر» الشرقى الذى دائما تاتى منه الفتن والأخطار .

واذا أراد بنو اسرائيل وهم فى «سيناء» أن يدخلوا أرض كنعان فلا بد أن يعبروا الحدود ويمروا فى «صحراء النقب» حيث لا بد أن يتقابلوا مع الجنود المصريين المرابطين هناك . ولا بد أن يواجهوا القبائل المصرية التى كانت تسكن فى هذه الأرض منذ زمن بعيد . فكيف يمكنهم أن يقاتلوا هؤلاء «الفراعنة» وليس معهم سلاح وليس لديهم خبرة فى القتال وخوض غمار الحروب . كيف يأمرنا «الله» بدخول هذه الأرض وفيها هؤلاء ١٩ . فقالوا «لموسى» إن فيها قوما «جبارين» . وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها^(٤) . صحيح أن «فرعون» قد هلك مع جيشه فى البحر لكن ما الذى يمنع الجنود المصريين على الحدود وفي أرض كنعان من الانتقام منا لغرق سيدهم وأبادة جيشهم ؟ وما الذى يضمن لنا ألا تسحقنا هذه القبائل . وإذا نشب القتال فماذا معنا لنقاتلهم ؟

ورغم أن «موسى» أكثر من وعظهم بضرورة طاعة أمر «الله» ورغم أن رجلين صالحين من رجالهم قاما بتشجيعهم على الدخول وطمأنتهم على تحقق الوعد الالهى كما تحققت النجاة من «فرعون» الذى هلك مع جنوده أمام أعينهم على نحو لم يخطر لهم على بال لكنهم كانوا أكثر «حكمة» من أن يجازفوا بإلقاء أنفسهم للموت على يد هؤلاء الجبارين . وأصرروا على البقاء فى «سيناء» حتى يخلق «الله» لهم الأرض التى سألوا دخولها من سكانها . وإذا كان «موسى» يريد أن يذهب ويقاتل فليذهب وحده ومعه ربه فليقاتل . «إننا ها هنا قاعدون»^(٥) لن نتحرك .

وعاقبهم «الله» على تخاذلهم وعجزهم عن التوكل عليه وإصرارهم على معصيته بالتيه أربعين سنة كانوا لا يستطيعون أن يستقروا فى مكان . الرياح المحملة بالرمال تصفع وجوههم وتقلب خيامهم فيرحلون الى مكان آخر حيث تقابلهم القبائل بالصد والطرد . ظلوا فى ترحالهم الاضطرابى تتقاذفهم الأرض من مكان الى آخر من

شمال «سيناء» إلى جنوبها وتفرقوا ثم تجمعوا ليتفرقوا من جديد مضطرين إلى سلوك دروب مجهولة وبشاقة ملتوية في أرض قاحلة لا زرع فيها ولا ماء أربعين سنة في التيه سقط خلالها الموتى الذين قتلهم الجوع والعطش والحر والبرد وندموا على أنهم لم يسمعوا لكلام «الله» ويجازفوا بالدخول إلى الأرض المقدسة التي كتبها لهم وندم الكثيرون على أنهم قد تركوا مصر .

أخذوا يتذمرون ويتمردون على «موسى» ويتهمونه بالجنون ويأثنه قد جر شعبه إلى الهلاك في الصحراء .

وكلما ضعفوا ويئسوا قواهم «موسى» وأثار قلوبهم المظلمة بالرجاء في رحمة «الله» وكان «موسى» بعد أن حطم الألواح التي حفر عليها «روح الله» الوصايا والشريعة قد كتب بوحى «الله» التوراة في صحائف أودعها تابوتا سمي «تابوت العهد» وكان يحمله في ترحالهم رجال من سبط «لاوى» لأنهم منذ أن حملوا السيف طاعة لله ليقتلوا الذين عبدوا العجل منذ هذه اللحظة صارت ذرية «لاوى بن يعقوب» هم «الأحبار» الذين عليهم حفظ الشريعة وأقامة حدود «الله» ولهم شرف حمل تابوت العهد .

وعندما تتوقف القافلة التائهة في مكان لتستريح بجوار بئر ماء أو في ظل جبل كانوا يضعون «تابوت العهد» في «خيمة العهد» أو خيمة الإجتماع التي يدخلها «موسى» ليصلى لله ليتلقى أمره ثم يخرج إلى قومه حاملا نور «الله» ونال سبط «لاوى» شرف حراسة الخيمة وحملها في الحل والترحال .

عندما مات «هارون» دفن ووضعت آثاره مع التوراة في التابوت . فصارت آثار النبى الكريم ضمن مقدسات بنى إسرائيل . وصار لأبناء «هارون» فضل على بقية الشعب ومن هؤلاء الأبناء سيكون «الكهنة» الذين تقوم عليهم الخدمة الدينية وإقامة طقوس الشريعة عندما يستقرون في الأرض الموعودة .

ومضت الأربعون سنة فتقدم الركب المتعب نحو نهر الأردن حيث حطوا رحالهم على الجانب الشرقي تتطلع عيونهم فى شوق الى الأرض الموعودة التى حرمت عليهم أربعين سنة قضاؤها فى التيه فزاد تعلق قلوبهم بالأرض التى تعالت عزتها عليهم .

وحضر «موسى بن عمران» الموت قلبى نداء ربه . غادر شهود الدنيا وما يزال قومه يتطلعون فى لهفة إلى الأرض الموعودة والحسرة تملأ قلوبهم .

ثم جمع «يوشع بن نون» فتى «موسى» وخليفته شتات قلوبهم وقوى «بروح الله» عزيمتهم فعبروا نهر الأردن وظفروا بموضع قدم فى المغارب المباركة عند «أريحا» (٦) .

وعبر حروب وصراعات سياسية واتفاقات وتحالفات أستطاع بنو اسرائيل على سنوات ممتدة أن يتناثروا فى جماعات متفرقة على الشرق والغرب من نهر الأردن . كانت تلك الجماعات تشبه الجزر وسط بحر الشعوب والقبائل التى كانت تعمّر هذه البقعة العجيبة من كوكب الأرض التى تكتنفها الأسرار لقد جذبت القلوب وهوت إليها الأفئدة ودارت من أجلها .. وما تزال تدور الصراعات كأنها مركز دورة التاريخ البشرى على كوكب الأرض .

كل جماعة من تلك الجماعات الإسرائيلية كانت تضم أبناء سبط من الأسباط الإثنى عشر ولها شيخ هو أكبر أفراد العائلة الكبيرة ويحتفظ بنفوذ على أبناء سبطه . ولكن ظروف الصراع من أجل البقاء فى تلك البقعة المليئة بالأخطار أفرزت قيادات تتميز بقوة الشخصية أو الحنكة السياسية أو المهارة فى القتال . وهكذا صار لكل جماعة من الجماعات الاسرائيلية المتناثرة «قاضٍ» يعد هو الحاكم الحقيقى لجماعته . واستمر عصر «القضاة» عشرات السنين امتلأت بالقتال والصراع والاضطراب (٧) .

كانت الشعوب التى سكنت الأرض من قبل الإسرائيليين تنظر إليهم كغرباء طامعين وكان لابد أن تنشب المعارك التى نال بنو اسرائيل فيها الكثير من الهزائم

لأنهم كانوا رعاة بسطاء ليست لديهم خبرة الشعوب الأخرى فى القتال وكان «الفلسطينيون» الذين يسكنون المدن الساحلية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط هم أشد الشعوب بأسا وأقواهم تسليحا . ولذلك استطاعوا أن يذيقوا الإسرائيليين مرارة الهزيمة مرات كثيرة حتى أنهم نجحوا فى أن يسلبوهم «التابوت» الذى يحوى التوراة وآثار الأنبياء .

وأدرك بنو اسرائيل ضرورة أن يضمهم كيان واحد تذوب فيه الأسباط ويخضعون فيه لقائد واحد يستطيع أن يقودهم فى الحروب ويمكن لهم فى الأرض . هكذا تولدت القومية الإسرائيلية وطلب بنو اسرائيل أن يكون لهم «ملك» ^(٨) مثل بقية الشعوب فالقومية الوليدة كانت تبحث عن نظام سياسى يعبر عنها .

حاول «طالوت» (شاول) أن يؤسس المملكة التى تعبر عن القومية الإسرائيلية ولكنه أخفق . ثم جاء «داود» النبى المحارب الذى أعطاه «الله» الخلافة فنجح فيما أخفق فيه «طالوت» . وعبر حياة مليئة بالحملات العسكرية التى لا تتوقف والصراعات السياسية أستطاع أن يؤسس مملكة تبسط نفوذها على مساحة متصلة من الأرض على جانبي نهر الأردن . انشأ جيشا نظاميا . وقسم مملكته الى أقسام وأقام نظاما إداريا مركزيا وعزم على إقامة بيت لله فى عاصمة مملكته «أورشاليم» وأصدر المراسيم الملكية التى تحدد نظام العمل ببيت «الله» المزمع انشاؤه ووضع رسوم الطقوس وبموجب هذه المراسيم أصبح «الأحبار والكهنة» الذين يقومون بالخدمة الدينية فى بيت «الله» موظفين لدى «الملك» الذى يعد هو نفسه كبير الكهنة أو رئيس رجال الدين لأنه فى حالة «داود» كان نبيا يوحى إليه من «الله» .

وأصبح من المفروض أن تقدم «العشور» التى تفرضها الشريعة على كل ما يمتلكه اليهودى الى بيت «الله» . وكذلك النذور وباكورات الثمر والقرايين ومن كل هذه الأرزاق يأخذ الأحبار والكهنة أجورهم باعتبارهم رجال الدين الرسميين لكن «داود»

مات قبل أن ينجز ما عزم عليه وورثه أبنه وخليفته «سليمان» النبي الحكيم فأقام بيت «الله» فى «أورشاليم» الذى أصبح يسمى «هيكل سليمان» وكان آية فى الجمال والفخامة والقوة . إختال به بنو اسرائيل على الناس اجمعين . كان ذلك الهيكل هو علامة العلو الاسرائيلى الذى بلغ أوجه فى أيام حكم النبي «سليمان» الذى ظل فى قلوب اليهود أعظم الملوك . إستقرت فى عهده المملكة وأتسع نفوذها وقامت علاقات سلام وتعاون مع الدول المجاورة . كانت أيام المجد الذى لا نظير له .

لكن أيام المجد ولت بسرعة . لم تلبث أكثر من أربعين سنة . مات «سليمان» وتحولت الخلافة الى «ملك» عضوض فبدأ الأنهار .

نشب الصراع على «مجد» الدنيا . فاندلعت الخلافات التى سرعان ما قطعت الأسباط أبناء النبي الواحد الى مملكتين متناحرتين تستعين كل واحدة منهما على الأخرى بالملوك الأجانب الغرباء الذين يطمعون فى أرض المملكتين ويودون زوال الطائفتين المتنازعتين .

«مملكة اسرائيل» فى الشمال تدعى أنها الأصل لأنها تضم فى أرضها البقعة التى عاش فيها «إسرائيل» أبو الأسباط ولا تعترف بالأنبياء من بعد «موسى» وإذا كانت «يهوذا» المملكة الأخرى تفتخر بالهيكل وتقول عنه أنه بيت «الله» فإن «اسرائيل» انشأت معبدين فى «بيت إيل» وفى «دان» حتى لا يذهب شعب مملكة «اسرائيل» الى هيكل «يهوذا» وإذا كانت «يهوذا» تعبد آلهة . فإن «إسرائيل» ينبغى أن تتخذ آلهة غيره . وهكذا عبدوا «البعل» آله الفنيقيين وأصبحت تقدم له القرابين فى المعبد وأختلط الاسرائيليون اهل الشمال بالفنيقيين الأثرياء الذين يعملون فى التجارة وأخذوا عنهم ثقافتهم ونمط حياتهم حتى آلهتهم وعباداتهم وتحولوا الى شعب وثنى ينسب نفسه الى اسرائيل نبي «الله» الذى كان اسمه «يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم» «خليل الله» .

وأختالت «يهوذا» على أختها بهيكل الرب الذى أصبح فى نظرهم هو المكان

الوحيد الذى تقبل فيه الصلاة «الله» وأهتم الناس بالاتصال بالشياطين التى سخرها «الله» لسليمان ^(٩) صار الدين نوعا من الطقوس السحرية للسيطرة على العوالم الخفية وانتشرت الخرافات ودخلت العرافة والتنجيم بل عبدت الكواكب والأجسام السماوية وضاعت حقائق الدين كما بينها أنبياء «الله» وحلت مكانها فى القلوب ديانة جديدة ابتدعها الأحبار والكهنة والأنبياء الكذابون الذين تكاثروا واختلطت المفاهيم وأخذ الشعب يتخبط فى الظلمات .

خبا نور الايمان فى القلوب حتى أوشك أن ينطفئ . حتى فى يهوذا التى كانت أكثر تمسكا بالشرعية صارت العبادات عادات والطقوس الدينية ليست الا مناسبات وأعيادا قومية يتوارثها الناس ويحرصون عليها حرصهم على عاداتهم وتقاليدهم التى تميزهم بين الشعوب الكثيرة التى كانت تحيط بهم من كل جانب .

صار الدين تراثا قوميا . وصار «الله» ألها قوميا يخص اليهود وحدهم ولا يعتنى بأحد من خلقه غيرهم وكما أعتقد كل شعب وثنى أن له إلها أو آلهة تخصه تمنحهم الرعاية وتسبغ عليهم رداء حمايتها . كذلك انحدر ظن اليهود فى «الله» إلى حد توهمه شيئا لقبيلتهم أو زعيما لشعبهم فأسموه إله اسرائيل ونعتوه بأنه رب الجنود . وحسبوا أن ليس له من عمل إلا التمكين لهم فى الأرض التى أشربوا حبها فى قلوبهم فهو ينزل ليقاتل أعداءهم الذين يعدون فى ذلك الوهم أعداءه هو شخصيا ولا يعبأ «الله» بأحد من خلقه غير اليهود الذين هم ابناؤه وأحباؤه لا يستطيع أن يستغنى عنهم . كما لا يفرط رجل فى أبناؤه وجميع المخلوقات التى ابتدعتها يد «الله» إنما قد خلقت من أجل أن يتم تسخيرها لتحقيق مصالح اليهود فى الأرض الموعودة التى أصبحت هى كل ما يعينهم من رسالات «الله» وكلام الأنبياء .

لقد رفع «الله» ابليس من الأرض . وأعطاه رتبة «الملك» وأسكنه فى السماء فظن ابليس أن هذا التكريم يرجع إلى فضل تميز به عن سائر الجن الذين أبقاهم «الله» فى

الأرض أو مسخهم إلى صور قبيحة ورتب دنيئة ، أعجبتة نفسه وأسكره جماله فنظر إلى الأرض باحتقار وأحتقر كل ما فيها ثم استبد به أعجابه بنفسه فرأى انه أجمل شئ في السماء وأفضل كائن فيها غافلاً عن الجم الغفير من الملائكة الذين لا يحصيهم الا خالقهم .

إنتهى به كبرياؤه إلى أنه أعظم كائن يمكن ان يوجد وأنه ينبغي على كل ما في الأرض وما في السماء أن يقر بهذه «الحقيقة الإبلسية» كان يوشك أن يدعو نفسه ألها ويطلب من الخلق أن يعبدوه حين خلق «الله» الذي يعلم ما في نفسه «آدم» وذريته من قطعة من الطين كريمة الرائحة من الأرض التي احتقرها إبليس بكل ما عليها .

وعلم «الله» «آدم» الأسماء المسطورة في كتاب علمه كلها بعد ان نفخ فيه من «روحه» فصار بهذه النفخة وذلك العلم في الملاء الأعلى . وأمر «الله» الملائكة ومن بينهم «إبليس» أن يسجدوا «لآدم» . لقد أحب «الله» أن يذكر إبليس بعبوديته وأن يساعده بالسجود على التخلص من كبريائه التي تدفع به الى العذاب الأبدى . لكنه فضّل ان يخرج من الرحمة الى العذاب وأن يترك التكريم الي اللعنة ولا يترك كبرياءه التي تنفخ فيه أنه «الأفضل» لقد حول اصطفاء «الله» له إلى لعنة .

وعلى الطريق الذي شقه «إبليس» بكبريائه سار بنو اسرائيل وأخذوا يحثون الخطى إلى الهاوية لقد حولوا اصطفاء «الله» لهم بالخطاب والنبوة والكتاب الى لعنة لأنهم قالوا لأنفسهم أنهم قد صاروا «شعباً مقدساً» جديراً بهذا الاصطفاء فهم الشعب الذي أختاره «الله» الى الأبد وهم حظ «الله» من خلقه لا يستطيع أن يستغنى عنهم كائنهم هم الذين أختاروا «الله» وأعطوه مجده .

في هذه القلوب التي نفخ فيها «إبليس» سم الكبرياء صارت رسالة «الله» هي تشريف وتمجيد الشعب المختار وتحقيق الرسالة هو أن يكون بنو اسرائيل سادة الأرض وملوك البشر الذين يخضع لهم كل ما في الأرض بل كل ما في الكون الواسع

الذى لم يخلقه «الله» إلا من أجلهم وحدهم هذه السيادة اليهودية هى الغاية التى تسعى الأقدار للوصول إليها وتبتغى الدنيا تحقيقها .

إذن لم يعد بنو اسرائيل مطالبين بالتطهر من الخطايا والتنزّه عن النقائص والعيوب. ولم يعد مطلوباً منهم الإستعداد للقاء «الله» والتجهز لتلقى الحقيقة ومن ثم فقدت الرسالة الالهية إليهم معناها . إنهم أبناء «الله» وأحبائه ولن ينالهم من «الله» أى عذاب لأنهم شعب «الله» الذى يبقى دوماً شعباً مقدساً حتى وإن غرق فى الخطايا وتمرد على الشريعة إنهم طاهرين وكاملين منذ البدء فأى رسالة يمكن مخاطبتهم بها؟.. وأى ارشاد يمكن وعظهم به ..؟؟

ولم يعد فى هذا العمى معنى لإبلاغ الرسالة الى الغير فلا أحد فى الدنيا يحب أن يشاركه غيره فى الفضل الذى يتميز به عليه أوجد ابن يوزع إرثه من أبيه على الغرباء..؟؟

نسى بنو اسرائيل العهد والتكليف وغفلوا عن البعث والحساب والجزاء ولم يعد فى وحى «الله» إلا الأرض الموعودة المشتهاة والمجد الدنيوى . لكن رحمة «الله» لم تنسهم . فظل «الله» يذكرهم بأنبيائه الذين يرسلهم اليهم ليصححوا لهم أخطأهم ويرفعوا عن قلوبهم الأوهام لعلهم يرجعون الى صراط «الله» المستقيم . لكن الشعب أسكرته أوهام الأصطفاء وانتشى بزعم البنية المدعاة . وظل سادراً فى غيه فأعطي الأنبياء الصادقين أذناً صماء وانصرف قلبه الى الأوهام الجميلة التى كان يواصل الكذابون بثها .

وجاءت الضربات التى وجهتها يد «الله» بعصا الملوك والجبابرة كما تنبأ الأنبياء الى الشعب الغافل لعله ينتبه من سكرته ويصحو من أوهامه .

أخذ الفراعنة ومنذ وقت مبكر . ثم ملوك «أرام» يشنون الغارات ويأخذون الغنائم بل ويفرضون الجزية فى أكثر الأحيان .

ثم من بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات جاءت الكوارث حتى نجح الآشوريون في ازالة مملكة «اسرائيل» وتعلقت آمال اليهود بمملكة يهوذا والهيكل المقدس فى قلبها فجاء جنود «بابل» أولى البأس الشديد أيام «نبوخذ نصر» فحطموا تلك الآمال بيد من حديد عندما جاسوا خلال الديار^(١٠) فهتكوا العورات ودخلوا الهيكل لأول مرة فدمروه وسلبوا كنوزه وأحرقوا التوراة وراث الأنبياء عندما أحرقوا مدينة الرب المقدسة كلها وألبسوا قلوب بنى اسرائيل عارا لم تستطع مئات السنين أن تمحو أهانتته أو تزيل مرارته ..

منذ هذه اللحظة أمسى اليهود عبيدا مضطهدين أو فى أفضل الأحوال اتباعا أذلاء يدينون بالخضوع ويقدمون فروض الطاعة ويدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون للملوك الأقوياء الذين تعاقبوا عليهم .

بعد انقضاء يوم «بابل» سطعت شمس «فارس» فكانت رحمة امتدت بها يد «الله» الى اليهود فحررتهم من الاستعباد البابلى وفكت أسر المسيبين وأعادت بناء الهيكل وجددت «أورشاليم» وأنبعث لهم «عزير» من الموت^(١١) ليكتب لهم التوراة التى ضاعت حتى من الصدور ويعلمهم شريعة «الله» التى نسوها فى أيام السبي البابلى .

لكن شمس «فارس» غربت بسطوع نجم «الأسكندر الأكبر المقدونى» الذى دخل أورشاليم فاتحا قبل ميلاد «المسيح» بأكثر من ثلاثة قرون لم يكن قاسيا مع اليهود^(١٢) ولكن نجمه سرعان ما هوى وكان ورثته أشد قسوة على بنى اسرائيل .

وقع اليهود أولا فى قبضة البطالمة حيث عوملوا كعبيد اذلاء وتم إجلاء عدد كبير منهم الى «مصر» مركز حكم البطالمة اليونانيين ثم أعطوهم حريتهم الدينية مع بعض الحرية السياسية مقابل دفع ضرائب باهظة أثقلت كاهل الشعب المتعب^(١٣) .

لكن الأزمة الحقيقية التى ناء بها ظهر المجتمع اليهودى جاءت فى محاولة البطالمة

فرض الثقافة الهيلينية على اليهود باعتبارهم مجرد بعض رعاياهم الذين يسكنون الجزء الجنوبي الغربى من الشام .

حوّل البطالة المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط وبعض المدن فى شرق الأردن إلى مدن هيلينية الطابع بدأت تنشر الثقافة اليونانية ونمط الحياة الهيلينية فى عمق المجتمع اليهودى الذى بدأ يترنح ويتفكك .

وأنقسمت النخبة اليهودية الى طائفتين متصارعتين طائفة المثلهن وطائفة المحافظين . دعا المثلهن الى الاقتداء بالسادة اليونانيين فى كل شئ من العقائد حتى طريقة ارتداء الملابس . ونظروا بعين الاحتقار لكل تقاليد الشعب وتراثه «المقدس» وبالطبع فقد علا شأن هؤلاء المثلهن وأعتمد عليهم الحكام فى جلب الضرائب من الشعب^(١٤) .

وعلى الجانب الآخر دعا القسم الآخر من النخبة الى التمسك بعقيدة الشعب وتقاليد «المقدسة» والثورة على البطالة وأيد الشعب فى أغلبه هذه القيادات الفكرية المحافظة التى سعت فى سبيل الخلاص من البطالة الى الاستعانة بأعدائهم السلوقيين ورثة «الاسكندر المقدونى» فى الشام وسرعان ما فتح السلوقيون حكام الشام أرض فلسطين وأصبح الشعب اليهودى ضمن رعايا الدولة السلوقية .

لكن السلوقيين انقلبوا على اليهود بعد فترة قصيرة ففرضوا الضرائب الباهظة وكانوا أشد اصرارا على فرض الطابع الهيلينى على اليهود شعبا وأرضا وأنتهى المطاف بهم الى اصدار قوانين تنص على تحويل «أورشاليم» الى مدينة هيلينية وأن يكون «الهيكل» هو أحد معابد «زيوس» كبير آلهة اليونان ويحظر فيه تقديم قربان لآله اسرائيل بل يجب تقديم الخنازير قربانا «ذبيحة مقدسة» «لزيوس» ويمنع الختان ولا حرمة ليوم السبت ويمنع تعليم التوراة والموت هو عقوبة كل من يخالف واحدا من هذه القوانين^(١٥) .

كان هدف الملك السلوقي «أنطيوخس ابيفانس»^(١٦) هو توحيد مملكته دينيا وثقافيا فى نطاق الثقافة الهيلينية ومن ثم وجب استئصال الدين اليهودى ومحو التقاليد اليهودية .

وأطاع المهتلنون هذه القوانين ورحبوا بتحول اليهود الى رعايا يتشبهون بسادتهم اليونانيين أما النخبة المحافظة وعلى رأسها «الحسيديم» طائفة المتطرفين الدينيين فقد أعلنت رفضها لهذه العبودية وتمرد الشعب .

وإذ أقام بعض الجنود السلوقيين مذبحا عند قرية «موديعين» قرب مدينة «اللد» ثم قاموا بجمع سكان القرية حول المذبح ووقف القائد يأمر الكاهن العجوز «ميتياهو» ان يذبح خنزيرا قربانا «لزيوس» كبير آلهة اليونان ورفض الكاهن العجوز أمر القائد وصرخ فى وجهه «لو أطاعتك كل الشعوب التى تحت سلطان الملك فأنا وأبنائى وأخوتى سنبقى على عهد آبائنا ولن نترك التوراة والوصايا لن نطيع أمر الملك»^(١٧) .

وتقدم أحد اليهود المهتلنيين لينقذ الموقف بتقديم قربان المطلوب لكن «ميتياهو» العجوز وسط دهشة الجنود وانبهار الشعب أخذ سكيناً وذبح اليهودى المهتلن وأندلع الحماس وهجم الشعب الذى عانى طويلا من الإذلال على الجنود واشتد القتال وبدأت الثورة الحشمونائية أو الثورة المكابية نسبة الى «الحشمونائيم» وهم عائلة الكاهن «ميتياهو» أو «يهودا المكابى» الذى تولى قيادة الثورة بعد موت أبيه .

كانت هذه الثورة صراعا حرييا مريرا طويلا الأمد بين السلوقيين الذين يحتلون البلاد وبين الشعب اليهودى الراغب فى الخلاص من الاستعباد للغرباء يقوده الحشمونائيم وكانت من ناحية أخرى حربا أهلية بين دعاة الحفاظ على عقيدة الشعب وتراثه والمهتلنيين الذين يدعون الى الاقتداء باليونانيين وتمثل النمط الهيلينى فى الحياة واستمرت الحرب سنوات طويلة وتناول فيها الفريقان المتصارعان الهزيمة والانتصار

ولكنها انتهت الى سحق المتهلنين فى الداخل حتى أنهم اضطروا الى الفرار من «أورشليم» والاختفاء فى القرى والمدن وعدم اعلان هويتهم وأضطر «السلوقيون» الى الاعتراف بنوع من الاستقلال والسيادة للشعب اليهودى تحت قيادة «الحشمونائيم» الذين كونوا مملكة كانت تتسع أو تتقلص مناطق نفوذها حسب ضعف وقوة «السلوقيين» الذين كانوا يعانون الاضطراب فى عاصمة ملكهم .

ولكن «الحشمونائيم» فى إبان صراعهم مع «السلوقيين» اضطروا الى اللجوء الى «الرومان» والاستعانة بهم . فعقدوا مع «روما» الاتفاقات العسكرية التى تضمن لهم المدد والعون فى صراعهم الطويل ضد «السلوقيين» .

وكانت «روما» فى ذلك الوقت تتجهز لأن تكون سيدة العالم . وتتطلع لبسط نفوذها على كل الأرض المسكونة وكان لابد أن يمعن قادة «روما» النظر إلى تلك البقعة الحساسة التى تسيطر على الطرق فى العالم القديم كله .

إن أرض «اللبن والعسل» التى اشتهاها الفارين من جحيم «فرعون» المتذمرين من جفاف «سيناء» وقلة ثمارها الذين لم يحبوا طعام السماء . هذه الأرض نفسها كانت ثمرة مشتهاة لكل راغب فى السيطرة على بلاد الشرق وحلم كل حالم بأن يكون سيد العالم .

(٢)

«بيت العنكبوت»

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت
لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)

«سورة العنكبوت : ٤١»

من نداء «الله» لموسى فى الوادى المقدس ومن تكليمه عند جبل التجلى نشأت
الأمة اليهودية فمن خطاب «الله» لأنبيائه تنبعث الحياة وتقوم الأمم ومن أجابة الأمم
للخطاب الالهى يتولد التاريخ من كلمات «الله» المسطورة بيد «موسى بن عمران» على
صفحات التوراة ولدت الأمة اليهودية ومن موقف اليهود من رسالة «الله» شهد كوكب
الأرض تلك القصة الغربية التى أخذت اسم «التاريخ اليهودى» .

كان «موسى» والأنبياء من بعده هم الشمس التى بثت الحياة فى قلب الشعب
اليهودى وصار الأحرار والكهنة هم المصابيح المنوط بها استبقاء النور ليضى للشعب
طريقة فى الظلمات .

ومثل كل كائن حى فإن الأمة تضعف وتعترىها الأمراض اذا اضطرب إتصالها
بمصدر حياتها كلام «الله» وتنزل بها الشيخوخة لتموت اذا فقدت صلتها به ومن ثم
فإن المهمة «التاريخية» للأنبياء ثم ورثتهم من بعدهم هى إبقاء الأمة حية بإبقائها
موصولة بمصدر الحياة من خلال تجديد إمدادها بماء الحياة «الإيمان» الذى تظل به
مخاطبة من «الله» .

لكن بنى اسرائيل نقضوا ميثاقهم مع «الله» وأخذوا يفقدون «إيمانهم» رغم

صرخات الأنبياء والصالحين، انحدرت رسالة «الله» اليهم فأُمسست فى قلوبهم طلباً للعلو فى الأرض وبحثاً عنيدا عن «مجد» دنيوى لا يزول .

فى هذا الوهم صارت «مملكة سليمان» هى الفردوس الذى ضاع وصار استرجاع المجد الغابر الذى جسده «أيام سليمان» هو محور التاريخ اليهودى الذى دارت حوله حركة الشعب الذى كان يترنح بصفحات التاريخ سكرانا بوهم الإصطفاء الأبدى ظلت «أيام سليمان» فى قلوب بنى اسرائيل هى حلم الطفولة الذى داسته بلا رحمة أقدام التاريخ الثقيلة ولم تكن الثورة التى قادتها عائلة «الحشمونائيم» ضد الدولة «السلوقية» التى كانت لها السيادة على أرض «كنعان» وما حولها فى القرن الثانى قبل «الميلاد» إلا محاولة من الأمة التى كانت تعاني من الشيخوخة لاستعادة المجد العنيد الذى يأبى الزمان ألا يعيده . كانت تلك الثورة محاولة أخيرة لاسترداد الفردوس المفقود .

ونجحت الثورة فى اقامة «مملكة يهودية» تتمتع بسيادة ذاتية فى نطاق خضوع ظاهرى على الأقل للدولة «السلوقية» وحاول زعماء «الحشمونائيم» زيادة سلطاتهم ومناطق نفوذهم بقدر ضعف الملوك «السلوقيين» بل أنهم حاولوا الاستقلال التام عن الدولة «السلوقية» بالاعتماد على «الرومان» الذين كانوا يتطلعون حينئذ للسيادة على العالم كله وفى هذا السياق «سك» بعض الزعماء «الحشمونائيم» عملة خاصة تعبيرا عن الاستقلال وأسبغوا على أنفسهم بعد ذلك لقب «الملك» وأصبح الزعيم الحشمونائى «ملكا» للشعب اليهودى يلبس التاج على رأسه ويحاول ضم القرى والمدن الى مملكته ويعمل على «تهويد» السكان كلما أحس بضعف القبضة «السلوقية» فازداد عدد «المتهودين» الذين صاروا يدينون باليهودية دون أن يكونوا من سلالة النبى «يعقوب» أبو الأسباط ودون أن يعتقدوا حقاً بصدق التوراة إنهم يهود لأسباب دنيوية أو حتى بالصدفة .

لا يستطيع الإنسان فى أى موقع أو فى أى عصر أن يتجاهل «الله» ليس فى مقدوره أن يمضى قُدماً فى حياته دون أن يتخذ موقفاً من «الله» أو دون أن يعطى أجابةً «ما» على نداء الحقيقة الذى ينبعث من قلبه والذى يطلقه «الله» بواسطة انبيائه فى كل الأزمان فى أى مكان على كوكب الأرض وجد الإنسان نفسه مُضطراً لأن يحدد لنفسه موقفاً من نداء «الله» ومُضطراً لأن يختار ألهاً وكما لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون طعام أو شراب فكذلك لا يستطيع أن يحيى دون أن يكون له ألها يعبد، هذه الحقيقة فرضت نفسها على التاريخ البشرى بل إنها هى التى صنعت حركة المجتمعات التى تُسمى «التاريخ» وكانت أشد بروزاً فى الأمة اليهودية لأنها أُنبتت على الأرض خطاب «الله» لعبده «موسى بن عمران» فكان من المحتم أن تصطبغ كل مملكة يستطيع «اليهود» أن يكونوا بالصبغة الدينية وأن يكون «الدين» هو محور الحياة السياسية فى المجتمع اليهودى وأن تكون المساحة التى ينبغى للشرعية أن تبسط نفوذها عليها هى بؤرة الصراع فى النشاط الاجتماعى وكانت مملكة «اليهود» فى عصر «الحشمونائيم» تجسيدا أو تمثيلاً حياً لهذه الحقيقة .

كان زعيم «الحشمونائيم» هو الحاكم الفعلى للشعب اليهودى لأن هذه العائلة هى التى قادت الثورة وصنعت بقيادتها للشعب المتمرد «المملكة» ولكن الزعيم «الحشمونائى» كان يستمد شرعيته الظاهرية أى «منصبه» باعتباره رئيساً للشعب وحاكماً له من مجمع اليهود أو ما كان يسمى «السندرين» وهو مجلس عرفه المجتمع اليهودى منذ وقت طويل وكان يتكون فى عصر «الحشمونائيم» من سبعين عضواً بالإضافة الى رئيسه الذى يجب أن يكون رئيس الكهنة^(١٨) .

كان المجمع «السندرين» هو السلطة الشرعية فى المجتمع اليهودى ويضم فى أعضائه الشيوخ وزعماء العائلات الكبيرة والوجهاء بالإضافة الى بعض كبار الكهنة وعلى رأسهم الكاهن الأكبر الذى كان يجب أن يكون من عائلة «صديق» الكاهن الأكبر

فى أيام المجد الغابر «أيام سليمان» وكان هذا المجمع هو السلطة التشريعية التى لها وحدها حق إصدار القوانين التى تنظم الحياة فى المجتمع اليهودى وهى قوانين ينبغى أن تستمد أو على الأقل لا تتعارض مع نصوص التوراة .

ومن ثم فقد أصبح عمل المجمع فى الغالب هو تفسير «التوراة» لتأويل النصوص الغامضة وكشف المعميات الكثيرة والرموز والألفاظ الغربية التى امتلاء بها النص الذى أسئ إليه بالتعدى عليه حذفًا وإضافة مرات عديدة وفى أزمان ممتدة . وكان من المحتم أن تحتدم المناقشات وتتدلخ الخلافات بين وجهات النظر المتعارضة فى النص الذى صار هو نفسه موضوعا للخلاف لأن التوراة التى كتبها «موسى» قد ضاعت ولم يعد لها وجود منذ احتراق «اورشاليم» على يد جنود «بابل» أولى البأس الشديد والتوراة الجديدة التى كتبها «عزير» (عزرا الكاتب) . وأخذ يعلمها للشعب من جديد بعد العودة من «سبى بابل» لم تبق على حالها بل أخذت تعتريها التشويهات حيث تم محو النصوص التى لا تتوافق مع اهواء الشعب وأوهامه وأضيفت النصوص التى تحقق مصالح دنيوية رخيصة .

هكذا تحولت الكتب «المقدسة» إلى مسخ مشوه كان الجميع يدركون فداحته دون أن يجرأوا على الإفصاح حفاظًا على أوضاعهم فى المجتمع . وكان «المجمع» هو المحكمة العليا للبلاد وهو الذى يعين القضاة فى القرى والمدن . بل هو الذى يعين ولو ظاهريا حاكم البلاد لأنه هو الذى يسبغ الشرعية على زعيم عائلة «الحشمونائيم» الذى يكون عليه الدور فى القيادة . كان المجمع ورئيسه هو ممثل الشعب أمام السلطة الأجنبية الحاكمة . إن خضوع الشعب اليهودى فترات طويلة من تاريخه للسلطة الأجنبية قد ساهم فى ضعضة مكانة «الكهنة» فى المجتمع وزوال مهابتهم فى أعين الناس . لأنهم صاروا طوال هذه الفترات الممتدة يتعاونون مع السلطة الأجنبية ويجسدون فى قلوب الشعب معنى المذلة أمام الغرباء .

ومر على اليهود حين من الدهر كان كبير الكهنة الذى يعد رئيسا للشعب اليهودى باعتباره رئيسا للمجمع مضطرا أن يدفع «الجزية» للحاكم الغريب مقابل الاعتراف بمنصبه والسماح له بمزاولة سلطته على الشعب لقد تولى ابناء «لاوى» وذرية النبى «هارون» عن وظيفتهم المقدسة وهى حفظ الشريعة وأقامة حدود «الله» والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وصاروا مثلا فى الهرولة الى متاع الدنيا باعوا كلام «الله» واشتروا به ثمنا قليلا ففقدوا فى الدنيا احترام الشعب .. ثم أمسى أغلبهم أميين لا يعلمون ما فى «الكتب» المنسوبة الى الأنبياء ولا يدرون ماذا تقول الشريعة أو ماذا تريد صاروا موظفين فى الهيكل يحصلون على أجورهم من العُشُور والنُزور والباكورات ولا يقومون فى الحقيقة بأى عمل صار أغلبهم متبطلين ولم يبق من هذه «العائلة» إلا الملابس والطقوس وبقايا قصص وذكريات عن المجد الغابر . لم يعد لها من كيائها إلا إسمها إسم بلا مسمى .

ويانحدر «الكهنة» أرتفع شأن «الكتب» و«الفريسيين» أما «الكتب» فهم فئة من الشعب تخصصت فى حفظ التوراة وكتب الأنبياء وصارت «كتابة» النصوص الدينية وتعليمها للشعب خاصة الأطفال هى حرفتها وبتفشى الجهل فى الشعب بل فى طائفة الكهنة نفسها ازدادت أهمية هذه الفئة التى نشأت منذ عاد «عزير» من الموت ليعلم الشعب الذى نسى كلام «الله» إذ أدرك الشعب أهمية أن تتخصص طائفة من الناس لتتعلم وتعلم كتب الأنبياء فصارت هذه الطائفة هى الحافظة لتراث الأمة «المقدس» لكنها كانت أيدى غير أمينة لم تحفظ كلام «الله» فغيرت فيه ما شاعت لها أهواها فتعددت النصوص وأختلفت وصار «تصحیح» النسخ هى إحدى المسائل التى تعترض السالك الذى يريد أن يتعلم الشريعة . وأخذت مكانة «الكتب» تعلو وأهميتهم تزداد باعتبارهم قد صاروا الفقهاء الذين يعلمون شريعة «الرب» فأخذوا مقعد الوعظ فى الهيكل والمجامع المحلية التى تنتشر فى القرى والمدن.

أما «الفريسيون» فهم طائفة ترجع في أصولها الأولى الى الرجال الذين صاحبوا نبي «الله» «إيلياس» الذي عاش مُضْطَّهَداً في زمن «أخاب» أحد ملوك «إسرائيل»، كان «الفريسيون» يعتزلون الناس زاهدين في متع الدنيا تاركين صخب الأسواق وصراعاها إلى الجبال والأماكن النائية يعتكفون «لله» في الكهوف والخلوات يروضون أنفسهم بالعبادات راغبين في الوصول الى الحقيقة .

ربما كانوا هم المقصودون بلفظة «الريانيون» التي نطق بها القرآن في مقابل رجال الدين الرسميين الذين سماهم «الأخبار» (١٩) .

لكن «الطائفة» لم تبق في العزلة لتطلب الحقيقة بل خرجت الى السوق تطلب السلطة لقد تكاثرت عددها ودخلها الأدعياء وصارت حزباً منظماً فيه الزعماء والأتباع فيه الشيوخ والتلاميذ من السالكين والمريدين وأصبحت لها تقاليدها ورسومها وملابسها التي تميزها وسط الشعب الذي أصبح ينظر اليهم بعين الإجلال باعتبارهم أهل الشريعة الصادقين المحافظين على تقاليد الأباء . هكذا أصبح «الفريسيون» هم قادة الشعب الدينيين وصاروا يطمعون في أن يكونوا هم القادة الرسميين أصحاب السلطة في المملكة إذ كانوا يرون أنفسهم الجديرين بحكم هذا الشعب باعتبارهم أعلم الناس بالشريعة والنصوص وأكثر الناس ورعاً وأقدرهم على المعرفة . صار عدد كبير منهم «كتبة» وهكذا تولد من طائفة «الفريسيين» الذين كان أغلبهم من الطبقة الوسطى حزب سياسى يدعو إلى إقامة مملكة يهودية على أساس «التوراة» تحافظ على تقاليد الشعب «المقدس» الذي ميزه «الله» على سائر الشعوب وبإطبع فإن قيادة هذه المملكة «المقدسة» ستكون لهم لذلك كانوا في البداية أكثر الناس حماساً للثورة «الحشمونائية» التي قامت تمرداً على فرض الطابع الهيلينى على الشعب اليهودى من جانب «السلوقيين» .

وعندما نجحت الثورة في إقامة مملكة يهودية يتمتع الشعب اليهودى فيها بسيادة

نسبية واندحر «المتهلنون» من اليهود حتي أنهم فروا من «أورشاليم» وأختفوا عن الأعين حتى ذابوا ولم يعد ثمة من يدعى أنه «متهلن» فإن الفريسيين ظنوا أن الانتصار كان انتصارهم والدولة الجديدة هي دولتهم وتطلعوا ليكونوا حكام الشعب وأصحاب المناصب الكبيرة في الدولة لكنهم فوجئوا بأن الزعماء الحشمونائيم لا يقدرونهم حق قدرهم ولا يعطونهم من المناصب ما يستحقون .

صار بعضهم أعضاء في السنهدين وحكاماً للمدن والقرى وقضاة في المحاكم المحلية ولكنهم كانوا يرون أنهم يستحقون ما هو أكثر من ذلك .

وبدأت المتاعب عندما حاول الزعماء «الحشمونائيم» الاستحواذ على لقب «كبير الكهنة» الذي يؤهل صاحبه ليكون رئيساً للمجمع اليهودي الأعلى في «أورشاليم» إذ أصبح الزعيم الحشمونائي يطمع في الاستئثار بكل السلطات المدنية والعسكرية والدينية . «إذا كان «شمعون» (سمعان) الذي نجح في تأسيس الدولة الحشمونائية يحق له أن يحصل على لقب «كبير الكهنة» بالإضافة الى سلطاته الأخرى فإن غيره من الحشمونائيم لا يحق له أن يطالب بهذا المنصب» كان هذا هو موقف «الفريسيين»

(٢٠) وبدأت المعارضة «الفريسية» للحكام «الحشمونائيم» لأن الفريسيون قالوا أنه يجب على رئيس البلاد الحشمونائي أن يكتفى بمناصبه الدنيوية المدنية والعسكرية باعتباره حاكماً للبلاد وقائداً للجيش أما الرئاسة الكهنوتية فيجب تركها لمن هو أهل لها . وبإلطبع فانهم كانوا يرون أنفسهم أهلها وأخذت المعارضة الفريسية تعلن عن نفسها وتزداد شدتها فاعترضوا على سياسة التوسع والتهويد التي كان الزعماء «الحشمونائيم» ينتهجونها في أوقات ضعف الدولة «السلوقية» وأعرضوا حتى على أن يسبغ الزعيم «الحشمونائي» على نفسه لقب «الملك» ويلبس التاج ورأوا أن السياسة المتبعة تدفع بالبلاد لأن تكون مجرد دولة دنيوية «عادية» مثل باقي دول البشر وإستحكم العداء بين السلطة الحاكمة وبين الفريسيين.

وعلى النقيض من طائفة «الفريسيين» المعارضة كان «الصدوقيون» مؤيدين للسلطة وموافقين على كل خططها وأجراءاتها رغم أنهم كانوا هم ورثة «المتهلنين» الذين قامت الثورة باستئصالهم .

كان «الصدوقيون» طائفة تنسب نفسها إلى «صدوق» الكاهن الأعظم أيام «سليمان» وكانوا «دنيويين» بكل ما تعنيه هذه الكلمة لم يؤمنوا بحياة أخرى بعد الموت فليس هناك بعث ولا حساب ولا جزاء بالجنة أو النار بل ليس هناك شئ هام خارج نطاق حواس الجسد وليس أمام الانسان من حياة إلا التي يتيحها له جسده وعليه أن يحصل على المتع بقدر ما يستطيع وبالطبع كان «الصدوقيون» على عكس «الفريسيين» يحترمون الثقافة اليونانية التي تهتم بحياة الجسد ولذاته وتقصد الجمال وكان يرون في «الرومان» المثل الأعلى الذي يجب الاقتداء به ولكنهم تعلموا من المصير البائس الذي آل إليه «المتهلنون» أبأؤهم الروحيون فلم يعلنوا إحتقارهم لعقائد الشعب وتقاليده كما كان المتهلنون يفعلون بل «أظهروا» احتراماً مُفرطاً للتوراة وتقاليده الشعب وأعجبهم أن التوراة التي وصلت إليهم لم تكن تتحدث عن الحياة الأخرى وليس فيها ذكر للبعث أو القيامة .

وزايدوا على «الفريسيين» في «إظهار» تقديس التوراة واحترام تعاليم «موسى» فبينما كان الفريسيون يرون ضرورة تأويل النصوص واستنباط أحكام جديدة لتتوافق مع الظروف الجديدة التي يجدها الشعب^(٢١) وكان ذلك رغبة صادقة منهم في تنزيل أحكام التوراة على الأوضاع المتغيرة تشبث الصدوقيون بدعوى التمسك بنصوص التوراة وأحكامها كما فهمها الآباء وتطبيقها بحرفيتها كان هذا التشدد الظاهري غطاءً يسترون به إنكارهم لأن تكون التوراة وحيًا تكلم به «الله» ورغبتهم في إقامة الدولة على أسس دنيوية وكان الخلاف حول عقيدة البعث بعد الموت هو المعين الذي لا ينضب للمناقشات والمجادلات المحتدمة بين «الفريسيين» و«الصدوقيين» .

لقد أيد «الصدوقيون» السياسة التوسعية التي اعتمدها الزعماء الحشمونائيون لأنهم باعتبارهم يمثلون الطبقة الغنية كانوا يرون في إقامة دولة قوية واسعة مزيدا من الفرص لاستثمار الأموال فتعاونوا مع السلطة الحشمونائية التي قربتهم اليها واعطتهم المزايا الاقتصادية والمناصب. واشتد الصراع بين الحزبين «الصدوقيون» «الديويون» الذين يؤيدون السلطة والفريسيين المتدينون الذين يعارضونها ويطمعون في أن تكون القيادة لهم وبلغ الصراع حد الإقتتال حتى أن «الفريسيين» استنجدوا بالدولة السلوقية لترسل جيشا يؤدب الملك الحشمونائي «الكسندرينائى» وكانت النتيجة أن انهزم الملك اليهودى وعادت قبضة السلوقيين لتتشد على الشعب اليهودى مرة أخرى (٢٢) .

وحينئذ أدرك الطرفان خطأهما فقرر الملك أن يمنح الفريسيين الأبهة والمناصب التي يطمعون فيها وقرر «الفريسيون» أن يكبحوا جماح عدواتهم للسلطة حتى لا تعود البلاد للخضوع للغرباء كما كانت من قبل لكن الأمر لم يستقر فسرعان ما مات الملك وورثته زوجته «شلوميت» «أوسالومي» التي عملت بنصيحته فقربت الفريسيين وأعطتهم ما يطمعون فيه وجعلت أبنها البكر «هيراكانوس» ولي العهد «كاهناً أكبر» وكان ميالاً للفريسيين الذين أنتهزوا هذه الفرصة وأخذوا ينتقمون من «الصدوقيين» (٢٣) ولم يسكت الصدوقيون على هذه الهزيمة فحرضوا الإبن الأصغر «أريستوبولوس» وكان يميل للإلتجاء الديوى عند الصدوقيين ويرفض الأفكار الدينية «البالية» التي يدين بها الفريسيون فحرضوه ليزيح «هيراكانوس» من الطريق إلى الملك فجمع «أريستوبولوس» جيشا وأحتل بعض الحصون وطالب بتنحية أخيه الأكبر عن ولاية العهد وتدخلت الأم الملكة لصالح إبنها البكر واستنكر الشعب الذى كان يخضع لنفوذ الفريسيين الدينى هذا الاغتصاب للسلطة فاقتنع «أريستوبولوس» بحكمة أن يخفى أطماعه حتى حين فلما توفت الملكة وأوشك «هيراكانوس» أن يكون هو «الملك» لأنه هو الوريث الشرعى وأدرك الصدوقيون أن معنى ذلك هو هزيمة ساحقة لهم أسرعوا يحرضون «أريستوبولوس» للوثوب على العرش فى «أورشاليم» وأندلعت حرب أهلية طاحنة انتهت بهزيمة

«هيركانوس» والفريسيين وانتصار «أريستوبولوس والصدوقيين» وأصبح «أريستوبولوس» هو «الملك» وعين نفسه «كاهنا أكبر» وقرب إليه الصدوقيين الذين صاروا سادة المجتمع اليهودي وأصبح الكثير من الكهنة في الهيكل صدوقيين وأكدت «الديوية» التي يمثلها الصدوقيون أصدق تمثيل إنتصارها فأعتزل «هيركانوس» وأنزوى الفريسيون إلى حين .

لكن الشعب الصغير الذي تمزقه الصراعات لم يكن وحده في هذه البقعة العجيبة من كوكب الأرض فهناك الطامعون الصغار في المنطقة والطامعون الكبار الذين يسعون للسيطرة على العالم .

فإلى الجنوب من جبال «اليهودية» كان يسكن الشعب «الأدومي» وكان قد تم تهويده بإجباره على اعتناق الديانة اليهودية وضمه لمملكة الحشمونائيم في فترة من فترات ضعف الدولة السلوقية وأنبعث من الأدوميين زعيم تجرى في دمائه شهوة السلطة وتطلع إلى ان يكون سيد المنطقة .

إنه «انتيباتروس» الذي رأى في «أريستوبولوس» الذي اغتصب من أخيه العرش بالقوة منافسه الأكبر على السيادة فعمل على تحطيمه ليخلو له الجو أسرع إلى «هيركانوس» المنهزم يحثه على المطالبة بحقه المسلوب واسترداد ملكه الذي اغتصبه منه أخوه الأصغر ووعده بالمساعدة ومعونة «ملك» الأنباط الذي وعد بتقديم جيشه مقابل التنازل عن المدن التي كان «الكسندريناي» والد «هيركانوس» قد استولي عليها من مملكة «الأنباط» مع دفع مبلغ كبير من المال على سبيل التعويض^(٢٤) ووافق الملك المخلوع إذ استبدت به رغبته في استرداد عرشه إلى حد التعاون مع اعداء بلاده . أخذ «هيركانوس» بمشورة «انتيباتروس» الداهية يعد العدة لاسترداد عرشه المسلوب وأخذ الفريسيون يهيجون الشعب ضد «أريستوبولوس» المغتصب وأعوانه «الصدوقيين» وهكذا تجدد القتال وتم حصار «أورشليم» لكن دون نتيجة حاسمة .

هناك أُنْجِهت الأنظار الى «الرومان» سادة العالم الجدد الذين كانوا قد فتحوا سوريا واستقروا في «دمشق». أرسل كلا الفريقان المتحاربين الوفود الى «دمشق» يطلبون مساعدة «الرومان» ويَعِدُون «بالتعاون» وقدم كل منهما الهدايا وأظهروا الخضوع طمعا في المساعدة^(٢٥) وأستطاع «انتيباتروس» الداهية أن يقنع «بومباي» (بومبيوس) القائد الروماني بأن وجود «هيركانوس» الضعيف على رأس اليهود خيرٌ للرومان من زعيم محلي مشاكس مثل «أريستوبولوس» فتم اعتقاله مع أولاده وأرسلوا أسرى الى روما وأُعيدَ انتصاره وتم إلغاء الملكيّة وتعيين «هيركانوس» رئيساً لليهود وكاهنا أكبر لقد رحب الفريسيون بمجيء الرومان وهللوا لفتح «أورشاليم» لأنهم اعتبروا ذلك هزيمة ساحقة للصدوقيين اعدائهم ولكنهم بعيون شاخصة وقلوب تملؤها الحسرة عاينوا أهانة «بومباي» (بومبيوس) القائد الروماني للهيكل «المقدس».

أدرك الجميع ولكن بعد فوات الأوان أنهم بصراعهم الدموي على السلطة قد دخلوا جميعا كفئران مخدوعة مصيدة الرومان الذين قام سلطانهم في الأرض على القوة الغاشمة وحدها وكان القمع بيد من حديد هو أسلوبهم الوحيد في التعامل مع شعوب المستعمرات المتمردة .

ثم فر «أريستوبولوس» من الأسر وحاول مع أولاده تجميع شرانم الشعب التي تبعثرت للقيام بتمرد مسلح ضد الاحتلال الروماني ولكن باءت كل المحاولات بالفشل . في هذا الإضطراب برزت قدرة «انتيباتروس» علي الإمساك بمقاليده الأمور واستطاع أن يظهر بطريقة رائعة ولاءه «الصادق» الشديد للرومان الذين كان يدرك «بحكمته» أنهم هم السادة الجدد الذين يستطيع أن يعتمد عليهم في تحقيق أحلامه في السلطة وهكذا تم تعيين «انتيباتروس» مسئولا يبسط سلطانه باسم روما على مساحة من الأرض تضم «يهودا» و«الجليل» بالإضافة الى «أدوم» منطقتيه الأصلية وأُعطِيَ صلاحيات واسعة وأُعْفِيَ من الضرائب ومنحَ حق المواطنة الرومانية .

تحققت أحلام «انتيباتروس» فصار السيد الصغير فى المنطقة الذى يحكم باسم «السيد الكبير» الجالس على عرش روما أياً كان اسمه ولكن الشعب اليهودى أحس بأنه قد خُدِعَ وتذمر وبدأ التمرد وخاصة فى «أورشاليم» و«الجليل» وتصالح الشقيقان العُدَّوان من أجل التحرر من قبضة الروم لكن «انتيباتروس» كان حازماً جداً فى قمع التمرد وأظهر ابنه «هيرودوس» وحشية لاتنظير لها فى القضاء على الثوار دفاعاً عن سلطة أبيه ومكانته وأظهاراً لولائه لروما لأنه هو الآخر كان كأبيه يعيش السلطة ويحلم بالملك .

وفى خضم هذه الإضطرابات العنيفة التى اجتاحت الشعب اليهودى والتى كانت بمثابة آخر المحاولات البائسة للفأر للخروج من المصيدة التى إندفع اليها خاطئاً فر «هيرودوس» ابن «انتيباتروس» مع عائلته إلى روما واستطاع ان يقنع السادة اعضاء مجلس الشيوخ الرومانى بتعيينه «ملكاً» يحكم باسم روما منطقة تبدأ من «أدوم وجبال اليهودية فى الجنوب» وحتى الجليل وبادية الشام (الجولان) فى الشمال .

كان «هيرودوس» كأبيه أحد المتهودين تسربل بالديانة اليهودية لأسباب دنيوية وكأبيه أيضاً لم يكن يؤمن إلا بجداراته أن يكون هو «الملك» وقد تحقق له ما يريد لأنه استطاع أن يقنع سادة العالم بمهارته ويأثمه عبدهم المخلص المطيع الذى يضمن لهم السيطرة على تلك البقعة المليئة بالأخطار والألغاز .

(٣)

شمعة تحترق فى الظلمات

(سيعلمون غدا من الكذاب الاشر)

«سورة القمر : ٢٦»

«افتح أبوابك يا لبنان لتاكل النار أرزك»
«وَلَوْلِ يَاسِرُوْا لَانَ اَلْأَرِزْ قَدْ سَقَطَ لَانَ الاعزاء قد هانوا»
«اصرخ يا بلوط باشان لَانَ الحصن المنيع قد داسته الاقدام»
«سيبكى الرعاة لَانَ مجدهم قد زال»
«ويزمر الأشبال متمررين لَانَ كبرياء الأردن قد تمرغت فى التراب» (٢٦) .

ربما كانت هذه النبوة المفزعة هى أصدق تعبير عما أصاب الشعب اليهودى مع غيره من الشعوب التى كانت تسكن أرض «اللبن والعسل» عندما دخلت فى حكم الرومان .

لقد قام مجد «روما» على السيف وكان بطش الجبارين هو طريقتها فى حكم رعاياها من أهل المستعمرات الذين اعتبروا عبيدا لدى السادة الرومان ليس لهم من شرف الا السعى بكل اخلاص فى خدمة «روما المقدسة» .

كان اليهود هم أكثر شعوب المنطقة ذوقاً لمرارة القسوة الرومانية ربما لخطورة موقع أرض «اللبن والعسل» فى قلب العالم القديم حيث تلتقى الطرق التى تربط بين أطراف الأرض المسكونة ومن ثم فقد صارت مركزاً لدائرة الامبراطورية الرومانية ووجب على الرومان ومن يحكم باسمهم أن يكونوا أكثر حزمًا فى قمع التمرد والقضاء على الاضطرابات فى تلك البقعة الخطيرة حتى لا تنتشر أنباء العصيان الى الاجزاء

الأخرى خاصة وأن «روما» نفسها كانت تعاني من الفتن الناجمة من الصراع على السلطة ذلك الصراع الذي زادت حدة الثورات العنيفة التي قام بها العبيد في أنحاء متفرقة من الإمبراطورية التي صارت واسعة الأرجاء خاصة في «سوريا وصقلية» .

لقد استطاع حفنة من العبيد أن يروعوا جيوش «روما» العظيمة زهاء سنوات طويلة تزعزع فيها الاستقرار في «العاصمة المقدسة» نفسها وأوشكت شرائح من «الزراع الأويش» أن يمرغوا كبرياء السادة في التراب، لقد جُرحت الكرامة الرومانية التي تشمخ بأنفها إلى السماء جروحا عميقة ومهينة حتى استطاعت أن تقضى على تمرد العبيد لم يدخل «بومباي» (بومبيوس) «أورشاليم» فاتحا إلا بعد أن نجح في إخماد ثورة «سبارتكوس» .

وكانت حينئذ الأحداث المريعة ما تزال حية في الأذهان ويتردد صداها بعنف في القلوب التي اشتتت بكل قوتها أن تسترد «روما العظيمة» مهابتها في أعين عبيدها .

فكُتِبَ على اليهود أن يكونوا ضمن «الدواء» الذي تعالج به «روما» جراح كرامتها وربما لأن اليهود شعب غليظ الرقبة أعطى دوما كتفا معاندة لأنبيائه وحكامه الصالحين أو الفاسدين على السواء فظلت الفتن تشتعل على طول تاريخه الذي تعالت فيه صرخات الألم والغضب وفاضت منه الدماء . فلم يقع الفتح الروماني «لأورشاليم» إلا في سياق فتنة عمياء اشتعل فيها الصراع الدموي على السلطة بين شقيقتين من أب واحد وأم واحدة وبين طائفتين تنتميان لشعب واحد يقول عن نفسه أنه شعب «الله» المختار .

وكان الداهية العجوز «انتيباتروس» يشعل الصراع ويزيده احتداما كلما خبا لأن ذلك كان طريقه للوثوب على السلطة التي اشتهاها بكل قلبه وعرف أن الطريق إليها لابد أن يمر «بروما» فخطب ودها وخضع لها فخدعت الشقيقتين المتصارعتين اللذين من غبايتهما احتكما إليها فأعطت السلطة «لانتيباتروس» و«الملك» لابنه «هيروودوس» من بعده .

وربما لأن قلوب اليهود كانت تميل بهواها الى «الفرس» أعداء «الرومان» التاريخيين الذين ظلوا القوة الوحيدة التي في مقدورها أن تقف أمام تطلعات روما . لقد احتدم الصراع بين القوتين الكبيرتين أزمانا متطاولة تبادل فيها الطرفان المتصارعان كنوس الهزيمة والانتصار ومن ثم فقد أدرك «الرومان» أن عليهم أن يعطوا اليهود كمية كافية من «الدواء» حتى يشفونهم من «الهُوى» القديم لأهل «فارس» فيكون عليهم أن يفكروا ألف مرة قبل اللجوء إلى «العدو» الفارسى .

كان دخول «الرومان» أرض «اللبن والعسل» كارثة شديدة الوطأة على الشعب اليهودى بعثرته أشلاء ممزقة وأدخلت أمة «بنى إسرائيل» فى غيابة الاحتضار .

وكان البطش الشديد الذى أعقب الفتح حاسما فى القضاء على كل أمل فى خلاص سريع فابتدأت القلوب التى انهكها البحث عن «الفردوس المفقود» تشرب يوما بعد يوم كأس اليأس من عودة المجد الغابر لقد شاخت الأمة وأدركت أن المجد الذى ضاع لن يعود لأن الزمن يأبى أن يرجع فاستسلمت ساخطة للقضاء المحتوم .

أرسل «بومباي» بمشورة «انتيباتروس» حملة عسكرية من قاعدته فى «دمشق» الى «أورشاليم» تحت دعوى تأديب «أريستوبولوس» المغتصب وإعادة الحق الشرعى «لهيركانوس» الذى تم تنصيبه رئيسا على اليهود وكاهنا أكبر .

ولقد أعتبر الفريسيون هذا الانتصار الرومانى فوزا لهم على اعدائهم الصدوقيين أصحاب «أريستوبولوس» وظنوا أن اللحظة المنتظرة قد حانت ليتولوا فيها مقاليد الأمور فى المملكة اليهودية تحت رئاسة «هيركانوس» ورعاية الرومان .

لكن دعوة الفريسيين الى المحافظة على تقاليد الشعب المقدسة واقامة الدولة اليهودية على أسس دينية تستقى قوانينها ونظمها من التوراة ووصايا الأنبياء هذه الدعوة ما كانت لتروق للسادة الرومان ولا لمن يحكم باسمهم ولذلك فسرعان ما أظهروا

ضيقهم بصديقهم «هيراكانوس» وأنصاره الفريسيين فسلبوه لقب الكاهن الأكبر وأخذوا يُقْلَصُون سلطاته وأُعْطِيَت السلطة الفعلية للعجوز «انتيباتروس» الأدمى المنتهود وحينئذ فقط أدرك الأخوان العدوان أنهما قد وقعا ضحية لخدا ع «روما» وتصالحا بعدما أدركا خطأهما القاتل وحاولا تجميع الشعب وقيادة التمرد فانتشرت الاضطرابات التي تعبر عن التذمر الذي اجتاحت الشعب اليهودي كله ولكن كان ذلك دون جدوى فقد جاء الرومان ليقبوا طويلا ويستكملوا تتويجهم ملوكا على العالم .

كان «انتيباتروس» يدرك أن «روما المقدسة» هي التي صارت تمنح شارة المُلكِ وتعطى المجد لخدامها المخلصين فعمل على توثيق علاقته بالجالس على عرش «روما» أيما كان اسمه فأيد بكل «إخلاص» «بومباي» (بومبيوس) ثم نقل ولاءه بسهولة الى «يوليوس قيصر» وعمل كل جهده ليكسب وده لما أدرك أن «قيصر» قد استتب له الأمر (٢٧) .

وعلى طريق الأب سار الابن المتعطش إلى السلطة مثل أبيه . فشد رحاله الى «روما» مع عائلته هاربا من الاضطرابات التي اجتاحت الشعب اليهودي وعاد منها حاملا لقب «الملك» ونقل ولاءه من «أنطونيوس» (انطونيو) الى «أوكتافيانوس» (اوكتافيو) (٢٨) . لما مالت «الكفة» الى صالح الأخير واستطاع في مهارة السياسي المحنك اقناعه بأنه عبد «مخلص» له «ولروما المقدسة» فتمكن من أن يظفر من «أوكتافيانوس» بلقب «ملك حليف وصديق للشعب الروماني» وأُعْطِيَت صلاحيات واسعة تفوق ما أُعْطِيَ لغيره من حكام الولايات الذين يحكمون باسم «روما» (٢٩) لأن القائمين على الأمر في «روما» رأوا أنه من الأفضل لهم ترك الأمر في هذه البقعة الغامضة التي تفيض بالاضطرابات وتموج بالأسرار التي تستعصي على الفهم وتحير السادة الرومان لواحد من أهلها يطلقون يده ليديرها ويبقيها خاضعة لروما مع وضعه تحت المراقبة والسيطرة .

لذلك سمحوا «للملك هيرودوس» أن يُكوّن جيشا خاصا يخضع له مباشرة بالإضافة الى القوات الرومانية الكبيرة نسبيا التي كانوا يحتفظون بها فى «أورشاليم» وكبريات المدن خاصة فى منطقة الجليل وعلى الأخص فى «كفر ناحوم» وذلك لأنهم اقتنعوا بأن «هيرودوس» يجب أن يكون قادرا على مواجهة الموقف فى حزم بقوة عسكرية تخضع له مباشرة إن اندلعت الاضطرابات ومن الناحية الأخرى فإن «هيرودوس» كان يرى فى وجود جيش خاص به أمر ضروري وجوهري لاستكمال أبهة الملوك اذ كان يطمع فى تكوين مملكة عظيمة .

نظم «هيرودوس» جيشه على الطريقة الهيلينية وأعطى ضباطه وجنوده رواتب كبيرة وميزات مالية واجتماعية ليضمن ولائهم الشخصى^(٣٠) له وحرص على أن يكون أغلب جيشه من «الأدوميين» شعبه الذى نشأ فيه بالإضافة الى بعض أبناء الشعوب الأخرى مع قليل من اليهود الذين ضمهم الى جيشه ليقنعهم أنهم ضمن «رعاياه» ويذكّرهم بأنه قد اعتنق مع شعبه الديانة اليهودية ولكنه إستمر يتبادل مع اليهود «الارتياب» اذ أنهم ظلوا ينظرون اليه كغريب «متهود» أستطاع أن يقفز على العرش بطريق الخداع وظل من ناحيته ينظر اليهم كرعايا متمردين لا يقبلون تملكه عليهم إلا صاغرين فهو بالنسبة إليهم كالرومان ليس إلا قدرا محتوما لا يملكون الى دفعه عنهم سبيلا .

منع الرومان «هيرودوس» من أن يصدر عملة خاصة أو أن يعقد المعاهدات والمواثيق مع الملوك الأجانب لأن ذلك كان يعنى أنه قد صار ملكا حقيقيا وهو أمر لم يكن الرومان مستعدين لقبوله ولاشك أنهم كانوا يذكرون أن بدء تدخلهم فى شأن اليهود وقع عندما عقد ملوك «الحشمونائيم» معهم عهدا واتفاقات عسكرية يضمن بها الحشمونائيم مساندة ودعم الرومان ضد السلوقيين ولذلك كان لابد من كبح جماح

«هيرودوس» حتى لا يتطلع الى أن يصير ملكا حقيقيا أما فيما عدا ذلك فكان الرومان مستعدين لإطلاق يد «هيرودوس» ليفعل ما يشاء طالما أنه يخضع للسيادة الرومانية .

وفى حدود الصلاحيات الكبيرة التى أُعطيت «لهيرودوس» كان بوسعها ان يصدر القوانين الخاصة التى تنظم العمل فى «مملكته» وأن ينشأ الجهاز الادارى المركزى الذى يضمن به السيطرة على البلاد وأن يفرض الضرائب التى تمكنه من تمويل المشروعات الضخمة التى كان يرغب فى انشائها . لقد كان يطمح إلى تأسيس دولة قوية تقوم على أسس دنيوية وكان الرومان هم مثله الأعلى والنمط الهيلينى هو القدوة التى يحتذونها فأهتم بتقوية جيشه وضمان ولائه له وأقام المستوطنات الزراعية لتعمير الأراضى الصحراوية ووزعها على جنوده والزمهم بالدفاع عنها ضد غارات البدو واللصوص وعمل على تنشيط التجارة بتوسيع المدن وتأمين الطرق .

إلا أن جهده الكبير كان فى البناء اذ حاول اقامة نهضة معمارية فشيده الحصون المنيعة فى المدن المختلفة وبنى الأبراج حول سور «أورشليم» وأنشأ ملعبا رياضيا كبيرا ومسرحا فخما وقصرا محصنا له كان آية فى الفخامة والقوة والجمال (٣١) .

ولقد لقيت الاتجاهات الدنيوية عند «هيرودوس» قبولا عظيما فى قلوب الصدوقيين فأسرعوا يتقربون إليه يحاولون اغتنام الفرص الكثيرة التى تتيحها طموحاته وتناشوا فى بساطة أنه وأباه قد صعدا إلى سدة الحكم بفضل الرومان الذين جاءوا لتأديب «أريستوبولوس» وأنصاره «الصدوقيين» . إن الدنيا كما تُفرَّق تُجمَع ولذلك رحب «هيرودوس» بهذا التقرب وشجعهم على المزيد لأنه كان يحتاج لحزب يؤيده وقاعدة يستند إليها فى حكمه إذ كان يدرك أن الشعب ظل ينظر إليه كمغتصب للسلطة من أصحابها الحشمونائيم الذين لم يدخر «هيرودوس» وسعا فى القضاء عليهم واستئصالهم حتى لا يبقى أحد منهم يمكنه منافسته على الحكم إلا أنه لم يستطع القضاء على «إيمان» الشعب بأحقية الحشمونائيم بالحكم .

وكان إنقلاب العلاقة بين «هيرودوس» وسادته «الرومان» من ناحية والصدوقيين من الناحية الأخرى من العداء الشديد الذى بلغ درجة القتال الى الحب الشديد هذا الإنقلاب خيب آمال الفريسيين فى السلطة وأصابهم بغىظ شديد يشبه الجنون فهذه هى المرة الثانية التى يُلْدَغُون فيها من نَفْسِ الجُرِّ اذ عندما قامت الثورة الحشمونائية توهموا أنَّ السلطة ستؤول لهم ولكن سرعان ما خاب أملهم اذ انقلب عليهم الزعماء الحشمونائيم وقربوا أعداءهم الصدوقيين . وها هم الرومان «وهيرودوس» يكررون نفس القصة معهم اذ أصبح «هيرودوس» يضيق بهم ويأفكارهم البالية ويقرب إليه الصدوقيين ويعطيهم الفرص والمناصب فأصبح الصدوقيون هم أصحاب السلطة فى الشعب حتى أن العدد الأكبر من الكهنة فى الهيكل صار صدوقيا وأصبح منصب الكاهن الأكبر من نصيب أحد الكهنة الصدوقيين وأمسى الفريسيون مستبعدين وهم الذين كانوا يظنون أن دولتهم قد جاءت مع الرومان .

وابتدأ الفريسيون يُنْفِسُون عن غيظهم لضىاع السلطة منهم بتهييج الشعب ضد «هيرودوس» وسادته الرومان فأذاعوا أنه قد أغتصب الملك من أصحابه الشرعيين عائلة «الحشمونائيم» كائهم لم يكتشفوا هذا إلا أخيراً. وأنه يَخْضَعُ للرومان «الكفرة» ويتشبه بهم فى معيشتهم ولا يحترم تقاليد الشعب «المقدسة» ولا يتقيد بالشرعية ولا يحترم التوراة وأنه يسعى الى اقامة مملكة دنيوية تخالف ما يريده «الله» من شعبه وأخذت الصراعات تشتد مرة أخرى بين الفريسيين على جانب و «هيرودوس» والصدوقيين على الجانب الاخر فأخذ «الملك» يضطهدهم .

لم تكن إدعاءاتهم إلا غطاء يسترون به شهوتهم غير المُشْبَعَةِ الى السلطة وكان أكثرهم مستعدين للتوافق والرضى لو أنهم أُعْطُوا بعض ما كانوا يرون أنه حقهم لكن الشعب كان يتأثر بما يقولون لأنهم ظلوا فى نظره رجال «الله» المتمسكين بالشرعية المحافظين على تقاليد الآباء وفى هذا النفوذ «الروحى» لهم عند الشعب كان يكمن خطرهم بالنسبة لصاحب السلطة وبهذا كان يمكنهم ابتزازه .

طائفة صغيرة منهم أخذت هذه الادعاءات مأخذ الجد فأعلنت حرباً «مقدسة» ضد «روما» ومن يواليها ولكن «هيرودوس» والسادة الرومان لم يقصروا في قمع التمرد، بكل قوة فخمدت الثورة في القلوب حتى ماتت فلم يبق منها إلا الادعاءات الفارغة .

إن المجد الذي يقوم على «السيف» يتكلف أموالاً كثيرة ولذلك كان لابد للسلطات الرومانية أن تفرض «الجزية» على الشعوب التي وقعت تحت الاحتلال الروماني وظلت تزيد من مقدار هذه الضريبة التي تُفرض لقيام الدولة الراعية بحماية نفوس رعاياها وهي تعد علامة الخضوع «الرسمية» من جانب الرعايا لسيادة الدولة وكان الرومان يفرضونها بطريقة «الإلتزام العام» حيث تتفق السلطات الحاكمة مع أحد الشخصيات أو العائلات للقيام بتحصيل هذه الضريبة من منطقة معينة ويتعهد الملتزم بتوريد مبلغ معين من المال وفي المقابل تقوم السلطة بأمداده بالقوة العسكرية والحماية اللازمة لقيامه بمهمته وتطلق يده ليفعل ما يشاء طالما يظل قادراً على الوفاء «بالتزامة» .

وبالطبع فإن الشخص أو العائلة صاحبة الإلتزام كانت تقوم بتجنيد طائفة من الناس لجباية الضرائب من الشعب مقابل أجر معلوم. هكذا عرفت طرق أرض «اللبن والعسل» طائفة «العشاريين»، الرجال الذين كانوا يطوفون في الأسواق ويمرون على البيوت والمحلات التجارية بصحبة الجنود المدججين بالسلاح ويطلبون من الناس المال المفروض كان حضور الجنود وهم يحملون السلاح ضرورياً لمنع الناس من التفكير في الاعتراض أو التهور برفض الدفع واكتسبت شخصية «العشار» أو «جابي الجزية» كراهية شديدة في قلوب الناس حتى أنه أمسى في ضمير الشعب هو رمز الشر أو «الشیطان» صار مثلاً للإنسان الخاطي، ولاشك أن «الملتزم العام» كان يُحسِن إختيار «عشاريه» من حثالة الشعب فينتقى الأفراد ذوي الأخلاق السيئة والميول العدوانية المستعدين لعمل أى شئ في سبيل جمع المال لأنه بهؤلاء الأراذل يستطيع جمع المال الكافي لتوريد «الجزية» المفروضة وإعطاء رواتب لهؤلاء الجباة والإحتفاظ لنفسه بنصيب

يضمن به الحياة الرغدة ويستطيع أن يشتري رضا الوالى أو «الملك» والسلطات الرومانية ليظل فى منصب «الملتزم» الذى يدر عليه دخلا كبيرا، ثم أصبح مفروضا على الشعب أن يقدم الجنود الرومانيين المصاحبين للجباة (العشارين) الوجبات الغذائية التى سماها الشعب على سبيل السخرية «العلائف» وبهذه «العلائف» استطاعت «روما» ان تتخفف من بعض اعبائها المالية لأن الانفاق على هذا الجم الغفير من الجنود خاصة مع كثرة الاضطرابات والحروب كان يثقل كاهل الامبراطورية واسعة الارجاء . لقد حولت هذه «العلائف» جنود «روما» إلى مرتزقة يأكلون طعامهم من القوت الضرورى للشعوب المغلوبة على أمرها .

ومع صعود الأباطرة المتألهين على العرش فى «روما» منذ «يوليوس قيصر» الذين لم يعودوا يكتفون بسرقة الأموال المنهوبة من أقوات الشعوب الفقيرة بل صاروا يتطلعون مثل «ابليس» إلى سرقة مجد «الله» زادت النفقات لأن المجد الزائف للمتألهين الأرضيين يتطلب أموالا طائلة وكان على الفقراء من رعايا الدولة فى المستعمرات أن يدفعوها من أقواتهم ودمائهم وبذلك زادت الأثقال الملقاة على ظهر الشعوب الخاضعة لسلطة روما وزاد من وطأتها على الشعب اليهودى فى أرض «اللبن والعسل» طموحات «هيروودوس» المتطلع الى تأسيس مملكة عظيمة وهو ما يعنى فرض ضرائب اضافية اعطته «روما» صلاحيات فرضها . هكذا ناء ظهر الشعب اليهودى الذى طال انحناءه لغير «الله» بأثقاله التى أخذت تتزايد يوما بعد يوم فالجنود أصبحوا لا يكتفون «بالعلائف» والعشارين لا يكتفون بالنصيب المفروض اذ صار كل صاحب سلطة يختلس قدرا . من المال بقدر سلطته حتى تنتهى الأموال المسروقة إلى يد السارق الأعظم الجالس على عرش «النسر» فى «روما» .

فى هذه المظالم المتراكمة أمسى «المال» هو الآله المعبود من دون «الله» وأصبح كل واحد يلهث وراء «الصنم» يريد جمعه والاستحواذ عليه وفى هذا السباق المحموم

نزل «الكهنة» من الهيكل الى السوق يتنافسون أمسوا تجارا جشعين بضاعتهم «كلام الله» صار منهم التجار الذين يعملون فى تجارة المواشى والطيور التى تقدم كقرايين للإله فى مذبح الهيكل طلبا للغفران أو وفاء بالنذور أو فداء للمواليد الذكران فاتحى الأرحام وفى هذه التجارة تصبح الخطايا والنذور كنز لا يفنى فكلما زادت الخطايا وأشدت الحاجة الى المغفرة وكلما تكاثرت الرغبات وأصبحت النذور ضرورية للظفر بها كلما زادت ثروة الكهنة «التجار» .

وبارتفاع مكانة المال فى القلوب حتى يصير هو حقيقة الأشياء يكون من المحتوم أن تزداد الفجوة بين الفقراء والاغنياء ويزداد الإحساس بها ومن ثم تشتد حاجة الفقراء الى المال ويحتاجون الى «القروض» وحينئذ لا يمانع الاغنياء فى «بيع» أموالهم الى الفقراء قروضا مقابل ربح معلوم هكذا ولد «الربا» الذى قالوا عنه أنه مثل «البيع» لأنه بيع للأموال حيث يُمكن النظر إلى الأشياء على أنها مال متكرر فى صورة أخرى إذ يمكنك أن تبادل بالمال أى شئ تريده ولذلك فإنك عندما تقرض شخصا ما مالا فأنت فى «الحقيقة» تبيعه «الشئ» الذى يريد الحصول عليه بمالك فما الذى يمنعك من الربح من بيعك ؟ إنشأ الربا فى المعاملات وانتشر الفساد بين الناس وتقطعت الأرحام .

فى هذه الظلمات ابتعث «روح الله» «زكريا» مصباحاً ينير للشعب طريقه للخلاص لقد بوغت اليهود بانقلاب «الرومان» عليهم فعندما استتب الأمر فى أرض «اللبن والعسل» «لروما» خلعت القناع عن وجهها القبيح وكشرت عن انيابها .

كان ذلك صدمة للشعب كله خاصة «الفريسيين» الذين كانوا يستبشرون فهدول الشعب الى الهيكل يتضرع الى «الله» ويصرخ باكيا ونصح القادة الفريسيون بالصوم والكهنة بتقديم القرابين أما «زكريا» النبى فقد وقف ساخرا منهم ممزقا بسيف لسانه قناع توبيتهم الزائفة .

قال : «إن صمتكم وبكيتكم فهل تفعلون ذلك من أجل الله» ؟!

«كلا

بل من أجل أنفسكم

وإن أكلتم وشربتم مسرورين أفليس أنتم الأكلون الشاربون فى سرور أم الله ؟

أليس هذا هو كلام الأنبياء من قبلى

أليس هذا هو كلام الله الذى نطقت به الرسل

لا أقول لكم إلا ما قاله الأنبياء من قبلى لأبائكم حتى عندما كانت «أورشليم» مسترخية فى مجدها تتقلب فى النعيم والمدن والقرى من حولها تضج بالبهجة» (٣٢) .

كانت موعظته تخالف ما يقوله الشيوخ الفريسيون والكهنة الذين يأمرهم بالصدقة وتقديم القرابين لعل «الله» يرفع عنهم الكارثة التى حاقت بهم أما هو فيسخر من صومهم وقرابينهم ويستهنئ بالشيوخ والكهنة رغم أنه واحد من الكهنة فى فرقة «أبيا» .

إنهم لم يذهبوا إلى الهيكل ضارعين عازمين على الصوم يقدمون القرابين لأنهم ندموا على خطاياهم وعزموا على اصلاح أنفسهم معترفين أن عقوبة «الله» لهم عادلة كلاً بل كانوا يشعرون أن «الله» قد ظلمهم فأجرى عليهم أقداراً قاسية وعاملهم بشدة لا يستحقونها إنهم شعبه المختار وأبناؤه فكيف يسمح بإهانتهم على يد الغرباء على هذا النحو المرزى وكيف يرضى بمذلتهم. لسان قلوبهم يقول فى صمت «يالك من إله قاس لا يرحم أنزلت بنا عقاباً لا معنى له»، وهم بقرابينهم وصومهم يحاولون إسترضاءه لعله يرفع عنهم الظلم البين الذى حكّم به عليهم .

لذلك سخر منهم «زكريا» فى موعظته أما الكهنة زملاء «زكريا» والفريسيون فقد مقتوا «زكريا» الذى يهينهم أمام الشعب وأتهموه بأنه يستهنئ بشريعة «الله» التى

نصت على الصوم وأمرت بتقديم القرابين ودعوا الشعب الى عدم الاستماع الى هذا المجنون الذى يجدف على «الله» وشعبه المختار .

لكن أحوالهم ازدادت سوءاً لأن السلطة زادت من بطشها و«العشارون» زادوا من جورهم وجشعهم ثم أمسكت السماء ماءها ومنعت الأرض غلتها وكان ذلك آيةً بينةً على غضب «الله» عليهم كما يقول «زكريا» ولم يستطع الكهنة والشيوخ شيئاً فهرول الناس الى السحرة والمنجمين والعرافين الذين يدعون علم الغيب ومعرفة الأسرار لعلهم يجدون طريقاً للخلاص من هذه الكوارث المتتابة التى أخذت تحيط بهم من كل جانب كانوا يرغبون فى فك رباط «النحس» الذى يضيق عليهم الخناق أما «زكريا» فلم يستطع أن يمسك لسانه وهو يرى هذا الكفر الصريح فقام يوبخهم .

«أيها الناس ..

«حين يتأخر عنكم المطر فأطلبوه من «الله» لأن «الله» وحده هو الذى يستطيع أن ينزل الماء من السماء أما العرافون والسحرة والمنجمون فإنهم لا يرون إلا الباطل ولا يحدثونكم إلا بالكاذيب ويعزونكم بأوهام لن تتحقق (٢٣) .

«إن آمنتم واتقيتم ربكم فإنه قادرٌ على أن يجعل السماء تفيض عليكم بمائها والأرض بثمراتها وإذا كنتم اليوم أذلة فى الأرض ولعنة بين الأمم فإن «الله» قادرٌ على أن يخلصكم من الذل ويبارككم فى الأمم فاتقوا «الله» وارجعوا الى كتابه حتى تكونوا بالحق شعب «الله» ويكون «الله» بالحق هو آلهكم (٢٤) .

م' على كتاب «الله» . لكن السامعون لم يستمعوا

كاذيب هذا الرجل الذى يتهم شعب «الله» بالكفر

الى الإيمان والتقوى ألسنا المؤمنون المتقون ؟

أنصرف الشعب عن «زكريا» وأمسى الكهنة والكتبة يدبرون للخلاص منه لأنه يستهزئ بهم أمام الناس أخذوا يشوشون عليه كلما وقف ليعظ الناس فى الهيكل أو خارجه ويجادلونه لصرف الناس عنه فأصبح يشعر أنه غريب وسط أهله .

كان «زكريا» يؤمن أن بنى اسرائيل أمة صنعها كلام «الله» وقامت على الأرض لتحمل رسالة «الله» إلى الناس فلا حياة لها إلا بحمل كلام «الله» وحفظ شريعته وأن الكهنة باعتبارهم رجال الهيكل ينبغى أن يكونوا قادة الشعب فى طريق الخلاص لذلك توجه الى الكهنة زملائه يريد نصحتهم لأن منهم يجب أن يبدأ الإصلاح .

«أيها الكهنة إصدعوا بالحق ولا تدنسوا كلام «الله» بالباطيل» لكنهم كانوا يضمرون له الشر ويدبرون للخلاص منه كانوا يريدون قطع لسانه الذى لا يتوقف عن الاستهزاء بهم فقال لهم ناصحاً «إصنعوا السلام فيما بينكم ولا ينتوى أحد فى قلبه شراً لإخيه ولا يدبر أحداً سوءاً لأخيه أليس هذا هو طريق الخلاص الذى نطق به «الله» على لسان جميع مرسله» (٣٥) لكنهم لم يروا فيه إلا رجلاً يريد أن يتفضل عليهم يحط من مكانتهم فى أعين الناس ليرتفع فوقهم. كانت حياته الخسنة الزاهدة فى متع الدنيا تحقيراً صامتاً ولكنه مبین لإسرافهم فى طلب الدنيا ولهاثمهم فى السباق المحموم لجمع المال .

ويئس «زكريا» من إصلاح الكهنة فاتجه الى الناس ينادى عليهم محاولاً إخراجهم من الظلمات التى يتوغلون فيها .

«يا بنى اسرائيل إمضوا الحق توبوا إلى بارئكم وأحسنوا أعمالكم ليرحم كل واحد منا أخاه» .

«لماذا يغدر أحداً بأخيه ويخفى له فى قلبه شراً» «لا تظلموا الأرملة واليتيم

والفقير ولا تصدوا الغريب لا تكونوا مثل أبائكم الذين طرحوا كتاب «الله» وراء ظهورهم وأصموا آذانهم حتى عميت قلوبهم وقست» (٣٦) .

«حتى إذا حلَّ عليهم غضب من ربهم أخذوا يصرخون ويبكون متضرعين فلم يسمع «الله» لدعائهم ولم يلتفت إلى مذلّتهم أو ينظر إلى دموعهم كما لم يسمعوا لدعائه ولم يجيبوا نداءه» (٣٧) .

«أحذروا أن يغضب «الله» عليكم فيعصف بكم ويذروكم كالغبار بين الأمم التي تحتقركم وتدوسكم بأقدامها وينالكم حينئذ خزي عظيم» .

«أيها السامعون لتتشدد أيديكم على كتاب «الله» في هذه الأيام العسيرة هذا هو طريق النجاة الذي أشار إليه وسار عليه كل الأنبياء منذ أسس هذا الهيكل أول مرة بل منذ خلق «الله» السماوات والأرض» .

«توبوا عن الكذب وأطرحوا اليمين الزور التي تلقى بكم إلى جهنم وأعلموا أن «الله» قادر على أن ينجيكم من هذه ومن كل كرب كما أنجاكم من قبل من فرعون في أيام أبائكم في مصر» (٣٨) .

لكن القطيع الهائج لم يستمع إلى الموعظة لأن القادة من الفريسيين والكهنة قالوا عن «زكريا» أنه نذير شؤم لا يتنبأ إلا بالسوء وتوعده بقطع لسانه الذي لا يكف عن السباب .

ورغم الصوم والذبائح والصلوات لم تتحسن الأحوال بل أخذت تزداد سوءاً حتى أن الكثيرين أخذوا يجأرون «أين إله العدل»

«بم نفعتنا الصلوات؟ وبماذا عاد علينا البكاء في الهيكل وحفظ الشريعة انظروا إلى «الرومان» المستكبرين إنهم لا يفعلون إلّا الشر ولكنهم يرتفعون، أداروا «الله» ظهورهم وينجحون في كل أعمالهم يجب علينا أن نباركهم ونقتدى بهم» .

أما «زكريا» فكلما أمعن النظر في المصير الرهيب الذي يتربص بقومه إن ظلوا على كفرهم وعنادهم أخذته الرحمة فصرخ فيهم «يا بنى اسرائيل» يقول «الله» لكم ارجعوا إلى أُرْجِعْ إليكم ولا تكونوا مثل آبائكم الذي ناداهم الأنبياء من قبلى فصموا وعموا» (٣٩) . يا بنى اسرائيل «اتركوا سبيل الشيطان وتوبوا إلى بارئكم وأطرحوا عنكم أعمالكم السيئة إن آبائكم لم يسمعوا فغضب «الله» عليهم غضباً شديداً فلا تكونوا مثلهم إسألوا أنفسكم أين ذهب أبائكم الذين لعنهم الله فجعل منهم القردة والخنازير ؟ لا تقولوا أن «الله» يرحمنا لأن بيته عندنا وفينا أنبياءه فلن يسمح بعذابنا ألم تكن الأنبياء فى آبائكم الذين لعنهم «الله» فمسخهم قردة .

«ألم يتحطم الهيكل الذى بناه سليمان وداسه الكفار بخيولهم وأحذيتهم ألم تكن فرائض «الله» ومواعظ الأنبياء مع آبائكم الذين أهلكهم «الله» بذنوبهم فأحذروا أن يفعل بكم كما فعل بأبائكم» .

«أتظنون أن الأنبياء يبقون فيكم إلى الأبد ؟

« لا تخدعوا أنفسكم وتستسلموا الى الأوهام »

«واحذروا فإن «الله» يوشك أن ينزعكم من رحمته» .

كان صوته يعلو ويرتجف مثل شمعة تتوهج فى ظلام دامس لكن الكهنة صرخوا «أخرسوا هذا المجنون الذى يجدف على شعب «الله» . «إنه كاذب قد حرمه «الله» من البركة. ليس له ذرية تحمل إسمه. لو كان صادقا لباركه «الله» وأعطاه الأبناء كما أعطى «إبراهيم» أبانا إنه كاذب ملعون وسوف ينساه الناس بعد حين» «إقطعوا لسانه الذى لا يتكلم الا بالشر» .

ذَبَحَتْ هذه الكلمات القاسية قلبه الطاهر البرئ فانسحب فى هدوء قبل أن يفتك به

الغوغاء الذين اشتعلت في قلوبهم حمية الجاهلية سار وحيدا وقد أشرق الى الأرض
وأثقلت قلبه الأحزان .

ماذا تفعل شمعة وحيدة مهما توجهت في ظلمات متراكمة يعلو بعضها فوق
بعض؟ ليس أمامها ألا أن تذوى وتذوب حتى تختفى .

(٤)

« النذر المحرر »

(رب إني نذرت لكّ ما فى بطنى محرراً)

«سورة آل عمران : ٣٥»

وأسمى «زكريا» غريباً فى قومه .

لم يكن «الكهنة» زملاؤه فى الهيكل يحبونه أو حتى يطيقون صحبته. صار أغلبهم «دنيويين» لا يهتمون إلا بجمع المال ويتنافسون فى استرضاء الملك والسادة الرومان طمعاً فى الذهب وخوفاً من السيف وأنحدرت كثرتهم إلى الجهل حتى بالنصوص فصاروا مثل «الأميين» لا يعلمون ماذا تقول الكتب وضاعت سدى كل محاولاته فى انتشالهم من الهاوية التى سقطوا فيها. حاول كثيراً أن يذكرهم أنهم قادة الشعب الذين يرثون «الأنبياء» وعلى عاتقهم ألقى «الله» قيادة الأمة فى طريق النجاة. لم يكونوا يكرهونه فقط بسبب لسانه الحاد الذى لا يكف عن إهانتهم خاصة أمام الشعب بل أيضاً بسبب حياته الخسنة التى كانت تدين إسرارهم حتى لو لم يتكلم. لم يكن فى نظرهم أكثر من «راعى غنم» ونجار فقير خشن الطباع تصعب معاشرته فهو غير قادر على الحياة فى مدينة متحضرة مثل «أورشاليم». كانت حياته تذكرهم بمعيشة «الآباء» أيام البداوة التى صاروا ينفرون منها وهم يتطلعون إلى «روما المقدسة» ويتذكرون «أورشاليم المقدسة» أيام «سليمان» الملك العظيم. لقد صار أكثر الكهنة «صدوقيين» لا يؤمنون بالآخرة وفشا المذهب «الصدوقى» فى أبناء الكهنة الذين هم كهنة المستقبل فلم يجد «زكريا» لنفسه مكاناً وسطهم فصار لا يذهب إلى الهيكل إلا فى أيام نوبة فرقته للخدمة .

ولم يكن شيوخ «الفريسيين» أقل كراهية له من الكهنة رغم أنهم كانوا يتخذون موقف المعارضة من السلطة الرومانية والملك ويدعون الى التمسك بتراث الشعب «المقدس» والمحافظة على تقاليد الآباء لكنهم - فى الحقيقة - لم يكونوا أقل «دنيوية» من «الصدوقيين» فكانوا رغم الإدعاءات العريضة الفارغة أكثر حرصاً على متاع الدنيا «التافه» إلا أن الوجهة عند الناس التى تشبع كبرياءهم كانت هى مركز الثقل فى قلوبهم فى مقابل «المال» الذى صار «المحراب» الذى تحوم حوله قلوب الكهنة .

أما «الآسيون» أصحاب الطب الروحاني الذين آمنوا بكتب «موسى» الخمسة ورفضوا كل الأنبياء الآخرين فإنهم بالطبع لم يؤمنوا «بزكريا» ولا بغيره ولم يحترموا فى الحقيقة شيئاً إلا كتبهم «وطقوسهم» التى تتحدث عن أمراض النفس وعلاجها . لقد آمنوا بخلود النفس البشرية ولكنهم كالصدوقيين رفضوا رفضاً قاطعاً البعث والقيامة .

لم يجد «زكريا» نفسه موضعاً وسط كل هذه الطوائف المتناحرة وحاول أن يبلغ «رسالته» إلى الشعب ولكن الشعب لم يؤمن به لأنه رأى أن جميع قادته يرفضون نبوة «زكريا» ويصمونهم بالكذب والخبل والسفاهة وكان فقره وضعفه وحرمانه من الذرية براهين «كافية» لإثبات أن «الله» الذى صار «إله اسرائيل ورب الجنود» غير راضٍ عنه لأنه لو كان راضياً عنه لمنحه الثراء الواسع والذرية الكبيرة وجعله ملكاً عظيماً مثل «داود» أو «سليمان» . انصرف الشعب عن «زكريا» خاصة وأن مواعظه كانت «ثقيلة» تتحدث عن الخطايا والتوبة ونبوءاته كانت مخيفة وكريهة لا تتحدث إلا عن الشر القادم .

وصار «زكريا» شيخاً طاعناً فى السن مسته يد «الزمن» فتركت على جسده الواهن أثارها أبيض شعره وضمير عوده وأصبح يمشى مستنداً على عصاته يتدبر آيات الله وقد تلالاً وجهه الشاحب بلحيته البيضاء وتاج المشيب يتوهج على رأسه .

رفضت امرأة «عمران» أن تسمى ما فى بطنها لأنها ظنت أنه ربما يكون نبياً «والله» هو الذى يسمى أنبياءه فانتظرت أن يُلهمها «الله» إسم ابنها المنتظر أو أن

يوحى لأحد مختاريه بالإسم ولكن طال انتظارها ولم تظفر بشئ وأخذت اللحظة المنتظرة تقترب ولم يعد يشغلها إلّا أن تنجو من التجربة العسيرة التى أوشكت أن تدخل فى غمارها فنذرت «الله» إن أنجاها وأبناها أن تجعله خادما «الله» فى «الهيكل» يقضى حياته فى عبادة «الله» لا تريد أن تنتفع منه بشئ فى معيشتها فقد وهبته «الله» خالصا قالت «رب أنس نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى أنك انت السميع العليم» (٤٠).

أضرع إليك «ألهى» أن تتكرم بقبول هديتى التى وهبتنى أنت أياها ، فاجعل مولودى عبداً خالصاً لك لا أريد منه نفعا دنيويا إنك أنت الذى تسمع الأصوات كلها تصغى إلى همس من يدعوك بل تسمع السر الذى لم يخرج من القلوب وتعلم كل شئ فلا يخفى عليك شئ فى الأرض ولا فى السماء .

وأيقنت أن «الله» قد استمع لدعائها وأجابه لأن حملها فى مثل هذا «الظرف» آيه من «الله» ولا بد لآية «الله» أن تكتمل فانتظرت أن تتحقق إجابة «الله» ولم يطل انتظارها لأن اللحظة قد حانت فأخذت قبضة المخاض تعتصرها وضربات تلهب ظهرها بسيطا الألم.

بين موجات الألم المتدافعة تعالت صرخات الإستغاثة تنادى رحمة الرحمن الرحيم وأصوات التشجيع تحت الوالدة أن تصبر وأن تحتسب حتى يأتى فرج «الله» ويتم نعمته ثم تعالت صيحات التسبيح والتحميد والتهليل لما أتم المولود خروجه فتلقفته الأيدي الملتفة فقطعت الحبل الذى يربطه بأمه ثم لفته فى ملابس المدة له وأسرعت امرأة «عمران» تنظر ماذا ولدت فصدمها أنها ولدت أنثى لقد اشتبهت أن يكون مولودها ذكراً تمنحه للهيكل هدية خالصة «الله» ولكنها جاءت أنثى وخافت أن يكون «الله» قد رفض هديتها ولم يقبل دعاها .

«قالت رب انس وضعتها أنثى وليس الذكر» - (٤١) الذى كنت أريده -
«كالأنثى» (٤١) التى جاءت لأن الذكر هو المتاح له أن يمكث فى الهيكل ليكون كاهنا
أوأن يصير نبيا مرسلأ إن تفضل «الله» عليه بالنبوة لأن «الله» لا يرسل إلا رجلاً
فليس لأنثى أن تطمح إلى مقام النبوة أو الرسالة .

كان ذلك العتاب سحابة حزن شابت صفاء فرحها بعطية «الله» لكنها سرعان ما
ولت إذ ألهم «الله» قلبها «الرضى» فاستعادت سماء قلبها صفاءها فاستغفرت ربها
وأدركت أن عليها أن تختار لابنتها الجميلة إسمأ وأن تدعو «الله» لها وهى تبدأ إبتلائها
فاختارت لها «مريم» إسمأ استبشاراً بأخت «موسى بن عمران» الكبرى وأدركت أن
أكبر نعمة يمن بها «الله» على عبده هى أن يحميه من الشيطان عدوه الذى قرر أن
يقضى يوم الدنيا كله فى حرب مع «الله» تدور فى «الانسان» قالت **«وإنس سميتها**
مريم وإنس أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» (٤١).

اندهشت النسوة اللاتى تلقين «مريم» لأنها لم تصرخ باكية مثل بقية الأطفال
عندما يخرجون من ظلمة الرحم وأصابهن الفزع للحظات إذ ظنن أنها ربما تكون ميتة
فأخذن يحدقن فيها البصر ويتحسسن جسدها البض بأيديهن ويحاولن أن يتسمعن
دقات قلبها حتى تيقن أنها حية وأنها على خير ما يرام .

أخذ بقلوبهن جمالها الهادئ ونظرة الرضى التى ترتسم على وجهها المشرق
البديع أما أمها فقد عرفت من صمتها أن «الله» قد أجاب دعاها فوقى إبنيتها من نزغة
الشيطان الذى فر مذعوراً من جنود «الله» الملائكة الذين أحاطوا «بمريم» وفشل فى
اختراق الحجاب الذى أحاطها «الله» به كما فر مذعوراً تلاحقه حجارة السماء
المتلهبة يوم طرده «الله» من رحمته ملعونا إلى الأرض بعد أن رفض السجود
للإنسان «أدم» أبو البشر .

إندفعت امرأة «زكريا» فاحتضنت «مريم» بقوة. ضمتها إلى صدرها بشوق «الأم» التي طال انتظارها للأطفال. لقد تحركت الرحمة في قلب امرأة «زكريا» فضاق بفيض الحنان الذي نزل فيه ففاضت دموعها وسألت «الله» بكل كيائها في صمت ودون أن ينطق لسانها فلم تسمع واحدة من النسوة دعاء امرأة «زكريا» لربها أن يهبها طفلاً جميلاً مثل هذه «الدرة النادرة» التي ترقد في سلام في حضن أمها وأرسلت إلى «زكريا» أحد الأطفال ليبشره بقدوم «مريم» ويدعوه ليلباركها .

فلما جاءه البشير أسرع إلى بيت «عمران» وهو يتوكأ على عصاه وإن رآته النسوة يقترب تذكرن «عمران» صاحبه الذي رحل وأجهشن بالبكاء. تلقى «زكريا» بيدين مرتعشتين «مريم» فقربها من وجهه وطبع على وجهها المشرق قبلة حنونة وباركها ودعا لها وقال بصوت خنقته الدموع «رحمة الله عليك يا عمران».

لقد مست «مريم» بجمال وجهها ينبوع الرحمة الكامن في قلب الأب الذي حرم من الأطفال فتدفق الحنان ودعا «زكريا» ربه قائلاً «رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين». (٤٢)

«آلهى لا تتركنى أقضي شيخوختى غريباً في قومي بلا أنيس يبدد وحشتى فهبنى ولدا يرثنى». ولكنه لما كان يعاين وهو النبی العارف «بالله» أن «الله» هو الوارث الذي يرث جميع خلقه فكان سؤاله «وارثاً» يرثه فيه شبهة تفضيل ابنه المطلوب على «الله» الموجود فأسرع ينفي هذه الشبهة التي يحملها دعاءه بالثناء على «الله» بأنه خير الوارثين. «آلهى ليس في طلبى ابناً يرثى إنكار لكونك أنت الوارث الذي يؤول إليه كياني وكيان كل الخلق وهذا هو أفضل مصير لى ولجميع الخلق فأنا أقر بأنك أفضل من يؤول إليه كيان الخلق جميعاً ولكنني أطلب ابناً يحمل عنى النبوة والرسالة ليبلغ رسالتك الى بنى إسرائيل ويحفظ شريعتك فيهم فيدوم مجدك بينهم». لقد أراد أن يمحو

الشبهات التى تعلق بكل دعاء لأن الدعاء يعنى طلب تغيير حكم «الله» القائم وفيه تقديم بين يدى «الله» والأولى انتظار صدور حكمه وفيه إدعاء الإختيار مع العلم بسبق اختيار «الله» لأن الداعى قد يسأل شيئاً لن يُظهره «الله» .

أراد أن يمحو كل هذه الشبهات بالثناء على «الله» واصفاً أياه بأنه خير الوارثين قاصداً أنه لا يريد بديلاً عن «الله» الوارث ولا يختار مع علمه بسبق اختيار «الله» مقراً بأن «الله» وحده هو الذى يريد وأنه وحده الذى يفعل ما يريده فالإرادة واحدة والفعل فى الكون واحد وكلاهما «الله» .

عندما قالت امرأة «عمران» «رب إنس وضعتها أنثى» قال «الله» لنبيه الأُمى المائل بين يديه يتلقى الخطاب «والله أعلم بما وضعت» مشيراً الى أنه سبحانه وتعالى أكثر علماً من امرأة «عمران» ومن كل الذين شهدوا الولادة بالذى وضعت امرأة «عمران» لأنهم لم يستطيعوا بعيونهم البشرية أن يروا «الذكر» الذى كانت تحتويه الانثى التى وُلِدَتْ فقد أحتجب «الذكر» الكامن فى جسدها والذى سوف يظهر حينما يكتسب «روحاً» ليصير الرجل الذى عُرفَ فى التاريخ باسم «المسيح» والذى سماه «الله» «عيسى بن مريم» .

كان «عيسى» حين وُلِدَتْ «مريم» كلمة من «الله» مستورة فى رحمها لم تستطع امرأة «عمران» التى وضعت «مريم» أن تراه وهل كان فى وسع أحد من الخلق أن يرى البشرية كلها وهى مجموعة فى ظهر «آدم» ابو البشر عندما أخرجتهم يد «الله» من ظهره وأنبتتهم من الأرض نباتاً ثم تلقاهم كلمات من «الله» فى ظهره حيث اختبأوا فى صلبه عندما أخرجه «الله» من الجنة الى الأرض ليبدأ حياة الابتلاء .

وهل كان فى وسع أحد من الخلق أن يرى البشرية وهى تنتقل الى صلب «نوح» والذين معه على السفينة حين هطلت الأمطار وأندلعت السيول فأغرقت من على الأرض .

وهل كان فى وسع أحد من الخلق أن يرى الأمة الكبيرة التى قبعت فى ظهر
«إبراهيم» خليل «الله» وأبو الأنبياء .

وهل كان فى وسع أحد أن يرى «مريم» نفسها وهى مستورة فى ظهر أبيها
الكاهن «عمران». ولم تنزل البشرية تنتقل فى أصلاب الرجال من جيل الى جيل حتى
يرث «الله» الأرض ومن عليها دون أن يعرف أحد من الرجال ما الذى يحمله فى صلبه
فسبحان الذى أحاط بكل شئ علما .

«إن الله اصطفى آدم ونوحا و آل إبراهيم و آل عمران على
العالمين ذرية بعضها من بعض .. والله سميع عليم» (٤٣). «إذ قالت
امراة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطن محرراً فتقبل منى إنك
أنت السميع العليم» .

قال «الله» فى سورة الأنعام «ونوحا هدينا من قبل» «ومن ذريته
داود وسليمان وإيوب ويوسف وموسى وهارون» وكذلك نجزى
المحسنين .

«وزكريا يحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين» (٤٤).

فهذا تصريح بأن «عيسى» من ذرية «نوح» «إذن فقد حُمِلَ «عيسى» فى صلب
«نوح» مع من حمل من البشر ولننظر الآن إلى الآية الثالثة والثلاثين من سورة آل
عمران لئرى فيها شجرة نسب «عيسى» فقد خرج «عيسى» مع غيره من البشر من
ظهر «آدم» الذى حمله معه فى صلبه مع كل البشر وهو ينزل إلى أرض الدنيا للإبتلاء
ومن «آدم» تنقل «عيسى» فى أصلاب الرجال إلى «نوح» ومن أبناء «نوح» سافر الى
«إبراهيم» وظل «ابن الانسان» يتنقل حتى وصل الى «عمران» ومن صلب «عمران» ألقى

بمرساة في رحم أمه «مريم ابنة عمران» وظل هناك ينتظر «رسول الله» ليأخذ منه
«روحاً» يخرج به إلى نور الشهود .

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم .. خلقه من تراب .. ثم
قال له كن فيكون». (٤٥)

(٥)

« النِّبَاتُ الْحَسَنُ »

«فَتَقْبِلُهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنٍ وَأَنْبِتُهَا نَبَاتًا حَسَنًا»

«سورة آل عمران : ٣٧»

أُسِفَتْ أُمْرَأَةٌ «عمران» على أنها وضعت «أنثى» بدلاً من «الذكر» الذي كانت تشتت أن تحمله وصَبَّحَ «العتاب» نبرة صوتها وإن لم تنطق به وهى تناجى ربها متوهمة أنه لم يجب دعاءها ولم يتم لها نعمته ثم خالط «التردد» عزمها على الوفاء بنذرهما لما أحست أنها قد لا تستطيع أن تتحمل فراق ثمرة رحمها التى احترق قلبها عطشا إلى رؤيتها إذ صارت «مريم» الرضيعة هى الشمس التى تدفى نهارها البارد والقمر الذى ينير ظلمة ليلا الطويل ويبدد وحشته «وقدَّرت» أن الأنثى لا تستطيع أن تخدم «الله» كما يمكن «للذكر» أن يفعل حتى أوشكت أن تتراجع عن نذرهما لكن «الله» الذى نظر الى إخلاص قلبها حين نذرت إليه ما فى بطنها وهى بين موجات الألم قبل الهدية التى أطاها هو لواهبته راضياً عن التى نذرت وعن المننورة .

لقد تغاضى «الكريم» عن الشوائب التى علقت «بالنذر» وكافأه بأفضل منه فمنح الناذرة والمننورة أفضل ما يعطى عباده وهبهما «رضاء» الذى يتعالى على الوصف .

وأنبت «مريم» فى بستان رحمته بماء رعايته فتفتحت عن وردة بيضاء لا نظير لها رزقها الصحة فلم تمرض أبداً ولم تعان مما يعانى منه الأطفال من نوبات المرض وفاض عليها بالطمأنينة فكانت دوماً وديعة هادئة ترقد على فراشها كوردة بديعة تسبح فوق الماء لم يسمعها أحد تبكى أو تصرخ بل كانت تمكث صامتة تنظر تجاه أمها كأنها تناديهما بنداء خفى فتعطيها أمها ثديها حتى اذا شبعت أخذت تلهو بتحريك يديها

وقدميها وهى تغنى بصوت رقيق ينساب عذبا من بين شففتيها الرقيقتين كأنه اصدااء غناء بعيد ينبعث من بساتين الجنة أو كأنها كانت تشكر ربها بترديد ما تسمعه من تسبيح الملائكة.

ألقى عليها محبته فأحبها أهل السماء وأهل الأرض ثم وضع لها القبول فى القلوب فأحبها كل من نظرها كان وجهها البديع يضحك لكل من ينظر اليها وهى ترنو ببصرها نحو السماء كأنها تشير بعينيها إلى ينبوع فرحها .

كانت قطرة من رحمة الرحمن الرحيم نزلت لتبدد بنورها ظلمة تلك الأيام الموحشة.

وفى صباح يوم مشرق ولكنه حزين رحلت امرأة «عمران» لم تدرك النبتة الصغيرة سر النحيب الذى تعالى صوته فى صبيحة ذلك اليوم ولم تفهم لماذا تجمعت النسوة وقد أكتست الوجوه بالحزن وتغطت الأجساد بملابس الحداد وفاضت الدموع من العيون لقد لبس الوجه البرئ رداء الحزن هو الآخر ولكنه لم يفقد هدوه ولا جماله كانت الدهشة الحائرة تتلألأ على صفحة وجهها الناعم وعيناها الواسعتان تبحثان فى لهفة صامتة عن وجه أمها الحنون التى توارت عن بصرها ولم يعرف قلبها الصغير حينئذ إجابة عن السؤال الذى ظل يتردد فى صمت «متى تعود ؟»

لقد أصبحت فى ذلك اليوم يتيمة الأبوين وكان من بركاتها وبركات منْ تحمله دون أن تدري فى رحمها أن أعادت الى القلوب التى أظلمت من كثرة الخطايا فى ذلك العصر المظلم أعادت إليها محبة «اليتيم» فتنافس ذوو قرباها على كفالتها كل منهم يريد أن ينال شرف كفالتها ليظفر بثواب إكرام اليتيم. لقد انتعشت القلوب التى أشرفت على الهلاك بالنور الذى تلقته من ابنة «عمران» وأبناها المستور فى رداء جسدها .

لم يكن لها أعمام ولا أخوال وكانت وحيدة أبويها اللذين رحلا فلم يكن لواحد من

الرجال الذين طلبوا شرف كفالتها فضل على غيره يمنحه حق كفالتها دون جدال فاختصموا . كل يريد لها لنفسه وجادل «زكريا» القوم عنها جدالاً شديداً فذكر أنه زوج خالتها والخالة بمثابة الأم فهو بمثابة أبيها وأن أباه «رحمة الله عليه» كان صديقه الحميم حتى أنه كان يعده شقيقه وأنه كان أول رجل يعلم بنبأ حملها اذ أسرع «عمران» اليه ينف البشري وأنه قد حرّم من الأطفال فسوف تكون «مريم» ابنة له ولأمراته بل أنها سوف تكون ابنتهما الوحيدة فلن تنشأ مشاكل بينها وبين غيرها من الأبناء وسوف يجدان الوقت الكافي لرعايتها فليس عندهما غيرها وأنهم لا يستطيعون أن ينسبوا إليه أو الى أمراته خطيئة أو عيب يقدر في أهليتهما لكفالة ابنة الكاهن العظيم «عمران» .

اندفع «زكريا» يسوق الحجج التي تعطيه الحق في كفاله «مريم» وكان جداله شديداً ودفاعه عن حقه مقنناً وإلحاحه يعبر عن رغبة صادقة وجارفة في العناية بها ولم يقل لهم أن الذى أمسك بقلوب العباد بين أصابعه يقلبها كيفما شاء قد سكب حبها فى قلبه وربط بينهما برباط أبدي لا ينقطع . إلا أن القوم لم يسلّموا له وقالوا «يحكم الله بيننا» وأجروا كما اعتادوا القرعة فأخذ كل واحد من الذين يطلبون كفالة «مريم» قلماً من الخشب وحفر عليه اسمه ثم ألقوا الأقلام فى الماء «وعاء الروح» وأنظروا بعيون تحرق فى سطح الماء القلم الذى يرتفع فرفعت يد الماء قلم «زكريا» وأغرقت أقلام الآخرين وكرروا التجربة ثلاث مرات كما اعتادوا ليتيقنوا إرادة «الله» وفى كل مرة يسبح اسم «زكريا» وتغرق الأسماء الأخرى فانحنى الجميع لحكم «الله» وسلموا «لزكريا» بحقه فى «مريم» فهرول إليها يضمها الى صدره بحنان أب طال اشتياقه إلى ابنته الوحيدة اليتيمة ويقرب وجهها المشرق الى وجهه فتفيض الدموع من عينيه وهو يتذكر «عمران» أباه الذى سافر فى رحلة الأبد ويتذكر دون أن يفهم السبب «مشرق الوجه» الذى رأى فى الرؤيا .

وناولها إلى أمراته فتلقته كجوهرة ثمينة أُلقيت عليها من السماء وبأصابع مرتعشة وعينين محدقتين تفيض منهما الدموع راحت تتفحص الوجه البديع كأنها تبحث في ملامحه الرائعة عن وجه «حنة» أختها التي غابت ووارى جسدها التراب وحملت «هدية السماء» وهي تضمها إلى صدرها وتقبلها من أن لآخر وهي تشم في رائحتها العطرة نسيم الجنة أما الوجه البديع فقد تلاألأ بدهشة تتساعل عن سر هذا البكاء .

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون
أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون» (٤٦).

«وكفلا زكريا» (٤٧).

دخلت الوردة البيضاء بيت «زكريا» حيث أصبح بستانها في قلبه كان ينفق وقتا طويلا يتأمل جمال «الله» الذي يتبدى في درته اليتيمة «مريم ابنة عمران» ويمعن النظر في رحمة «الله» التي ربطت بين أمراته وبنات شقيقته ويراقب «مشرقة الوجه» وهي تلهو في رقة وهي تحبو تريد القيام على ساقبها أما صوتها الجميل وهي تحاول النطق عندما بدأت تتعلم الكلام فقد خلب لبه وإذ بدأت تمشي صار هو عصاتها التي تتوكأ عليها وعندما تريد أن تلعب يصير هو «الجميل» الذي تهوى ركوبه وأمراته واقفة بالقرب منهما تضحك من الشيخ الكبير الذي استخفه الطرب .

ثم حان أوان الوفاء بالنذر فأخذ «زكريا» يعلمها القراءة والكتابة ويأخذها معه إلى الهيكل يريد إعدادها لتكون المنذورة بحق إلى «الله» فأدهشه أن الطفلة الصغيرة تحب الذهاب إلى الهيكل وتحب شهود الطقوس والمواظ، يراقبها من بعيد بعين «الخبير» فيراها تقف في سكون وقد اتسعت عيناها البديعتان تصغى إلى الكلمات التي تُلْقَى وهي تحتفظ بهدوئها وقد بدا على وجهها البرى آيات التفكير والتدبر كانت الكلمات تجذبها فتبدو مستغرقة بكيانها كله في ذلك البحر الواسع العميق الذي يلوح لها أنه

يكن خلف تلك الأصوات التي تنبعث في الهيكل فشملتها الرغبة في اقتحام لجة ذلك البحر ولم تعرف كيف تلقى بنفسها فيه ولا كيف تسبح حتى تنجو من الغرق لم تكن تعرف كيف تبدأ ولا كيف تسير في ذلك الطريق الذي كان «يومض» لها في بعض اللحظات ثم يختفى بسرعة كأنه يغيب في ظلمة الليل قبل أن تستطيع أن تستبين علاماته التي تتوهج فجأة في نور «البرق» ثم تظلم عليها لأن «البرق» سرعان ما يزول .

صارت في حاجة إلى من يأخذ بيدها ويهديها الطريق و«زكريا» النبي يرقبها من قريب وبعين «الخبير» رأى أنها قد تهيأت فاقبل عليها يعلمها «التوراة» وكتب الأنبياء وأصول «الشريعة» ومعالِم الطريق فأدهشه أن الطفلة الصغيرة تبدو قدرة عجيبة على حفظ النصوص في زمن وجيز بينما الكهنة رجال «الهيكل» لا يكادون يحفظون شيئا مما قاله الأنبياء ولكن الذي أذهله بحق هو فهمها العميق للنصوص وقدرتها على أن تربط بين الأشياء لتستخرج الحقائق المستورة في وقائع الألفاظ في مهارة غواص ماهر عرف السباحة والغوص منذ زمن بعيد .

أما الذي أذهلها هي فهو أن «التوراة» التي تلقته من فم «زكريا» تختلف تماما عن المواعظ التي يلقيها الكهنة والكتبة في «الهيكل» وبدأت تكتشف في دهشة وفزع أن «التوراة» التي تلقته من فم «زكريا» ليست هي «التوراة» المحفوظة في «المحراب» وأن الناس لا يعملون «كلام الله» ولا يعلمون به وأن «الكهنة» وشيوخ الفريسيين يتسابقون على متع الحياة الدنيا ولا يلقون بالألإ إلى الآخرة بل إن الكهنة أنفسهم صار أكثرهم لا يؤمنون بالآخرة وأزدادت حيرتها لما عاينت أن «الكهنة» والشيوخ يكذبون «زكريا» ولا يحترمونه وأنهم في وقوفهم ضده كما يبدو من ظاهر سلوكهم معه لا تساورهم الظنون ولا تخالجهم الشكوك في صحة موقفهم منه و«زكريا» نفسه على الجانب الآخر عاجز أمامهم لا يستطيع أن يقنعهم بصدقه ولا أن يدفعهم للإيمان به فأيقنت أن معرفة الحقيقة أبعد من أن تصل إليها الكلمات أو يتوسل إليها بالحجج والدلائل. أدركت أن

عليها أنْ تكتشف الحقيقة بنفسها . فأخذت المنذورة «الله» وقد صارت صبية تشق الطريق الى «الحقيقة» بمفردها . ذلك الطريق الذى أبانه لها «زكريا» ووضع لها معالمه لكن كان عليها أن تسير بمفردها إذ أيقنت أن «الحقيقة» لا تكشف نفسها إلا للذين يتجربون لمعرفة . «للغرباء» الذين ينزلون عن صخب الأسواق ويزهدون فى ضجيج الدنيا وبهجتها الزائلة إلى هؤلاء يكشف «الله» عن نفسه .

كانت تستيقظ فى السحر لتجد «زكريا» قد قام من نومه قبلها وجلس «يذكر الله» أو تجده يصلى قائما أو راکعا أو ساجدا فتقوم لتغتسل وتقرب منه وتجلس فى هدوء تراقبه وهو منشغل عنها «بصلاته» حتى إذا التفت إليها فى غبشة السحر بوجه يتلأأ بنور «الذكر» دعاها للإقتراب منه وأذن لها بمشاركته فى الصلاة ثم يجلس يعلمها ويسألها حتى إذا أشرقت الشمس واستبانَت الأشياء فى نورها قاما لتناول طعام الإفطار ثم يأخذها «زكريا» الى الهيكل فيدخلها المحراب ثم يتركها هناك تقضى نهارها منقطعة الى «الله» فى الصلاة والذكر . فإذا مالت الشمس الى الغروب أسرع الى «الهيكل» ليعيدها الى البيت قبل أن يهبط الليل أما فى أيام نوبة فرقه من الكهنة فإنه كان يقضى النهار كله فى الهيكل ليقوم مع أضاء فرقه بالخدمة الدينية .

فهت «مريم» أن الانبياء يبينون «الطريق» الإنسان فهم المصابيح التى تضيء الطريق وتمهده للسير ولكن «الانسان» عليه أن يسير فيه بمفرده إذ فى الوحدة وحدها يستطيع الانسان ان يتعرف على «الله» . إن الإنسان لا يقف بين يدي «الله» إلا بمفرده وسوف يحاسبه «الله» على عمله فرداً ليس معه من الخلق أحد . فأخذت من النبى «زكريا» كل ما يمكنه أن يعطيها ثم كان عليها أن تخوض الطريق بمفردها وقد تزودت بالزاد الذى يكفيها فى السفر .

تحذف تخرج من البيت بمفردها فى الصباح الباكر لتقوم النهار كله فى «المحراب» حتى إذا أذن الليل بالقدوم وبدأت الأشياء تغرق فى الظلمة الآتية أسرع

الخطى الى بيت «زكريا» فتدلف إلى غرفتها لتستريح وفي السحر يناديها «الله» عندما يرد اليها «روحها» فتستيقظ وتغتسل وتتهيأ للدخول في الصلاة، وعاد «زكريا» يراقبها من بعيد وعين «الخبير البصير» تقول له أن وراء هذه الصبية مشرقة الوجه سر عظيم يوشك أن يفصح عن نفسه .

صار «المحراب» تلك الغرفة المغلقة التي تلفها الأسرار هو بيت «مريم» الحقيقي الذي تجد فيه نفسها .

في هذه الغرفة التي تنفصل عن صحن «الهيكل» بالجدران والنوافذ المغلقة كان يسود «الصمت» حيث لا يدخلها إلا الكاهن الذي وقع عليه الإختيار ليقوم بالتبخير ويكون صاحب القربان المقدم «الله» في هذا اليوم ويكون الإمام في الصلاة، في هذه الغرفة كانت ترقد بقايا كلام «الله» محبوسة في الصفحات التي كتبها «الأخبار» و«الكهنة» بأيديهم حيث أحاطوا كلمات «الله» بأوهامهم وألبسوا الحق رداء الباطل فأخفوه في هذا المحراب الذي لم يزل يحتفظ ببقية مجد بنى اسرائيل والذي كان اسمه «قدس الأقداس» لإحتوائه على كلمات «الله» قبل تدنيسها .

كانت «مريم» تقطع نهارها في ذكر «الله» في هذا المكان المحرم الذي يحظر دخوله إلا للكهنة الذين يجب عليهم أن يتطهروا قبل أن يتجاوزوا عتبة بابه. كانت «مريم» تنهي لتلقى الحقيقة وكان بوسعها أن تتذكر كلام «الله» الذي استمع إليه الخلق جميعا عندما أخذ «الله» العهد على ذرية «آدم» وأن يستعيد قلبها الذي أناره ذكر «الله» قصص الأنبياء الذين رحلوا .

في هذا الصمت الطاهر الذي تختفي فيه رسوم الأشياء بسحب البخور المتصاعدة وهي تنتشر في المحراب الرائحة الزكية كان في وسع «مريم» أن تتذكر نعيم الجنة التي كنا فيها قبل أن نخرج مع «آدم» إلى الابتلاء على أرض الدنيا بغواية أبلis اللعين .

وكانت تصوم صيام «داود»، كثيراً ما خرجت من البيت دون أن تأكل شيئاً أو تحمل معها بعض الطعام ولم يكن «زكريا» و أمراًته قادرين من كثرة صيامها على معرفة أيام صومها .

لم تكن تمكث في البيت طيلة النهار إلا في أيام «الحيض» حيث كانت تلازم غرفتها لا تخرج منها إلا نادراً، وكان كلامها قليلاً جداً فأستبد القلق عليها بخالتها لقلة طعامها وكلامها وكثرة صومها وطول غيابها في المحراب، لذلك كثيراً ما ألحت على «زكريا» أن يذهب ليطمئن عليها ويحمل لها الطعام فكان «زكريا» يدخل عليها المحراب ليجدها مستغرقة في الصلاة وكثيراً ما كان يجد عندها طعاماً فيظن أن أحد «الكهنة» قد تحنن عليها لإنقطاعها في المحراب فأعطاه شيئاً لتأكله لتستعين به على عبادة «ربها» أو أن بعض الأثرياء الذين يتقربون «لله» بتقديم الصدقات والتبرعات إلى الهيكل قد أعطوها شيئاً، وكثيراً ما كان يكتشف عندما يعود إليها في المساء ليصحبها إلى البيت أنها لم تمس الطعام الذي حمله إليها في الصباح فتعذر إليه وتقول «سوف أكل عندما نذهب إلى البيت» أو يراها تفرق الطعام الذي حمله إليها على الفقراء الذين جلسوا أمام أبواب الهيكل يسألون الناس الصدقة .

ولم يعد «زكريا» يسألها عن طعامها موقناً أنها في يد «الله» الذي لن يضيعها . يقف يراقبها من بعيد وهي منقطعة للصلاة في المحراب حتى إذا فرغت تقدم إليها ليصحبها في طريق العودة في بعض الأحيان كان يسامرها بسؤالها عما قرأت اليوم في صلاتها ويتجاذب معها أطراف الحديث لكنه في أغلب الأحيان كان يحترم «صمتها» الوقور الذي كان يشهد أنها تحب أن تبقى فيه .

كانت تنمو ويد «الزمن» تزين الطفلة المنذورة «لله» بآيات الأنوثة التي أفصحت عن أن «مريم» قد أوْشكت أن تصبح امرأة ناضجة .

وصار «زكريا» أشد قلقاً عليها إذ كان يعلم أكثر من غيره كيف أوْشك بنو

اسرائيل أن يصيروا قطيعا من الذئاب المفترسة فأخذ يحرص على أن يصحبها في ذهابها وعودتها من الهيكل وكثيرا ما كان يذهب إليها في أثناء النهار ليطل عليها ويطمئن يدلف الى المحراب في هدوء وينظر إليها وهي مستغرقة في صلاتها . يلمح بعض ثمار الفاكهة ملقاة أمامها بالقرب من موضع سجودها فيظن أنها بعض الباكورات التي يتقدم بها الناس الى الهيكل أو أنها هدية من بعض الذين يريدون التقرب الى «الله» بالتودد الى أوليائه الذين انقطعوا لعبادته وهكذا «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا»^(٤٨) ووجدتها مطمئنة في محرابها فيسكن قلبه ويظل ينتظرها حتى تفرغ فيعود بها الى بيته .

وفى يوم من أيام الشتاء يشتد البرد وزادت حركة الهواء وتجمعت السحب الداكنة فى السماء وأوحى الجو بقرب نزول المطر فأشفق «زكريا» وامرأته على «مريم» التي خرجت منذ الصباح الباكر دون أن تتناول طعاما وألحت عليه امرأته أن يذهب الى الهيكل ومعه جلابب ثقيل ليضعه على جسد «مريم» ويأتى بها قبل أن يهطل الماء .

فأسرع «زكريا» يتوكأ على عصاه ومعه الجلابب يحث الخطى فى الطريق الذى خلا من الناس اذ أسرع الجميع الى المنازل طلبا للدفء وهروبا من المطر الوشيك ثم دلف الى المحراب حيث وقف مذهولا مما يراه .

كان الوقت هو الأصيل والغمام المتراكم يغطى وجه السماء ويحجب الشمس التى كانت تميل الى الغروب ويستر الأشياء فى غلالة رمادية والهيكل كله فارغ صامت ليس فيه أحد و«مريم» تجلس وديعة هادئة فى محرابها تتناول فى بساطة بعض حبات العنب من قطف موضوع أمامها قرب مكان سجودها . وقد أضاء وجهها بنور غريب حتى بدت «لزكريا» القائم عند باب المحراب يمعن النظر إليها كأنها البدر يتلألأ فى سماء مظلمة رغم أن الليل لم يكن قد جاء وكان ذلك اليوم فى الشتاء فلم يكن الوقت هو «أوان العنب» فمن أين أتاه هذا القطف وقد ولى الصيف . كان الأمر أكبر من كل تأويل

ولا يحتمل الصمت فصرخ «زكريا» منبها متحيرا «قال يا مريم انى لك هذا» (٤٩) وأشار بيده الى العنب وكانت أجابتها البسيطة أعجب إذ «قالت هو هن عند الله» (٥٠) هكذا نطقت فى براءة .

نعم يا أبنة «عمران» أحتاج رب السموات والأرض القادر على كل شئ الى التراب أو الى مرور الوقت أو حرارة شمس الصيف لكى يعطى العنب إلى سليلة «هارون» البتول التى انقطعت فى المحراب لتصلى إليه إنْ اشتهدت أنْ تأكل العنب فى الشتاء ؟

أتقف الأماكن أو الأزمان حجر عثرة أمام أرادة «الله» إذا اتجهت لتهب الرحمة لمن اصطفى من عباده ؟

أليس «الله» هو الواحد القهار ؟؟

أليست «الجنة» التى فيها رحمته قائمة على الدوام فمن ذا الذى يمنع عبدا صادقا من نيل ثمارها إذا أراد «الله» أنْ تفتح له أبوابها ؟؟

يا بنت «عمران» بأى عمل نلت هذه المنزلة ؟؟

وعلمت «مريم» بما يدور فى قلب «زكريا» فأجابت على سؤاله الذى لم ينطق به إذ قالت «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» . (٥١)

إن «الله» لا يسأل نفسه ولا يسأل غيره أى شئ صنعه عبدي يستحق به أن أرزقه؟ لأن رزق «الله» لعباده ليس أجراً مُستحقاً لهم عند «الله» مقابل عمل قاموا به لأن أعمال العباد بل العباد أنفسهم ليسوا إلا بعض ما صنعت يد «الله» فكيف يمكن توهم أجر مستحق للعبد عند «الله» ؟ هذه الثمار ليست أجراً ولم تنل بعمل بل هى فيض من رحمة الرحمن الرحيم إن العبد لا يستطيع أن يفعل شيئاً «يستحدث» به

رحمة «الله» ليس ثمة سبب يجعل «الله» يرحم عبده لأن الرحمة صفة «الله» تنبع من ذاته التي تنزهت عن الوصف وتعالى على الكشف .

فإن أطاع العبد ربه فإن هذه الطاعة ليست إلا محض فضل فاض «الله» به لأن «الله» هو الذى خلق عبده إذ أعطاه كيانه الذى به ظهر بعد أن كان نسيا منسيا ثم هداه فبين له الطريق وأعاناه على السير فبأى كبرياء باطلة ووقاحة لا نظير لها يطلب العبد من «الله» أجراً على عمل قام «الله» به ؟ ! .

وإذا كان «الله» قد سمى عطاءه «أجراً» ووصفه بأنه «جزاء» لأعمالنا فإن ذلك لم يكن إلا من محض جوده الذى جعله يعطينا الوجود ويسميه وجودنا ويمنحنا المشيئة ويصفها بأنها مشيئتنا ويقوم بالعمل وينسبه إلينا فأوجب لنا من فيض كرمه وبمحض إرادته «رحمة» تجلت لنا فى صورة طاعته ونسبها إلينا وفى الحقيقة لاعمل لنا لأننا لسنا إلا بعض أعماله إننا ظل تجليه الدائم الذى لا ينقطع .

فى هذا المقام الذى وقف فيه «زكريا» النبى الذى سمع بأذنيه كلام «الله» الشيخ الطاعن فى السن الذى قضى عمره المديد فى طاعه «الله» وقف يتعلم من فتاة صغير من «أورشاليم» انقطعت فى المحراب للصلاة فى هذا المقام أحس «زكريا» بقرب «روح الله» فتجدد الأمل فى قلبه فما هى فتاة صغيرة تبث النور من بين شفيتها الرقيقتين وربما لم تعلم هى نفسها ما أحتوته كلماتها .

«هنالك دعا زكويًا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية

طيبة إنك سميع الدعاء» . (٥٢)

(٦)

« النَّدَاءُ »

دكهيصص - ذكر رحمة ربك عبده زكريا اذ نادى ربه نداء خفيا

«سورة مريم : ١ - ٢»

بدأت تتناثر أخبار «المعجزات» التي يصنعها «الله» «لمريم» على الألسنة في «أورشاليم» تتناثر النجوم في سماء مظلمة فأخذت الألسن تلوك أنباء انقطاعها في المحراب وأصبح الشعب الجاهل يتحدث عن الثمار والأشياء الثمينة التي تلقى عليها من السماء وهي تصلى في «قدس الأقداس» وراح القوم يتذكرون «المن والسلوى» اللذين كان «الله» يلقيهما على شعبه في الصحراء بعد الفرار من «فرعون».

شوه الجهل «آية الله» وأحسست «مريم» أنها وعبادتها قد صارت موضعاً لتطفل السفهاء لاحظت أن القوم بدأوا يلاحظونها في سيرها ذهاباً ورجوعاً وأبدى الكثير من الكهنة والشيوخ الرغبة في الحديث معها فأثرت بعد صراع باطنى شديد أن تترك الهيكل والمحراب لتمكث في بيت «زكريا» لا تغادره إلا للضرورة. جعلت من غرفتها في بيت «زكريا» محراباً لها تعبد «الله» فيه بمفردها بعيداً عن أعين المتطفلين وألسنة السفهاء وأوهام الجاهلين، كانت تخشى على نفسها فتنة الرياء ويفزعها أن تؤول في النهاية الى واحدة من المنافقين الذين يطلبون المجد عند الناس غافلين عن عين «الله» الذي يراهم ويستهنئ بهم .

وكانت آيات الأنوثة قد شرعت تفصح عن نفسها على جسد الطفلة المنذورة «له» فحولتها الى امرأة سوية كاملة الزينة تضايقها «النظرات» المتطلعة من الأعين التي لا تغض بصرها عن محارم «الله» ورغم أنها كانت ترتدى جلباباً واسعاً فضفاضاً لا يبين

شيئا من زينتها وتغطى رأسها بخمار تكاد تخفى من قرط حياتها وجهها إلا عينيها لكنها كانت تشعر أن العيون المتلصصة تلاحقها فصارت تكره الخروج من البيت وتحب أن تبقى مستورة عن الأعين في غرفتها حتى أنها بدأت تفرح بأيام «الحيض» لأنها تمكث فيها حبيسة الجدران .

إشتعل صراع عنيف في قلبها بين واجبها كمنذوره «الله» يجب أن تبقى في «الهيكل» وبين شعورها الصادق أن بقاءها في الهيكل صار بالنسبة إليها عبئا لا تستطيع احتماله لكنها حسمت أمرها وقررت أن تترك الهيكل لتلزم البيت .

وفي البيت أخذت تواصل عزلتها في غرفتها كانت تساعد خالتها في تنظيف البيت واعداد الطعام وسائر أمور المعيشة لكنها كانت ساهمة شاردة النظرات صامته لا تكاد تتكلم مع أحدا تعد تسأل «زكريا» عن التوراة والأنبياء، قليلاً ما كانت تأكل معهما لأنها كانت أكثر أوقاتا صائمة. لقد صار بيت «زكريا» بالنسبة إليها هو «الهيكل» وصارت غرفتها فيه هي «المحراب» وليس لها من شاغل يشغلها في المحراب إلا الصلاة. وأحترم «زكريا» النبي وأمراته صمت «مريم» وعزلتها وهما يوقنان أن سرا عظيما يلف هذه الفتاة «مشرقة الوجه» وأنها تخوض غمار تجربة عظيمة ليس لها فيها من زاد الا الصمت والصوم والصلاة .

وزادت غربة «زكريا»، لقد يئس من أن يستطيع إعادة قومه الى الصراط المستقيم كان يدرك أن الأمة التائهة تتخبط ، إنها تحت الخطى إلي الهاوية وهي لا تدري الشعب يرفض في عناد أن يخرج الى النور رغم صرخاته وصرخات الأنبياء من قبله .

بقلب «النبي» الذي يحمله كان يحس أن ريحا شديدة تتجمع في الأفق توشك أن تتدلع لتقتلع الأمة من جذورها وتهوى بها في الظلمات كما هوت من قبل «عاد» و«ثمود» لقد أوشك «بنو اسرائيل» أن يصيروا أحاديث تتناقلها الأمم جيلا بعد جيل مثلاً

مضروباً من «الله» للناس كيف يُمكن للإنسان أن يُهلك نفسه رافضاً يد «الله» التي تمتد إليه بالرحمة راضياً بالخروج الى العذاب متشبثاً بكبريائه .

أمسى «زكريا» محزوناً يملأ الأسف قلبه وهو يراقب أحوال قومه وهم يواصلون الانحدار، صار الكهنة تجاراً جشعين يبيعون كلام «الله» بأبخص ثمن وصار أكثرهم «صدوقيين» لا يؤمنون بالآخرة يلتفون حول «الملك» «هيرودوس» وبطانته ومؤيديه من طبقة الأغنياء الذين يباركون اتجاهاته الدنيوية وخطته الرامية الى انشاء دولة قوية ذات طابع هيليني تتخذ من «روما المقدسة» مثلاً أعلا و«الفريسيين» يعارضون للإبتزاز طمعاً في نصيب من الغنيمة التي تتيحها السلطة ويتكئون على احترام الشعب لهم باعتبارهم «رجال الله» الذين يحافظون على الشريعة وتقاليده الآباء المقدسة .

والرومان يزيديون من بطشهم إحكاماً لقبضتهم على الشعب المتمرد ويزيدون من ضرائبهم تمويلاً للبذخ الذي يليق «بالهة الأرض» ان يرقلوا فيه والشعب الذي طحنه أنياب القهر والفقر والخرافات قد ينس من التمرد وخاب أمله في القادة ويات مشغولاً بمتاعب المعيشة الضنك التي أمسى يرزح تحت نيرها الثقيل .

حاول «هيرودوس» الذي كان يعاني من كراهية الشعب اليهودي له حيث ظل اليهود ينظرون إليه كمغتصب للسلطة حاول بكل جهده أن يكتسب ود الشعب فتزوج من «مريم الحشمونائية» على أمل أن يستميل إليه قلوب الشعب الذي كان ينظر لعائلة الحشمونائيم باعتبارهم اصحاب السلطة الشرعيين وأن يحسّن العلاقة بينه وبين بقايا العائلة التي أعمل فيها الاضطهاد، والقتل حتى يقضى على كل منافس من العائلة يمكنه التطلع للفوز بالسلطة لكن هذه الحيلة لم تفلح لأن الفريسيين ظلوا يثيرون الشعب ضده فحاول «هيرودوس» إستمالة الفريسيين إليه فتودد إليهم وبدأ في منحهم الأبهة التي يطلبونها وبعض المناصب التي يطمعون فيها وبالفعل بدأ الفريسيون يخفون من لهجة الانتقاد ويتوقفون عن المعارضة وإثارة العامة لكن «الصدوقيين» لم يرتاحوا بالطبع

لهذا التحول من جانب «هيرودوس» وخشوا أن يكون ذلك مقدمة لاضطهادهم وأبعادهم عن السلطة والثروة فسعوا إلى «روما» ينبهون «أوكتافيوس» إلى التغير الذي أصاب «هيرودوس» ويحذرونه من أنه قد بدأ يعمل للاستقلال عن «روما» مستغلا الصلاحيات الواسعة التي منحها له «روما المقدسة» ولذلك فإنه يعمل للحصول على تأييد الشعب بتقريب «الفريسيين» الذين يتزعمون حركة التمرد ضد حكم «روما» أرسل «أوكتافيوس» يستدعي «هيرودوس» على عجل وظن الأخير أن الأمبراطور قد يأمر بقتله أو على الأقل سجنه أو أقصائه عن العرش ولكنه لم يكن يملك إلا تلبية أمر الاستدعاء فأوصى بعض خالصائه أن يقتلوا أمراته «مريم الحشمونائية»^(٥٣) إن لم يعد من «روما» حتى لا يفرح الشعب في المصيبة التي لحقت به بحزنه على الزعيمة المقتولة ولكن المرأة علمت بهذه الوصية «السرية» ولم يأمر «أوكتافيوس» لا بقتله ولا عزله ولكنه أوصاه بمزيد من الحزم حتى لا تقلت الأمور من بين يديه ويفقد صلاحيته عند «روما» .

وعاد «هيرودوس» مغتاضا من «الصدوقيين الخونة» الذين يطمعون في الحصول على كل شيء وساعات العلاقة بينه وبينهم كما تسممت العلاقة بينه وبين أمراته فقابلته بعبوس مستهزئ فاتهمها بالخيانة وبمحاولة الثورة على سلطة «روما» وأمر بإعدامها لأنها حاولت «دس السم» له ويعد أن تخلص منها عاد ليكتشف أن محاولة قتله بالسم كانت من فعل أولادها من زوجها الراحل وأنها العجوز الشريرة وأن الراحلة كانت بريئة ولكن للأسف لا يمكن إصلاح الخطأ الذي وقع لأنها ماتت بالفعل ولكن «الخونة الحقيقيين» أولادها وأنها يستحقون القتل وبالفعل تم إعدامهم ذبحا بالسيف^(٥٤) وبهذه الخطة التي بدت «لهيرودوس» وقتها أنها محكمة وأكثر من رائعة استطاع أن يتخلص من بقايا عائلة الحشمونائيم ليستريح من القلق الذي كان يسببه وجود بقية من هذه العائلة يمكنها المطالبة بحقها في العرش .

لكن هذه «المذبحة» القانونية جلبت له المزيد من كراهية الشعب فأراد أن يمحو

الصورة البشعة التي تكونت له فى قلوب اليهود بإظهار المزيد من احترام تقاليد الشعب ومقدساته فبدأ فى تجديد «الهيكل المقدس» ليكون آية فى الفخامة والمتانة والجمال^(٥٥) وقسم العمل فى إعادة بناء الهيكل الى مراحل زمنية ليستمر البناء وقتا طويلا يستطيع فيه أن يستبدل بصورته القبيحة صورة «الملك المتدين» الذى يقدر التوراة وفى سياق إستبدال الصورة قرب الفريسيين قادة الشعب الدينيين وبالع فى احترام زعيمهم ولكنه كان يتشكك دائما فى نواياهم خاصة بعد أن بدأ يهتز لشعوره بأنه لم يعد موضع ثقة «روما» وأن الصدوقيين أنصأره الأول فقدوا هم أيضا الثقة فيه وبدأوا يعملون فى الخفاء ضده. فى هذا الجو المشبع بالشك أراد أن يستوثق من صدق ولاء الفريسيين له فطلب منهم فى اجتماع ضم زعماءهم أن يُقسِمُوا أمامه على الإخلاص له ولروما. نزل عليهم هذا الطلب كالمصاعقة لأنهم كانوا مستعدين للتعاون معه ولكن دون أن يفقدوا مجدهم عند الشعب الذى أقاموه على إدعاء معارضة الخضوع لروما وإدعاء المحافظة على تراث الشعب «المقدس» ومعنى أن يُقسِمُوا على الاخلاص له ولروما أن يهدموا احترامهم لدى الشعب هذا الاحترام الذى لولاه ما أعارهم «هيرودوس» أدنى اهتمام وهكذا وجدوا أنفسهم مضطرين لحفاظا على مكانتهم عند العامة أن يرفضوا إعطاء اليمين على الإخلاص «لهيرودوس» وسادته الرومان فعادت العلاقة بينهم وبين السلطة الى التوتر وأخذ «هيرودوس» فى اضطهادهم من جديد وشرعوا هم يهودون إلى إثارة الشعب ضده خاصة بعد أن قَتَلَ أمراًته وبقيّة عائلة الحشمونائيم فى خطته «البارعة» التى لم ينطل خداعها على أحد .

وفقد «هيرودوس» كل حليف ممكن وخسر تباعا كل أنصاره. خسر «الصدوقيين» بتقربه لإعدائهم «الفريسيين» وخسر «الفريسيين» الذين رفضوا أن يعطوه إخلاصهم وبدأ يخسر مركزه فى «روما» فأخذ يشدد اجراءات القمع ويزيد من الضرائب ويتعامل بالشك مع كل الأطراف وبدأ الإضطراب يجتاح المجتمع اليهودى فى جميع المستويات وفى كل اتجاه .

أما «الكهنة» الذين صاروا يعطون تأييدهم لكل سلطة حاكمة فلم يكن يشغلهم إلا جمع المال ولذلك سمحوا بأن ينتقل السوق الى جوار «الهيكل» لتكون الأنعام والطيور التي تقدم كقربانين أو نذور قريبة من أيدي الذين يريدون شراؤها من «زبائن» الهيكل الذين يأتون إليه طلبا للحصول على الغفران أو البركة في الذرية بتقديم الفداء أو الوفاء بالنذور، إن الكهنة صاروا يتاجرون في هذه السلع والتاجر الماهر يجب أن يجعل بضاعته قريبة من يد الزبون وأندفعت السوق تحاصر المعبد وتحيط به من كل جانب.

وأصبح «زكريا» محزونا لقد أوشك أن يغادر الدنيا تاركا قومه على شفا حفرة عميقة من النار دون أن يستطيع أن يفعل لهم شيئا. كان يرى بعينين تفيضان بالدموع ذرية «خليل الله ابراهيم» أبناء اسرائيل وهم يندفعون إلى الجحيم اندفاع الفراش إلى النار يوشك أن يسقط فيها وهو يقف عاجزاً عن منعهم من ذلك الهلاك الأبدي الذي يسرعون إليه الخطى .

كان عليه في هذا الصباح أن يخرج الى الهيكل لأن نوبة فرقته قد حلت وأحب أن يذهب مبكرا ليتمشى قليلا بين الحقول ليستنشق عبير البكور الذي يحمل عطر الجنة قبل أن يتجه الى الهيكل .

أطل على «مريم» فوجدها مستغرقة في الصلاة داخل غرفتها فسلم عليها في سره ثم اتجه الى باب البيت يريد الخروج .

لقد روض نفسه على قبول حكم «الله» الذي قضى بحرمانه من الأبناء حتى رضى به الى أن جاءت «مريم» مشرقة الوجه ببركتها فحركت في قلب النبي حنان الأبوة الذي كان ممسكا عن الجريان وراء حاجز «الرضى بحكم الله» فاندفع سيل الحنان يسأل «الله» القادر على كل شيء «الذرية الطيبة» لما عاين الثمار التي تأتي في غير أوانها، إن «مريم» نفسها ثمرة طيبة قد جاءت في غير أوانها .

من الذى قال أن «الله» قد حكم بحرمانه من الذرية؟ إن «الله» لم يقل لقد تقدم العمر وظلت امرأته عاقراً منذ زواجهما لكن «الله» منح «إبراهيم» إبنه وهو شيخ كبير وكانت «سارة» أم «إسحاق» عقيماً لا تلد .

فهل أراد «الله» حرمانى من الذرية؟ إن «الله» يحكم ولا معقب لحكمه لكن من الذى يستطيع أن يدعى معرفة إرادة «الله» إلا أن يكون «الله» قد عرفه فهل أعلمك «الله» يا «زكريا» أنه قد حرمك من الأطفال؟ كلا ..

إن «الله» لا يحتاج الى الذكر أو الأنثى ليظهر إرادته ألم يخلق الانسان من قطعة من الطين نفخ فيها من «روحه» فقام من الطين «بشر سوى» بلا أب يحمله فى صلبه أو أم تنبته فى رحمها أو ترضعه من ثديها . لا يحق لعبد مؤمن أن يلتفت إلى سبب ولا يجوز لعبد مؤمن أن ييأس من «رحمة الله» ما دام فى الدنيا «نور» .

شق طريقه وهو يتوكأ على عصاه يقترب من «الهيكل» والسوق التي تحيط به قد ازدحمت بروادها . تعالت أصوات الباعة والمشتريين اثناء المساومات المتطاولة وأختلطت مع أصوات الأنعام وصيحات الأطفال وصراخهم حتى خُيِّل إليه أن الهيكل يميذ بهذا الضجيج العنيف ويوشك أن يتهاوى متصدعاً رغم أن البنائين والعُمَّال الذين تجمعوا حول «الهيكل» لم يكونوا قد انتهوا بعد من إتمام تجديده وتزيينه.

كان «هيرودوس» يبغي أن يُظهر للشعب أنه ملك عظيم قادر على أن يعيد إليهم المجد الغابر الذى ولَّى وأنه «يهودى» صادق يقدر الهيكل فما هو يجده ليكون نظيراً لما بناه «سليمان» لكن «زكريا» كان يدرك أن هذه الخُدعة التي تحاول أن تعيد الزمن الى الوراء لن تفلح لأن الهيكل الذى لا يعمره المصلون الذين يجيئون إليه برغبة صادقة فى الاستماع الى موعظة «الله» واقبال صادق على العمل بها مثل هذا «الهيكل» لن يقوم بل سيتصدع ويخرب مهما حاولوا تقوية دعائمه فى الأرض وتزيين واجهته

وجدرانه بآيات الفن وملئه بالتحف النادرة والثمينة مساجد «الله» تعمر بالإيمان والعمل الصالح أما هذه الزخارف الكاذبة فإنها لا تخدع «الله» لأنه لا ينظر إلى الصور بل إلى القلوب ودخل الى الهيكل ليشارك فى الطقوس .

ووقع عليه الإختيار ليكون له شرف الدخول إلى «المحراب» ليقوم بالتبخير ويتلقى «المدد» الالهي إن صادفه التوفيق كما كان «موسى» يدخل خيمة الشهادة ليتلقى كلام «الله» ثم يخرج ليؤم الناس فى الصلاة ويكون صاحب القربان فى هذا اليوم .

دلف إلى المحراب فى هدوء ثم وقف خاشعا وسط سحب البخور كان الصمت يملأ المحراب والضوء الخافت الذى يتسلل فى هدوء من خلال الضباب العطر الذى يصنعه انطلاق البخور يعين على محو الأشياء من طريق البصر والرائحة الزكية التى تنبعث تضئ الذكريات وتطلق الحنين من مجامر الأشواق وأحس «زكريا» بحاجته الى الصلاة فصف قدميه ووضع يديه على صدره وأحنى رأسه ناظرا إلى موضع سجوده وأنساب دموعه كأنها المطر ينزل من سماء واسعة تمتد بلا حدود الى ما وراء الأفق.

«قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا» (٥٦).

وأجهش بالبكاء ثم تمالك نفسه ليحسن عرض قضيته على من يعلم السر وما هو أخفى من السر فواصل كلامه قائلا «وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا» (٥٧) ثم اندفع يستغيث مناديا رحمة الرحمن الرحيم «فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا» (٥٨) .

كانت الكلمات تخرج من فمه محمومة ترتجف وهى تنضج بدموعه الحارة التى تسيل من قلبه وعينه. صرخة استغاثة اندلعت من قلبه الذى يشتعل بالألم ينادى «الرحمة» كتمها الخشوع والحزن وخنقتها الدموع فخفيت على المنتظرين فى

«الهيكل» خارج المحراب لكن الذى يسمع الجهر والهمس ويسمع الصمت أدركها
وسماها «نداء خفيا» .

إن الدعاء لا يضيف إلى علم «الله» بحال الداعى شيئا لأن «الله» هو العليم
الخبير المحيط الذى أحاط علمه بكل دقائق حياة الداعى من بدايته قبل ولادته الى نهايته
بعد موته ولكن مغزى الدعاء هو أن يخلع العبد رداء الكبرياء عن قلبه ويقف بين يدي
«ربه» طاهراً بريئاً من كل إدعاء باطل .

ولذلك أحسن «زكريا» بدء دعائه بالتذلل إلى «ربه» واصفاً فى بلاغة صادقة عجزه
عن الخلاص من أزمته وقلة حيلته أمام ما يحيط به من صعوبات فقال إن «العظم» وهو
أشد ما فى الانسان «الهيكل» الذى يحمل الإنسان قال إنه قد أصابه الوهن فهو يشعر
أن عظمه لم يعد قادراً على حمله والقيام به، صار كأنه بنيان يريد أن ينقض.

وقال إن الفتنة التى يُبتلى بها هى نار اضطربت فى كيانه فاشتعل الرأس الذى
يحمل الفؤاد بنار الفتنة التى يخوضها مع قومه وكان «الشيب» الذى ضرب شعره
باللون الأبيض هو العلم المرفوع على رأسه دليلاً على تلك النار المتقدة فى فؤاده وآية
على استسلامه لحكم «الله» .

وعندما يخلع الانسان عن قلبه «فى الدعاء» رداء الكبرياء الذى يحجبه عن ربه
فإنه يعود بهذا التجرد إلى حقيقة عبوديته «لله» فيعيده «الله» إلى مقام خلافته الذى
سجدت له الملائكة وتم فيه تسخير كل شئ للإنسان حامل أمانة «الله» فمن المحتم أن
يُجَاب الدعاء لأن كل الاشياء تعود سيرتها الأولى مُذَلَّة للإنسان الذى صعد بالدعاء
إلى مقام «الخلافة» حيث محا من الانسان كل ادعاء باطل وأعاد الكبرياء إلى صاحبه
الذى يليق به ارتداؤه حينئذ تكف الاشياء عن معاندة الإنسان وترجع إليه ذليلة خاضعة
تطلب رضاه بتحقيق طلبه .

لذلك ختم «زكريا» افتتاح ندائه الخفى بقوله «ولم أكن بدعائك رب شقياً»^(٥٩) ولا ينبغي أن أبقى فى شقائى بعد دعائك يا ألهى إذ يستحيل أن تظل الأشياء فى معاندتى بعد دعائى لك فلا بد أن ترجع المخلوقات كلها الى طاعتى بعد أن رجعت إليك ربى بدعائك محققا عبوديتى لك وشاهدا على استخلافك لى «إن دعاءك»^(٦٠) ربى يجيب دعائى فيزيل شقائى .

«الشقاء» هو شعور الإنسان بالعجز امام الأشياء التى تؤذيه دون أن يستطيع دفع أذاها عنه لأنها لا تخضع لسلطانه وتتعالى على قدرته فيأتى «الدعاء» الذى يعنى «الصلاة» فيزيل الشقاء لأنه يرفع الإنسان إلى رب الأشياء يصله بالقادر على كل شئ فيتحرر الإنسان من إحساسه بالعجز الذى يناقض شعوره العميق بسيادته على الأشياء بموجب «العهد» الذى قطعه مع ربه والموثق فى قلبه بأنه خليفة الله فى أرضه وبهذا التحرر يستريح العبد المؤمن بمجرد دعائه ربه لأنه يُصدّق وأن «الله» قد استمع الى سؤاله ويُصدّق أنه قادر على أجابة سؤاله لأنه قادر على كل شئ ويُصدّق أن «الله» هو العليم الذى يعلم حقيقة الأشياء ظاهرها وباطنها ومن ثم فإنه يتنازل عن اختياره وهو بقية كبريائه إلى اختيار «الله» مُصدّقاً أنه الأفضل له لأنه يُصدّق أن «الله» هو الأعلم به من نفسه وحينئذ لابد أن تقع الإجابة التى ترضى العبد لأنه بدعائه قد أرضى ربه ، ذلك «التصديق» هو الإيمان .

وكما أحسن «زكريا» افتتاح دعائه فقد أحسن عرض قضيته فذكر أنه يخاف على «كتاب الله وشريعته» من قومه الذين هم أقاربه «مواليه» بعد موته لأنهم قد فسدوا وأفسدوا إنه لم يجد فيهم واحداً يستطيع حمل أعباء الرسالة من بعده والقيام بحفظ «الشريعة» امراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وقد ظلت أمراته عقيماً حتى يئست من الحمل ولذلك فهو يسأل أن يمنحه ربه رجلاً صالحاً يوليه حبه ليعطيه علمه وحكمته فيرث من

«زكريا» النبوة والرسالة ويرث من أبناء نبي الله «يعقوب» العهد الذي عقده «الله» معهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً فَيُمْكِّنْ لَهُم فِي الْأَرْضِ .

ولما كان «زكريا» يعلم أن الدعاء قد يحمل شبهة الاعتراض على حكم «الله» لأن الدعاء هو طلب تغيير حكم «الله» القائم وهو اعتراض خفى أراد أن يمحو شبهة الاعتراض بأن يكون الوريث المطلوب كامل الرضى بحكم الله «رضياً» فسأله أن يكون وريثه كامل الرضى هو تعبير عن رغبته في استكمال «الرضى» عن الله في وريثه وهو ما يعنى أنه يتهم نفسه بنقص رضائه عن ربه منكراً على نفسه أن دعاءه يحمل شبهة الاعتراض على حكم قد أنزله «الله» وهذا من صدق رضائه عن ربه كأنه قال «إن لم أكن رب راضياً عنك تمام الرضى فاجعل وريثي المطلوب منك راضياً لاستكمل فيه رضائي عنك» .

وحينما يطلب «زكريا» وريثاً يرث منه النبوة والرسالة ويرث من بنى اسرائيل عهدهم مع «الله» فهو في الحقيقة لا يطلب إلا انقاذ الأمة التي كلفها «الله» بحمل رسالته من الاهلاك، إنه يطلب إبقاء شعبه حياً بإبقائه مُحَاطِبا من «الله» بواسطة وريثه. إذن فهو لا يسأل إلا بقاء الإيمان في قومه وهو ما يعنى استمرار عبادة «الله» وبقاء مجده في الأرض لذلك فإن إجابة «الله» جاءت أسرع مما كان في وسعه أن يتصور وعلى نحو لم يخطر بباله فلم يكذب يتم دعاءه حتى ملاء سمعه نداء الملائكة الذين هروا إليه من كل سماء يلتفون حوله وهو لم يزل واقفاً في المحراب يصلى. قال «إمامهم» لما وقف قبالة بصوت يملأه الفرح :

«ان الله يبشرك بيحيى صدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسباً ونبياً من الصالحين» (٦١) .

فاجأه النداء فاندھش وأخذ يحدق في جمع الملائكة الذين ملأوا المحراب وجوهمهم

المشرقة الدافئة كأنهم الشمس فى يوم من أيام الشتاء وملابسهم البيضاء الطاهرة كأنها الثلج وقلبه يتدبر الكلمات وفؤاده يسبح فى النور يحاول الوصول الى المعنى .

«يحيى» يا له من اسم عجيب يمتلئ بالحياة لم يُسمَّع به من قبل لم يتسم رجل فى بنى اسرائيل بهذا الاسم فمن يكون «يحيى» (٦٢) هذا ١٩ .

«مصدقاً بكلمة من الله» مؤمناً بكلمة تنزل من الله إذن سوف يرسل «الله» رسالة جديدة وسيكون «يحيى» مؤمناً بها ومؤيداً لرسولها فمن يكون «النبي» الرسول حامل الكلمة ومن يكون «يحيى» هذا ؟ .

«وسيداً» رجلاً عالياً له السيادة على الناس فهل سيكون ملكا يسوس الناس أم سيكون عالماً يقود الشعب فى طريق النجاة .

من سيكون «يحيى» هذا ؟؟

«وحسبوا» سيكون رجلاً أعزباً لن يتزوج !! هل هناك ملك فى بنى اسرائيل لم يتزوج ؟ أيمكن أن يكون الرجل عالماً بشريعة «الله» ولا يتزوج ياله من انسان عجيب «يحيى» هذا تُرى من سيكون ؟؟؟

«ونبيا من الصالحين» إذن سوف يبعثه «الله» نبيا فى بنى اسرائيل اختاره من بين عباده اللاتقين بالحياة الباقية فى جنات عدن هو الوريث الذى كُنْتُ تطلبه «يا زكريا» ليرثك النبوة والرسالة ويرث من بنى اسرائيل عهدهم مع «الله» لكن من يكون «يحيى» هذا ؟؟ ابن من سيكون ؟؟ أكون لى ابن؟ أفى هذا العمر؟ أهذا ممكن ومن هو الرسول النبى صاحب الكلمة الذى سوف يكون «يحيى» مصدقه ؟؟ يالها من بشرى عجيبة تحمل نبأ نبين كانت الاسئلة تدور فى قلب «زكريا» وفؤاده يسبح فى النور وراء المعنى حين فاجأه نداء أعلى «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا» (٦٢) .

لقد أجاب هذا النداء الأعلى الصادر عن «روح الله» على الأسئلة التي كانت تدور في قلب «زكريا» وأجلى له بعض المبهمات فعرف أن «يحيى» هذا هو ابنه الذي طال انتظاره له وعرف أنه الوريث الذي يبقى «حبلى الله» ممدوداً إلى بنى إسرائيل لعلمهم يتشبثون به فينقذهم من «الهاوية» التي صاروا يتأرجحون على حافتها وعرف أنه قد صار الآن مخاطباً من «روح الله» القائم أبداً في حضرة «الله» سر الحياة الذي صدر عنه كل شيء فغاب عن بنى إسرائيل ومصيرهم وتغاضى عن وريثه وقصته ولم يعد يشغله إلا خطاب «الروح» إليه لقد صار بهذا النداء الأعلى في مقام «موسى بن عمران» عندما نودى في الوادى المقدس إذ رأى في الظلام شجرة تتوهج ناراً .

استمع إلى اسمه يُنادى «يا زكريا» فأحس أن اشتات نفسه قد تجمعت وتألفت في كائن واحد عرف فيه نفسه كما عرفها حينما استمع إلى اسمه و«أدم» يتعلم من «الله» الأسماء كلها . لقد استكمل «زكريا» بهذا النداء الأعلى معرفته بنفسه التي يعرف بها ربه ولم يعد يشغله إلا إطالة أمد الخطاب . فعندما يتفضل الرب بالنداء على عبده فمن الأدب أن يعمد العبد إلى إطالة حبلى الحديث كما فعل «موسى» من قبل .

. «قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وأمرأتى عاقراً» (٦٤)

يا آلهى من أين استطيع أن أحصل على غلام لى وقد أصابتنى الشيخوخة وامرأتى عقيم عجزت عن الحمل منذ زواجنا ؟؟

يستحيل أن يكون «زكريا» وهو الرجل الرشيد والشيخ الجليل لا يعلم من أين تأتى الأطفال أو يجهل كيف يولدون ومن ثم فمن غير الممكن أن يكون سؤاله طلباً للعلم بكيفية حصوله على الغلام الموعود .

ومن غير الممكن فى حقه وهو النبى العارف بالله أن يكون غير عالم من أين تأتى المخلوقات .

لقد قال من قبل وهو يعاين في المحراب أنَّ الثمار تأتي «مريم» دون وسيلة ظاهرة وفي غير أوانها قال «رب هب لي من لديك ذرية طيبة» وقال اليوم في افتتاح دعائه «فهب لي من لديك وليا» فهو بلا شك يعلم أنَّ الذرية الطيبة وكل الخلق إنما يأتون من «لَدُنْ» الله .

ولا يمكن أن يكون تسأوله شكاً في قدرة «الله» على منحه الغلام الذي سبق له أن سأل «الله» فيستحيل في حقه وهو «النبى» الذى يتلقى كلام بأذنيه أن يشك في قدره «الله» أو أن يسأل «الله» ما يظن أن «الله» يعجز عن إتيانه فهذا عبث لا يليق بعوام المؤمنين فما ظنك بالأنبياء ؟ فضلا عن أن مقامه هذا ليس فيه شك !!.

لقد نطق «زكريا» بهذا التساؤل تعجباً من لطائف صنع «الله» التى لا يمكن توقعها واستعظاما لهبة «الله» الذى أعطاه ما طلب بل أكثر مما طلب وعلى نحو لم يخطر له على بال وهى هبة لا يُستطاع مكافأتها شكراً وتنزيها لقدرة «الله» أن يستطيع مخلوق أن يبلغ وصفها فكأنه قال من وراء تساؤله بلسان حاله «لولا أنك أنت الذى أخبرتنى ما صدقتُ أننى فى مثل سنّى ومن مثل أمرأتى العاقر أستطيع أن أظفر بغلام» فكان تساؤله هو أبلغ شكر لأن كلمات اللغة لا تستطيع أن تحمل ما يملأ قلبه من شكر ربه فارتدى شكره الذى يتعالى على الوصف ثوب السؤال لكنه فى الحقيقة كان يطلب بكلامه إطالة أمد الخطاب فليس من أدب «الأنبياء» العارفين بالله أن يتعجلوا إنهاء الحديث أو يقتضبوا فى الكلام وهم يتكلمون مع «الله» لذلك حقق «الله» رغبته فواصل الخطاب . «قال كذلك الله يفعل ما يشاء» (٦٥) .

غلامك المنتظر الذى يشير إليه اسم الإشارة «ذا» هو مثل مضروب من «الله» للناس على أن «الله» يفعل ما تتجه إليه إرادته ليعلموا أن أرادة «الله» هى أصل ظهور الأشياء وقد أشار إلى المثل حرف التشبيه «ك» . «قال كذلك الله يفعل ما يشاء» .

وخشى «زكريا» أن تكون هذه الإجابة المقتضبة الحاسمة تعنى أن ينقطع حبل الخطاب فأسرع يحاول وصله مكرراً شكره فى تساؤل جديد .

« قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً » (٦٦)

فى هذه المرة عبر عن عقم امرأته بصيغة الماضى «كانت» لأنه قد أُلهم أن «الله» قد أصلح^(٦٧) امرأته وهياها للإنجاب لكنه بالغ فى وصف عجزه هو فقال أنه قد تجاوز فى الشيخوخة حداً يستحيل بعده أن تبقى قدرته على الانجاب «بلغت من الكبر عتياً» .

لقد أعاد تساؤله ليؤكد شكره وهو يعلم أن «الله» يزيد من شكره فكان بشكره الذى اتخذ صيغة التساؤل المتعجب يقصد الإستزادة من المعرفة فحقق «الله» له ما يريد إذ أجاب «الروح» على سؤاله **«قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً» (٦٨)** .

إن خلق «يحيى» من أبوين عاجزين عن الإنجاب وهو الأمر المشار إليه بـ «هو» شئٌ ميسر لقدرة «الله» يستطيع أن يأتية فى سهولة فإذا كنتَ تظن أنه أمر عسير بالنظر إلى أسبابك فإن «الله» قال فى نفسه أنه أمر ميسور ناظراً إلى قدرته على كل شئٍ (٦٩) .

إن هذه الكلمات .. **«هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً»** هى الترجمة التى قام بها «روح الله» الذى يخاطب «زكريا» للكلام الذى قاله «الله» فى نفسه لما أظهر «زكريا» تعجبه من أن يظفر بغلام من امرأته العاقر وقد أوغل فى الشيخوخة فهذه الكلمات هى صورة مشهودة فى ألفاظ بشرية يمكن للفؤاد أن يدركها قام بتصويرها «روح الله» محولاً كلمات «الغيب» إلى شئٍ مشهود وهذا

التحويل من الغيب إلى الشهادة أو النقل من حال الإستتار الى الظهور هو عمل «الروح». إن «روح الله» هو وحده الذى يمكنه أن يعاين ما فى نفس «الله» وأن يُفصح عما «هناك» وبذلك الإفصاح يظهر «الغيب» متحولاً إلى شئ مشهود .

لقد أغلقت أجابة «الروح» باب التعجب وخشى «زكريا» وقد انساب فؤاده فى نور «التذكر» أن ينقطع حبل الخطاب الذى تسرى فيه المودة فأسرع يصل الخطاب طلباً للمزيد من المعرفة .

قال « رب إجعل لى آية » (٧٠)

آلهى أعطنى علامة أعرف بها نزول «يحيى» فى رحم أمراأتى وأعرف بها صحة ما فهمته « قال:آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاُ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار » (٧١)

العلامة التى تطلبها هى أن تعجز عن الحديث مع الناس لمدة ثلاثة أيام لا تستطيع فيهن أن تنطق بلسانك عندما تريد أن تتكلم مع البشر ولذلك سوف تكون مضطرا للتفاهم معهم إلى استعمال لغة الرموز تشير بحركات رأسك وملامح وجهك ويديك وسائر جسمك أو بالحروف المكتوبة بالقلم إلى المعانى التى تريد أن تنطق بها بلسانك إنك لن تفقد القدرة على النطق بل ستظل فى الأيام الثلاثة محتفظا بقدرتك على النطق ولكن دون أن تُظهرها للناس . سوف تكون إذن هذه الأيام الثلاثة أيام صمت إختيارى فترة صيام عن الكلام مع الناس فقط . لكن كلامك مع «الله» يجب أن يبقى متصلاً ولذلك أطلب إليك أن تبقى منتبها إلى حضور «الله» بأن يبقى لسانك بقدر ما تستطيع ناطقا بالثناء على «الله» والدعاء إليه وأن يظل بدنك وعلى قدر جهدك مشغولا بطاعة «الله» وأن يبقى قلبك ملتفتاً إليه بالمسامرة والمراقبة والمطالعة حتى يغرق ذِكْرُك له فى ذِكْرِهِ لك هذا هو ذكر ربك الذى أمرك بالإكثار منه وأمرك أن تتفق المساء قبل الغروب

والصباح قبل الشروق في تنزيه «الله» بالثناء عليه بأسمائه والتدبر في آياته عن أن يحيط به علم أو أن تصل إلى كنه ذاته معرفة أو أن يشار إليه في شيء، هذا هو التسبيح الذي أمرك بالقيام به بالعشى والأبكار .

وملاؤه السرور إذ تدفقت المعرفة إلى قواده واستخفه الطرب «قال رب اجعل لى آية» (٧٢) .

«قال آيتك إلا تكلم الناس ثلاث ليال سويا» (٧٣) .

وخشى أن يتجاوز انبساطه حدود الأدب فالتزم الصمت وانقطع الخطاب ويتذكر «ذكرى» قومه الذين ينتظرونه في الخارج ليبدأ الصلاة «فخرج على قومه من المحراب» (٧٤) .

نظروا إليه متعجبين تسألوه عيونهم وألسنتهم عن سر مكوثه الذي طال في المحراب حتى أوشك أن ينصرم النهار لقد ضيغ عليهم كثيرا من الوقت وبدا لهم وجهه غريبا وقد شمل الاضطراب كيانه كله فعرفوا أنه تلقى وحياً من «الله» أو رأى «رؤيا» فأسرعوا نحوه يلتفون حوله يسألونه ماذا رأى؟؟ وماذا عرف؟؟

وظفق يلتفت إلى الوجوه التي أحاطت به وقد اتسعت عيناه وبدت على وجهه الدهشة يحاول أن يستجمع قواده ليحدثهم والكلمات تندفع من قلبه إلى لسانه تريد الخروج، ولكنها وقفت فجأة عجزت عن الانطلاق واتسعت عيناه أكثر وزادت دهشته وبددت المفاجأة كل الكلمات التي كانت تتجمع على لسانه تنهياً للخروج إذن فقد بدأ الصوم «فاوحس اليهم» (٧٤) بهز رأسه وحركات يديه «أن سبحوا بكرة وعشيا» (٧٤) وأنسل من بينهم مسرعاً ليخرج من الهيكل وقد أطبق الذهول على القوم ولم يعرفوا ما الذي حدث؟؟؟ .

كان يتوكأ على عصاه وهو يمضى الى بيته مطرقا الى الأرض متعجباً من لطائف
صنع «الله»، إذن فغلامى قد نَزَلَ فى رحم أمراأتى تُرى منذ كم من الوقت وهو هناك ؟؟

لقد خرج منى دون أن أدري ؟؟

وأرسمت على وجهه ابتسامة هادئة تعانق فيها الفرح مع السخرية الفرح بهبة
«الله» الخالق والسخرية من جهل المخلوق الذى يطلب الموجود ويرهق نفسه بحثا عن
المائل دوما بين يديه الحاضر معه دون انقطاع سائراً أبداً فى صحبته .

(٧)

« الاصطفاء »

« وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار،

«سورة ص : ٤٧»

عاد «زكريا» الى بيته وقد أستولى عليه الذهول مما رأى ومما سمع، لقد أدركت امرأته بمجرد أن نظرت إليه وهو يدخل البيت ساهم النظرات شارد الفكر أدركت أن شيئاً ما أصابه فاقتربت منه وأخذت تسأله لكنها فوجئت بأنه لا يستطيع الحديث معها أصابها الفزع وظنت أنه قد مرض وفقد النطق وبدا عليها الإضطراب رغم محاولتها أن تتمالك نفسها فاتسعت عيناها من الخوف وأوشكت أن تصرخ إلا أنه أخذ بملامح وجهه وهزات رأسه وحركات يديه يوحى إليها أن «إهدئى وأطمئنى وأن ليس في الأمر مكروه وبعد قليل سأتكلم» وتركها ودخل إلى غرفته .

وقفت حائرة لا تعرف ما الذى أصابه أياكون قد مسه الشيطان بسوء أو وقع تحت تأثير سحر سىء أو أن القوم قد هددوه وأصابوه بالفزع لما أغلظ لهم القول فى موعظته أو أن مرضاً غريباً قد أصابه بالخرس أو أن ..

لم تعرف ما الذى أصابه أو ماذا تفعل له فأسرعت إلى «مريم» تخبرها بما حدث ففزعت «مريم» لما أصاب «زكريا» ولكنها أخذت تحاول إدخال السكينة فى قلب خالتها لأن «زكريا» نبي كريم على «الله» ورجل صالح لا يمكن لرحمة «الله» أن تتركه وحاولت المرأتان أن تطمئنا نفسيهما ما وسعهما الجهد دون أن تظفرا بشئ أما «زكريا» فقد ظل فى محبس صمته منطويا على نفسه داخل غرفته يعانى «معرفة» لا يستطيع النطق بها .

جلست «مريم» فى غرفتها تفكر فيما أصاب «زكريا» خائفة أن يكون قد حضره الموت وأنه قد أوشك على السفر فى رحلة الأبد. لم تكن تخاف عليه من الموت لأنه سيلحق بالأحبة الذين لم تظفر برؤيتهم أبوها «عمران» الذى لم تمتع بصرها بوجهه وأمها الحنون التى لا تتذكر صورتها، لقد غابت ملامحها وراء سحب النسيان التى يحوبها «الزمن» كل شئ فى مسيره الدائم من الأزل الى الأبد والأنبياء الذين استمعت الى قصتهم من فم «زكريا» النبى وعرفت حياتهم من حياتها مع «زكريا» لكنها لم تظفر برؤيتهم .

لم تكن تكره الموت لأنه الباب الذى سندخل منه الى «الله» ونخرج الى الأبد من مشقة الابتلاء ولم تكن تخاف على «زكريا» من الموت لأنه نبى إستمع الى كلام «الله» ونال الحياة الأبدية لكنها تحزن لفراق «زكريا» أبوها الذى رباها وعرفت منه طريق الحياة الحقيقية طريق «الله» .

لذلك جلست محزونة مطرقة تنظر إلى موضع سجودها .

وعلى حين فجأة أحست بنسيم عطر يملأ غرفتها كأنما فتحت نافذة من الجنة فانساب منها ذلك العطر ورأت جمعا من الرجال تضئ وجوههم عليهم ملابس بيضاء يتقدمون نحوها فى صمت وعليهم سكينه الوقار .

تقدم «إمامهم» قليلاً نحوها وفى صوت وقور يمتلئ بالحنان كأنه المصباح يحمل الأنس للمنتظر قال « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين .. يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» . (٧٥)

واختفى الجمع الطاهر ذابت الوجوه والملابس وبقي العطر يملأ غرفة «مريم» فى بيت «زكريا» .

ذابت وحشتها ودخل الأنس قلبها عندما سمعت إسمها ينادى «يا مريم»
تنسجت نسيم القرب فلما أتم الملائكة إلقاء البشرى كان الأنس يملأ قلبها كما ملأ
العرعر غرفتها «إن الله اصطفاك» لقد اختارك «الله» يا مريم لتكونى واحدة
من نساء الجنة (٧٦) .

«وطهرتك» ولقد أبرأك «الله» يا مريم من الحيض الذى يعتري نساء الدنيا كل
شهر فرحت بهذه الهبة لأنها رأت فيها آية تؤكد بشرى دخولها الجنة لأن نساء الجنة لا
يعترين الحيض ولا يشوبهن عيب من عيوب النساء فى الدنيا .

«واصطفاك على نساء العالمين» (٧٧)

ولقد أختارك «الله» لتكونى أفضل امرأة فى البشر. بهذا الإصطفاء قد نلت شرف
العلو على جميع النساء وعلى الرغم مما حملته البشرى من فرح ومجد إلا أن «مريم
العذراء قد استشعرت المهابة وأحست أن أمرا عسيرا يوشك أن يطرق الأبواب لأن
«الله» لا يرسل ملائكته إلا لأمر جليل يريد ابلاغه لمختاريه ولأن الملائكة قد نصحوها
بالاستسلام لحكم «الله» دون معارضة والسجود طلبا للمزيد من القرب والعودة إلى
الهيكل لتشارك المصلين فيه صلاتهم فتركع معهم «إقننى لربك واسجدى
وأركسى مع الراكعين» .

إن «الله» يأمرها بأن تخرج من عزلتها التى فرضتها على نفسها وأن تعود
سيرتها الأولى فى الذهاب إلى الهيكل وحضور المواعظ والصلوات لتركع مع الراكعين.

لابد أن ثمة مهمة شاقة سيلقيها «الله» عليها ولذلك نصحها الملائكة بالرضى
بقضاء «الله» والاستسلام لحكمه دون معارضة حتى لا تفقد إيمانها فى السخط. ترى
ما الذى سيلقى عليها ؟؟ لماذا يأمرنى «الله» بالعودة إلى الهيكل ومشاركة القوم
صلاتهم رغم أننى أكون أكثر طمأنينة بمفردى ؟؟ .

وما هو الفضل الذى تميزت به فرفعنى «الله» فوق كل النساء ؟ أخذت الأسئلة تتكاثر فى قلب «مريم» وتزيد حيرتها حتى أنستها الفرحة الذى جاءت به البشرى ولم تجد أمامها طريقاً إلا السجود لربها تسأله البصيرة والمعونة .

وخرج «زكريا» من غيبة صمته وغادر محبسه فى بيته الى الهيكل حيث أخبر الناس أن سيولد له غلام سماه «الله» «يحيى» وأنه سيكون نبيا يبعثه «الله» إلى بنى اسرائيل وأن غلامه المنتظر هو آية أن «الله» لم يزل يرحم بنى اسرائيل ويمد لهم فى حبل النجاة لعلهم يتشبثون به وهو آية أن «الله» لم يزل يذكر عهده مع الأسباط آبائهم الأول ليخلصوا له عبادتهم فيمكن لهم فى الأرض وأنه سيبعث بعد غلامه نبيا عظيما وسيكون «يحيى» مؤمنا به ومؤيدا له فيجب أن يشكروا نعمة «الله» الذى لم يزل يذكرهم بأنبيائه ولم ينفض يده منهم رغم خطاياهم الكثيرة وليحذروا أن ينزع «الله» رحمته منهم ويلقى بهم إلى النار الأبدية .

كان بيان «زكريا» واضحا قاطعا لكل شك وصوته محذرا من عاقبة التكذيب أو التلكؤ كأنه يلقى بإنذار أخير وقد بدا عليه نفاذ الصبر ثم أسرع خارجا من الهيكل الى بيته وقد وقف القوم حيارى أطبق الوجوم عليهم وهم ينظرون إليه كالمأخوذى لا يدرون ماذا يقولون أو يفعلون ؟

لقد نزل عليهم خطابه كالصاعقة ثم بدأوا يتعجبون مما قال ويتخاصمون ويختلفون وتعلو أصواتهم تعجب الجميع من هذا الشيخ الفانى الذى ظلوا ينتظرون موته منذ سنوات عديدة للخلاص من لسانه وها هو يخبرهم بأنه سيولد له من امرأته العاقر غلام بل وقد اختار له أسم غريب «يحيى» من أين أتى بهذا الإسم الذى لم يتسم به أحد من قبل وهل من المعقول أن هذا الشيخ المتهاك يكون قادرا على الانجاب حتى هذا العمر وما الذى يجعله متأكدا هكذا من أن مولوده المزعوم سيكون ذكرا بل وقد سماه قبل أن يراه بهذا الإسم الغريب هل أصابه الجنون ؟ أم هو نبى صادق

يشبه أبانا «إبراهيم»؟؟ حتى امرأة «زكريا» نفسها لم تصدقه عندما خرج من صمته وأخبرها أن رحمها يحتضن جنينا سماه «الله» «يحيى» لم يحاول أن يخبرها بالإشارة عندما كان في صمته حتى لا تظن أنه قد أصيب بالجنون لأن «الخرس» الظاهري الذي كان يعتريه كان سيؤيد توهمها مرضه ولكنها حتى بعد أن أفصح لها في بيان واضح أن «الله» رزقه «يحيى» القابع الآن في بطنها وأنه قد أصلحها لتصبح صالحة للإنجاب فإنها لم تصدق في البداية لأن الأمر كان فوق قدرتها على التصديق ولاشك أنه اعتراها ما أعتري «سارة» امرأة «إبراهيم» عندما بشرتها الملائكة بحملها «بإسحاق» فصكت وجهها من الدهشة وقالت متعجبة من لطائف صنع «الله» «ألد وأنا عجوز عقيم وهذا بعلى شيخا» . وكانت يئست من الحيض منذ زمن بعيد فلم يكن في وسعها أن تدرك بدء الحمل. لقد تحملت أذي كثيرا من النساء اللاتي عيرنها لسنوات طويلة بعقمها ولكنها صبرت لحكم «الله» عليها وأحتسبت أجراها عنده .

عندما جاءت «مريم» إلى كفالة «زكريا» بعد موت أختها فإنها اتخذت من الرضيعة اليتيمة بنتا وروت برعاية «مريم» عطش الأمومة الذي كان يصرخ في قلبها حتى رضيت لقد فاجأها «زكريا» «بيحيى» لكنها سرعان ما أمنت وأخذت تصيخ السمع إلى بطنها وتمعن النظر في جسدها لعلها تسمع حركات غلامها في بطنها أو ترى على صفحة بدنها آيات «يحيى» المختبئ في رحمها. لقد عادت الشبيخة الكبيرة لتصبح امرأة شابة في أول زواجها تعاني من الحمل الأول وتنتظر طفلها الأول وقد كان الظن أنها لا تنتظر إلا «الموت الأول» الذي كتبه «الله» على كل نفس. وفي فرح لم تستطع أبداً وصفه استمعت إلى أول طرقة دقها الوليد على جدار رحمها ليعلن عن «حضوره». لقد دخل بهذه الطريقة في قلبها وأستقر هناك ملكاً متوجاً بحنانها على عرشه .

وأخذت آيات «يحيى» يتوالى ظهورها على كتاب جسدها . كانت امرأة عجوزاً واهنة لكن «يحيى» أمدها بالشباب والقوة. وصارت تتحرق شوقاً إلى يوم مجيئه لترى الذي استولى على عرش قلبها قبل أن تراه عيناها .

لم يكن يضايقها إلا النسوة اللاتي أخذن يكثرن من زيارتها يسألن عن أخبارها ويسترقن النظر إلى بطنها وصدرها ليعلمن، أصبح أنها حامل؟ ، أم أن الأمر وهم اختلقته الرغبة الجائعة إلى الذرية؟؟

كانت تود لو أمكنها أن تخفى «يحيى» الذي لم تره عن العيون التي تتلصص عليه خوفاً عليه من العيون التي لا تحب نعمة «الله» على عباده والقلوب التي لا تخشى «الله»، ومن الشيطان الذي يكره الإنسان ويود لو استطاع أن يأخذه معه إلى الجحيم ولكن لم يعد في وسعها شيء وقد تم «إعلان» قياً «يحيى» على الملأ وأصبح خبر حملها مشاعاً في الناس تتناقله الألسنة فلم يعد في وسعها إلا أن تضرع إلى «الله» القادر على كل شيء الذي وهبها «يحيى» أن يحفظه من كل سوء وأن يتم لها نعمته فتضعه في سلام .

رغماً عنها تجد نفسها تحاول أن تتخيل صورته، لابد أنه سيشبه «زكريا»، لقد كان «زكريا» شاباً وسيماً قوياً قبل أن يجرى عليه الزمن، لابد أن «يحيى» سيكون وسيماً قوياً كما كان أبوه. عرفت من «زكريا» أن ابنها سيكون رجلاً عظيماً سيكون نبياً فزاد حبها له وشوقها إلى رؤيته لكنها عرفت أيضاً أنه سيعيش أعزباً حتى يموت فحزنت عليه لأنه سيعيش وحيداً غريباً، تأملت في الاسم الغريب الذي اختاره «الله» له أيدل اسمه على أنه سيحيى حياة غريبة فأختار لها اسماً يليق بها وزاد حزنها على غربته المنتظرة من حبها له .

لقد رحلت «حنة» وتركت «مريم» نبتة صغيرة فهل سيكون على أن أرحل تاركة «يحيى» وأزداد تعلق قلبها «بيحيى» وراحت تتعجل يوم مجيئه فبدت لها الأيام بطيئة متثاقلة شديدة الوطأة على قلبها الذي لم يعد يحتمل شوقها إلى «يحيى» المختبئ في رحمها .

كانت «مريم» هي أكثر الناس فرحاً بقدوم «يحيى» بعد أبيه وأمه يملؤها شوق

البنت وحيدة أبويها الى شقيق يخفف من قسوة غربتها فى الدنيا . راحت تقسم وقتها بين عبادة «الله» فى الهيكل الذى عادت الى محرابه كما أمرتها الملائكة وعبادة «الله» فى بيت «زكريا» بخدمة «أمها» المسكينة التى تتحمل فى ضعف الشيخوخة أعباء جنين ينمو فى جسدها الواهن الذى ذهب الزمن بقوته .

تغبط نفسها لأن «الله» قد أجزل لها العطاء إذ قام بتربيتها «نبي» أخذت من فمه كلام «الله» وها هو يكرمها بأن تشهد مولد «نبي» وهى تعلم بنبوته ولم يزل جنينا مستورا فى رحم أمه . إن امرأة «فرعون» التى كانت «مريم» تعدها قدوتها لأنها أمنت . «بالله» وهى تحت رجل جبار يناصب ربه العداء لم تكن تعلم حين حملوا لها «موسى» سايحا فوق الماء داخل تابوته الصغير أنه «نبي» يل تحننت عليه وهى تجهل حقيقته لأنها كانت محرومة من الأطفال أما هى فإنها تعلم أن «يحيى» الذى يسبح الآن فى بطن خالتها «نبي» أعلم «الله» الناس بنبوته قبل أن يولد فياله من شرف رفيع ظفر به «يحيى» وبألها من نعمة كبرى فاض بها عليها الرحمن الرحيم أن تشهد هذا .

كانت تنتظر إلى بطن خالتها المنتفخ وتقول فى سرها فى هذه البطن يسكن القلب الذى سيتلقى كلام «الله» وترتاح الأذن التى قدّر لها أن تكون وعاءاً لكلام «الله» وتتعجب من لطائف صنع «الله» وعجائب رحمته كيف يحمى مخلوقاته داخل الأرحام على نحو لم يخطر لأحد على بال ويضمن لهم الطعام وهم بعد لا يعرفون أسماءهم بل لا يعلمون من أبوهم ومن أمهم . ربما لا يعلمون عن أنفسهم إن كانوا أحياء يرزقون من «الله» أم لا ؟؟ ولكن هل يعلم المستقر فى رحم خالتى أن اسمه «يحيى» إن «الله» قد سماه وأبلغت الملائكة «زكريا» بإسمه وهو قائم بالمحراب فهل استمع «يحيى» لإسمه وهو فى الرحم وعرف نفسه من نداء الملائكة ؟؟ .

اقتربت اللحظة وجاء المخاض . أسرع «مريم» تنادى القابلة وهولت النسوة من الأقارب والجيران وأشدت ضربات المخاض وهول «زكريا» إلى المحراب الذى استمع فيه إلى وعد «الله» فخر ساجداً يطلب من «الله» ان ينجز وعده .

ووقفت «مريم» بجوار خالتها التي تشبّثت بها وكلما اعتصرتها يد المخاض غرزت أصابعها في جسد «مريم» كما كانت أم «مريم» تفعل فيها وهي تغلق فمها بإطباق شفيتها بقوة لتمنع نفسها رغماً عنها من إطلاق صرخة مخيفة فيفلت من بين الشفتين المضمومتين صوت صراخ مكتوم نداء خفى يفصح عن أنين غامض ينبعث من قلب كل أم كتب «الله» عليها منذ «حواء» أن تلد في ألم تستحق بمكابדתه وهي تخرج «الله» مخلوقاته من رحمها أن يضع «الجنة تحت قدميها»، لقد كرهت النسوة أن تبقى «مريم» في الغرفة وأن تشهد الولادة وهي شابة لم تتزوج بعد وأوشكن أن يطلبن منها أن تغادر الغرفة لولا أن وجهها كان يبدى تصميمًا على البقاء وكان لها من الهيبة ما أعجز النسوة عن أن يطلبن منها الخروج ولما تعسّرت الولادة صرخت القابلة «يا مريم» صلى لخالتك من فمك الطاهر يا أبة «عمران» تُقبّل الصلاة وتعالى الدعوات وأنهمرت الدموع في بيت «زكريا» وفي المحراب حيث يسجد «الله» .

وعلى الطريق الذى شقته صرخات الألم ومهدته «الصوات» وبللته أمطار الدموع تهادى «يحيى» إلى شهود الدنيا .

«وسلامٌ عليه يوم ولد» (٧٨) نزل من «الله» فوقاه من نزغة الشيطان فلم يصرخ باكيا بل جاء صامتاً وقوراً وتطلعت الأعين إلى وجهه البديع وامتلات القلوب بالرعب خشية أن يكون صمته للموت إلا قلب أمه التى تذكرت مجيء «مريم» فضحكت بينما كان الجمع يبكى لأنها عرفت ان «الله» قد أنجز وعده وأن ابنها سيكون سيداً لا يستطيع الشيطان أن ينال منه.

أيقنت النسوة أنه «حى» إذ حرك أطرافه وفتح عينيه خلال ذلك الشئ الأبيض الذى يغطى وجهه فأطلقن صيحات الفرخ وأنطلقن يقبلن المولود الجميل ويضعن جسده الصغير فى الملابس التى أعدت له وبينما كان الجمع يضحك كانت امرأة «زكريا» تبكى. كان بكائها شكراً لم يعرف طريق اللغة فانساب من عينيها أما «مريم» التى كانت

تحقق ببصرها فى النبى القادم توا من الغيب خارجا من ظلمة الرحم فكانت تهمس فى سرها «سبحان الله تبارك القدوس أحسن الخالقين» .

حظى «يحيى» باهتمام الجميع .

استحوذ على أمه التى ولدته كانت ترى أن كل يوم جديد يقربها من الموت ويبعدها عن ثمرة حياتها التى جاعتها قرب النهاية فتزداد تشبثا به وهى تخشى أن تضطر لفارقتة صغيراً ضعيفاً يحتاج إلى من يرعاه كما تركت حنة «مريم» فتتضرع إلى واهب الحياة أن يمد فسى عمرها حتى يشب «يحيى» ويصبح فى غير حاجة إلى أحد من الخلق.

واستحوذ على إهتمام أبيه الذى كان ينتظر فى شوق أن ينمو الغلام حتى يعده ليكون الوريث الذى يحمل عنه النبوة والرسالة ويجدد عهد بنى اسرائيل مع «الله» لعله ينجح فيما فشل فيه هو أيعود بنو اسرائيل على يد غلامه الى طريق «الله» المستقيم ؟!

واستحوذ على إهتمام «مريم» الفتاة التى بلغت سن الزواج وقد أخذ قلب الأم ينمو فى كيانها والأبنة وحيدة والديها التى تتلف على شقيق أصغر يكسر حدة غربتها ويجدد حياة البيت الذى عاش زمنا طويلا فى ظلال الموت، الشجرة العجوز التى تضم فى عشها المتهالك «زكريا» و«خالتها» طائران أوشكا أن يرحلا البيت العجوز الذى كان يتهاوى جاء «يحيى» يجدد حياة وينثر البهجة فى أركانه، تنظر إليه وهو يلتقم ثدى أمه وتتعجب كيف هدى «الله» هذا العصفور الصغير القادم تواً من الجنة الى هاتين الربوتين اللتين تعلوان صدر أمه وعرف أن فيهما قد جهز «الله» له رزقه تراقبه وهو يضحك ويلهو بتحريك ذراعيه وساقيه ويذوب قلبها حنانا عليه عندما تسمعه يبكى فتهرول إليه وتضمه الى صدرها حتى يهدأ ثم تبدأ فى ملاعبته حتى تصدح ضحكاتهما فتثير البيت كله بالسرور وخالتها تنظر إليها فى مودة وقد ارتسمت على وجهها الواهن ابتسامة حنونة «متعك الله يا بنيتى بالذرية الصالحة» فيزداد إشراق وجه «مريم» بحمرة الحياء وتعطى «يحيى» لإمه وتهول إلى غرفتها .

كانت تتلقى دون أن تدري دروسا فى رعاية الطفل لعلها يوما ما تكون فى حاجة إليها .

أثار «يحيى» الإنتباه فى «أورشليم» وغيرها من المدن التى سرى إليها نبأ الكاهن العجوز «زكريا» الذى أنجب غلاما كما تنبأ من قبل وأن هذا الغلام سيكون نبيا ويُبْعَث فى زمن رسالته نبى آخر سرت هذه الأنبياء فى الشعب المتعطش إلى عودة «المجد الغابر» فروت الآمال القديمة التى كانت قد أوشكت أن تموت فى القلوب وغيّرت صورة «زكريا» فى أعين الناس فآلبسته رداء المهابة وبدأوا ينظرون إليه باحترام اذ صاروا يقارنون بينه وبين «إبراهيم» خليل الله الذى جاءت من ذريته الأنبياء وبدأ الناس يتطلعون فى أمل إلى زوال الكرب الحاضر ويفتشون فى الكتب القديمة لعلمهم يجدون فيها ما يدعم آمالهم ويمدهم بالأدلة على صدق نبوة «يحيى» والنبى الآخر الذى سيبعث معه كما قال «زكريا» إذ بدأوا يقبلون نبوته .

وصار «يحيى» صبيا يمشى فى ظل أبيه. كان يلزم «زكريا» فى كل مكان وقد حرص أبوه على أن يأخذه معه إلى الهيكل ليشهد الصلوات والمواظ والطقوس لتتطبع صورها فى فؤاده وتشكل سلوكه .

وعندما ابتدأ يُبين أخذ يعلمه الشريعة وكتب الأنبياء ويحكى له قصص المرسلين كما كان يفعل من قبل مع «مريم» .

جذبت كلمات «زكريا» قلب «يحيى». كانت تأخذه إلى «عالم آخر» يعرفه رغم أنه لا يستطيع تسميته وتذكره بحياة موهلة فى القدم عرفها قبل ولادته ثم نساها فجاءت كلمات أبيه لتحى آثارها فى قلبه .

وأبتدأ الصبى «يحيى بن زكريا» يلاحظ فى انزعاج وحيرة أن الشيوخ والكهنة يكرهون أباه. كان يستطيع أن يلمح ألسنه الغضب التى تندلع من العيون القاسية وهى

تصوب نظرات الحقد على أبيه ويستمتع فى خوف وإضطراب الى الأصوات الغليظة
التي تندفع من أفواه القوم الذين تجمعوا حول أبيه يجادلونه .

رأهم مرة وقد التفوا حول أبيه يجذبونه من ردائه وأبوه المسكين يترنح بين أيديهم
لا يدري ماذا يفعل كادوا يبطشون به لولا أن تدخل بعضهم ومنعوه منهم ثم
حملوه إلى بيته .

لم يحتمل الرؤية فأغمض عينيه وأسرع يفر ثم جلس وحيدا يبكي «لماذا يكرهون
أباه الطيب ؟؟ لماذا يسمح «الله» الذى يحبه ويحب أباه بهذا الظلم ؟؟» .

وعاد «يحيى» فى الليل محزونا وقد جففت الحيرة دموع عينيه، نظر إلى وجه أبيه
الحنون وهو يضىء فى العتمة فعادت الدموع تفيض من عينيه من جديد، هروا إلى أبيه
يقذف بنفسه فى حضنه فتلقاه أبوه وضمه الى صدره، ثم أخذ «يحيى» يتلقى
الدروس من أبيه .

علمه أن الشريعة هى الطريق الوحيد للظفر بالحقيقة وأن التمسك بها هو الباب
الوحيد للدخول الى الحياة الحقيقية وأن أعداء الإنسان الذين يبغون إهلاكه بحرمانه من
رحمة «الله» كثيرون أولهم إبليس وجنوده من الشياطين ولكن أقواهم وأشدهم مقاتلة
للإنسان هو نفس الإنسان التي تدعوه الى التهاون فى فروض «الله» والإستخفاف
بأحكامه وتغويه بإرتكاب المعاصى وأن الدنيا هى ميدان حرب بين الانسان وأعدائه وإذا
أراد الانسان الفوز على أعدائه وأشدهم عداوة له هو نفسه فعليه أن يتشبث بكتاب
«الله» يتعلم أحكامه ويعمل بها ما وسعه الجهد ويتدبر آياته ليفهم أسرارها ما وسعه
الفهم ولا يدع كتاب «الله» يسقط من يديه أبداً، هذا هو طريق النجاة فى هذه الحرب
التي تشتعل نيرانها ولا مجال لمجاملة الناس على حساب الحق، إن الفريضة التي
افترضها «الله» على الأنبياء ثم العلماء الذين يرثون منهم علمهم هو حفظ شريعة
«الله» هذا هو الشكر المطلوب من الأنبياء والعلماء على نعمته التي أنعمها عليهم إذ

استودع قلوبهم علمه وإلا فقد خانوا الأمانة التى حملها «الله» لهم، لقد تلخصت دروس «زكريا» لغلامه فى قوله «يا يحيى خذ الكتاب بقوة» (٧٩) .

وأقبل «يحيى» على تعلم التوراة وكتب الأنبياء كما تلقاها من فم أبيه فأظهر قدرة عجيبة على حفظ النصوص وفهمها وأستنباط الأحكام وتأصيلها حتى أن «زكريا» بدأ يتذكر «سليمان» الصبى الذى كان يحضر مجالس أبيه «داود» النبى الملك وكان قادرا بفهمه على مراجعة أحكام أبيه وتعديلها خاصة وأن «يحيى» قد وهب مهابة الملوك فكان على صغر سنه يوحى بملامحه وسلوكه الوقار إلى أعين الناظرين إليه، قال «الله» مخاطبا النبى الأمى واصفا هبته إلى «يحيى» «واتيناه الحكم صبيا» (٨٠).

لكن «يحيى» كان سيدا من طراز آخر، أحب العزلة فمال الى الخروج منفردا إلى الجبال والأماكن النائية، طلب من أبيه أن يصبح راعيا للغنم فتبسم أبوه ضاحكا من طلبه وقد فهم حكمة «الله» فأعطاه ما طلب فكان «يحيى» يقوم من نومه مبكرا فيغتسل ويصلى مع أبيه وبينما يدخل أبوه فى الذكر فإن «يحيى» كان يقوم بمعاونة «مريم» فى إعداد الطعام ثم تذهب «مريم» إلى المحراب وتنشغل خالتها بشئون بيتها أما «يحيى» فإنه يسرخ مع غنمه إلى المراعى يسوقها الى منابت الكلأ وعيون الماء .

يتأمل الجبال فى شموخها وثباتها ويتعجب من الأزهار البديعة التى تنبت بين الصخور القاسية ويتساءل فى نفسه عن القدرة العظيمة التى جمعت بين القوة والجمال والصلابة والنعمية فى نفس المكان يجلس هادئا صامتا يراقب أغنامه وهى ترعى العشب الأخضر الجميل وينظر إلى الفراش البديع بأجنحته الرائعة وهو يطير بين الورود الملونة ويقارن بين ألوان الفراش وألوان الورود وبين حدة النسور ووداعة الحمام ورقة صوت العصافير وكأبة صوت الغريان يدهشه هذا التنوع الفريد الذى يزين الدنيا ويذهله أنه يشعر فى أعماق قلبه أن كل الكائنات إنما هى أفراد تنتمى لأسرة واحدة بل أعضاء فى جسم واحد مظاهر حياة واحدة لم تزل تتنوع وتتعدد وتتكاثر على نحو يتعالى على الفهم .

ومن شعوره العميق بوحده الكائنات كلها وصورها عن نفس واحدة نبت في قلبه
الحنان الذي كان يملأه رافة على المخلوقات كلها «وحنانا من لدنا وزكاة» (٨١)

«وزكاة»

أدرك منذ صباه أن مهمة الإنسان في الدنيا هي التطهر حتى يبقى في رحمة
«الله» ويكون أهلاً للاتصال «بروح الله» فكان حريصاً على نظافة جسده وثيابه وطهارة
قلبه من الكبرياء والكراهية والخداع وبراءة لسانه من الكذب واللغو والبذاءة لا يطيق أن
يرى القذارة على شيء .

«وكان تقياً» (٨٢) شديد الحرص على حماية نفسه من عذاب «الله» بالمسارعة
في الطاعة والمبالغة في الإبتعاد عن المعاصي ومواطن اللغو واللهو والشبهات .

«وبرا بوالديه» (٨٣) ناظراً إلى أنهما الباب الذي أتى منه كل فضل من «الله»
عليه لأنهما الباب الذي أختاره «الله» ليهبه منه الحياة فلم يكن يأكل حتى يطمئن أنهما
قد أكلوا ولم يكن يخرج من البيت في الصباح قبل أن يقبل يديهما ويسألهما الدعاء ولم
يكن ينام قبل أن يتأكد أنهما قد تناولا طعامهما وناما مستريحين كأنهما قد صارا ولديه
ولم يكونا والديه .

«ولم يكن جباراً عصياً» (٨٤) إذ أدرك يوماً بعد يوم أن المخلوقات كلها
تسمى بأقدارها لتحقيق أرادة «الله» إنها مثله لا تفعل شيئاً أكثر من تحقيق علم
«الله» الذي كان في «الكتاب» مسطوراً .

إنه لم يخلق نفسه وإنما خلقه «الله» من أبوين يعجزان عن الإنجاب ولم يختار
لنفسه شيئاً فإن «الله» هو الذي أختار مكان نزوله ووقت ولادته وأختار له حتى أسمه
فعلى أي وهم من الأوهام يشيد الإنسان صرح إرادته المزعومة ؟؟

ليس لأحد أن يفرض مشيئته إلا «الله» فهو وحده المنفرد بالمشيئة ولا يحق لمخلوق

أن يزعم لنفسه إختياراً يجاور إختيار «الله» لأنه حينئذ يدعى أنه ند «له» أما توهم مصارعة «الله» ومعارضة إرادته فهو الجنون الذى لا شفاء له. هذا ما أنتهت إليه تأملات الصبى ولذلك لم يكن يحاول أن يفرض رأيه على أحد موقناً أن رغبة الإنسان فى فرض مشيئته المزعومة على غيره هي مصدر كل «الخطايا» التى تربط الإنسان فى الجحيم لأن أصل هذه الرغبة المشنومة هي الكبرياء الذى يهوى بالإنسان الى جهنم سجن المتكبرين. إن على الإنسان أن يجتهد ما وسعه الجهد فى الخضوع لإرادة «الله» لأن «الله» قد خلق الإنسان لطاعته هذا هو طريق النجاة ومن أجل هذا كان «يحيى» مستعداً دائماً لقبول الموعظة من كل أحد. من الشيوخ والكهنة فى الهيكل بل حتى من الرجال البسطاء الذين ربما قابلوه فى الهيكل أو فى الطرق غافلاً عن عيب الواعظ وغير عابئ بمكانته أو مظهره محاولاً تبين الحق فى كلامه عازماً على الرضوخ لمقتضى الحق عاملاً بإرشاده .

ربما قام بوعظه بعض الجهلاء الذين يفضح كلامهم جهلهم البين وهم يغفلون عن انه ابن النبى الذى تلقى العلم من فم أبيه الذى رباه على عينه لم يكن ليستهزئ بجهلهم بل يقدر دائماً حسن نيتهم لرغبتهم فى إرشاده. لم يحتقر أحداً من الخلق لأن «الله» وحده هو الذى يعلم حقيقة خلقه فربما كان هذا الرجل الجاهل التافه الذى لا يأبه به أحد من الناس أفضل عند «الله» منه فليس له أن يظن أنه أفضل من أحد . يوجد واحد فقط هو أفضل من الجميع إنه «الله» الذى يجب أن يخضع له الجميع وهذا هو ما عزم عليه «يحيى» وهو يتجاوز عتبة الصبا إلى الشباب .

وحضر الموت ليحمل امرأة «زكريا» إلى ربها وألقت الثلاثة حولها «زكريا» و«يحيى» و«مريم» يودعونها وهى تغادر الدنيا وقد اطمأنت على مصير ابنها . وأخذ الكبير من «زكريا» كل مأخذ فمالت شمسها إلى المغيب وصار لا يغادر بيته. لم يعد فى وسعه أن يذهب الى الهيكل أو أن يعظ الناس فمكث فى فراشه ينتظر الرحيل مستسلماً إلى حكم ربه راضياً ممتناً يتلقى خدمة «مريم» و«يحيى» وهما يتنافسان على إرضائه ويسألانه الدعاء وقد صار قريباً من لقاء ربه .

أما «يحيى» فزاد ميله الى العزلة ولم يعد يحب أن يذهب الى الهيكل بعد انقطاع والده عنه. كان يكره صخب السوق التي تحيط بالهيكل ويمقت المجادلات العقيمة التي كانت تواصل الإندلاع بين الكهنة والفريسيين وبين الشيوخ من جانب والشباب على الجانب الآخر. كثيراً ما تبادل المتجادلون المتناحرون السباب بل كثيراً ما أشتبكوا بالأيادي في عراك عنيف مختلفين في تفاصيل الطقوس التي تضخمت وتعددت بإضافة عادات الشيوخ وتقاليد الشعوب إلى فروض «الله» إذ استحال على «يحيى» أن يقتنع أن الإنسان يمكنه أن يعلم الحق وأن يعرف الحقيقة في مثل هذا الجو الذي يخنق «الروح» فكان يفر إلى البرية ويلقى بنفسه إلى حضن الجبال ليظفر بالعزلة التي تمكنه من التهيؤ لتلقى المعرفة .

كان جمال «مريم» يأسر القلوب والعيون وكانت سيرتها الحسنة تعطر سماء «أورشليم» وأرضها ورغم ذلك لم يتقدم أحد من رجال «أورشليم» ليطالب يدها المعيشة الخسنة الزاهدة والحياة التي استغرقتها الصلاة جعلت «مريم» العذراء البتول حلاًماً بعيد المنال بل حلاًماً مستحيل لا يسعى أحد في ذلك العصر المظلم للإقتراب منه أما هي فكانت تغبط نفسها أن وهبها «الله» أن تحيي بين نبيين نبي أوشك أن يرحل ونبي أوشك أن يظهر شهدت مولده ولعبته وهو بعد طفل صغير أطعمته بيدها وحملته على صدرها وهددته حتى ينام. راقبته عن قرب وهو ينمو كالشجرة الطيبة تحت بصرها ولم تكن تعلم أنها تحمل في رحمها نبي آخر هو «عيسى» ابنها .

(٨)

« كلمة من الله »

«إسمه المسيح عيسى ابن مريم،

«سورة آل عمران : ٤٥»

رفعت وجهها من السجود فرأت جمعا كبيرا من الملائكة يتقدمون نحوها فوقفوا
ثم خطا نحوها «إمامهم» وقال لها :

**«يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن
مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى
المهد وكهلاً ومن الصالحين» (٨٥) .**

كان الصوت ينبعث رقيقاً ودوداً وينساب فى قلبها محاولاً طمأننتها لكن المحاولة لم
تفلح لأن «العذراء» قد ملئت رعباً لما سمعته ينطق بـ «إسمه المسيح عيسى ابن
مريم» فكيف يكون لها ولد ولم تتزوج بعد. ليست هذه بشرى بقرب زواجها لأن
الصوت نسب الغلام إليها ولم ينسبه إلى أبيه كما تقضى شريعة «الله» الذى يرسل
الملائكة إلى المصطفين من عباده ليخبروا بما يريد «الله» قوله. لا يمكن أن ينطق رسل
«الله» الملائكة وهم لسانه بالكذب أو بما يخالف شريعته فكيف ينسبون الغلام إليها.
هل هؤلاء حقاً ملائكة؟؟ إنها لم ترتب فيهم ولكن الإسم أفرعها وحيرها فأرادت ما
يسكن قلبها ويبدد كل حيرتها فخرت على وجهها «له» ساجدة تقترب تريد إجابة من
«الله» لا يحملها سفير ولا واسطة همست إليه فى سجودها «قالت رب أنى يكون
لنى ولد ولم يمسننى بشر» (٨٦) .

لقد عاشت حياة طاهرة لم يلوثها شيء لم يلمسها رجل واحد ولا مرة واحدة ولم تشتت رجلاً أو تفكر في الزواج بل إنها لا تذكر أنها رأت في أحلامها رجلاً يغازلها فكيف يمكن أن تلد ؟؟ وجاءها الصوت من الملاء الأعلى « **قال كذلك الله يخلق ما يشاء** » (٨٧) .

ولذلك المنتظر ليس إلا مثلاً مضروباً من «الله» للناس على أنه يظهر ما تتجه إليه أرائته فالأشياء تظهر لأن «الله» أراد خلقها «إذا قضى أمراً فإنما يقول له **كن فيكون**» (٨٨) .

عندما يحكم بنزول كلمة مستورة في غيب السماوات والأرض فإنه لا يفعل أكثر من أن يستدعي هذا الشيء الغائب يأمره بالحضور فيكتسب الشيء بنور الإستدعاء وأمر الحضور القوة التي بها يكون «**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل .. أنى قد جئتكم بأية من ربكم**» (٨٩) .

وانقطع الخطاب والتفتت «مريم» إلى جلوسها في المحراب فأخذت تستبين في صعوبة ملامح الأشياء التي بدأت تغيم، قامت ساهمة النظرات شاردة الفكر تحت الخطى إلى بيت «زكريا» وكلمات النبوة تتردد في قلبها الذي توهج من الخطاب كانت تهول توشك أن تعدو وضربات قلبها تتسارع ونسمات ليل الشتاء الباردة تسلم وجهها المحموم دخلت إلى البيت وأسرعت إلى غرفتها ولم تنتبه إلى «زكريا» و«يحيى» اللذين كانا ينتظرانها فتبادلا نظرات تقول «ترى ما الذى أصابها» ؟! ولم يتكلما أو يظفرا بجواب .

رقدت في غرفتها وهى تشعر بالحمى تذيب جسدها الذى كان يرتجف فأخذت

تلف نفسها بالأغطية الثقيلة. قلبها المتوهج يلهث باحثاً عن السكينة وجسدها المتعب يطلب الراحة ولا يجدها. أخذ التعب منها كل مأخذ ثم أسلمها النوم إلى النور فانطلق فؤادها يطلب السكينة .

«إن الله يبشرك بكلمة منه»

إبنك كلمة نزلت من «الله» إليك فأبشري أنك حملت كلمة من «الله». لقد إختصه «الله» بوصف أنه كلمة منه مع أن الخلق جميعاً كلمات من «الله» لأن إبنك هو الذى يُظهر هذه الحقيقة ليعلم الناس أنهم فى حقيقتهم كلمات نزلت من «الله» فأينك هو الشاهد على هذه الحقيقة فحق له أن يوصف فى الخطاب بأنه كلمة من «الله» .

«اسمه المسيح عيسى بن مريم»

سماه «المسيح» لأنه سيظهر بمسح رحمك «بروح الله» فهو «الممسوح» بيد الله كما مُسحت قطعة الطين فخرج منها «آدم» ومُسيح ظهر «آدم» فخرجت بتلك «المسحة» البشرية كلها فى النشأة الأولى قبل الحياة الدنيا . سيظهر فى رحمك بتلقى «المسحة» التى هى «نفخة الروح» فحق له دون غيره من البشر أن يسمى «المسيح» لأنه يكون الدليل على أن الإنسان إنما يظهر بتلقى مسحة يد الله أو نفخة الروح وإذا كان كل البشر منذ هبطوا مع «آدم» إلى حياة الابتلاء قد تلقى كل واحد منهم وهو مضغة فى رحم أمه «مسحة من يد الله» أو «نفخة من الروح» بواسطة واحد من الملائكة وهو لم يزل قطعة من اللحم مغروزة فى جدار الرحم ليظهر فيها الإنسان فإن ابنك لن يتلقى «روحه» أو «مسحته» بواسطة ملك من الملائكة ينزل إليه من السماء بل سيظهر بنفخته من «روح الله» الذى سيظهر لك قلن ينب عنه أحد جنوده من السماء فى حمل روح «عيسى» بل سيأتى لينفخه فى رحمك (٩٠) .

ونسبه إليك فقال عنه أنه ابن «مريم» لأنك يا مريم بالجسد أمه وأبوه .

«وجيها ففى الدنيا والآخرة»

سيكون ابنك رجلاً مشهوراً فى الناس مرموقاً يتطلع إلى وجهه جم غفير من البشر يعلقون آمالهم عليه وينتظرون الخير على يديه فى الدنيا وفى الآخرة .

«ومن المقربين»

وسيكون ابنك واحداً من عباد «الله» الذين ينعم عليهم بالحياة الأبدية فيواصل حياته بعدما يغادر شهود الدنيا بالموت يبقى حياً مع الذين أنعم «الله» عليهم مثله يتمتعون بجنات النعيم فى الدنيا وقبل قيام الساعة .

«ويكلم الناس فى المهد وكهلاً»

وسيكون ابنك قادراً وهو لم يزل طفلاً حديث الولادة على مخاطبة الناس خطاب الحكماء البالغاء ليعلن للناس براعتك ويكون كلامه وهو لم يزل فى المهد دليلاً على صدقك وسيبقى حياً حتى يتجاوز عمر الشباب إلى الكهولة فيكلم الناس ليبين فضل «الله» عليك وعلى الناس .

«ومن الصالحين»

وسيكون فى الآخرة واحداً من الذين أختارهم «الله» فجعلهم لائقين للحياة فى بساطين الخلود المسماة جنات عدن .

«ويعلمه الكتاب»

وسينير «الله» قلبه حتى ينبعث فيه «علم الله» الذى حواه «ذلك الكتاب» الذى أودع الله فيه ما يعلمه (٩١) .

فيكون عيسى بهذا التعليم واحداً ممن «أوتوا العلم» الذين جعلهم الله شهداء على وحدانيته.

«والحكمة»

ويعلمه سنة «الله» المرضية فيتهدى إلى الطريقة المثلى فيظفر بالحياة الطيبة التي وعدها «الله» عباده الصالحين في الدنيا مدة الإبتلاء .

«والتوراة»

ويعلمه الأسفار التي أوحاها إلى «موسى بن عمران» عند التكليم ثم ألهمه كتابتها بعد كسر الألواح . إن بنى إسرائيل قد نسوا توراة «موسى» وحذفوا من كلام «الله» وأضافوا إليه ما شاعت لهم أهواءهم فيكون «لعيسى» بهذا التعليم أن يعيدهم إلى كلام «الله» الحق ويجلو لهم بعض الاختلافات الكثيرة التي نشبت بينهم لضياع توراة «موسى» التي أوحاها «الله» إذ استبدلوا بها ما كتبه الكتبة والكهنة .

إن تعليم بنى إسرائيل «التوراة» الحقيقية التي ضاعت من السطور ومن الصدور وبيان مقصود الله من كلامه هو إحدى المهام التي سيقوم المسيح «عيسى بن مريم» بالإضطلاع بها حين يأتي أوان خروجه للناس .

«والإنجيل» (التبشير)

ويعلمه التبشير بالملكوت وهو «روح الله» الذي وهبه حياته فكما يكون «الملكوت» هو الذي يقدم «عيسى» إلى الدنيا بإظهاره من رحمك فإن على «عيسى» المخلوق من رحمك أن يقدم «الملكوت» إلى الدنيا معلناً قرب ظهوره .

«الإنجيل» هذا هو الإسم الذى تأخذه دعوة ابنك بين الناس .

«ورسولاً إلى بنى اسرائيل»

وسيكون غلامك رسولا من «الله» إلى ذرية يعقوب داعيا إياهم إلى العودة إلى طريق «الله» .

«أنسى قد جئتم بأية من ربكم»

لأن مجيئه مخلوقاً من الرحم دون أب من البشر هو برهان ساطع على قدرة الله الخالق القادر على كل شيء وهو بيان واضح لمن يتدبر يُعلم به كيف تكتسب الكائنات كيانها وهو دليل يؤكد صدق «عيسى» حين يأتى أو أن تبشيره لأن مجيئه هو نفسه يشير إلى سعى «الملكوت» للظهور ويعلن قرب حضوره للناس. إن مجئ «عيسى» على هذا النحو هو نور إعلان للأمم أن «الملكوت» الذى بشر به جميع الأنبياء منذ فجر الدنيا قد إقترب من الباب يوشك أن يطرق سمع الدنيا بكلمة الله الأخيرة .

وعرفت «مريم» أن أبنها «عيسى» كامن فى رحمها دون أن تدرك أن «روح القدس» هو الذى سيهبه روحه ولن ينيب عنه أحد الملائكة وأن ابنها هو الكلمة من «الله» التى بُشِّرَ بها «زكريا» من قبل حين بُشِّرَ بمجئ «يحيى» وأن «زكريا» و«يحيى» سيؤمنان لها . إن «الله» يريد أن يجعلها وابنها آية للناس يعلمون بها كيف تخلق الاشياء و «القدس» هو مقام محبة «الله» أن يعرف «روح القدس» هو «رسول الله» المعبر عن إرادة «الله» فى الظهور . هو «روح الله» الذى وهب كل شيء خلقه . إنه الأصل الذى ظهر به جميع الخلق منه تستمد كل الكائنات كيانها . لقد عرفت الآن بمفضلها «الله» على جميع النساء لكنها لم تعرف كيف ستواجه «ملكوت كل شيء» وجهاً لوجه ليس بينهما حجاب ولا وسيط ؟؟

كيف يمكنها أن تقف أمام «سر الحياة» الذي يفيض بكل شيء، السر الأبدي الذي يُخلَق به كل شيء كيف يمكنها أن تتصل «برسول الله» الذي يحرك المخلوقات كلها، يد «الله» التي تهيمن على كل شيء وتدير السماوات والأرض كيف سيظهر لها هل يمكنها احتمال ظهوره ؟ وماذا سيصنع بها أم أنها لن تراه وسيهبها الولد دون أن تدري كما أنها تحمل الآن «كلمة عيسى» وهي لا تدري وراحت رأسها تدور وقلبها يموج بالأسئلة وهي تخرج من «الرؤيا» وتلتفت إلى جسدها الراقد في غرفتها ببيت «زكريا» في «أورشاليم» وقد أشرق الصباح وأستبانت ملامح الأشياء في نور الشمس .

عادت الحيرة لتملأها بالرعب من المصير الذي عاد في ظلمة النسيان مجهولا عاينت أن القدر يسوقها رغما عنها إلى قبضة تجربة بدت لها وهي جالسة في غرفتها مستحيلة العبور .

أطبق عليها الصمت وهي تشعر أنها قد ألقى بها في بحر واسع عميق لا قرار له ولا شواطئ تتدافع أمواجه يعلو بعضها فوق بعض وهي تهوى في باطنه لا تملك أرادة ولا قدرة ولا حتى رغبة في الاستغاثة بمن تستغيث ممن ؟؟ ..

لم تعد تستطيع أن تذهب إلى الهيكل بل لم تعد ترغب في مغادرة غرفتها اذ كانت تعجز عن مواجهة «زكريا» و«يحيى» لا تعرف ماذا تقول لهما ولا كيف تتصرف ولم تحصل على إجابة للأسئلة الكثيرة التي ظلت تموج في قلبها وتششت أفكارها فلم تكن تملك إلا أن تجلس شاردة الفؤاد ساهمة النظر صامتة في غرفتها تنتظر أن تجد أجابة.

ثم لم تعد تخرج حتى لتتناول الطعام وأستبد القلق بـ «زكريا» و«يحيى» لا يعرفان ما الذي أصابها ولا يملكان إلا احترام العزلة التي فرضتها على نفسها فقد كان يبدو

عليها الضيق والتبرم كلما دعاها أحدهما لتتناول الطعام أو الحديث فأثرا أن يتركها لوحدها ويسألن «الله» لها التوفيق .

ثم فاجأت «زكريا» بطلبها أن تغادر غرفتها في بيته لتصنع لنفسها بيتا خفيفا من الشعر لتحجب في الحديقة خلف المنزل لأنها تريد أن تعتكف «له» تريد «الصلاة» وبدا له طلبها غريبا لا معنى له لأنها تقضى نهارها كله معتكفة تمكث بمفردها ولا يقتحم أحد عزلتها. هي في صلاة دائمة فما الذي جرى حتى أنها تريد مغادرة غرفتها هل ضايقها شئ؟؟ ما الذي أصابها ؟ لم يظفر بجواب ولم يملك إلّا إجابتها إلى ما طلبت فصنع لها «يحيى» الحجاب الذي أرادته على الناحية الشرقية خلف المنزل. فأخذت «مريم» لوازنها الضرورية وأستاذت «زكريا» و«يحيى» ودخلت الحجاب. لم تستطع أن تقول لهما شيئا. هي نفسها لم تكن تدري بالضبط لماذا طلبت هذا كل ما كانت تستطيع أن تتبينه في نفسها هو رغبتها في الإختفاء عن العيون الرغبة في الذوبان والتلاشي أن تعود كما كانت قبل الخلق لا شئ .

«وأذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا .. فتمثل لها بشرا سويا» (٩٢)

بينما كانت ترتفع من الركوع قرأته واقفا أمامها في القبلة وعلى وجهه المشرق ترتسم ابتسامة لطيفة. رجل جميل الوجه مكتمل الرجولة لم تستطع أن تحديق في وجهه لتألق مهابته. أنتفض كيانه كله من الفزع واتسعت عيناها وهما تحاولان التحرر من أسر نظراته وأوشكت أن تصرخ إلا أن الصرخة التي إندلعت من قلبها وقفت عند لسانها لا تريد أن تنطلق. صوت رقيق لم تعرف من أين ينبعث همس إليها أن اهدئي

واطمئنتى، توهمت لأول وهلة أنه إبليس وقد جاء يفتنها عن صلاتها فخرج صوتها فى صعوبة «قالت أنسى أعوذ بالرحمن منك» (٩٣).

تنادى رحمة «الله» التى وسعت كل شئ لتحميها من شر هذا الذى توهمته شيطاننا رفعت رأسها من الإطراق لتتظر أذهب الشيطان أم لم يذهب؟؟

ففوجئت بوجهه المشرق يزداد تألقاً وقد فاض من وجهه الفرح «كلا ليس هذا شيطاناً» فلو كان شيطاناً لولى أو أحترق إذن هو انسان فاجر تجرأ على اقتحام حجاب امرأة لا تحل له فحدقت فى وجهه تريد أن تستبين ما وراءه وهى تلومه على سوء سلوكه قالت «إن كنت تقياً» (٩٤) ما كنت تقياً لم تكن متصفاً بالتقوى حين أقتنحت حجاب امرأة غريبة عنك دون استئذان فهذا ليس من سلوك الأتقياء وانتظرت أن يلوم نفسه ويمضى خجلاً من فعلته ولكنه ظل قائماً ووجهه الوقور يزداد جمالاً فى عينيها «كلا ليس هذا وجه فاجر ولا شيطان» فمن يكون؟! .

وانساب صوته يبدد ما بقى فى قلبها من الفزع

«قال إنها أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً» (٩٥).

ليس الأمر كما توهمت يا «مريم» فلست شيطاناً ولا بشراً معدوم التقوى بل أنا «رسول الله» الذى تتشرفين بعبادته أرسلني إليك من أجل أن أمنحك ولداً ذكراً طاهراً منزهاً عن أن يكون ثمرة زنا ومبرأً من كل عيب، إن جسده الآن ينمو فى رحمك.

فهذا إذن هو «روح القدس» الذى ظلت تسأل نفسها فى أى صورة يمكنها أن تراه لقد جاءها فى صورة «الإنسان» .

لكنها لم تعرف كيف سيهبها الغلام !؟

«قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا» (٩٦)

من أين وكيف أحصل على ولد ولم أتصل برجل ولا حتى باللمس الخفيف السريع ولو مرة واحدة ولست امرأة تتاجر ببيع جسدها لطالبي المتعة المحرمة. فانظر الى رقتها ودقتها وهى تستعمل اللفظ الذى يعبر عن أقل مباشرة «المس» لتدفع عن نفسها الشبهة وأنظر الى حكمتها وبلاغتها وهى تقبح الزنا فتجعله علاقة لا تليق بالبشر لهذه المحاسن كلها استخقت «مريم» أن تكون أفضل امرأة فانظر كم يحبها ربها لذلك كره أن يصل النون بالكاف حتى لا تصير «كن» وهو فى مقام وصف دفاعها عن نفسها فلم يقل على لسانها «ولم أكن بغيا» بل قال «ولم أك بغيا» فقطع الكاف عن النون ليؤكد طهارتها من الزنا فنفى أى احتمال لوقوعه فى العلم الإلهى إذ لم يعطه حتى فى مقام النفى لفظ «كن» كما لم يرد أن يصل النون بالكاف وهو فى مقام وصف «عدمية» «زكريا» قبل خلقه أول مرة فقال له فى النداء الخفى «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا» لم يقل له «ولم تكن شيئا» حتى يؤكد «إنعدامه» وإستحالة معرفته قبل ذلك الخلق الأول فانظروا إلى هذا القرآن الذى لا يستطيع الإحاطة بعلمه ولا وصف بلاغته ولا حتى سبر غور ألفاظه وحروفه .

«قال كذلك قال ربك» (٩٧)

إليك «يامريم» أترجم ما قاله ربك فى نفسه لما ظننت أن منحك الغلام الموعود دون أن تعاشرى رجلا أمراً عسيراً .

«هو على هين»

قال ربك أنه أمر ميسور لقدرتى لأننى القادر على كل شئ .

«ولنجعله آية للناس» (٩٨)

«ورحمة منا» (٩٩)

«وكان أمراً مقضياً» (١٠٠) .

وكان «عيسى» بمجيئه الغريب إرادة «الله» مستورة في غيب السماوات والأرض وكانت قبل ذلك مسطورة في كتاب العلم قد حكم «الله» بنزولها فلا بد أن تظهر في الدنيا .

أيمكن للمنذورة «الله» التي قضت حياتها في الصلاة أن ترفض المشاركة في صنع آية من «الله» للناس أو أن تبخل برحمة «الله» فتكره فيضها أيمكن للتي انقطعت في المحراب ورباها النبي «زكريا» وتلت من «الله» المعرفة أن تعارض إرادة «الله» .

وزالت من «مريم» كل معارضة وأسلمت نفسها بالإرادة التي تحررت إلى النور في لحظة لا زمن لها تجاوزت الأكوان واتصل فيها الأزل بالأبد . لحظة لا يستطيع وصفها حتى الذي عبرها وخرجت «مريم» من الاتصال لتلتفت إلى جسدها راقداً على الأرض في حجابها المستور الذي ضربته حول نفسها .

كان الليل قد أرخى سدوله وغرقت رسوم الأشياء في بحر ظلمته وأفزعها من ينتفض في بطنها فهبت واقفة وقد تملكها الفزع تحسست بطنها فأذهلها انتفاخها .

التفتت هل يراها من أحد .. ؟ لم تكن هناك إلا تلك العيون البعيدة تومض في سماء «أورشاليم» التي تغط في نومها .

ربما كان «زكريا» و«يحيى» الآن نائمين أو يستعدان للصلاة لم تعرف ماذا تفعل

وقد ملأتها الحيرة وشتتت كل أفكارها فأسرعت تخرج من حجابها «فحملته فانتدبت به مكانا قصيا» (١٠١) .

كانت تهول وتريد أن تعدو ولكن حملها الثقيل منعها من الإسراع ساقتها قدمها إلى الشرق دون أن تدري، تريد أن تخرج من «أورشليم» قبل أن يأتى الفجر تحدث الخطى رغم الجوع والظمأ والتعب، وعندما تنفس الصبح ونثر نوره على الأشياء أبصرت أنها فى حضان جبل «الزيتون» فأخذت تبحث عن مكان مستور يخفيها عن العيون حتى تضع حملها .

. إلى جذع نخلة يابسة كانت تقف وحيدة بائسة مثلها وسط الصخور أسندت ظهرها وقد هدها الجوع والظمأ والتعب، كان جسدها الواهن قد أنهكه طول السير فلم تستطع ساقها أن تحملها فتساقطت إلى الأرض وقد جف لسانها كأنه شوكه فى حلقها رفعت رأسها تنظر الى السماء من خلال الأوراق الصفراء الجافة التى بدت لها كإشواك تتدلى من رأس النخلة المسكينة الوحيدة التى كانت تشاركها غربتها وحزنها وشقاءها .

تذكرت الأميرة «المصرية» التى تزوجها «خليل الله ابراهيم» وأنجبت له بكرة «اسماعيل» إذ أمره «الله» أن يترك امرأته ويكره فى مكان موحش ويذهب مهاجراً ليدعو الناس إلى عبادة «الله» إن رحمة «الله» لم تترك «المصرية» وأبنها ففجرت بجوار الصغير الذى كان يصرخ من الجوع والعطش ينبوع ماء لم يزل حتى اليوم وبعد مئات السنين عين الحياة للخلق فى جزيرة العرب وتفجرت الدموع من عينيها المحزونتين «ها أنا زبٍ قد جئتُ إلى هنا استسلاما لحكمك تسوقنى أقدراك ليس معى طعام ولا ماء ولا أحد من خلقك يعيننى لا أعرف كيف سألد غلامى وأنا بمفردى وليس معى شئ اللهم

فلا تتركنى رحمتك فإننى أفقر من المصرية إلى معونتك كان معها أبناها ولها زوج تنتظر رجعتة أما أنا فإن غلامى لم يخرج بعد من رحمى وليس لى زوج يعزىنى الأمل فى عودته ليس لى أحد إلا أنت .

اللهم فاذكرنى برحمتك يا أرحم الراحمين» وأنساب الدموع حتى جف نبعها .

كانت الحيرة تملأها فليس معها من النساء أحد يعينها على الولادة وليس معها شئ لتقطع به الحبل الذى يربطها بمولودها ولا تعرف بماذا ستنظف جسدها من الدماء خائفة ظامئة تحس أنها على وشك الموت تخشى أن يكون أحد من الناس رآها فكانت تتلفت فى كل اتجاه وفكرت أن تغادر هذا المكان ولكن إلى أين ستذهب فكل المواضيع سواء فى هذا الجبل إن رآها أحد من الخلق فسوف يقتلونها وربما قتلوه مملأها الحزن ونسيت البشارات وماجت الاسئلة فى قلبها وكان النهار يواصل صعوده والأشياء تتبدى لها بوضوح صارم فى نور الشمس ولا تعرف كيف تتصرف ثم جاءت اللحظة فلم يبق فيها إلا الألم .

«فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة» (١٠٢) .

إضطرتها ضربات المخاض إلى أن تتشبث بجذع النخلة الشاحبة وهى تتذكر كيف كانت خالتها أم «يحيى» تتشبث بها وهى تعانى ولادة «يحيى» كان المخاض يهزها بعنف وهى تمسك بالنخلة الضعيفة التى ذكرتها «بخالتها» وشعرت أن خالتها «النخلة» تميد بها تو شك أن تنهاوى بها على الأرض، أمها التى ما عادت تطيق أن تثبت عليها وأوشكت أن تنطلق من فمها صرخة الألم لولا أنها ذكرت كيف كانت خالتها تغلق فمها بقوة وتزم شففتيها بعنف ل تمنع صرخة الألم من الخروج فيتسرب من بين الشفتين المضمومتين رغما عنهما صراخ مكتوم يفصح عن الأنين الغامض الذى تكابده كل أنثى

كتب عليها أن تعاني المخاض وأصبح الألم فوق قدرة إحتمالها فلم تتمالك نفسها وأنطلق لسانها .

«قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» (١٠٣) .

آه كم ودت حينئذ لو كانت قد ماتت قبل أن تعاني هذا الألم الفظيع وأن تعود كما كانت قبل الخلق شيئا مستورا لا يلتفت إليه أحد .

وتحن عليها الذى فى بطنها وهوى عاين ماتعانيه فى سبيل إظهاره وعاتبها لأنها نسيت البشارات التى أنزلها «الله» إليها ولأنها لا ترى أنه يستحق كل هذا الألم إذ فضلت الموت الذى يعنى عدم ظهوره على الألم العظيم الذى تكابده فى سبيل إظهاره . أحب أن يذكرها بالبشارات وأن ينزل السكينة عليها ليبدد شكها وحزنها وخوفها .

«فناداها من نحتها ألا نحزننى قد جعل ربك نحتك سرىا وهزى
إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقربى عينا
.. فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن
أكلم اليوم أنسيا» (١٠٤) .

إنبعث الصوت من رحمها الذى تلقى نفخة «الروح» .

كانت غريقة فى الحزن تتقاذفها موجات الألم والخوف من المصير الذى صار فى ظلمة النسيان مجهولا فبدا لها الصوت الذى يخرج من بطنها كما لو كان يأتيها من بعيد . ذكرها بصوت «الروح» رسول الله الذى رآته فى حجابها فانتشلها نداءه من قبضة اليأس الذى أوشك أن يهلكها وبدأت السكينة تنزل فى قلبها فزايها الحزن إذ أدركت أن «الله» معها .

نظرت تحت قدميها فانفجرت في الحجارة عين ماء رائعة ذكرتها بالعين التي
 فجرها «الله» عند قدمي «بكر إبراهيم» وعيون الماء التي انبجست في الصحراء بعضا
 «موسى بن عمران» فابتسمت في وجه الماء ونظرت إلى النخلة الجافة الواهنة التي
 تتشبث بها وأمعت في الأوراق الصفراء اليابسة التي كانت كالأشواك وتساعت أيمن
 أن تثمر هذه بلحاً؟ لكنها بقوة «الإيمان» هزت النخلة اليابسة وهي تقربها من جسدها
 فأخضرت الأوراق وامتلاءت الأسباط بالبلح الذي تم نضجه في أقل من طرفه عين
 فصار رطباً شهياً ميسراً للجنى يتساقط عليها كأنه قطرات الماء تنزل في المطر فعرفت
 أن «روح القدس» سر الحياة الأبدى قد فاض عليها فمن مس يديها وتقريب الجذع إلى
 جسدها تستطيع أن تمنح الحياة للنخلة البائسة. جلست على الأرض في خشوع وقد
 شملتها الطمأنينة وأخذت تأكل في بساطة حبات الرطب وتشرب من عين الماء وقد
 سكنت عينها ولم تعد تتلفت محاذرة أن يراها من البشر أحد. زال في الطمأنينة خوفها
 وشكها وحنينها ولم يبق فيها إلا «شكر الله» وتذكرت الثمار التي كانت تأتيها في
 المحراب في غير أوانها وتذكرت قولها «لذكريا» «إن الله» يرزق من يشاء بغير حساب
 «وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» (١٠٥) .

(٩)

« صراط الله المستقيم »

« قال انى عبد الله »

«سورة مريم : ٣٠»

وصلت إلى مشارف «أورشاليم» ونَفَسُ الصبح يحاول ايقاظ المدينة من نومها لقد سرت طوال الليل من جبل الزيتون قاصدة «أورشاليم» دون أن تشعر بالتعب لأن السرور بعلامها كان يملأها فأنساها حتى أنها تسير على الأرض كانت تشعر أنها تطير في السماء بهذا الملاك الذى تحمله وتضمه الى صدرها تتوقف من حين لآخر للتزود. تزوده برزق «الله» الذى أودعه فى ثديها وتتزود هى بالنظر الى وجهه البديع ويمس شفتيه المباركتين لحمة ثديها وهى توقن أنها تنال بذلك بعضا مما أحتواه جسده البرئ الذى تصور فى رحمها بنفخة «روح القدس» رسول الله الذى تمثل لها بشرا سويا قبل أن يأتى أو أن ظهوره فى الأرض للناس جميعاً .

وجدت أنها أمام أبواب المدينة التى أستيقت من نومها فأحست كأنها قد نزلت إلى الأرض مضطربة وأن عليها أن تواجه الفتنة التى سوف تشتعل فى الناس نارا عليها أن تجلس على الأرض لتتدبر أمرها وتعد الإجابة على مطر الأسئلة التى سوف تنهمر عليها .

ضمت ملاكها إلى صدرها وألصقت ثديها وأخذت تفكر وتنتظر لعلها تظفر بإجابة.

إن أبنا آية للناس جميعا أنزلها «الله» ليعلموا سر حياتهم وعظمة ربهم القادر على كل شئ. لقد شرفها «الله» بحمل آيته فعليها أن تؤدى واجب شكرها بإظهارها للناس .

إن أبنها كلمة من «الله» يريد أن يخاطب بها قلوب الناس وأقنعتهم وقد أنبأها «الروح» أنه سيتكلم بلسان أبنها وهو في المهد طفلاً حديث الولادة إذن فغلامها العجيب هو الذى سيتولى عنها إبلاغ رسالة ربه إلى خلقه والدفاع عنها من شر خلقه ولكن أين ؟؟.

من الهيكل مسجد «سليمان» ينبغى أن تنبعث كلمة «الله»، عليها إذن أن تذهب إلى الهيكل لكن هل يمكنها أن تذهب وحدها وهى تحمل طفلاً ولدته دون أن تتزوج وهى المنتورة «له» ابنة الكاهن العظيم التى قضت حياتها فى الصلاة ماذا سيقول الناس عنى ؟؟ .

هل تذهب إلى «زكريا» و«يحيى» وتدخل الهيكل فى حمايتهما إنهما سيؤمنان لى لأن الذى منحهما النبوة هو الذى منحنى غلامى لكن «زكريا» رجل مسن ضعيف لا يقوى على مواجهة الجمع الهائج و«يحيى» شاب صغير أخاف عليه أن يفتكوا به بل ربما أتهموه أو أباه بذلك البهتان العظيم الذى يتوهموه. ثم وبخت نفسها على قلة ثقته فى «الله» الذى أطعمها الثمار فى غير أوانها وهبها غلامها دون أن تتزوج فسلمت نفسها «له» وثبتت نظرها إلى الهيكل وهى تحت الخطى وقد تملكها العزم «وليكن ما يكون».

أخذت تمضى فى طريقها وهى تتخفى تحت خمارها الذى أصبح يتدلى الى تحت صدرها بقليل بعد أن أقتطعت منه قطعة تلف بها «عيسى» وهى تضمه الى صدرها وبقايا خوف عليه وحزن على فراقه لم تزل تعبت بالطمأنينة فى قلبها الذى كان يتوهج وقد أوشك أن يذوب ليضئ الى الأبد .

بدأت تلاحظ أن «أورشاليم» تزدهم بالغرباء الذين يملأون الطرق المؤدية الى الهيكل لم تكن تلتفت إلى المارين فى الشوارع ولكن كان فى وسعها أن تدرك فى يسر

أن كثيرا من الغرباء قد أتوا من قرى ومدن بعيدة وهم يسرون فى الطرق رغم أن هذه الأيام ليست أيام «الفصح» ولا غيره من الأعياد لم تفهم السبب ولم تهتم بالنظرات المتطفلة التي كانت تحديق فيها وفى الطفل الذى تحمله على صدرها .

فوجئت عندما أقتربت من الهيكل بأن كثيرا من الضباط والجنود الرومانيين قد أحاطوا بالهيكل وأخذوا يحومون حوله مع جمع كبير من الضباط والجنود «الهيرودوسيين» الذين ينتمون إلى جيش «هيرودوس» الخاص «لابد أن ثمة شئ ما فى الأفق» ثم تركت التفكير فى هذا الجمع العسكرى غير المعهود وهى تدخل الى الهيكل وتدفع الى ساحة الوعظ والصلاة .

. كان الهيكل يموج بزواره وساحة الصلاة تمتلئ على غير العادة وأيقنت أن ثمة إضطراب شديد تتجمع سحبه. شملها الاضطراب ولم تعرف كيف تتصرف أو ماذا تقول بأى شئ تبتدى؟؟؟ .

كان اندفاعها وسط الجميع وهى تحمل طفلها يثير التعجب فى كل من رآها الذين يعرفونها والذين لا يعرفونها. الذين لا يعرفونها تسالوا فى حيرة من هذه المرأة التى تحمل طفلها على صدرها هكذا وتدخل به ساحة الصلاة ؟ لماذا تفعل هذا ؟ إن كانت تريد ختانه فليس هذا بمكان الختان وإن لم تكن تريد ختانه فماذا تريد ؟

أما الذين يعرفونها وهم كثيرون فقد كان عجبهم يفوق الوصف «أليست هذه مريم» العذراء المنذورة «له» ١؟ .

- «بلى إنها هى»

- «فمن هذا الوليد الذى تحمله»

- «لا نعلم ؟»

قال واحد من «الغرباء» الذين لا يعرفونها . «ربما كانت هذه المرأة غريبة عن «أورشليم» وقد جاءت لتسجيل ابنها مع زوجها في الإكتتاب الذي صدر الأمر به في هذه الأيام وربما أرادت أن تختنه لكنها لا تعرف الهيكل فضلت طريقها الى ساحة الصلاة .»

– «كيف تقول يا رجل أنها غريبة عن «أورشليم» إنها «مريم ابنة عمران» الكاهن عليه رحمة «الله» أهنالك أحد في «أورشليم» كلها لا يعرف «مريم» العذراء !!، وتعجب «الغريب» من وصفها بالعذراء وهي تحمل طفلاً لاشك أنه ابنها طريقة حملها له وضمه إلى صدرها وعمرها كل ذلك يؤكد أنه غلامها قال: «أعذرني فإنني لست من «أورشليم» فمن تكون هذه العذراء ؟» نطق بالكلمة الأخيرة وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة تؤكد لمحدثه أنه لن يقع فريسة التضليل .

– قال له : «فمن تكون أنت ؟ ومن أي القرى قد جئت ؟».

– قال : «أنا يوسف بن يعقوب النجار من بيت لحم القرية التي ولد فيها «داود» نبي الله وملك اليهود» كان يمتلأ بالفخر وهو يتحدث عن قريته ولكنه أضطر رغماً عنه إلى خفض صوته حتى تحول إلى همس مخافة أن يسمعه أحد من الجنود وهو يتحدث عن «ملك اليهود» .

ثم عاد صوته للإرتفاع من جديد حتى كأنه يصيح «لكنك لم تقل لي من هو الطفل الذي تحمله هذه العذراء» و كان يسأئل نفسه أهذه حقاً هي «مريم» التي سمع عنها كثيراً .»؟

قال المتحدث وقد بدأ يظهر عليه التبرم من هذا النجار الفضولي كثير الكلام «لقد عاشت «مريم» في كفالة «زكريا» معيشة الزهاد فأنقطعت في «قدس الأقداس» لتصلى طوال النهار ثم مر الوقت مسرعاً دون أن تتزوج ها هي كما تراها الآن» أما الطفل فلا

أحد يعرفه ولكننا حتما سنعرف الآن واندفع الرجل تاركا «يوسف» ساهم النظرات شاردا الفكر كيف يمكن لجميلة مثل هذه أن تبقى دون زوج حتى الآن؟؟ ومن هو الطفل الذى تحمله؟ أهذه حقاً هى العذراء المنذورة لله التى سمع الكثير عن العجائب التى كانت تنزل عليها من السماء!؟»

كان الجميع يندفعون نحو «مريم» حتى أحاطوا بها. لقد أرتفع الهمس الذى كانت تضيق به الساحة وتحول إلى صخب اذ لم يحتمل الناس الصمت أكثر من هذا فراحوا يسألون «مريم» من هذا الذى تحمليه أيتها العذراء؟ ولم تعرف ماذا تقول لهم كانت تود أن تجيبهم أن تصرخ فيهم «يا قوم هذا ابنى آية من «الله» حملتها إليكم» ولكنها عجزت عن النطق الكلمات نفسها لا تريد أن تخرج من فمها «أين أنت يا «زكريا» الآن لقد قضت حياتها كلها تكاد تكون صامته كانت تستمع إلى المواعظ التى يلقيها الكتبة والكهنة من على دكة الوعظ التى هناك ولكنها لم تكن تعرف أن مخاطبة الناس بهذه الصعوبة ليست يا «زكريا» كنت هنا لتتكلم بدلا منى. ولم تخرج الكلمات وازداد اضطرابها وأحمرار وجهها فصرخوا فيها «هل هذا ابنك» «نريد أجابة محددة؟» لأن بعضهم ظن أنه ربما كان طفلاً لقيطاً ابن زنا لقيته «مريم» وهى فى طريقها الى الهيكل فحملته معها .

كانت المفاجأة المذهلة لهم أن أشارت برأسها تعنى «نعم». جرى بعضهم إلى الكهنة ورئيسهم ليحضروا ويشهدوا الزانية التى لم تكتف بتلويث شرفها وشرف الكهنة لأنها ابنة أحدهم بل لوئث أيضا شرف «الهيكل المقدس» الذى جاءت إليه بثمرة جريمتها واندفع بعض الغوغاء ليخطفوا الطفل ويفتكوا «بمريم» وحال بينهم آخرون يطلبون إنتظار الكهنة وكبيرهم وآخرون يعرفون «مريم» معرفة طيبة رجوها أن تتكلم وتدافع عن نفسها لأن السيف أصبح قريباً من عنقها تكلمى يا «مريم» ودافعى عن نفسك لماذا لا تنطقين؟؟

وتعالت الأصوات «خدعتنا الفاجرة الزانية بطول صلاتها وبراعة وجهها» لماذا لم يأت «زكريا» الآن إلى هنا ليرى ثمرة تربيته ؟؟

– «لقد صدع رؤوسنا بوعظه الممقوت وأحتقر حياتنا وما هو بأوى زانية فى بيته .!»
– «ألعله «زكريا» نفسه الذى فعلها أم ابنه الضال «يحيى» الذى يهيم على وجهه كالمجانين ؟؟» .

– كيف يكون «زكريا» . لقد صار كومة من العظام ملقاة على فراش الموت ؟ ألا تذكر كيف أنجب «يحيى» فلماذا لا ينبج مرة أخرى وقد اشتاق العجوز الفاجر للنساء بعد رحيل امرأته ؟؟ .

كانت «مريم» تكاد تنوب من الخجل وهى تسمع هذه البشاعة وتود لو أن الأرض ابتلعته قبل أن تشهد هذا لولا ابنها الذى كانت تخاف عليه ولا تحتل فراقه وهى عاجزة عن الكلام ومن يدافعون عنها ويطلبون الانتظار لا يجدون ما يقولونه للذين يريدون الفتك بها وبغلامها وينتظرون على مضض وجاء الكهنة مع كبيرهم وتدخل الجنود والضباط لفرض النظام وفى لهجة مويخة ..

«قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا» (١٠٦) .

لقد صنعت «يامريم» شيئا فظيلاً ما كنا نتصور أنه يمكن أن يحدث منك «ياأخت هارون ما كان أبوك أمراً سوءاً وما كانت أمك بغياً» (١٠٧) . يا سليمة النبى «هارون» رأس الكهنة فى بنى اسرائيل إن أباك «عمران» الكاهن كان رجلاً صالحاً ولم يكن شريراً يخون عهد «الله» وأمك «حنة» كانت امرأة صالحة ما ينبغى لها أن تكون من اللواتى يتخذن من الزنا تجارة محرمة .

ولم تجد ما تقوله رداً على إتهام كبير الكهنة لها بالزنا ثم ألهمت فأسرعت تضعه على دكة الوعظ وأشارت إليهم بيدها اليمنى «أن اسألوه عن نفسه وعنى ولا تسألونى» .

فتعجبوا من صمتها وإشارتها وقالوا هل جنت «مريم» أم أنها تسخر منا وأندفع رئيس الكهنة يقول وهو يمتلأ بالحنق والإنزعاج «كيف نكلم من كان فى المهد صبياً» (١٠٨) .

أى خبل أصابك يا «مريم» يجعلك تطلبين منا أن نتوجه بالخطاب لطفل لم يزل ملفوفاً فى أقمطته ليس له من عمر الدنيا إلا أياماً قليلة وأنبعث من فوق منبر الوعظ من الجسد الملفوف فى الأقمطة صوت رقيق لكنه وقور ومهيب يكاد يخلع القلوب من منابتها فى الصدور .

· «قال إنس عبد الله» (١٠٩) .

أؤكد لكم أننى مخلوق مطيع لله خالقي مقرأً بانه جدير بالطاعة مدفوعاً بحبه راغباً فى التقرب إليه .

· «آتانس الكتاب» .

نور قلبى فأضاء فيه علم الله الذى كان مسطوراً فى الكتاب الذى جعله مستودعاً لعلمه .

· «وجعلنى نبياً» (١٠٩) .

ورفعنى إلى مقام صرت فيه أذنأ تتلقى كلام الله .

· «وجعلنى مباركاً أينما كنت» (١١٠) .

· وفاض على بالبركة من «روحه» فصرت بفضلله قادراً على بث الرحمة فى أى موضع أحل فيه .

· «واوطنى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً» (١١١) .

شُدُّد على في وعظة لى قبل أن أنزل إلى الدنيا بإدامة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة
ما دام في جسدى أثر للحياة (١١٢) .

«وبرأ بوالدتى» (١١٣) .

وجعلنى ساعياً إلى إرضاء أمى التى ولدتنى مقراً بفضلها على هاتان الكلمتان
هما أبلغ دفاع عن «مريم» العذراء الطاهرة فليس لإبن الزنا أن يشعر بفضل والدته
عليه . إن الحرمان من شعور الإبن بفضل أمه عليه هو أول عقوبة يعاقب الله
بها الزانية.

«ولم يجعلنى جباراً شقيماً» (١١٣) .

ويرأى من الرغبة في فرض مشيئتي فأنقذنى من الشقاء التجبر هو الرغبة في
فرض المشيئة وهو أصل المعصية لأنه يصدر عن الكبرياء التى توهم المخلوق بأنه قد
صار ألهاً له أن يفرض مشيئته وحينئذ لابد أن تعانده الأشياء إذ إبتدأ بعنادها عندما
نازع «الله» إنفراده بالمشيئة فيحدث الشقاء من ذلك العناد . إن كل جبار عصى وكل
عصى شقى .

«والسلام على يوم ولدت ويوم أصوت ويوم أبعث حياً» (١١٤) .

نزل السلام على من الله حين وضعتني أمى فوقانى من نزغة «إبليس» اللعين فلم
يتمكن هو وجنوده من إختراق الحجاب الذى أحاطنى الله به .

وسينزل على السلام من الله حين يحضرنى الموت فلن يتمكن الشيطان وجنوده
من أن يتخطونى يريدون إضلالى وإختطافى إلى جهنم .

إنها لحظة رهيبة يحاول فيها الشيطان أن يجذب الإنسان معه إلى الهاوية بكل ما

أولاه «الله» من سلطان لأن الموت هو نهاية الإختبار هو اللحظة الأخيرة والفرصة التي لن تتكرر إذ لن يتاح للشيطان بعدها إن نجا الإنسان منها وصار أهلاً لرحمة «الله» لن يتاح له أن يغوى الإنسان مرة أخرى لذلك فإنه يعمل كل ما فى وسعه من أجل إهلاك الإنسان فى هذه اللحظة الأخيرة هذا هو سر صعوبة الموت على الإنسان اذ يكون ميدانا للحرب بين ملائكة «الله» وجنود إبليس صراعا بين أهل الرحمة وأهل العذاب لا يتوقف إلا بنزول حكم «الله» الذى يحسم الابتلاء .

إن «الله» سيتفضل على بالنجاة فى هذه الحرب الشديدة عند الإحتضار .

«وإن الله ربى وربكم فاعبدوه» (١١٥) .

وأؤكد لكم أن «الله» هو آلهى الذى خلقنى ويربىنى من أجل أن أصل إلى كمالى بالوصول إليه وهو ألهم الذى خلقكم من أجل أن تصلوا إلى كمالكم بالوصول إليه فعليكم أن تطيعوه بطاعة شريعته معترفين أنه أهل للطاعة قاصدين أن تقتربوا منه وحبكم له هو القوة الدافعة لكم للسير إليه وهى قوة تستمدونها من حبه لكم .

«هذا صراط مستقيم» (١١٥) .

ها هو الطريق الموصل إلى «الله»، إن العبادة هى الطريق المستقيم والكلام الذى أخطبكم به الآن هو وصف للطريق المهد الميسر للسير الذى تصلون عليه إلى ربكم .

ثم توقف الخطاب وقد أطبق الصمت على كل من فى الهيكل حتى الجنود الذين كانوا قد دخلوا لفرض النظام و استولى الذهول على الجميع الكهنة والشيوخ والشعب كله حتى أمه وقفت مذهولة كانت تعلم أنه سيتكلم فى المهد كما قصت عليها الملائكة لكنها لم تكن تتصور أن لابنها كل هذا «السلطان» لقد سيطر على مستمعيه تماماً وقهرهم على الخشوع، كان صوته ينبعث مهيبا ويتردد فى جنبات الهيكل الذى التزم

الصمت هو الآخر حتى خيل للحاضرين كأن الأعمدة والجدران تستمع معهم لصوت «النبي» المتحدث وتردد ما تسمعه في صدى تخشع له القلوب وهى راغمة .

وقبل أن يفيقوا من ذهولهم أندفع الشيخ «سمعان» وهو يتوكأ على عصاه وأتجه الى الطفل وألقى عصاه على الأرض وأمسك الطفل بكنتا يديه كأنه قد استرد عافية الشباب فقبله ثم خطا نحو «مريم» فأعطاه غلامها وأتجه الى دكة الوعظ ثم رفع صوته قائلاً ..

«يا بنى اسرائيل إعلموا أن هذه هى العذراء التى تحدث عنها أشعياء النبي منذ مئات السنين قائلاً «ها هى العذراء تحمل وتلد ولدا» (١١٦) وهذا الغلام هو الملاك الذى تحدث عنه ملاخى حين قال بلسان «روح الله» ها أنذا أرسل ملاكى ليعبد الطريق أمامى» (١١٧) . هذا الغلام هو كلمة من «الله» بشركم بها «زكريا» من قبل ولكنكم لم تصدقوا والآن إعلموا أن هذه الكلمة قد جاءت وأفرحوا لأن «الله» لم يزل يذكرنا برحمته فيرسل إلينا انبياءه ولم يرذلنا وينفض يده منا رغم خطايانا الكثيرة .

ثم نزل وتوجه بخطابه الى «مريم» قائلاً «مباركة أنت فى النساء يا مريم» .

«إعلمى أن غلامك هذا قد جاء ليرفع أقواما ويخفض كثيرين إنه نور إعلان للأمم جاء مبشرا بقرب ظهور الملكوت الذى تنتظره السماوات والأرض منذ القدم ونذيراً بقرب حلول المكتوب الذى يقاوم لتعلن النوايا المختبئة فى قلوب كثيرة» (١١٨) .

«والآن اذهبى فى سلام يا بنيتى» وأشار إليها بعينه أن تسرع فأسرعت «مريم» وهى تحتضن غلامها بالخروج وسط الصمت والذهول . زاد كلام «سمعان» من دهشتهم ثم اندفع الجميع يتساعلون ويتجادلون يموج بعضهم فى بعض وتعالى صخبهم بينما كان «سمعان» يتوكأ على عصاه خارجا من الهيكل مشتاقا الى لقاء ربه

قائلاً «والآن تُطَلِّقُ عبدك يا سيدي فقد أبصرت عيناي كلمتك وبشرى ملكوتك» (١١٩) .

كان «سمعان» رجلاً فقيهاً عليمًا يكتب الأنبياء قضى عمره المديد منقطعاً للعبادة زاهداً في زينة الدنيا وكان قد كُشِفَ له أنه لا يموت قبل أن يرى «المسيح» المولود من العذراء وفي هذا الصباح سمع هاتفاً في قلبه يدعو للذهاب إلى الهيكل فذهب ورأى ثم أدى شهادة «الله» على وجهها وخرج ينتظر في بيته لقاء «الله» .

(١٠)

«إما القتل أو الفرار»

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون»

«سورة البقرة : ٨٧»

عندما أكتشف «زكريا» أن «مريم» قد غادرت بيته لما رأى الحجاب قد سقط ولم تكن «مريم» داخله ولم يعرف الى أين ذهبت ولم يعثر عليها «يحيى» لا فى الهيكل ولا فى أى بيت من بيوت من الأهل أو الجيران حينئذ تملك الحزن «زكريا» وسرعان ما سقط مريضاً ولازم الفراش ولازمه «يحيى» ليقوم على خدمته ولم يعد يخرج مع أغنامه تهامس القوم عن «العذراء» التى هربت من بيت كافلها زوج خالتها وعن سر هروبيها فلما أتت الى الهيكل صباح السبت تحمل «عيسى» غلامها تزايد اللفظ حول عفتها وتضاربت الأقوال فى سيرتها . لقد أندلعت نار الفتنة التى كان لابد منها .

«زكريا» سجين المرض والحزن «ويحيى» الذى يلازمه لم يعلم بما حدث فى الهيكل لذلك كانت دهشتهم فوق أى وصف حينما شاهدها «مريم» تدخل عليهما وعلى صدرها غلامها .

إنتفض «زكريا» الشيخ الواهن واقفاً إذ أنزلت عنه المفاجأة الطيبة الحزن والمرض وأقبل على «مريم» وهو يحدق البصر مندهشاً الى الوليد الجميل الذى تضمه إلى صدرها فناولته أياه فى صمت دون أن تنطق بكلمة واحدة. كانت موقنة أن «نبي» الله لابد أن يتعرف على كلمة جاءت من «الله» وقد بشره «الله» بها حين بشره بمولوده «يحيى» إن ابنها «نبي» مثله. هو أخوه فى النبوة أفلا يتعرف الإنسان على أخيه؟؟

أخذ «زكريا» الوليد على كفيه وهو يحدق البصر في وجهه البديع ويسبح «الله»
تذكر «مشرق الوجه» الذي رآه في «الرؤيا» من قبل وتلقى تأويل «كلمة من الله» التي
جاءت في تبشير الملائكة له «بيحيى» غلامه الذي صار الآن فتى يافعا، عرف أنه يحمل
على كفيه «الكلمة» التي جاءت من قبل والتي سيكون على غلامه يحيى مهمة أن يؤيدها.
قبل «عيسى» دافع العيذين وقد زالت جميع أحزانه وأطمأن على مصير «مريم» إذ عرف
أن «الله» فضلها على جميع النساء وأعطاهما ما لم يعط واحدة من بنات «آدم» و«حواء»
الآن يستطيع أن يموت وهو قدير العين راضى النفس عن ربه الذي أعطاه فوق ما
كان يطمح .

ناول «الكلمة» إلى «يحيى» الذي كان يقف مشدوها فأخذ ينظر الى ملامح وجهه
الصغير ثم قبله وهو يضحك في سعادة شقيق لقي شقيقه بعد طول فراق .

ثم أمر «زكريا» غلامه أن يعطى «عيسى» لأمه لترضعه وأن يتبعه، ذهب «زكريا»
ليغتسل وتبعه «يحيى» ثم صلى صلاة طويلة أطال فيها الركوع والسجود وأكثر من
الدعاء واليكاء ثم فرغ والتفت إلى «يحيى» الذي كان يمتلئ بالحيرة ويتسأل في نفسه
عن سر هذه الصلاة وسبب هذا اليكاء .

قال «زكريا» وقد أشرق وجهه كأنه الشمس تميل الى الغروب «إعلم يا بنى أن
«الله» قد بشرنى بولادتك وأعطانى إسمك قبل أن تراك عينائى قد منحك إسمًا لا نظير
له فى بنى اسرائيل وقص على قصصك على الأرض وأنت لم تزل جنينا فى بطن أمك
التي رحلت عليها رحمة «الله» .

«فاعلم يا بنى أنك ستكون رسولا نبيا يرسلك «الله» الى بنى اسرائيل تنادى
عليهم ليعوبوا إلى طريقه تأمرهم بالإستغفار وتعلمهم كيف يتوبون فيجب عليك يا بنى
أن تعد نفسك لتكون أهلا لحمل كلمة «الله» وكفؤا للقيام برسالته. هذا هو الإرث الذي

أتركه لك من بعدى ولا تبك ولا تحزن على شئ إلا خطيئتك خذ كتاب «الله» بقوة ولا تخشى فى الله لومة لائم .

«وأعلم أن «الله» سيجعل من «عيسى ابن مريم» نبيا عظيما تجرى على يديه الآيات ليعيد بنى اسرائيل لتلقى «الملكوت» الذى يرسله «الله»... النبى العربى من نسل إسماعيل الذى يختتم النبوة وتتجهز به السموات والأرض للقيامة» .

اعلم أن «الله» قد وهبك لى علي الكبر كما وهب «ابراهيم» «اسماعيل» و«اسحاق» من أجل أن تكون مؤيدا «لعيسى» عندما يأتى أوان بعثته رسولا إلى بنى اسرائيل لأن القوم سيكذبونه ويعاندونه ويدبرون له المكائد فكأن أنت أول مؤمن به. إشهد له وعاونه فى مهمته العسيرة التى أقبل زمن ظهورها. إن قلوب بنى اسرائيل قد أظلمتها الخطايا حتى أوشك ألا يكون فيها مكان للنور ٩٩.

«تبارك الله القدوس الرحيم الذى لم ينفض يده من بنى اسرائيل على كثرة خطاياهم وشدة عنادهم لم يزل يذكرهم برحمته على قسوة قلوبهم إذ لم يزل يبعث إليهم بأنبيائه لعلهم يرجعون إلى صراطه المستقيم» .

وأعلم يا بنى أن «الله» قادر على أن يمكّن لشعبنا فى هذه الأرض فيحررنا من قبضة أعدائنا المستكبرين الذين سلطهم علينا بخطايانا كما أنقذ آبائنا من فرعون فى مصر وأنجز وعده فأمكننا من هذه الأرض المباركة لنعبده فيها وحده دون خوف. لقد عاهد آبائنا «الله» على أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا لكن الشعب ظل يخون عهد «الله» فسلط «الله» علينا أعداءنا وأمكنهم منا بذنوبنا فانظر يا بنى هل ترى فى بنى اسرائيل شيئا يرفعهم عن الشعوب التى لا تعرف «الله» لقد أنغمس بنو إسرائيل فى الدنيا وصاروا يطلبون مجداً باطلاً كغيرهم من الأمم التى لم تستمع إلى كلام «الله» .

«يا بنى إناك وابن «مريم» أنتما الإثنان الفرصة الأخيرة لبني اسرائيل لإبقاء عهد «الله» وإن الأيام القادمة هي أيام عسيرة تلقى فيها شداًئداً كثيرة فاثبت على الحق حتى يحكم «الله» وتلقاه وهو عليك راضٍ»

. ثم صمت «زكريا» كان يشعر أن هذا هو لقاء الوداع هذه هي وصيته الأخيرة إلى ابنه قبل الفراق أما «يحيى» فقد تركته كلمات والده مذهولاً يشعر كأن جبلاً قد ألقى عليه وأن عليه وحده أن يحمله كانت وصية أبيه قولاً ثقيلاً ينوء به كاهل الشاب الصغير فلم يهناً له طعام ولا شراب وظل ساهم النظرات شارداً الفكر يسأله نفسه عن المهمة العسيرة التي ألقى «الله» على عاتقه حملها وعما تخبئه الأيام القادمة وأحب أن يستجمع شتات نفسه ليتدبر أمره فأعد زاده واستأذن من أبيه أن يذهب إلى الجبل ليختل بنفسه . لقد نادته الجبال كما نادى الأنبياء من قبله ورأى أبوه بعين «الخبير» حاجته إلى العزلة في الجبل فأذن له وطمأنه أن «مريم» وأبنها سيكونان خير أنيس له من بعده وأعتنق «يحيى» والده وأحس وهو فى ضمة حضنة أن هذا هو الفراق لكنه لا يجب أن يتفاسد عن الرحيل الذى عزم عليه لأنه كما تعلم من أبيه ما شاء «الله» كان وما لم يشأ لم يكن وودع «مريم» وشقيقه الصغير وثبت بصره صوب الجبل .

كانت «أورشليم» تغلى بنار الفتن و«زكريا» قابلاً فى بيته يتنعم بعودة العذراء الطاهرة إلى بيته والنظر إلى وجه غلامها البديع الذى لا نظير له فى البشر. كان أمر الإمبراطور أغسطس بإحصاء السكان الخاضعين لسلطة «روما» فى جميع أنحاء الأرض هو بداية الإضطراب إذ ظن الشعب اليهودى أن ذلك الأمر الذى فرض على كل رجل أن يرجع إلى مسقط رأسه ليسجل نفسه وعائلته هو توطئة لفرض ضريبة جديدة تؤخذ على الأفراد بالإضافة إلى الجزية التى كانت تفرض على المناطق وكانت وحدها مع الضرائب التى سمح «الرومان» «لهيرودوس» بفرضها تثقل كاهل الشعب فهاج الناس وبدأوا يظهرهم العصيان والتمرد فى أنحاء عديدة من البلاد خاصة فى

«أورشاليم» عاصمة المملكة وأخذت القوات الرومانية وقوات «هيرودوس» الخاصة تجوب الطرق لتقضى على التمرد وتفرض النظام خاصة حول «الهيكل» الذى كان بالنسبة للسلطة هو مصدر الخطر وجاءت «مريم» بغلامها الى الهيكل ليحتدم الصراع ويفور الجدل وتزداد الفتن .

الذين آمنوا أنه يستحيل أن يتكلم مولود خرج توأ من ظلمة الرحم ليس له من عمر الدنيا إلا يوما أو بعض يوم إلا بآية من «الله» قالوا إنها امرأة مباركة وأن أبنها سيكون نبيا مرسلا من «الله» حقا وقد شرع يفصح عن رسالته فى خطابه الذى ألقاه من على دكة الوعظ بالهيكل وهو بعد لم يزل ملفوفا فى الأقمطة وأنه ربما يكون على يده يرد «الله» الملك على بنى اسرائيل ويحررهم من مذلة الخضوع للغرباء. «للشعب أن يفرح بتلك المرأة «المقدسة» وإبنها العظيم وأن ينتظر عودة المجد» وأنبعث حلم عودة المجد الغابر فى القلوب بعد أن أوشك أن يموت. «لاشك أن هذا الغلام المقدس هو ملك اليهود الموعود» هكذا صاح المتحمسون .

أما الذين سنئمو الآيات وأضجرتهم أسطورة عودة المجد الغابر خاصة الكهنة وشيوخ الفريسيين الذين كانوا يكرهون «زكريا» وكل ما يأتى من ناحيته فقد أصروا على أننا أمام جريمة «زنا». «إن هذه المرأة الملعونة قد لوثت الهيكل المقدس بدخولها فيه». «إنها غير متزوجة وكلنا يعرف ذلك والذى جاءت به الى الهيكل تحمله هو ابنها الذى ولدته من رحمها لقد أقرت هى نفسها بذلك. تلك هى كل الحقائق التى يمكن الاعتماد عليها فى هذه القصة العجيبة وهى تشكل جريمة زنا . معنا جسم الجريمة وإعتراف الزانية يبقى علينا أن نعرف الزانى وأن نقيم حد «الله» بقتلهما وقتل الطفل ثاراً لشرف «الله» الذى لوثه هذا الدنس بدخوله فيه. كل ما عدا ذلك أوهام ووساوس من فعل الشيطان الذى يريد أن يضل شعب الله. إن كل ما يتعرض له الشعب الآن من عسف واضطهاد إنما هو ثمرة غضب «الله» على شعبه الذى يأوى هذه الزانية

ويسمح لها بتلوين هيكله، «على الكهنة والشييوخ الآن أن يحزموا أمرهم ليخلصوا الشعب من غضب آلهه، «إن «زكريا» الملعون هو سبب غضب الرب علينا «لأنه يأوى هذه الفاجرة فى بيته»، «العجوز الزانى» يجب الخلاص منه إرضاء لآلهنا الغاضب علينا، نعم يجب أن يقتل ليتطهر شعب الله» .

وأندلعت المجادلات وأحتدمت والشعب فى «أورشاليم» يتابع عن كثب ما تسفر عنه الاختلافات وما يستقر عليه أمر قاداته، الحانقون على «زكريا» وجدوها فرصة يجب ألا تضيع فآلبوا الشعب ضده وألحوا إلى أنه ربما كان هو الزانى أو ربما كان ابنه ووشوا به عند الملك «هيروُدوس» بأنه يدعو الشعب إلى عدم الإكتتاب وبيشر بمولد ملك اليهود وفى أتون هذه الفتنة كان «يوسف بن يعقوب النجار» يفكر لقد جاء الى «أورشاليم» من بيت لحم ليصحب أخواته البنات مع أزواجهن الذين جاوا لتسجيل أنفسهم فى الإحصاء المفروض بأمر «أغسطس» الامبراطور الرومانى .

وكان «يوسف» رجلاً تقياً متمسكاً بالشرعية كثير الصوم يفخر دائماً أنه من بيت لحم القرية التى خرج منها «داود» نبي الله وملك اليهود وكان يكثر من الذهاب الى «أورشاليم» فى الفصح وغيره من الأعياد ليصلى فى الهيكل ويستمع الى الموعظة التى يلقيها كبار الكهنة وعظماء الكتبة الذين يجلسون على كرسى «موسى» ليعلموا الشعب شريعة «الله»، لقد أحب «زكريا» وآمن أنه نبي صادق مرسل من «الله» وزاد من حبه له أن «زكريا» كان يعمل نجاراً مثله فى بعض الأحيان، اشتراكهما فى المهنة فتح له باب الأمل فى رحمة «الله» إذ يؤكد له أن معرفة الله ليست حكراً على الكهنة الذين يرثون الخدمة الدينية عن آبائهم بل إنها متاحة لجميع الناس ولكنه لم يكن يصرح لأحد بإيمانه بنبوة «زكريا» لأن الكهنة والكتبة والشييوخ كانوا لا يصدقون أن «زكريا» نبي ويسخرون منه ويضطهدون كل من يظهر تعاطفاً معه .

سمع عن «مريم» المنورة لله التى تقضى نهارها كله فى «قدس الأقداس»

منقطعة للصلاة وسمع الكثير عن المعجزات والأشياء الثمينة التي كان الشعب يقول أن «مريم» تجدها في المحراب وهي تصلى. لكنه لم يكن قد رآها من قبل. لم يتكون لها في ذهنه صورة لذلك فوجئ بها وهي تدخل الهيكل تحمل ابنها. امرأة ناضجة جميلة الوجه وتعجب حينئذ كيف تظل هذه بلا زواج ؟؟ " .

استمع إلى كلام «الروح» على لسان «عيسى» الملفوف في الأقمطة فأمن أن «عيسى» سيكون نبياً وأن أمه هي امرأة مباركة ولكن أيمن لمثلها أن تتزوج مثله ؟؟ إنني لست إلا نجاراً فقيراً .

ظل يفكر ويتابع عن كثب الجدل العنيف الذي يدور رحاه في الهيكل وفي التجمعات ويلتقط الأخبار ويقتفي الآثار حتى يظفر بالدليل القاطع على براءتها ويتيقن ما آمن به في قلبه وفي سنة من النوم سمع هاتفا في قلبه يدعو للذهاب إلى «زكريا» ليطلب يد العذراء الطاهرة «مريم» ويوبخه على قلة إيمانه. رأى وجه «زكريا» يبتسم له فعرف أنه سيوافق فأستيقظ وفي لحظة لم يكن يدري أنه يدخل في التاريخ ليبقى في ذاكرة الإنسان إلى الأبد قرر أن يحث الخطى إلى بيت «زكريا» مسرعاً لأنه قد علم أنهم في الهيكل قد أستمروا على قتل «مريم» وطفلها و«زكريا» .

لقد حصلوا على تأييد «هيرودوس» لفعلتهم بدعوى أن «زكريا» كان يحث الشعب على عدم الإكتتاب في الإحصاء ويدعوه إلى رفض الجزية والدليل على ذلك أنه هو نفسه رغم أنه كاهن يعمل في الهيكل لم يسجل نفسه حتى الآن في الإحصاء لقد جن جنون «هيرودوس» وهو يسمعهم يتكلمون عن نبوة «زكريا» بولادة «ملك اليهود» . فهموا من كلامه ونظرات عينيه إنه يرحب بالخلاص من ملك اليهود المزعوم ومن يبشر به. وفي رداء الليل الرحيم طرق «يوسف» باب «زكريا» وقص عليه القصص ودعاه للهروب معه لكن «زكريا» أخبره أنه قد سئم الدنيا وأن بينه وبين الشعب حساباً يريد أن ينهيه أما

زواجه من «مريم» فهو يوافق عليه وإن كان يعز عليه فراقها وأبنها لكنه حتماً سيفارقهما فليكونا في رعايتك يا «يوسف» ولتكن أهلاً لخدمتهما .

وبكى الرجلان الصالحان وتعانقا عناق الفراق وودعت «مريم» أباه «زكريا» وقد أيقنت وهى فى ضمة حضنه أنه غداة غد راحل إلى الأبد ليلحق بأبيها الآخر الذى لم تكتحل برؤيته عيناها . بكت بكاءً مرأً وهى تمضى تحمل طفلها اليتيم الذى لا أب له راضية «بيوسف النجار» الرجل التقى زوجها لها . مضت خارجة وهى تتخفى برداء الليل الرحيم من ظلم المدينة الفاجرة التى لم تحترم كلمة «الله» ولم توقر النبى أو حتى ترحم الشيخ الكبير الذى ذاب لحمه ووهن عظمه ولم يحن هامته إلا للذى خلقه .

كانوا يعدون العدة لإقامة المجمع للحكم على «مريم» الزانية و«زكريا» الذى آواها فى بيته وربما كان هو «الزانى» الذى زنى بها وجهزوا الشهود الذين يشهدون أنه حرض الشعب على عدم الاكتتاب والإمتناع عن دفع الجزية وحين كانوا ينتقون الرجال الذين عليهم أن يذهبوا لياتوا به وبالزانية وغلماها فوجئوا به يدخل عليهم الهيكل فسقط فى أيديهم ولم يعرفوا كيف يتصرفون أطبق عليهم الوجوم بينما كان «زكريا» يتحرك فى ثبات وهو يتوكأ على عصاه ليصعد إلى دكة الوعظ ثم جلس فى هدوء وصمت ينتظر تجمعهم .

أخذ الهمس الذى يسرى بينهم يتصاعد وهول خدام الهيكل لينادوا على كبير الكهنة وأخذ بعضهم ينادي على بعض و«زكريا» مطرق إلى الأرض ينتظر احتشادهم فلما أدرك أنهم قد اجتمعوا قام ثم انطلق صوته يمزق الصمت والتريص .

«قال لى الرب آلهى إرع الغنم التى أُعدت للذبح»

«الذين يذبحهم مالكوهم ولا يائثمون ويبيعهم بائعوهم ويقال تبارك الله الذى استغنى عن الكافرين»

«الذين لا يشفق عليهم رعاتهم لأن» الله» لا يشفق عليهم قد اقترب الوقت الذى يسلم فيه كل إنسان ليد قريبه أو ليد ملكه فيقتله أو يضربه ولا أحد ينقذ .

«فأطعت الله ورعيت الغنم لكنهم كانوا أذل الغنم وأخذت لنفسى عصاتين فسميت الأولى «نعمة» وأسميت الأخرى حبالاً وأخذت أرعى الغنم .

لكنهم كانوا أسوأ غنم فضاقت بهم نفسى وهم أيضا قد كرهتنى أنفسهم فقلت كلا .. لن أراكم من بعد الآن .. من يهلك فيهلك والبقية التى تبقى فلياكل بعضها لحم بعض فأخذت عصاتى نعمة فكسرتها وقيل لى لينقض عهدى الذى كان مع الأسباط فاعلموا أن عهد الله معكم قد نقض .

وستعلمون يا أذل الغنم أنها كانت كلمة «الله» لى قد أرسلنى اليوم لأقولها لكم .

ثم قصفت عصاتى الأخرى «حبالاً» وقيل لى لينقض الإخاء الذى كان بين الأسباط».

. فليقتل الآن بعضكم بعضا .

وقال لى لا تكن معهم راعياً حكيماً لأنهم لا يحبون الراعى الحكيم فخذ لنفسك إن أردت أن ترعاهم أنوات راعٍ أحقق. كن راعياً أحمقاً فحينئذ يحبونك إنهم يحبون الراعى الذى لا يفتقد المنقطعين ولا يطلب التائبين أو يجبر المنكسرين إنه لا يربى الماكث بين يديه بل يجهزه لياكل لحم السمان وينزع أظلافها» ثم أرتفع صوت «زكريا» فصار كأنه يصرخ أو ينذر بحرب .

«ويل للراعى الكذاب الذى يترك الغنم للهلاك» .

«السيف على ذراعه وعلى عينه اليمنى، مشلولة ذراعه وعينه اليمنى عمياء» (١٢٠)
ذلك الأعور هو الذى تحبونه .

«ها أنذا أجعل «أورشاليم» كنساً تترنح تتداولها أيدي الأمم فتسقط لتدوسها الأقدام ولا منقذ سيفتح علي «أورشاليم» ينبوع النجاسة والخطايا التي غرقت فيها» (١٢١).

«ها هو ذا يوم الرب يقترب فيه تقسمون كغنيمه حين تجتمع الجيوش على «أورشاليم» للمحاربة فتؤخذ المدينة وتنهب البيوت وتفضح النساء ويخرج نصف الشعب إلى السبي والبقية تطرد من المدينة (١٢٢).

اذكروا ما قاله «الله» لموسى عبده الذي أعطاكم الشريعة .

قال إن خنتم عهدي فإني أفرقكم في الشعوب لذلك سترحلون كغنم ذليلة لا راعي لها .

«على الرعاة اشتد غضبي فعاقبت رؤساعهم».

«سيدركم بين الشعوب كما تذر الرياح الغبار لتعيشوا هناك بين أقوام لا يعرفونكم لعلكم هناك تذكرونه. إن كان «الله» معكم فإن الأمم كلها تأتي إليكم كما كان أيام «سليمان» و«الله» قادر على أن يخلصكم فتكونوا بالحق شعباً له ويكون بالحق آلهة لكم لكنكم قست قلوبكم فلم تقبل كلام «الله» وأذانكم قد صمت فلم تسمع لكلام «الله» وأعينكم قد عميت فلم تروا آياته فويل لكم».

«إعلموا أن النبوة ستزول منكم لأنكم نقضتم عهد الله وسيأتي النبي الذي تزول من بعده الأنبياء ويزول به سلطان إبليس على الأرض ولا يكون لأحد من بعده أن يقول إني «نبي»» (١٢٣).

«سيأتي اليوم الذي تهربون فيه إلى الجبال وتختبئون وراء الصخور والأشجار ولكن لا مهرب لكم» وأندفع أحدهم وكان قد أسرع فأحضر سكيناً ثم تقدم نحو

«زكريا» صارخا «بل أنت الذى لا مهرب لك اليوم من أيدينا أيها العجوز الفاجر» وأرتفعت الأصوات «اقتلوا الكاذب الذى يجدف على شعب «الله»» «أنهالت الطعنات على جسد «النبي» الذى أخذ يترنح والدماء تسيل منه حتى سقط على الأرض كالعصفور المذبوح وسقط فى أيديهم وأندفع الجنود والضباط الذين كانوا يحيطون بالهيكل يستطلعون أمر الهياج الذى علا صوته فانبرى الكهنة يقولون إن هذا الشيخ الفاجر كان يهيج الشعب ضد القيصر يدعوه إلى رفض الإحصاء الذى أمر به وإلى رفض الجزية لأن اليهود ليسوا عبيداً عند أحد من البشر وقد زنى بامرأة كانت فى كفالاته وأنجب منها ولداً يزعم أنه سيصير يوماً ما ملكاً لليهود لقد استحق الموت طبقاً لشريعة «الله» فر القتلة بتدبير رجال الهيكل الذين يعلمون أن «هيرودوس» مسرور بما حدث وأندفع القليل من المؤمنين نحو جثمان النبي الشهيد ويكون وأسرع الجميع بالخروج من الهيكل.

كان «هيرودوس» حينئذ يعد العدة ليستميل الأمبراطور «أغسطس» للموافقة على نقل «ملكه» إلى أولاده من بعده وتقسيم المملكة عليهم بعد وفاته لأن لقب «الملك» الذى يحظى به كان مقصوراً عليه مدة حياته ولا يحق له أن يورثه أولاده من بعده ولا بد من موافقة الأمبراطور على توريث «اللقب» والمملكة .

لذلك استقبل «هيرودوس» هذه النبوءة الكاذبة التى تتحدث عن «ملك اليهود» الموعود بأشد انزعاج وطلب من جنوده وعيونه إقتفاء أثر هذا الملك المزعوم والتخلص منه فلم يكن مستعداً للسماح لأحد بإفساد خطته الرامية إلى نقل الملك لإبنائه وكانت مثل هذه النبوءة لو ترك لها المجال لتنمو فى الشعب الذى أدمن التنبؤات وعاش عليها كانت كفيلة بتهديد الإستقرار الذى يتمناه لإبنائه وهو يطمع فى أن يكون رأس أسرة ملكية عريقة يتوارث أبناؤها «الملك» جيلاً بعد جيل .

وإذ طفق «العيون» والجنود يفتشون عن «مريم» وغلماها المزعوم ملكاً لليهود في

كل القرى والمدن ألهم «الله» يوسف النجار أن يأخذ «مريم» وغلالمها إلى مصر. فى حماية «الله» خرج «يوسف» هارباً من القرية الظالم أهلها حاملاً «مريم» وغلالمها إلى أرض مصر حيث طاب المقام .

قضى «عيسى ابن مريم» طفولته بجوار نهر من الجنة «النيل» ينهل من بركته ويأوى إلى سماحة أهل مصر وكرمهم وحبهم لأنبياء «الله» جميعاً فى كل الأزمان مهما كان موقف السلطة الحاكمة من الدين الذى يدعو إليه الأنبياء. لقد طاب المقام فى مصر من قبل لأبى الأنبياء «إبراهيم» ورزق فيها «إسماعيل» بكره الذى سيظهر فى نريته «الملكوت» الذى جاء «عيسى» الى الدنيا ليبشر به وإلى هذه الرحلة الخائفة المسافرة إلى الأمن فى أرض مصر أشار «الله» حين قال .

«وجعلنا ابن مريم وأمه آيةً وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين» (١٢٤).

فمصر هى الربوة التى تتميز بالقرار أى الإستقرار والمعين وهو عين الماء التى استمرت وثبتت فى مكانها حتى صارت إسم مكان «معين» . إنه النيل الذى تبنت حول ضفتيه حياة مستقرة تولد منها مجتمع إنسانى ثابت الأركان مطبوع بطابع النيل الكرم والسماحة وحب السماء التى هى أمه لأن النيل ولد من الأمطار فجاءت ابنته «مصر» مثله تحب الأنبياء الذين جاؤا من السماء .

أخذ «عيسى ابن مريم» ينمو فى أرض مصر التى تذكر القلب بجنة «الله» يرويه حب أمه ورعاية زوجها «يوسف النجار» الرجل التقى ويأوى الثلاثة حب أهل مصر الذين يحبون السماء التى وهبتهم الحياة. كانت «مريم» تلقنه العلم فلما شب قليلاً أحب رعى الأغنام فكان يخرج فى الصباح الباكر مع أغنامه يسوقها إلى المراعى الطيبة ويبحث لها عن الماء ويتفقد أحوالها ويمعن النظر فى آيات «الله» على الأرض وفى السماء وفى المساء قبل غروب الشمس يرجع إلى بيته مع أغنامه وقد أسر بصره جمال

السماء عند الغروب والطيور الراحلة تسرع بالعودة إلى أعشاشها والقلب الذى استنار «بروح الله» يتأمل ويفكر .

لقى «هيرودوس» ابن انتيباتروس» الملك حتفه غير مأسوف عليه من أحد. لقد حاول طوال حياته فى سبيل احتفاظه بالسلطة الشئ الوحيد الذى أحبه وقدسه حاول أن يرضى جميع الأطراف المتنازعة فسخط عليه الجميع سخطت عليه بطانته من الصدوقيين لأنه حاول تقريب واسترضاء الفريسيين وسخط عليه الفريسيون لما طلب منهم القسم على الإخلاص له وهو ما كان يسقطهم فى أعين الناس وساعت علاقته بهم إلى الحد الذى قيل فيه أنه جمع شيوخهم وحبسهم وأمر بعض أعوانه المخلصين أن يذبحوهم بمجرد أن يسمعو بنبأ موته فى القصر وقبل أن ينتشر الخبر فى الشعب حتى تضيع فرحة الفريسيين بموته فى الحزن على شيوخهم المذبوحين ذبح الأغنام وسخطت عليه عائلة الحشمونائيم لأنه اغتصب السلطة منهم واستأصل العائلة حتى وصل الأمر به إلى قتل أمراته «مريم الحشمونائية» التى كان قد تزوجها فى سبيل إرضاء العائلة والشعب الذى كان يؤمن بأن الحشمونائيم هم أصحاب السلطة الشرعية وسخط عليه الشعب كله لأنه منافق متقلب فرض عليهم كثيراً من الضرائب التى أثقلت ظهورهم فى سبيل بناء مملكة عظيمة تخصه وحده ولا تعنى الشعب فى شئ .

حتى الرومان الذين قضى حياته كلها فى إسترضائهم سخطوا عليه لأن سياسته أثارت الإضطراب وأشعلت الفتن فى تلك البقعة الحساسة من قلب الأمبراطورية .

لذلك فرح الجميع بموته حتى أولاده الثلاثة لأن الإمبراطور الرومانى «أغسطس» رضى بالموافقة على وصية «هيرودوس» القاضية بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة الذكور «أرخيلاوس» و«هيرودوس انتيباس» و«فيليبوس» (أوفيليب) (١٢٥) إذ رأى فى ذلك ضماناً للأستقرار خاصة وأن «هيرودوس الأب» كان قد أعد أولاده ليرثوا الملك من بعده. فرح الأولاد بمهلك أبيهم لأن كل واحد منهم نال قطعة من الكعكة .

نال البكر «أرخيلاوس» منطقة أورشاليم ويهوذا وكان فيه من أبيه القسوة وعشق السلطة ولكن لم يكن له دهاؤه لذلك أظهر إحتقاره للديانة اليهودية ولم يقتد بوالده فى مجاملة تقاليد الشعب وتملق عواطفه الدينية وحكم منطقة نفوذه بالقوة الغاشمة وحدها لذلك استغاث الشعب بالإمبراطور «أغسطس» وأرسلوا إليه الوفود ليخلصهم من «ابن هيرودوس» الذى لا يصلح للحكم وقامت الثورات فى «أورشاليم» ومنطقة يهوذا واستطاع «أرخيلاوس» إخماها فى قسوة تجاوزت قسوة أبيه فاضطر «أغسطس» فى نهاية الأمر إلى عزل «أرخيلاوس» وعين بدلاً منه «بيلاطس» وهو رجل رومانى لا يدين باليهودية (١٢٦) وهو غريب عن المنطقة كلها. منذ ذلك الحين اتخذت «روما» سياسة تعيين حكام رومانيين أجانب عن المنطقة وأوصتهم أن يحترموا تقاليد الشعب اليهودى وأن يتركوا له ممارسة حريته الدينية وإقامة الطقوس المتوارثة فى حدود عدم المساس بالأمن أو السيادة الرومانية. إن مهمة الحاكم الرومانى هى إبقاء المنطقة التى يحكمها تحت السلطة الرومانية فقط وآية ذلك أن تقوم بدفع الجزية المطلوبة مهما عظمت. وكانت هذه هى رغبة الشعب اليهودى نفسه عند موت «هيرودوس» الأب إذ أسرع ساعتهما وفد من الفريسيين إلى «أغسطس» يطلبون منه عدم تعيين أبناء «هيرودوس» حكاماً عليهم فإنهم مستعدون لطاعة حاكم رومانى غريب وأن يدفعوا الجزية المطلوبة ولا يطمعون فى الإستقلال السياسى فى مقابل السماح لهم بحرية إقامة الطقوس الدينية ولكن «أغسطس» رفض هذا الطلب أول مرة وألغى لقب الملك الذى كان يتمتع به «هيرودوس» ووافق على وصيته على أن يتسمى ورثته بالرؤساء فكل واحد منهم صار «رئيساً» وليس ملكاً لقطعة من الأرض .

أما «هيرودوس انتيبباس» الإبن الثانى فقد ورث أباه فى منطقة الجليل الشمالية وكان أكثر أولاد «هيرودوس» شبيهاً به وربما سمى لذلك بإسمه كان «هيرودوس الإبن» يطمع فى أن يكون الوريث الوحيد لأبيه لأنه يرى نفسه أفضل أولاد أبيه وأصلحهم للملك وقد عمل على إشاعة جو من السماحة الدينية أو بالأحرى التخفف من قيود

الشرعية وتقاليده الشعب المتوارثة لأنه كان يرى أن هذا هو الجو المناسب لنشأة ونمو المملكة العظيمة التي يطمح في الظفر بها. أحاط نفسه ببطانة من طبقة الأغنياء الصدوقيين ولكنه لم يظهر احتقاره للطقوس المقدسة تماماً كما كان يفعل أبوه كان مستعداً أن يجامل تقاليد الشعب طالما أنها لا تتعارض مع أطماعه ورغباته .

وعندما عزل الإمبراطور «أغسطس» أخاه «ارخيلائوس» عن رئاسة «أورشليم» ويهوذا طلب أن تنضم إليه باعتباره الوريث الشرعي لأبيه لكن «روما» كانت حينئذ قد أخذت بسياسة تعيين الحكام الرومانيين الأجانب عن المنطقة التي يحكمونها وكانت تضم تصفية أسرة «هيرودوس» بحيث يكون أولاده هم آخر الحكام من نسله .

لذلك كان «هيرودوس» الابن رئيس الجليل لا يمقت شيئاً أكثر من «بيلاطس» البنطى الحاكم الرومانى الذى تم تعيينه خلفاً لأخيه «أرخيلائوس» إذ كان يراه مغتصباً لحقه الشرعى ولكن لم يكن فى يده شئ ليغير من أرادة روما فقبل الأمر الواقع وهو راضخ يتحين الفرص .

أما الابن الثالث «فيليبوس» (فيليب) فقد نال «الجلولان» أو بادية الشام وحاول إسترضاء الإمبراطور «أغسطس» والحصول على رضاء الرعية التي يحكمها بتطبيق القانون لكنه لم تكن له هبة الملوك وطمع أخوه «هيرودوس» رئيس الجليل فى اغتصاب الجلولان منه وهكذا عاش «هيرودوس» الابن فى اضطراب وقلق يطمع فى ملك أخيه الأصغر «فيليبوس» وينقم من «بيلاطس» الرومانى أنه أغتصب منه ما يقول عنه أنه إرثه من أبيه .

(١١)

«الابتلاء»

«الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور»

«سورة تبارك : ٣»

لم يستطع «يحيى» أن يستقر فى عزلته بالجبل إلا فترة قصيرة بعدها كلما حاول أن يدخل فى الصلاة وجد نفسه يسهو فيخرج من الصلاة ويغتسل ويستعيد «بالله» من الشيطان اللعين ويعزم على الدخول فى الصلاة إلا أن قلبه لا يطاوعه فيجده مشغولاً بأبيه فيخرج وينتظر بعض الوقت لا يدرى قدره ثم ينتبه ليجد نفسه يفكر فى أبيه وهو يحس بشوق جارف إليه وألم غامض يعتصر قلبه فوجد نفسه مضطراً إلى قطع عزلته التى كان قد ترك أباه من أجلها وهو حزين لأن «الله» لا يريد أن يريده الآن فلو كان يريده ليسر له الصلاة وأخذ يحث الخطى نازلاً من الجبل قاصداً «أورشليم» .

كلما تقدم كان يحس بكآبة مخيفة تبتلع قلبه شيئاً بعد شئ حتى وقف أمام البيت فإذا بالكآبة تغرق قلبه كله. كان الباب مفتوحاً كأن لا أحد فى البيت. أسرع يدخل وهو يشعر أن ثمة كارثة قد وقعت. أخذ ينادى وهو ينتقل فى انحاء البيت الذى خلا من أصحابه «أبى» "يا أبت أين أنت. أين أنت يا أبت" فتش فى كل ناحية ودارت عيناه ولم يجد أحداً . أسرع يعدو خارجاً من البيت يصرخ قلبه «أين ذهبوا» ؟ " .

هل قامت القيامة وأختارهم «الله» ونبذنى مع المنبوذين ؟ لكن البيوت قائمة والناس فى الطرق تضحك وتثرثر وليست هذه حالهم عند البعث "إذن أين ذهبوا ؟" .

أسرع إلى الجيران يسألهم عن أبيه وعن «مريم ابنة عمران» لكن كان الجميع يتحاشون لقاءه ويطبق عليهم الصمت. شعر أنهم يخفون عنه فى صمتهم فاجعة مخيفة

ورأف بحاله أحد الشيوخ فأخذه من يده وسار به إلى القبور وهناك أشار إلى أحد القبور وقال «هنا يرقد أباك» كان القبر يبدو عليه أنه قد شيد حديثاً وقد أعتنى بتشييده فجاء فخما أكثر مما حوله من القبور .

وواصل الشيخ حديثه «لقد تعهد الكتبة والكهنة بتشييد هذا القبر الفخم لإبيك وعزموا على استكمالها حتى يكون لائقاً بمكانة والدك لأنهم بعد أن قُتل ندموا وقالوا لابد أن .. وقرعت الكلمة سمع «يحيى» قُتل !! أقتل أبى ١٩» .

وأضطرب الشيخ لقد أفلتت الكلمة رغماً عنه، زل بها لسانه ولم يدري ماذا يقول للشباب المسكين الذي أخذ يجهش بالبكاء المرير فالتزم الصمت وقلبه يتفطر من الحنان على هذا الفتى الذى لم يكن يعرف أن أباه الشيخ قد مات مقتولاً وهو غائب وطال البكاء فأراد العجز أن يذهب ويترك الفتى لقبر والده، همٌّ بالذهاب فأمسك «يحيى» بذراعه وهو يحاول أن يتمالك نفسه وسأله وسط بكائه .. «من الذى قتله وكيف؟؟ ولماذا؟؟» .

أجاب الشيخ: «هون عليك يا بنى لقد استراح من الدنيا لا أعلم من الذى قتله ولكنه ذبح فى الهيكل كما يقولون» وأخترقت الكلمة سمع «يحيى»، «ذبح فى الهيكل» إذن فقد قتله الكتبة والكهنة وعاد ليجهش بالبكاء من جديد «قتلوك يا أبى» .

«لا أحد يعلم يا بنى من الذى قتله، صدقنى ولكن نصيحتى إليك هى أن تبتعد الآن عن الهيكل وعن «أورشليم» كلها فإن «هيرودوس» يفتش عنم زعموا أنه سيصير ملكاً لليهود وقالوا أن أباك رحمة الله عليه قد تنبأ به فخرج من هنا يا بنى إننى لك ناصح أمين» وأسرع الرجل بالذهاب تاركاً «يحيى» قائماً عند قبر أبيه يتحسر على أنه تركه فى وقت ما كان ينبغى له أن يتركه فيه لكنها مشيئة «الله» التى لا تقهر .

لم يستطع «يحيى» أن يواصل القيام فتهاوى على الأرض جالسا أمام قبر أبيه
يتذكر أيامه الأخيرة معه .

قال إن الأيام القادمة أيام عسيرة .

نعم يا أبى هى أيام عسيرة ومريرة بدونك .

فأثبت على الحق حتى يحكم الله وتلقاه وهو عليك راضٍ .

· «سمعا وطاعة يا أبى» وأنساب دموعه فى صمته «إنك الآن بين يدي رب كريم
فادع لى أن يثبتنى حتى نلتقى معاً فى رحمته».

ظل «يحيى» جالسا حتى مالت الشمس للغروب رآها وهى تتدحرج فى بطن حتى
إختفت خلف القبور وأخذت نسمات الليل الباردة تسلم جسده المنهك الجائع وأصوات
الطيور التى تعبر السماء عند قدوم الليل تشعل الحنين فى قلبه المحزون وتومض
الذكريات «سبحان من كتب الموت على كل شئ وهو حى لا يموت» .

وأخذ يجر ساقية المتعبتين فى خطى متناقلة إلى البيت الذى خلا من أهله إنه لم
يعد بيته ولا يدرى كيف سيقضى فيه ليلته «أين مريم وطفلها» « هل قتلوهما ؟؟ »

أمام البيت تمالك نفسه لعبور العتبة ثم ألقى بجسده المتعب وأخذه سلطان النوم .

فى الصباح أدرك أنه لن يستطيع أن يبقى فى هذا البيت ولا يقدر أن يمكث فى
المدينة التى قتلت أباه. أيمكنه أن يعيش وسط الوحوش الذين فتكوا بنبى «الله» الرجل
العجوز الذى طحنت الأيام عظامه أيمكنه أن يقف للصلاة فى الهيكل وسط الذئاب التى
افترست أباه الضعيف المسكين وهو بمفرده هل يمكنه أن يتصور نفسه وقد صافحت
يده يد قاتل أبيه ؟؟ .

خرج من «أورشليم» كلها . حث الخطى إلى البرية ينام حيث وقف به المسير تحت الأشجار وعلى الطرق وبين الحقول . فراشه التراب الذى خلق منه الإنسان وغطاؤه السماء التى كانت يوماً ما من أيام الخلق بيتاً للإنسان . إن كان الوقت شتاءً والبرد شديداً فإنه يصنع لنفسه بيتاً من الشعر وغطاء من الوبر . يأكل فى أكثر الأيام من العسل البرى والجراد والبقول والثمار الملقاة على الطريق ويشرب من عيون الماء التى فجرها «الله» من الحجارة التى كانت أرق من قلوب الذين ذبحوا أباه .

وسار الزمن فى دربه الطويل الذى لا أول له ولا نهاية فجفف الدموع وأزال الأحزان والشكوك والخاوف بالسكينة ثم أخذ يديمها ليملاً القلب بالطمأنينة فى سيره إلى ربه يسوقه «الروح» الذى فيه إلى «الروح» الذى صدر عنه وأدرك «يحيى» أن له مهمة فى الدنيا أنبأه بها والده قبل أن يرحل وأن أوان أدائها قد أوشك فأخذ يستعد وينتظر .

أطمأن «يوسف النجار» أخيراً على هدوء الأحوال فى أرض «اللبن والعسل» وأن الطلب على الغلام قد كف . لقد صار الغلام الآن فتى يافعا يأخذ بالآليات لجماله وفصاحته وحكمته وأدبه الجم .

كان يتلقط الأخبار من أفواه المسافرين وينتظر وكان يعرف من أمراته المباركه أن قصة غلامها ستكتمل هناك ولكنه لم يكن يعرف متى ستبدأ ولا فى أى يوم يكون السفر حتى جاءت ليلة قضاها ساهراً يصلى مع أمراته فأخذته سنة من النوم فى السحر فسمع هاتفا ينبعث فى قلبه يأمره بالرحيل فأخبر أمراته المباركة فوافقت جهز للرحلة ثم توكل على «الله» وأخذ أهله قاصداً أرض «اللبن والعسل» وهو يتذكر النبوءات التى أخبرته بها «مريم» ويشكر «الله» أن جعله فى هذه الرحلة المباركة .

لم يحب أن يرجع الى بلدته «بيت لحم» القرية التى ولد فيها والتى كان يفخر بها لأنه كان يعرف أن أهله لا يرحبون «بمريم» المرأة التى لاكت سمعتها ألسنة السوء

وخاف على «غلامه» كما كان يسمى «عيسى» من أن يؤذيه أحد بذلك البهتان العظيم وأستخار «الله» فألهمه أن يذهب الى الناصرة، قرية صغيرة في شمال البلاد الذي كان يطلق عليه الجليل وكان أهل يهوذا في الجنوب يسمونه «جليل الأمم» أى الأرض الدائرية التى تسكن فيها الأمم، كانت هذه التسمية على سبيل التحقير لأن أهل يهوذا يعتبرون أنفسهم هم اليهود الحقيقيون وأبناء إسرائيل الأصلاء الصادقون المتمسكون بالشرعية أما أهل الشمال فهم اليهود الزائفون الذين تركوا الشريعة وتخلوا عن تقاليد الآباء وأصبحوا يخالطون غير اليهود من «الأمم» الأمية التى لا تعرف كتاب «الله» ولم تتلقى كلامه . إن أهل الشمال فى نظر أهل الجنوب قد صاروا من الأمم التى لم يختزها «الله».

وكان الجليل أو جليل الأمم يموج بالفعل بالطوائف التى تنتمى لشعوب أخرى غير الشعب اليهودى .

كان هناك «الفنيقيون (اللبنانيون)» والكنعانيون واليونانيون وبعض الجماعات القادمة من الشام ومن جزيرة العرب بالإضافة الى اليهود فضلاً عن أن الجليل كان طريقاً معتاداً للتجارة حيث كانت كثير من القوافل التجارية تمر به فصار جليل الأمم سوقاً رائجة للسلع والأفكار، وفى الوقت الذى نزل فيه «يوسف النجار» بأهل بيته فى الناصرة كان الجليل يخضع لحكم «هيرودوس الإبن» الذى له لقب «الرئيس» وكان يشجع التخفف من القيود الثقيلة التى افترضها الكهنة والشيوخ بإسم الشريعة إستراح «يوسف» للنزول فى الناصرة حيث أراد أن يبتعد عن الجنوب وكل ما يذكره بأيام الفتنة التى صاحبت زواجه من «مريم» الطاهرة .

وعُرف «عيسى» فى الناصرة بإسم «ابن النجار» لأنه كان يساعد زوج أمه فى ورشته الصغيرة بالمنزل، رزق «يوسف» من «مريم» بغيره من الأطفال ذكوراً وأنثاء إلا أن «عيسى» ظل الى آخر عمره هو ابنه المفضل الذى لا يؤثر عليه أحداً من أبنائه

الذين من صلبه وكان هذا مثيراً لغيرة أشقاء «عيسى» من أمه فحاول دائماً أن يداوئها بصبره وحكمته وتنازله الدائم عن حقوقه .

كان «عيسى» يساعد «أباه» النجار فى عمله ولكنه أحب الخروج بمفرده حيث يسير بين الحقول يتأمل جمال «الله» المتبدى على صفحة الكون يراقب الفراشات الجميلة والطيور ويمعن النظر فى الورود وثمار الحقل كثيراً ما ذهب الى «بحر الجليل» الإسم الذي كان يطلق على «بحيرة طبرية» يراقب الصيادين وهم يجهزون الشباك إستعداداً للصيد وهم يركبون القوارب والمراكب أو السفن الصغيرة ويبحرون طلباً للرزق ويتأمل وجوههم وهم عائدون وقد ارتسم عليها الفرح إن كان الصيد وفيراً أو غطتها الكآبة المفصحة عن حزن القلب إن كانت الشباك قد خرجت خاوية، كم استمع إلى الصيادين وهم يقصون حكايتهم مع البحر وكم حن قلبه ويكى من أجل الأمهات والأرامل اللواتى فقدن أزواجهن وأولادهن فى البحر وتمنى من كل قلبه أن يعود هؤلاء المفقودون إلى أهلهم مسرورين، كثيراً ما استغرقه التفكير فى هذه المخلوقات الكثيرة التى ترتبط مع بعضها برباط خفى ولكنه قوى لا يمكن للقلب المتدبر أن يغفل عنه يستهويه السير على الشاطئ يراقب الشمس وهى تسير غاربة حتى تذوب من البصر وراء البحر لكنها حتماً راجعة فإن شيئاً لا يضيع ويراقب النجوم وهى تبعث بصورها الى البحر حتى يخيّل الناظر إلى سطح الماء أنه ينظر فى السماء فتحيره تلك الحقيقة المذهلة هل نحن فى الأرض أم السماء ولا يملك إلا أن يهمس فى قلبه «سبحان الله».

سماء أخوته من غيرتهم «المخبول» لأنه كثيراً ما كان يسرح ساهم النظرات شارداً الفكر يطول غيابه ثم يعود وينسى إن كان قد تناول طعاماً أم لا فيضحكون من غفلته ولا يدرون أنهم هم الغافلون .

لكنه كان لا يغفل عن حضور السبت فيبكر فى الصباح بالإغتسال والتطيب ثم يذهب الى «المجمع» ليستمع الى الموعظة والقراءة حيث اعتاد الكتبة على قراءة بعض

النصوص من كتب الأنبياء ثم يحضر الصلاة، كثيراً ما شهد المناقشات التي كانت تستخدم بين الكتبة والكهنة حول نصوص الكتب وتأويلها فكان يتدخل في النقاش بما يفصح عن حفظه للنصوص وفهمه الذي لا يداني فكانوا يتعجبون منه ويقولون من أين لهذا الفتى بكل هذا العلم أليس هذا هو ابن النجار أين تعلم ولم يجلس إلى الكتبة؟! وكانت أمه حريصة على الذهاب إلى «أورشاليم» في الأعياد خاصة في الفصح تتسمع الأخبار لتعرف هل نبي «يحيى» أم لا؟ يصطحبها «يوسف» مع ابنها وبقيّة ابنائه ويرحلون إلى «أورشاليم» يقضون أيام العيد وينزلون ضيوفاً على بعض أقاربهم وأحياناً يزور أهله في بيت لحم .

. في «أورشاليم» كان «عيسى» يترك أمه وأباه وأخوته ويمضى وحده يصلى في الهيكل ويشهد الطقوس ويستمع إلى الموعظة ويتأمل ما يراه من أحوال الشعب .

كانت صدمة شديدة لقلبه أن يرى السوق وقد أحاطت بالهيكل حتى أن أصوات الباعة والمشتريين مختلطة مع أصوات الأنعام المعروضة للبيع كانت تخترق الأذان في الهيكل وأن يرى باعة الحمام وقد جلسوا ببضاعتهم داخل الهيكل ليقدموها للذين يريدون أن يذبحوا فداء عن أبناءهم الذكور فاتحى الأرحام كما تقتضى شريعة «موسى».

كان يتسأل في نفسه كيف يسمح «الكهنة» للباعة أن يدخلوا البيت الذي جعل للصلاة لقد افترضت الشريعة أن تذبح الفداء وأن نقدم القربان ولكنها لم تأمر بأن يكون البيع والشراء في داخل المسجد ولا أن تقترب الأنعام المقدمة كقرايين من حرم المسجد فتدنسه بمخلفاتها ولا أن تحيط السوق بالمعبد على هذا النحو الذي يخنقه ثم جاءت الصدمة الأشد عندما رأى الصيارفة وقد اصطفوا خلف موأدهم داخل المسجد وأمامهم النقود والصكوك والأقلام وأخذوا «يتاجرون» في الأموال يقرضون الناس مقابل ربح حرام قال الكهنة والشيوخ أنه حلال وأنها تجارة مشروعة أليست هذه هي

الربا الذى قال عنه الكتاب أنه حرام كيف وقد صار يتم تعاطيه داخل الحرم المقدس الذى اختصه «الله» بالصلاة؟؟

ثم بدأ يتوغل بفكره داخل «سوق» الكهنة والشيوخ فاكتشف مذهولا أن هؤلاء الصيارفة ليسوا إلا الواجهة الظاهرة للتجار الحقيقيين الكهنة أنفسهم وكبار الشيوخ... رجال «الهيكل المقدس». ليس هؤلاء الصيارفة إلا موظفين لدى رجال الهيكل يسمحون لهم بتصريف تجارتهم مقابل أجر معلوم. وعاین مذهولاً أن أغلبية الكهنة قد صاروا «صدوقيين» لا يؤمنون بالآخرة ويقولون ليس فى الكتب ما يؤكد أن هناك حياة بعد الموت ويتساءل أين يمكن أن يوجد رجل يُنسب إلى دين الله يجد فى نفسه الجرأة لأن يزعم أن «الله» لم يخبر عن «القيامة» فمتى إذن يُحاسب الناس على أعمالهم أين يجد التقى جزاءه ويجد الظالم عقابه؟! أين يكون العدل التام الذى لا يشوبه ظلم؟؟ إذا لم يكن هناك .

تأمل فى أحوال «الفريسيين» فوجد أنهم يتقاسمون مع الكهنة «السلطة الدينية» لأن أغلب الكتبة منهم. إنهم يختلفون عن الصدوقيين فى الإيمان ببعث الأموات لكنه أدرك أنهم ينكرون بعث الأموات بحالهم وعملهم وإن زعموا أنهم مؤمنون به بلسانهم إذ رأى شيوخهم وقد ساروا فى الطرق والأسواق يختالون على الناس بملابسهم الفخمة الثمينة وعصائب رؤوسهم التى ضخموها وعرضوها لتبرز فى عيون الناس. يظنون أنهم أفضل من سائر الناس وأنهم أعلم من فى الأرض ينظرون إلى غيرهم نظرة الأرباب الذين لا يخطئون الى عبيدهم الخاطئين. لو كان هؤلاء يؤمنون أنهم من تراب وإلى التراب يعودون ثم يقفون بين يدي الجبار القهار الذى لا يحب المتكبرين من عباده أكانوا يسيرون على الأرض التى توشك أن تبتلعهم بكل هذه الخيلاء؟؟ كلا إنهم لا يؤمنون وإن زعموا بكلام الشفاة أنهم أشد الخلق إيماناً .

كان ينزعج من المناقشات العنيفة التى تندلع بين الشيوخ فى « الهيكل » . إنهم

يتجادلون في أدق تفاصيل العبادات التي غرقت في بحر ملئ بالاشواك والوحوش صنعتها عادات الشيوخ ونصوصهم كان يرى الوجوه وقد أحمرت والأعناق وقد أنتفخت عروقها وتعالّت الأصوات الغليظة واختلطت ويتسأل كيف يمكن للإنسان أن يظفر «بالحق» في هذا الجو الخانق الذي نفخ فيه إبليس سمه. فإذا خرج من «الهيكل» وسار في طرق «أورشليم» كسر قلبه رؤية الأطفال الصغار وقد ذبح جمال الطفولة على وجههم وأجسامهم البريئة سكّين الفقر الذي يبرز من ثقب الخرق الممزقة التي وضعت فوق جلودهم فلا ستترت عوراتهم ولا حمتهم من البرد أو الحر . والعجائز من النساء والرجال الذين افترشوا الطرق بجوار القمامة يبحثون فيها مع الكلاب الضالة والقطط الجائعة عن بعض ما يصلح طعاما . مهانة تقتل «كرامة الإنسان» الذي نفخ «الله» فيه من «روحة» وأمر الملائكة بالسجود له . والمجانين الذين يطوفون بالشوارع ويثيرون الرعب في الناس . إنه يراهم في «أورشليم» في الأعياد كما كان يراهم في «الناصر» قريته وغيرها من قرى «الجليل». كلما إستبد به «القلق» خرج هائماً على وجهه باحثاً عن السكنية ليس هناك فرق بين «أورشليم» العظيمة وقريته البائسة الصغيرة «الناصر» فكلاهما يحمل بؤس الانسان . ويتسأل لماذا لا يأمر «الكهنة والكتبة» الأغنياء بالزكاة ؟

لقد جددوا بناء «الهيكل» وحاول «هيرودوس» الأب أن يجعله آية في المتانة والفخامة والجمال وجمعوا له التبرعات، لكن ماذا يفعل «الله» بكل هذه الزخارف؟! وما فائدة «الهيكل»؟ إنه حتى لم يعد مكانا للصلاة . لا يحضر للصلاة فيه إلا أفراد قلائل ولم يعد «الكهنة» يعظون أحداً والكتبة يقرأون بعضاً من «الأسفار» كل سبت ولا أحد يهتم بما يقال أو يري أن له فائدة الإهتمام كله صار الى القرابين والنذور التي صارت هي الطريق للظفر بالغفران وتحقيق الآمال . أمسى «الهيكل المقدس» مكانا ملحقا بالسوق الكبيرة التي يمارس فيها «الكهنة» «والشيوخ» تجارتهم وسوراً يربطون إليه الأنعام التي يجهزونها لتكون «القربان» .

فى إحدى المرات استغرقت التأمّلات حتى أن أمه وأباه «يوسف» وأخوته عادوا أدراجهم إلى «الناصرّة» بعد انتهاء الفصح وقد ظنوا أنه ركب مع آخرين فلما قضوا على الطريق أكثر من يوم أصاب القلق عليه أمه فأخذت تفتش عنه فى القافلة فلم تجده. فرجعت مع زوجها إلى «أورشاليم» لتجده جالسا هادئا فى صمت يستمع إلى مناقشة حادة احتدمت فى «الهيكل» كان يتابعها عن كثب ويتأمل فى كلام المتخاصمين ووجوههم فصرخت فيه أمه وانتبه على الإضطراب الشديد الذى أصابها هى وأبوه «يوسف» فما زاد عن أن اعتذر وابتسم فى وجهيهما فلم يملكا إلا الإبتسام . ثم احتضناه وعادا به إلى «الناصرّة» (١٢٧).

فى كل مرة يرجع من «أورشاليم» محزوناً وهو يرى الشعب الذى اختاره «الله» ليحمل رسالته قد خان عهد ربه وأخذ يهوى فى الظلمات فكان يستأذن من أبيه «يوسف» وأمّه «مريم» ويخرج إلى «العزلة» يناجى «الله» ويطلب منه طريقا للنّجاة له ولأمته .

وخرج «يحيى بن زكريا» من عزّله عندما أعطاه «الله» النبوة كما وعد أباه وأذن له بالدعوة. بدأ رسالته بدعوة بنى اسرائيل إلى طلب المغفرة من «الله» والتوبة ليتطهروا ويكونوا أهلاً لتلقى كلمة من «الله» قد حان وقت ظهورها .

كان «يحيى» يسير متوكّناً على عصاه وعليه ملابس خشنة مأخوذة من جلد الماعز أو وبر الأبل يقف إلى جوار عين من عيون الماء فيتطهر ويجلس ينتظر القادمين للسقاية فيدعوهم إلى الإغتسال بالماء بنية التطهر من المعصية ويطلب منهم أن يسألوا «الله» أن يغفر لهم خطاياهم لأن الخطايا هى التى تسوق الإنسان الى الهلاك الأبدى وأن يتوب عليهم ليرجعوا أطهاراً فيكونون أهلاً لتلقى رسالة من «الله» يأتّيه بها «نبي جديد» اقتربت لحظة بزوغه فى بنى اسرائيل وسوف يصنع «الله» على يديه العجائب فليستعدوا بالتوبة .

إن قبل الواحد منهم دعوة «يحيى» فإنه يأمره بالنزول الى الماء والاغتسال ثم يصعد

من الماء ليصافح «يحيى» مجدداً عهده مع «الله» ثم يستمع إلى إرشاد «يحيى» له أو يسأله عما يحيره أو يختلط عليه ليتلقى الإجابة من النبی الذي تلقى العلم من فم أبيه النبی الشهيد .

كان الأمر بالنزول الى الماء والاغتسال فيه يهدف إلى إشعار «الإنسان» بأنه محتاج الى النظافة وأنه لا يستطيع البقاء في رحمة «الله» التي تشملته مع احتفاظه بقذارته بل لابد أن يتخلص منها . لم يستطيع «آدم» أن يبقى في الجنة وهي رحمة «الله» بعد أن أكل من الشجرة لأن « الثمرة المحرمة» أنتجت القذارة في جسده وكشفت له عن عورته التي كان غافلاً عنها في برائته قبل المعصية . أراد «يحيى» أن يذكرهم أن الخطايا هي سبب قذارة الانسان وانكشف عورته وأن عليه أن يستحم في الماء بنية الخلاص من أرادة المعصية للتخلص من قذاراتها حتى يكون أهلاً للعودة إلى رحمة «الله» والبقاء فيها .

ولا شك أن هذا الأمر هو أول ما كان يحتاج إليه الشعب اليهودي لأنه يتوهم أنه «الشعب المختار» الطاهر أبداً الذي لا تدنسه المعاصي مهما تعاظمت ، إنهم بوجههم أبناء «الله» وأحبائه فأنى ينجسون فجاءت دعوة «يحيى» التي تأمرهم بالنزول إلى الماء بنية التطهر لتقول لهم «كلا بل أنتم بشر ممن خلق تدنسكم الخطايا وتنجسكم إرادة التمرد على شريعة «الله» وتكونون من ثم في حاجة إلى النظافة حتي تصيروا كغيركم من البشر أهلاً لرحمة «الله» أن تنزل عليكم وأن تبقوا فيها أو تبقى فيكم . كان هذا أمراً جديداً علي بني اسرائيل إذ لم يعتادوا من الكهنة والشيوخ على أن ينظروا إليهم هذه النظرة أو يأمرهم بالنظافة على هذا النحو .

إن الشيوخ كانوا يدققون في النظافة متوهمين أن القذارة تأتي إلى الإنسان اليهودي من الخارج . فكانوا يبالغون في الإغتسال وتنظيف الجسم والملابس والأوعية أما «يحيى» فكان يقول لهم أنهم قد صاروا يحتاجون الى النظافة لأن القذارة قد أصابتهم من الداخل

. قد صارت قلوبهم قذرة بإحتوائها على النوايا الشريرة فهم في أشد الحاجة إلى التطهر .
لا إلى استكمال طهارتهم الأصلية التي يتوهمون أنها دائمة لا تزول بطهارة خارجية
تختص بالجسد والملابس والأوئى وسائر أدوات المعيشة .

كان يهدف إلى أن يذكرهم بنزولهم إلى الماء ثم خروجهم منه ليجددوا العهد مع
«الله» ويستمعوا للنصيحة والموعظة يذكرهم بأنهم نزلوا من السماء مع «الماء» الذى خلق
«الله» منه كل شىء وأنهم تلقوا قديماً هداية من «الله» وأعطوه عهداً على السمع والطاعة.
وأنه كنبى أرسل إليهم إنما جاء ليذكرهم ويجدد عهد «الله» معهم .إن أمره لهم بالنزول
إلى الماء هو دعوة الى التذكر والرجوع إلى «العهد» القديم الذى حملوا به الأمانة وأعطوا
من أجله الخلافة التى سخر لها كل شىء فى السماوات والأرض . إن دعوته كلها كانت
تتخلص فى كلمة واحدة . «التوبة» .

يقول لهم أن «التوبة» ليست كلمة ينطق بها اللسان أو دمة تذرفها العين فى لحظة
ندم عارضة أو حتى إحساس بالذنب . بل إن التوبة هى رغبة صادقة فى الرجوع إلى
«الله» بالسير إليه على طريق شريعته وهى رغبة تتحقق فى «عمل» يفصح عنها إنها منهج
حياة . جاء إليه بعض العشارين (الجباة) وسأله كيف نتوب ؟.

فأجابهم «لا تستوفوا أكثر مما فرض» (١٢٨) كان يعلم أن العشار صار يجمع من
الناس أكثر مما فرض عليهم ثم يختلس لنفسه شيئاً ويورد الباقي إلى رئيس «العشارين»
الذى يقوم باختلاس «شىء» لنفسه قبل توريد المفروض . هكذا كان قانون «السرقه» العام
يحكم العلاقات بين الناس فى تلك الظلمات . ولا شك أن «العشارين» كانوا «حثة»
الشعب اليهودى وصاروا فى نظر الناس «رمز الشر» ومن المؤكد أنهم كانوا غارقين فى
الخطايا بكل ألوانها ولا يتصور أن خطيئتهم الوحيدة هى الإختلاس . ولكن «يحيى» لم يقل
لراغبين فى «التوبة» منهم إلا «لا تستوفوا أكثر مما فرض» . لأن عبادة المال واستغلال

المنصب فى إحراز الثروة المحرمة هى الخطيئة الأولى «للعشار» والتي تتولد منها كل الخطايا الأخرى فإن ابتلاء «الله» لمن وضعه فى وظيفة جباية المال من الناس هو فى وظيفته نفسها التى تغريه بالطمع فى أموال الناس وتمكنه من الحصول عليها ، ولذلك فإنه يجب أن يبدأ توبته الى «الله» بالإقلاع عن الطمع فى مال الآخرين ، عليه أن يركز جهده توبته فى الموضع الذى يريد «الله» أن يبتليه فيه فإن أتم الإبتلاء بنجاح تمكن من النجاة من سائر المعاصى فينجو بكيانه كله وتسلم الأمة كلها من شر خطيئته . لو قال «يحيى» للعشارين امنوا «بالله» وصلوا وصوموا وتصدقوا على المحتاجين ، وأخذ يعدد لهم أنواع الأعمال الصالحة ليعملوها والخطايا ليجتنبوها لضاعت نصائحه سدى ولم تثمر شيئا . لأن العشار الذى طلب التوبة سوف يضيع جهده فى كل اتجاه ولن يعرف من أين يبدأ فى إصلاح نفسه .

سوف يضيع منه الطريق ويبقى على حاله . بل ربما ظل يسرق الناس ويختلس لنفسه . ثم يقوم بتصحيح هذه الخطيئة ببعض الصلوات الإضافية أو الصدقات من الأموال التى جمعها من الحرام وهو يظن أنه بهذا يصلح أخطاءه وأنه قد تاب . وفى الحقيقة إنه لم يفعل شيئا إلا محاولة خداع «الله» ولا يخدع فى النهاية إلا نفسه وتبقى الأحوال على ما هى عليه من سوء .

وقال لبعض الأغنياء الذين جاؤا ليتطهروا أمامه ويتوبوا على يديه «من له ثوبان فليعط أخاه الفقير ثوبا . فإن ثوبا واحدا يكفى» (١٢٩) فهذا هنا التوبة الصادقة لا يتوب الغنى بالإكثار من الصلاة أو الصوم وهو يعلم أنه عند الإفطار سيأكل أشهى الأطعمة . إنما التوبة له هى أن يتخلص من عبادة المال التى تحضه على اكتنازه والحرص عليه فإبتلاء «الله» له هو فى ماله وخطيئته الكبرى هى اكتنازه . وها هنا يجب أن يصوب سهام توبته إن كان صادقا فى رغبته .

كان « يحيى » يسير حيث يكون الماء يصرخ فى الناس . « توبوا فقد اقترب الملكوت

وحل فينا بشيريه» . «جاءكم كلمة من « الله » «أوشك» «النبى» المولود من العذراء أن يأتىكم رسولا . النبى الذى قال عنه «إشعيا» صوت صارخ أعدوا طريق الرب واصنعوا سبله مستقيمة فاستعدوا له بالتوبة» .

وكان الناس يخرجون إليه من «أورشليم» نفسها ومن المدن والقرى ليتطهروا فى الماء . ثم يتلقوا منه الموعظة . يعيش جوالا متنقلا لا يستقر فى مكان . يطوف من مدينة إلى أخرى . ومن قرية إلى التى تليها . وكان أكثر سيره على حافتى نهر الأردن حيث يدعو الذين قدموا إليه بالآغتسال فى الأردن وازداد طلب الناس له حتى أن بعض الجنود الذين كانوا يعملون فى الجيش الرومانى كانوا يأتون إليه ويسألونه عن التوبة فكان يقول لهم . «لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحدٍ وأكثفوا بعلائفكم» (١٣٠) وهى الوجبات الغذائية التى كان من حق الجنود أن يطلبوها من الناس وهم يمرون مع العشارين أثناء جباية الجزية أو أثناء عملهم فى حفظ الأمن والنظام .

كانت دعوته شيئاً جديداً غربياً لم يألّفه اليهود .

هيئة ونمط حياته وطريقة ظهوره كل ذلك كان غربياً . رجل كهل تجاوز سن الشباب يعيش أعزباً لا يتزوج رغم أنه جميل الصورة وقوي البنية . يرتدى ملابس خشنة مصنوعة من جلود الماعز أو وبر الإبل ويتمنطق بحزام من الجلد يمشي متكئاً على عصاً لا يستقر فى مكان . لا يدخل الأسواق إلا نادراً ولا يتوغل فى المدن الإمبراطورية يأنف من معيشة المدن والقرى . يحى فى البرية الموحشة الخالية من الناس يسير حيث يجرى الماء فى نهر الأردن أو فى العيون المتناثرة يأكل من الثمار والبقول البرية والجراد البرى والعسل البرى ربما فى أحيان نادرة أكل لحم الغنم أو شرب من لبنها . ليس له مسكن يؤوى إليه آخر النهار . بل ينام حيث وقفت قدماه . «ما أغربه من رجل» عندما كان الناس يقارنونه بالكهنة وكبار الكتبة وشيوخ الفريسيين الذين يعيشون فى المدن ويسكنون فيما يشبه القصور ويرتدون أفخر الثياب ويأكلون أشهى الأطعمه .

لا يذهب الى «أورشاليم» ولا يدخل «الهيكل» ليعظ الناس فيه مواعظه قصيرة محددة صارمة كأنها ضربات بالسيف تأمر بأعمال معينة ولا تغرق في التأويل والتفصيل ، لم يتحدث عن شعب مختار ، ولا عن نصر قريب من «الله» ولا عن وعد بل إنذار بعذاب وشيك يؤكد أنه الإنذار الأخير . ليس في إرشاداته ووعظه ما يشبه أقوال الكهنة والكتبة في «الهيكل» .

خرج علي الناس فجأة بعد غياب أكثر من ثلاثين سنة وقد كان الظن أنه مات بعد مقتل أبيه أو غادر «الأرض» إلى بلاد أخرى فبدأ ظهوره على هذا النحو كأنه بعث من القبور . حتى أن الكثيرين نسوا أنه ابن «زكريا» الكاهن الذي قتل في «الهيكل» منذ مدة طويلة وأقام له الكتبة قبراً فخماً . لم يكن يحب «أورشاليم» ولا هيكلها ولا كهنتها وشيوخها الذين قتلوا أباه أو شاهدوا قتله ولم يحاول أحد أن يدافع عنه .

لم يعد في قلبه بعد اكتمال المعرفة بالنبوة كراهية لأحد من الخلق ولكن بقى في النفس «شىء» من «أوشاليم» الفاجرة التي قتلت النبی وعابت الطاهرة فلم تطاوعه قدماء لدخولها للوعظ في «هيكلها» .

لم يكن في حاجة إلى زيارة أبيه الشهيد في القبر الفخم الذي شيده له سترأ لجريمتهم البشعة . لقد رأى القبر ذات مرة عندما عاد مسرعاً من عزلته التي يعرف الآن فقط سر وقوعها ولم يحب أن يراه مرة أخرى . إن أباه حاضر فيه هو فقد استمد جسده من جسده الطاهر واستمد روحه من «الروح» الذي كان يستمد منه أباه روحه فكيف يذهب لزيارته وهو معه على الدوام حال فيه يصحبه في كل مكان . إن أباه الآن في جنة النعيم مع المقربين من عباد «الله» يذكره في صلاته بالدعاء ويراه في «الرؤيا» مع الأنبياء يضحك فعلام يحزن هو؟ إلى من يذهب في القبر الذي بناه المنافقون يحاولون خداع «الله»؟! .

كانت غرابة «يحيى» تجذب إليه الكثيرين رأى فيه المتطلعون إلى مجد «روما» التي

صارت مقدسة أنه مثل للإنسان البدائي شاهد حى على الإنسان القديم قبل نشأة المدن وقيام الحضارة. أثر باقى لأناس قد عاشوا من قبل فكانوا يذهبون لرؤيته وهو يعط ليمتعوا نظرهم «بالفرجة» على تلك الأعجوبة التى لانظير لها .

وذهب إليه آخرون من باب الفضول خاصة الفريسيون الذين يعدون أنفسهم أكثر الناس علما وورعا فكانوا يذهبون يريدون مجادلته وإظهار علمهم ولكنهم « لسيادته» التى وهبها «الله» له لم يكونوا يجرؤن على المجادلة يجدون أنفسهم مضطرين إلى الاستماع اليه صاغرين وأنفسهم تقول لهم ليتنا ماجئنا إلى هذا « السيد » ولكننا لن نعود ويتلمسون الهرب «هل يراكم من أحد ؟»

كان فقهه وفصاحته إهانة بليغة لإدعاءاتهم الفارغة .

إلى هؤلاء توجه « يحيى » وقد أعلمه « الله » حقيقة قلوبهم فقال لهم «يا أولاد الأفاعى» .

« من الذى أوهمكم أنكم ناجون من الغضب الآتى » .

« أم تراكم تظنون أنكم تستطيعون الهروب من قبضة الله » .

« لاتقولوا فى أنفسكم نحن أبناء ابراهيم ولن يعذبنا الله » .

« لأنى أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم » .

« اعلموا أنه الآن قد رفعت الفأس على أصل الشجرة توشك أن تنزل فتقتلع الشجرة

من جذورها » .

« كل شجرة لاتصنع ثمرا طيبا تقطع وتلقى فى النار » .

« قاصنعوا ثمارا طيبة تليق بالتائبين » (١٣١)

— لسانه أحد من السيف أحد من لسان ابيه الذى سمعنا عنه فلعنة الله عليه

وعلى أبيه» .

لكن الناس ظلوا يذهبون الي «يحيى» ويسيرون وراءه حيث ذهب سواء استجابوا لدعوته فتابوا وأمنوا به وببنى آخر يوشك أن يبعث أم لم يستجيبوا .

كان لديه دائما جمع من الناس يستمعون إليه «مأخوذين» بمهابته وبقي منهم نفر قليل هم الذين صاروا تلاميذه يصاحبونه فى حله وترحاله وينزل لدى بعضهم ضيفاً فى أسفاره التى لا تتوقف . كانت هذه الأسفار وهذه الجموع مصدر قلق عميق واضطراب شديد فى المجتمع اليهودى خاصة فى دوائر السلطة السياسية ودوائر « الهيكل » لأن كلاً من الفريقين نظر بارتياح وانزعاج لهذا الشيخ الذى يجوب البلاد «ويجمع الأنصار» فهل هو زعيم سياسى يطمع فى إنشاء «مملكة» شعبية تعتمد على إيمان اتباعه به إذ هو لا يتقرب إلى الرومان أصحاب السلطان الذين صاروا يعطون شارة الإمارة أو الرئاسة . هذا هو السؤال الذى شغل الفريقين وعلى الأخص أصحاب السلطة الدنيوية «بيلاطس» الرومانى الحاكم فى أورشاليم و«يهوذا» و«هيرودوس الإبن» رئيس «الجليل» أرسلوا «العيون» لترى لهم من داخل الشعب مايجرى وبعد تمحيص وتدقيق استراح اصحاب السلطة «ليس هذا بسلوك الزعماء السياسيين». وإن كانت له مهابة تفوق مهابة الإمبراطور الرومانى نفسه إلا أنه لم يتحدث عن «مملكة» ولم يعد الشعب بشئ إلا بعذاب « الله » إن بقى على عناده وليست هذه أقوال ولا وعود طلاب «الملك». ولم تكن راحة أصحاب السلطة خاصة «هيرودوس» الإبن رئيس «الجليل» صادرة عن زهد «يحيى» فى «الملك» فقط بل لأنه أيضاً كان يثير فى الشعب إحتقار الكهنة والفريسيين حتى دون أن يهاجمهم لأن الناس عندما تقارن بينه من ناحية وبين رجال الدين الآخرين الذين يتسابقون فى التقرب الى نوى السلطان طامعين فى ذهبهم طمع الكلاب التى تنتظر مايلقى إليها من الموائد وهى تحوم حولها بعيون متطلعة وقلوب ذليلة لايمك الناس حينئذ إلا احتقار «الكلاب» . كانت هذه المقارنة تضعف من شوكة رجال الدين سواء الكهنة أو شيوخ الفريسيين والكتبة ومن ثم تقلل من قدرتهم على ابتزاز أصحاب السلطان لذلك ترك «بيلاطس» من جهة و«هيرودوس» من الجهة الأخرى لـ «يحيى» العنان ليتحرك ويقول مايشاء فلم تكن فى دعوته خطر وكان هذا من تمكين «الله» له إلى حين .

أما مصيبة رجال الدين «الكهنة» و«الكتبة» فكانت شديدة إذ بدأ «يحيى» يسحب منهم «جمهورهم وزيائنهم» من أفراد الشعب فازداد انحدار «الكهنة» في أعين الناس وشاركهم في هذا الانحدار «الفريسيون» الذين لم يتورع «يحيى» عن الإستهزاء بهم علانية وكان تبشيره بنبي اقترب موعد إرساله إلى بنى اسرائيل يسبب أكبر قلق في صفوف الكهنة والكتبة لأنه فضح الإضطراب الشديد الذى كتبت به النصوص «المقدسة» وكشف عن الأيادي الكثيرة التى عبثت بكلام «الله» وعن الجهل الذى يتصف به «الكهنة والكتبة» إذ رفعت النبوة الستار عن الاختلاف الشديد فى النصوص المبهمة وأنهت إلى الأبد الثقة الزائفة التى يختال بها من يزعمون أنفسهم «العلماء» الذين يدعون انهم يحفظون كلام «الله» ويعرفون تأويله .

بدأ الناس يتسألون عن «النبي» الذى يبشر به «يحيى» هل هو مذكور فى الكتب ؟ وهل هذا هو أو أن ظهوره ؟ وما هى علاماته ؟

ووجد «الكهنة» و«الكتبة» أنفسهم مضطرين إلى قراءة الكتب التى كانوا قد تركوها . أخذوا يفتشون فيها عن الدلائل والقرائن فازدادوا اضطرابا ولم يصلوا الى شئ يتفقون عليه .

وجدوا فى أسفار «موسى» حديثا عن نبي يقيمه «الله» من أخوة بنى اسرائيل ويضع فى فمه كلامه . النص يدل على أنه ليس يهوديا فإنه من أخوة اليهود فهل يبعث «الله» نبيا من غير اليهود ؟ وهل هذا النبي هو الذى يقول عنه «يحيى» ؟ وإذا لم يكن فمن يكون الذى يتكلم عنه «يحيى» ؟

وقلبوا فى الأسفار فوجدوا أن «أشعيا» يتحدث عن العذراء التى تلد ولدا ويكون اسمه «عمانوئيل» وقرأوا «الصوت الصارخ أعدوا طريق الرب واصنعوا طرقه مستقيمة» إن «يحيى» يقول إن ابن العذراء قد ولد وأنه قد أوشك أن يعلن نبيا مرسلا إلى بنى اسرائيل

وهو الصوت الصارخ الذى تحدث عنه «أشعيا» وأخذ الناس يسألون «الكتبة» و «الكهنة» من هى العذراء؟! ومن هو مولودها؟ ومن هو الصوت الصارخ؟ هل الأمر كما يقول «يحيى» ولو لم يكن فما هى الحقيقة؟

وتذكر الشيوخ منهم قصة «مريم» ابنة الكاهن «عمران» التى جاءت منذ سنوات كثيرة إلى «الهيكل» تحمل غلاماً وقيل أنه المقصود وتذكروا كلام «الطفل» فى المهد. ورفض «الكتبة» و «الكهنة» ذلك وقالوا أنه من أوهام الناس البلهاء الذين يعلقون الآمال على الخيالات لكنهم لم يستطيعوا أن يعطوا إجابة على الاسئلة وعجزوا عن أن يتفقوا ومع التفتيش فى الكتب قرأوا عن الوعد الالهى «لأبراهيم» فراحوا يتساءلون أى وعد هذا؟ وقد صرنا إذلاء عند الكفار المستكبرين ندفع الجزية صاغرين ونقدم القرىبان فى «الهيكل المقدس» من أجل سلامة «القيصر» الذى يحكمنا والقيصر نفسه لا يؤمن «بالله» ويعبد الأصنام وكذلك الذى يحكمنا باسمه أتراه وعدا مكذوباً لن يتحقق أم أن تحققه آتيا فى الطريق؟

وبدأت الأذهان تفكر فى النبوءات الكثيرة التى ازدحمت بها الكتب والأسماء الغريبة التى تناثرت هنا وهناك مثل «شيلون» الذى ذكر سفر التكوين أنه يقضى على قضيب يهوذا ويكون له خضوع الشعوب (١٣٢) وانتبهوا الى ما ذكره «دانيال» عن خراب «المدينة المقدسة» «أورشليم» وقرع الأسماع اسم «إيليا» الذى قال «ملاخى» «أن الله» يرسله قبل مجيئ اليوم العظيم والخوف (١٣٣) الذى هو يوم «القيامة» فمن يكون «إيليا» هذا؟ إنهم يعرفون «إيليا» (إلياس) الذى بعث فى زمن «أخاب» أحد ملوك مملكة اسرائيل وكان ملكاً فاسداً تزوج بأمرأة فينيقية هى «إيزابيل» وفشت فى عهده عبادة إله الفينيقيين «البعل» وقدمت له القرابين فأرسل «الله» «إيلياس» الذى يقولون له «إيلياهو» أو «إيلياء» ليدعو الاسرائيليين إلى ترك عبادة «البعل» والعودة إلى عبادة «الله» الواحد الأحد الذى اختارهم لحمل رسالته. قد مات منذ أكثر من ثمانمائة عام وكانت النبوة من بعده لتلميذه «اليسع» (اليسع)

فما معنى قول «سفر ملاخي» هاأنذا أرسل «إيليا» فهل سيبعث من جديد أتيا من عند الأموات ؟

أم أن «ملاخي» يقصد شخصاً آخر أعطاه كاتب السفر إسم «إيليا» (١٢٤) ؟ فهل كان ذلك على سبيل التلميح ؟ ترى ما السبب ؟ وما معنى تغيير الأسماء والرمز للأشخاص بالفاظ أخرى غامضة تتفق مع الاسم الحقيقي في حساب الجمل وهو أسلوب غامض ومريب يقضى بأن لكل حرف من حروف اللغة رقم يساويه ومن ثم يمكن كتابة اسم الشخص بتغيير حروف اللفظ الى حروف أخرى بشرط أن يكون مجموع الأرقام في اللفظين واحداً وهكذا يصبح للإنسان الواحد أكثر من اسم. من الواضح أنه أسلوب للتغطية والتلميح وليس للكشف والتوضيح فمن هو «إيليا» الذي سيأتي لأننا نعرف أن «إيليا» (الياس) قد مات كثرت الاسئلة ولم يستطع «العلماء» من «الكهنة والكتبة» أن يعطوا جواباً وبدا أن زلزالاً كبيراً أتتجمع بوابره تحت السطح يوشك أن يقرع الأبواب .

(١٢)

« الصعود إلى جبل التجربة » « إن في ذلك آيات وان كنا لمبتلين »

«المؤمنون ٣٠»

أثمرت دعوة «يحيى بن زكريا» في الشعب اليهودي إذ قطع البلاد جيئه وذهابا يقف عند منابع الماء يدعو الناس الى التطهر والاستغفار والتوبة والاستعداد لتلقى كلمة من «الله» فأصبح كل واحد يتسائل عن «النبي الجديد» الذي يبشر «يحيى» ووصلت انباء التبشير الى «الناصرة» في «الجليل» حيث «عيسى» المبشر به وأمه يستمعان إلى الانباء في ترقب وقلق إذ كانا يعلمان أن وقت التجربة قد نزل .

في «الهيكل» والمجامع لم يكن إلا التريص والإضطراب فقد اختلف الجميع في شأن الدعوة المنتظرة . كان الجميع يؤمنون ببعثة «نبي» اطلق عليه إسم «مسيّا» .

لكن هل هو من نسل «يوسف» كما زعم السامريون الذين رفضوا كل الأنبياء من بعد «موسى» ولم يعترفوا إلا بالأسفار الخمسة المنسوبة «لموسى بن عمران» ؟ أم هو من «نسل داود» كما زعم اليهود ؟ وهل سيكون هذا «المسيح» ملكا «كأبيه» داود» يرد المجد إلى اليهود؟ وإذا لم يكن كذلك ؟ فما هي مهمته على وجه التحديد ؟ وهل هو الرجل الوحيد المنتظر مجيئه من «الله» ؟ أم أن هناك آخر عليه أن يأتي قبل اليوم الموعود ؟ وهل «الآن» هو موعد إرسال المسيح ؟ أم أن الوقت لم يحن بعد ؟ وهل يمكن للمسيح إن كان هذا وقت إرساله أن يحرر اليهود من الخضوع للرومان والإفما جدوى إرساله ؟ .

ومن هو «إيليا» الذي ذكر في سفر «ملاخي» وقيل أنه سوف يأتي بعد ؟ ومن هو

«النبي» الذي ذكر في سفر التثنية أن «الله» يقيمه في أخوة بني اسرائيل . ويضع كلامه في فمه . ومن هو «شيلون» المكتوب عنه في التكوين «تخضع له الشعوب» ؟ وما علاقة كل هذه الأسماء بما يقوله «يحيى بن زكريا» الذي يصر جازماً أن «المسيح» قد جاء إلى الدنيا وأنه قد ولد وأن ظهوره في نبي اسرائيل قد صار على بعد لحظات ؟ .

أمام كل هذه الأسئلة «العسيرة» «وقف» أهل الكتاب» من الكتبة والكهنة حيارى لا يستطيعون أن يعطوا جواباً واضحاً لكشف المبهمات وتوضيح الطريق . اكتشفوا أنهم يحملون «أسفاراً» مليئة بالأشواك التي لم يكونوا يظنون أنهم سوف يضطرون للسير عليها وادركوا في فزع أن ثقتهم الكبيرة في أنفسهم لا تقوم على شيء . إنها لا تحتل الثبات عند الاختبار الأول .

لكن الأمر كان بالنسبة إليهم أعجل من أن ينتظروا بيانه وأهم من «مجرد» البحث عن الحقيقة . لأنه إن كان «المسيح» المزعوم أنه قد جاء سوف يكون «ملكا» فإن حياتهم سوف تتقلب رأساً على عقب . لأن الكهنة والكتبة وخدم «الهيكل» ليسوا إلا موظفين عند «الملك» . لقد سُن هذا الحكم منذ «داود» ملك اليهود الذي يقال أن «المسيح» سوف يكون من نسله وإن كان «الملك» المنتظر من نمط «يحيى بن زكريا» فلا ريب أنها الكارثة إذ لا بد أنه سوف يطردنا من الخدمة في «الهيكل» . إذا كان «يحيى» لا يتورع عن سبنا والاستهزاء بنا وهو ليس إلا «متسولاً» حافى القدمين يهيم على وجهه بلا مأوى فكيف سيفعل بنا «مسيح» الموعود وقد صار «ملكا» يحكم اليهود «لا بد أنه من نمطه ولذلك فهو يبشر به . في كل القرى والمدن من «الجليل» شمالاً حتى آخر «اليهودية» . إذأ نحن مقدمون على زمن سوف نتحول فيه إلى متسولين نسال الناس الصدقة في الطرقات . وبإله من مصير» .

حتى وإن كان «يحيى» كاذباً فهل نستطيع أن نبقي على حالنا وقد أصبح الناس لا

يحترمونا كما أن «بيلاطس» لا يعبأ بالأمر تاركا «المجنون» يفسد عقول الناس بما يقول . بل لعل الشقى «بيلاطس» سعيد بما يجرى لأن شكوتنا قد ضعفت . لم تعد لنا السيطرة علي الشعب وبعد وقت قليل سوف لا يحتاج إلينا ولن يعبأ بنا أحد .

لا يمكننا الإنتظار مكتوفى الأيدى حتى نجد انفسنا جالسين فى الطرقات نتسول طعامنا وطعام أولادنا .

إندفع «الكتبة الكهنة» يشيعون أن «يحيى» ليس الأمخبولاً مسته الشياطين وقد أثر على ذهنه طول الجوع والحرمان وهو جاهل لا يعلم «الكتب» فأين تعلم المسكين الذى قضى عمره كله فى الطرقات لا يجد ما يأكله.

لكن هذه الإدعاءات لم تكن لتثبت أمام الواقع المشهود فإن لـ «يحيى بن زكريا» مهابة الملوك رغم مظهره البسيط ولا يستطيع أحد أن يتقحمه بالنظر أو أن يتكلم فى حضرته بصوت مرتفع وهو ينطق بالحكمة ويفصح عن علم بالكتب لا يستطيع واحد من «الkehنة أو الكتبة» أن يجارية فيه وقد صار له الآن فى كل قرية ومدينة أتباعا وله تلاميذ يلزمونه على الدوام تركوا كل شئ من أجل الظفر بصحبته وتلقى المعرفة من فمه . فهل من كان هذا وصفه يقال عنه أنه «مجنون» ؟

وأضطر رجال «الهيكل» إلى الكف عن هذا الإفتراء . وكان لابد من اتخاذ موقف فاجتمع «الكتبة والكهنة» وكبار الفريسيين ليتباحثوا فى الأمر ولم يلتفت واحد منهم الى أنهم فى غمرة إهتمامهم بمصيرهم فى الدنيا وخوفهم على مراكزهم فى الشعب قد تناسوا الإختلافات المريعة التى فرقت بينهم من قبل والمجادلات العنيفة التى احتدمت بينهم . اجتمع الكهنة الصدوقيين مع الشيوخ الفريسيين وكانت هناك «عيون» الرومان يستطلعون الأمر من الداخل . إجتمعوا مضطرين ومضطربين ليتباحثوا معاً أمر الفتنة بل الكارثة التى أوشكت أن تطل عليهم برأسها .

وعلى النقيض من اضطراب الكهنة والشييوخ فإن «يحيى» كان ثابتاً يتكلم فى ثقة وبساطة رغم أنه لم ير «المسيح» منذ ثلاثين عاماً منذ جاءت به أمه من «الهيكل». لقد اختفيا ولم يعرف حتى الآن أين هما لكنه موثق أنهما حيان وأن «عيسى» يوشك أن يظهر نفسه للشعب برسلا من «الله» قام «يحيى» كما أمره «الله» بالتمهيد له فى قلوب الناس حتى لا يسرعوا برفضه بإدعاء أنه ثمره زنا إذ يستحيل ان يرسل «الله» نبيا ابن زانية.

كان «يحيى» جالسا بالقرب من «نهر الأردن» عند «بيت عبرة» يحدث الناس عن كلمة «الله» «عيسى بن مريم» الذى أوشك أن يُبعث.

قال «أنا أطهركم بالماء للتوبة ولكن «المسيح» سوف يطهركم «بروح القدس» الذى أيدته «الله» به .

«رزقه فى يده» .

«سيأتى إلى حقله فيجمع القمح الى المخزن . أما التبن فسيلقى إلى نار لا تطفأ» (١٣٥)

إنه الآن قائم بيننا ولكننا لم نره بعد».

وهنا تقدم رجال قادمين من «أورشاليم» كانوا من الفريسيين مع بعض خدام «الهيكل» يسألونه من أنت (١٣٦) ؟ وحدق فيهم «يحيى» فأنطرقوا وتلعثموا وهم يقولون فى اضطراب وقد نظروا إلى عيون الناس التى جاءت لتتطهر وتسمع الموعظة «نريد أن نعطي جوابا للذين أرسلونا» (١٣٧) أرادوا أن يتصلوا من روح الإتهام الذى يحمله سؤالهم . فهم مجرد حاملى رسالة لرجال «الهيكل» فإن كان هناك لوم أو توبيخ فعلى الذين أرسلونا لا علينا .

وصمت «يحيى» . ولم يتكلم فاندفع واحد من الفريسيين قائلا . «أأنت المسيح»؟ (١٣٨)

– قال يحيى «لا» .

– قال «أأنت ايليا» المكتوب أنه سيظهر؟

– قال «لا» .

– قال «أفأنت النبي» ؟

قال «يحيى» لا. إذ فهم أن المقصود من السؤال هو النبي الذي يأتى ليختم النبوة .
ولذلك كان السؤال عنه بالتعريف «النبي» فهو معروف إلى الحد الذى إذا قيل «النبي»
انصرف الفهم إليه وحده .

كانت إجابات «يحيى» مقتضبة ليزيد من حيرة السائلين لأنهم لم يأتوا ليعلموا الحق .
بل ليبلغوا رسالة إلى رجال «الهيكل» الذين استكبروا أن يأتوا بأنفسهم ليسألوا .

فاندفع الكاتب الفريسي وقد غره صمت «يحيى» وإجاباته المتقضبة فظنّها عن عجز أو
حيرة اندفع يقول «فإذا كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي فما بالك تكلم الناس وتأمّروهم
بالإغتسال وتبشّر بدين جديد» فقال «يحيى» قل للذين أرسلوك إننى «يحيى بن زكريا» الذى
قتلتموه فى «الهيكل» جئت إلى الدنيا لأبشّر بكلمة من «الله» ألقاها إلى «مريم» العذراء
ابنة «عمران» وإسمه «المسيح عيسى بن مريم» . وقد جاء هو الآخر إلى الدنيا ليبشّر
«بالملكوت» ومتى أرسله «الله» إليكم فإنه يخبركم بالحق فيما تختلفون فيه وهو الآن بيننا
ولكننا « ولم يكمل «يحيى بن زكريا» كلامه إذ رأى شاباً وسيماً يتقدم نحوه كأن وجهه
المشرق وشعره الأسود الناعم المنسدل حتى كتفيه يقطران ماءً وكأن السماء قد انشقت
و«روح القدس» قد تشكل فى صورة «حمامة» تنزل عليه فعرف أنه «المسيح»
المنتظر ظهوره.

لقد تركه طفلاً مولوداً يحمل على اليمين لها هو قد صار شاباً مكتمل الرجولة

فانتفض «يحيى» وقام مهرولا يستقبل «المسيح» والجمع الذي كان يستمع إلى حديث «يحيى» مع رسل «الهيكل» ينظر مأخوذاً مندهشاً من هرولة الشيخ الجليل «يحيى بن زكريا» وانتفاضته ليلقى شاباً صغيراً لا يتجاوز عمره الثلاثين عاماً أما «المسيح» فقد هرول هو الآخر ليلقى «يحيى» قد عرفه من حديث أمه عنه لكنه لم يكن يتصور أنه بهذه المهابة التي تفيض بالوقار وتوحى بالثقة لكل من ينظر إلى وجهه الجميل الذي أحاطت به لحية وقورة بدأ المشيب يتلألأ وهنا على صفحتها، تعانق الشقيقان ليمحوا أثر الفراق الذي دام ثلاثين عاماً وفاضت الدموع من عيون الرجلين الصالحين واتسعت عيون الجمع من التعجب وقال «عيسى» «فى تواضع» جئت إليك «يانبى الله» لأتطهر بين يديك وأتلقى النصيحة» .

فقال «يحيى» : «لا يحتاج من تطهر «بروح القدس» إلى الطهارة بالماء . يا «مسيح الله» أنت الآن المعلم فأننا الذى أحتاج إلى أن أتطهر بك وجدير بى أن أذهب إليك لا أن تأتى أنت إلى» (١٣٩) .

فزاد إشراق وجه «عيسى» من الحياء وقال . « ولكن أرجو أن تسمح لى الآن جد ير بكل عبد يريد أن يكون صالحاً أن يستكمل كل بر» (١٣٩) .

قال «يحيى» وقد تلالأ وجهه من الفرح لكمال أدب «عيسى» وتمام معرفته .
«إذن ليتطهر الماء بنزوك فيه» .

وأسرع «عيسى» ينزل إلى الماء كما يفعل غيره من الناس و«يحيى» يمعن النظر إليه وهو يتذكر هيئته يوم جاءت به «أمه» من «الهيكل ملفوفاً في قطعة قماش من غطاء رأسها ويتعجب من فعل «يد الله» .

وعندما كان «عيسى» يهم بالخروج من الماء أوحى إليه «الروح» أن «الله» قد واعدته

أربعين ليلة في جبل الزيتون ليأخذ هناك «الإنجيل» وأنه يستبطن ذهاب «يحيى» إلى «أورشليم» . فخرج «عيسى» من الماء ليجلس بين يدي «يحيى» ليستمع إلى إرشاده مع الناس . إلا أن «يحيى» الذي كان منبهرا بما يرى قال: « لا ينبغي أن أتكلم الآن وقد أيدك «الله» «بروح القدس» فمن الآن أنت المعلم يا مسيح الله» فانتحى به «المسيح» جانبا وأسر إليه بما أوحاه «الله» ثم قال «إن شئت أذهب أنا لأكلهم في الهيكل ، فقال «يحيى» «بل أذهب إن شاء «الله» «وأبلغ «عيسى» «يحيى» سلام أمه وشوقها إلى رؤيته .

وودع كل خل خليفه ثم أخذ «عيسى» يحث الخطى إلى «جبل الزيتون» البقعة المباركة التي شهدت مولده والعيون ترمق في إجلال ذلك الشاب الصغير الذي لقي من «يحيى» ما لم يروه يفعل مع أحد من الناس من قبل. قال «يحيى» بعد أن اطمأن إلى ذهاب «عيسى» في أمان الله : « هذا هو المسيح الذي كنت أحدثكم عنه هذا هو النبي الذي يطهركم «بروح القدس» الذي أيده «الله» به . إنه الآن معلم بنى اسرائيل أرسله «الله» إليكم فآمنوا به واسمعوا له وأطيعوه .لقد صرتُ منذ اليوم تلميذا للمسيح اللهم فاشهد .»

وكان في الجمع أناس من «الناصرة» جاؤا ليتطهروا في «الأردن» عند «يحيى» ويتلقوا الموعظة فتعجبوا في أنفسهم قائلين . «أليس هذا هو «عيسى» ابن «يوسف النجار» وأمه إسمها «مريم» راحو يتهامسون فيما بينهم ويتكلمون عنه مع الجمع الحاضر . أما رسل «الهيكل» فقد أسرعوا يريدون «أورشليم» ليلبغوا «الكهنة والكتبة» أن «المسيح» قد ظهر ويخبروهم بما قال «يحيى» وما رأوا وما سمعوا . واندفع الرجال الى «يحيى» يسألونه.

«قد عرفنا الآن من تقصد «بالمسيح» فمن هو «إيليا» ومن هو «النبي» الذي قلت لرسلك «الهيكل» أنك لست أحدهما ؟»

فأجابهم إن «إيليا» هو نفسه «النبي» الذي سألني الكاتب الفريسي عنه.

فقال واحد : «أو يكون نبي بعد «المسيح» ؟ ».

قال «يحيى» «نعم الذى جاء يبشر به «المسيح».

قال: فمن هو ؟.

قال: هو آخر الأنبياء الذى يحمل رسالة الله الأخيرة .

قال «قدكنا نظنك هو».

قال «لست أهلاً للذى تقول فقد كان قبلى وقبل كل نبي وسيأتى بعدى ولا يكون بعد ظهوره نبي لست أهلاً لأن أحل سيورنعليه ».

فأطبق الصمت على الجمع وانفضوا وهم يتفكرون فيما قال «يحيى» ويتعجبون مما يرون ويسعون .

فوجئ «الكهنة والكتبة» فى «الهيكل» «بيحيى بن زكريا» يدخل عليهم «يوم السبت» وكانوا قد علموا من رسلهم بنبأ ظهور «المسيح» الذى تحدث عنه «يحيى» وأخبرهم رجالهم بما فعله «يحيى» مع الرجل فأسرعوا يعدون العدة لتكذيب هذه «الإقتراءات» وتنبيه الشعب إلى خطر الإستماع الى مدعى «النبوة» «الغرياء» عن «الهيكل» الذين لم يتلقوا تعليماً دينياً من الجهة الوحيدة التى تعطى هذا التعليم «الهيكل المقدس» الذين لا يعلمون كتب الأنبياء ولا يعرفون شريعة «الله» . إن على الشعب ألا يصدق هذا الكذب على كتب «الله» لأن «المسيح» الحقيقى من نسل «داود» ملك اليهود وأن مولده يكون فى «بيت لحم» القرية التى ولد فيها أبوه «داود» وإن كل من يقول بغير هذا خاطئ يهدف على «الله» . وسوف نطلب من السلطات القبض عليه لأنه يثير الشعب وينشر الاضطراب» . كانت هذه هى خطبة «الهيكل» لحاربة دعوة «يحيى» بظهور المسيح المسمى «عيسى بن مريم» لكنهم فوجئوا وهم يستعدون لإلقاء الخطبة فى السبت «بيحيى» يدخل «الهيكل» ويشق الصفوف

ويقف حيث قتل أبوه و كان الهيكل يمتلأ بالناس الذين قدموا يريدون معرفة موقف الهيكل من «المسيح» الذى يشاع أنه ظهر ويعيش فى «الناصرة» بأرض الجليل.

كان دخوله صدمة للجميع فإنه لم يطأ «الهيكل» منذ أكثر من ثلاثين عاما . أبوه نفسه كان قد توقف عن الذهاب الى «الهيكل» قبل مقتله بفترة طويلة. رجال شهدوا مقتله صاروا الآن شيوخا لم يجرؤوا حتى على النظر إلى «يحيى» وأطرقوا إلى الأرض وجاء وقوفه فى البقعة التى شهدت مقتل والده ليضيف إلى مهابته التى وهبها الله له «جلال الموت وعزة الروح» الذى لا يموت» انطلق صوته قويا حنونا .

«بسم الله»

«يا بنى إسرائيل أوصانى ربى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأن أوصيكم بأن تعملوا بهن . «أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ».

فإن من يشرك «بالله» فهو مثل العبد الذى اشتراه سيده فكساه وأطعمه ثم أمره بالعمل فراح العبد يعمل ولكنه صار يؤدى ثمرة عمله إلى سيد آخر عدو لسيدته الذى اشتراه وأطعمه وكساه فمن منا يحب أن يكون عبده مثل ذلك العبد الكفور ١٩.

وأن نقيم الصلاة «له» فإن «الله» ينظر الى عبده وهو يصلى إليه ويقبل عليه بوجهه مالم يلتفت عن صلاته فإذا صليتم فاخشعوا لنظر «الله» إليكم .

«وإن نؤتى زكاة أموالنا ونتصدق . فإن الصدقة تطفى غضب الرب عليكم» «وإن نصوم فإن الصائم مثل رجل يحمل زجاجة عطر جميل الرائحة فى قلبه كلما مشى تحركت الزجاجة وأنبعث منها العطر» .

وأن نذكر «الله» كثيرا فإن الذاكر كمثل رجل يطلبه أعداؤه فأسرع إلى حصن حصين فأغلقه عليه فامتنع على أعدائه

«ألا إن ذكر «الله» هو أعظم الحصون ولا نجاة بغيره ؟ .

«يا بنى إسرائيل إعلموا أن المسيح الله قد جاء فأمنوا به وأسمعوا له وأطيعوا»

وتوقف . وانتظر أن يسأله عن «المسيح» أو أن يجادلوه فى شىء ولكنهم وجموا ولم يستطيعوا أن ينطقوا بكلمة واحدة . «هل يستطيعون أن يقولوا مثل هذا الكلام العميق الدقيق على بساطته ؟ .

هل يستطيعون أن ينسبوا إليه خطأ أو يمسكوه بخطيئة ؟ .

وأنظر الجمع المحتشد أن يقوم كبير الكهنة أو حتى أحد الشيوخ بسؤال «يحيى» عن إدعائه ظهور المسيح أو أن يعلنوا تكذيبهم لذلك الإدعاء ولكنهم صمتوا تماماً وبدأوا ينسلون من الهيكل الواحد بعد الآخر والناس تنظر وتتعجب .

ظلوا على صمتهم حتى خرج «يحيى» فأدرك الناس فى وضوح أنهم لا يستطيعون أن يجادلوا «يحيى بن زكريا» فى شىء . انسحب كل «الكهنة الكتبة» دون أن يقولوا شيئاً لقد اكتفوا رغما عنهم بخطبة «يحيى بن زكريا» التى جاءت على غير هواهم وأفسدت خططهم وخرج الناس وهم يتحدثون عن مجيئ «يحيى بن زكريا» وموعظته فى «الهيكل» وعن «المسيح» الذى يقال أنه ظهر . لقد صار «يحيى» بعد هذا الخطاب فى أعين الناس «نبيا صادقاً» ولم يملك رجال «الهيكل» رغم كراهيتهم الشديدة «ليحيى» دفعا لهذه الحقيقة التى صارت مقبولة عند الناس فأخذ يدخل «أورشليم» ويبشر فى «الهيكل» نفسه «بالمسيح» كلما وافته الفرصة .

والتزم رجال الهيكل حياله الصمت . لم يستطيعوا منعه من دخول «الهيكل» ولم يستطيعوا الإعتراض على دعوته أو إنكار «نبوته» أو حتى مجادلته فى شىء وانتشر إنتظار «المسيح» فى الشعب وصار الجميع يتطلعون إلى ظهوره الموعد وتعلقت بوجهه المرتقب ش

قيل لك أنك كلمة من «الله» فوجب إذن على جميع الأشياء أن تطيعك أليس لكلمة «الله» يجب أن تخضع جميع الأشياء ؟! وأنت الآن يامسكين جائع لم تتناول طعاما ولم تذق شرابا قد هممت أن تخرج الآن لتبحث عن شئ تأكله ألا يليق بك وأنت كلمة من «الله» أن تأمر هذه الحجارة أن تتحول إلى «خبز» فتأكله فإن كنت كلمة من «الله» حقا كما قيل لك فمر هذه الحجارة لتصير خبزا (١٤١) دعنا نرى أطيع الحجارة كلمة من «الله» أم تعصاه ؟!

تعجب «عيسى» من ذلك الرجل المتجهم الذى اقتحم عليه خلوته ويبدو أنه كان يراقبه منذ فترة طويلة دون أن يدري وتساءل «ما وراءه» و «لماذا لم يلق على السلام» .

ثم أجاب «عيسى» على تحديه فى بساطة «ومكتوب أيضا أن ليس بالخبز وحده يحيى الإنسان بل بوحى «الله» الذى ينطق به «روحه» يحيى الإنسان» . إن الذى أبقاه حيا طوال أربعين يوم وليلة دون طعام أو شراب قادر على أن يبقيه حيا دون طعام أو شراب على الدوام . لماذا هذا التشكيك فى كلام «الله» وهو سر الحياة .

كانت أجابة «عيسى» مفصحة عن حسن فهمه وسرعة بديهته فافهم الرجل المتجهم . ولكنه لم يئأس فأسرع يقول «لقد قيل لك فى الكتاب الذى أعطيتك أن لا شئ يقع إلا بإرادة «الله» وأنه قد كتب ألا يُكسرَ لك عظم أو تصاب بجرح . فألق بنفسك من فوق هذا الجبل ولننظر أوصحيح ما كتبه «الله» أم لا . ١٩ مكتوب أنه يوصي بك ملائكته لكى يحفظوك وأنهم على أيديهم يحملونك لكى لا تُصدمَ رجلك بحجر فدعنا نرى» ، وأدرك «عيسى» أنه «إبليس» اللعين وقد جاء يفتنه فأجابه فى بساطة «وقد كُتِبَ أيضا ألا تجرب الرب إلهك لأن العبد لا يبتلى «الله» بل الله هو الذى يبتلى عباده .

فاشتد غيظ «إبليس» حتى اشتعل وجهه وخرج منه دخان فوقع الخوف منه فى قلب «عيسى» فى لحظة فأعطاه «الله» سلطاناً عليه فهجم على «عيسى» وأحتمله وطار به إلى

«اورشاليم» فأوقفه على «الهيكل» ثم ارتفع به فى الهواء وطاف به حول الأرض فأراه ممالك الدنيا وملوكها و«عيسى» مستسلم فى يد الشيطان لقضاء «الله» يعاين وهو فى قبضة «إبليس» أن لأراد لحكم «الله» وأن لا ملجأ من «الله» إلا إليه لا أحد يستطيع أن ينقذه الآن إلا «الله» ثم قال له «إبليس» انظريا «عيسى» إلى كل هذه فإن «الله» قد دفعها لى وعن طيب خاطر أهبها لك إن سجدت لى سجدة واحدة .

إذاً فهو لم يزل يعانى من كبريائه منذ رفض السجود «لأدم» . يريد أن يسجد الإنسان له تعويضاً عن طرده من رحمة «الله» وهذا لا يمكن أبداً . واسترد «عيسى» قوته فأفلت من قبضة إبليس فى يسر ودفعه بيده وهو يقول له « اذهب عنى يا شيطان»

«أليس مكتوباً لله وحده تسجد وأياه وحده تعبد» . فهوى «إبليس» إلى الأرض وهو يولول صارخاً إذ رأى ملائكة «الله» وقد أقبلت مسرعة لتنقذ «عيسى» من براثنه صرخ سائرَكَ الآن «يا عيسى» ولكن إلى حين .

واحتملت الملائكة «عيسى» إلى «جبل الزيتون» فأجلسته واحضرت له من ثمار الجنة فاكل وأخذ سلطان النوم حتى أذن الفجر بالقدوم فاستيقظ وصلى وأخذ الإذن من «الله» ببدء الدعوة .

(١٣)

«رسولا الى بنى اسرائيل»

«سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلا»

«الاسراء ٧٧»

عاد «عيسى» إلى «الناصرة» ليخبر أمه بما أوحى «الله» إليه ويستأذنها في أن يتفرغ لرسالة «الله» التي أخذ الإذن بإبلاغها فأحتضنته أمه وأخبرته أنها قد أنبئت بكل هذا قبل أن تلده من رحمها . ودعت له ربها بالتوفيق ودعته إلى الثبات على الحق فإنه سيلقى عنتا شديدا .

وبدأت المتاعب من «الناصرة» التي يعيش فيها . إذ كانت الأنبياء قد انتشرت ووصلت إلى القرية أن هناك رجل من «الناصرة» يسمى «عيسى» يقال أنه هو «المسيح» الذي ينتظره شعب اسرائيل فتعجب أهل القرية الصغيرة أن يكون هذا النجار الفقير الذي يعمل مع أبيه (يقصدون «يوسف النجار ابن يعقوب» زوج أمه «مريم») تعجبوا أن يكون مثل هذا النجار الفقير «مسيحا» «الله» هل يمكن أن يُذكر مثل هذا الشاب البائس في كتب الأنبياء ؟ وهل من المعقول أن يكلم «الله» هذا الشاب غريب الاطوار الذين لا يرونه إلا هائما عند حواف القرية سائرا بجوار القبور مثل المجانين . «كلأ إن هذا شيء غير ممكن لكن الشعب المتعب يتعلق بالأوهام» . كلما حاول «عيسى» أن يدخل مجمع القرية ليقرا عليهم من كتب الأنبياء ويعلمهم وجد الأعين التي تقتحمه ورأى القلوب التي تنكره فأدرك أنه من «أورشاليم» حيث «الهيكل» معقل الشريعة يجب أن تبدأ رسالته لأن الناس الذين لا يرون إلا الرسوم ولا يدركون إلا الظواهر عسير عليهم أن يقبلوا نبيا لا يخرج من «الهيكل» رغم أن النبوة قد بدأت قبل «الهيكل» وبقيت مع زواله عندما تحطم وستبقى بعد محوه. إن

«الهيكل» هو الذى يستمد كيانه من النبوة ولكن الشعب الجاهل نكس الأمر على رأسه فصار الأنبياء لأيقبلون عنده إلا إذا أخذوا مباركة «الهيكل» لهم أو إنتزعوا إعتراف «الهيكل» بهم كما فعل «يحيى بن زكريا» الذى قبله الناس نبيا لأن «الكهنة والكتبة» لم يستطيعوا أن يجادلوه أو ينكروا نبوته علنا . وكانت أيام الفصح قريبة فانتظرها «عيسى» ليذهب إلى أورشاليم .

بينما «المسيح» يحث الخطى وهو يقترب من «أورشاليم» رأى أن يذهب إلى البركة التى تقع على مقربة من «الهيكل من جهة «باب الضأن» وهى بركة لها خمسة أورقة وقد اعتاد الناس أن يذهبوا إليها ويجلسوا علي حافتها معتقدين أن «الله» يرسل ملكاً من السماء كل يوم فيمس الماء ويضع فيه «سر» الشفاء من الأمراض فيهتز الماء . فمن استطاع من الناس المنتظرين أن يمس الماء أولاً عند اهتزازة بلمسة «الملك» فإنه يشفى من مرضه مهما كان نوع المرض الذى أصيب به أو مدة إصابته .

اعتاد المرضى من كل نوع أن يتزاحموا هناك على حافة البركة ينتظرون أن يهتز الماء وكل واحد فيهم يطمع أن يكون صاحب الحظ السعيد فينال شفاء من مرضه وكان الازدحام حول البركة أشد ما يكون فى أيام الأعياد خاصة فى أيام الفصح حيث يأتى الناس إلى «أورشاليم» حاجين إلى «الهيكل» من كل قرية ومدينة يسكنها اليهود بل إن كثيراً من «الغرباء» كانوا يأتون إلى «أورشاليم» فى الفصح لأن الأعياد الدينية قد صارت مواسم للتجارة ولما كان البيع واللهو شيقين لا يفترقان فإن الأعياد الدينية التى يُحتفل بها لتعظيم شعائر «الله» وتذكر قصص الأنبياء قد انقلبت لتكون مواسماً للهو المحرم ترتكب فيها كل الخطايا التى كافح الأنبياء من أجل أن يطهروا وجه الأرض منها . أصبح «الفصح» سوقاً رائجة للبضائع والفواش وأصبح الناس لايعرفون عنه إلا أنه العيد الذى يؤكل الفطير فى آخر أيامه مع ذبيحة . هكذا كانت «أورشاليم» تزدهم باليهود القادمين إليها من كل صوب كما كانت تموج باليونانيين و«السامريين» والعرب والمصريين الذين

يأتون إليها بحثاً عن الربح أو اللذة أو متعة مشاهدة العادات والتقاليد الغريبة للشعوب بالإضافة الى الرومانيين الذين يحكمون البلاد والذين يجب عليهم أن يكونوا أشد يقظة وأكثر حذراً في هذه الأيام التي يحتشد فيها الناس .

على الطريق إلى «البركة» كان يسير جمع صغير من الرجال المصابين «بالبرص» كانوا من بلاد مختلفه وبعضهم من غير اليهود لكنهم صاروا أصدقاء لإشتراكهم في «البرص» والذهاب المتكرر إلى البركة طلباً للشفاء، يحثون الخطى في هذا الصباح خشية أن تفوتهم نزلة الملك إلى الماء فأقرب منهم «المسيح» وسلم عليهم فردوا عليه السلام دون أكثرات ودون أن يلتفتوا إليه . وظلوا على عجلتهم فقال لهم «ماذا تريدون» ؟

حدقوا فيه البصر. رجل وسيم صحيح البدن فلماذا يأتي إلى البركة واندفع واحد منهم يقول «كما ترى ياسيد نحن نسرع إلى البركة التي عند باب الضأن لعلنا نشفى من «البرص» وأشار بيده إلى جسده وأجساد زملائه التي شوهها «البرص» فصارت بشعة .

فقال «المسيح» كانه لا يعلم «ولكن لماذا تذهبون إلى البركة التي تقول عنها ؟ فأجاب الرجل في ضجر . «يبدو أنك غريب لست من هذه البلاد رغم أن وجهك مألوفاً وملابسك تقول أنك من هنا فأعلم أيها الغريب أن هناك بركة يزدحم الناس حولها كل يوم لأن ملكاً «من السماء» ينزل فيهبز الماء . فمن استطاع أن يلمس الماء بمجرد أن يهبزه الملك نالته البركة فنال الشفاء من مرضه . «كلنا نسرع لعل واحداً منا يكون صاحب البركة اليوم» قال هذا وأخذ يسرع الخطى مع زملائه ولسان حالهم يقول لعيسى «لا تضيع وقتنا»، لكن «عيسى» تغاضى عن التبرم الذي ظهر على وجوههم من حديثه واستأنف قائلاً «لكننى أريد أسأل هل الماء هو الذى يشفى أم «الملك» الذى يهبزه أم «الله» الذى أرسل الملك ؟!

فقال آخر . «ياك من رجل غريب تسأل أسئلة غريبة». لكن سؤال «عيسى» غاص فى قلوبهم فحركها بالحيرة. حقاً إنهم لم يسألوا أنفسهم من قبل هذا السؤال . لماذا لم يخطر على بالهم هذا السؤال الغريب على بساطته ؟

وأدرك «المسيح» أنهم قد شرعوا يتدبرون الأمر فى حيرة فأضاف متسائلاً «هل الذى يسبق غيره فينال الشفاء قد شُفِيَ لأنه مس الماء أولاً . أم لأن «الله» أراد أولاً أن يشفيه فجعله يصل إلى الماء قبل غيره وجعل الماء يشفيه . أليس «الله» هو الذى يشفى الأمراض؟»

ازدادت حيرتهم وبدأوا دون أن يدروا يفكرون . وأخذت خطواتهم تبطىء وهم يمعنون النظر فى كلام هذا الرجل الغريب الذى يصر على صحبتهم دون أن يدركوا لذلك سبباً وهمس واحد منهم فى أذن من يجاوره «أله شيطان أراد أن يعطلنا ويضيع علينا فرصة الشفاء التى ربما كانت من نصيب أحدنا» . ورد عليه الآخر «ولكن يبدو عليه أنه رجل صالح وليس هذا بوجه ولا كلام شيطان»

قال «عيسى» لماذا لا تدعون «الله» أن يشفيكم دون حاجة إلى الذهاب إلى البركة طالما أن «الله» هو الذى يرسل الملك . فإن الملك لا يفعل ذلك من نفسه بل بأمر «الله» فرد واحد منهم فى مرارة «لقد دعونا «الله» كثيراً وأنفقنا كل أموالنا على الأطباء ولم يفدنا كل ذلك بشيء . إن «الله» لم يستمع إلى دعائنا» .

فقال «عيسى» . «لعلكم تلومون «الله» على أنه لم يجب دعاءكم وتعتقدون أنه أخطأ فى حقكم إذ لم يستمع لكم» .

أذهلتهم جرأته فى الحديث عما يدور فى قلوبهم وصراحته التى بدت لهم وقاحة تجاوزت الحدود لكنه واصل حديثه «ألم تفكروا لماذا لم يجب «الله» دعاءكم . بل لماذا أصابكم بالبرص أولاً . أليس «الله» هو الذى يصيب بالأمراض ؟» .

ياله من رجل غريب . يسأل أسئلة أشد غرابة من مسيره معنا وحديثه الذى لا نعرف له سبباً . قال «من الذى أخطأ ؟»

هل «الله» هو الذى أخطأ فأنزل بكم مرضاً لا تستحقونه لأنكم تقولون فى قلوبكم

إننا لم نخطيء حتى يعاقبنا «الله» بهذا المرض الذى لا شفاء منه تدعون أنكم لم تفعلوا شيئاً يوجب كل هذا . أم أنكم أنتم الخاطئون ولولا عفو «الله» عن كثير من خطاياكم لأهلككم فى الجحيم فلم تخرجوا منه أبداً . لعله اكتفى بهذا المرض لكى تنتبهوا إلى خطاياكم وتطلبوا مغفرته ؟

ثم علا صوته فجأة وقال موبخا لهم :

«كيف تطلبون بألسنتكم رحمة وتقولون فى قلوبكم أنه قد ظلمكم . إنه لا يلتفت إلى كلامكم . بل ينظر إلى قلوبكم ويعرف ما فيها» . توقفوا عن السير رغما عنهم وأخذوا ينظرون إليه فى دهشة وإنزعاج . أفرعتهم أسئلته وكلماته التى تجاوزت كل حد . «من الذى أعلمه بنا ؟» وماذا يعرف عنا حتى يتهمنا بأننا خطاه نستحق ما هو أقسى من «البرص» اللعين . «من هو هذا الغريب» . إلا أن واحداً منهم أدرك ما يعنيه «المسيح» فقال باكياً «أدع لنا أيها السيد . فإننا خطاة ليغفر «الله» خطايانا» . كان هذا الرجل سامريا

فقال «عيسى» «اللهم ربنا أغفر لعبدك الذى أقر بخطئه وأشفه من «البرص»» . ثم قال . «بسم الله» ووضع يده على وجه الرجل الذى كان يبكى فبرأ لتوه وتغير جلده فى لحظة حتى بدا لأصحابه كأنه شخص آخر فاندھشوا وتضرعوا إلى «السبح» صارخين . يا سيد «أرحمنا «فإننا خطاة»

فقال : «يغفر الله لكم ويرحمكم الله الذى شفاه . اللهم يا أرحم الراحمين . اغفر لعبادك الذين أقروا أنهم خطاة واشفهم بقدرتك . ثم قال «بسم الله» وأخذ يضع يده على أجسادهم الواحد بعد الآخر فبرئوا جميعاً . وطفق كل واحد منهم ينظر إلى جسده وإلى وجوه الآخرين وأجسادهم . صارت جلودهم صحيحة ناعمة كأنها جلود أطفال فلم يملكو أنفسهم من الفرح فأوصاهم «عيسى» أن يذهبوا إلى «الهيكل» ويقدموا قربانا «لله» الذى شفاهم ويعرضوا أنفسهم على «الكهنة» ولينتظروه هناك . فإنه سيأتى إلى «الهيكل» . لكنهم

كانوا يندفعون مهرولين. عشرة من «البرص» برثوا فى لحظة واحدة وتفرقوا حتى غابوا عن عين «عيسى» الذى كان يتجه إلى البركة .

كان هناك جمع كبير من المرضى . عمى وبرص ومقعذون ومبتورون ومشلولون يتزاحون حول البركة يحدقون فى صفحة مائها لعلهم يرون هزة السطح فيندفعون. ومن بين كل هذا الجمع البائس المرتقب فرصة للخلاص، التفت «المسيح» إلى رجل مشلول على سريريه على حافة البركة وسط الجموع. كان راقداً على ظهره فوق السرير الذى يشبه طاولة من الخشب عليها بعض الفرش المتسخة والرجل فوقها لا يتحرك فيه شئ إلا وجهه يلتفت إلى اليمين وإلى الشمال كمن يبحث عن شئ وينظر تارة إلى السماء ثم يحاول أن يقوم ليلقى نظرة على سطح الماء هل تحرك أم لا . رغم عبث المحاولة إلا أنه ظل ينقل بصره بين السماء والأرض ويلتفت بوجهه تدور عيناه باحثاً عما كان معه . وتحركت الرحمة فى قلب «عيسى» فتحنن على الرجل وتقدم نحوه قائلاً «سلام من الله عليك» . فقال الرجل «سلام عليك» . والتفت بوجهه عنه تفتش عيناه فى الجمع الحاضر الذى يزدحم حول البركة قال له «المسيح» «عمن تبحث ؟»

قال الرجل . «اتقتف مع بعض الجيران أن يحملونى إلى هنا وأن يمكثوا معى ليلقوا بى إلى الماء إذا رأوا أنه اهتز وأعطيتهم ما طلبوا من النقود آخر ما كان معى من النقود . لكنهم تركونى. وضعونى هنا بعد أن أخذوا نقودى ثم تركونى كما ترى أيها السيد الغريب إننى لا أستطيع الحراك فحتى إن نزل الملك اليوم وحرك الماء فلن يكون فى وسعى أن اظفر بالشفاء لأننى لا أستطيع أن أدفع نفسى . على كل حال» . وخنقت الدموع صوت الرجل وبكى «عيسى» لبكائه فتعجب الرجل لبكاء «عيسى» معه . كان بكاءه حاراً صادقاً فطمع الرجل أن يقبل «عيسى» أن يحمله ليدفعه إلى الماء حالما يرى أنه اهتز لنزلة «الملك» وأراد أن يستعطف «عيسى» فاستأنف قائلاً . «أيها الغريب الطيب منذ سنوات وأنا آتى إلى هنا طامعاً فى كل مرة أن ظفر بالشفاء . لقد انفقت كل ما أملك من أجل أن أشفى . ولكن

دون فائدة . تركتني امرأتى وتخلّى عنى أولادى وها أنذا أستأجر من يحملني إلى هنا . لم يعد معي نقود . لن أجد من يطعمنى أو ينظفنى بعد أن صرت وحيداً وأجهش الرجل ببكاء مرير . حتى لو وجدت من يدفعنى إلى الماء فلا شك أن هناك من سيكون أسرع منى .

– قال «المسيح» أتريد أن تبرأ (١٤٢) .

– قال: أيها الرجل الطيب إننى لا أجد من يحملنى ولا ريب أن هناك فى هذا الجمع المزدحم من سيصل إلي الماء قبلى .

– قال «عيسى»: أتريد أن تبرأ

قال الرجل وقد كف عن البكاء وازدادت حيرته من أمر محدثه . «يا سيد من ذا الذى لا يريد أن يبرأ »

قال «عيسى»: «قد دعوت «الله» لك فقبل صلاتى فقم الآن وأحمل سريرك وأمض إلى «الهيكل» فاعرض نفسك على الكهنة وقص عليهم قصتك وقدم القربان الذى أمر به «موسى» ثم أسرع «المسيح» فغاب عن عين الرجل الذى التفت إليه يريد أن ينادى عليه لم يكن يطمع فى أكثر من أن يمكث معه ليدفعه نحو الماء إذا جاءت الفرصة . ولكنه ذهب اكتشف الرجل أن جسده قد لاذ وتحرك وهو يميل نحو «المسيح» يريد أن ينادى عليه فأتبقت عليه المفاجأة ثم أخذ فى حذر شديد يحاول أن يقوم ليجلس على سريريه فكانت دهشته تفوق الوصف عندما شاهد أنه يستطيع أن يجلس . وأن ظهره يمكنه الإنثناء وذراعيه وساقيه قد اكتسبن الليونة التى فقدنها منذ سنوات طويلة . ثم حاول أن يقف فنجح ثم أخذ يتحرك بعض الخطوات إلى الأمام ثم إلى الخلف ثم يلتفت إلى اليمين ثم إلى اليسار كأنما يجرب آله جديدة حصل عليها أو اشتراها من السوق . فلما تيقن أنه قد عوفى تماماً من الشلل الذى كان يسجن جسده صرخ ضاحكا «أيها الناس لقد شفيت ها أنذا اتحرك الحمد لله الذى شفانى الحمد لله الذى شفانى»

كان صوته عاليا وحركاته وضحكاته تحدث صخباً أثار إلتفات جمع البؤساء الذين تزاحموا على حافة الماء فأخذوا يتسألون ما الذى حدث؟ لماذا يصرخ هذا الرجل؟ ولماذا يضحك على هذا النحو؟ والذين كانوا يعرفونه ويرونه راقداً بلا حراك على ظهره فوق سريره منذ لحظات قليلة أصابتهم الدهشة وتملكهم ما يشبه الفزع وهم يرونه ينحني ليحمل سريره وفراشه ويرفعه على ظهره ويهرول مسرعاً الى «الهيكل» كما أمره «الرجل الغريب» الذي كان يحادثه منذ قليل. أخذوا ينادون عليه ليسألوه عما جرى له لكنه كان يهرول ماضياً إلى «الهيكل» ليلوى على أحد فأخذ بعضهم يسرع وراءه يريدون أن يستطلعوا الأمر .

ما أن تجاوز عتبة أحد أبواب «الهيكل» حتى أمسك به كاهن وأحاط به بعض «الكتبة» الفريسيين فأوقفوه وأمره أن يلقي سريره وفراشه على الأرض ووبخه الكاهن قائلاً «ألا تعلم أنه لا يحل لك أن تحمل سريرك فى السبت ألا تحفظ شريعة» الله «إيها الخاطي» (١٤٣).

واندفع فريسي يقول له فى صلف «أيها الخاطي» لقد دنست السبت بفعلتك هذه» فقال الرجل فى مسكنة كأنه يعتذر عن خطيئته التى ارتكبها دون قصد منه «الرجل الذى أبرانى من الشلل قال لى أحمل سريرك وقم فامش إلى «الهيكل» وأعرض نفسك على «الكهنة» وقدم القربان» .

فاندفع الفريسي قائلاً «أذهبت لتعالج نفسك فى السبت أم استدعيت طبيباً ليعالجك يالك من خاطي فاجر يتمرد على شريعة «الله» .

وقال الكاهن: «أو قال لك اذهب الى «الهيكل» وأرى نفسك للكهنة إنه يتحدى «الهيكل» اذن ويعلن الحرب على «الله» .

قال الرجل صاحب السرير وقد أذهله تطور الأمر على هذا النحو الذى لم يخطر له

على بال « ياسيدي الكاهن وأنت ايها الشيخ الجليل إنني لم اذهب الي طبيب ولم استدع طبيباً ولكني كنت راقداً بلا حراك على سريري هذا عند البركة أدعو «الله» أن يشفيني من مرضي وقد استبد بي اليأس من كثرة مالدعوت وطول ما انتظرت فجاءني رجل غريب « مشرق الوجه» يسألني عن حالي فشكوت له سوء حظي فقال لي قد دعوت «الله» لك فقبل صلاتي فقم واحمل سريرك واذهب الي «الهيكل» فاطعته وجئت كما أمرني .

– قال الشيخ الفريسي «إنك كاذب وكلا منكما خاطئ ملعون أنت وطبيبك المزعوم هذا الذي لم يحترم السبت إذ قام بالإبراء فيه وأمرك بحمل السرير والأمران كلاهما لا يصحان في السبت الذي حرم «الله» فيه العمل وأمر أن يفرد لعبادته فقط» .

– قال «ياسيدي الشيخ إنني لم أكذب» .

– قال «بل كذبت لأنك ادعيت أنه أبرك وليس فيما قلته الآن ما يدل على أنه فعل شيئاً لك» .

– قال الرجل مذهولاً «كيف ياسيدي لقد كنت أرقد على السرير بلا حراك أبول وأتبرز على سريري طيلة سنوات عديدة حتى جاء هذا الرجل فأبراني فكيف تقول أنه لم يفعل شيئاً» .

قال الشيخ «إنك خاطئ كاذب وأيضا جاهل ماذا فعل لك ايها الأحمق حتى تقول أنه ابراك إنه لم يعطك دواءً ولم يجر لك جراحة أو يرشدك إلى شيء ما تفعله فكيف يا أحمق تقول أنه ابراك» .

تضايق الرجل من كثرة السباب الذي ناله من الشيخ ولكنه كظم غيظه وقال «ولكن ياسيدي الشيخ لقد كنت مريضاً فعلا لا أستطيع أن احرك جسدي الذي كان متصلباً ثم ها أنذا أقف سليماً أستطيع أن أحرك أطرافي وجذعي أنظر» .

وأخذ الرجل يركع ويقوم من الركوع ويتحرك الي الامام والخلف وقد أخذه السرور

بليونة جسده والجمع الحاضر الذى كان يتابع المجادلة يضحك من هيئة الرجل واستبد الغيظ بالكاهن والفريسي فقال الكاهن فى كبرياء «تحشم يارجل فإنك تقف أمام كاهن وفى بيت «الله» .

فتوقف الرجل وقد تضاعفت حيرته من كلام الكاهن «عفواً ياسيدى الكاهن فإننى لم اقصد إلا أن أبرهن» .

فقال الكاهن «دعنا مما تقصده وقل لنا من الذى تقول أنه أبراك وماذا فعل لك حتى تقول أنه أبراك فليس فيما قلت حتى الآن إلا الهراء الذى لايعنى شيئاً» .

قال الرجل وقد أدرك أنه وقع فى ورطة شديدة لايعرف كيف يخرج منها «صدقنى ياسيدى الكاهن إننى لأعرفه أعتقد أنه رجل غريب ليس من هنا فهذه أول مرة أراه أما ماذا فعل لى بالضبط؟! فإننى أيضاً لا أعرف كيف أقصه» .

فاندفع الفريسي «يا لك من مخادع كذاب إنك قلت منذ قليل أنه أبراك ثم ها أنت تقول الآن أنك لا تعرف ماذا فعل لك ماذا تقصد مما قلت؟! ماقلته أولاً أم ماقلته الآن؟!»

«ياسيدى إننى لم اغير أقوالى فإننى ما زلت أعتقد أنه هو الذى أبرانى لأننى كنت مريضاً قبل أن أراه ولكن اقصد أن أقول إننى لاأتبع على وجه الدقة ما فعل من أجلى أقصد إنه صلى من أجلى وأن «الله» قبل صلاته ولذلك أبرانى ولكن كيف وقع هذا فهذا ما لا أستطيع أن أصفه» .

– قال الشيخ «أيها الكاذب كيف تقول أنه صلى من أجلك هل رأيته أو سمعت صلاته» .

– قال الرجل «لا ياسيدى ولكنه قال أنه صلى من أجلى وأعتقد أنه صادق» .

– قال «ها قد عدنا لكلمة «أعتقد» لايهمنا ماتعتقد أنت مايهمنا هو أن نعرف ما حدث بالضبط» .

– قال «ياسيدى وما الذى يدعوه للكذب لقد قال أنه صلى من أجلى فلا بد أنه فعل

فلاشئ يدفعه للكذب فأنا لم أعطه شيئاً مقابل صلاته، إننى ياسيدى حتى لأعرفه ما الذى يجعله يكذب لذلك أعتقد أنه صادق واعتقد أن اعتقادى صحيح».

– «أنظر ايها الأحمق إنك عدت من جديد «لأعتقد» تلك وماذا يفيدنا نحن أيها الجاهل من اعتقادك نحن نريد حقائق».

قال الرجل وقد فاض به الكيل ولم يستطع أن يكظم غيظه «ياسيدى الشيخ قد أكون جاهلاً حقاً ولكننى أعلم أن «الله» لا يحاسبنا إلا على ما نعتقد فنحن نعتقد أنه إله وحيد يستحق العبادة وأنه أوحى إلى «موسى» عبده شريعته ونعتقد أنه كلم «الأنبياء» وهكذا كما ترى ياسيدى فإن «الله» لا يحاسبنا إلا على ما نعتقد إن ما نعتقد هو الحقيقة الوحيدة التى يمكن أن نعتمد عليها فى تحديد تصرفنا وعليها وحدها يتوقف مصيرنا الأبدى عند «الله» الذى ليس بالنسبة إلينا إلا ما نعتقد أنه هو فهو كما نعتقد أو هو ما نعتقد».

أفحمت كلمات الرجل البسيط الفريسي المتعالم فكانما إلتقم حجراً فبفيه فصمت أما الكاهن فاندفع يقول «كيف تجرؤ على أن تقول أن «الله» قد قبل صلاته هل صعدت الى «الله» وعرفت أنه قبل دعاءه ما هذا التجديف؟! فقال الرجل فى بساطة وقد أحس بثبات موقفه وأن ثمة «قوة عليا» تهبه الإجابة «ياسيدى الكاهن إننى لم اصعد إلى «الله» لأعرف منه هل قبل صلاة الغريب الذى صلى من أجلى لكننى أوقن أنه قبل صلاته وأن حركتى هذه «وأخذ يحرك ذراعيه كأنه يسبح ويدير رأسه فى كل اتجاه» هى دليل إجابة الصلاة «وصرخ الرجل فى فرح «ها هو الرجل الغريب الذى صلى من اجلى فأبرأنى «الله» «بصلاته» وجرى نحو «المسيح» الذى كان يدخل «الهيكل» وسط جمع صاخب لأن أحد الرجال البرص الذين شفاهم على الطريق قبل أن يصل إلى البركة كان قد رآه داخل الهيكل» فأخذ يصيح «يا أبناء يعقوب تعالوا لتروا النبى الذى أرسله «الله» إليكم».

ياشعب «الله» أقبل فهذا نبى جاعكم من ربكم»

كان هذا الرجل هو الأبرص «السامرى» الذى فهم كلام المسيح قبل الآخرين .

والتفت الناس الى «المسيح» وعرفه بعض الرجال من «الناصرية» كما عرفه بعض الذين رأوه عند نهر الأردن في «بيت عبرة» عندما ذهب إلى «يحيى بن زكريا» وامتلاء «الهيكل» بالضجيج وأخذ الناس يتدافعون ليروا «المسيح» الذي قال للرجل الذي كان مصابا بالبرص: «لقد جئت وحدك فأين ذهب الباقون» فقال الرجل وهو يهم بالسجود عند قدمي «المسيح» لقد ذهبوا يانبي «الله» ولم يأتوا الى الهيكل . فآقامه «المسيح» وهو يقول له «اشكر الله» الذي أبرأك من البرص ولا تعد إلى الخطيئة حتى لا ترجع إلى أسوأ مماكنت» فقال الرجل «سمعا وطاعة ياسيدي».

أما الكاهن فلم يستطع أن يكظم غيظه مما يرى ويسمع وقد أحققه هذا التوقيير الشديد الذي أبداه الرجل للسيد «المسيح» فقال في صلف وهو يوجه خطابه «للمسيح» «أيها الطبيب الخاطي ألا تعلم أن «الله» قد حرم العمل في السبت فكيف تبرئ المرضى في السبت وكيف تأمر هذا الرجل الخاطي بأن يحمل سريره في السبت وهو محرم عليه» .

فقال «المسيح» في بساطة «وأنت أيها الكاهن ألا تعلم أن «الله» نفسه يعمل في السبت» كانت إجابة غريبة لم يتوقعها الكاهن ثم زاد «المسيح» من انزعاجه ودهشته عندما أضاف «أم تقول أن «الله» خاطي لأنه يعمل في السبت» ولم يتمالك «الكاهن» نفسه فصرخ بأعلى صوته «أيها الكهنة» أيها الشيوخ تعالوا إلى هنا لتروا هذا الخاطي الذي يجدف على «الله» وزاد ازدحام الناس حول «المسيح» والكاهن الذي يجادله وأقبل «كبير الكهنة» ومعه بقية «الكهنة» الذين كانوا في «الهيكل» وجمع كبير من الكتبة وشيوخ الفريسيين وشعر الكاهن بشئ من القوة لما رأى الجمع من رجال «الهيكل» قد أقبل وازدادت ثقته في نفسه فقال «للمسيح» «كيف تجرؤ أيها الخاطي الذي لا يحترم السبت على أن تقول أن الله يعمل في السبت» .

فأجابه «المسيح» «وأنت أيها الكاهن الخاطي الذي لا يحترم كلام «الله» قل لي من

الذى يرزق الخلائق ويحيى الموتى ويميت الأحياء ويشفى المرضى ويمرضى الأصحاء فى
يوم السبت» ١٩

وبوغت «الكاهن» ولم يستطع أن يرد فأضاف «المسيح» فى ثقة: إن «الله» هو الذى
يفعل هذا فى يوم السبت كما فى غيره من الأيام فهو فى كل يوم يرزق مخلوقاته ويحيى
بعض الموتى ويميت بعض الأحياء ويشفى بعض المرضى ويمرض بعض الأصحاء وهو
الذى شقى هذا المشلول الذى كان يرقد على السرير وشفى ذلك الابرص وتسعة غيره من
«البرص» فى هذا السبت» .

فاندفع الكاهن يقول «أو تزعم نفسك أنك أنت الله» .

فقال «المسيح» «انظر الآن من الذى يجدف على «الله»؟ واضطرب «الهيكل»
بالضجيج الذى علا صخبه وطلب رئيس «الكهنة» من خدم الهيكل ومن الجنود أن يفرقوا
الناس من حول «المسيح» وأن يصفوهم فى صفوف وأخذ يطلب من الناس أن يلتزموا
الهدوء «أيها الناس اصمتوا إنكم فى «هيكل» الرب المقدس» فآخشعوا وأنت أيها الغريب
تقدم إلى هنا تعالى إلى الدكة فكلّم الناس» .

أخذ «المسيح» يشق طريقه فى صعوبة الى دكة الوعظ وخدم «الهيكل» والجنود
يحاولون تهدئة الناس وكبير الكهنة يصرخ طلبا للصمت ثم إبتدأ الهدوء يعود الى «الهيكل»
رويدا كلما تقدم «المسيح» نحو دكة الوعظ حتى وقف عند نفس المكان الذى ألقى منه
خطبته الأولى وهو بعد طفل صغير ملفوف فى الأقمطة كان الهدوء قد نزل على «الهيكل»
فصمت الناس واخذوا يتطلعون إلى وجه «المسيح» منتظرين كلامه .

قال كبير الكهنة «أيها الرجل إن الشعب يريد سماعك فقل لهم من أنت وإذا أعطاك
«الله» كلمة فتكلّم بإسم الله» (١٤٤) .

وقف «المسيح» صامتا حتى أطبق الصمت على «الهيكل» إنه فى هذا المكان منذ أكثر

من ثلاثين سنة جاءت به أمه تحمله آية من «الله» للناس إن «الله» أعطاه الكلمة فكلم الناس في المهد فسأل «الله» أن يعطيه الكلمة اليوم ليبلغ عنه رسالته وانساب صوته دافئاً من حرارة صدقه منيراً لإكتمال معرفته .

«بسم الله»

«تبارك» «الله» القدوس الذى من فيض رحمته خلق الخلائق ليعبدوه فيعرفوه وبهذا يتمجد .

« تبارك القدوس الذى من «روحه» أظهر كل الأشياء فكان النور الذى عرفت فيه الأشياء حقيقتها فعرفت ربها واقتبس منه كل الأنبياء نورهم فارشدوا به العباد إلى ربهم» .
«تبارك القدوس الذى نفخ فى رحم «أمى» من «روحه» فأظهر نفسى التى كانت كلمة مودعة فى رحمها ثم ها هو يرسلنى إليكم» .

«يابنى اسوائيل إنسى رسول «الله» إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه «أحمد» (١٤٥) الذى رمزوا لإسمه بـ ايليا» وقالوا إن «الله» يرسله قبل مجئ يوم الرب العظيم «روح الله» الذى ظهر به كل شئ نَفَخَ منه فى الطين فكان « آدم» ومسح به ظهر «آدم» فكانت كل البشرية. نفخ منه فى رحم «أمى» التى ولدتنى فكنت أنا . «فأنا مسيح الله» «عيسى بن مريم» مسحنى «روح الله» وأنا فى رحم أمى إذ تمثل لها بشرا سويا لينفخ فيها « سر الحياة» قبل أن يظهر للناس جميعا فى صورة البشر نبيا مرسلًا إلى جميع الأمم» .

أنا «مسيح الله» «ابن الإنسان» «الروح» الذى أرسله «الله» إلى أمى ليهين غلاما لها وهى العذراء الطاهرة .

فتبارك «الله» القدوس الذى كرم الإنسان وأدخله «الجنة» لينعم برحمة «الله» لكن الإنسان عصى ربه وأكل من الشجرة التى نهاه «الله» عن الأكل منها بغواية «إبليس» الذى

اتخذہ الإنسان وليا فاستمع إلى إرشاده الخبيث وكان جديراً به أن يتخذہ عدواً وقد علم مبلغ كراهيته له وكانت ثمرة المعصية أن هبط آدم مع أبلّيس الى الأرض وهبطنا جميعا معه لتكون الدنيا دار الإبتلاء فمن صدق كلام «الله» وأطاعه استحق أن يرجع إلى الجنة ومن كذب كلام «الله» وعصاه قذف به إلى النار التي لا تطفأ .

تبارك «الله» القدوس الذي رحم الانسان ونظر إلى دموع «آدم وحواء» (١٤٦) عندما ندما على الخطيئة وفاضت دموعهما أسفا على معصيتهما فتاب «الله» عليهما وأنزلنا إلى الأرض وأمهلنا فرصة اخرى لعلنا ننجح فى العودة إلى جنة «الله» .

تبارك «الله» القدوس الذي رحمنا وتاب علينا وأمهلنا لأننا ندمننا على معصيتنا ولم يلعننا ويديننا كما فعل مع «إبليس» الذي استكبر ولم يندم على خطيئته وأصر عليها .

تبارك «الله» القدوس الذي من رحمته بخلقه يرسل إليهم الرسل ليهدوهم الصراط المستقيم لعلهم يخرجون من الظلمات إلى النور فاذكروا نعمة «الله» عليكم إذ أعطاكم ناموسه الطاهر على يد عبده ورسوله «موسى بن عمران» ومكن لكم فى هذه الأرض المباركة التى نزلتم إليها غرباء مستضعفين فبدد شمل اعدائكم ونصركم عليهم وأبد لكم من بعد خوفكم أمنا حتى تعبدوه بلا خوف من أحد لكنكم تركتم كتاب «الله» ورأء ظهوركم ونقضتم الميثاق الذى واثقكم به فاعلموا أن «الله» لا يغفل عن الظالمين ولا يسكت عن الخاطئين بل يرسل إليهم لينذرهم عذابه ثم ينتقم منهم فيهلكهم إن أصرأ كما فعل بإبليس .

لقد علمنى «الله» التوراة التى أنزلها على «موسى» وأوحى إليه كتابتها لكم لكنكم نسيتموها ولم تحفظوها وعندما كتبتموها غيرتم فيها أرسلنى «الله» لأعلمها لكم إننى لم أت إليكم بشريعة جديدة أو لأنسخ التوراة التى أوحاها «الله» إلى «موسى» ... بل «قد جئتكم بالحكمة» (١٤٧) لأعلمكم كيف تسلكون بشريعة «موسى» فى طريق «الله» «ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا «الله» واطيعون» (١٤٨).

واذكروا كيف أهلك «الله» «فرعون» وجنوده فأغرقهم جميعا فى البحر وهم يطاردون
ابائكم وأنتم تنظرون .

واذكروا كيف ضرب «الله» مصر لأن «فرعون» عصى رسول «الله» إليه موسى بن
عمران وكيف أغرق «الله» الأرض بالطوفان لأن الناس كفروا برسول «الله» «نوح» (١٤٩).

«فاتقوا الله وأطيعون»

«إن الله هو ربكم فاعبدوه»

« هذا صراط مستقيم » (١٥٠)

توقف «عيسى» عن الخطاب لحظات كان القوم مأخوذين بخطابه لأن كان يتكلم
«بسلطان» ينساب صوته فى يسر كأنه نور الصباح يبدد الظلمة فى هدوء دون أن
تستطيع مقاومته لم يكن يتلعثم أو ينسى فيحاول التذكر أو يحاول أن يبرهن على كلامه
بأدلة أو يرجع إلى نصوص قديمة كما يفعل الكتبة عندما يقفون للإرشاد

ربما تذكر بعض الشيوخ منهم الذين استمعوا إليه من قبل عندما تكلم وهو فى المهد
قصة «العذراء» التى كانت تعطر «أورشاليم» بأريجها وتذكروا «زكريا» الذى قُتل فى نفس
هذا المكان وتذكر الجميع الشيوخ والشباب «يحيى بن زكريا» الذى لم يزل يبشر «بمسيح
الله» ويعلن على الملأ إيمانه به لكن «الكهنة والكتبة» الذين رأوا «سلطانه» على الناس
تهامسوا فيما بينهم واتفقوا على أنه ساحر ماهر استطاع أن يسيطر على حواس جمهوره
بسحره العجيب واندفع بعضهم يقول «هذا سحر هجين» (١٥١) وإن يستطيع ان يخدعنا
وتعالت أصوات «الكهنة والكتبة» «أخرجوا هذا الكذاب الذى يجدف على «الله» من
«هيكل الله» .

«ابن الزانية الذى لايعلم من هو أبوه يدعى أنه قد أتى ليعلم شعب الله »

«اقتلوا الكذاب الذى يجدف على شعب «الله» أياكون نبى من غير اليهود !»

«ألم يجد «الله» غير تلك الأمة ليجعل فيها «روحه» الذى يرسله إلى الناس جميعا !!
هذا كذب على «الله» وإهانة لشعبه».

«إنما مسيح الله يكون إبنا لداود ملك اليهود الشعب الذى اختاره الله» .
«أما ابن الزانية هذا فإنه كذاب» .

«ليس إلا سامريا مخادعا أتى بهذين الرجلين ليحكم قصته الملفقة ولكنها لن تنطلى
علينا» تعالت الأصوات وتداخلت وهاج الجمع بعضه فى بعض .

فقال «المسيح» وقد علا صوته حتى بدا كأنه الرعد ينذر «لا أشهد لنفسى وإن كانت
شهادتى حقا ولكن يشهد لى «يحيى بن زكريا» ووجه خطابه الى الكهنة والشيوخ ألم
ترسلوا إلى «يحيى» تسألونه عن نفسه وعن كلمة «الله» التى يبشر بها (١٥٢).

«ألم ترسلوا إليه ؟ فلماذا أرسلتم إليه وماذا قال لرسلكم ؟».

أطبق عليهم الصمت لأنهم لو قالوا لم نرسل فقد شهدوا على أنفسهم بالكذب لأن
كثيراً من الحاضرين يعلمون نبأ إرسال رجال من «الهيكل» ليستعلموا من «يحيى» عن
دعوته التى يبشر بها والسؤال المحرج لهم حقاً هو لماذا أرسلوا إليه ؟ لأنه يعنى أن ليس
لديهم شئ مؤكد يبنون عليه موقفهم فلو كانوا متأكدين من كذبه ما أرسلوا إليه يسألونه
ولو كان لديهم من النصوص ما يجعلهم واثقين ماعبأوا به ولا بما يقول اما ماقاله «يحيى»
فهو أن «عيسى» ابن مريم هو «مسيح» «الله» الذى أرسله إلى بنى اسرائيل لقد شهد له
والجميع يعلمون هذا .

ثم مزق صوت «عيسى» الصمت قائلاً «لقد شهد لى وشهادته حق فأتنا «مسيح الله»
المولود من «مريم العذراء» ولكن لى شهادة أخرى هى أعظم من شهادة «يحيى» إنها
الآيات التى أعطانى ربى أن أظهرها لكم هذه الآيات تشهد لى بأن «الله» هو الذى
أرسلنى» (١٥٣) «لقد كان هذا الرجل الذى وأيتموه يحمل سريره مشلولاً سجيناً على

فراشه لا يستطيع الحركة والآخر كان أبرصاً مع تسعة آخرين لقد شفاهم «الله» جميعاً لأنه قبل صلاتي لقد أعطاني «الله» أن اظهر لكم الايات التي تطلبونها لتؤمنوا أنه أرسلني، وأراد أن يتحداهم فقال «وسترون أعمالاً أعظم مما رأيتم اليوم فلا تتعجبوا بل اعلّموا أن «الله» القادر على كل شيء قد أرسلني إليكم لأعيدكم إلى طريقه المستقيم الذي حدثم عنه». إنني لست في حاجة إلى شهادة من إنسان لأن الذي أرسلني يشهد لي (١٥٤) إنني من نفسي لا أستطيع أن أفعل شيئاً لأن «الله» هو الفاعل بى ألا ترون أن الأب المحب لإبنيه يعلمه كيف يصنع والإبن المطيع لأبيه ينظر إليه ويتعلم منه كيف يصنع فالابن لا يستطيع أن يفعل إلا ما أحب أبوه له أن يفعله وكذلك أنا لا أفعل إلا ما أحب «الله» أن يفعله فأعلم أيها الكاهن الذي اتهمتنى بأننى أكذب على «الله». أن «الله» هو الذى يشفى الأمراض وأنه يفعل هذا فى السبت كما فى غيره من الأيام إننى لم انقض السبت ولم أندسه لأننى لم أفعل سوى أننى صليت «الله» من أجل هؤلاء المرضى المساكين فأبرأهم «الله» ألا تحل الصلاة فى السبت ١٩. لقد جعل السبت للصلاة وأنا لم أفعل شيئاً غير الصلاة فمن الذى دنس السبت «

كان الكهنة يحتدمون غيظاً من كلامه ولكنهم خشوا أن يعارضوه فيزيد من توبيخهم أمام الناس وخشوا أن يتحدوه حتى لا يظهر المزيد من الآيات فيصدقهم الناس جميعاً فالتزموا الصمت على مضض وهم يقولون ليت كبير الكهنة ما أعطاه الكلمة ولكنه كان بقلب النبى يعلم ما يدور في قلوبهم فأراد أن يبين لهم أن لاسبيل أمامهم للمداينة أو المجاملة على حساب الحق فقال موجهها كلامه إليهم .

«أيها الكهنة لقد تركتم خدمة «الله» فلم تقيموا للناس صلاتهم ولم تأمرهم بطاعة «الله» وتنهوا عن معصيته بل تركتموهم ينغمسون فى الخطايا ويستغرقون فى المطامع الدنيوية ليقدموا القرابين والنذور التى تبيعونها ثم تأخذونها منهم وتأكلوها لقد صرتم تعبدون المال بدلا من «الله» تتكالبون على الدنيا ونسيتم يوم الحساب فأحذروا يوم

تسمعون الصيحة بالحق فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى الرحمة الدائمة ويخرج الذين عملوا السيئات إلى الجحيم الذي لا خلاص منه. ثم توجه إلى الكتبة قائلاً ،
« أيها الكتبة يامن تعلمون الشعب شريعة «الله».

«لقد دنستم كلام «الله» وصرتم تعلمون الناس تعاليم فاسدة وتركتم شريعة «الله» النقية أيها الفقهاء لقد أبطلتم دين «الله» كما علمه أنبياءه وصرتم تتمسكون بتقاليد شيوخكم الباطلة ».

«لاتقولوا كيف تحكم علينا وبأى حق تديننا لأننى كما أسمع من «الله» أحكم وحكى عادل لأننى لا أفرض مشيئتى بل مشيئة «الله» الذى أرسلنى ولا أطلب مجداً لنفسى بل مجد «الله» الذى أرسلنى».

بهذا الخطاب قد أعلن الحرب على «الكهنة والكتبة » وحتى يقطع فى قلوبهم كل أمل فى المساومة قال «مجدا من الناس لا أريد » (١٥٥).
« أيها الكهنة والكتبة».

«إننى لا أطلب مجدا من الناس».

وبدت على وجوههم الكآبة ولكن لم يكن فى وسعهم شئ إلا الإستماع صاغرين» ثم انطلق صوت «المسيح»

«الآن عرفتكم»

«ليس فى قلوبكم محبة «الله» لذلك لاتؤمنون بى وأنى لكم الإيمان وأنتم تطلبون مجد الدنيا الباطل تقبلون المجد من بعضكم البعض أما المجد الحق من الإله الواحد فلستم تطلبونه» لاتظنوا أنى أشكوكم إلى «الله» لأن هناك من يشكوكم إنه «موسى» الذى عليه رجاؤكم. إنكم الآن قد كفرتم «بموسى» لأنكم لو كنتم تؤمنون «بموسى» لكنتم تؤمنون بى

لقد أتيت إليكم بإسم «الله» ولذلك فأنتم لاتقبلوننى ولكن عندما يأتىكم آخر مسيح كاذب يتكلم بإسم نفسه فذلك الذى تقبلونه لأنكم مثله كاذبين» (١٥٦).

«يابنى اسرائيل».

«إن الله أرسلنى إليكم لكنكم نسيتم الله ولم تثبت فيكم كلمته»

«لقد أسلمتم أنفسكم إلى الغرور وتظنون أن لكم حياة أبدية لأنكم كما تقولون أبناء ابراهيم وشعب الله».

« يابنى اسرائيل».

أقول لكم فتمشوا في الكتب التى بين أيديكم لتعلموا إن كان لكم حياة أبدية أم عذاب مقيم هذه الكتب نفسها هى أيضاً تشهد لى» (١٥٧).

ونزل «عيسى» وشق طريقه وسط الجموع التى احتشدت فى «الهيكل» وهى تنظر إليه بعيون شاخصة وقلوب قد بدأت تستيقظ من غفلة طويلة فأخذت تتلفت من الحيرة إذ صدمها ما سمعت وما رأت .

لقد عرف نفسه أفضل تعريف وبين مهمته فأقصرح إنه لم يأت ليهدم شريعة «موسى» بل ليعلمهم «كيف» يطيعونها لتكون الشريعة طريقا يصل بهم الى «الله» وهذه هى «الحكمة» وإنه قد جاء ليحل بعض مسائل الإختلاف التى اندلعت بينهم لإضطراب النصوص التى عبثت بها يد الإنسان وقد استدل على صدقه بثلاثة شهود لا يمكن دحض شهادتهم «يحيى بن زكريا» والآيات التى أيده «الله» بها وتحداهم أنه مستعد لإظهار المزيد إن أراوا التحقق من صدقه وليس بعد هذا زيادة فى الثقة فى صدقه وأخيرا الأسفار التى بين أيديهم. ولم يجدوا مفرًا من التزام الصمت فقد خشوا أن يجادلوه فى كتب الأنبياء حتى لايزيد من فضح جهلهم وقرر «الكهنة والكتبة» وزعماء الفريسيين ان يجتمعوا

مع بعضهم ليصلوا إلى قرار واحد يجمعون عليه فى شأن هذه الفتنة التى يثيرها فى الشعب هذا «الساحر» عظيم القدرة الذى استطاع أن يسيطر على «جمهوره» وأن يخضعهم لسلطانه اما الشعب فقد اندلع فيه الإختلاف بين مؤيد لصدق «عيسى» معتقداً أنه بالحق «مسيح الله» وبين منكر يرى أن «المسيح» لم يزل بعد فى الغيب لم يحن أوان ظهوره وأخذت «أورشاليم» تضطرب بالمناقشات المحتدمة .

«فاختلف الأحزاب من بينهم»

«فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم» (١٥٨)

(١٤)

« ماء الحياة »

« او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون ،

« الأنعام ١٢٢ »

بدأ الناس يتسألون عن «المسيح» النبى الجديد القادم من «الناصره» إذ كانت آيات الشفاء التى رأوها أو سمعوا عنها تدهشهم وكانت موعظته التى انتشرت انبأها فى «أورشاليم» هى «حديث» المدينة كلها التى كانت تزدهم من الناس بالذين جاؤوا لزيارة «الهيكل» فى أيام الفصح.

« نبي من الناصرة ١٩ »، من الجليل. هذا والله شئ عجيب. لأن «الجليل» الذى كان يدعى «جليل الأمم» كان موطن الفساد والخروج على شريعة «الله» فى عين أهل «أورشاليم» ويهوذا كلها الذين يعدون أنفسهم هم وحدهم أهل الشريعة المتمسكون بتقاليد الابرار المحافظون على كلام «الله» المقدس أما بالنسبة للقادمين من «الجليل» فقد كان خروج «نبي» من إحدى قرى منطقته أمراً يلقي رضاهم لأنه يرد إليهم إعتبارهم إزاء تغطرس رجال اليهودية خاصة أهل «أورشاليم». لذلك مال أهل «الجليل» إلى تصديق «نبوة» «المسيح عيسى الناصرى» خاصة بين الذين كانوا يذهبون الى «يحيى بن زكريا» ليتطهروا فى الأردن بين يديه ويستمعوا إلى موعظة لأنهم استمعوا كثيراً إليه وهو يبشر بقرب خروج «المسيح» .

كان بعض الرجال القادمين من «الجليل» يتحدثون همسا وجهرا عن «عيسى الناصرى» فاشتد حماس «اندراس بن يونا» الذى كان يتحدث مع صديق عندما رأى

« عيسى » يخرج من « الهيكل » ويشق طريقه وسط الجموع التي كانت تنظر إليه بعيون شاخصة. أسرع « اندراوس » يحث صديقه قائلاً له : « دعنا نذهب وراءه لنعرف أين يمكن أن يأخذ يجذب صديقه قائلاً « هيا يارجل لاتبطئ » وأحس بهما « المسيح » فالتفت إليهما بوجهه المشرق قائلاً « هيا تقدما ».

« تقدم يا « أندراوس » ماذا تريد ؟ ألجئت المفاجأة « أندراوس » وصديقه « كيف عرف اسمه » ولم يملكا إلا أن يسيرا نحوه كالمأخوذين فقال لهما بصوت حنون « ماذا تريدان ؟ تلعبتم « اندراوس » ثم تما لك نفسه قائلاً « يامعلم نريد أن نعرف أين تمكث ؟ فقال بصوته الحنون ووجهه الذي زاده الترحيب إشراقاً « إذن تعاليا وأنظرا » (١٥٩) ثم سار ودفعهما برقة ليسيرا إلى يمينه ظل صامتا وهو يتجه شرقا إلى « جبل الزيتون » كانا يسيران مطرقان إلى الأرض ويختلسان إليه النظر من حين لآخر . « كأن ماءً يقطر من وجهه وشعره كأنه خرج توا من الإغتسال » و « أندراوس » يحس بشئ ما يجذبه نحو هذا الرجل الصامت.

« أيمكن أن يكون هو « المسيح » الذي بشر به « يحيى بن زكريا » ؟.

« لكن « الكتبة والكهنة » يقولون أن « المسيح » يجب أن يكون من نسل « داود » ويخرج من « بيت لحم » وهذا الرجل من « الناصرة » ولا يعرف له أب إنهم يقولون أن « يوسف النجار » هو زوج أمه وليس أبوه فمن هو أبوه ؟ يصف نفسه بأنه ابن « الإنسان » ويقول أن « الله » خلقه دون أب آية للناس على قدرته وأنه أرسله ليعيد بنى اسرائيل إلى ربهم ويبشر برسول « الله » الذي يأتي قبل القيامة .

أ يكون هذا الرجل هو حقا « مسيح الله » ؟

ومن هو « الإنسان » الذي يقول أنه ابنه ؟

« صنع معجزات إذ شفى الرجل المعقد وعشرة من « البرص » ولم يستطع « الكهنة

والكتبة» أن يعارضوه أو يجادلوه وعرف اسمه دون أن أخبره «أنبى» «صادق جاء من عند «الله» أم تراه ساحراً قديراً كما يقول الكهنة؟». وجاء «جبل الزيتون» قطع صوت «المسيح» الصمت قائلاً «ها هنا أمكث فتعاليا» «هل يمكن أن نبیت ليلتنا فى هذا المكان الموحش بلا طعام ولا شراب أو غطاء كيف سننام على هذه الصخور وسط الثعابين والعقارب» وبدا على وجه الرجلين الفزع من هذه الدعوة الغريبة فقال لهما «المسيح» «إذن فامضيا إلى «أورشاليم» وانتظرانى غدا فى الهيكل».

ثم تقدم وحده إلى الجبل وأخذ يصعد عليه سائرا بين الصخور حتى غاب عن بصرهما والرجلان يقفان مشدوهين من هذا «الغريب» الذى يقضى الليل وحده بين الصخور. هبط الليل واختفى الجبل بأحجاره وأشجاره ومن فيه عن الأبصار وجاءت النجوم لتقف فى أرض السماء لتشهد على الإنسان وهو يواجه كلمة «الله». كانت مصابيح الليل بعيدة لاتستطيع أن تضى الطريق «لأندراوس» وصديقه وهما يسرعان يحثان الخطى إلى «أورشاليم» .

أسرع «أندراوس» إلى أخيه «سمعان» يخبره أنه قد رأى «المسيح» وعرف أين يمكن وأنه سيأتى إلى «الهيكل» وعلينا أن نذهب إلى هناك لنرى ماذا سيصنع وماذا سيفعل «الكهنة والكتبة» معه ومر «أندراوس» وأخوه «سمعان» على فيلبس (فيليب) صديقه الذى كان يجلس مع «نثنائيل» فأخبره «أندراوس» عن عيسى ابن يوسف النجار «القادم من «الناصره» الذى يقال أنه هو «المسيح» الذى كُتب عنه فى الانبياء وبشر به «يحيى بن زكريا» فامتعض «نثنائيل» قائلاً « أمن «الناصره» يمكن أن يأتى شئ طيب» (١٦٠) .

ورد عليه «فيلبس» لانخسر شيئاً تعالى لننظر فإنه كما يقول «أندراوس» سيأتى اليوم أيضا إلى «الهيكل» واعترض «نثنائيل» «يستحيل أن يقوم «نبي» فى «الجليل» وقال بعض الذين استمعوا إليهم وهم يتخاصمون «أيمكن أن يأتى «المسيح» من الناصرة» وقال آخرون

لقد تكلم بالأمس ولم يستطع أحد من «الكتبة أو الكهنة ان يعترض عليه ورأينا الكثيرين
يكون من موعظته».

«لكن «المسيح» يجب أن يكون من نسل «داود» وبينما هم يتجادلون كان «المسيح»
يتقدم نحوهم في طريقه إلى «الهيكل» فانتبه الجميع إلى حضوره فقال موجهًا خطابه
«لنثنائيل» «تقدم إلى يا «نثنائيل» ولا تشك. إن «الله» أعلم حيث يضع رسالته» فقال نثنائيل
«وقد بوغت» «من أين لك أن تعرفنى»؟^{١٩}.

قال «المسيح» «الذي خلقك أنبأنى من أنت وأعلمنى بحديثك مع «فيليبس» وأنت تجلس
تحت «التينة»^(١٦١) فندم «نثنائيل» على شكه وتقدم إليه منحنياً مطرقاً إلى الأرض «يا معلم
أنت نبي الله حقا» قال «المسيح» «أأمنت لأنى أخبرتك بأسمك فسوف ترون آيات أعظم من
هذه الحق أقول لكم أنكم من الآن يمكنكم أن تشهدوا ملائكة «الله» وهم ينزلون على «ابن
الانسان» لتؤمنوا أننى رسول «الله» «إليكم» وتقدم إلى «الهيكل» فसार الجميع وراءه.

لم يكد «المسيح» يدخل «الهيكل» وحوله الجمع الصغير الذى يسير وراءه حتى اندفع
إليه أحد الكهنة. تقدم نحوه وقد بدا عليه تواضع ظاهر وقال للمسيح «أيها المعلم الصالح
نشهد أنك رجل صالح وتعطى تعليماً صالحاً فأخبرنى ما هو الجزاء الذى يعطينا آياه «الله»
فى الجنة على أعمالنا الصالحة؟»^{٢٠}

كان «الكاهن» يتكلم فى تواضع ويحاول أن يتأدب فى خطابه «للمسيح» الذى فاجأه
بقوله «أيها الكاهن لماذا تدعونى صالحاً ألا تعلم أن لا أحد يمكن أن يوصف بالصالح إلا
«الله» وحده إن الصالح هو النقى الكامل ولا أحد يكون بهذا الوصف إلا «الله» ألم تقرأوا
قول نبي «الله» «أيوب» الطفل الذى ليس له من عمره إلا يوماً واحدا لا يكون نقياً «إن قلبه
لا يكون خالياً من الإثم.

وقال أيضاً «إن الجسد يجذب الخطيئة كما تمتص الإسفنج الماء».

لأحد من الخلق لا يخطئ كما يريد «الله»، «الله» وحده هو الذى لا يخطئ،

ثم التفت الى الجمع الذى تزام حوله يستمع فى انبهار إلى هذا الكلام الذى لم يعتادوا سماعه من «الكتبة والكهنة».

قال «إحذروا الذين يثنون عليكم فهم يخدعونكم باللسان ويهلكونكم فى الحقيقة باللسان أثنى إبليس على «آدم وحواء» أبونا الأولين وكان يود فى قلبه إهلاكهما وإهلاكنا نحن ابناهما فكان عاقبة كلامه هذا البلاء وعلى هذا النحو بارك حكماء مصر «فرعون» فطغى وأدعى أنه الإله الذى يجب أن يعبد وبارك أربع مائة نبي كذاب «أخاب» ملك اسرائيل حتى أوردوه التهلكة فلم يكن المدح إلا باطلا فهلك الممدحون بمدح المادحين ولذلك قال «الله» على لسان «إشعيا» النبي «يا شعبي إن الذين يباركونك يخدعونك» (١٦٢).

بوغت «الكاهن» بكلام «المسيح» الذى لم يكن يتوقعه وكان الكهنة والشيوخ والكتبة لما اجتمعوا بالامس يتباحثون فى أمر الفتنة التى أحدثها المدعو «عيسى الناصرى» بشفائه للمرضى وموعظته التى بهرت الشعب قد استقر أمرهم بعد نقاش طويل ومحموم على أن «عيسى الناصرى» ساحر قدير وعالم بليغ يجيد الخطابة ويستطيع أن يسيطر على الجمهور بسحره وبلاغته ومن ثم فإن المصلحة تقتضى منهم أن يهادنوه ويحاولوا تملقه واغراءه بالانضمام إلى جماعتهم ليصير واحدا من «الكهنة» رغم أنهم يجهلون نسبه بل يمكنهم اعطاءه منصب أعظم المعلمين «بالهيكل» وبهذا يضمّنون ان تكون «أسلحته» فى جانبهم بدلا من أن تكون عليهم لقد ظن كبير الكهنة ورجال الهيكل أن «عيسى» سوف يشكرهم على أن منحوه شرف الحديث من فوق دكة الوعظ «بهيكل» «أورشاليم» فى أيام الفصح وهو شرف لا يناله إلا الكبار من شيوخ الفريسيين الكتبة وعظماء «الكهنة» ولكنه على غير المتوقع أخذ يوبخ رجال «الهيكل» حتى تحولت خطبته الى سباب مقذع لهم وفسروا: هم ذلك فى اجتماعهم بالليل على أنه رغبة فى الحصول على مكانة رفيعة بين

رجال «الهيكل» واتفقوا على أنه لامانع لديهم من مجاراته فى هذا على الأقل الآن فى أيام العيد حتى لاتحدث فتنة .

واستقر رأيهم فى نهاية المطاف على أن يبعثوا إليه بهذا الكاهن الذى استقبله فى تواضع ظاهر وسأله عن جزاء الآخرة الذى يعطيه «الله» لعباده الصالحين كانوا بهذا يريدون جرف كلام «المسيح» فى اتجاه لاضير عليهم منه فما أن يأخذ «المسيح» كما ظنوا فى بيان الثواب العظيم الذى يدخره «الله» لعباده الصالحين حتى تنهمر الأسئلة تستطلع خبر الجنة ويستغرق الناس فى أحلام النعيم القادم الذى يدخره «الله» لهم ثم يبدى «الكهنة» اعجابهم بعلم «المسيح» وسعة إطلاعه على الكتب ثم يعرضون عليه أن يصبح واحداً من رجال «الهيكل» بعد أن يغرونه بأن يكون أعظم رجال «الهيكل» وهكذا تمر الفتنة بسلام على الأقل فى هذه الأيام العصيبة، أوصوا الكاهن الذى اختاروه أن يقوم بهذه المهمة فى تواضع وأن يتمالك نفسه إنهم سوف يتركون «الهيكل» وينتظرونه فى الخارج حتى إذا سارت الأمور على مايرومون دخلوا وأعلنوا اعجابهم «بالسيد» القادم من «الجليل» ويكون ذلك بمثابة اعتذار عما حدث بالأمس من «سوء فهم» لكن «المسيح» أفسد الخطة بكلامه عن رفض المدح ثم زاد الأمر سوءا عندما شرع يوبخ الكهنة والكتبة قائلاً :

«الحق أقول لكم أن لا شئ أخطر على الإنسان من لسانه .لأنه بكلامك أيها الإنسان تظفر بالرحمة أو تلقى فى الهلاك . هكذا قال «سليمان» نبي الله الحكيم قال . «الحياة والموت تحت سلطة اللسان» (١٦٣) .

«الويل لكم أيها الكهنة والكتبة . والويل لكم أيها الأحبار والشيوخ الفريسيون . لأنكم تسكتون عن قول الحق . وإن تكلمتم فالباطل تنطقون

«لقد أفسدتم ذبيحة الرب . تقولون للشعب أحضروا من أنعامكم ذبائح للرب هاتوا من أنعامكم وثيرانكم الى «الهيكل» وقدموا نصيباً لإلهكم .

ولكنكم لا تخبرونهم عن أصل الذبيحة حتى صار الشعب الجاهل يتوهم أن «الله» يأكل لحما مطبوخا مثل الناس .

«لماذا لا تقولون لهم إن الذبيحة التي تقدم قربانا «الله» هي شهادة الحياة التي أنعم «الله» بها على النبي «إبراهيم» خليل «الله» . لماذا لا تقولون لهم إنها تذكّر دائماً للناس حتى لا ينسوا إيمان وطاعة «إبراهيم» وابنه «إسماعيل» لأن «إبراهيم» قبل أن يذبح ابنه البكر الذي كان وحيداً إذ رأى في «الرؤيا» أن «الله» يأمره بذلك . و«إسماعيل» قبل أن يُقتل طاعة «الله» . لماذا لا تقولون للناس أن «الله» قد كافأ «إبراهيم» و«إسماعيل» على ذلك بأن أعطاهما الوعد أن يبارك بنسلهما الأرض كلها (١٦٤) .

«من أجل سكوتكم عن الحق وكلامكم بالباطل . قال «الله» لكم على لسان نبيه «حزقيال» . «أبعدوا عني ذبائحكم هذه . إن ضحاياكم مكروهة عندي» .

«والآن إعلموا أنني قد جئت إليكم من «الله» لأقول لكم أنه قد اقترب الوقت الذي يتحقق فيه ما قاله «الله» على لسان «حزقيال» . سيصنع «الله» ميثاقاً جديداً مع شعبه ليس مثل الميثاق الذي أعطاه لأبائكم فلم تفوا به ونقضتموه سيأخذ «الله» منهم قلباً من حجر يعطيهم قلباً جديداً . وما قاله «الله» على لسان «هوشع» «النبي» إنني أدعو الشعب غير المختار مختاراً (١٦٥) .

إعلموا أن «الله» سينزع منكم النبوة ويعطيها الأمة التي قلتم عنها أنها أمة غبية . لقد أعطاكم «الله» مفتاح الحقيقة، شريعته . لكنكم لم تفتحوها به بل أخذتم تسدون الطريق وتغلقون الباب على الذين يريدون أن يدخلوا .

كان الناس يستمعون في إندهاش وإنزعاج شديد لكلام «المسيح» . فهذه أول مرة يستمعون فيها أن الذبيح كان «إسماعيل» الذي كانوا يصفونه بإبن الجارية وأن الوعد مع «إبراهيم» كان بمباركة الأرض كلها بنسله الخارج من «إسماعيل» وابتدأ الهمس الذي

يدور بين الحضور يتحول إلى صخب وكبار «الكهنة والشيوخ المختبئون خارج «الهيكل» ينتظرون نتيجة سعى الكاهن الذي إدعى أنه جاء ليتعلم من المعلم الصالح «وعيون» «الكهنة والشيوخ» ترصد ما يحدث لتقوم بالتبليغ وهم الكاهن بالخروج ليبلغ المنتظرين بالخيبة بل الكارثة التي حلت لكن «المسيح» أوقف الصخب ومنع الكاهن من الإنصراف حين علا صوته كأنه نذير خطر قائلاً . «قف أيها الكاهن حتى أجيبك عن سؤالك . فإننى لم أجب بعد . ووقف الكاهن صاغرا . وعاد الصمت ليطبق على الحاضرين فى «الهيكل» . أما المنتظرون فى الخارج فقد أوشك أن ينفد صبرهم .

قال «المسيح» تسألنى ماذا يعطينا «الله» جزاءً على أعمالنا الصالحة فى الجنة ؟ .

« الحق أقول لكم إن الذين يهتمون بالأجر لا يحبون صاحب العمل ولا العمل نفسه فالراعى الذى يملك قطيعا من الغنم متى رأى الذئب مقبلا ليفتك بواحد من قطيعه فإنه يسرع بالإستعداد للدفاع عن غنمه بمهاجمة الذئب لأن الغنم غنمه وهو يحب رعايتها أما الراعى الأجير فإنه متى رأى الذئب يفتك ببعض القطيع فإنه لا يهتم بل يترك الغنم ويهرب إن أدرك أنه نفسه قد صار فى خطر مادام قد أخذ أجره من صاحب الغنم . فهل هذا الأجير يحب الغنم أوصاحبها ؟ .

«كان هناك ملك عظيم ورحيم رأى أثناء سيره رجلا جريحا أشرفَ على الهلاك . فتحزن عليه وأمر عبيده أن يحملوه إلى المدينة . ثم أمرهم أن يدخلوه قصره وأن يعتنوا به حتى استرد صحته ومن حنان الملك أحب الذى عثر عليه جريحا فى الطريق فزوجه ابنته وجعله نائبا عنه ووريثا له وملّكه على سائر مملكته .

لا شك أن الملك كان رؤوفا جدا .

«أليس هذا صحيحاً؟» .

قالوا : بلى .

قال : «لكن الرجل بعد ما صار نائباً ووريثاً للملك طغى فأمتهن بنت الملك التى تفضل عليه بتزويجه إياها وظلم العبيد الذين ملكه عليهم بل أخذ يتكلم عن الملك نفسه بالسوء. ويغري العبيد بعصيان الملك والتمرد عليه والخضوع له شخصياً وكلما أمره الملك بعمل شىء قال له ما هو الجزاء الذى تعطينى أياه نظير قيامى بهذه الخدمة لك ، وظل على هذا النحو حتى أغضب الملك عليه فقولوا لى ماذا يفعل الملك العظيم الرحيم بهذا الكنود اللئيم ؟ فقال واحد من الحضور «ويل لذلك الكنود . لأن الملك ينزع منه كل شىء وينكل به تنكيلاً . قال «المسيح»: «إن الملك العظيم الرحيم» هو إلهنا الذى وجد بنى اسرائيل أذلاء مستضعفين فى الارض مغممين شقاء . فأحب أن يمن عليهم فسلمهم إلى عباده الصالحين «يوسف» و «موسى وهارون» الذين اعتنوا بهم كل عناية . وأحب إلهنا الحنان المنان بنى إسرائيل فزوجهم شريعته وجعلهم خلفاء له الأرض وضرب من أجلهم مصر . وأغرق فرعون وجنوده وأهلك شعوباً كثيرة ومكن لهم فى هذه الأرض التى جاعوها غرباء مستضعبين فماذا فعل بنو اسرائيل ؟ لقد امتهنوا شريعة «الله» انظروا كم عصى الشعب شريعة «الله» . وتذكروا كم قتلوا من الأنبياء . وكيف دنسوا كلام «الله» . وكيف نجسوا النبوة . كم من الناس انصرفوا عن «الله» وكرهوا شريعته من أجل هذا وذهبوا ليعبدوا الأصنام بخطيئتهم أيها الكهنة والكتبة والاحبار .»

وعلا صوته يقول . «أيها الكهنة والكتبة والشيوخ الفريسيون . وأنت يارئيس الكهنة الذى تسمع صوتى الآن . إنى أعيد عليكم ما قاله «الله» على لسان نبيه « أشعيا» لقد ربيت عبيداً ورفعت شأنهم . أما هم فقد امتهنوني .

«كم تمتهنون «الله» بأعمالكم . ثم الآن تسألوننى . ماذا يعطينا «الله» جزاء فى الجنة على أعمالنا».

«كلاما كان يجب أن تسألوا هذا السؤال. حرى بكم أن تسألوا أى قصاص عادل

يحكم به «الله» علينا فى الجحيم نكالا لأعمالنا السيئة . وماذا يجب علينا فعله من أجل التوبة الصادقة حتى يرحمنا «الله» فهذا ما أستطيع أن أقوله لكم ومن أجل هذا قد أرسلنى «الله» إليكم» (١٦٦).

«تالله لو كان «الله» إله أبائنا هو ألهمكم ماخطر فى بالكم هذا السؤال الوقح. ماذا يعطينى «الله» ؟ . كان يجب أن تقولوا ما قاله «داود» نبي «الله» ماذا على أن أقدم «لله» شكراً جزاء على ما أعطانى من فضله ١٩. .

«من منكم يكون له عبد يعمل عنده فى الأرض يحرق أو يرعى يقول له عندما يأتى مساء من العمل هيا أيها السيد تقدم واتكأ لتتناول عشاءك الذى أعدته لك ١٩. .

«ألا تقولون لمن يخدم عندكم هيا أيها العبد جهز ما أتعشى به وقف هنا لتخدمنى حتى أنتهى من طعامى وبعد ذلك لك أن تأكل وتشرب ولاتستريح قبل أن تنظف كل شئ ؟» «هل تنسبون للعبد الذى فعل ما أمر به أى فضل يوجب له جزاء عندكم كالأظن أنكم تفعلون هذا .

«وكذلكم أنتم أيضا متى فعلتم كل ماياؤمركم به «الله» فليس لكم فضل بل يجب أن تقولوا أننا عبيد سيئون لأننا لم نعمل إلا ماكان يجب علينا عمله فما بالكم إن كنتم لاتعملون حتى هذا ؟».

«قلت لكم إننى لا أطلب مجدا من الناس .».

«لعمركم «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته إنكم لن تنالوا منى تملقا فلن أقول لكم إلا الحق لذلك أقول لكم يجب عليكم أن تتوبوا كما تاب أبائنا بعد أن عبدوا العجل واحذروا أن تقسوا قلوبكم» (١٦٧)

فاحتدم «الكهنة والكتبة» وتذمروا ونفذ صبر بعضهم فأسرعوا يدخلون الى «الهيكل»

ليواجهوا «المسيح» الذى كان يواصل كلامه مخاطبا الحضور قائلا «أيها الكهنة» أيها
الأخبار والكتبة والشيوخ».

إنكم تحبون الخيل مثل الفوارس لكنكم لاترغبون أن تسيروا بها إلى القتال .

إنكم تحبون الملابس الجميلة مثل النساء لكن أنفسكم تعاف الغزل وتربية الأطفال.

تحبون ثمار الحقل وتكرهون حرارة الأرض.

تشتهون الأسماك وتستثقلون صيدها .

تحبون السلطة لكنكم لاترحبون بحمل أعباء الملك.

ولذلك فأنتم تحبون العشور والباكورات التى تقدم الى «الهيكل» ولكنكم لاترغبون فى
خدمة «الله» بالحق.

راغبون فى كل لذة دون أدنى مشقة فماذا يفعل «الله» بكم ؟ الحق أقول لكم أنه
سيعطيكم كل مشقة دون أدنى لذة (١٦٨).

وتوقف «المسيح» عن الكلام اذ دخل بعض الرجال والنسوة وهم يدفعون نحوه شابا
قويا وسيما كان من الواضح أنه أعمى رغم أن عينيه مفتوحتان وتقدم رجل عجوز ذو لحية
بيضاء نحو «المسيح» بوجه باك وقال بصوت تقطعه الدموع «يامعلم» هذا ابنى كان شابا
رائعا ثم لاندرى ما الذى أصابه لقد كُفَّ بصره وسمعه وأحتبس صوته فأنتم كما تراه الآن
لايبرر ولايسمع ولاينطق صار كتلة من اللحم والعظام .

وعلم «المسيح» من «الله» أن الشاب به شيطان هو الذى أفقده سمعه وبصره ونطقه
فقال «رب آله آبائنا أرحم هذا العبد الضعيف ورد عليه صحته ليعلم هذا الشعب أنك
أرسلتنى إليه» (١٦٩).

ثم تقدم «المسيح» نحو الشاب المريض ووضع يديه اليمنى على رأسه وقال «بسم

«الله» انصرف أيها اللعين عن هذا الرجل «فأخذت الرجل الرجفة وخر على الأرض وخرق الاذان صوت صاحب اندفع من الرجل كائنه صرخة ألم شديد ثم أفاق الرجل والعرق يسيل من جسده كله ثم نطق في يسر «الحمد لله» وأخذ يتمالك نفسه وهو يدير بصره في أرجاء «الهيكل» ويمعن النظر إلى الوجوه فعرف أباه فهب واقفا ليحتضنه باكيا وبكى «الشيخ» بكاء تَهْطُر له قلب «المسيح» فشارك أهل المريض البكاء أما الذين كانوا يشهدون ما يحدث فقد أخذهم الرعب لشعورهم أن ثمة شيطان في «الهيكل» أخرجه «المسيح» من الرجل وأذهلهم أن «المسيح» يخاطب الشياطين واحد من الكتبة الذين نفذ صبرهم اندفع يقول وقد فقد قدرته على ضبط غيظه من أقوال «المسيح» وأفعاله «أيها الشعب المخدوع إحدروا هذا الكاذب الذى يجدف على «الله» وشعبه إنه لم يخرج الشيطان إلا بقوة رئيس الشياطين الذى يركب ظهره».

فقال «المسيح» فى هدوء يوحى بالثقة «كل مملكة تنقسم على نفسها لابد أنها سرعان ماتتحتطم وكل بيت يتقاتل أهله فمن المؤكد أنه لا يبقى بل سريعا ما يخرب فكيف يخرج رئيس الشياطين أحد جنوده أيعمل رئيس الشياطين على تدمير مملكته؟ (١٧٠).

«إن أبناءكم الذين فى أصلابكم يشهدون أننى أخرج الشيطان «بروح الله» الذى به يخرجون من أرحام نساكنكم بشراً على صورة «آدم» وإنهم لذلك سوف يكونون يوم القيامة قضاتكم الذين يدينونكم أمام «الله» إذ يشهدون على تجديفكم على «روح الله» الحق أقول لكم إن التجديف على «روح القدس» لا مغفرة له فى هذه الدنيا ولا فى اليوم الآخر لأن الشرير إنما ينبذ نفسه من رحمة «الله» بإختياره (١٧٠).

«إننى أخرج الشيطان «بروح القدس» الذى وهبى حياتى ووهب كل شئ حياته فوجب عليكم أن تفرحوا لأن هذا يعنى أنه قد صار قريباً منكم وأنه بولادتى وبارسالى إليكم قد أكد حضوره إلى الدنيا ويعتنى من أجل أن أبشر به » .

فخرج «الكتبة والكهنة» من «الهيكل» صاغرين وأخذ الناس يدفعون إلى «المسيح»

مرضاهم ويطلبون منه الصلاة لشفائهم فصلى «المسيح» من أجل جميع المرضى الذى حضروا فنالوا جميعا الشفاء ثم خرج من «الهيكل» وسط تعظيم الناس الذين شهدوا هذه الايات وانتشرت الأنباء فى الشعب وتناقلتها الألسن حتى أن الجنود والضباط الرومانيين الذين شهدوا وسمعوا قالوا إن «المسيح» هو أحد الآلهة هبط من السماء ليتفقد أحوال شعبه.

أخذ بعض الشباب الذين هزتهم كلمات «المسيح» وقدراته الخارقة يتسللون من «أورشاليم» ويذهبون الى «جبل الزيتون» حيث يمكث «المسيح» أحسوا أن ثمة قوة «عليا» تجذبهم إلى هذا الرجل الغريب الغامض الذى أتى إلى «أورشاليم» فى هذا الفصح . لقد حول «المسيح» بكلماته ومعجزاته حياتهم إلى سر موغل فى الغموض ، ونبتت فى قلوبهم الحائرة الرغبة فى اكتشافه . أدرك كل واحد منهم أنه عاجز عن سبر غور هذا «السر» بمفرده وأنه لابد أن يصحب «المسيح» ويبقى بجواره ليتلقى منه النور ليبدد الظلمات التى اكتشف مذهولا أنها تحيط به لعله يظفر بإجابة عن اللغز الذى يتعالى على الفهم .

كانوا جمعا صغيرا من صيادى السمك وصغار الموظفين والملاك جاء أغلبهم من قرى ومدن «الجليل» إلى «أورشاليم» ليشهدوا الفصح فاجذبت قلوبهم إلى «المسيح» الذى رحب بهم فى «جبل الزيتون» وكان قد عزم على ترك «أورشاليم» والعودة إلى «الناصره» ليبدأ منها إعادة تربية الشعب الذى أفسدته تعاليم «الكهنة والكتبة» الفاسدة . لم يكن يريد إشعال صدام بينه وبين «الهيكل» الآن رغم تيقنه أن «الهيكل» برجاله من «الكهنة والكتبة» والشيوخ الفريسيين هو العقبة التى تقف أمام الناس تمنع عنهم «الإيمان» . لكن الشعب نفسه لم يكن أهلا لتلقى الإيمان وغير قادر على فهم حقيقة الصراع بينه وبين رجال «الهيكل» ومن ثم فهو غير قادر على المشاركة فى إنهاء هذا الصراع الأبدى لصالح «الله» . إن الناس لم تنبهر إلا بالمعجزات بالقدرة العجيبة التى أظهرها «المسيح» فى القضاء على الأمراض كأنه قد أتى ليعلم الناس نهجا جديدا فى علاج الأمراض أو أسلوبا غريبا فى

الطب كآته مثل أصحاب الطب الروحاني «الآسيون» الذين كانوا يكونون طائفة صغيرة محكمة التنظيم لها طقوسها الغريبة وكهوفها التي تعتزل فيها الناس لتمارس طريقتها في علاج أمراض النفوس وكانت لهم كتبهم التي يقدسونها ولا يؤمنون إلا بأسفار «موسى» ولا يؤمنون ببعث الأموات. قليل من المتعلمين المطلعين على بعض الثقافات الأجنبية الملمين بأطراف الأسئلة الأبدية التي تدور حول الحقيقة والروح والموت قد أعجبوا بقدرة «المسيح» على الجدل وطريقته الفذة في التعبير واستطاعته التغلب دائما على مجادلته من «الكهنة والكتبة». أما قدرته التي لا نظير لها على الاستشهاد بنصوص التوراة وكتب الأنبياء فكانت موضع حسد الجميع حتى «الكهنة و الكتبة» الذين كانوا يحتدمون من الغيظ بسبب توبيخه لهم وعجزهم المفصوح عن مجادلته .

أحس «المسيح» أن الجميع الذين ناصبوه العداء والذين أظهروا إعجابهم به أو مالوا لتصديقه أو حاولوا التقرب منه الجميع قد أساءوا فهمه ولم يعرفوا معنى رسالته ولا حقيقة ما يجاهد من أجله . شعر بغربة رهيبة في هذه الدنيا التائهة وأحس برغبة جارفة تدفعه إلى «الناصرة» ليجلس عند قدمي أمه «مريم» الطاهرة يستنشق عندها أنسام الجنة ويستمد منها القوة ليواصل سيره على الطريق الضيق المليء بالأشواك ، إن الشعب الذي طال عليه الأمد بعيدا عن «الله» يتلقى تعاليم فاسدة من قواده العميان قد قسي قلبه وأظلم فؤاده فامتلاء بالأوهام والأكاذيب والخرافات يحتاج إلى نار المعرفة المقدسة لكي يتطهر .

صمت «المسيح» ولم يتحدث مع زواره الذين أتوا إليه في جبل الزيتون ولم يظهر لهم المزيد من العجائب التي خلبت ألبابهم . ظل صامتا مطرقا أغلب الوقت لا يرويه إلا جالسا ساهم النظرات يبدو عليه الشرود أو ساجدا على الأرض يمرغ وجهه في التراب باكيا والقوم يتعجبون من صنيع هذا «المعلم الغريب». ثم ذهب في اليوم الأخير من العيد إلى «الهيكل» ووقف ينادي بأعلى صوته حتى إن الذين في السوق سمعوا صوته وأقبلوا «إن

عطش أحد فليقبل إلى ليشرّب ماءً لا يظمأ بعده أبداً. من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من تحته الأنهار . (١٧١) أنهار الحياة الأبدية التى وضع «الله» فيها رحمته . ثم أخذ يشق طريقه ليخرج وكان الكثيرون قد تحمسوا لإتباعه فأراد أن ينبه الجمع المحشد إلى صعوبة الطريق ومخاطر السير معه إلى «الله».

قال : من منكم إذا أراد أن يبنى برجاً عظيماً لا يجلس أولاً ويطلب التفكير والتدبر ويحسب ما معه من النفقة هل تكفيه إلى أن يتم بنائه أم لا ؟ حتى لا يشروع فى البناء فيحفر حفرة ليضع فيها أساس بنائه ثم يكتشف أن ما معه لا يكفى فلا يستطيع أن يكمل ما بدأه وحينئذ يصبح موضع سخرية الناس الذين يشيرون إليه مستهزئين يقولون أنظروا لمن أراد أن يبنى برجاً عظيماً فحفر لنفسه حفرة .

« دلونى على ملك يذهب إلى مقاتلة عدوه نون أن يجلس ويتشاور . هل يستطيع بالجنود والأسلحة التى معه أن يتغلب على عدوه الذى قد يملك قوة أكبر من قوته فإن قدر أنه لا يقدر على الحرب فعليه أن يسرع بارسال سفارة ويبحث عن الصلح حتى لا يهلك نفسه نون فائدة» (١٧٢) .

وانفض الناس من حوله ولم يبق معه إلا القليل الذين اظهروا إصراراً على اتباعه فأعلن لهم إنه ذاهب إلى «الناصره» قريته فشعروا بالراحة لأنهم كانوا من «الجليل»، من بيت صيدا ومن «كفر ناحوم» ومن «قانا» و «كروزين» وزيلولون . إذن «فالناصره» تقع فى طريقهم ولن يخسروا شيئاً فى صحبته إن استقر رأيهم فى النهاية على تركه والعودة إلى بيوتهم ومزاولة معيشتهم كما كانوا يفعلون قبل أن يلقوه .

خلفوا «أورشاليم» التى تمتلئ بالصخب وراء ظهورهم وأخذوا يشقون طريقهم فى صمت مع «المعلم». أحسوا أنهم فى قبضة المجهول الذى لا يعرفون ماذا سيفعل بهم ؟

«هل تسرعنا؟ ماذا سنفعل فى «الناصره» ما هو «الملكوت» الذى وعدنا أن نصير من أهله إن نجحنا فى هذه التجربة وما هو النجاح . كيف سنعرف أننا نجحنا ؟

أه بل من هو هذا الرجل الغريب الذى أستولى على عقولنا وإلى أين يسوقنا ؟ .
كانت تحذيرات «المسيح» فى «الهيكل» قبل أن يشرع السفر تتردد فى قلوبهم
وتملؤها بالاضطراب والحيرة .

وكان الصمت ثقيلاً على قلوبهم حتى بدا لهم أنهم لا يتحركون كأنما تتحرك أقدامهم
دون أن يتقدموا فتحزن عليهم «المسيح» وأراد أن يخفف عنهم بعض أحمالهم فقال «كان
رجل على سفر وبينما هو سائر رأى أن هناك كنز فى الحقل يعرضه صاحبه للبيع نظير
خمس قطع من النقود فتعجب المسافر لقلة الثمن ولكن لم يكن معه أية نقود فماذا يفعل
ليحصل على ذلك الكنز بمثل هذا الثمن الرخيص ؟ .»

«حينئذ فكر كيف يحصل على الكنز . ثم أسرع إلى السوق فباع رداءه وحصل على
الخمس قطع من النقود فأعطاهن إلى صاحب الحقل وظفر بالكنز .

«فهل كان حكيماً فيما فعل أم كان مجنوناً ؟!» .

فأجابوا: «لقد كان حكيماً . لأنه بالكنز الذى حصل عليه يمكنه أن يشتري ما يشتهى
من ملابس أو طعام أو شراب .

إن المجنون حقاً هو من لا يشتري كنزاً بخمس قطع من النقود» . قال «المسيح» وأنتم
أشد جنوناً من ذلك لأنكم لا تحبون أن تبيعوا حواسكم الخمسة التى فى أجسادكم من
أجل أن تشتروا أنفسكم التى عند ربكم حيث يستقر كنز محبة «الله»

«إن محبة الله هى الكنز الذى لا نظير له» (١٧٣) .

فمن يحب «الله» كان «الله» له ومن كان «الله» له صار له كل شيء . زالت وحشة
الطريق بكلام «المعلم» وعادهم الحماس فقال «سمعان بن يونا» يا معلم قل لنا كيف يجب
على الإنسان أن يحب «الله» محبة خالصة (١٧٤) .

قال «المسيح»: الحق أقول لكم إن من لا يبغض أباه وأمه وأبناءه وامرأته وحياته كلها فى سبيل «الله» لا يكون محباً «الله» ويكون غير أهل لأن يحبه «الله» قال «سمعان» «يا معلم لقد كتب فى «الناموس» أكرم أباك لتعيش طويلاً على الأرض وكتب أيضاً ليكن ملعوناً الإبن الذى لا يطيع أباه وأمه ولذلك أمر «الله» أن يرحم مثل هذا الإبن العاق أمام باب المدينة ليشهد عذابه الشعب فيكون عبرة لغيره فكيف تأمرنا أن نبغض آبائنا وأمهاتنا؟

قال «المسيح» وقد لا حظ نبذة الإنكار فى كلام «سمعان»

«كل كلمة من كلماتى صادقة لأننى أتكلم باسم «الله» الذى أرسلنى إليكم ولا تتعارض مع شريعته التى أوامها «لموسى». فانظروا إلى ما أقول لكم إن كل ما عندكم ليس إلا نعمة تفضل بها «الله» عليكم فأى الإثنين أعظم قدراً المنعم أم النعمة؟ المعطى أم العطية؟

فعندما يكون أبوك أو أمك أو أمرك أو أبنتك أو أبنتك أو أى شىء فى الدنيا عثرة لك فى عبادة «الله» فواجب عليك أن تنتظر إليه كعدو وأن تنبذه وتذكروا «إبراهيم» خليل الله» كيف هجر أباه وبلدته التى نشأ فيها وظل طوال عمره فى هجرة دائمة ثم تذكروا كيف قدم ابنه البكر الذى كان حينذاك وحيداً قربانا «الله» وأجرى السكين على عنقه بيده لولا أن السكين بأرادة الله لم تذبح، (١٧٥)

لقد ضرب «إبراهيم» للإنسانية كلها المثل الذى يجب أن يحتذى فى حب «الله» حبا خالصاً وكذلك ابنه الذى قدم نفسه عن طيب خاطر قربانا خالصاً لله وهو الذى لم يكن حينذاك إلا شاباً صغيراً ينظر إلى الحياة بأمل .

قال أحدهم: «يا معلم قلت أن «الله» وعد «إبراهيم» بأن يبارك الأرض كلها بنسله مكافأة له على أنه قدم ابنه قربانا ذبيحة «الله».

قال «المسيح» نعم هكذا وعد «الله» «إبراهيم» قائلاً «أنظر فأنى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض وكما حطمت يا «إبراهيم» الأصنام تحطيماً فإن ابنك المبارك سيفعل» .

قال التلميذ «يا معلم قل لنا بمن صنَّع هذا العهد ؟» .

فإن اليهود يقولون لقد صنع عهد «الله» «بإسحاق» والإسماعيليون (العرب) يقولون إنما صنع «بإسماعيل» فقل لنا أنت يا معلم بمن صنع عهد «الله» ؟ .

لقد أخبر «المسيح» فى «الهيكل» أن الإبن الذى قدمه «إبراهيم» قربانا ذبيحة «لله» هو «إسماعيل» ومن ثم فإن الوعد الالهي «لإبراهيم» لا بد أن يكون «بإسماعيل» لا «بإسحق» .

ومعنى السؤال أنهم لم يؤمنوا بما قال «المسيح» لقد ظلوا يتلقون من «الكهنة والكتبة» تعليما يقول أن بركة «إبراهيم» قد انتقلت إلى ابنه «إسحق» وحده ومن ثم فإن «الأنبياء» جميعهم ينبغى أن يخرجوا من نسل «إسحق» أو بالآخرى من نسل «يعقوب ابن إسحق» لأن «عيسو» الإبن الآخر قد حرم من بركته .

إن التلاميذ باعتبارهم من ذرية «يعقوب» الذى هو «إسرائيل» لا يتصورون أن يكون هناك نبي ليس من سلالة «يعقوب» السلالة الوحيدة التي يمكنها أن تنتج الأنبياء وقد ظلوا يتلقون تعليما يقول أن «مسيح الله» المنتظر ينبغى أن يكون من نسل «داود» الذى هو من ذرية «يهوذا» ابن «يعقوب» . إن النبي المنتظر ينبغى أن يكون من نسل «داود» .

فكان كلام «المسيح» عن عهد «الله» مع «إبراهيم» يمثل صدمة كبيرة لهم إذ يتعارض مع ما ظلوا يعتقدونه وتصديقهم بكلام «المسيح» يعنى أن يشكوا فى نص الكتب التى بين أيديهم وأن يرتابوا فى صدق التعليم الذى ظلوا يستمعون اليه . كان كلام «المسيح» يلقى معارضة شديدة من الجميع لأنه يعنى تحطيم «أسطورة» الشعب المختار إلى الأبد ويطلب منهم أن يشكوا فى صحة النصوص التى يقبلونها على أنها كلام «الله» المنزه عن الخطأ ويدعوهم إلى إعادة النظر فى كل ما كانوا يعتقدونه وهى مهمة عسيرة أدرك «المسيح» وهو يسير معهم مقدار ما يعانونه من صعوبة فى فهم كلامه لأن الشك فيه لم يزل يسود قلوبهم .

فقال لهم «صدقوني لأننى أقول الحق لكم . إن العهد قد صُنِعَ «بإسماعيل» لا «بإسحاق» .

فقالوا معترضين «يا معلم إن العهد كان «لإسحق» هذا هو المكتوب فى كتاب «موسى» . وهذا ما يقوله كل « الكهنة والأخبار والكتب» (١٧٦).

فأجاب «المسيح» متأوها «آه. نعم هذا هو المكتوب وهذا هو ما يقولون . ولكن هذا لم يكتبه «موسى» ولا «عيسى» ولم يقله واحد من الأنبياء بل كتبه «أخبارنا» الذين لا يتقون «الله» ويقول به الكهنة والكتب الذين لا يعلمون .

وانتبه الجمع الصغير إلى ما يقوله «المعلم» . فواصل كلامه «انظروا الآن إلى المكتوب ثم تدبروه.

كتبوا يقولون أن «الله» قال «لإبراهيم» خذ أبنك وحيدك وأصعد الجبل لتقدمه ذبيحة . أليس هذا هو المكتوب» (١٧٧) .

قالوا بلى.

قال . «لكنهم قالوا إن «إسماعيل» قد ولد قبل «إسحق» «أليس هذا صحيحاً».

قالوا «بلى . قيل إن اسماعيل كان يبلغ أربع عشرة عندما ولد اسحق» .

قال «المسيح» إذن فكيف يكون «إسحق» هو الذبيح ولم يكن هو البكر . فأدرك «التلاميذ» أن ثمة خطأ لابد أن يكون قد وقع فى النص الذى كانوا يمرون عليه وهم غافلون . وأخذوا يتعجبون كيف لم ينتبهوا إلى هذا التناقض البين فمن المستحيل أن يكون «اسحق» هو الوحيد فى أى وقت من الأوقات . فكيف يكون هو الذبيح . لقد كانوا على خطأ . لكن هذا الإدراك يعنى أن يعيدوا النظر فى كل شئ ونبتت لديهم الرغبة فى التعلم ومعرفة الحق . فأخذوا يسألون «المسيح» وهم يسرون معه عن «إبراهيم» وقصته . وراح

يقص عليهم وهم مأخوذون «ببيانه» لكن الشك فى صدقه كان يفسد عليهم متعة الحديث . من أين أتى بهذه القصة وليست مكتوبة فى أسفار «موسى» . وما هو الدليل على صحة ما يقول ؟ هل هو نبي صادق من «الله» أم أنه ساحر قد يركما قال «الكهنة» ؟! أو أن الشيطان على ظهره يتلو عليه ما يخبرنا به . كانت هذه الأسئلة تدور فى قلوبهم وتحول بينهم وبين تصديق ما يقول مما ليس له أثر فى الأسفار التى يعلمونها أو يعارض المكتوب فيها أو يخالف ما كانوا يفهمونه من نصوص الأسفار التى كانوا يستمعون إليها فى المواعظ أو يستنسخونها فى الأوراق .

لقد أزال حديثه وحشه الطريق . وخفف من كآبة قلوبهم وهم يشعرون أنهم يساقون إلى المجهول . لكنه ملاهم بالاضطراب إذ أجبرهم على أن يطرحوا من قلوبهم وأذهانهم كل ما كانوا يتوهمون أنها حقائق لا يرقى إليها الشك وأن عليهم أن يعيدوا بناء حياتهم على أساس جديد لا يعرفون ما هو ولا يعرفون كيف ويم يبدأون ؟!

وفوجئوا أنهم فى السامرة عند قرية صغيرة يقال لها « سوخار » (١٧٨) بجوار بئر عتيقة يقال أن نبي «الله» «يعقوب» كان قد حفرها عندما كان يسكن فى هذه البلدة قبل أن يرحل إلى مصر مع أبنائه عندما دعاه ابنه «يوسف» لما مكن «الله» له فى «مصر» وجعله الحاكم الفعلى عليها .

كان التعب قد أخذ منهم كل مأخذ وشعروا بالجوع الشديد يعرض بطونهم ويحول بينهم وبين مواصلة السير حتى «المسيح» نفسه بدا عليه الإرهاق من كثرة السير وشدة الجوع . فطلب منهم أن يستريحوا وجلس هو بجوار البئر مستندا إلى صخرة كبيرة واستقلوا هم على الأرض وقد شعروا بأن أجسادهم تفككت أوصالها . لكن الجوع كان يحول بينهم وبين النوم . وبعد قليل من الراحة طلب «المسيح» من بعضهم أن يذهبوا إلى السوق فى داخل القرية ليحضروا طعاما .

ولم يكن هناك بد من شراء الطعام من هذه القرية السامرية . فذهب بعضهم وانتظر الباقون مع «المسيح» وقد استرخوا على الأرض فى تعب . كانوا يتساءلون كيف يقبل «المعلم» وهو يهودى أبوه «يوسف النجار» من «بيت لحم» كيف يقبل أن يجلس فى قرية «سامرية» وأن يشتري منها طعاما . ولماذا يختارها دون غيرها لأن نستريح فيها .

كانت هذه الأسئلة تتردد فى قلوبهم ولكن الأرهاق الشديد والجوع المؤلم لم يكونا حتى ليسمحا لهم بالإعتراض والإستفسار فجلسوا والتعب يدعوهم إلى النعاس لكن الجوع يحول بين أعينهم وبين الاستغراق فى النوم فظلت رؤوسهم تهتز وأعينهم تغفو وتصحو متى جاءت امرأة تقترب من البئر الذى كان «المعلم» يجلس بجواره فانتبهوا ونهضوا ليجلسوا .

كانت المرأة طويلة ممشوقة القوام تحمل جرة الماء فى رشاقة وتمشى فى إختيال وقد كشف الهواء الذى يعبث بردائها عن زينة الأنثى التى يتحلى بها جسدها الممتلئ .

لاحظ «المسيح» أن الرجال الذين كانوا يرقدون على الأرض صرعى الإرهاق والجوع قد اعتدلوا فى جلستهم وأخذت عيونهم تمعن النظر فى مفاتن المرأة التى كانت تتقدم نحو البئر . أثار تعجبها هذا الجمع من الرجال الذين تبدو عليهم آثار السفر ولكن ليس معهم ما يدل على أنهم قد جاعوا إلى البئر من أجل أن يحصلوا على الماء أخذت تتمايل فى سيرها وهى تضرب الأرض لتزيد من فتنة العيون التى كانت تنظر إليها رغم ما كان يساورها من الخوف إذ غلب على ظنها أن هؤلاء الرجال هم بعض اليهود الذين فى طريقهم من «أورشليم» إلى «الجليل»! «ما الذى دفع بهم إلى الرقود هاهنا ولا يبدو عليهم أنهم متعجلين للرحيل ما الذى يدفع بعض اليهود إلى الراحة فى قرية سامرية وقد أفتى شيوخ اليهود منذ زمن طويل بمقاطعة أهل السامرة.»

كان « السامريون» يؤمنون فقط بأسفار «موسى» الخمسة ولا ينظرون إلى الأنبياء من بعده إلا على أنهم بعض ملوك اليهود العبرانيين ويؤمنون بنبى سوف يرسله «الله» ليبين

لهم كل شيء ويوضح الخلافات التي وقعت بينهم وبين اليهود هذا النبي المنتظر سوف يكون من سلالة «يوسف ابن يعقوب» . ويطلقون عليه «مسيّا» . إن «مسيّا» المنتظر سوف يبين خطأ اليهود العبرانيين بينما كان اليهود العبرانيون ينتظرون مخلصا نبيا ملكا من نسل «داود» من سبط «يهوذا» يرد الملك إليهم ويجعلهم سادة العالم وقد ظن كلاً من اليهود والسامريين أن مخلصهم المنتظر سوف يكون هو آخر نبي يرسله «الله» يحمل كلمة «الله» الأخيرة فهو نهاية النبوة وآخر الرسائل، نسب كلا من الفريقين ذلك الفضل لنفسه مدعياً أن آخر الأنبياء سوف يبعث فيه، كلا منهما يتوهم أنه يحمل كلمة «الله» الأخيرة (١٧٩) . وقد اتفق كلا منهما أيضاً على تسمية ذلك المخلص المنتظر بـ «مسيّا» .

لم يكن هذا الاعتقاد إلا ثمرة العداوة الشديدة التي نشبت بين اليهود والسامريين فأخذ كلا منهما يؤكد أن آخر الأنبياء سوف يكون منه . وأنه سوف يؤكد سلامة موقف الفريق الذي يخرج فيه وصحة اعتقاده ولاح على وجه «المسيح» الذي لم يضحك في الدنيا أبداً شبح ابتسامة خفية وهو ينظر إلى الرجال الذين كانوا مرهقين جائعين وقد دب النشاط في أجسادهم وبدأ على وجوههم الإنتباه لمجرد رؤية المرأة السامرية وهي تختال في مشيتها مقتربة من البئر وتعجب في سره من لطيف صنع «الله» الذي خبأ «سر الحياة» بين ذكر وأنثى وجعل اجتماعهما وسيلة للكشف عنه .

قال «المسيح» للمرأة التي ملأت جرتها «أعطيني لأشرب» (١٨٠) فأجابته في جفاء «ألا تخجل من نفسك كيف تطلب مني ماء لتشرب وأنت رجل عبراني وأنا امرأة سامرية» . فتألم «المسيح» لغلظة إجابة المرأة وتنهد «أه لو كنت تعلمين نعمة «الله» وتعرفين من الذي يطلب منك شربة ماء لو كنت تعرفين لطلبت منه أنت لتشربي» .

فاندهشت المرأة من كلامه وتسألت في سرها «من هذا «المخبول» ؟ ومن يظن نفسه !!» وأخذت تحديق النظر إلى وجهه فراعها وسامته ووقاره «كلا ليس هذا وجه

مجنون» ولكن من يكون ؟ وما معنى كلامه الغريب هذا ؟ قالت ولم تزل تحقق البصر فيه تحاول أن تستطلع أمره :

«ياسيد كيف تعطينى لأشرب كما تقول ولا إناء معك ولا حبل والبئر كما ترى عميقة».

قال «أيتها المرأة من شرب من هذا الماء» وأشار الى البئر «فإنه سرعان ما يعاوده العطش أما من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فإنه لايعطش أبداً بل إنه بعد أن يشرب يعطى العطاش ليشربوا فلا يظمنوا أبدا حتى يصلوا الى الحياة الأبدية فإننى أعطى ماء الحياة الذى لا يكون من بعده عطش».

أذهلت كلمات «المسيح» المرأة وجميع الرجال الذين صحبوه وأخذوا ينتبهون إلى الحديث قالت المرأة وهى تواصل تعجبها من حديثه الغريب «ألعلك تظن نفسك أعظم من أبينا «يعقوب» الذى حفر هذه البئر وشرب منها هو وأبناؤه ومواشيه حتى تركوها إلى مصر» .

فصمت «المسيح» ولم يجب ولكنه تهلل لأن المرأة تذكرت «نبي الله» «يعقوب» ثم قال «الماء الذى أعطيه أنا يصير فى مَنْ شربه ينبوع حياة يصله بالحياة الأبدية فلا يعطش أبدا».

فقالت المرأة «إذاً أعطنى ياسيد من مائك هذا الذى تقول حتى لا أعطش أبدا ولا أضطر إلى المجئ إلى هذه البئر لأستقى».

فأجابها «المسيح» «إذهبنى إلى بيتك وانتنى بزوجك وأنا أعطيكما سويا لتشربا».

قالت المرأة «أيها الغريب ليس لى زوج»

فتهلل «المسيح» لأنها تحدثت بالصدق وكان يمكنها أن تكذب قال لها «حسنا قلت أن ليس لك زوج لأن الذى معك الآن فى البيت ليس زوجك قد أوجبت بالحق وقد كان لك من قبل خمسة أزواج».

فاضطربت المرأة وأشرق وجهها بجمرة الخجل وأطرقت الأرض ثم رفعت عينها تمنع النظر في وجه «المسيح» وقالت «ياسيد أرى أنك نبي» فتهلل وجه «المسيح» وأندفعت المرأة تقول «إذاً أخبرني بالحق إن كنت نبيا أبأؤنا سجدوا في هذا الجبل وشيوخنا يقولون إن السجود يجب أن يكون على جبال السامرة حيث عاش «يعقوب» أبو الأسباط جميعهم أما أنتم أيها اليهود فإنكم تقولون إن السجود ينبغي أن يكون في «أورشليم» حيث «الهيكل» الذي بناه «سليمان» ملك اليهود تقولون على جبل «صهيون» يكون السجود لأنه هناك أخذ عهد «الله» فأخبرني ياسيد إن كنت نبيا أين يكون السجود «الله» ومن هم الساجدون الحقيقيون الصادقون عند «الله» ؟

فقال «المسيح» «لك الويل يا «أورشليم» ويا بلاد اليهودية تفخرين قائلة «هيكل الرب» «هيكل الرب عندنا» ولكنك تعيشين منغمسة في عرض الدنيا وتغرقين في الخطايا وكأنه لا إله لك سوف يحاسبك حساباً عسيراً .

ووجه كلامه إلى من يزمعون أن يكونوا تلاميذه «الحق أقول لكم إن هذه المرأة السامرية سوف تبعث يوم الدين لتشهد على الذين يتفاخرون بالباطل فيحكم عليهم بالجهيم» وتعجبوا كيف يمكن لهذه المرأة الخاطئة أن تكون شهادتها مقبولة عند «الله» فواصل كلامه «لأن هذه المرأة لم تزل تطلب كيف تجد طريقاً إلى «الله» لم تزل تريد أن تعرف كيف تسجد وماهو السجود الصادق عند «الله» .

ثم التفت إليها قائلاً «إنكم معشر السامريين قد صرتم تسجدون لما لاتعلمون لأنكم تكفرون بأنبياء «الله» الصادقين الذين أرسلهم «الله» من بعد «موسى» أما نحن اليهود فإننا نسجد لما نعلم لأن معرفة «الله» لم تزل مع اليهود والخلص لم يزل مع اليهود ولكن صدقيني يا امرأة أنه تأتى ساعة لا يكون فيها السجود في هذا الجبل ولا في «أورشليم» لأن «الله» يعطى عهده في مدينة أخرى وتكون رحمته في شعب آخر ولن يكون الخلاص حينئذ مع اليهود حينئذ يكون السجود «الله» في كل مكان ويقبل «الله» الصلاة الصادقة

فى كل أرض لأن الأرض جميعا سوف تكون مسجدا ، حينئذ يكون الساجدون الحقيقيون ولا بد أن يكونوا لأن «الله» يريد هؤلاء الساجدين له بالحق. إن «الله» ظاهر وباطن حق وحقيقة وينبغي أن يكون السجود له بالظاهر بالباطن بالجسد والقلب لأن السجود الحقيقى هو سجود «الروح» لخالقه».

آمنت المرأة أن «عيسى» نبي صادق وأرادت أن تعرف من هو فقالت «إننا ننتظر مسيّا» ومتى جاء فإنه يعلمنا ويخبرنا بكل شئ».

ويعلم «عيسى» أنها كواحدة من السامريين تظن أن «مسيّا» ذاك هو آخر الأنبياء الذي يحمل كلمة «الله» الأخيرة وتظن أنه من نسل «يوسف» فقال لها «أتؤمنين أن مسيا» لابد أن يأتى» ؟.

فقالت المرأة فى ثقة «نعم ياسيدى».

فتهلل وجه «المسيح» وقال لها «يلوح لى أيتها المرأة أنك مؤمنة» ؟ قالت المرأة «ألعك هو ياسيدى».

قال لها «لست الذى تقصدين».

«ولكننى نبي مرسل من «الله» إلى بنى اسرائيل وإسمى «المسيح عيسى بن مريم» وسيأتى بعدى رسول آخر هو آخر الأنبياء يرسله «الله» الى جميع الامم وهو الذى تقولون عنه «مسيّا».

«ورمز اليهود إلى اسمه بـ «إيليا» هو الذى يكون فى زمنه السجود «له» بالحق فى كل مكان حيث تُنال رحمة «الله» فى كل موضع وأتباعه الصادقون هم الساجدون الحقيقيون الذين سألت عنهم».

فتركت المرأة جرتها وأسهرت تهرولا الى قريتها بينما كان «التلاميذ» الذين ذهبوا لإحضار الطعام من السوق قد حضروا ورأوا المرأة السامرية وهى تعدو وتسألوها ما بالها

تهرول تاركة جرتها، لم يفصحوا عما دار في قلوبهم من شكوك وتقدموا نحو «المسيح» وقال واحد منهم «هيا ياعلم لتأكل» جلسوا على الأرض مع زملائهم ليتناولوا الطعام، قال «المسيح» وقد زال عنه الجوع ولم يشعر برغبة في طعامهم «كلوا أنتم لأحاجة بي الى طعامكم فإن لي طعام آخر»

فتعجبوا من كلامه وأحتاروا، أرسلهم ليحضروا طعاما لأنه جائع وهم أيضا جائعون وبعد أن أتوا بالطعام هاهو يقول لأحاجة بي إلى طعامكم فماذا يقصد بالطعام الآخر هل أتى له أحد بطعام قبل أن نصل أم أن المرأة التي رأيناها تهرول قد وعدته بطعام وهمسوا بهذه الأسئلة الى من كانوا معه فأجابوهم أن لا أحد قد أحضر طعاما بالفعل لم يتناول أى طعام إنه لم يتحدث إلا مع المرأة التي قد أسرعت دون أن تعد بشئ بل إنها كانت متعجلة إلى الحد الذي جعلها تنسى جرتها التي كانت قد ملأها توء من البئر زادت حيرتهم وشكوكهم في هذا «المعلم» الغريب ولكن الجوع الذي كان يلدغ بطونهم لم يدعهم يطيلون التفكير في الأمر أكثر من هذا فاندفعوا جميعا يأكلون و«المسيح» ينظر إليهم في هدوء حتى فرغوا من الطعام ثم فاجأهم بالسؤال «ماهو الطعام» ؟ فرفعوا إليه عيوننا شاخصة وأفندتهم عاجزة عن الأجابة على هذا السؤال البسيط الغريب.

أجاب على سؤاله قائلا «الطعام هو ما يحفظ عليك حياتك هو الشئ الذي يبقيك حيا».

«فما هو الطعام الحقيقي» ؟

«إن الخبز وكل ماتناولتموه الآن هو طعام الجسد الذي سيفنى بالموت ويصير ترابا

كما. كان لا يبقى إلا «الروح» فما هو طعام الروح» ؟

ياله من سؤال غريب.

قال : «إن الملائكة الأطهار لا يأكلون ولاشك أنهم أحياء، إنهم الأرواح الطاهرة فما هو

طعامهم الذي يبقيه أحياء ؟»

«إن «موسى» بقى فى الجبل «بسيناء» أربعين يوم وليلة لا يأكل وقد ظل حيا ومكنت أنا فى جبل «الزيتون» أربعين يوم وليلة وبقيت حيا .

«وكذلك كل الأنبياء فما الذى يبقينا أحياء طوال هذه المدة» رغم أننا لانتناول أثناءها أى طعام أو شراب ؟.

«إن الطعام الحقيقى هو طاعة «الله» انفاذ إرادة «الله» هو طعام «القلب» الذى يبقيه حيا . إنها الطعام الآخر الذى تناولته فزال عنى جوع الجسد ولم يعد لى رغبة فى طعامكم فأنظروا الآن إلى الحقول من حولكم وقولوا لى متى يكون الحصاد ؟»

رفع الرجال عيونهم وحدقوا فى الحقول فأدركوا أن الوقت مبكر جداً ليس هذا أوان الحصاد فقالوا «بعد أربعة أشهر».

كان «المسيح» يريد أن يعلمهم كيف يتلقون تعليمه وينظرون إلى كلماته فقال «أما أنا فأقول لكم أرفعوا أعينكم الآن لتروا أن الحقول قد أبيضت بالحصاد وأنه اليوم يكون حصاد كبير».

فرفعوا أعينهم فلم يروا لاحصاداً ولا بياضاً وأطبق عليهم الوجوم وأطرقوا الى الأرض عاجزين عن الفهم كان يجب على الأقل أن يسألوا بعد كل هذا الشرح عن الطعام «أى حصاد تقصد أو عن أى حصاد تتكلم» ولكن كانت قلوبهم ثقيلة وأذهانهم بليدة فأحтарوا ولم يسألوا .

قال «المسيح» «أنظروا الآن كيف أن الجبال قد أبيضت بالحصاد. هذا هو الحصاد العظيم قد أقبل علينا» وأشار إلى جمع كبير من الرجال والنساء قد أقبلوا نحوه لأن المرأة التى جاءت لتملاً جرتها من البئر أخذت تعدو فى القرية وهى تقول «هيا لتنظروا النبى الجديد الذى أرسله «الله» إلينا» أيها الناس تعالوا إلى البئر لتروا نبياً أرسله «الله» إلينا» فأخذ الناس يخرجون من بيوتهم على صياحها ويسألونها فأخبرتهم بما حدث بينها وبين

«المسيح» فخرجوا ليتحققوا مما قالت فوجدوا «المسيح» يجلس بجوار البئر مع جمع من أصحابه فتضرعوا إلى «المسيح» أن يمكث عندهم ليعلمهم كلام «الله» فقبل أن يمكث عندهم يومين ودخل مع أصحابه إلى القرية وسط ترحيب الناس.

كان «عيسى» يدعو الناس للتطهر ثم يجلس معهم على الأرض يحدثهم عن «الملوكوت» الذى جاء إلى الدنيا ليبشر به ويسألونه عما يصعب عليهم فهمه من نصوص «التوراة» التى معهم وقدموا إليه الكثير من المرضى فشفاهم جميعا ثم دعا الناس إلى مزاوله معيشتهم كما اعتادوا مع مراقبة عين «الله» التى تشهد كل مايفعلونه ولا تغفل عن شئ. كان يبقى مع الذين أختاروا صحبتهم بين الحقول يتمشى موجهاً أنظارهم إلى آيات «الله» فى الأرض ومجيباً عن استفساراتهم الكثيرة التى كانت تفصح عما يعانونه إزائه من شكوك وحيرة. ياكل مع أصحابه مما يقدمه إليه أهل القرية هدية وفى الليل يسهر فى الصلاة وفى تعليم أصحابه الذين قبلوا ملازمته .

قالوا له «يامعلم إن «مسيا» الذى ينتظره اليهود يجب أن يكون من نسل «داود» !!

قال لهم «لاتغشوا أنفسكم»

«ألم تقرأوا فى «المزامير» قول «داود» قال الرب لربى إجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك يرسل الرب قضيبك الذى سيكون ذا سلطان فى وسط أعدائك(١٨١)

قالوا «بلى»

قال : «داود» يخبر فى هذا المزمور أن «الله» قال لمن وصفه بأنه «ربه» أى «سيده» أمراً أياه بالجلوس على يمينه حتى ينصره على أعدائه. «قاله» يطلب من «سيد» «داود» أن يطيعه وهذا هو معنى الجلوس على اليمين يعنى على جانب الطاعة لكى يمكنه من التغلب على أعدائه .

فمن هو «سيد» «داود» هذا الذى وصفه «داود» بأنه «ربه» ؟! فصمتوا ولم يجيبوا

فقال : إنه «رسول الله» الذى يرسله «الله» إلى الناس جميعا (١٨٢) فكيف يكون إبننا «لداود» و«داود» نفسه يدعوه فى «المزمور» ربه أليكون الابن سيد أبيه ؟ لا أنا ولا رسول «الله» الذى يأتى من بعدى إبنان «لداود».

وتركهم «المسيح». ابتعد قليلا عنهم ثم دخل فى الصلاة فظلوا ينظرون إليه وهو قائم واضعا يديه على صدره ثم رافعا يديه الى السماء ثم راکعا وساجدا. كانوا لا يسمعون ما يقول لأنه كان يهمس ولا يرفع صوته ولا يستطيعون رؤيته إلا فى صعوبة لأن القمر كان هلالاً صغيراً يبت نوراً واهنا إلى أبصارهم الكليلة والنجوم البعيدة لا تضيء لهم المكان لكن كان فى وسعهم أن يحسوا بحركات جسده وهو يركع ويسجد وإن أرهفوا السمع كانوا يلتقطون صوت همهمات غامضة تزيد من حيرتهم واضطرابهم. فى كل مرة يسألونه يأتىهم بجواب يزيد من غموضه فيشعرون أن الهوة العميقة التى تفصلهم عنه تزداد إتساعا بكلامه بدلا من أن يقترب منهم ولا يعرفون إلى أين يندفع بهم السير مع هذا الغريب الذى يزداد غموضه.

أقرب «المسيح» منهم وكان فى وسعهم أن يروا فى ظلمة الليل أن وجهه يتلأ لا كانه يبتسم قال لهم «إن هذه ليلة مباركة فلا أحب أن ننام فيها بل ينبغى أن نصلى ولذلك أطلب منكم أن تسجدوا «له» مائة سجدة قائلين فى كل مرة «أقرأئك يا آلهنا الرحيم القدير واحد»

ليس لك بداية ولا يكون لك نهاية.

برحمتك أعطيت كل شىء بدايته .

وبقدرتك وضعت لكل شىء نهاية .

لا شىء يشبهك لأنك الدائم الذى لا يعتره التغير .

أرحمنا يا ربنا لأنك خلقتنا فنحن عمل يدك» (١٨٣) .

وتركهم «المسيح» ليعود إلى صلاته وقاموا ليسجدوا كما أمرهم لكنهم سرعان ما أصابهم الملل بعد سجدة أو سجدتين وأخذ كل واحد منهم يفكر في مصيره غداً عندما يرحلون من هذه القرية فإلى أين يذهبون وإن ذهبوا معه إلى «الناصر» فماذا سوف يعملون وكيف يكتسبون عيشهم. هل سترك الواحد منهم مركبه الذي يصطاد فيه السمك أو وظيفته أو أرضه ؟ أخذوا يتلفتون هل يراهم «المسيح» أم أنه عنهم غافل ثم حسمو أمرهم بعد تردد وخرجوا من السجود يتحدثون مع بعضهم عن المصير الغامض الذي ينتظرهم مع هذا الرجل الساجد هناك وحده لا يعبأ بهم. فلما كان الليل يوشك على الرحيل أقبل عليهم «المسيح» وقال لهم وصوته يفصح عن فرح عميق «الحمد لله الذي وهبنا في هذه الليلة المباركة رحمة عظيمة فرفع عنا بالصلاة ضرراً كان يوشك أن يقع علينا. ومنحني أن أصلى مع «رسوله» وقد سمعت صوته وهو يناجى ربه «

فانتبه التلاميذ وأستيقظت حواسهم وأفندتهم قال واحد منهم «يا معلم علمنا شيئاً في هذه الليلة المباركة» (١٨٤) .

قال «المسيح» «هل رأيتم رجلاً رشيداً يمزج البراز بالمرهم الذى يداوى به جروحه والدواء الذى يتناوله؟» .

أفزعهم السؤال فقالوا فى لهجة «تشى» بإعتراضهم على هذا الإستخفاف بعقولهم لا يا سيدى بل لا يوجد مجنون يفعل هذا»

فقال «وأنا أقول لكم أنه يوجد أناس أشد جنونا من ذلك لأنهم يمزجون عبادة «الله» بمشاغل الدنيا فتراهم متى دخلوا فى الصلاة راحوا ينشغلون بأمور معيشتهم غافلين عن صلاتهم «الله» فصاروا حينئذ مموقتين من «الله» ولكن الشيطان قد خدعهم فتوهموا أنهم قد أقاموا الصلاة فيعيشون بلا لوم لأنفسهم يظنون أنهم يستحقون رحمة «الله» ولم يظفروا إلا بنقمته .

وأحاط بهم الفزع لكلامه ولأن صوته قدعلا يفصح عن الغضب قال «قولوا لى إذا أردتم أن تصلوا ألا تتطهرون. أولاً ثم تحذرون أن يمسمكم شىء نجس ؟»

قالوا : « نعم بكل تأكيد »

قال : «ولكن ماهى الصلاة ؟ »

«إن الصلاة هى أن نغتسل من خطايانا برحمة الله».

«لكن إذا إنشغلتم عن «صلاة الله» بأمور معيشتكم وأخذتم تتحدثون مع بعضكم فى أمور دنياكم فإن كل كلمة من هذا الحديث الباطل تصير برازاً للشيطان يضعه على نفس المتكلم بالباطل فيزداد بصلاته الباطلة إثماً على إثمه ويزداد قذارة بدلاً من أن تطهره «صلاة الله» فأحذروا أن تفعلوا ذلك».

وأرتجف التلاميذ من الرعب لأن صوته قد احتد وقالوا فى مسكنة «يا معلم وماذا نفعل إذا جاء صديق ليكلمنا ونحن نصلى» .

قال «دعوه ينتظر حتى تكملوا صلاتكم» قال واحد منهم «ولكن إذا حدث هذا فإنه يغتاز منا وينصرف غاضباً» .

قال «المسيح» إنه إذا اغتاز وأنصرف غاضباً فصدقونى إنه لا يعد صديقاً بل عدواً لدوداً ولا يكون مؤمناً بل كافراً ولياً للشيطان. قولوا لى إذا ذهب واحد منكم ليكلم صديقه الذى يعمل باسطيل «هيروودس» رئيس «الجليل» فوجده منحنيا يهمس فى أذن «هيروودس» الذى يرهف إليه السمع وقد لاح على وجهه السرور بكلام غلامه الذى يعمل فى الاسطيل فإن كان هذا الغلام صديقاً محبوباً حقاً فهل يغتاز الواحد منكم لأنه رآه يتكلم مع «هيروودس» هامساً فى أذنه و «هيروودس» به سرور ؟ .

كلا إن الصديق يفرح لأن صديقه قد أرتفع الى تلك المنزلة أما إذا إغتاز وأنصرف غاضباً فهو عدو حسود وليس بصديق أليس هذا بصحيح ؟ !

قالوا «بلى بل هو الحق بعينه»

قال «الحق أقول لكم إن من يصلى فهو إنما يكلم «الله» و«الله» يقبل عليه بوجهه وهو به مسرور أفيصح أن تتركوا التكلم مع «الله» وتغضبوه وقد أقبل عليكم لتتكلموا مع الناس؟ .

«هل يحق للصديق المحب أن يفتاظ لأنكم تحترمون «الله» أكثر منه أيعد هذا صديقاً؟ كلا بل هو عدو وجندى شديد من جنود إبليس لأن إبليس لا يطلب شيئاً أكثر من أن يترك الناس عبادة «الله» لينشغلوا بأنفسهم لا يريد أكثر من أن لا يحترم «الله» .

لعمر «الله» الذى تقف نفسي فى حضرتة إنه يجب على كل إنسان يتقى «الله» أن ينفصل عن الدنيا كلها حينما يشرع فى عمل من أعمال العبادة التى يقبل «الله» عليه فيها حتى لا يفسد العمل الصالح .

ثم سأل «إذا أراد واحد أن يتكلم بالسق أو يفعل سوءاً فذهب إليه آخر ليمنعه فبماذا نصف صنيع هذا الآخر» (١٨٥)

قالوا «إنه يعمل صالحاً»

قال «المسيح» «نعم لأنه بهذا يطيع «الله» الذى يحب أن يمنع الشر كما تطرد الشمس الظلام»

«فإذا أراد واحد أن يفعل صالحاً أو يتكلم صالحاً فذهب إليه آخر ليمنعه فبماذا نصف هذا الآخر؟

قالوا «إنه يصنع شراً»

قال «لأنه يخدم الشيطان الذى لا يريد سوى أن يمنع طاعة «الله»

«فماذا أقول لكم؟

«أقول لكم ما قاله «سليمان» نبي «الله» من كل ألف تعرفونهم لا تستطيعون أن تظفروا إلا بصديق واحد» .

قال واحد منهم «إذن لا نستطيع أن نحب أحداً ؟ قال «المسيح» «الحق أقول لكم بل يجب ألا تكرهوا شيئاً إلا الخطيئة حتى الشيطان لا يجوز لنا في الحقيقة أن نبغضه بإعتباره أحد مخلوقات «الله» وصنعة يده التي أتقنت كل شيء فمن يكره الصنعة فإنما يكره «الصانع» ومن يبغض المخلوقات فإنما يبغض الخالق ولكن ينبغى أن نبغض الشيطان بإعتباره عدواً «لله» يتمرد على شريعته فالمعصية هي الشيء الوحيد الذي ينبغى لنا أن نكرهه لأنه موضع كراهية «الله»، إن «الله» لا يكره إلا أن يُعصى فلا ينبغى أن نكره أحداً من خلق «الله» ولكن الصديق شيء خاص فينبغى لنا أن نعرف أولاً من هو الصديق ما المقصود بكلمة الصديق ؟ الصديق هو طبيب النفس هو الإنسان الذي تلجأ إليه عندما تكون في حاجة إلى من يرشدك، من يخفف عنك حزنك من يدلك على الطريق الذي ينقذك من ورطة وقعت فيها من يقلبك من عثرتك هذا هو الصديق وكما أنه يندر بين أطباء الجسد أن يوجد طبيب ماهر يعرف المرض على نحو دقيق ويحدد موضع الداء ثم يصف الدواء المضبوط فكذلك لا يوجد بين الجم الغفير من الناس الذين يطلق عليهم لفظ «الأصدقاء» إلا القليل بل أقل من القليل ممن يستحقون إسم «الصديق»، فلا يكاد يوجد بين الناس من يعرف أمراض النفس ويستطيع أن يحدد موضع الداء وأن يصف بدقة الطبيب الماهر «الدواء» بل يوجد دائماً من يغضون الطرف عن «خطايا» أصدقائهم ويقولون عنها أنها مجرد «هفوات صغيرة» بل يوجد من يعذرون أصدقائهم ويقدمون لهم التبريرات بل يوجد من يدافعون عن أصدقائهم بالباطل ويوجد أصدقاء أكثر شراً من كل ماتقدم وهم الذين يحثون أصدقائهم على الخطايا ويعاونونهم على ارتكابها وستكون آخرتهم أكثر سوءاً نظير لؤمهم.

فاحذروا أن تتخذوا مثل هؤلاء أصدقاء لأنهم هم الأعداء الذين يقتلون النفس حقاً

لأنهم يساعدونها على أن تبتعد عن رحمة «الله» وهذا هو الموت الحقيقي. إنه الخروج من رحمة «الله» .

إن الصديق شيء نادر حقاً يصعب دائماً الظفر به ويسهل على الدوام فقده لأن الإنسان بكبريائه لا يسمح لأحد بالاعتراض علي ما يحبه .

فكيف تختارون أصدقاءكم ؟

أحذروا أن تختاروا من لا يحبون ما تحبون أصدقاء لكم. إذن يجب أن تعرفوا أولاً ما الذي تحبونه حتى تختاروا أصدقاءكم ولكن إذا كان الإنسان لا يعرف كيف يحب نفسه لأنه غالباً يحب ما فيه هلاكه ويكره ما فيه حياته فكيف يمكن أن يحب غيره؟

يجب على الإنسان أن يعرف أولاً كيف يحب نفسه حتى يستطيع أن يظفر بصديق حقيقي ولا يستطيع الإنسان أن يعرف كيف يحب نفسه إلا إذا عرف كيف يحب «الله» خالقه لأن «الله» هو الوحيد الذي يستحق الحب فمتى مضيت لاختار صديقاً فلا تنظر إلى نسبه العريق أو مكانة أسرته أو فخامة بيته أو حسن ثيابه أو جمال صورته أو حلاوة لسانه أو ضخامة ثرائه أو إرتفاع مكانته بين الناس لأنك إذا نظرت إلى شيء من هذه الأشياء فإنك سوف تخذع بسهولة فتختار عدواً لك يلقي بك إلى الجحيم ولكن انظر إلى تقواه ومدى زهده في متع الدنيا وإقباله على الأعمال الصالحة وانهماكه في العبادة وترويضه لجسده وتقبله للإصلاح كميل الإنسان للضحك عندما يكون سعيداً وأنه كما يقبل أن يترك كل شيء حبا في «الله» فإنه يرضى منك أن تتركه من أجل عبادة «الله» (١٨٦) فإن وجدت إنساناً على هذا النحو فقد ظفرت بصديق حقيقي ومن يظفر بصديق حقيقي واحد فقد وجد إحدى مسرات الفريوس فالحق أقول لكم إن «الصديق» الحقيقي هو مفتاح الجنة ومن لا صديق له فهو في الحقيقة فقير جداً ولكن احذر أن تحب صديقك الحقيقي هذا لذاته لأنك حينئذ تكون وثنيا عابد صنم لأن «الله» وحده هو الذي يستحق أن يحب لذاته بل تحب

صديقك باعتباره هبة من «الله» وهبها إياك، نعمة أنعم «الله» بها عليك فحينئذ يفيض «الله» عليه وعليك بمزيد من رحمته.

قال «تدايوس» ولكن يامعلم لايتفق لكل إنسان أن يجد صديقا ينطبق عليه ماقلت فماذا يجب علي الإنسان فعله مع أصدقائه هل يهجرهم ؟

قال «المسيح» ماذا يفعل النوتي (البحار) بالمركب الذى يسير به فى البحر ؟

إنه يصلحه ويسير به مادام يرى فيه نفعا وأنه قادر على حمله ولكن متى وجد ان لافائدة فيه وأن ركوبه فيه خطر إذ قد ينقلب به ويفرقه فحينئذ يجب عليه أن يتركه غير أسف عليه .

«كذلك يجب أن تفعل مع صديق لك شر منك أتركه فى الأشياء التى يكون لك فيها عثرة إذا كنت لاتحب أن تترك رحمة «الله» وصاحبه فى الأشياء التى يكون لك فيها عوناً على عبادة «الله» أو علي الأقل لايمنعك من عبادة «ربك» .

«ويل للناس من العثرات ولا بد أن تأتى العثرات لأن الدنيا قد أقيمت علي الخطيئة ولكن الويل للذى يكون سببا فى عثرات الآخرين خير للإنسان أن يعلق فى عنقه حجر الرحى أو أن يموت غريقا فى لجة البحر من أن يعثر أخاه» (١٨٧)

«إن كانت عينك عثرة لك فاقتلعها لأنه خير لك أن تدخل الجنة أعوراً من أن تلقى في الجحيم ولك عينان تبصران» (١٨٧)

«إن أعثرتك يدك فاقتلعها أو اعثرتك رجلك فابترها لأنه من الخير لك أن تدخل الملكوت اقطع أو أعرج من أن تطرد ملعوناً وأنت سليم اليدين ولك عينان ورجلان».

ففزع التلاميذ وقال «سمعان بن يونا» يامعلم كيف يمكننى أن أفعل هذا بنفسى . حقا إننى أصير مسخاً مشوهاً بعد زمن وجيز ؟. أجاب «المسيح» «إخلع الحكمة الجسدية التى تقف عند اللفظ تجد الحق توا . عينك هي من يعلمك ويدك هي من يساعدك فى عملك ورجلك

هي سعيك فمتى كان شئ من هذه الأشياء عثرة لك في الطريق إلى «الله» إذ يكون باعثاً لك على الخطيئة فانبذه فمن الخير لك أن تدخل رحمة «الله» وأنت جاهل فقير قليل الأعمال من أن تدخل الجحيم وأنت حكيم غنى كثير الأعمال» .

«إطرح عنك كل ما يمنعك عن عبادة «الله» كما يطرح السائر علي الطريق كل ما يعيق بصره»

كان الليل قد أدبر وأوشك الصبح أن يتنفس إذ بدت لهم كلماته أبعد من تلك النجوم التي رحلت وغابت عن أعينهم في نور الفجر الذي جاء وأدركوا أن ثمة «شئ» ما ينقصهم ويعجزهم نقصانه عن أن يلحقوا بكلماته التي تبتعد عن أذهانهم وتفر من قبضة قلوبهم فرار النور من اليد التي تحاول عبثاً أن تمسك به. قال «يحيى بن زبدى» (يوحنا أخو يعقوب).

«يا معلم علمنا ماهو «الإيمان»؟» (١٨٨)

فتهلل وجه «المسيح» في نهاية تلك الليلة المباركة لقد أدركوا أخيراً ما ينقصهم فقال مسروراً «قد حان الآن وقت الصلاة فهيا اغتسلوا ثم نصلى وبعد الصلاة أخبركم ماهو الإيمان» .

قال: «لما أتم «الله» خلق السماوات والأرض أحب أن يكشف عن نفسه لخلقه فأوحى إلى «رسوله» الكتاب الذي سجل فيه علمه ووهبه «الإيمان» الذي هو التصديق بكلمات «الله» التي تحمل علمه فأمن «الرسول» بما أنزل إليه من ربه ومن قلبه الذي امتلأ «بالإيمان» فاض على جميع خلق «الله» فمس «الإيمان» بعض القلوب فأبصرت لأن الإيمان هو النور الذي يرى به «الله» ولم يصل الإيمان إلى القلوب الأخرى فظلت في الظلمات لم تخرج إلى النور كما أن العميان لا يستطيعون أن يروا بنور الشمس التي تضيئ كل شئ على الأرض حتى أجسادهم لأن نورها لا يصل إلى أبصارهم.

«الإيمان» نور يمس القلب وبه نرى حقيقة الأشياء لأن «الله» هو حقيقة الأشياء وهى رؤية ثابتة لاتخطئ لأن أساسها هو كلمات «الله» التى لاتتغير أو تتبدل والإيمان واحد لأنه نبع من مصدر واحد هو قلب «الرسول» الذى فاض بما وهبه «الله» الواحد وهو بمثابة صبغة صبغ «الله» بها قلوب مختاريه فتهيأت لرؤيته واستعدت لمعرفته. هو هبة وهبها «الله» المختارين من عباده بواسطة النبى عبده القائم دوماً فى حضرته (١٨٩)

بالإيمان يرى الرسول ربه ومن رؤيته يرى المؤمنون ربهم فيكون ذلك الرسول هو «روح الله» الذى يُعرّف به «الله» فهو النور الذى يخرج به العباد من الظلمات والإيمان هو وسيلة الرؤية ولاسبيل إلي إرضاء «الله» بدون الإيمان ولذلك فإن غاية الشيطان هى أن يمحو الإيمان من القلوب فإن تمكن الشيطان أن يزيل الإيمان من القلوب مع المحافظة على الشعائر مثل الصلاة والزكاة والصوم فإنه لا يكف عن حث الناس على الإكثار من هذه العبادات مع محو الإيمان من قلوبهم لأنه عدو للإنسان يسره أن يعمل الإنسان ويتعب دون أن يحصل ثمرة لعمله لأنه بدون الإيمان لايقبل «الله» أى عمل مهما كثر لذلك كان أوجب الواجبات على العبد الذى يريد أن يكون مقبولا عند «الله» أن يحرص على حفظ الإيمان فى قلبه وأمن طريقة لذلك هى أن يترك الإنسان قوله «لماذا»

«لماذا» فعل «الله» كذا ولماذا قال «الله» كذا .

لأن لماذا هذه هى التى أخرجت «آدم» و «حواء» من الجنة وأخرجتنا معهم وهى التى حولت «ملكا» جميلا إلى شيطان رجيم لايستطاع وصف قبحه.

فقال «يحيى بن زيدى» (يوحنا) كيف يامعلم نترك لماذا وهى باب العلم ؟ قال «المسيح» المعلم «بل لماذا هى باب الجحيم» فالتزم «يحيى» والتلاميذ الصمت وهم صاغرون فقال «المسيح» «متى علم الإنسان أن «الله» قال كذا أو فعل كذا فبأى كبرياء باطلة يقول الإنسان لماذا قلت يا «الله» كذا ولماذا فعلت كذا.

هل يستطيع إناء أن يقول لصانعه لماذا صنعتنى ؟ ولماذا وضعت فى الماء بدلا من

الخمير. في كل إبتلاء ينبغي عليكم أن تقولوا لقد قال «الله» كذا وعلينا أن نطيع. لقد فعل «الله» كذا وعلينا أن نرضى. يريد «الله» كذا وعلينا أن نسعى لتحقيق مايريد فإن سرتهم على هذا النحو عشتهم في أمن وأطبق الصمت على الجميع.

وجاء أهل القرية إلى «المسيح» يرجونه أن يمكث معهم أكثر بعد أن أحسوا ببركته على قريتهم ولكنه أعتذر وودعهم بعد أن طلب منهم أن يحفظوا وصاياه وأن يعملوا بها ويبشروا وخرج من القرية يتبعه «التلاميذ» يواصل طريق العودة الى «الناصرية» .

(١٥)

«لاكرامة لنبي في وطنه»

«كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون»

«أتواصوا به بل هم قوم طاغون»

«الذاريات ٥٢-٥٣»

كان «التلاميذ» يسيرون مع «المسيح» صامتين يفكرون في كلماته الغريبة على قلوبهم وتعاليمه العسيرة على الفهم ويتسألون عن «رسول الله» الذي ظل يحدثهم عنه طوال الطريق كيف يمكنه أن يصلى معه كما يقول وهو لم يولد بعد وكيف يدعى أنه سمع صوته ليلة أمس وهو يقول أن زمن مجيئه لم يحن بعد وكيف يمكننا تصديق كل هذه القصص الغامضة ؟

قال «أندراوس بن يونا» «يا معلم لقد حدثتنا بأشياء كثيرة عن «رسول الله» الذي يقولون عنه «مسيّا» حتى اختلط الأمر علينا وأصابنا الإضطراب فإن أذنت فتكرم علينا بالتوضيح وقل لنا ما نستطيع فهمه» (١٩٠)

قال «المسيح» «كل مخلوق يعمل لأنه محتاج إلى العمل لأن في نفسه نقص يريد أن يمحوه بعمله فهو مفتقر إلى العمل ليستكمل به نفسه أما «الله» فإنه كامل ليس في نفسه نقص ولكنه أحب أن يكشف عن نفسه فخلق «رسوله» الذي كشف به عن نفسه إذ أفصح له عن علمه فهو إرادة «الله» في الظهور به تعرف الخلائق ربها وهذا هو معنى «روح القدس» (١٩١) وأعلموا أنه سوف يبعث رسولا إلى البشر جميعا وإذا كان كل نبي أرسله «الله» إلى أمة من الأمم فإن رسالته تكون منحصرة في الشعب الذي أرسل إليه فإن «رسول الله» الذي أحدثكم عنه سوف يبعثه «الله» نبيا بشراً مرسلأ إلى جميع الأمم يحمل

رسالة «الله» إلى البشرية كلها وستنتشر دعوته في جميع الشعوب يحمل النجاة والرحمة لكل من يقبل تعليمه مهما كان نسبه وسيكون حربا على المستكبرين ويبيد عبادة الأصنام من الأرض ويزيل سلطان «إبليس» عليها فيخزي الشيطان في زمن أمته فلا يعود له السلطان الذي كان له قبل نزول وحى ذلك النبي وتتبارك به جميع قبائل الأرض كما وعد «الله» خليله «إبراهيم» .

قال «أندراوس» «صفه لنا يامعلم».

أدرك «المسيح» «أنهم لا يزالون غير مؤمنين فقال:

«إن «الله» قد أعطاه كل الجمال فهو مزدان بالرحمة والمحبة والحكمة والبصيرة والقوة والعدل والعلم والمشورة والخشية والصبر والتقوى واللفظ ماذا أقول لكم»

لكن بدا على وجوههم الإنكار الذى يشى بعدم إيمانهم فامتلا قلب «المسيح» بالأسف هل يرضيهم أن يقال لهم أنه ممتلئ الجسد يميل إلى الطول أبيض اللون مشرق الوجه كأنه الشمس واسع العينين أسود الشعر يتدلى شعره حتى كتفيه عريض المنكبين إذا غضب أحمرت عيناه وعلا صوته كأنه نذير حرب وإذا ابتسم تلالأ وجهه لكنه لا يقهقه هل هذا هو مايودون سماعه ؟ أم أن الحماسة بلغت بهم حداً توهموا فيه أن «المسيح» سوف يقوم برسم صورته على الأرض أم أنهم لن يؤمنوا حتى يروه قائما أمامهم صبغ الأسف صوت «المسيح» وهو يقول لهم «صدقونى إنى رأيته كما رآه كل نبي لأن الأنبياء بمثابة وكلاء عنه لذلك فإن ظهوره للناس فى صورة رجل عربى يحيى على الأرض ليبلغ رسالة «الله» إلى جميع الأمم ذلك الظهور يغلق باب النبوة فلا معنى لعمل الوكيل عند حضور «السيد» صاحب الأمر إنه آخر الأنبياء الذين يرسلهم «الله» ولقد رأيته فامتلا قلبى بالعزاء عن كل مناسوف ألاقية من الناس ومن الشيطان فى هذه الدنيا من كفر وتشويه وعنت وقتل له ليتمجد «الله» وليجعلنى «أهلا لأن أحل سيور حذائك لأننى إذا ظفرت بهذا صرت نبيا عظيما فى الأنبياء» (١٩٢)

بدا لهم أن هذا التواضع مبالغ فيه ولا معنى له فاندفع «أندراوس» أيضا يقول

«يامعلم» إنك دعوت «الله» أن يجعلك أهلاً لتحل سيور حذائه» و«يحيى بن زكريا» قال
لستُ أهلاً لأن أحل سيور نعليه فما معنى كل هذا ؟

إن التواضع خلق غريب في بنى اسرائيل الشعب الذى يظن أن «الله» قد اختاره إلى
الأبد إختياراً لارجعة فيه حتى كأنه قد فُرض على «الله» فكيف يتواضع هذا «المعلم»
اليهودى ومن قبله الشيخ «يحيى بن زكريا» إلى هذا الحد لرجل عربى من سلالة ابن
الجارية «إسماعيل»

قال «المسيح»: «من تواضع لله رفعه فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرفعه
«الله» إذا علمت ماهى القدم عرفت المقصود من الحذاء وفهمت معنى حل السيور ألم
تقرأوا أو تسمعوا أن «الله» قال لعبده «موسى بن عمران» إخلع نعليك ؟ فما هما الحذاءان
وما هى القدم ؟ وصمتوا لقد قرأوا وسمعوا ولكنهم لم يسألوا أنفسهم ابدا هذه
الأسئلة الغريبة

قال «القدم هى نفس الإنسان التى تَقْدَمُ حضورها بين يدي «الله» نفس الإنسان التى
عند «الله» و التى سبقت ظهوره فى الجسد والحذاءان هما الوعاءان اللذان انسكب فيهما
«الروح» الذى حضرت به النفس من الغيب . «الجسد» و «القلب» ثوب الطين المأخوذ من
الأرض والثوب المأخوذ من السماء وهذا الثوبان هما الحجابان اللذان تستتر فيهما النفس
وينبغى على الإنسان أن يخلعهما إن أراد «الله» أن يكشف له عن «نفسه» لذلك طلب «الله»
من موسى وهو فى مقام الكشف له عن نفسه أن يخلع حذاءيه ومعنى قول « يحيى بن
زكريا » أن «الله» لم يمنحه أن يكون هو النبى الذى يكشف للناس عن نفس «رسوله»
«النبى» إلخاتم وهو الشرف الذى منحنى «الله» أياه إذ أرسلنى الى الناس لأبشر به ولذلك
دعوت «ربى» أن أنجح فى أداء هذه الأمانة التى ائتمنتنى «الله» عليها وهذا هو
معنى دعائى .

كان التلاميذ يقفون مشدوهين صامتين ينظرون إلى «المسيح» وهو يتحدث وقد

شخصت عيونهم ويدا على وجوههم الذهول بينما واصل «المسيح» حديثه قائلاً «الحق أقول لكم إن الشيطان يحاول دائماً إبطال كلام «الله» ولذلك فقد نجس هو وأتباعه من الأحبار والكتبة الذين لا يتقون «الله» نجسوا كلام «الله» بأكاذيبهم وأزالوا منه ما لا يوافق أهواءهم وكان ثمرة هذا أنكم قد تلقيتم تعليماً فاسداً ففسدت قلوبكم وأفئدتكم وقام الآخرون بإكمال عمل الشيطان فانغمسوا في معيشة الإسراف والخلاعة حتى أمسى الحق غريباً في الدنيا لا يكاد يعرفه أحد من الناس .

«ويل للمرأتين الذين يبحثون عن المجد الباطل لأن الثناء الذي يظفرون به في الدنيا سينقلب عليهم إلى لعنة أبدية» (١٩٣).

وتركهم «المسيح» وأبتعد قليلاً ليصلى.

أما «سمعان بن يونا» شقيق «أندراوس» فقد استبدت به الغيرة من أخيه الذي ظل يكلم «المسيح» ويسأله طوال كل هذا الوقت. امتلاً قلبه بالغضب منه فقال له فجأة «ياك من ثرثار منافق ظلمت تكلم «المعلم» بمفردك كأنك تريد أن تستأثر بكلامه لنفسك».

ورد عليه «أندراوس» أنا ثرثار منافق أيها الغبي إننى أسأل حتى أتعلم ولا أبقي غيباً جاهلاً مثلك»

- «أنا غبي أيها الثرثار اللص».

- «بل غبي ودعى لأنك تصمت صمت العليم بكل شيء مع أنك أحقق لاتدرى ما يدور حولك ولا تفقه شيئاً».

- «أنا غبي ودعى أيها اللص» وأندفع الشقيقان ليشتبكا في معركة بالأيدي كل واحد يريد أن يفتك بأخيه وتدخل الزملاء فحاولا بينهما وكان المسيح قد أنهى صلاته وتقدم نحوهم بوجه حزين ومال إلى ناحية «سمعان» وهمس له «إذا أخطأ إليك أخوك فاذهب إليه

وصالحه ولا توبخه» (١٩٤) وكان «اندرأوس» حزينا غاضبا وقد انتحى جانبا مبتعدا عن شقيقه واعترض «سمعان» على نصيحة «المعلم» «كيف أصالحه» ؟!

كان يقصد كيف أصالحه أنا وهو الذى اخطأ إلى فينبغى أن يأتى هو ليصالحنى ولكن «المسيح» بلطف حكمته تغاضى عما يقصده هو وقال «تصالحه بالطريقة التى تحب أنت أن يصالحك بها ولكن إحذر من أن تظن نفسك أفضل منه بل يجب أن تقول لنفسك أنه لولا أن «الله» ساعدنى لكنت أسوأ منه ينبغى أن تعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك».

«صدقنى لأننى أقول لك الحق إنك فى كل مرة تذهب لتصالح أخاك وهو المخطئ إليك فإنك تنال رحمة عظيمة من «الله» وتثمر كلماتك بعض الشئ فإن كررت المحاولة فإنك تريح فى النهاية أخاك وهو كنز عظيم لك من «الله» وتظفر برحمة «الله» الذى يغفر لك خطاياك كما غفرت أنت لأخيك ولكن أحذر أن تفعل هذا بالعنف والقسوة بل بالركة واللين لأن القسوة لا تثمر شيئا وبعدل «الله» تلقى تظير قسوتك حسابا عسيرا».

«قل لى هل يغسل الفقراء هذه القدور الفخارية التى يطبخون فيها طعامهم بالحجارة والمطارق الحديدية أم بالماء النظيف الدافئ»؟ إنما تغسل القدور الفخارية القذرة بماء نظيف دافئ ، فإن الحجارة والحديد يحطمان القدور قبل أن يستطيعا تنظيفها وكذلك الإنسان لاتصلحه إلا الرحمة».

«وقل لنفسك دوما أنه لولا معونة «الله» لعدت غداً أسوأ من اليوم» ، كان المثل الذى ضربه «المسيح» باهرا انبهرت به أفئدة التلاميذ وتعجبوا من قدرته التى لاتجارى على الوصف والتمثيل. الكلام ينساب من فمه كالماء الصافى من كأس نظيف أو كالنور يمحو الظلمات.

فقال «سمعان» يامعلم كم مرة أغفر لأخى ؟

قال «المسيح» «عدد ما تريد أن يغفر «الله» لك»

قال «سمعان» «سبع مرات فى اليوم مثلا ١٩»

فتأسف «المسيح» لغلظة القلوب وقال محتدا «لا أقول سبع مرات بل تغفر له فى كل يوم سبعين مرة وكل مرة سبع مرات» «الحق أقول لك إن من يغفر يغفر له ومن يدن فإنه يدان يوم الدين».

– قال «كم يجب على أن أمهل أخى ليتوب عن خطئه إلى»؟.

– قال «بقدر ماتريد أن تُمهّل».

– قال «لايفهم كل أحد هذا الكلام فكلمنا بوضوح أكثر».

– قال «أمهل أخاك بقدر مايملكك «الله»».

– قال «ولا هذا نفهمه أيضا»؟.

– قال «أمهله مادام له وقت للتوبة»

فحزن «سمعان» وكل التلاميذ لأنهم لم يفهموا هذا الكلام أيضاً ولم يعرفوا ماهو المقصود .

قال «المسيح» وقد بدا عليه الضجر من غلظة قلوبهم وبلادة أفئدتهم «لو كان عندكم أدراك صحيح لعرفت أنكم أنتم أنفسكم خطاة تستحقون الإدانة والعذاب وتحتاجون إلى الرحمة وحينئذ لم يكن ليخطر على بالكم أبدا أن تحكموا على الخاطئ وتنزعوا الرحمة من قلوبكم عليه وأقول لكم فى وضوح وبساطة أمهلوا الخاطئ مادام فيه نفس يخرج من وراء أسنانه لأنه على هذا القدر يمهل «الله» ليتوب فإن «الله» يقبل توبة عبده مادام فيه نفس هكذا يفعل «آلهنا» الرحيم وهو القدير. إن «الله» لم يقل إنى أغفر للخاطئ فى الساعة التى يصوم فيها أو يتصدق أو يصلى أو يحج لأن كل هذه الأشياء قد قام بها الكثيرون وهم ملعونون لعنة أبدية ولكنه قال فى الساعة التى يندم فيها الخاطئ على خطاياہ فإننى أنسى إثمہ فلا أذكره من بعد ومتى يندم الخاطئ على خطاياہ ١٩»

«إنه يظل قادرا على الندم مادام يتنفس أفهمتم ؟» قالوا فـ«همنا بعضا دون بعض»

قال «فما الذى لم تفهموه ؟».

قالوا «كون كثيرين صاموا وصلوا وتصدقوا وحجوا وهم ملعونون !؟».

قال «الحق أقول لكم إن المرأتين والأمم الوثنية يصلون ويتصدقون ويصومون ربما أكثر من أصفياء «الله» ولكن لا إيمان فى قلوبهم لذلك فهم عاجزون عن التوبة إلى ربهم الذى لا يقبل إلا «الإيمان» ولذلك فهم ملعونون رغم كل هذه الطقوس .»

وعاد الصمت ليطبق عليهم من جديد .

أحسوا أنه قد حطم أساس حياتهم. نجح فى إثارة شكهم فى كل ما كانوا يعتقدون أنها حقائق لا يرقى إليها الشك وأصبح كل شئ فى نظرهم محلاً للجدل لكنهم لم يظفروا منه بشئ يستندون إليه أو يتشبثون به. إنه لم يترك لهم شيئاً يثقون فيه ويتكئون عليه. «النصوص» التى كانت فى نظرهم مقدسة لايجوز عليها الخطأ أصبحت موضع شك ومليئة بالأخطاء والأدلة التى تثبت «عبث» الأيدى البشرية فيها وحتى النصوص التى قبلها وشهد بصحتها فإنه يفهمها على نحو يخالف ماكانوا يفهمونه منها ودلهم على معانٍ لها لم تكن تخطر ببالهم. فكما زالت ثقتهم فى النصوص فقد زال اطمئنانهم إلى فهمهم لها والعبادات التى تفرضها الشريعة لم تعد لها نفس الأهمية التى كانت لها قبل لقائهم به فها هو يخبرهم أن كثيراً من المصلين والمتصدقين الصائمين قد يكونون ملعونين لعنة أبدية ويقول أن الوثنيين يؤدون من العبادات أكثر من أصفياء «الله» فعلام يتكئون وأين يضعون ثقتهم ؟

«أفى الإيمان ؟»

«هل هو نبى صادق مرسل من «الله» ؟ أم أنه ساحر قدير ؟ أم تراه مخبولاً أفسد الشيطان عقله. وماهو هدفه؟! هل يسعى إلى أن يكون ملكا لليهود وهل سيعمل على إعادة المجد للشعب اليهودى وماذا سيفعل مع الرومان ؟ إن كان هذا هو هدفه بل من هو

في الحقيقة ؟ إننا لانعرف من هو أبوه. يقولون إنه «ابن يوسف بن يعقوب النجار» من بيت لحم ولكنه هو نفسه يقول عن نفسه أنه ابن الإنسان وأحياناً يصف نفسه بأنه ابن الملكوت فمن هو هذا الإنسان الذي يقول أنه أبوه ومن هو هذا الملكوت ؟ هل يمكن أن نؤمن بإنسان لانعرفه ؟

وأدرك الذين صحبوا «المسيح» في رحلة عودته من «أورشاليم» الى «الناصره» أنهم عاجزون عن معرفة «المسيح» غير قادرين على الإقتراب منه فضلاً عن الإيمان به. أحسوا أنهم قد صاروا بفعل كلماتهم مثل الأشجار التي أقتلعت من الأرض التي نبتت فيها ولكنها لم تجد بعد الأرض الجديدة التي تثبت فيها جذورها يتقلبون حائرين تتقاذفهم الأفكار الغامضة والعواطف المتناقضة لا يعرفون أين المستقر .

وأصبحت «الناصره» على الأبواب فبدأ الجمع الصغير الذي كان يصحب «المسيح» يتسرب افراده واحد بعد الآخر بأعذار شتى إذ أدرك الجميع أن البقاء معه أمر يفوق طاقتهم . عاين كل واحد منهم بعد كل مارأى وسمع أنه يحتاج إلى وقت يحسم فيه أمره بعد أن يقلبه في رأسه حتى لا يقع ضحية الخداع أو يهلك نفسه في مخاطرة مجنونة . أما «المسيح» فكان يحث الخطى منذ بدت «الناصره» في الأفق تسرع قدماءه إلى حيث يحب أن يستريح عند قدمي أمه.

عند بيت «يوسف بن يعقوب» النجار حيث يقيم «المسيح» مع أمه وأخوته أبناء «يوسف» كان يحتشد جمع كبير من أهل «الناصره» حول ضابط روماني قائد مائة قادم من «كفر ناحوم» وهي بلدة صغيرة تقع على بحيرة طبرية التي كانت تسمى حينئذ «بحر الجليل» ومعه بعض شيوخ اليهود الذين أصرروا على صحبتهم من «كفر ناحوم» حتى «الناصره».

كان هذا القائد الروماني رجلاً قد اقترب من الشيخوخة ولم يكن لديه إلا طفل واحد غلام رزق به بعد طول إنتظار فكان بالنسبة لأبيه هو حياته الأخرى يرى فيه خلوده يحبه حباً جما لا يطيق أن يراه يتألم ولا يستطيع أن يرفض له طلباً وحدث أن الطفل المدلل

سقط مريضا أخذته «الحمى» ولم يستطع واحد من الأطباء الكثيرين الذين استدعاهم الوالد الحنون لإبنته الوحيد أو الذين ذهب إليهم به لم يستطع واحد منهم أن يشفى الغلام فظلت «الحمى» تمسك بجسد الصبى الواهن لا تريد أن تفارقه وصار الغلام على شفا الموت، أمسى كأنه شيخ ضعيف غارت عيناه وشحب لونه وجف حلقه وتحول إلى كومة من العظام المتأللة يغطيها رداء من الجلد الملتهب أخذ ينطق بكلمات غير مفهومة ويتحدث عن أشياء لامعنى لها ويخاطب أناسا قد ماتوا من زمن طويل وجن جنون والده لم يستطع أن يرى غلامه الوحيد وهو يذوى من بين يديه على هذا النحو لقد فعل كل مايمكنه من أجل أن يشفيه ولكن دون جدوى.

ترك أمراته والنسوة من الأقارب والجيران حول سرير الطفل المحموم وهو يهذى وأغلق على نفسه الحجرة التى كان يخصصها لإستقبال ضيوفه، رفض أن يستقبل أحدا من شيوخ القرية أو الزوار القادمين من القرى والمدن الأخرى الذين جاؤا لمجاملته بعبادة طفله المريض .

كان قائد المئة هذا رجلا طيب القلب بالمقارنة مع غيره من السادة الرومان، حرمانه الطويل من الإنجاب كسر حده كبريائه وخفف من غلوائها وفرض عليه نوعا من التأمل العميق والتدبر الطويل لمعانى الموت والحياة والخلود، تأمل وتدبر نجحا إلى حد كبير فى تهذيب أخلاقه وتحسين معاملته للآخرين خاصة أفراد الشعب اليهودى الذى كان السادة الرومان ينظرون إليهم كعبيد متمردين لاتصلح إلا القسوة فى معاملتهم بهدف استئصال «روح التمرد» من قلوبهم العنيدة كان يرى أن مجاملة شعوب المستعمرات وإظهار الإحترام لعقائدها وطقوسها وعاداتها هو السبيل الأمن لضمان خضوع هذه الشعوب لسلطة «روما المقدسة» والطريقة المثلى لإنتراع فتيل التمرد من النفوس المشتعلة وهى السياسة التى كانت «روما» قد بدأت بالفعل فى انتهاجا مع الشعب اليهودى فى «فلسطين» أرض «اللبن والعسل» بعد أن رأت أن سياسة القمع العنيف تكلف كثيرا ولاتعطى الثمرة المرجوة

إن ظلت أعمال الشغب والإضطرابات تتواصل خاصة في «أورشاليم» ومنطقة «الجليل» ورغم القسوة المفرطة التي ظلت السلطة الرومانية تظهرها دون أية قيود أو حدود.

لقد ساعد «قائد المئة» سكان قرية «كفر ناحوم» من اليهود على بناء «مجمع يهودي» في القرية وتودد إلى شيوخ اليهود فيها واكتسب بذلك محبة أهل القرية خاصة شيوخها ولذلك سارع الكثيرون منهم إلى زيارته لعيادة غلامه المسكين وأظهروا الكثير من الحزن ليشاركوه في المصيبة التي نزلت عليه. أدرك أن موت غلامه قد صار وشيكاً فاستغفرته الكآبة وأصابه الإضطراب الذي كان أشبه بالجنون فأغلق على نفسه الحجرة وأخذ قلبه المطعون بفقد غلامه الوشيك يتدبر الكارثة التي حلت به وفؤاده يشتعل بنار الأسئلة التي لا جواب لها يحاول أن يختطف من بين السنة الذهب جواباً عن هذه الألغاز الموزعة في الغموض .

كان حصوله على الغلام مفاجأة طال انتظارها لم يعرف وقتها كيف احتمل قلبه ما أُلقي فيه من الفرح لكن هاهو الغلام المسكين يقلت من بين يديه رغماً عنه تأخذه «الحمى» إلى قبضة «الموت» التي لا يستطيع أحد أن يسترد منها ما أخذته يشعر أن الموت ينزع منه قلبه ليترك له حفرة خاوية في صدره. بيتاً خرباً بعد رحيل من كان يسكنه إلى الأبد. عندما وصلت إلى «كفر ناحوم» أنباء المدعو «عيسى الناصري» الذي قال الناس العائدون من «أورشاليم» أنه أظهر معجزات كثيرة وقدرة عجيبة على علاج الكثير من المرضى الذين يئسوا من الشفاء عرض بعض شيوخ اليهود ووجهاء «كفر ناحوم» على السيد «قائد المئة» أن يذهبوا لإستحضار هذا «الرجل الناصري» لعله يستطيع أن يذهب «الحمى» عن الغلام ويرد إليه عافيته لكن الأب الحزين رفض الفكرة لأنه كان قد يئس من كثرة ما عرض وحيداً على الأطباء دون فائدة لكنه لما جلس وحده في الغرفة المغلقة يتقلب فؤاده في نيران «التجربة» ألح عليه هذا السؤال «لماذا يصر الأمل في شفاء ابني علي البقاء في قلبي رغم كل شيء؟»

«لماذا يظل رافضاً لموت الغلام معتقداً بإمكان استرداده لصحته رغم فشل جميع الأطباء الذين فحصوا الطفل وقدموا علاجات ونصائح لم تسفر عن أية فائدة؟ لماذا لا يتقبل موت الغلام كحقيقة محتمة لاسبيل إلى محوها رغم أن الأطباء جميعاً عجزوا عن اكتشاف المرض ولم يهتدوا إلى علاجه؟».

لقد إرتدت النسوة السواد وفاضت أعينهن بالدموع وأستعد الجميع «للنبا» الذى صار على بعد لحظة قصيرة فلماذا يظل قلبه معتقداً أن وحيداً يمكنه أن يستعيد حيويته ويرجع كما كان قبل مرضه؟.

إلى أى شئ يستند قلبه فى هذا الأمل الذى ليس له أى سبب؟ أعلى الوهم يتكا؟! فى نار الإبتلاء أمكنه أن يرى فى صعوبة أن «القوة» التى منحت هذا الطفل على غير توقع وهو يعبر عتبة الكهولة إلى الشيخوخة لاشك أنها قادرة على أن تمنح هذا الغلام المحموم عافيته وأن تزيل عن جسده الضعيف هذه «الحمى» الخبيثة. لكن ماهى هذه القوة؟ هل هى الطبيعة؟ هل هى الآلهة التى تسكن السموات؟. إنه يدرك الآن فقط أن لاشئ اسمه «الطبيعة». هذا الاسم لامسمى له. وهمٌ نبت فى عقل الإنسان بسبب جهله وعجزه عن معرفة الأشياء وتحديد أسماءها. إن هذه اللفظة «الطبيعة» لاتعنى شيئاً ولاتشير إلى شئ إن كان يُقصد بها القوانين التى تحكم حركة الأشياء وتتحكم فى الظواهر المشهودة فهذه «الطبيعة» يستحيل أن تكون هى السر فى الأمل الذى يصر على البقاء فى قلبى الذى يحدثنى رغم كل ما أشهد أن شفاء غلامى المسكين ممكن فطبقاً لهذه «القوانين» يجب أن يموت غلامى لأن مرضه اللعين لم يعرف الأطباء له علاجاً حتى الآن بل لايعرفون ماهو. .

«هل يمكن أن أكون معتمداً على قوة الآلهة؟! ونظر بإستهزاء الى التماثيل الرائعة التى كان يزين بها غرفة استقبال ضيوفه حيث حبس نفسه. هل يمكن أن أكون آملاً فى

شفاء ابني معتمدا على الآلهة التي تمثل هذه التماثيل صورها ؟ أوشك أن يبصق على تلك الأحجار التي لامعنى لها .

«كلاً يستحيل أن أكون متعلقاً بهذه الآلهة، إنها لم تخطر لى من قبل على بال . عندما سقط الغلام مريضاً فأبني أسرعته به إلى الأطباء وعندما كنت أعرضه على الأطباء فأبني كنت أمل أن يهتدى الطبيب إليّ علاجه الصحيح وكنت استمر في العلاج حتى يصيبني اليأس فألجأ إلى طبيب آخر حتى ملأ اليأس قلبي من كل الأطباء لكن ظل الأمل في شفاء ابني قائماً في قلبي بالرغم من كل شيء فعلام يتكأ قلبي في هذا الأمل ؟ إن هذا الأمل يعذبني لو أنهلأسترحت، كلاً إن هذا شيء فظيع .»

كان يعتقد دوماً أن «الآلهة» وما ينسج حولها من قصص ليست إلا إحدى ثمار العقل البشرى الذى ابتدع هذه «الأسماء» ونسبها إلى شخصيات من وحى خياله وصنع منها «مسرحيات مقدسة» تعبر عن خلاصة تجربته وتفصح عن القيم الجوهرية التى استطاع استخلاصها من مجموع حركته فى الحياة على الأرض، تلك «المسرحيات المقدسة» ضرورة فرضتها الطبيعة الإجتماعية للإنسان التى تحتم عليه العيش فى جماعة إذ يستحيل تصور إمكانية أن يدوم بقاء الإنسان على الأرض فى «مجتمعات» إلا إذا كان لها قيم جوهرية تجمع بين الأفراد المنتمين لها ومعايير وضوابط تحكم سلوك الأفراد من هنا تأتى الحاجة إلى «المسرحيات المقدسة» لأنها هى التى تطبع الأفراد بطابع القيم الجوهرية التى يريد «المجتمع» لأفراده «أن يصطبغوا» بها وهى التى تفرض على الأفراد حتى دون أن يدروا المعايير والضوابط التى يريد «المجتمع» من أفراده أن يلتزموا بها فى سلوكهم فكان لابد أن يكون لكل جماعة انسانية ظهرت فى «التاريخ» مسرحياتها المقدسة أو بالاحرى «خرافاتها المقدسة» المعبرة عنها واللازمة لاستمرارها .

ولقد أتاحت له أقامته فى «جليل الأمم» أن يتعرف على الكثير من تلك «الأساطير» أو «المسرحيات المقدسة» التى تتناقلها الشعوب عبر أجيالها لأن «جليل الأمم» كان يمثل

بالجماعات التى تنتمى لأمم كثيرة من الأرض وكانت هناك أيضا القوافل التجارية التى تعبر فى رحلاتها المستمرة بين الشرق والغرب، أدرك «قائد المئة» أن لكل شعب من الشعوب «خرافاته المقدسة» وأن الإنصاف يقتضى أن يحترم كل شعب من الشعوب «أساطير» غيره ولا يحاول رفع «خرافاته» فوق خرافات الآخرين، إن محاولة شعب من الشعوب فرض خرافاته «المقدسة» على غيره هى السبب الأول وراء الكثير من الحروب التى يحترق «الإنسان» بنارها غير المقدسة لم تكن «آلهة الأوليمب» التى إنتقلت إلى «روما» وأتخذت أسماء أخرى والطقوس المرتبطة بها والحكايات التى نسجت حولها بالنسبة «لقائد المئة» القادم من «كفر ناحوم» أكثر من وسائل إجتماعية لجأ إليها الرومان كغيرهم من الشعوب لضمان استمرارهم كشعب، إنه لم يكن، فى الحقيقة يخشى عقاب هذه الآلهة ولا يرجو رضاها عنه ولا يطلب منها أن تساعد فى وقت افتقاره الى المساعدة، لكنه «الآن» يدرك فى وضوح أكثر أن ثمة آله قادر على كل شئ، إله حقيقى ليس من تأليف العقل البشرى ولا من اختراع المجتمع البشرى هذا الاعتقاد هو سر الأمل الذى لم يزل يحيى فى قلبه، إن شفاء ابنه ممكن رغم عجز الأطباء واسترداد عافيته أمر ميسور رغم أن موضع الداء مجهول والدواء الناجح لاسبيل إلى الوصول اليه لأن الإله المقصود لاريب أنه هو «السيد» المهيمن على كل المخلوقات لأنها صنعة يده وهنا برقت فى فؤاده ومضة أليس من الممكن أن يكون هذا الإله الحقيقى هو الذى عناه اليونانيون بإسم «زيوس» وسماه الرومانيون «جوبيتر» وهو نفسه الذى يقول عنه اليهود أنه إلههم، أليس من الممكن أن تكون كل هذه الأسماء هى إله واحد حقيقى ليس من صنع أحد من البشر بل هو الذى صنع كل هؤلاء البشر وصنع كل هذه الأشياء التى تملأ الأرض والسماء .

«بلى إن هذا ممكن بل ربما ليس ثمة شئ أكثر إمكانا من هذا، إن صح هذا فإن الإله الحقيقى الذى خلق غلامى المسكين يكون هو وحده الطبيب الحقيقى القادر على أن يشفيه ويرد إليه عافيته لأنه من صنع يده وهو أدرى به من كل أحد غيره» أيمكن أن يحدث

هذا؟! وأستببد به القلق إذ أدرك أن هذا ممكن وزاد تعلق قلبه بهذا الأمل الذى يشبه المستحيل رغم انه يشعر لشدة لهفته أنه يكاد يمسك به !!

إن الآلهة الرومانية لم تتحدث مع أحد من البشر ولم تبلغ رسالة لأحد ولكن إله اليهود يقولون أنه كلم أفرادا منهم وأبلغهم رسالته وأنهم قد استمعوا الى خطابه وعرفوا منه ما يريد. «هل يمكن أن يكلمنى الإله الحقيقى القادر على كل شئ؟! أيمكن أن تصلنى رسالة؟! وعلى حين فجأة وجد قلبه يصرخ متضرعاً «أيها الإله الحقيقى القادر على كل شئ يا من لاتراك عيناى ولكنك ترانى وتعلم مايدور فى قلبى ... إرحمنى ».

وأحس «قائد المائة» أن رأسه تدور لم يعد قادرا على الوقوف على قدميه إذ خيل إليه أن الغرفة تميد به والأشياء التى تملأها ... المقاعد والمناضد وتمائيل الآلهة تغرق فى بحر الظلام الآتى مع الليل وأخذة سلطان انوم.

فى الصباح نهض مسرعا وأعلن عزمه على الذهاب الى «الناصره» وأمر خدمه بتجهيز العربة ذات الخيول. فوجئ أهله بهذا السفر المفاجئ كيف يترك غلامه المحموم وهو يهذى متأرجحا على حافة الموت ولكنه أصر على موقفه وعلم بعض الشيوخ بعزمه فأصروا على صحبته فى السفر مجاملة له ولعلمهم يستطلعون عن قرب نبأ هذا المدعو «عيسى الناصرى» الذى يزعم أنه نبي جديد أرسل إلى بنى اسرائيل. وصل الركب إلى «الناصره» وعلموا أن «عيسى بن يوسف النجار» لم يعد بعد من «أورشاليم» ولايدرون ما الذى أخره وأوشك «قائد المائة» أن يعود الى «كفر ناحوم» محزونا ليلقى على غلامه الوحيد نظرة الوداع قبل رحيله إلى الأبد وعلى حين فجأة جاء «المسيح» مهرولا مع النفر القليل الذى ظل فى صحبته. أقترّب من البيت حيث كان «قائد المائة» والقادمون معه من «كفر ناحوم» يقفون يحيط بهم جمع كبير من أهل «الناصره» يتعجبون ويتساءلون عن سر هذه الزيارة الغريبة وتعالّت «الأصوات» ها هو «عيسى بن يوسف النجار» الذى تسألون عنه. أسرع

«قائد المائة» وأنحنى أمام «المسيح» فى احترام بالغ حتى كاد أن يركع لولا أن «المسيح» جذبته فى رفق ليقوم.

قال «قائد المائة» وهو يرفع وجهها باكيا إلى «المسيح» «يارسول الإله الحقيقى الوحيد إن غلامى يشرف على الموت فأرحم شيخوختى» (١٩٥) وأندفع بعض الشيوخ الذين قدموا معه من «كفر ناحوم» يتشفعون له عند «المسيح» «أيها الطبيب العظيم إنه رجل طيب يحب شعبنا المقدس ولقد ساعدنا على إقامة مجمع لنا فى «كفر ناحوم» «وكان «المسيح» يبكى لبكاء «قائد المائة» وقال له «ليرحمك الرب إله اسرائيل».

«إنتظرنى قليلاً وسأتى معك لأصلى على إبنك».

كان «المسيح» فى شوق جارف إلى رؤية أمه وأدرك «قائد المائة» أن «المسيح» الذى وصل توأ من السفر لابد محتاج إلى الراحة فليس من الأدب أن يجشمه مشقة سفر آخر فقال فى تواضع «يارسول الإله الحقيقى الوحيد تكفينى كلمتك فإننى أيضاً رجل نو سلطان وتحت يدى جنود أقول وأنا واقف فى مكانى أذهب يافلان إلى كذا فيذهب وانتى يافلان بكذا فيأتينى به وانت رسول قد أعطاك ربك سلطانا على كل مرض كما أُخبرتُ فى «الرؤيا» وتحت يدك جنود يأترون بأمرك فتكفينى كلمتك أيها السيد العظيم لستُ أهلاً لأن تدخل تحت سقف بيتى».

كان «المسيح» يستمع متعجباً إلى كلام الرجل الرومانى «قائد المائة» أما الشيوخ الذين قدموا من «كفر ناحوم» وأهل «الناصر» الذين التفوا حولهم فكانوا مذهولين من إحترام «القائد الرومانى» لنجار بسيط من قرية صغيرة من قرى «جليل الأمم» وأذهلهم أكثر حديث الرجل واطرائه له حتى أن بعض أهل «الناصر» استشاطوا غضباً من هذا المجد الذى نزل على غير أهله وأكل الحسد قلوبهم فأخذوا يتهايمسون فيما بينهم «انظروا كيف ركع القائد الرومانى لإبن الزانية».

«ماذا سيظن في نفسه هذا المخبول بعد أن يستمع بأذنيه لهذا الثناء من قائد «المائة» الذي أصيب بالجنون من فرط حزنه على إبنه».

خاطب «المسيح» الجمع المحتشد عند بيت زوج أمه «أنظروا إلى هذا الرجل الأجنبي الغريب» «الحق أقول لكم إننى لم أجد فى بنى اسرائيل كلهم إيماناً بهذا القدر».

ثم التفت إلى الشيخ الرومانى «قائد المائة» وقال له «اذهب يارجل فكما آمنت يكون لك إن غلامك قد برأ الآن» فتהלل وجه الرجل وانحنى ليقبل يد «المسيح» ثم أسرع نحو العربية ذات الخيول التى كان قد أتى بها مع الشيوخ من «كفر ناحوم» وكان النفر القليل الذين بقوا مع «المسيح» من الرحلة من «كفر ناحوم» نفسها والقرى التى تجاورها حول بحيرة «طبرية» فهرولوا مع القائد الرومانى يريدون ركوب العربية التى كان الرجل قد جهزها «للمسيح» إن قبل المجئ معه. لقد شعروا بالفخر لأنهم تلاميذ ذلك «المعلم» الذى انحنى له القائد الرومانى وأوشك أن يسجد بين يديه وأرادوا أن يتأكدوا من كلام «معلمهم» هل سيتحقق أم لا وأن يتباهوا أمام هذا القائد وجمع الشيوخ بأنهم أصحاب هذا الرجل العظيم هكذا تركه النفر القليل الذين بقوا معه حتى «الناصر» وأسرعوا يركبون العربية «الفخمة» التى يجرها زوجين من الخيول الرائعة ليحدثوا الركب المسرع إلى «كفر ناحوم» عما يعلموه عن «معلمهم» العظيم. نظر إليهم «المسيح» متأسفا ثم التفت الى الجمع المحتشد حوله وقد أوشك الغيظ أن يبلغ ببعضهم حد الجنون فقال لهم «الحق أقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع «ابراهيم وإسحق ويعقوب» فى مجد الجنة أما بنو إسرائيل أهل الكتاب الذين كان ينبغى عليهم أن ينتظروا الملكوت الذى جئت لأبشر به انتظار الأبناء لعودة أبيهم الذى طال غيابه فسوف يطردون بكفرهم بى وبالملكوت الذى أبشر بقرب مجيئه سوف يطردون من الرحمة إلى الظلمات فى الخارج حيث البكاء وصري الأسنان» فزاد غيظهم وتركهم ودخل مسرعاً إلى أمه التى كانت تنتظر عودته فى شوق.

اجتمع «وجهاء» الناصرة وتباحثوا فى أمر هذا النجار الغريب الذى يمكن أن يجلب لهم «المجد» أو «الكارثة» لأنه إن صح مايقال عن المعجزات التى صنعها فى شفاء المرضى وعن مولده فى «بيت لحم» القرية التى أنجبت «داود بن يسى» ملك اليهود فإنه قد يكون هو «المسيح» المنتظر الموعود أن يكون «ملكا لليهود» يرد إليهم الملك ويعيد إليهم المجد الذى أفلت من بين أيديهم مسرعا وفى هذه الحال فإن خيراً كثيراً لابد أن يصيب «الناصرة» وأهلها لأنها ستكون القرية التى نشأ فيها «الملك» ولابد أن «الملك» سوف ينظر بعين العطف والرعاية لأهل بلدته الذين نشأ فيهم أما إن كانت هذه المعجزات ليست إلا أوهاما اختلقها الشعب البائس الذى طحنته أنياب الفقر والجهل والمرض وطال انتظاره للخلاص الإلهى من معيشة العبيد ومذلة الخضوع للكافر الغريب فإن هذا «النجار المتكبر» سوف يكون كارثة على «الناصرة» وأهلها لأن «هيرودوس انتيبباس» رئيس «الجليل» الطامع فى أن يمنحه الرومان لقب أبيه الراحل «هيرودوس» الكبير» ملك وصديق حليف للشعب الرومانى العظيم» لن يسكت على هذه الدعوى وسوف يسرف فى تأديب «الناصرة» القرية التى احتضنت ذلك الذى يدعو نفسه ملكا لليهود وفى هذه الحال علينا أن نسرع بإعلان براعتنا منه بل يجب علينا أن نسرع بتسليمه «لهيرودوس» حتى نأمن غضبه علينا فما هو الجواب لهذا السؤال العسير هل هو حقا «المسيح» ملك اليهود المنتظر أم هو كذاب دعى سوف يوردنا الهلاك ؟.

وأندفعوا يتجادلون فى شأنه فذكر بعضهم أنه لابد أن يكون قد ولد فى «بيت لحم» لأن أباه «يوسف بن يعقوب النجار» من «بيت لحم» فعلاً قرية «داود» ملك اليهود وأنه تزوج أمه «مريم» بنت الكاهن «عمران» فى السنة التى صدر فيها أمر الأمبراطور «أغسطس» بالإكتتاب ولايعقل أن تكون كل هذه الأخبار عن معجزاته مجرد تَقَوُّلاتٍ إختلقها الاوهام إذأ هو الملك المنتظر لليهود «وانظروا إلى احترام القائد الرومانى له لقد أوشك أن يسجد بين يديه هذه علامة على أنه سوف يقهر الرومان ويستعيد الملك منهم لليهود .»

لكن الآخرون قالوا إنه ليس ابن «يوسف النجار» بل هو ابن زنا حملته أمه سفاحا ويقال أن أباه هو أحد الجنود الرومان وقد تزوجها «النجار» ليسترعارها لأنه كان يحبها حبا جما وقد فر بها إلى «مصر» ثم جاء بها إلى هنا هرويا من أهله الذين كانوا يرفضون زواجه من هذه الزانية الفاجرة ولو كان المدعو «عيسى» من «بيت لحم» حقا وابنا «لداود» الملك كما تزعمون لأفتخر بهذا ولأعلن نسبه المشرف على الملأ ولكنه يستتر خبيث أصله بأساطير لا يقبلها العقل الرشيد واصفا نفسه بإبن الإنسان. «هذه كلها ليست إلا أقوالا خداعة وحكايات مزيفة لا يقبلها الإنسان الذكى» و«تأكدوا أنه سوف يكون كارثة على «الناصرة» وأهلها».

واختلف الفريقان ثم أستقر الجميع على أن يذهبوا إليه ويطلبوا منه أن يظهر لهم أية فى السماء تكون برهانا علي أنه مرسل من «الله» وحينئذ سوف يؤمنون به فنظر إليهم «المسيح» فى إزدراء ثم قال لهم^(١٩٦) «إذا رأيتم السحاب يتكاثر طالعا من المغارب فإنكم تقولون سيكون مطر لأن السماء مليئة بالغمام وينزل المطر وإذا رأيتم السماء صافية محمرة قلتم سيكون الجو صحوا وإذا رأيتم الريح تهب من الجنوب قلتم سيكون حر» فبأتى الحر».

«يا مراؤون تستطيعون أن تميزوا وجه السماء ووجه الأرض ولا تستطيعون أن تروا آيات «الله» ولا أن تميزوا علامات الأزمنة. أليس لهذا الزمن علامات تصدقنى. جيل شرير فاسق يطلب أية ولا يؤمن فلن تعطى له اللهم إلا أية النبى يونس (يونان) فكما لم يؤمن أهل «نينوى» إلا بعد أن غاب عنهم «يونس» ورجع إليهم بأية من «الله» فكذلكم يكون إبن الانسان».

لقد تاب أهل «نينوى» بنداء «يونس» وهاهو ذا أعظم من «يونس» ههنا». وأشار إلى نفسه بوضع يديه على صدره «لكن قومه لا يؤمنون به ولا يريدون أن يتوبوا لذلك سيقوم أهل «نينوى» فى يوم الدين مع هذا الجيل الشرير ليشهدوا عليهم فيحكم عليهم بالطرده من رحمة «الله» .

«لقد جاءت ملكة «اليمن» لتستمتع إلى حكمة «سليمان» وها هو ذا أعظم من «سليمان» ههنا» وأشار بكلتا يديه إلى صدره ولكن أهله لا يريدون سماع الحكمة منه لذلك فإن ملكة «اليمن» ستقوم فى يوم الدين مع هذا الجيل الشرير لتشهد عليه فيحكم عليه بالجحيم. (١٩٧)

وأطبق عليهم الصمت ولم يعرفوا ماذا يقولون أو يفعلون رغم أن الغيظ كان يشعل قلوبهم نارا وخرج «المسيح» من البيت، وتركهم واقفين وهم ينظرون إليه بعيون شاخصة «من يظن نفسه ابن الزانية هذا الذى لانعرف له أباً».

وبدأ الناس يتوافدون على «المسيح» من القرى والمدن الأخرى بعد أن ذاعت انباء «معجزاته» فى شفاء الأمراض فكان بيت زوج أمه «يوسف النجار» يكاد لا يخلو فى وقت من الأوقات من سائل يسأل عن «عيسى الناصرى» الذى يستطيع شفاء جميع الأمراض بصلواته ومس يده المباركة كما بدأ يتردد عليه بعض الباحثين عن الحقيقة الراغبين فى تلقى المعرفة جذبهم علمه الواسع الدقيق بالتوراة وكتب الأنبياء، كانت هذه الوفود التى تكاد لا تتوقف تسبب إزعاجا كبيرا لإخوته من أمه الذين يعيشون مع أبيهم يضايقهم أن ينال هذا «الغريب» كل هذا الاهتمام من الناس وأن يستحوذ على بيت أبيهم وقلبه لأن «يوسف النجار» كان يحب «عيسى» أكثر من أبنائه وبناته الذين خرجوا من صلبه وكان «عيسى» يدرك هذه الغيرة فى قلوب أخوته فيقضى يومه كله سائرا أو جالسا أو مضطجعا بين الحقول أو بالقرب من القبور أو فى الجبال بعيدا عن القرية والذين يأتون للسؤال عليه حاملين مرضاهم أو المسائل التى تستعصى على فهمهم يضطرون للبحث عنه فى مثل هذه الأماكن الغربية وأبدأ يأتى إليه بعض الذين صحبوه فى رحلة العودة من «أورشليم» إلى «الناصر» بعد انتهاء أيام الفصح وقضى بعضهم ملازمته. لتلقى العلم والحكمة من فمه فصاروا. يصحبونه فى كل مكان يمضى إليه وعرفوا بإسم «التلاميذ» كما عرف هو بإسم «المعلم» وظل أهل «الناصر» يتعجبون مستنكرين من هؤلاء الحمقى الذين يكلفون أنفسهم

مشقة السفر للمجئ إلى هذا «المخبول» كما كان يسميه أخوته، «إنه ليس أكثر من صبي نجار يعمل عند زوج أمه»، «مخبول مجهول النسب تضاربت الأقوال في شأن أبيه» ويتساءلون «هل يمكن لإله إسرائيل القدوس أن يعطى الملك والحكمة لمثل هذا الفقير ابن الزنا الذى بلغ به الجنون حد أن يعد نفسه أفضل من «سليمان بن داود» الملك العظيم الذى كانت تأتمر بأمره الشياطين والطيور فضلا عن البشر».

وأصبحت «الناصره» كلها حائرة فى أمر هذا «المعلم» الغريب «ماذا يجد الناس فيه» وأخذوا يكثر من سؤال الكهنة وشيوخ الفريسيين عنه فتضاربت أقوالهم فيه فبعضهم يقول أنه طبيب بارع تلقى علم الطب من «الجن» وبعضهم يقول أنه ساحر يستطيع أن يسيطر على عقول الناس بسحره فيُدخل عليهم الأوهام التى يريد إدخالها فى أذهانهم وبعضهم يقول أنه رجل متصل بالشياطين الذين يمدونه بكل هذه القدرات الخارقة ولم يظفر أهل «الناصره» برأى يستقرون عليه فى شأن ابن قريتهم الذى يأتى إليه الناس من كل مكان دون سبب مفهوم !!.

كان شباب «الناصره» ورجالها يراقبون «المعلم» وهو يسير مع «تلاميذه» ومريديه فيبعثون «بالعيون» التى تأتيهم بأخباره وتنقل إليهم أحاديثه فلما علموا بعزمه على حضور الصلاة فى المجمع يوم السبت تدافع الناس مبكرين للذهاب إلى هناك وقد حمل بعضهم المرضى ليروا هل يستطيع هذا المعلم شفاءهم أم أن الأمر كله أوهام تنتشر فى شعب أدمن الخرافات.

شق «المسيح» طريقه نحو منبر الوعظ وتفرق تلاميذه بين صفوف الناس الذين احتشدوا ليستطلعوا أمر هذا «المعلم» المحير. جلس «المسيح» هادئاً صامتاً عليه سكينه الوقار مطرقاً إلى الأرض، شخصت أعينهم إليه وأمعنوا النظر فى وجهه المشرق وشعره الناعم الأسود الذى يتدلى متموجاً حتى كتفيه، خيل إليهم أن قطرات الماء تنساب من شعره ووجهه كأن مطراً ينزل عليه وحده فلما أطبق الصمت على الجمع وتطلعت إليه الأعين

وتهيات الأذهان للإستماع طلب من خادم المجمع أن يأتيه بنسخه من سفر «إشعيا» فناولته الخادم الكتاب ففتحه فى هدوء وثقة كأنه يعلم مسبقا الصفحة ثم قرأ فى صوت وقور يفيض بالحنان وينفذ الى القلوب رغما عنها قال : «روح الله معى إذ مسحنى من أجل أن أبشر المساكين، أرسلنى لأشفى الذين فى قلوبهم مرض، لأنادى على المحبوسين فى الظلمات فينطلقوا، وأهب العمى نعمة البصر وأحرر المقهورين وأدعوا إلى سنة «الله» المقبولة،(١٩٨)

ثم طوى الكتاب وسلمه إلى الخادم، صمت للحظات يحدق فى الوجوه التى تتطلع إليه ثم قال «اليوم تحقق المكتوب فى سفر «إشعيا» الذى ألقيته على مسامعكم فأنا الذى تكلم عنه «أشعيا» يابنى إسرائيل إننى رسول «الله» إليكم **قد جئتمكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فأعبدوه هذا صراط مستقيم.** (١٩٩)

ثم جلس صامتا وهو يحدق البصر فى الوجوه والقلوب القاسية التى ترفض التصديق كانوا يقولون فى أنفسهم ويتهامسون فيما بينهم أليس هذا ابن النجار «يوسف» أليست أمه هى التى تدعى «مريم» وأخوته يعقوب ، ويوسى وسمعان ، ويهوذا ، فمن أين له كل هذا الذى يدعيه ؟!

لقد عجز عن أن يأتى بآية واحدة، لم يستطع أن يشفى مريضاً واحداً فى قريتنا ولو كان ما يقولون عنه صحيحا لأستطاع أن يفعله هنا فى قريته، لكنه لن يستطيع، إننا نعرف من هو قلن يستطيع خداعنا بسحره وألعيه كما يفعل مع «الغريباء» الذين لا يعرفونه، وأخذ الهمس يتزايد ولكن صوت «المسيح» إنطلق ليوقفه قال «لعلكم تقولون فى أنفسكم هذا المثل أيها الطبيب إشف نفسك كم سمعنا عما جرى فى «أورشليم» و«كفرناحوم» من المعجزات فأفعل هنا فى وطنك أيضا إن كنت صادقا (٢٠٠) .

«الحق أقول لكم إنه لم يوجد نبي قط مقبولا فى وطنه، فى زمن «إلياس» (إيليا) كان

هناك أرامل كثيرات فى إسرائيل حين أغلقت السماء أبوابها ثلاث سنوات وستة شهور ووقع جوع شديد فى الأرض كلها ولكن لم تكن هناك إلا أرملة واحدة تستحق أن يرسل إليها «الله» نبيه «إلياس» أرملة واحدة كانت فى بيت صيدا .»

«وفى زمن «أليّسع» (اليشع) النبى تلميذ «إلياس» كان هناك برص كثيرون ولكن واحداً فقط هو «نعمان السريانى» كان يستحق أن يُطهره «الله» بيد نبيه (٢٠١) .»

الحق أقول لكم إنه بكفركم وخطاياكم لم تروا آيات ولم تنالوا شفاء» ولم يستطع الجمع المحتشد أن يكظم غيظه فأندفعوا نحوه يسبونه بأفطع السباب ثم هجموا عليه فأمسكوا به وأخذوا يجرونه ليخرجوه من مجمعهم «الطاهر» وهو مستسلم فى أيديهم لا يبدى أية مقاومة أو يظهر اعتراضا ولو باللسان حتى دفعوه إلى حافة مرتفع عال وأرادوا إسقاطه ليهلكه فبوغتا «بشى» يدفعهم بعيدا عنه حتى أوشكواهم أن يسقطوا فأصابهم الفزع وأخذوا يفرون منه مرعوبين. وقف ينظر إليهم وقد أعطوه ظهورهم وأسرعوا يهربون حتى غابوا عن بصره. ثم راح ينزل من الجبل مطرقاً وهو ينظر إلى الصخور التى تشتكى إلى ربهما من قسوة قلوبهم أما التلاميذ فقد وقفوا من بعيد يرقبون ما يحدث هالهم تحول المعلم الباهر عظيم السلطان إلى إنسان مسكين يستسلم لأيدي أعدائه ثم حيرهم الفزع المفاجئ الذى أصاب القوم وجعلهم يتركون «المعلم» ويهرولون كأن خطراً أحرق بهم بغتة. لم يفهموا شيئاً مما وقع أمام أعينهم وعاد «المسيح» كما كان وحيدا غريبا حزينا يسأل «الله» الهداية والقوة على مهمته العسيرة.

(١٦)

«الصيد الثمين»

«وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»

«الحشر ٢١»

خرج «المسيح» من «الناصره» قريته التي رفضته وقد عزم على أن يتجول بين قرى «جليل الأمم» مبشرا بالملكوت ناشرا النور الذي يحمله داعيا بنى اسرائيل إلى التوبة.

كان يشبه نفسه بالصياد الذي يخرج في الصباح إلى البحر راجيا من «الله» أن يمن عليه ببعض الرزق ولكن إذا كان كل صياد يطمع في أن يستطيع أن يخرج من البحر أكبر قدر من السمك فإن «المسيح» لم يكن يطمع إلا في أن يمكنه «الله» من إخراج قليل من قومه من الظلمات التي غرقوا فيها. يأمل فقط في أن ينقذ من الهلاك بعض الأفراد يحملهم رسالة «الله» لينشروها في الناس من بعده إذ كان يدرك أن بعثته الحاضرة «قصيرة» الأمد ليست أكثر من إعلان للأمم وتمهيد لظهور «الملكوت». إن بقاءه على الأرض في هذه المرة ليس أكثر من لحظة قصيرة ولذلك لم يكن يطمع إلا في قليل من السمك الصغير يتمكن من إخراجهم من بحر الظلمات التي غرقت فيها الأمة لعل تلك السمكات الصغيرة تستطيع بعد نجاتها أن تستبقى «النور» في الأرض حتى يأتي «النور الحق» الذي أنار السماوات والأرض.

لقد أدرك بعد أن عاين رفض رجال «الهيكل» له ويعد أن عانى من عدم ثبات الذين زعموا أنهم يريدون أن يصبحوا تلاميذا له أدرك أن عليه أن يخرج ليختار أتباعه بعد أن عجز أتباعه عن اختياره. عليه أن يخرج لينتقي من هذا الجم الغفير من السمك الميت الذي

تفوح منه رائحة العفن بعض السمكات الصغيرة التي لم تزل تحتفظ في جسدها بأثر من «سر الحياة». عليه أن يتفحص بكل تدقيق هذا الكوم الهائل من الفساد مكابدا في ذلك كل الالام من أجل أن ينقذ كل مايمكنه انقاذه.

إن كل الصيادين يخرجون إلى البحر وهم يطمعون في رزق وفير إلا هذا الصياد الغريب فإنه لم يكن يطمع إلا في صيد قليل كان يعده لكثرة الفساد أثمن صيد ويدعو «الله» ألا يرجع إليه خالي اليدين.

شق طريقه إلى «بحر الجليل» (بحيرة طبرية) في صباح يوم مشرق يمشى وحيدا علي شاطئ البحر مقترباً من جماعة الصيادين كان الرجال يستلقون على ظهورهم في استرخاء وقد بدا عليهم التعب بعد أن غسلوا الشباك ونشروها لتجف في حرارة الشمس التي كانت تسطع في هذا اليوم وقد أفصح نورها عن الكآبة التي تغلو الوجوه تعبر عن الحزن وخيبة الأمل اللذان يملأن القلوب وكان «اندرأوس» وشقيقه «سمعان» يجلسان فوق سفينة الصيد التي يملكانها ويجريان بعض الإصلاحات البسيطة وقد نمت طريقتهما في العمل عن الضجر أما «يعقوب» و«يحيى» (يوحنا) إبنا زبدى فكانا يجلسان على السفينة الصغيرة الأخرى مع أبيهما والثلاثة ينظرون في ملل إلى سطح الماء الذي يهتز دون انقطاع تحت الشمس وهي تواصل صعودها دون كلل، الحر والتماع سطح الماء المهتز بأشعة الشمس كانا يزيدان من شعور الرجال بالتعب .

فوجئ «سمعان بن يونا» وشقيقه «اندرأوس» «بالمعلم» يقف على الشاطئ قبالتهم ينظر إليهما وقد أفصحت نظرتة عن أنه ظل يراقبهما منذ فترة وهما لا يدریان فتوقفا عن العمل وشعرا بالخجل وأسرعاً ينزلان من السفينة الصغيرة على استحياء ليرحبا «بالمعلم» الذي جاء لزيارتهم فجأة ودون أن يدعو أحد. لقد كانا ضمن الذين صحبوه في رحلته من «أورشاليم» إلي «الناصره» لكنهما تركاه وأنشغلا بعملهما في صيد السمك لتدبير

معاشهما وكانا يملكان أيضاً السفينة الأخرى التى يجلس عليها «زبدى» وولداه «يعقوب» و«يحيى» (يوحنا) الذى أسماه على إسم النبى «يحيى بن زكريا» لأن «زبدى» كان من الذين يذهبون لسماع مواعد «يحيى بن زكريا» ويعتقدون بصدق نبوته.

قال «المعلم»: «لماذا تجلسون هكذا فى حزن؟ لماذا لاتصطادون؟ قال «سمعان»: «يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نظفر بشئ» قال «المعلم»: «إذن هيا أدخلوا الماء وألقوا شباككم قال: «سمعان»: «يا معلم لن نظفر الآن بشئ».

لكن «المعلم» نظر إليه يعاتبه على تكذيبه وعصيانه ورجمه بالغيب فتراجع «سمعان» قائلاً «على كلمتك ندخل الماء ونلقى شباكنا» (٢٠٢)

أخذ «سمعان» وأخوه «اندراس» الشباك وصعدا المركب ومعهما «المسيح» ثم دخلا إلى الماء وألقيا بالشباك فاندفعت الأسماك تسعى للدخول فى الشباك كأنها تنجذب للصيد بدلاً من أن تفر والشقيقتان يدهشان لا يكادان يصدقان ماترى أعينهما ثم طفا يحاولان جذب الشبكة بعد أن شعرا أنها قد امتلأت ولكنهما عجزا عن جذبها لثقلها من كثرة ما دخل فيها من السمك فأخذ كلا منهما ينادى على «يعقوب» و«يحيى» ليأتيا بالسفينة الأخرى مع الرجال ليساعدهما فى رفع الشبكة الممتلئة بالصيد إلى سطح المركب و«المسيح» ينظر إليهما مراقباً. جاء الرجال على السفينة الأخرى ثم جذبوا الصيد الوفير وعاد الجمع راكبا السفينتين إلى الشاطئ حيث دب النشاط فى الرجال الذين كانوا يستلقون على الأرض فى تعب فهبوا يتسلمون الصيد ويقسمونه ويعدونه للبيع وهم فى تعجب من كثرة السمك «كيف أتى كل هذا الرزق اليوم وقد وقفوا الأمس كله يحاولون دون فائدة» وعرف الجميع أن «عيسى الناصرى» كان على سفينة «سمعان» و«اندراس» وأنه ببركته قد تم الحصول على كل هذا الرزق.

بكى «سمعان بن يونا» وقال «للمعلم»: «يا نبى الله» أخرج من سفينتى فإننى رجل خاطئ لا أستحق أن تقوم على سفينتى (٢٠٢)

فتهلل وجه «المسيح» وقال له «لاتخف لأن «الله» يحب أن يغفر لك وأن يتوب عليك.
«ودعا «سمعان» «المعلم» لينزل عنده ضيفا فقبل وذهب معه الى بيته ومعهما «يعقوب» و
«يحيى» ابنا «زبدي» اللذان أحبا أن يلازما «المعلم» بالإضافة الي «اندراس»
شقيق «سمعان».

ذهب هذا الجمع الصغير الى بيت «سمعان» (٢٠٢) بينما كان بقية الرجال على
الشاطئ منهمكين في إعداد الصيد الثمين الذي حصلوا عليه وقد ملاهم السرور.

أخبرت امرأة «سمعان» زوجها أن أمها التي كانت تعيش معهما قد سقطت مريضة
تلازمها «الحمى» منذ خرج أمس للصيد فتضرع «سمعان» إلى «المعلم» أن يصلى من
أجلها فذهب «المسيح» إليها ووضع يده على رأسها ودعا لها في سره فغادرتها «الحمى»
على الفور وقامت لتخدم الضيوف وتشارك بحماس ونشاط في إعداد الطعام «للمعلم»
«وتلاميذه» وسرعان ما ذاع الخبر في القرية كلها «عيسى الناصري» في بيت «سمعان»
بن يونا «قد شفى «حماته» من «الحمى» وببركته حصل الصيادون على رزق وفير». فاندفع
أهل القرية الى بيت «سمعان» يريدون رؤية النبي القادم من «الناصره» وانتشرت في القرى
المجاورة أنباء شفاؤه للمرضى الميثوس من شفاؤهم فحمل الناس مرضاهم إليه يطلبون أن
يصلى من أجلهم وأن يمسه بيده المباركة.

حملوا إليه محمولين ومشلولين وبرصاً ومجذومين ومرضى من كل نوع فصلى
«المسيح» من أجلهم ونالوا جميعا شفاعهم.....

تزام الناس حوله حتى ضاق بهم بيت «سمعان» فخرج الى العراء أمام البيت
وجلس يستقبل المرضى ويلقى بإرشاداته حتى مضى أكثر الليل وأخذ التعب من الجميع
كل مأخذ فصرفهم «المسيح» ودخل ليرتاح في الغرفة التي أعدها «سمعان» لضيوفه. كان
الجميع متعبين فسرعان ما استغرقوا في النوم أما «المسيح» فلم يضطجع إلا قليلا
من الوقت وعندما أذن الصبح بالمجيئ تسلل في السحر وخرج إلى البحيرة حيث اغتسل

بمفرده فى نور الفجر وقام يصلى لربه على الشاطئ ثم جلس يسبح وهو يعاين جمال
«الله» الذى يتبدى فى نور الشمس التى تواصل سيرها .

استيقظ «سمعان» ولم يجد «المعلم» فى غرفته مع التلاميذ الذين كانوا مايزالون
يغطون فى نومهم وقد بدأ الناس يتوافدون على البيت طلبا لرؤية «النبي» القادم من
«الناصره» ثم خرج الجمع الذى احتشد عند البيت الى البحر فوجدوا «المسيح» يجلس
هادئا على الشاطئ بجوار السفينتين فأسرعوا نحوه يتزاحمون يطلبون الإستماع الى
كلمته فصعد «المعلم» الى سفينته «سمعان» و«اندراس» وطلب منهما أن يدفعاها قليلا فى
داخل الماء وأمر الناس أن يجلسوا فى هدوء على الشاطئ ليستمعوا إلى كلمة «الله»
فاصطف الناس جالسين يتطلعون بأعين شاحصة الى «كلمة الله» الآتية من الماء .

قال .(٢٠٤) «هاهو الزارع قد خرج من بيته إلى الحقل وفى يده البذور وبينما هو فى
الطريق سقطت بعض البذور فداستها الأقدام وجاءت الطيور فالتهمتها .

«وسقطت بعض البذور الأخرى على الأحجار بين الصخور فنبتت فى التراب القليل
الذى يغطي الأحجار ولكن لما كانت الصخور قاسية فإن النبات لم يستطع أن يمد فيها
جنوره ولذلك عندما سطعت الشمس لم يستطع الزرع أن يقاوم حرارتها فأحترق لأنه لم
يكن له أصل قوى يضرب فى عمق الأرض» .

«وسقطت بذور أخرى بين الأشواك فلما جاء الماء نبتت البذور ولكن نبتت أيضا
الأشواك ولما كانت الأشواك كثيرة فقد نمت وتكاثرت حتى استطاعت أن تخنق النبات فمات»
«ثم وضع الزارع مابقى معه من البذور فى التربة الجيدة وسقاها بيده فأنبئت نباتا
حسنا وأعطت ثمارا جيدة فبعضها أثمر ثلاثين وبعضها أثمر ستين وبعضها أثمر مائة (٢٠٥)

ومن له أذنان للسمع فليسمع .

«بماذا أشبه لكم الملكوت» ؟» .

«أشبهه بإنسان رب بيت خرج من بيته الى حقله فزرع فيه زرعاً جيداً ثم عاد إلى بيته وبينما كان الناس نياماً جاء عدوه فوضع زُوراً في وسط الحقل فلما نما الزرع وشرع يعطى ثماراً طلع الزوان أيضاً وأشتبك مع الزرع فجاء عبيد الإنسان صاحب الحقل ورأوا الزوان يختلط بالزرع فذهبوا إليه وقالوا له ياسيد ألم تزرع زرعاً جيداً ووضعت بذوراً طيبة فمن أين جاء هذا الشوك في حقلك؟».

«قال لهم إنه من عدوي بينما كان الناس غافلين.»

«قالوا «هل نذهب الآن فنستأصل الشوك ونطهر الحقل منه؟»!

«قال «لا تفعلوا هذا لأنكم إن اردتم استئصال الشوك اقتلعتم الزرع الجيد أيضاً معه. فدعوا الحنطة والزوان ينموان في الحقل حتى وقت الحصاد وحينئذ يفترقان فأقول للحصادين أذهبوا فأحصدوا فيحصدون الزوان أولاً ويحزمونه حزماً ثم يحرقونه في النار ثم يأخذون الحنطة ويضمونها الى خزائني.»

ومن له أذنان للسمع فليستمع.

«بماذا أشبه لكم الملكوت؟»

«إنه يشبه بذرة صغيرة لاتكاد تُرى. وضعها الإنسان في حقله فإذا نمت صارت شجرة عظيمة تتشابك أغصانها حتى أن طيور السماء تأتي إليها وتأوى بين أغصانها فانظروا كم يخرج من بذرة واحدة لاتكاد ترى؟»

«بماذا أشبه لكم الملكوت؟».

«إنه يشبه إنساناً صاحب بستان لديه تين جيد أراد أن يمنح الناس بعضاً من ثماره الجيدة فأرسل عبيده يحملون التين الجيد الى السوق ولكن الناس لم تكن تهتم بالثمار الجيدة بل تنظر الى الورق الذي لُفَّت فيه الثمار ولما كان عبيد الإنسان صاحب البستان لايهتمون بجمال الورق الذي يَلِفُون به ثمارهم الطيبة بل يهتمون فقط بجودة الثمار فإنهم

لم يستطيعوا أن يبيعوا تينهم الجيد ورأى ذلك أحد التجار الأشرار فقال إننى أستطيع أن أصبح غنيا جدا فأمر جنوده وأبناءه فجمعوا الثمار العفنة الملقاه على الأرض وأخذها فلفها فى ورق مزوق جميل المنظر وذهب بها الى السوق ليبيعهها للناس الذين إشتد إعجابهم بها حتى أنهم اشتروها بثمن كبير فكانوا يأخذون الثمرة مقابل وزنها ذهباً فصار التاجر الشرير ثريا جدا أما الناس الذين أكلوا من الثمار العفنة التى لفت فى ورق جميل فقد هلكوا أو مرضوا مرضا خطيرا جدا..»

ثم قال «ها هو رجل لديه ينبوع ماء يأتى إليه الجيران فيغتسلون وينظفون ثيابهم أما هو فيبقى قذرا ويترك ثيابه حتى تتنن».

ثم سكت وتملكت الحيرة الجمع المحتشد الذى كان يتطلع الى «المسيح» الجالس على السفينة فى الماء، ما هذا الكلام الغريب وماذا يقصد بهذه الامثال ؟ ثم أعلن «المسيح» عن عزمه الرحيل إذ يريد أن يبشر بالملكوت فى القرى الأخرى وتدافعت الجموع إليه تطلب منه أن يمكث معهم لأنهم أحسوا بركته على قريتهم ولكنه أصر على الرحيل لأن عنده رسالة من «الله» يريد إبلاغها للناس فاندفع الكثيرون يطلبون أن يصحبوه قائلين «نترك بيوتنا ونتبعك أينما تمضى فقال لهم «بل أبقوا فى بيوتكم وأتركوا الخطيئة فإنكم بذلك تتبعونى أينما أسير».

اندفع إليه واحد من الكتبة الفريسيين استحوذت عليه قدرة «المسيح» على الكلام البليغ وكان قد استمع اليه من قبل فأنذهلته قدرة «المسيح» على الإستشهاد بنصوص التوراة وكتب الأنبياء فقال له «يا معلم» أتبعك أينما تمضى (٢٠٦) لكن «المسيح» كان يعرف بعين «الخبير» ان هذه الحماسة الطارئة لا تثبت وأنها سرعان ماتزول لأنها تقوم على أساس باطل فقال للكاتب محذرا «للثعالب أو جرة ولطيور السماء أوكار أما ابن الانسان فليس له مكان يسند إليه رأسه» فانطفأت حماسة الكاتب وطأطأ رأسه متفكرا أما «المسيح» فقال

«لسمعان بن يونا» وأخيه «أندراوس» «إتبعانى وأنا أجعلكما تصيدان الناس لرحمة «الله» بدلاً من أن تصطادا السمك»

وقال «ليعقوب بن زبدي وأخيه «يحيى» (يوحنا) إتبعانى فصعدا إليه على السفينة وتركيا أباهما وقال لواحد «هيا تعالى معى» فقال له يا «معلم» «أتبعك أينما تمضي ولكن ائذن لى أن اذهب لأودع الذين فى بيتى» (٢٠٧)

فقال له «المسيح» «لايوجد أحد يضع يده على المحراث ثم ينظر خلفه لئلا ينقلب به المحراث فيهلك، لا أحد يلتفت وراءه يصلح لأن يكون إبناً للملكوت «الله».

«من كان لا يستطيع أن يكره أباه وأمه وأمرأته وأبنائه وأخوته وأصدقائه بل ويكره حتى نفسه من أجل «الله» فلا ينبغى أن يتبعنى إذ لا يستطيع أن يكون لى تلميذاً.

فأخذ الجمع المحتشد ينفذ من حوله قائلين فى أنفسهم ومتهامسين لبعضهم البعض «أى معلم هذا الذى يدعونا لأن نكره أهلنا وأقاربنا الذين أمرنا «الله» وأوصانا أن نكرههم ونحسن إليهم».

«يبدو أن «الكهنة» كانوا على حق حين قالوا إن عليه شيطان يأمره بمخالفة شريعة «الله» التى أمرنا بها «موسى».

«ساحر قدير يجدف على الله».

وقال آخر «يامعلم إسمح لى أن أذهب أولاً لأدفن أبى فقد جاعى الآن خبره».

فقال له «لماذا لاتدع الموتى يدفنون موتاهم وتأتى أنت الآن معى لتكون مثلى مبشرا بملكوت «الله» الذى وهب كل حى حياته» فأصاب الدهول الشاب ولم يعرف كيف يتصرف وشخصت الأعين الحائرة إلى «المسيح» وهو ينتقى مختاريه ويركبهم معه فى السفينة الصغيرة التى أخذت تتحرك مبتعدة عن القرية حتى غابت عن أنظار الذين وقفوا على الشاطئ ينظرون.

كان هؤلاء الذين ركبوا معه فى سفينة «سمعان بن يونا» وأخيه «أندراوس» هم أول تلاميذه الذى ساروا معه أينما سار يضيف إليهم كل من يرى فيه أملا للنجاة كما كان يتخلف عنه كل من يجد نفسه غير قادر على مواصلة الطريق معه، منذ ذلك الحين سمي «سمعان بن يونا» باسم «بطرس»^(٢٠٨) لأن هناك تلميذ آخر كان يسمى «سمعان القانونى» فأراد «المسيح» أن يفرق بينهما فى التسمية حتى لا يقع الخلط بينهما كما أن اعطاء «سمعان» إسما جديدا كان يحمل معه معنى أنه قد صار شخصا آخر، إنسانا جديدا غير الذى كان قبل صحبة «المسيح».

لقد أختار «المسيح» أن يعلم من داخل الماء وهو فوق السفينة الصغيرة لعله يستطيع بذلك أن يزيح غطاء النسيان السميك الذى أحاط بالقلوب الغافلة وقد طال عليها الأمد فى الظلمات لعلها تتذكر كلام «الله» الذى نزل إليها وهى على سفينة «نوح» عندما كان هؤلاء الذين خاطبهم «المسيح» «عيسى بن مريم» الآن من فوق سفينة «سمعان» كانوا مع غيرهم من البشر محمولين فى ظهور «نوح» والذين آمنوا به وركبوا معه السفينة التى تم بها نجاة البشرية من الطوفان الذى أهلك به «الله» كل من كان على الأرض لكن القلوب التى طال عليها الأمد لم تتذكر وإن نجحت أمثال «المسيح» فى دفعها الى التفكير وهو مقدمة التذكر. بدا للنفر القليل الذين مستهم رحمة «الله» أن أمثال «المسيح» تشير إلى أشياء غامضة موهلة فى القدم وتحثهم على التساؤل فقالوا «للمسيح» وقد انفردوا به «لماذا كلمت الناس بالأمثال ولم تكلمهم صراحة لقد حيرتهم وأربكتهم» ؟.

قال «لأن هؤلاء لا يستطيعون أن يفهموا حتى وإن كلمتهم بأوضح عبارة لأن لهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها ولهم قلوب لا يفقهون بها، لم يُعطوا أن يعرفوا الملكوت ولذلك كلمتهم بالأمثال لعلهم يتفكرون فيها أما أنتم «فطوبى لكم» لأن «الله» وهبكم أن تعرفوا الملكوت وأتاح لكم أن تشهدوا ما أشتى الكثير من الصالحين أن يشهدوه ولم يظفروا،^(٢٠٩)

وأحس «التلاميذ» بالفخر وديت فيهم الحماسة لكنهم أيضا لم يفهموا هذه الأمثال ولم يستطيعوا أن يفكوا طلاسم رموزها. لقد نجحت في إثارة تفكيرهم وهذا هو ما قصده «المسيح» فقالوا وقد أشتدت رغبتهم في التعلم «يامعلم فسر لنا مثل الزارع».

فقال لهم «الزارع هو «روح الله» «الملكوت» الذي صدر عنه كل شئ والبيت هو جنة «الله» التي يمكن فيها شهوده والحقل هو العالم هذه الدنيا التي جعلها «الله» حقلًا للإبتلاء والبذور التي سقطت على الأرض هم الذين لا يقبلون كلمة «الله» فسرعان ما يتركونه رافضين رسالته التي تقدم إليهم رحمته فيسرع الشيطان إليهم بجنوده فيلتهمهم وينجح في محو مازرعه «الله» في قلوبهم».

«أما التي سقطت على الأحجار فإنهم الذين يتعجلون «الإيمان» بكلمة «الله» ويفرحون بها لكن دون أن تتعمق كلمة «الله» في قلوبهم فيبقى «الايمان» على السطح دون أن يستطيع أن يضرب بجذوره في قلوبهم المتحجرة القاسية ولذلك فإنه عندما تأتي الفتن التي يمتحن «الله» بها «الإيمان» فإنه سرعان ما يحترق في نارها فلا يبقى من كلمة «الله» المزروعة فيهم «شئ» فيهلكون. هؤلاء هم الذين يزلون عند حدوث الضيق والاضطهاد الذي لابد أن يأتي لإمتحان الإيمان».

«وأما التي سقطت بين الأشواك فهؤلاء الذين يؤمنون بكلمة «الله» ولكن حب الدنيا وكثرة مشاغلهم فيها تخنق كلمة «الله» المزروعة فيهم فتقتل الايمان فلا تأتي كلمة «الله» فيهم بثمر».

أما البذور التي وضعها الزارع بيده في التربة الجيدة فهؤلاء هم الذين يقبلون كلمة «الله» ويعملون بها فيتعمق الإيمان في قلوبهم ويضرب بجذوره في أعماقهم فيثمر فيهم على قدره فيعضهم يأتي بثلاثين ثمرة وآخرون بستين وآخرين بمائة».

كانت كلماته كنور الشمس يزيل الظلام عن الأشياء ويوضح المبهمات فاندفعوا مسرورين يقولون «فسر لنا يامعلم مثل الزوان في حقل الحنطة».

قال: «الحنطة» الزرع الطيب هي أبناء الملكوت الذين أنبتهم «الله» والعدو هو إبليس الذي يحارب «الله» فى الدنيا التى هى الحقل والزوان هو الناس الذين استطاع «إبليس» أن يستحوذ على قلوبهم فصاروا بمثابة أبنائه وجنوده. هم زرع فى الدنيا كما أن المؤمنين هم زرع «الله» وقد أختلط أبناء «الملكوت» المؤمنون بأبناء الشيطان فى الدنيا كلها كما اختلطت الحنطة بالزوان بحيث يستحيل التفريق بينهما وهما ينموان معا فى الحقل والعبيد هم أنبياء «الله» الذين يتعجبون أن يكون فى حقل «الله» شر و يطلبون من «الله» أن يستأصلوا الشر من الدنيا والحصاد هو القيامة التى يتم فيها التمييز والفصل بين الأخيار والأشرار كما يتم الفرز بين الحنطة والشوك عند جمع المحصول والحاصدون هم الملائكة الذين سيحصدون الأشرار فى جماعات كما يجمع القش والشوك والحشائش السامة من الحقل فى حزم ثم يلقون بهم فى الجحيم كما تلقى الحزم فى النار ثم يجمعون الأخيار إلى خزائن «رحمة الله» كما تجمع الحنطة فى المخازن».

«ألاترون أن كثيرا من الآباء الكافرين يلدون أبناء مؤمنين، من أجل ذلك أمهل «الله» الدنيا.

ومن له اذان للسمع فليسمع.

— قالوا «فسر لنا مثل بائعوا التين الجيد».

قال «صاحب التين الجيد هو «الله» وعبيده الذين أرسلهم به إلى السوق هم أنبياءه الذين أرسلهم إلى الدنيا والتين الجيد هو التعليم الجيد الذى يعطيه الأنبياء إلى الناس لكن الناس لا تهتم بجودة التعليم بل تنظر إلى الألفاظ الجميلة والعبارات المنمقة لذلك يقوم الشيطان الذى هو التاجر الشرير بتغليف تعاليمه الباطلة وأكاذيبه فى ألفاظ جميلة وعبارات منمقة ويوجهها إلى أوليائه وجنوده من البشر الذين يبيعونها للناس بأغلى ثمن ألا وهو حياتهم لكن الناس تُسرّ بالعبارات المنمقة وتفرح بالألفاظ الجميلة فتقبل الأكاذيب وتعمل بالتعاليم الباطلة فتخسر حياتها الأبدية أو تمرض مرضا شديدا حتى تشرف على

الهالك الأبدى ويتسلط الشيطان عدو الإنسان عليه بفضل هذه الأكاذيب والتعاليم الباطلة التي غُلّقت بأوراق جميلة .»

قالوا «من هو صاحب الماء الذي يترك ثيابه حتى تنتن ولا يغتسل ؟»

قال «هو هذا الشعب بكهنته وكتبته لأن «الله» أعطانا شريعته ينبوع الماء الذي أتاح لنا أن نتطهر به ولكن «الكهنة والكتبة» يأمرّون الناس بالبروينسون أنفسهم يحضون الناس على العمل بشرعية «الله» ولا يعملون هم بها فيأتى الناس إليهم ويستمعون إلى تعاليم الله ويعملون بها فيغتسلون من أوساخهم ويستعدون للعودة إلى جنة «الله» أما المعلمون فيبقون فى أدرانهم لاثنين فى الخطايا دون توبة .»

ما أتعس الانسان الذى يَعْلَم وَيُعَلِّم غيره مايجب فعله أما هو فلا يعمل بما يقول. إن ذلك الإنسان يكتب بلسانه العذاب الذى سيناله فى جهنم .»

أىكون شيئاً عجيباً لا يصدق أن يوجد كائن صغير دقيق الجسم أصغر من النملة ولكن لسانه أكبر من منخار الفيل» ؟

نظروا إليه متعجبين شاخصة أعينهم فقال «الحق أقول لكم إن من يدعو غيره إلى التوبة ولا يتوب هو نفسه عن خطاياہ لأشد غرابة من ذلك المسخ المشوه .»

«ذهب رجلان إلى سوق المدينة فأما أحدهما فكان يحمل تفاحاً طيباً وأراد أن يهب الناس مما معه دون مقابل لكن الناس أساءوا الظن به وقالوا لابد أنه يحمل ثماراً عفنة لذلك يريد أن يعطيها بغير ثمن أما الآخر فلم يكن معه إلا قشر التفاح لكنه قال للناس أنه لن يبيع مامعه إلا بزنته ذهباً فقال الناس لأنفسهم لابد أن معه شيئاً ثميناً فاندفعوا يشترون منه قشر التفاح بزنته من الذهب ويحتقرون الرجل الذى أراد أن يهبهم التفاح الحقيقى دون مقابل ويستهنئون به ويطردونه من مدينتهم. أما الذى باعهم قشر التفاح فقد صار ملكاً عليهم لأنه أصبح أغناهم وصاروا جميعاً مفتقرين إليه إذ أعطوه كل ماكانوا

يملكون مقابل قشور تفاح ليس فيه أى فائدة لهم فآلقوا به على الأرض. لقد خسروا كل شئ مقابل لاشئ. ثم سكت.

لكنهم قالوا «يا معلم فسر لنا هذا المثل» ؟.

إن المثل واضح الدلالة لايحتاج الى تفسير لكن القلوب التى أثقلها الإخلاق إلى الأرض كانت تجد مشقة كبيرة فى الإرتفاع الى هذه الكلمات.

فقال «المسيح» فى صبر الأب الرحيم بأطفاله الجهلاء «الرجل الذى يريد أن يهب التفاح هو المعلم الحقيقى الذى أرسله «الله» إلى الناس فهو يهدى الناس إلى طريق ربهم لا يريد منهم أجرا يعمل مدفوعا بمحبة «الله» ولذلك فهو لا يداهن أحدا من الخلق بل يبلغ رسالة «الله» راضيا بأن يعيش فى الدنيا معيشة الفقير لكن الناس لشدة فسادهم لا يقبلون رجلا كهذا بل هم جديرون بإحتقاره أما الذى يبيع قشور التفاح بزنته ذهباً فإنه المعلم الفاسد الذى يطلب مجد نفسه ولذلك فهو مستعد لأن يداهن الناس ويطلب رضاهم ويقول لهم ما يهونون سماعه وهكذا تهلك النفوس التى تتبع هذا التعليم الفاسد آه وكم من اناس هلكوا لهذا السبب.

قال «برنابا» وكيف يمكننا أن نعرف المعلم الحقيقى الذى يبشر من أجل محبة «الله» كيف نميزه عن المعلم الفاسد» ؟.

قال «المسيح» «إن من يترك التوبيخ على الخطايا مداها أصحاب الشأن فى الناس متقربا إلى أصحاب السلطة يجب تجنبه والفرار منه لأنه أفعى. إنه فى الحقيقة يحمل السم فى تعليمه إلى القلب الإنسانى».

الحق أقول لكم «إن الجريح لايحتاج إلى عصائب جميلة بل الى جراحة ومرهم جيد لمعالجة جروحه وكذلك لايحتاج الخاطئ إلى كلام مزوق بل إلى توبيخات صالحة حتى يخلص عن خطيئته».

قال «برنابا» «وكيف يجب علينا أن نستمع إلى المعلم الحقيقى» ؟

قال «المسيح» «يجب أن نصغى إلى المعلم الحقيقى كأن «الله» نفسه هو الذي يكلمنا لأن المعلم الحقيقى هو من أرسله «الله» لتعليم الناس. رسول الله هو لسان «الله» الذي يكلم به الناس فكما لا يمكننا التفريق بين الإنسان ولسانه الذي يتكلم به فكذلك يجب ألا نفرق بين «الله» ورسله لأن رسل «الله» هم لسانه فى خلقه: يجب الإصغاء الى المعلم الحقيقى كأن «الله» هو الذي يتكلم بقمه أتفهمون؟!

ومن له أذنان للسمع فليسمع. كانت الكلمات أكبر من قدرتهم على السمع والمعانى أكبر من قدرة أفئدتهم على الفهم والأسئلة تموج فى قلوبهم يعلو بعضها فوق بعض محدثة صخباً وإضطراباً وحيرة تحول بينهم وبين التصديق وتمنع التصديق من أن يستقر فى قلوبهم لكنهم قالوا «نعم».

(١٧)

«الحكم»

«إن الحكم إله الله أمر الاتعبدوا إلا إياه»
«ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»

«يوسف ٤٠»

انتقل «عيسى» مع تلاميذه الى «كفر ناحوم» فأسرع الى المجمع يتبعه تلاميذه حيث كان الناس يجتمعون لإستماع الموعدة يوم السبت.

كان الكاتب يقرأ من سفر «المزامير» حتى وصل الى قول «داود النبی»: «متى أفرغ فإننى أقضى بالعدل». فانتصب «المسيح» واقفا وتقدم الى دكة الوعظ حيث يقف الكاتب وكان الناس المجتمعون فى المجمع قد عرف بعضهم «المسيح» فأخذوا يتهايمسون فيما بينهم عن سبب حضوره الى قريتهم وأصواتهم تتعالى وهم يتناقشون فى المعجزات التى أجراها «المسيح» فى شفاء الأمراض وكان شفاء إبن قائد المائة وتحيطمه الأصنام هو محور الأحاديث.

طلب «المسيح» من الناس أن يلتزموا الصمت وهو يومئ بيديه ثم انساب النور من بين شفتيه قائلا (٢١٠) «قد سمعتم يا أخوتى ما قاله «داود النبی» حيث أخبرنا أنه يقضى بالعدل متى تهيأ لذلك ووجد نفسه مستعدا».

«لقد خاطب «الله» نبيه «داود» قائلا «يا داود إننا قد جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل «الله»» (٢١١) وخاطبنا «الله» بلسان نبيه «داود» فقال لنا «يا أبناء الإنسان اقضوا بالعدل. الحق أقول لكم إن كثيرين يقضون فيخطئون ويهلكون». فمن أين تنبع الخطايا ١٩»

«إنها تنبع من مخالفة حكم «الله» لأن الذين يحكمون يقبلون حكم «الله» إذا وافق أهواهم بل إنهم يسرعون في إنفاذه حتى لينزلونه أحيانا قبل وقته أما مالا يوافق أهواهم فإنهم يرفضونه وإن قبلوه صاغرين فانهم يتحايلون على إنفاذه حتى ييطلونه فعلا وإن قبلوه قولا أو يتباطئون في إنفاذه حتى تضيع الفائدة المرجوة منه فهم ينقضونه بالفعل وإن ادعوا التسليم له باللسان. هم في الحقيقة يحتكمون إلى أهوائهم لا إلى حكم «الله» ولذلك يضلون عن سبيل «الله» فيهلكون.»

لو تذكر أولئك الذين ينصبون أنفسهم قضاة على الناس أنهم سوف يقفون في يوم عسير أمام «الله» الذي يأتي ليحاسبهم وأن عليهم في ذلك اليوم الآتي لامحالة أن يعطوا إجابة عن سؤاله بماذا حكمتكم ؟ ولماذا ؟

«ذن لأسرعوا يفرون من كل منصب يجعلهم يقفون بين الناس في موقف القاضي .»
«قولوا لي «ماذا يفعل أولئك المتبطلون الذين يجلسون في الطرقات وعند المنعطفات ولاعمل لهم إلا مراقبة الناس والحكم عليهم قائلين دون أن ينصبهم أحد قضاة هذا صالح وذاك فاسد.»

«هذا الرجل يستحق الجحيم وذلك الرجل خاطئ وسوف ينال عذاب «الله» وهذا جميل وهذا قبيح.»

«ويل لأولئك القضاة الكاذبون الذين يغتصبون سيف الحكم من يد «الله» ينازعونه سلطته ويل لهم لأنهم قد نصبوا أنفسهم قضاة دون أن يأذن «الله» لهم. «الله» هو القاضي وهو الشهيد ولم يعط مجده لأحد.»

ويل لهم لأنهم يحكمون على مالا يعلمون ويشهدون زورا بما لم يروا أو يسمعوا. ويل لهم لأنهم يأكلون أعراض الناس بأسنان الشيطان في أفواههم ولذلك فإنهم يكونون مكروهين على الأرض وفي السماء ويمقتهم «الله» وسيعذبهم في يوم الدين.

«ويل لهم لأنهم يمدحون الشر ويسمونه خيرا ويكرهون الخير ويسمونه شرا إنهم فى حكمهم الباطل يتهمون «الله» بأنه خاطئ ويدعون أنه مصدر الشرور ويصفون الشيطان بالصالح ويزعمون أنه مصدر الخير فى الدنيا وهو سر لعنتها فانظروا أى قصاص عادل ينبغى أن ينزل بهم ؟!»

«الحق أقول لكم إن الشياطين أنفسهم تقشعر أبدانها من هول العذاب الذى ينزله «الله» بهؤلاء الذين يحكمون للخاطئ من أجل نقوده ولايقضون فى دعوى الأراامل واليتامى.»

«أيها الإنسان المنصوب من «الله» قاضيا لانتظر الى القرابة أو الصداقة أو المكانة التى يحتلها أحد الخصوم فى المجتمع أو الى المال الذى يمكنك أن تكسبه أو تخسره ولا تنتظر الى النفع الذى يمكنك أن تحصل عليه أو الضرر الذى يمكن أن ينزل عليك كلا بل انظر الى شئ واحد وجه «الله» الذى ينظر اليك يراقبك وعليك ان تطلب العدل الذى هو حكم «الله» بأقصى اجتهاد وأن تصلى «له» من أجل أن تصل اليه لإنك حينئذ فقط تكون فى مأمن من عذاب «الله»..»

«أيها الانسان الذى تحكم على غيرك إننى أنذرك فكما تدين تدان. إن من يحكم بلا رحمة سوف يحكم عليه كذلك بلا رحمة فانظر كيف تحب أن يحكم عليك.

أيها الانسان الذى تحكم على غيرك ألا تعلم أن منشأ جميع البشر من طينة واحدة فلماذا تظن أنك أفضل من غيرك ؟ (٢١٢) أتقول عن نفسك أنك صالح ؟

ألا تعلم أنه لا يوجد أحد صالح إلا «الله» وحده.

صدقنى عندما أقول لك أنك إذا كنت تدين غيرك على ذنب تراه فإن قلبك يحتوى على ذنب أكبر ولكنك لاتراه فاعلم أيها الإنسان أن فى قلبك ماتدان عليه .

«ما أشد الخطر الذى يحيط بالقضاة وما أكثر الذين هلكوا بسبب حكمهم الجائر.»

«ألم يحكم «إبليس» بأنه أفضل من الإنسان لأنه خُلِقَ من نار أما الإنسان فقد خلق من طين وبسبب حكمه الجائر ظن أن الإنسان أدنى منه فأبى أن يسجد له مخالفاً أمر «الله» وأصر على خطيئته رافضاً التوبة ومتشبثاً بحكمه الظالم فكان ذلك الحكم الجائر هو أصل الشر فى الدنيا.»

«وقد حكم «آدم وحواء» بأن الشيطان صادق ومخلص وأطاعاه فأكلا من الشجرة التى نهاهما «الله» عنها فكان ذلك الحكم الجائر هو سبب خروج البشر من الجنة ونزولهم الى الدنيا أرض الابتلاء ليكابدوا المشقة بعد أن كانوا يرفلون فى النعيم وليحذر كل منا أن يلوم «آدم» على خطيئته لأنه حينئذ يدعى أنه أفضل منه وهذه هى الدعوى التى أدها إبليس وأصر عليها حتى طُرِدَ من الرحمة الى اللعنة، إن كل إنسان كان سيأكل من الشجرة المحرمة لو أنه كان فى مكان «آدم» فإن قلب الإنسان يهوى المعصية كما يجذب الفراش الى النار التى تحرقه وكل انسان خاطئ وكاذب.»

«الحق أقول لكم إن الحكم الخاطئ هو أصل كل الخطايا فلا أحد يخطئ دون أن يريد ولا أحد يريد ما لا يعرف فعندما يريد الإنسان المعصية أفلا يحكم أولاً بأنها صالحة أو نافعة أو جميلة وإلا ما أرادها فلا أحد يريد لنفسه الضرر أو الفساد. إذن فالخاطئ يقول بخطيئته أن «الله» كاذب أو مخطئ لأن «الله» أخبرنا أن الخطيئة فساد يعود علينا بالضرر والخاطئ يحكم بغير هذا ولذلك يختار المعصية وينبذ الطاعة فانظروا إلى بشاعة هذا الجور الذى يحكم به الخاطئ بإرادته الخطيئة وانظروا الى ما يستحق من عذاب ينزل به قصاصا يعدل «الله» الذى لا يظلم أحداً من خلقه مثقال ذرة.»

ما أكثر الذين أهلكوا أو أوشكوا على الهلاك بسبب حكمهم الجائر. لقد حكم «فرعون» على «موسى» وبنى اسرائيل بالكفر لأنهم رفضوا عبادته. وحكم الملك الفاجر «أخاب»

«على نبي «الله» «إلياس» (إيليا أو الياهو) فقضى نبي «الله» حياته مطاردة من الملك الفاجر وأمراته الفاسدة التي وجدت عشرات من الأنبياء الكذابين الذين أدانوا نبي «الله» الصادق وحكموا عليه بالكذب. لقد أدان الملوك عباد الاصنام أنبياء «الله» وحكموا عليهم بالموت.»

ما أُرهب قضاء «الله» حين يأتي في يوم الدين ليدين الظالم وينجي المظلوم.»

«بل ما أشد ما كان قُرب الصالحين من الهلاك بسبب الحكم الجائر. ألم تروا كيف حكم أبائكم أبناء «يعقوب» على أبيهم نبي «الله» الكريم بأنه قد ظلمهم بحبه «يوسف» أكثر منهم وحكموا على «يوسف» نفسه بأنه سارق وحاولوا التخلص منه بقتله ثم رموه في البئر.»

«ألا تذكروا كيف أعنت نبي «الله» وخليفته «داود» «أوريا» الجندي إذ خيره بين الزواج من المرأة التي يحبها أو رفع رتبته في الجيش فعاتبه «الله» عتاباً شديداً على شدته مع «أوريا» الجندي المطيع حتي أن «نبي الله» ندم على خطئه ندماً شديداً وظل يبكي شهوراً طويلة.»

كثيرون هلكوا أو أشرفوا على الهلاك بسبب حكمهم الجائر الذي يخالف عدل «الله» الرحيم بعباده لذلك أقول لكم لاتحكموا على أحد وأتركوا الحكم «الله».

«لاتدينوا حتى لاتدانوا».

فبكى كثير من الحاضرين نادمين على خطاياهم وأسرع آخرون يحضرون مرضاهم وتزاحم الناس حول «المسيح» الذي كان يجلس في الرواق مع تلاميذه وأخذ نبي «الله» يصلي من أجل المرضى الذين حضروا بين يديه ولسهم بيده المباركة فنالوا شفاءهم من «الله» بإيمانهم وسبح الكثيرون «الله» الذي وهب بنى إسرائيل هذا النبي العظيم وطلبوا إليه أن يمشي معهم فاعتذر لأنه يريد أن يبشر بملكوت «الله» في القرى الأخرى فرجاه الكثيرون أن يأذن لهم بصحبته ليعدموه فقال لهم «لم آت إلى الدنيا لأخدم بل لأكون

خادما» وطلب إليهم أن يبقوا في قريتهم قائلا «لا تتركوا بيوتكم بل اتركوا الخطيئة وحينئذ تتبعونى وأينما أمضى تكونون معى بل تكونون مع «الله» ويكون «الله» معكم أعبدا «الله» وأستعدوا للقاءه فبهذا وحده تكون النجاة».

ثم ودع الذين تجمعوا حوله ودعا «الله» لهم وسار مع تلاميذه وهو صامت يطرق الى الأرض ثم اعتزل تلاميذه، ابتعد عنهم وصلى منفردا وأطال السجود حتى أستبد القلق بالتلاميذ فأخذوا يقتربون منه فى حذر فلما انتهى من صلاته تقدموا إليه وقلوبهم تموج بالحيرة والأسئلة تتدافع فى صدورهم وهو ينظر إليهم صامتا.

قال «برنابا» وقد أرتدى ثوب الحكمة الزائفة محاولا محاكاة «المسيح»: «ويل للرؤساء لأنهم سيذهبون الي الجحيم(٢١٣)

فقال «المسيح» «لقد صرت غيبيا يا «برنابا» إذ تنطق بهذه الحماقة. الحق أقول لك لو كان الحمام ليس ضروريا لجسم الإنسان أو كان اللجام غير مفيد للفارس أو كانت الدفة غير ذات نفع فى تسيير السفينة فإن وجود رئيس للشعب يكون غير ضرورى بل أن وجود رئيس للشعب أشد ضرورة من هذه الأشياء.»

«قل لى لماذا أعطى «الله» سيف الحكم «لئوسى» و «يوشع» و «صموئيل» و «داود» و «سليمان» وآخرين غيرهم.»

«لماذا أذن «الله» لهؤلاء أن يصدروا أحكاما ؟

إن «الله» أعطى الحكام سيف الحكم لكى يستأصلوا الإثم من الشعب» قال «برنابا» «ولكنك يا معلم قلت يجب أن نفر من كل منصب يجعلنا نقف بين الناس موقف القاضى وقلت لاتدينوا حتى لاتدانوا فكيف يجب إصدار الحكم بالادانة أو البراءة ؟

قال «المسيح»: «يا «برنابا» ليس كل أحد مؤهل لأن يكون قاضيا لأن «الله» هو الملك

وقد أعطى الملوك لبعض خلقه و«الله» هو القاضى وأذن لبعض خلقه ببعض سلطانه فالقاضى وحده هو الذى يجب عليه أن يقتص من المجرم وأن يبرئ المظلوم وكما يجب على الفلاح أن يستأصل الحشائش والنباتات السامة حتى لا تفسد زرعته يجب على القاضى الذى نصبه «الله» أن يزيل الأشرار حتى لا يفسدوا بقية الشعب ولا حياة للشعب بدون هذا .»

قالوا «يا معلم كيف تقول أن «إبليس» مُصّرٌّ على خطيئته وأنه لا يريد أن يتوب عنها؟» (٢١٤) يريدون أن يقولوا كيف عرفت هذا ؟ من أنبأك بهذا ؟ وهل تعرف ما يدور فى نفس «إبليس» .

قال «عرفت هذا من محادثتى معه»

قالوا «محادثتك مع من؟»

قال «مع إبليس» .

قالوا «وهل حدثت «إبليس» وكيف حدث هذا أخبرنا يا معلم كيف كلمته ؟»

قال «الحق أقول لكم لقد رثيت لحال إبليس وعطفت عليه ليقينى من المصير الرهيب الذى ينتظره وفكرت فى أنه مصدر الشر على الأرض وسبب الفتنة التى يهلك فيها الكثيرون وعطفت على الإنسان الذى كُتِبَ عليه أن يقضى حياته الدنيا فى صراع لا يهدأ مع الشيطان» فقلت إن «الله» قادر على كل شيء ومن الممكن له أن يهدى «إبليس» وأن يتوب عليه وحينئذ تزول الفتنة من الأرض وينعم الخلق جميعا بالسلام فرغبت فى إجراء المصالحة بين «الله» و«إبليس» . صُمْتُ «له» منتظراً نداءه ثم نادانى قائلاً ماذا تطلب يا عيسى ؟ »

قلت «رب إن إبليس ليس إلا واحداً من خلقك الذين لا يحصيهم أحد غيرك وبفتنته يهلك الكثيرون وأنت القادر على كل شيء فارحمه ربى لينجوا الناس من شره» .

قال «الله»: «يا عيسى» إنى أقبل أن أغفر له وارحمه فاحمله على أن يقول «أيها الرب آلهى لقد أخطأت فأرحمنى» فإنى أتوب عليه وأعيده الى سيرته الأولى قبل عصيانه.»

قال «عيسى» فملأنى السرور إذ ظننت أننى أوشكت على أن أصنع المصالحة التى يزول بها الشر من الأرض وسرعان ما جاعنى «إبليس» كما جاعني من قبل وقال لى فى صلف «ماذا تريد منى يا «عيسى» أن أصنع لك» ؟.

قلت: «إننى لا أريد منك شيئاً بل أريد أن أصنع لك معروفاً فإننى أدعوك لما فيه صلاحك» .

قال: «إن كنت لا تريد منى شيئاً فأنا أيضاً لا أريد منك شيئاً وكيف تستطيع أن تصنع لى معروفاً وأنا أشرف منك فإننى من النار وأنت من طيته نجسة. إنك لست أهلاً لأن تكون خادماً لى «فتمالكت نفسى مستعينا «بالله» على الصبر وقلت دعك من هذا وقل لى أليس حسناً أن تعود إلى هيتك الأولى قبل معصيتك «الله» ألا تعلم ما ينتظرك من مصير رهيب يوم الدين. إنك ستضرب فى يوم الدين مائة ألف ضربة بسيف «الله» ينالك من كل ضربة عذاب عشر جحيمات» .

فقال وقد امتلأ بالغيظ «سنرى أينأ أكثر جندا وأشد قوة أنا أم «آلهك». إن لى أنصاراً كثيرين من مرده الجن وينضم إلى جيشى الكثيرون من عتاة الكافرين وسكون قادرين على إزعاج «إلهك» وسيعلم حينئذ أى غلطة فظيعة ارتكبها بطردى من الجنة من أجل طينة نجسة» .

فقلت وقد ملأنى الرعب خشية أن ينزل «الله» علينا نقمته: «يا إبليس إنك لمجنون سخيف العقل لا تدري ماذا تقول» .

فارتسم على وجهه الإستهزاء بى وهز رأسه ساخراً منى وهو يقول «إننى حقا

مجنون فقل لى أيها العاقل الرشيد يا من تريد أن تتم المصالحة بينى وبين «الله» أيها المعلم الحكيم ؟ ماذا تريد أن أفعل ؟. «قلت: «ليس عليك إلا أن تنطق بكلمتين فقط».

قال «وما هما؟

قلت «أيها الرب الهى أخطأت فارحمنى » .

قال «إننى عن طيب خاطر أقبل مسرورا هذه المصالحة شريطة أن يقول «الله» لى هاتين الكلمتين».

فأصابنى الذهول وصرخت فيه: «أغرب عن وجهى أيها الملعون إن «الله» منزّه عن الخطأ إنك أنت الشرير المنشئ لكل شر على الأرض».

فقال مذعورا: «إن الأمر ليس كما تقول يا عيسى ولكنك تكذب لتجامل «الله»

ثم التفت «المسيح» الى تلاميذه الذين يستمعون إليه وقد أطبقت عليهم الدهشة وشخصت أعينهم «أنظروا الآن أنى يجد رحمة».

قالوا: «إبدأ يا معلم لا يجد رحمة».

قال «لماذا» ؟ .

فأصابهم الوجوم فأسرع يجيبهم «لأنه غير تائب إنه لم يندم على خطئه ولا يريد أن يتوب».

قال «سمعان» الذى أصبح إسمه «بطرس»: «يا معلم قل لنا كيف يعذب أللهنا الكافرين وصف لنا الجحيم وأخبرنا كم يكون بقاؤها حتى يهرب الانسان من الخطيئة ؟ »

«وما معنى عشر جحيمات ؟!»

قال «المسيح»: «لقد سألت يا «بطرس» عن شئ عظيم وإنى مجيبك عليه إن شاء «الله»

«يا تلاميذ إن الجحيم واحدة وفيها يعذب الملعونون الى الأبد إلا أن لها سبع طبقات كل واحدة أعمق من التى فوقها فهى مثل سجن يجلس فيه المنبوذون فى سبع دركات أو سبع دوائر، الدائرة الأولى من الخارج تحوى الدوائر التى تليها فى اتجاه الأعماق ومن يذهب أعمق ينال عذابا أشد وكل دائرة من الدوائر لها باب فيكون لجهنم سبعة أبواب لأن للخطيئة سبعة أبواب هى منافذ الشيطان الى قلب الانسان فأعمق تلك الأبواب وهو المؤدى الى أشد العذاب هو «الكبرياء» لأن المتكبر يدعى هنا فى الدنيا أنه أفضل من غيره غيرعابئ بأوامر «الله» ولايعترف بأن أحدا يعلوه مكانه حتى «الله» نفسه ومن ثم يكون عقابه أن يوضع أسفل جميع المنبوذين ماراً فى هبوطه الى الأعماق بجميع أنواع العذاب ليكابد كل الآلام ثم يستقر تحت أقدام الملعونين مع «إبليس» ليكون موضع سخرية كل المنبوذين .

ويكون الحسود فى الدركة السادسة فوق المتكبرين الذين ينازعون «الله» وداءه وكما أن الحسود فى الدنيا يتمنى ويعمل على زوال نعمة «الله» من عباده ويبتهج بالمصائب التى تحل بغيره من خلق «الله» فإنه وهو يعانى من أنياب أفاعى الجحيم التى تنتهشه يخيّل إليه أن جميع شركائه فى اللعنة يبتهجون لعذابه ويتأسفون لأنه لم يهبط إلى السابعة ويناله من هذا الخيال ألم أشد من ألم نهش الأفاعى فى قلبه فى ذلك المكان الملعون الذى لاموضع فيه للبهجة يخيّل للحسود أن الجميع مبتهجون بالعذاب الذى نزل به ويتمنون له عذابا أشد .

هذه هى نهاية الحسود الذى يسخط معترضا على حكم «الله» هذا هو المصير التمس الذى ينتظره بعدل «الله» .

ألا ترون أن النائم يخيل إليه في الحلم أن شخص «ما» يركله فيناله ألم شديد
ويصيبه الغم من تلك الركلة التي خُيل إليه أنها أصابته .

أما البخل فإنه يهبط بصاحبه الى الدركة الخامسة حيث يُطبق عليه فقر مدقع وهو
يرى النعيم العظيم الذي يتمتع به أهل الرحمة وستزيد الشياطين من عذابه بأن تقدم إليه
ما يشتهى حتى اذا صار بين يديه وأوشك أن يناله جاءت شياطين أخرى فاختطفوه في
غلظة وهم يبوخونه قائلين «تذكر أنك لم ترد أن تعطي أحدا شيئا مما أعطاك «الله» فاليوم
لا يريد «الله» أن يعطيك شيئا مما تشتهيه».

ويتذكر النعيم الذي كان يتقلب فيه في الدنيا والسعة التي كان يتمتع بها ويتحسر لأنه
كان بوسعه بتلك السعة التي لم يعد يستطيع أن يستعيدها كان بوسعه ان ينال النعيم
الأبدى فيزداد حينئذ عذابه.

وتهبط الفواحش بمرتكبيها الى الدركة الرابعة فيأتى الزناة نساء شعورهن من
الأفاعى وعيونهن أحواض من الكبريت الملتهب ومن أفواههن تخرج السموم ومن السنتهن
يقطر العقلم وتغضى أجسادهن أشواك فظيعة كأنها الشصوص التي تصطادون بها
الأسماك ولهن مخالب مثل مخالب العقبان وأظافر كأنها السكاكين الحادة ومن فروجهن
تنبعث الثيران ويعانق الذين غيروا الطريق التي أعطاهم «الله» الأفاعى الجهنمية. على سرير
من حصب جهنم يكابد الشهوانيون ممارسة فواحشهم مع تلك الشياطين البشعة حيث لا
لذة على الإطلاق بل ألم لا ينتهى .

ويهبط الكسول للدركة الثالثة. إنه لا يحب أن يقوم الآن ليغتسل ليصلى أو أن ينهض
ليقدم خدمة أو مساعدة إلى أخيه وسيكون عليه في جهنم أن يحمل الأثقال على ظهره
ويديه مغلولتين بالسلاسل وأفاعى جهنم تلتف حول ساقيه تريد جذبه لإسفل والشياطين
وراءه تركله وتدفعه تريد رميه وهو يقاوم السقوط يريد أن يصعد بالأثقال التي على ظهره

الى حيث يجب بناء القصور والقلاع والحصون ويسقط عدة مرات ويضطر للقيام ويعاود الصعود ولا أحد يساعده كما أنه لم يكن يرغب فى مساعدة أحد وكلما قام وعاد السير وضعت عليه أثقال أكبر حتى اذا وصل هدمت كل تلك الابنية وتهاوت أحجارها من جديد لأنها قد وضعت بطريقة خاطئة ويكون على الكسول أن يعاود الكرة مرة أخرى وهكذا الى الأبد .

ويهبط المسرفون الى الدركة الثانية حيث لا يجدون ما يأكلون إلا العقارب والأفاعى السامة ولا يشربون إلا الصديد والسوائل الملتهبة العفنة . إن أيديهم وأرجلهم تكون مغلولة فى القيود والسلاسل والشياطين التى تستهزئ بهم تقدم إليهم مايتوهمون أنه طعام شهى أو شراب لذيذ كما يحسب الظمان السراب ماء من شدة عطشه حتى إذا اقتربت الشياطين منهم وقدموا إليهم ما يحملون . أصاب المسرفين الفزع من بشاعة ما يقدم إليهم لكنهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم فيأكلون ويشربون ما يقدم اليهم رغماً عنهم فتقطع أمعائهم وتغلى بطونهم وتخرج منهم القذورات التى سيكون عليهم إلتهامها مرة أخرى وهكذا الى الأبد .

ويهبط الغضب بالمستشيط به الى الدركة الأولى حيث يمتنه كل الملعونون وهم فى طريقهم الى الدركات الأسفل فيصفعون ويرفسونه ويلقون به واضعين أقدامهم على عنقه وهم يهرولون تطاردهم اللعنة الأبدية الى أعماق الجحيم وهو لا يستطيع حتى أن يظهر غضبه لأن لسانه ممسوك بما يشبه الشخص الذى يستعمله بائع اللحوم فكما أنه لم يكبح غضبه وأهان الآخرين فإنه فى جهنم يهان من الجميع ولا يستطيع أن يظهر غضبه .

الكبرياء والحسد والبخل والكسل والفواحش والاسراف والغضب هذه هى أبواب جهنم . فى ذلك المكان الملعون يكون عقاب عام يشمل كل الدركات كما أنكم من مزيج مأخوذ من عدة حبوب تستطيعون أن تصنعوا رغيفا واحدا .

ستتجمع فى تلك البقعة الملعونة كل المتناقضات وستتحد بعدل «الله» لتصنع عذابا لا يستطيع وصفه سيكون هناك البرد القارس والحرارة الشديدة ولكن البرد لا يخفف الحرارة ولا الحرارة تزيل البرد. سيكون هناك الجليد والنار ولكن الجليد لا يطفىء النار ولا النار تمحو الجليد بل كلا منهما ينتج عذابا لا يستطيع صنعه إلا «الله» وحده .

فى تلك البقعة الملعونة يقيم الكافرون الى الأبد ولو كان يتاح للكافرين أن يعلموا أنهم سيقضون فى جهنم وقتا أطول من الوقت الذى يقضيه طائر واحد فى نقل كومة هائلة من الحبوب غطت كل الأرض ينقل فى كل مائة عام حبة واحدة لسرهم ذلك وكان لهم عزاء إذ سيكون لعذابهم نهاية لكن لا يتاح لهم علم ذلك فلن يكون لهم عزاء إذ يدركون أن عذابهم بلا نهاية فليس لهم الأمل فى الخلاص من الجحيم ودخول الجنة وكما أنهم لم يريدوا أن يجعلوا لخطاياهم نهاية فمن العدل ألا يكون لعذابهم نهاية. أما المؤمنون فسيكون لهم عزاء أن لعذابهم نهاية». تملك الذعر التلاميذ لما سمعوا هذا الكلام وقالوا .

«أيدخل المؤمنون جهنم ؟»

قال «المسيح»: «نعم بل يتحتم على كل الخلق أن يدخلوا جهنم. بل إن رسول «الله» نفسه يدخل جهنم. لكن الأنبياء والصالحين يذهبون الى هناك ليعاينوا عدل «الله» لا ليكابدوا عذابه ويصيب المؤمنون من عذاب جهنم بقدر ذنوبهم ولكن بفضل إيمانهم يستطيعون الخروج من جهنم. أما الكافرون فإنهم لا يقدرّون على الإفلات من قبضتها فيحبسون فيها وتغلق عليهم أبوابها فيدركون أن عذابهم دائم لا ينتهي وحينئذ ييأسوا من رحمة «الله» .

لقد قضى «الله» أن يذهب الجميع إلى جهنم حتى «رسول الله» ولكنه لا يمكث هناك إلا أقل من طرفة عين ويتوقف العقاب عن جميع الخلق لحظة مكث رسول «الله» فى جهنم ليعرف كل مخلوق أنه نال رحمة من رسول «الله» الذى هو رحمة «الله» إلى الخلق كلهم.

إن الجحيم ترتعد لحظة مرور «رسول الله» عليها وتفر الشياطين هاربة من وجهه تحاول الاختفاء وهم يولولون «إهربوا إهربوا» فإن عدونا قد أتى ويصفع «إبليس» وجهه بكفيه وقد ملاء الغيظ لأن الشياطين لم تعد تخاف منه وأنهم قد خافوا من «رسول الله» ويصرخ «إن هذا لظلم كيف يكون هذا أشرف منى».

كان التلاميذ يستمعون الى «المسيح» وقد شخصت أعينهم لا يصدقون ما يقول وظلت مسألة العشرة جحيمات تحيرهم فواصل «المسيح» حديثه قائلاً «إن من يرتكب خطيئة واحدة يستحق جحيماً واحدة ومن يرتكب خطيئتين يستحق جحيمتين ومن يرتكب عشرة يستحق عشرة جحيمات لأن ما هي الخطيئة ؟ !»

«إن الخطيئة هي قطعة من جهنم ظهرت في صورة معصية «الله» فليست المعصية إلا نفساً من أنفاس جهنم أخرجته من جوفها لتخفف من غيظها فلا بد أن تستعيد جهنم ما أقرزته من باطنها فمن يرتكب معصية واحدة فإنها تجره إلى جهنم «أمها» التي ولدتها. المعصية الواحدة تؤدي بحاملها الى الجحيم مرة والمعصيتان تذهب به الى هناك مرتين وعشرة معاصي تلقى به في جهنم عشر مرات. ياتلاميذ إن جهنم واحدة ولكن من فيها يعانى من العذاب بقدر خطاياهم فيشعر أنه يكابد عشرة جحيمات أو مائة أو ألف وكلامى صحيح عندما قلت لكم إن كل ضربة ينالها «إبليس» يوم الدين تساوى عشرة جحيمات و «الله» قادر على كل شئ سيجعل بقوته وعدله الشيطان يكابد عذاباً كأنه دخل ألف ألف جحيم وكل خاطئ غير مغفور له يكابد على قدر إثمه.

وينال المؤمنون عذاب على قدر ذنوبهم التي لم يغفرها «الله» لهم ولكنهم لا يهبطون إلى أعمق من الطبقة الثانية. إنهم يتعذبون في الدركتين الأولتين ولكن الى حين فسيأتى عليهم وقت يقبل «الله» فيه شفاعة رسوله فيرحمهم ويغفر لهم فيخرجون من جهنم الى الجنة لأن فى قلوبهم شئ من الايمان ربما يكون مثل مثقال حبة من القمح أو حبة من الخردل أو مثقال ذرة فبالايمان وحده ينجو الانسان من جهنم وربما بقى الواحد منهم فى العذاب

سبعين ألف سنة ولكنه يعلم أنه سيأتى عليه يوم يخرج فيه من اللعنة. بذلك الإيمان يبقى
الأمل فى قلوبهم ويظلون يتضرعون الى «الله» ويسألون رسوله الشفاعة فيهم صارخين
باكين حتى ينظر «الله» إليهم ويقبل شفاعة رسوله الذى يتضرع الى «الله» أن يعتق
المؤمنين العصاة من تلك العذابات الرهيبة».

وسكت السيد «المسيح» وقد بدا على وجهه الحزن وأطرق الى الأرض. طال صمته
والتلاميذ يشعرون بالإضطراب لأن كلماته كانت غريبة علي قلوبهم والشك لم يزل يملأ
قلوبهم بالحيرة والأسئلة الكثيرة التى تتدافع داخلهم كالأمواج فى بحر هائج لاتتيح لهم أن
يصطاونوا المعنى المختبئ فى تلك الألفاظ والأمثال التى تزيدهم حيرة علي حيرتهم.

قال «بطرس»: «يا معلم إن عذاب «الله» شديد حقا وعدله عظيم ولقد جعلك الكلام
اليوم حزينا لذلك نرجوك أن تستريح وفى الغد نخبرنا أى شئ يشبه الجحيم !!»

بعد كل هذا الشرح الطويل لم يعلموا بعد أى شئ يشبه الجحيم فقال «المسيح»: «يا
«بطرس» إنك لاتدرى ماتقول والأما قلت لى استرح الآن الحق أقول لكم إن الراحة هى
السّم الذى يقتل التقوى فى القلوب والنار التى تاكل الاعمال الصالحة».

«ألا تذكروا أن الانبياء جميعا قد نددوا بالكسل».

«أنسييت ماقاله «سليمان» النّبى «إن الكسول لا يحترث فى الشتاء خوفا من البرد
ولذلك فهو يتسول فى الصيف وقال أيضا «كلّ ماتستطيع يدك أن تفعله فافعله
دون راحة».

وقال «أيوب» نبي الله الصّابر «كما أن الطير مولود للطيران فإن الانسان
مخلوق للعمل»

«الحق أقول لكم أننى لا أعاف شيئا فى الدنيا أكثر من الكسل».

«الجحيم واحدة وهى نقيض الجنة كما أن الشتاء نقيض الصيف والبرد ضد الحر ولايستطيع أن يعرف الجحيم إلا من يكابد عذابها ولايستطيع أن يصفها إلا الذين عرفوا رحمة «الله» حقاً ولذلك فإن الأنبياء هم أقدر الناس على وصف جهنم. ذلك المكان الملعون يعدل «الله» الذى لا يظلم مثقال ذرة ولا أقل من ذلك. إنها المكان الذى وصفه نبي «الله» «أيوب» فقال «ليس فيه أى نظام بل خوف أبدي».

«إنها السجن الذى يعانى المحبوسون فيه من الجنون والهلع. إنها الاضطراب الدائم الذى لا يحتمل.»

قال «إشعيا» النبي فى وصف أهل جهنم «إن اللهب الذى يحترقون فيه لا ينطفئ والدود الذى يعيش على أجسادهم المتعفنة لا يموت».

وقال «داود» باكيا وهو يذكر بعض ما يعانى به أهل العذاب «يُمَطَّر عليهم الكبريت الملتهب وترعبهم البروق والصواعق والعواصف الشديدة».

«يالهم من خطاة تعساء ليس لهم أى أمل فى الخلاص»، «ما أشد الآلام التى يكابدونها من الجوع والعطش ومن الأشواك والحيات والعقارب التى سيكون عليهم أن يقتاتوا بها والصديد والسوائل الحارقة التى سيضطرون لتجرعها من شدة عطشهم لكن عطشهم لا يزول ولا يخف بل يزداد ضراوة. إنهم يضطجعون على جمر محرق ويرتدون ثيابا من النار. إنهم يواصلون الصراخ والبكاء المر ولكن دون جدوى لأن «الله» لا يلتفت اليهم».

وسكت «المسيح» وأطبق الصمت ثم عاد ليقول وقد إمتلأ صوته بالأسى «حقاً لقد كان خيرا لهم لو لم يولبوا من أن يعانون كل ذلك العذاب الشديد وما أشد كراهيتهم حينئذ للأطعمة الشهية والثياب الفاخرة والآرائك الوثيرة والألحان الرخيمة وكل ملذات الدنيا التى ضيعوا عمرهم فى الجرى ورائها».

«تصوروا إنسانا يعانى عذابا فى كل جارحة فى جسده وليس له من يرثى له بل الجميع يستهزئون بعذابه ويسخرون منه .ألا يكون ألمه مبرحا ؟!»
قالوا «أشد تبريح».

قال «إن أهل جهنم يعدون ذلك الإنسان بالنسبة إليهم فى النعيم».

«الحق أقول لكم لو أن الله خيّر أهل جهنم بين كل الآلام التى عانى منها الخلق جميعا منذ بدأ الدنيا حتى نهايتها وبين مكابدة ساعة واحدة من عذاب جهنم لاختاروا الآلام الدنيوية لأن العذاب فى جهنم سيكون على يد من لاشفقة لهم على الإطلاق ولا يخففه شئ من رحمة «الله». ما أشد صرير الاسنان والبكاء والعتويل. إن ماء الأردن أقل من الدموع التى ستجرى من عيونهم فى كل لحظة ولكن دون أمل لأنها لاتجذب إليهم رحمة «الله» .

وفباضت الدموع من عين «المسيح» وبكى التلاميذ بكاء شديدا ثم نزل الصمت على الجميع.

لقد أكثر «المسيح» من الاستشهاد بكلمات الأنبياء من قبله لعله ينجح فى اختراق جدار الشك السميك الذى يحيط بالقلوب ثم قام ليصلى وأدرك التلاميذ أن «المعلم» قد صار كئيبا الى الحد الذى لم يستطيعوا معه أن يحدثوه فتركوه لصمته وحزنه ووحشته وجلس كل واحد منهم يفكر فى كلام «المعلم» وقد أحاط بهم الجزع من كل جانب .

(١٨)

«الايمان»

«احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم

فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين»

«العنكبوت ٢-٣»

أمر «المسيح» تلاميذه أن يركبوا معه «السفينة» ليذهبوا الى الجانب الشرقى من بحر الجليل (بحيرة طبرية) ليبشر فى القرى والمدن هناك فدخلوا إلى السفينة وأخذوا يعبرون البحر إلى الشرق .

كان التلاميذ مايزالون فى وجومهم يتفكرون مكتئبين فى كلام «المسيح» عن جهنم وأهوال القيامة وقد التزموا الصمت «لماذا كل هذه العذابات الرهيبة»؟

أيمكن أن تقع فى الحقيقة كل تلك الأهوال أم أنها خيالات شاعر أصاب عقله المرض ؟! أيدخل المؤمنون جهنم «بل يقول إن الأنبياء أنفسهم يدخلونها حتى النبى الذى يقول أنه جاء إلى الدنيا ليبشر به ؟!

ما فائدة الايمان إذن ؟!

كان التعب قد أستولى على «المسيح» فنام فى مؤخرة السفينة وقد وضع تحت رأسه وسادة خشنة وأستسلم لسلطان النوم فتلألا وجهه ببراعة الطفولة .

وعلى حين فجأة تغير الجو فاشتد الريح وأمتلأت السماء بالسحب الداكنة حتى أنها حجبت الشمس. بدا كأن الليل قد هبط فجأة وأندفعت الأمواج تتعالى وسفينة الصيد الصغيرة التى يركبون ظهرها تتأرجح بصفعات الموج وضربات الريح ومياه البحر تدخل عليهم حتى أوشكت أن تبتلع السفينة بركابها وفزعوا وظنوا أنهم قد أحيط بهم حتى

توهموا أن هذه هى نهاية الدنيا وأن القيامة التى كان يتحدث عنها منذ قليل قد أتت وهروا إلى يوقظونه فى عنف صارخين (٢١٥).

«إستيقظ يا معلم فإننا نهلك»

«أيها النائم ألا يعينك هلاكنا»

«قم فإن البحر يوشك أن يبتلعنا»

فقام «المسيح» من نومه ونظر إليهم غاضباً وقال لهم مويخاً «مالكم» ؟!

لماذا تخافون هكذا ؟ !

«أين إيمانكم يا تلاميذ «المسيح».

«هل أنا الذى خلقتكم» ؟ !

ثم نظر إلى السماء وقال فى هدوء «أيها الريح أسكن» ونظر الى الماء وقال «أيها البحر إهدأ» .

فسكن الريح وهدأ البحر وأسرعت السحب الداكنة تنوب حتى بدا وجه الشمس ساطعاً كأنه يضحك وسطح الماء يتلألأ بنورها وتملك الرعب «التلاميذ» من هذا الانسان الذى يركب معهم سفينة «بطرس» إنه يأمر الهواء والماء فيطيعانه ؟ !

وصلوا الشاطئ صامتين يختلسون النظر الى وجه «المعلم» الغريب من حين لآخر ثم نزل إلى البر فنزلوا وراءه.

إتجه إلى إحدى المدن وأقترب من القبور (٢١٦) فأسرع نحوه رجل عريان يتغطى جسده بالقروح والقاذورات ليس عليه شئ من الملابس كان يعدونحوهم صارخاً وقد إلتمعت عيناه فبدا لهم بشعره الأشعث وجسده العريان ونظرة الرعب فى عينيه كأنه ميت

قد خرج توا من القبور وأنبعث الصوت منه مخيفاً «ما لنا ومالك يا «عيسى» دعنا وشأننا لماذا خرجت من «الناصر» .

«إننا نعرفك أنت المسيح إبن «الله» .

وفر التلاميذ وهم يصيحون «هيا يا معلم دعنا نهرب من هنا» .

لكن «المعلم» لم يهرب مثلهم بل وقف وخاطب الرجل المجنون «إخرسوا أيها الشياطين وأخرجوا من هذا الإنسان»

– قال الصوت وقد أفصحت نبرته عن الخوف «هل أتيت قبل الأوان لتعذبنا» ؟!

ثم هوى الرجل عند قدمي «المسيح» والصوت المنبعث منه يصرخ متضرعاً «لاتأمر الملائكة بالقائنا في جهنم»

قال «المسيح» «كم عددكم» ؟!

قال الصوت «أكثر من ستة آلاف»

أصاب التلاميذ الرعب لما استمعوا الى هذا وهم يقفون على البعد يراقبون ما يحدث بقلوب واجفة وعيون شاخصة تتقلب في حيرة بين المعلم والمجنون الذي ألقى عند قدميه.

قال الصوت مستعطفاً «المسيح» «إن كنت تأمرنا بالخروج فأذن لنا بالدخول إلى قطيع الخنازير الذي يرعى هناك على الجبل، والتفت «المسيح» والتلاميذ فوجدوا بعض الرعاة مع جمع كبير من الخنازير التي ترعى الحشائش والقاذورات على الجبل.

قال «المسيح» «هيا أخرجوا وأذهبوا إلى ماتحبون»، تولت المجنون رجفة شديدة فأخذ جسده العريان المملح بالقروح والقاذورات ينتفض وهو يتقلب على الأرض ثم غشيته موجة من العرق كأن المطر يهطل عليه ثم قام الرجل كأنه يستيقظ من كابوس مرعب، تقدم هادئاً نحو «المسيح» وقد بدا عليه الوقار رغم جسده العاري وأنحنى ليقبل يد «المسيح» والتلاميذ

ينظرون فى ذهول ثم أنتبهوا على صراخ الرعاة الذين أخذوا يجرون وهم يولولون «أدركونا أدركونا» كانوا يسرعون إلى داخل القرية يطلبون النجدة لأن الخنازير قد تهيجت واستولى عليها الإضطراب فجأة فاندفعت ترمى بأجسادها من قمة الجبل لتسقط فى البحر .

التفت «المعلم» إلى تلاميذه وهم يقتربون منه وقد أستولى عليهم الذهول فأمرهم «المسيح» أن يستروا جسد «أخيهم» الذى كان يجلس هادئا صامتا وقد تعلقت عيناه بوجه «المسيح» «فأعطوه ثوبا مما كانوا يحملون معهم فأرتداه الرجل وجلس معهم .» قال المسيح «أين إيمانكم ؟»

«من الذى ينبغى له أن يذهب أنا أم الشياطين ؟» استولى الخجل على التلاميذ وأطرقوا الى الأرض صامتين.

وجاء أهل المدينة يسرعون ومعهم الرعاة الذين قصوا عليهم ماشهدوا . بوقت الناس بالرجل المجنون يجلس هادئا صامتا بين يدى هذا «الرجل الغريب» والذين معه . إنها أول مرة يرونها فيها وقد أرتدى ثوبا . لقد جاء إلى مدينتهم منذ زمن طويل ولا يعرفون من أين أتى إليهم فوجئوا به ذات يوم يخرج عليهم من القبور عريانا بهيئته البشعة وكانوا يحملون أحد الموتى يريدون دفنه فتركوا الميت يسقط على الأرض وهربوا مفزوعين كل إلى بيته . ظنوا أنه أحد الموتى بعث من قبره وظلوا يراقبونه من بعيد حتى اختفى فزال رعبهم ولكنه عاد ليظهر فى شوارع المدينة يبث الرعب فى القلوب . وظل يظهر ويختفى دون أن يعرفوا لذلك سببا أو موعدا .

كان غالبا مايسكن فى القبور حتى أنهم عندما يموت واحد فيهم كانت المشكلة الأولى التى تواجههم هى «هل المجنون فى القبور أو لا ؟» فيرسلون بعض من لديهم «شجاعة» كافية لإستطلاع الأمر فإن رأوا المجنون فى القبور فإنهم يرجعون إلى أهلهم مذعورين فيدفنون الميت حيث يكون ويغلق كل واحد عليه يبيته تنتظرون ذهاب المجنون عن مدينتهم .

تملكتهم «الشجاعة» يوما فأجمعوا أمرهم على الإمساك بهذا المجنون الذى أحال معيشتهم إلى لعنة ومدينتهم إلى سجن مرعب فخرجوا عليه فى جماعة كبيرة حيث ألقوا عليه الشباك وقيدوا يديه ورجليه بالأغلال وأرادوا إلقاءه من الجبل ليهلكوه ولكن على حين فجأة مزق الشباك وقطع الأغلال ففروا من أمامه مرعوبين وضحكاته البشعة تستهزئ بهم وبكيدهم الضعيف، أدركوا من يومها أنه لاقبل لهم به ولذلك عندما يعلمون أنه قد جاء فإنهم يسرعون إلى حبس أنفسهم فى بيوتهم ويمنعون أطفالهم من الخروج الى الطريق ويبقون فى سجنهم صاغرين حتى يحسوا أنه قد اختفى.

لكنه الآن يجلس وديعا بين يدي هذا الرجل الغريب وسألو «المسيح» عن نفسه وعن سبب مجيئه الى مدينتهم فأخبرهم أنه «نبي مرسل» من «الله» إليهم يدعوهم الى التوبة ويبشرهم بقرب مجئ الملكوت فرفضوا دعوته وطلبوا منه أن يبتعد عن تخومهم ولا يعود إليهم مرة أخرى بشياطينه !!

فقام «المسيح» ليغادر المدينة وتضرع إليه «الرجل» الذى كانت ترتديه الشياطين أن يأذن له بصحبته لكن «المسيح» طلب منه أن يعود إلى بيته وأن يحدث الناس بما صنع «الله» له فقبل الرجل «المسيح» وودعه باكيا وذهب ليعود إلى قريته أما «المسيح» فقد سار حزينا على الإنسان الذى يرفض يد «الله» التى تتقدم إليه بالرحمة ويؤثر صحبة الشياطين على التوبة.

وطاف «المسيح» فى القرى والمدن يبشر «بالملكوت» ويدعو الناس إلى التوبة. كان يترك البلدة التى ترفضه ويمكث فى البلدة التى تقبله بعض الوقت يعلم الناس شريعة «الله» ويصحح الأخطاء التى عاشوا طويلا عليها، يبين لهم كيف يتوبون الى «الله» ويستعدون للقائه ويشفى المرضى ويخرج الشياطين من «المجانين» ثم ينتقل إلى أخرى والتلاميذ يتابعون «المعلم» الغريب الذى لا يستقر فى مكان وبدأ «الإيمان» يطرق أبواب قلوبهم التى عاشت طويلا فى الظلمات.

وكان الكثيرون من القرى والمدن التى يطوف بها «المسيح» يصحبونه بعض الوقت ليتعلموا منه أو ليروا «الآيات» التى سمعوا عنها كثيراً وكان «المسيح» يأذن لهم لعل كلمة «الله» تجد لها مكانا فى قلوبهم كما كان يفارقه الذين يعجزون عن مواصلة الطريق معه .

فى ظهيرة يوم شديد الحر إقترب «المسيح» مع الجمع الذى يصحبه من باب مدينة «ناين»^(٢١٧) فإذا بجنازة كبيرة تتجه الى القبور. كان الرجال فى المقدمة يحملون النعش وقد ظهر الحزن على الوجوه وعلا صراخ النسوة ومن بين الوجوه الكثيرة التى تغمى ملامحها فى الغبار الذى تثيره الأقدام الزاحفة الى القبور. التفت «المسيح» إلى وجه امرأة تجاوزت سن الشباب. كان وجهها ممتقعا يفيض بالدموع الساخنة. صامته لاتصرخ لكن وجهها يفصح عن حزن لايسطاق وصفه. كان الميت هو أبنها الوحيد الذى رزقت به بعد زواج قصير انتهى بموت زوجها المفاجئ وهو فى سن الشباب فعزمت على أن تقضى مابقى لها من العمر فى خدمة إبنها. رفضت أن تتزوج مرة أخرى رغم أن الكثير من الرجال طلبوها لجمالها لأنها خافت أن يسئ من يتزوجها إلى ابنها الذى صار بالنسبة لها هو كل حياتها أو مابقى لها من الحياة. فعلت كل شئ من أجله حتى صار شابا رائعا. كانت مجرد رؤيته هى «النعيم» الذى يسر قلبها وكان الشاب صالحا بارا بها فاكتملت سعادتها به إلا أن يد «الموت» انتزعته فحزنت المرأة لفراقه حزنا لاتستطيع هى نفسه ان تصفه .

كانت تطمع أن يكون لها العصا التى تتوكأ عليها وهى تودع الشباب إلى غير رجعة والأنيس الذى يخفف وحشة الأيام الأخيرة ولكن «الموت» اختطفه منها ولم يعد لها إلا الحزن على فراقه واليأس من رجعه تقدم «المسيح» معترضا الجنازة وسط دهشة الجمع المحتشد ولس النعش بيده يريد إيقاف المسيرة فوقف حملة النعش وقد استولت عليهم الحيرة من هذا «الغريب». وألقت الناس حوله فأمرهم أن ينزلوا النعش فأنزلوه ثم قال «المسيح» مخاطبا الميت «أيها الشاب بإسم «الله» أقول». لك قم نهض الشاب جالسا فى

النعش وهو يحاول أن يفك أكفانه فقال «المسيح» للواقفين حوله «حلوا أربطته» فلم يملكوا إلا طاعته وهم مذهولون مما يرون، ثم نهض الشاب واقفا وقد تهلل وجهه وأندفع يحتضن «المسيح» ويقبل يده فقبله «المسيح» ودفعه إلى أمه التي لم تكن تصدق أن ابنها الحبيب يمكن أن يعود إليها واستولى الخوف على الجميع وأخذوا يمجدون «الله» وهم يصيحون .

«لقد بعث «الله» فينا نبيا عظيما» .

«لقد افتقد الله شعبه».

وأقسم الشاب العائد من الموت أن ينزل «المسيح» عليه ضيفا وخرت الأرملة عند قدمي «المسيح» تريد تقبيلهما . قِيلَ «المسيح» دعوة الشاب وأمه فنزل عليهما ضيفا مع من معه من «التلاميذ» وصار الناس يأتون إليه في بيت الأرملة يسألونه شفاء مرضاهم وكثيراً ما أتى إليه الكتبة والفريسيون يريدون مجادلته لكنه كان يحب أن يخرج إلى الحقول يُمَعِّن النظر في آيات «الله» ويبين لتلاميذه معالم الطريق .

وفي صباح يوم شديد الحر أقبل جمع كبير من الرجال والنساء والأطفال على «المسيح» وهو جالس على الأرض أمام بيت الأرملة مع تلاميذه صرخ الناس «يانبي الله أدركنا».

«لقد أكلت الديدان القمح في الحقول ولن نحصل على خبز من أرضنا هذه السنة»

فقال «المسيح» «ولماذا كل هذا الهلع ؟!».

«ألا تعلمون أن نبي «الله» «داود» قد عاش مايقرب من سنتين على الثمار البرية دون أن يذوق الخبز سوى مرتين فقط.

«ولقد عاش «إيلياس» (إيليا) «نبي الله» ثلاث سنين متغذيا على البقول والثمار البرية

لم ير خبزاً عندما اضطهده «أخاب» ملك اسرائيل فلماذا كل هذا الهلع الذي أصابكم ؟!»

قال شيخ طاعن في السن قد أبيضت لحيته: «يانبي الله» إنهما كانا نبيين ولذلك

استطاعا زن يحتملا كل شئ. إن «الله» يطعم أنبياءه فيستطيعون إحتمال الجوع لأنهم يتغذون ثمرة «الروح» ولكن ماذا يفعل هؤلاء الأطفال وماذا نقدم لهم عندما يصرخون من الجوع؟!

تحركت الرحمة فى قلب «نبي الله» وقال بصوت توشك أن تخنقه العبرات «كم بقى للحصاد» ؟

قالوا «عشرون يوماً» ؟

قال «إذن يجب أن نقضى مدة هذه العشرين يوماً فى الصلاة صائمين «لله» متضرعين له أن يرحمنا وثقوا أنه سيرحمنا».

وبقى «عيسى» معهم يصلى ويعظمهم حتى جاء موعد الحصاد وخرج الناس الى الحقول فرأوها قد تلالأت بالقمح فأسرعوا إلى «المسيح» يخبرونه بإستجابة «الله» لدعائهم فقال لهم «إنهبوا يا أخوتي وأجمعوا الخبز الذى أعطاكم «الله» وأشكروه .»

كان الحصاد وفيرا وتشاور أهل «نايين» فيما بينهم أن ينصبوا «المسيح» ملكا عليهم وأوحى الله بما يدور فى نفوسهم إليه فأسر إلى تلاميذه أن ينسلوا فى هدوء ويتجهوا شمالا إلى «صور» حيث سيلقاهم هناك واختفى «المسيح» من «نايين». لم يعثر عليه أحد من أهلها وتحير تلاميذه ولكنهم فى نهاية الأمر اضطروا إلى الإنصياع إلى أمره فأخذوا يحثون الخطى شمالا نحو «صور» الواقعة على حدود «الجليل» مع أرض «فينيقية» على البحر الكبير (البحر الأبيض المتوسط).

كانت الفتنة قد اندلعت فى «أورشاليم» وغيرها من المدن بسبب «المسيح» والمعجزات التى صنعها إذ أصر قادة الشعب من الكهنة وشيوخ الفريسيين على أنه ليس أكثر من ساحر قدير وخطيب بارع وقائد يستطيع أن يستحوذ على قلوب اتباعه وأن يخضعهم لسلطانه وأن «الملك» هو الغاية التى يسعى للوصول إليها لو كان مستعدا «للتعاون» معهم

مقدرا مكانتهم فى الشعب فربما أقبلوا على «التعاون» معه وساعدوا على تنصيبه «ملكا» لليهود ولكنه كان لايتورع عن إهانتهم أمام الشعب ولا يبالي بهم فلو تم تنصيبه «ملكا» لكان ذلك كارثة محققة إنهم بلاشك سيكونون أول الضحايا لذلك «العهد الجديد». سيفقدون مكانتهم ويتحولون الى «متسولين» إن لم يفقدوا حياتهم.

أما الشعب المقهور الذى طال عليه الأمد فى الذلة والمسكنة فقد إنبعثت فى قلوب أفرادها ذكريات المجد الغابر التى تطالعهم فى الكتب والمواظ وزستيقظ الأمل فى إعادة الزمن القديم فها هو «ملك» عظيم خارق القدرات يبعثه «الله» إلى شعبه ليخلصه من «الإستبعاد» للغرباء ويعيد إليه المجد الذى يستحقه وبدأ الناس يظهرون إحتقارهم للكهنة والكتبة وشيوخ الفريسيين الذين يناصبون «ملك اليهود» المنتظر العدا. أخذوا يسخرون من مواظ الكتبة التى لاتستطيع أن تقف للمقارنة مع «مواظ» «المسيح» الباهرة ويستهنون بالكهنة الذين أفرطوا فى تملق السادة الرومان ويقارنون بينهم وبين «المسيح» الملك الموعود الذى لايعبأ بالرومان ولابغيرهم وأحس قادة الشعب بالخطر إذ عاينوا أنهم بدأوا يفقدون مكانتهم فى الشعب بسبب هذا «الساحر» القدير وألعيبه المذهلة التى تستحوذ على قلوب الناس وعقولهم وكان لابد لهم أن يجتمعوا ليتدبروا أمرهم ويتوصلوا إلى أفضل الطرق لدرد هذا الخطر الداهم الذى يوشك ان يقتلعهم وأبلغوا الحاكم الرومانى «لأورشاليم» «بيلاطس» بالأمر ونبهوه الى خطورة تفاقم هذه الدعوى على سلطة «روما» المقدسة .

ولكن «بيلاطس» كان يدرك أن الحسد هو الذى يدفعهم الى هذا الموقف فلم يهتم بتحذيراتهم ولكنه من باب التحوط لكل الإحتمالات أصدر الأمر الى ضباطه وجنوده بأن يأخذوا حذرهم ونبه «عيونه» الى اليقظة الدائمة والمراقبة المستمرة .

اختلفت الأقوال فى «المسيح» فقال بعض «الرومان» أنه أحد الآلهة التى نزلت من السماء ومن الواجب على الشعب اليهودى أن يظهر الإحترام الواجب لهذا «الإله» الخاص به فلا أقل من إقامة تمثال فخم فى «الهيكل» وأعرض آخرون على هذا لأنه تشجيع لروح

التمرد على سلطة «روما» وتهيج للرغبة فى التحرر من الإستعباد وأختلفت طوائف الشعب اليهودى فى وصف «المسيح» بالرغم من شيوع الإعتقاد بأنه «المَلِكُ» الموعود فقال البعض إنه «نبي» جديد ذَكَرَ «الله» به شعبه وقال آخرون بل هو «نبي» قديم عاد من الأموات وهذا هو سر قدراته المذهلة فهو «روح» أفلت من قبضة الموت وأدعى أناس أنه «النبي» «أرميا» على وجه التحديد لأنه لايفك عن التوبيخ والتحذير من الغضب كما كان يفعل قبل إقتحام جنود «نبوخذ نصر» «للهيكل». هو «أرميا» أرسله «الله» مرة أخرى ليحذر الشعب ومن الواجب علينا أن نؤمن به وألنترك الكهنة يجلبون علينا الدمار مرة أخرى وأعلن البعض أن هذا «الرجل الناصري» هو آخر الأنبياء الذين يرسلهم «الله» الى شعبه إنه «إيليا» وعلينا أن نستعد فقد إقتربت نهاية العالم وقالوا بل هو «الله» قد تجسد بشراً ليظهر نفسه لمخلوقاته وآخرون قالوا بل هو «ابن الله» لأن «الله» يستحيل أن ينحصر فى صورة واحدة محدودة وتحولت هذه الأقوال الى مناقشات محتدمة ثم الى اشتباكات بالايدي والاسلحة فى «أورشاليم» وبعض قرى «الجليل» حيث كان يبشر «عيسى» لذلك أحب «عيسى» أن يختفى عن الأنظار حتى تهدأ الفتن التى نشأت بسببه فأختبأ بعد خروجه من «ناين» ثم أخذ يشق طريقه خارج «الجليل» كله إلى «صور» حيث أمر تلاميذه أن ينتظروه هناك.

كان التلاميذ يسيرون على شاطئ البحر عند «صور» على غير هدى قد امتلأت قلوبهم بالحيرة ينظرون الى البحر الواسع الذى يمتد حتى نهاية الأفق لاتتوقف مياهه عن التدفق والإهتزاز فيملأهم الخوف من المصير المجهول الذى أصبحوا أسرى فى قبضته القوية الغامضة .

لقد صاروا يحملون زادهم على ظهورهم يتنقلون من قرية إلى أخرى ومن شاطئ البحر الى الصحراء يبيتون حيث يقف بهم السير لايعلمون لسييرهم نهاية ولايعرفون متى يستقرون إلى أين يذهب بهم هذا «المعلم» الغريب؟!

لماذا أمرهم بالتسلل فى الخفاء من «نايين» والمجئ إلى هنا ماذا سنفعل فى هذه البلدة الغريبة ؟

هل سنعيش مع الفنيقيين ونترك شعبنا ؟

ولماذا لم نبق فى «نايين» وقد بالغ أهلها فى إكرامنا ولماذا لا يريد أن يصبح ملكا ولماذا اختفى ؟ واين هو الآن؟ بل من هو «إننا حقا لانعرف من هو !»

كانوا يسيرون على الشاطئ وقد بدأ كل واحد منهم يفكر فى العودة إلى بيته وأهله ليمارس حياته كما كان يفعل من قبل ان يتعرف على هذا «الإنسان الغريب» الذى أحال حياتهم الى لغز محير موغل فى الغموض.

وجاء «المسيح» كان يسير هادئا على الشاطئ يقترب منهم لكن وجهه كان يفصح عن كآبته فأطبق عليهم الصمت كانوا يريدون أن يسألوه عن سر كل هذا الإضطراب وسبب هذه الرحلة التى لاضرورة لها ولكن كآبته أجبرتهم على الصمت. ساروا وراءه مطرقين الى الأرض يختلسون النظر من آن لآخر إلى وجهه الحزين وهو يرنو الى الأفق كأنه ينتظر شيئا هناك.

لم يقل لهم شيئا بل ظل صامتا يسير متجها الى الشمال كأنه يريد الذهاب الى «صرفة» أو «صيда» «هل سيأمرنا بالهجرة من بلادنا ؟ أم أنه يريد الهرب ولكن مما يهرب؟! هل علم «الرومان» برغبة الناس فى تنصيبه ملكا فقرروا القضاء عليه.» سوف نقتل فى هذه المذبحة التى لامعنى لها ماذا يخبئ لنا هذا الرجل الغريب الأطوار؟!»

وعلى حين فجأة هرولت نحوهم امرأة فنيقية فرمت بنفسها عند قدمي «المسيح» يا ابن «داود» أرحمنى فإن ابنتى معذبة^(٢١٨) لقد ربطناها وخرجنا من بلدتنا نريد لقاءك بعدما سمعنا عن معجزاتك فى شفاء المرض. إن الإله القدير هو الذى أرسلك إلينا الآن وألهمنى أنك أنت «عيسى الناصرى» فارحم الطفلة المسكينة التى يعذبها الشيطان». وأخذت المرأة

تجهش بالبكاء وقال ابنها الأكبر «أيها السيد الطيب إرحمنا لأن المسكينة الصغيرة تتعذب وتعذبنا إن روحاً خبيثاً يستولى عليها فتهيج فتأخذ في تحطيم كل ماتجد أمامها ثم تأخذ في تحطيم نفسها تضرب رأسها في الجدران أو في الأرض أو تتناول حجراً وتجرح به جسدها حتى تسيل منها الدماء وهي تصرخ صرخات مفزعة أو تضحك ضحكات بشعة لأمعنى لها فأرحمنا أيها الطيب».

لكن «المسيح» ظل صامتا لا يتكلم ثم واصل طريقة دون أن يفعل شيئا كأنه لم يهتم بما سمع فأخذت المرأة تسرع وراءه وهي تصرخ «أيها الملك العظيم يابن «داود» أرحمنا أيها الطيب أرحم التي يعذبها الشيطان ..»

كان التلاميذ يتعجبون ويتحIRON من «قسوة» المعلم اليوم واندفع الناس يتجمعون حولهم بسبب صياح المرأة.

فقال واحد من التلاميذ «يا معلم تحزن عليهم وأنظر الى حزنهم وصراخهم ..»

وقال آخر «افعل لها شيئا حتى تنصرف فإن صياحها يجذب الناس إلينا».

فوقف «المسيح» وقال للمرأة «إننى لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل التي ضلت فدعى البنين يشبعون أولا فليس حسنا أن يؤخذ طعام الأطفال ويلقى الى الكلاب» .

فقالَت المرأة وقد وقفت وتمالكت نفسها: «نعم أيها السيد العظيم ولكن الكلاب تأكل أيضاً من الفتات الذى يسقط من المائدة ..»

فتعجب «المسيح» من إيمانها وتهلل وجهه حتى أوشك أن يضحك لفطنة المرأة وفصاحتها وقال لها فى احترام: «عظيم إيمانك يا امرأة من أجل هذه الكلمة ليكن لك كما تريد أن اذهبى فإن إيمانك قد شفى ابنتك، هي الآن تجلس هادئة على سريرها

فابتسمت المرأة وأخذت تهرول عائدة الى بيتها لتنظر هل تحققت كلمة «المسيح» .

وكان جمع كبير من الناس قد تجمعوا على صياح المرأة وبكائها وأخذوا يتسألون عن

هذا « الغريب » والذين معه وعرفه بعضهم وخشى « المسيح » أن يطلبوا منه البقاء عندهم فأسرع بالذهاب كأنه يهرب لأنه لم يكن يريد أن يعلم والتلاميذ يحاولون اللحاق به ويتسألون عن سر كل هذا الإضطراب .

عندما صاروا فى مكان منعزل خال من الناس توقف « المسيح » ليستريح وقد زالت كآبة وجهه فتشجع التلاميذ على الحديث معه « فسألوه لماذا قلت للمرأة أنهم كلاب ؟ ».

فقال « المسيح » : « الحق أقول لكم إن الكلاب أفضل منهم » . فصدمتهم كلمات « المسيح » وأفزعتهم القسوة البادية فى كلماته وصوته والكآبة التى عادت لتطل من وجهه وواصل « المعلم » حديثه الجاف قائلاً « أيها الجاهل لو أمعنتم النظر إلى ما يفعله الكلب الذى لا عقل له مع سيده لعرفتم أن كلامى صحيح . أنظروا إلى ما يفعل الكلب فى خدمة صاحبه ألا يحرس البيت ويعرض نفسه للصوف ويظل وفياً لسيده ؟! » .

« بلى لكن ماذا يكون جزاؤه ؟ »

« قليل من الخبز والعظم مع ضرب كثير وعقاب مستمر ومع ذلك فإنه يظل يظهر لسيده وجهها مسرورا ويهز ذيله فرحا به إذا رآه مقبلا عليه من بعيد » .

« أليس هذا صحيحاً »

قالوا « بلى » أنه لصحيح يا معلم

قال: فانظروا إلى مايفعل الانسان مع « الله » لتعرفوا أن الكلاب أفضل «

« إن هؤلاء غير المختونين يعبدون غير « الله » . الله هو الذى خلقهم لكنهم يعبدون غيره ويرزقهم فيشكرون سواء ما أعظم النعم التى وهبها « الله » للإنسان لكن تلك الشعوب تتخذ لها سيدياً غيره خائنين لعهدهم معه إذ أقسموا ألا يعبدوا غيره . ألم يصف « داود » « جالوت » (جليات) بأنه مثل الذئب أو الدب » . لكن التلاميذ لم يهتموا إلا بالختان فسألوا « المعلم » عن السبب الذى أمر « الله » من أجله بالختان فقال وقد بدأ يستولى عليه الضجر من قلة

إيمانهم وتفاهة اهتماماتهم «يكفيكم أن تعلموا أن «الله» أمر به «إبراهيم» إذ قال له «يا إبراهيم أقطع غرلتك وغرلة أهل بيتك ليكون ذلك شهادة على العهد بينك وبينى إلى الأبد .
لكنهم ظلوا مهتمين بمعرفة الحكمة من الختان وأصله فأخبرهم «المسيح» أن «أدم» لما عصى «الله» وأكل من الشجرة المحرمة ونزل إلى الأرض مطرودا من الجنة فإنه غضب على نفسه التي دعتة الى معصية «الله» وأقسم أن يهلكها فأرسله «الله» إلى قطع تلك الزائدة من جلده ليكون ذلك وفاءً بالقسم الذى أقسمه وتذكراً دائماً له حتى لا ينسى عهد «الله» فكان الختان شاهداً على العهد بين «الله» والإنسان ثم نسى الإنسان عبادة «الله» وانتشرت عبادة الأصنام فى الارض وترك الختان وجاء «إبراهيم» ليجدد عهد الإنسان مع «الله» ولذلك سُنَّ الختان تذكيراً بعهد «الله» .

كان «المسيح» يتكلم وقد أفصح صوته عن احتدام الغضب فى قلبه فالتزم التلاميذ الصمت وساروا وراءه مطرقين .

ظل صامتا لا يتكلم والتلاميذ يتهامسون فيما بينهم عن سبب هذا الفرار والى أين يتجه بهم كان يجلس كلما أحس بالتعب ثم يقوم ليواصل السير حتى وصلوا الى مدينة قيصرية فيلبس (فيليب) فى بادية الشام (الجولان) وهى المدينة التى بناها «فيليبوس» رئيس بادية «الشام» تخليداً للقيصر «أغسطس» . وعندما صاروا فى مكان منعزل التفت الى تلاميذه فجأة وسألهم

ماذا يقول الناس عنى (٢١٩) ؟.

«قالوا يقول البعض إنك «إيليا» الذى يبعثه «الله» قبل يوم القيامة ويقول آخرون أنك أحد الأنبياء وآخرون يدعون أنك «أرميا» وقد رجع من الأموات .
قال «وماذا تقولون أنتم فى» ؟ .

فاندفع «بطرس» يقول «إنك المسيح ابن الله» (٢٢٠)

فأحمر وجه «المسيح» من الغضب وصرخ فى « بطرس» «إذهب بعيداً عنى يا شيطان» . إنك تريد أن تسىء إلىَّ » ثم توجه الى التلاميذ الآخرين الذين صدمهم غضبه العارم ويل لكم إذا صدقتم هذا البهتان الفظيع. إن «الله» قد كتب اللعنة على كل من يدعى هذا الباطل .».

«إننى أخشى أن تنزل السماء علينا أو تبتلعنا الأرض بغضب الله» فارتاع التلاميذ أما «بطرس» فقد ابتعد حزينا وجلس منفردا يبكى فى مرارة وأخذ التلاميذ يتضرعون إلى «المسيح» ليصلى من أجله فقال لهم «سرتم معى زمنا . وسمعت منى وسألتمونى وأجبتكم بعد كل هذا لا تعرفون من أنا .».

وجلس على الأرض مطرقا وأبتعد التلاميذ وأخذوا يطلبون من «بطرس» أن يذهب إلى «المعلم» ليسترضيه ويعتذر عن خطئه فتقدم «بطرس» على استحياء وقال بصوت ذليل «يامعلم اغفرلى لأننى تكلمت بغباوة» قال «المسيح» «بل أطلب من «الله» أن يغفر لك، لقد قلت ما قالته الشياطين عنى »

قال «بطرس»: «ليغفر «الله» لى فصلى من أجلى يا نبي «الله»

قال «المسيح» : «الا تعلمون أن «الله» قد خلق كل شىء بكلمة واحدة .».

«ألا تعلمون أن «الله» قد خلق البشر جميعاً من قطعة من الطين، منشأ البشر جميعاً هو كتلة من الطين وأنا واحد منهم، من ظهر «آدم» الذى سواه «الله» من الطين خرجنا جميعا أنبتنا «الله» من الأرض كما تنبت الأشجار.».

«ومن جسد أمى التى ولدتنى اكتسبت جسدى هذا فهى أمى وأبى ومن «الملوكوت» الذى وهب كل إنسان حياته اكتسبت «روحى» فأنا بالجسد ابن «مريم بنت عمران» وبالروح «ابن الإنسان» «روح الله» الذى تمثل لأمى الطاهرة بشراً سوياً ونفخ فى رحمها حيث كنت كلمة مستورة فخرجت من الغيب وصرت بشراً أرسلنى «الله» إلى بنى اسرائيل أدعوهم

الى التوبة وأبشروهم بقرب ظهور «الملكوت» الذى وهبى ووهب كل شىء حياته إذ يخرجهم
«الله» نبيا بشرا رسولا الى جميع الأمم فويل للذين يرفضون تبشيري وويل للذين يدعون
الشيطان يخدعهم».

كان «المعلم ي» تكلم وهو يمتلأ بالغضب.

فأخذ التلاميذ ييكون وقد أحسوا أنهم يشرفون على الهلاك. فتضرعوا الى «المعلم»
أن يستغفر لهم «ربه» وأن يصلى من أجلهم فاعتزلهم «المسيح» كما اعتاد أن يفعل عندما
يريد أن يصلى منفرداً وظل التلاميذ ينتظرونه وطال انتظارهم حتى هبط الليل فاستولى
عليهم الفزع ولم يعرفوا ماذا يفعلون فى هذه البلدة الغريبة طفقوا يبحثون عن «المعلم» فى
كل مكان دون جدوى. لقد أختفى ولم يعرفوا الى أين ذهب. هل صعد إلى ربه ؟ هل
هجرهم غاضبا ؟ ترى أين ذهب ؟

أهكذا تنتهى قصته على الأرض ولن يصير ملكا لليهود؟! ماذا يفعلون الآن؟ هل
سيشكوكهم إلى «الله»؟ أيمكنهم أن يعودوا الى سيرتهم الأولى قبل أن يروه؟ بحثوا عنه فى
كل مكان. بعضهم ذهب الى «الناصره» يسأل عنه وذهب آخرون الى «أورشليم» وبحث
عنه بعضهم فى «كفر ناحوم». كانوا يتفرقون للبحث عنه ثم يلتقون ثم يعودون للبحث عنه
مرة أخرى دون جدوى.

ثم حاول كل منهم بعدما ينسوا من العثور عليه أن يرجع الى أهله ليعاود معيشته
التي كان يمارسها قبل أن يلتقى «بالمسيح» ولكنهم أدركوا أنهم لا يستطيعون.

عائنا أنهم لا يقدرين أن ينسوا «المعلم» وكلماته لقد ترك «المسيح» فيهم أثراً لا يمحي.
شيئاً لا يمكنهم تجاهله. صاروا يعجزون عن أن ينغمسوا فى حياتهم الدنيا كما كانوا
يفعلون قبل أن يلتقوا به فعادوا يبحثون عنه من جديد. وكالأطفال الذين ضاع منهم أبوهم
فى زحمة السوق كانوا يشعرون بالضيا ع .

(١٩)

«ابن الانسان»

«هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولو الابواب،

«ابراهيم ٥٢»

هام «المسيح» على وجهه متجها صوب «دمشق» يريد الفرار من الشعب الضال الذي دعاه إلهاً أو ابناً «الله» بعد أن كان يكفر به ويرميه بالسحر والجنون حتى التلاميذ الذين أذن لهم بصحبته وظل يعلمهم ويضرب لهم الامثال ويفسرها لم يعرفوه ولم يؤمنوا به كما يريد «الله».

لقد بعثه «الله» الى الدنيا ليكون دليلاً يهدي الناس الى ربهم ولكن هامو يتحول الى صنم يعبد من دون «الله» وياله من مصير رهيب لم يخطر له علي بال «أيمكنك به الله كما مكر بابليس ؟!»

وأحس «عيسى» بأن الأرض تميد به وأن السماء توشك أن تتفتت لتسقط عليه فخر إلى «الله» ساجدا وأخذ يمرغ وجهه في التراب ويبكي متضرعا الى «الله» أن يأخذه من هذه الدنيا المجنونة أن يرفعه من هولاء الناس الذين لا يريدون أن يؤمنوا. فلما أنزل الله سكينته عليه هدأ قلبه وجفف دموعه ودخل في صيام «الله» يطلب به البصيرة والنصر على الشيطان وجنوده..

ثم خرج «المسيح» من عزلته وذهب الى شاطئ نهر الأردن حيث التقى بالنبى «يحيى بن زكريا» فتعانق الرجلان الصالحان ورآه بعض تلاميذ «يحيى» الذين يلازمونه وكانوا يعرفون أن «بيلاطس» الحاكم الرومانى لأورشاليم واليهودية قد أعلن عن جائزة مالية لمن

يعثر على «عيسى الناصري» فذهبوا الى «أورشاليم» وأخبروا الحاكم والكهنة أن المدعو «عيسى الناصري» قد ظهر عند شاطئ الأردن في صحبة «يحيى بن زكريا»

وكبانت الإضطرابات قد إستمرت في «أورشاليم» بسبب الخلاف حول «المسيح» واختلف قادة الشعب فيما بينهم إذ أصرت الغالبية منهم على أن المدعو «عيسى الناصري» ليس إلا دعى مخادع يستطيع أن يسيطر على العوام والجهال بسحره وفصاحته وذهبته قلة منهم إلى ضرورة الاستماع الى الرجل وأمتحانه فلعله يكون المسيح أو «مسيا» المذكور في الكتب لأن الايات التي أظهرها وتواترت أنبأها يستحيل أن تتحقق إلا على يد رجل مؤيد من «الله» .

أما الشعب الباحث عن الخلاص والمنبهر بالمعجزات التي صنعها الرجل القادم من «الناصر» فقد وجد فيه «الملك» المنقذ الذي يستطيع أن يخلص شعب «الله» من محنته وتصارع المخلتقون في «المسيح» بالأيدي والأسلحة وأشتبكوا في معارك رفع فيها الأخ يده على أخيه والأبن على أبيه^(٢٢١) وتدخلت السلطة الرومانية لفض هذه الاشتباكات كان مايعنى «بيلاطس» الحاكم الروماني أساسا هو الادعاء بأن «عيسى الناصري» يعمل على تنصيب نفسه ملكا لليهود ولذلك عندما جاء الى «أورشاليم» من يخبر بأنه رأى «عيسى» يسير على شاطئ الأردن في صحبة «يحيى بن زكريا» إهتم «بيلاطس» وأصدر أوامره لضباطه بأن يبعثوا ببعض القوات بصحبة من يستطيع التعرف عليه للبحث عنه وأحضاره لاستجوابه بشأن هذه الدعوة خاصة وأن الفصح على الأبواب حيث تزدهم «أورشاليم» وعلم تلاميذه الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى رؤيته فخرجوا للبحث عنه وعثر عليه «برنابا» ويعقوب ويحيى (يوحنا) أبنا «زبدى» فبكوا بكاء مرأ لما رأوه جالسا مع النبي «يحيى بن زكريا» وعاتبوه عتاباً شديداً «لماذا تركتنا لقد ضعننا في غيابك كاد أن يقتلنا الحزن على فراقك» .

قال «المسيح» «عما قليل ستشهدون الفتنة العمياء التي اندلعت فى بنى اسرائيل».

واستأذن «المسيح» و«يحيى بن زكريا» فى الذهاب إلى «أورشاليم» لقمع الفتنة التى نشأت فى الشعب بسببه وازهاق الباطل الذى نما فى القلوب التى استحوذ عليها الشيطان وسأله أن يدعو «الله» له بالتوفيق والسداد وتعانق النبيان واغترقا.

كان «المسيح» يحث الخطى نحو «أورشاليم» مع من لقيه من التلاميذ حين رآه أحد الرجال الذين يؤمنون أن «المسيح» هو «الله» قد تجسد فى صورة البشر (٢٢٢) فهرول نحوه صارخا يكاد يطير من الفرح ثم سجد على الأرض عند قدمى «عيسى» وهو يصيح «مرحباً بالإله القادر على كل شئ».

فأحمر وجه «عيسى بن مريم» بالغضب وأنتهره قائلاً «إرفع رأسك أيها الملعون فإننى لست ألا عبداً لله» الإله الوحيد القادر على كل شئ».

ولكن الرجل لم يهتم بما قال «المسيح» ولم يلتفت إليه بل أخذ يعدو داخل المدينة وهو يصرخ بأعلى صوته «إفرحى يا «أورشاليم» فإن آلهك قد حضر إليك».

«يابنت صهيون ابتهجى وتهيأى لإستقبال الرب المجيد».

كان «المسيح» يحاول أن يتمالك نفسه وهو يشعر أن الأرض تميد به والسماء توشك أن تنفتح لتصب غضب «الله» عليه وعلى هذا الشعب الضال وأسرع الخطى نحو «الهيكل» والناس يجتمعون حوله لصياح الرجل إذ خرج الرجال والنساء والأطفال يستطلعون سر هذا الصراخ واشتبك بعضهم مع الرجل الصارخ.

— كيف تدعى أيها الكافر أن هذا الرجل هو «الله»

— «وهل يمكن لغير «الله» أن يصنع كل هذه المعجزات التى رأيناها وسمعنا عنها».

«يا لك من أحمق مجنون»

– «بل إنك أنت الأحمق المجنون»

– «إذن خذ هذه لعلك تفيق من أوهامك» وصفعه صفعة قوية على خده فرد عليه الآخر بكلمة وأشتبك الرجلان ثم اتسع نطاق الإشتباكات، هاج الناس بالإضطراب و«المسيح» يهرول نحو «الهيكل» والناس تسعى وراءه وأمام «الهيكل» خر له جم غفير من الناس وهم يصرخون «مرحبا بإلهنا المقدس» وآخرون يقولون «ليتمجد ابن «الله» العلى».

فلطم «عيسى» خديه وهو يصرخ مذهولا «أرفعوا رؤوسكم أيها المجانين، إننى أمقتكم وأمقت كلامكم الكريه، أغربوا عن وجهى إننى أخشى أن تفتح الأرض فمها لتبتلعنى وأياكم فى الجحيم» (٢٢٣)

فارتاع الساجدون ورفعوا رؤوسهم وهم يتحIRON «ما الذى اغضبه» وأخذوا يبكون.

وتجمع الناس وتزاحموا حول «المسيح» الذى أخذ يصرخ وهو يومئ إليهم بالصمت «أصمتوا اصمتوا إننى أريد أن أبلغكم رسالة» «الله» يابنى اسرائيل لقد ضللتكم ضللا بعيدا إذ دعوتمنى إلهاً^(٢٢٤) أو ابنا «الله» ولست إلا إنسانا عبدا «الله» أننى أخشى أن ينزل «الله» غضبه على هذه المدينة بسبب هذا الكفر الفظيع.

«لعن «الله» أبليس الذى أشعل فيكم هذه الفتنة» وصفع «عيسى» وجهه بكفيه وخر على الأرض باكيا ممرغا وجهه فى التراب فعلا نحيب الجمع المتزاحم حتى لم يعد يسمع إلا البكاء.

ثم تمالك «المسيح» نفسه وهذا النحيب فقام من سجوده وقد تعفر وجهه بالتراب وسالت الدموع على خديه فصنعت بمائها طيناً لطح صفحة وجهه المشرق «أيها الناس إننى برئ من كل ما قلتم بشائى».

والتفت الناس إلى مجئ كوكبة من الفرسان إذ كان «بيلاطس» قد خرج ليستطلع

الأمر بنفسه وخرج «رئيس الكهنة» وعليه الملابس الكهنوتية يحيط به جمع من «الكهنة والكتبة وشيوخ الفريسيين» وأقترب الجمعان من «المسيح» واندفعت الجنود لتصنع حلقة واسعة تحيط بـ «المسيح» وتمنع الجمهور الغفير من الاقتراب .

نزل «بيلاطس» من فوق حصانه وترجل ومعه ترجمانه ورجال حاشيته وتقدم الكهنة مع رئيسهم نحو «المسيح».

وظف الناس يتدافعون مقتربين يريدون الاستماع الى مايدور من حديث ورؤية مايقع عن قرب فأخذت الحلقة تضيق وأجساد الجنود دورعهم وسيوفهم تصنع حاجزا يمنعهم من اختراق الدائرة التي يقف فيها «المسيح» فى مواجهة «بيلاطس» ورجالهم مع رجال الهيكل.

قال رئيس الكهنة (٢٢٥) «إن الشعب قد اضطرب بسبب تعليمك وما قيل عن المعجزات التي قمت بها حتى أن بعض المجانين صاروا يقولون إنك «الله» وآخرون يقولون إنك ابن «الله» ويقول البعض أنك «نبي» لذلك نطلب إليك فى حضور الوالى العظيم «بيلاطس» وأشار اليه وهو ينحنى أمامه اظهارا لاحترامه. «أن تخمد هذه الفتنة التي ثارت بسببك وأن توضح لنا ماذا تريد ؟

فقال «المسيح» ولماذا لم تخمد الفتنة أنت وأنت رئيس كهنة الهيكل ؟ أليست عندكم شريعة «موسى» وكتب الأنبياء ؟ هل صارت كتب الأنبياء شيئا لاقيمة له ؟

«ولماذا كان الشعب قد أصابه الجنون فهل جننت أنت أيضا ؟

«لماذا لم تستطع أن تخمد الفتنة وعندكم شريعة «الله» ؟

«ويل لكم يا من تركتم الشيطان يخدعكم ؟

وبوغت رئيس الكهنة بهذا التوبيخ «الفضيع» أمام الناس وأمام الحاكم الرومانى الذى لاحت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يعطى أذنه للترجمان الذى كان ينقل إليه كلام «عيسى» وتذمر الكهنة والكتبة ولكن رئيس الكهنة لم يجد مناصا من تفويت الفرصة على

«عيسى» فقال صاغراً «ليغفر الله لنا ونطلب منك أن تصلى من أجلنا ومن أجل المدينة المقدسة. (٢٢٦)

قال «المسيح» «إننى أشهد أمام «الله» وحملة عرشه وملائكته وجميع الأنبياء والرسل وأمام كل خلق «الله» إننى بشر فان مولود من رحم امرأة قانية أكابد الالام الجوع والعطش وأعانى من إخراج القانورات من جسمى وعرضة لأقدار «الله» أعيش كسائر الناس وإننى برئ من كل قول يجعل منى أكثر من إنسان مخلوق ومتى جاء «الله» ليحاسب خلقه فإننى سألعن كل من جعلنى أعظم من إنسان.

قال «بيلاطس» «ياسيد إنه من المحال أن يستطيع بشر عادى أن يفعل ما قيل أنك فعلته».

فأجاب «عيسى» وهو يخاطب الترجمان «قل له إنه يقول ذلك لأنه لم يؤمن بإلهنا الواحد القادر على كل شئ ولم يقرأ كتب أنبيائنا فإن «موسى بن عمران» قد شق البحر بعصاه وحجب الشمس عن مصر كلها أياما وأستطاع «يوشع بن نون» أن يوقف الشمس بصلاته وأن يشق نهر الأردن معبرة لبنى اسرائيل دون أن تبتل أحذيتهم وأنزل «إيلياس» النار والمطر من السماء.....

«ولم أفعل شيئاً من كل ذلك وكثيرون غيرهم من الأنبياء والأطهار فعلوا بقوة «الله» أشياء لاتستطيع أن تتصورها أذهان الذين لايؤمنون «بالله» الواحد القادر على كل شئ.»
«والجميع يعترفون أن «موسى ويوشع وإلياس» وغيرهم من الأنبياء هم بشر قد ماتوا وينتظرون بعثهم فإن الإنسان يشبه حانوت يتنافس للدخول والعمل فيه إثنان «روح الله» و «إبليس»».

«فإن ظفر به «روح الله» صنع الإنسان الخير واستطاع أن يفعل ما لا يخطر على بال أحد من الذين لايؤمنون «بالله» وان استحوذ عليه الشيطان صنع الإنسان الشر واستحق أن يلقي فى العذاب الأبدى.

وبدا على وجه «بيلاطس» التفكير العميق والإهتمام بما قاله «المسيح» وأخذ ينظر إليه فى احترام ولكن الجمع المتزاحم بدأ يعلو صوته يريد الاستماع إلى ما يقال ومعرفة ما يدور فطلبوا من «المسيح» أن يرتقى مكانا مرتفعا ليتمكن الشعب من الإستماع إليه وطلب «المسيح» من رئيس الكهنة أن يرتفع معه ليتمكن من التحقق من كلامه.

ثم قال «المسيح» بصوت مرتفع وقد بدأ الصمت يخيم على الجمع المحتشد. (٢٢٧)

«لقد كتب فى عهد «الله» الحى أن ليس «الله» بداية ولا يكون له نهاية أليس هذا صحيحاً أيها الكاهن؟»

قال كبير الكهنة «بلى».

قال المسيح «وأللهنا قد خلق كل شئ بكلمته ولاتستطيع العقول أن تحيط بعلمه أو أن تدرك كنه ذاته ولا يطرأ عليه تغيير ولا يتركب من أجزاء».

قال كبير الكهنة «نعم يامعلم».

قال «المسيح» «ومكتوب أن السماوات والأرض لاتسعه لأنه غير محدود أو منتهى ولا ينحصر فى صورة».

وصمت الكاهن وهو يحاول أن يتابع بذهنه تدفق كلمات «المسيح».

قال «المسيح» «وأللهنا لا يأكل الطعام ولا ينام ولا يعتريه نقص أو مرض ولا يموت فهو حى على الدوام».

قال الكاهن «نعم إنه كذلك».

قال المسيح «وأللهنا لا يخلو منه مكان ومكتوب أن لا إله سواه وهو الذى يحيى ويميت وينفع ويضر ويفعل كل ما يريد» قال كبير الكهنة «نعم هكذا كتب».

وحينئذ رفع «المسيح» يديه وقال فى صوت مهيب «آلهى هذا هو إيمانى الذى أتى به

إليك فى يوم الحساب شاهدا على كل من يؤمن بغير هذا ثم خاطب الشعب قائلا «والآن عرفتم خطيئتك من كل ما قال الكاهن أنه مكتوب فى أسفار موسى والأنبياء فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه فإن كلام «الله» لا يتغير إلى الأبد».

«هاأنذا بشر منظور منحصر فى هذا الجسد المخلوق من طين الأرض كانت لى بداية وستكون لى نهاية. ولدت من رحم أمى «مريم أبنة عمران» فأنا قطعة من الطين وهبت سر الحياة من «روح الله» الذى وهبكم وهب كل مخلوق حياته فأنتم أخوتى يا أبناء الانسان وأنا بشر يموت كسائر البشر.

«فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه لنلا يحل عليكم غضبه» فارتفع صوت البكاء من الجمع المحتشد وتعالى أصواتهم «لقد أخطأنا فاغفر لنا يارب» وقالوا «للمسيح» إستغفر لنا ربك وصلى من أجل المدينة المقدسة لكى لايدفعها «الله» فى غضبه لتدوسها الأمم فقال «المسيح» «ليرحم الله من يتوب»

لكن الكهنة والكتبة والشيوخ أكلت قلوبهم نار الحسد إذ عاينوا تدفق الكلمات من فم «عيسى» كأنها شلال من النور يفصح عن حفظ متين للنصوص وفهم عميق لها لم يكن يتلعثم أو يتردد أو يحتاج إلى مراجعة أقواله بل كانت الأقوال تنساب من فمه فى يسر كأنها المطر ينزل من السماء ولاحظوا أنه استطاع أن يسيطر على مستمعيه الذين سكنوا تماما وأصاخوا السمع إلى كلماته وأدركوا انه فى بساطة استطاع ان يزيل الشقاق الذى دب بين أفراد الشعب ودفعهم إلى حمأة الصراع الذى بلغ حد الاقتتال فأخذ المتخاصمون والمتقاتلون يعتذرون إلى بعضهم البعض ويتعاقبون طلبا لإصلاح ذات البين.

والأهم من كل ذلك أنه ظفر بإحترام «بيلاطس» الحاكم الرومانى وحاشيته وقد بدا ذلك الإحترام واضحا فى نظرات «بيلاطس» الى وجه «المسيح» وهو يزداد تألقا وأحس الكهنة والشيوخ أنهم سرعان مايفقدون مكانتهم فى الشعب وأهميتهم بالنسبة للحاكم الرومانى إن استمر «المسيح» فى خطابه المبهر الذى يأخذ بالآلأباب ولكن «المسيح» كان

يزمعه الإنصراف إذ أدرك أنه قد حقق الهدف الذى جاء من أجله الى «أورشليم» وفى محاولة من كبير الكهنة لاستعادة المكانة التى أحس بعمق أنها قد أوشكت على الضياع إلى الأبد قال فى صوت عال «قف يا عيسى لأننا لم نعرف حتى الآن من أنت ولا ماذا تريد ؟ »
أتريد أن تصبح ملكا لليهود ؟

إنّبه بيلاطس وحاشيته وخيم الصمت المقعم بالتوتر على الجمع المحتشد.

قال «المسيح» «أنا عيسى بن مريم» بشرُ قانِ خلقنى «الله» دون أب من البشر لأكون لكم آية تعرفون بها كيف يخلق «الله» الأشياء وتعلمون بها قدرة «ربكم» الذى لايعجزه شئ أطلعنى «الله» على كتاب علمه وعلمنى التوراة التى أوحاها إلى عبده ورسوله «موسى بن عمران» وجعلنى نبيا وأرسلنى إليكم لأدعوكم الى التوبة وأبين لكم بعض الذى تخلقون فيه من كلام «الله» ولأبشر «بالمملوكوت» الذى نفخ فى رحم أمى فوهبنى كما وهب كل شئ الحياة ولست إلا عبداً من عباد «الله» أرجو أن أكون من الصالحين ولاأريد سوى تمجيد «الله» الذى له المجد الى الأبد..»

إطفأَن «بيلاطس» وحاشيته لأن الرجل لم يشر الى «الملك» من قريب ولابعيد فهو لايطلب إلا عبادة ربه وهذا أمر لايضير «روما» فى شئ وبدأ «بيلاطس» يفقد اهتمامه بما يدور من حديث بين «عيسى» ورئيس الكهنة الذى واصل كلامه قائلا:

«إننا نعتقد من كلامك وما قيل عن معجزاتك أنك ربما تكون نبيا ولذلك أطلب اليك أن توضح لنا هل أنت الرجل الذى كتب فى أسفار «موسى» أن «الله» يرسله ليخبرنا بكل مايريد ويكون رحمة للعالم كله ؟»

قال «المسيح» (٢٢٨) حقا إن «الله» وعد بهذا وسيحقق «الله» وعده ولكنى لست هو إنما أرسلنى «الله» إليكم لأبشركم بمجيئه لأنه سيأتى بعدى فعندما يأخذنى «الله» من الدنيا وينجح الشيطان اللعين فى إثارة هذه الفتنة العمياء مرة أخرى إذ ينجح فى حمل الذين لايتقون «الله» على تنجيس تبشيرى وتغيير تعليمى فتعود الضلالة لتنتشر فى الدنيا

كلها فيعتقد «الضالون» أنني أنا «الله» وأننى ابن «الله» ولايكاد يوجد على الأرض إلا القليل من المؤمنين فحينئذ يرحم «الله» الدنيا فيرسل إليها رسوله الذى يختم النبوة وسيأتى من الجنوب وسيبب عباداة الاصنام من الأرض ويزيل سلطان الشيطان على الإنسان وسيحمل الخلاص ورحمة «الله» لكل الذين يؤمنون به من كل الشعوب ويكون كل من يؤمن بكلامه مباركاً. هو الذى يتحقق به وعد «الله» إلى «ابراهيم» إذ قال له «بنسلك أبارك كل قبائل الأرض فذلك الرسول النبى الخاتم هو البركة التى تنال كل قبائل الأرض اذ سيكون رسولا لي جميع الناس وليس لامة واحدة.

قال كبير الكهنة (٢٢٩) «لاتحزن يا عيسى ولا تزعج نفسك فإن هذه الفتنة لن تحدث مرة أخرى لاننا سنرجو من السيد المبجل «بيلاطس» أن يكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى أن يصدرأ أمرا امبراطوريا أن لا أحد يدعوك فيما بعد ألها أو ابن «الله» ومن يفعل ذلك يكون عقابه القتل لمخالفته شريعة موسى وهن «بيلاطس» رأسه يشير بموافقته على رجائهم لكن «المسيح» قال «إن كلامكم لايعزىنى لأنه سيأتى الظلام من حيث ترجون النور» (٢٣٠) ولكن عزائى أن الرسول الآتى سيبب كل رأى باطل تعلق بى وسيبقى دينه صحيحا حتى النهاية لأن «الله» سيحفظه وبهذا يعرف الناس كلهم من أنا وفى هذا عزائى.

قال كبير الكهنة «هل سيأتى رسل آخرون بعد رسول «الله» الذى تكلمت عنه ؟»
قال المسيح «لن يأتى بعده أنبياء صادقون مرسلون من «الله» لأنه هو الذى يغلق باب النبوة.

ولكن سيأتى عدد كبير من مدعى النبوة الكذابين وهو ما يحزننى لأن الشيطان سيثيرهم بحكم «الله» العادل إلى إضلال الناس مستترين تحت دعوى تبشيري (إنجيلي) (٢٣١)

قال «كيف يكون مجئ هؤلاء الكذابين بحكم «الله» العادل ؟

قال «من العدل أن من لا يؤمن بالحق من أجل نجاته فإنه يؤمن بالباطل من أجل لعنته الحق أقول لكم أن الناس قد ظلوا يمتهنون الأنبياء الصادقين على الدوام ويحبون الكذابين وأذكروا «إلياس» و«إليسع» (اليشع) وأرميا بل اذكروا «زكريا» الذي قتل هاهنا فى «الهيكل» لأن الشبيه يحب شبيهه.

واضطرب الكهنة والكتبة لذكر مقتل «زكريا» وأحب رئيس الكهنة أن يغير سياق الحديث فعاد للحديث عن الرسول الذى جاء «عيسى» ليبشر به فسأل «ما هو اسم ذلك الرجل الذى تقول عنه»؟

قال «إسمه أحمدوهو من نسل «إسماعيل» ابن «إبراهيم» أبو الانبياء».

وصدمتهم كلمات «المسيح» ولكنهم لم يجرؤا على تكذيبه أو مجادلته فقال كبير الكهنة «سنوصى الوالى العظيم أن يكتب إلى «روما» حتى لاتحدث الفتنة مرة أخرى» وانصرف بيلاطس وحاشيته ودخل الكهنة والكتبة والشيوخ وهم يتذمرون من هذا الساحر الفصيح الذى سلب أئمة الناس واستحوذ على قلوبهم.

أما الناس فقد التفوا حول «عيسى» يسألونه الدعاء ويحضرون إليه المرضى ليشفيهم ثم غادر أورشاليم متجها إلى جبل «الزيتون» وقد تبعه جمع كبير يطلبون سماع كلمة «الله» منه.

فى الجبل جلس «المسيح» على حجر كبير أمام أحد الكهوف بينما افترش الجمع الذى تبعه الأرض أمامه وخاطبهم «المسيح» قائلا (٢٣٢) لقد رأينا اليوم إثماً كبيراً وهو إثم يرتجف له قلبى من شدة غضب «الله» بسببه.

«ماذا يفعل شاب قوى معتد بنفسه لا يقبل أن تهان كرامته عندما يرى المرأة التى أحبها من كل قلبه تهجره وتحب رجلاً آخر بل وتظهر حبها للآخر أمام عينه !؟»

«إن قلبه يضطرم بالغيرة ويندفع لقتل حبيبته التى خانته وقتل من أحبته من دونه وهو

الذى أخلص لها حبه وليس الذى أثرته عليه بأفضل منه بل من المؤكد انه رجل سئ خائن
يطمع فى الذى ليس له.»

«أليس هذا صحيحاً؟!»

قالوا «بلى»

قال «الحق أقول لكم إن الله أشد غيرة على قلب الانسان من ذلك الشاب القوى
المعتد بنفسه على المرأة التى يحبها

«لقد أحب «الله» «إسرائيل» وأبناءه وأخلص لهم الحب فأعطاهم شريعته بواسطة
أنبيائه حتى يعرفوه ولا يحبوا غيره ولكنهم هجروا «الله» وأخذوا يجاهرون بخيانتهم فعبدوا
غيره فماذا يفعل «الله» ؟ إنه يهلكهم ويهلك الشئ الذى أحبوه أكثر من «الله» ونسوا بسببه
إلههم الجدير وحده بالحب.

أى شئ أحب الى «الله» فى هذه الأرض الملعونة بإبليس وجنوده ؟ لا شك أن الصلاة
والعبادة هى أحب شئ الى «الله».

لكن عندما أحب بنو إسرائيل «الهيكل» الذى لم يكن له نظير فى الارض كلها وتفاخروا
به واختالوا على الناس. صار الهيكل لهم صنما يعبد من دون «الله» فحمى عليهم وعلى
«الهيكل» غضب «الله» فآثار عليهم «نبوخذ نصر» الملك الكلدانى فاقتحم «أورشليم»
بجنوده الأشداء ودمر الهيكل الذى يحتوى على التوراة وكتب الأنبياء وآثارهم والذى كان
يسجد فيه «له» فأحرق الجنود المدينة المقدسة وأحرق الهيكل بكل ما فيه حتى أن الأشياء
المقدسة التى كان الأنبياء والصالحون يرتجفون من مجرد مسها داسها الكافرون الممثلون
إنما بأقدامهم وأحذيتهم الملوثة فانظروا إلى شدة غضب «الله» وشدة غيظه.

لقد أمر «الله» خليله «إبراهيم» أن يذبح ابنه البكر «إسماعيل» حتى يستأصل من قلب
إبراهيم كل محبة أئيمة تعارض محبة «الله» وهو أمر كان يمكن ان يحدث لولا أن السكين
توقفت عن الذبح لأن قلب «إبراهيم» وقلب «إسماعيل» قد تطهرا من كل محبة أئيمة تعارض

محبة «الله» . تطهر قلب إبراهيم من محبة الإبن التى تعارض ارادة «الله» وتطهر قلب اسماعيل من محبة النفس ولم يبق فى قلب الرجلين الصالحين إلا الحب الخالص «الله» لذلك امتنعت السكين عن الذبح رغم أن «إبراهيم» قد وضعها على عنق إنه وأخذ يحركها

ولقد كتب «الله» على «يوسف» أن يباع فى سوق العبيد بمصر بيع المتاع وأن يظل «يعقوب» حزينا على فراقه نائحا عليه سنوات عديدة من أجل ان يتطهر قلبه من حب ابنه الأثير لديه .

وكتب على «داود» أن يلقى العنت من بكره «إبشالوم» حتى لايبقى فى قلب «داود» إلاحب «الله» .

وكتب «الله» على «أيوب» أن يفقد كل ابنائه وبناته وثروته كلها بل وصحته أيضا فأصابه بمرض عضال لاشفاء له عند الناس كل هذا من أجل أن يمتحن حب «الله» فى قلبه .

لعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته لقد خشيت أن ينزل «الله» علينا نقمته فيهلكنى وإياكم لأن بعض بنى اسرائيل أحبونى محبة أثيمة فدعونى إلها أو قالوا إننى ابن «الله» وهو مايرتجف له قلبى رعباً من غضب «الله» وخر عيسى على الأرض ساجدا متضرعا «له» ممرغا وجهه فى التراب .

فبكى الجمع وعلا صوت نحيبهم ثم تمالك «عيسى» نفسه فقام من السجود فقالوا له «إننا مستعدون لفعل كل ماتأمرنا به ليغفر «الله» لنا خطيئتنا .»

قال «سنصوم ثلاثة أيام وننقطع للصلاة طالبين من «الله» الرحمة والمغفرة وفى كل ليلة عندما يأذن الليل بالمجئ ويلوح أول نجم يجب أن نستغفر «الله» ثلاث مرات ونسأله رحمته لأن خطيئة بنى اسرائيل اليوم ثلاثة أضعاف الخطايا الأخرى .

وأعتزل «المسيح» داخل الكهف وأنصرف الجمع وهم يتفكرون فى كلماته عازمون عيل الطاعة.

لقد انتزع «المسيح» بعد محاورته مع رئيس الكهنة إعترافاً ضمناً من «الهيكل» بنبوته ولقد آمن به العوام نبيا بعدما شاهدوا أن رئيس الكهنة لم يستطع أن يكذبه فأخذت الجموع تتوافد على «المسيح» فى الجبل طلبا لرؤيته أو لإستماع موعظته أو ليسأله الصلاة من أجل شفاء مرضاهم ولكن «المسيح» ظل محتجبا صائما عاكفا على الصلاة ولما خرج من عزلته فوجئ بأن الجمع الذى ينتظره كبيراً بضعة آلاف من الرجال والنساء والأطفال بل أن بعض النسوة قد حملن صغارهن المحتاجين للرضاعة.

كان الناس يفترشون الأرض وقد بدا عليهم الإعياء لأن «الطعام» نفذ بعضهم لم يأكل منذ يومين فتحزن عليهم «المسيح» وأخذته الشفقة عليهم وأندفع تلاميذه نحوه لما رأوه خارجا من الكهف.

قال (٢٣٣) «لفيلبس أين نجد لهؤلاء طعاما حتى لا يهلكوا من الجوع ؟ قال «فيلبس» «ياسيدى إن متنى قطعة من الذهب لاتكفى لشراء مايطلبون به من الخبز فقط.»

قال «المسيح» أليس معكم طعام أذهبوا وأنظروا» قال «اندراس» «ليس معنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان ولكن ماذا يفيد هذا مع كل تلك الجموع؟!»

قال «المسيح» «أئتونى بما معكم وأذهبوا فأجلسوا الجمع على العشب فى جماعات» فذهبوا وأخذوا ينظمون الناس فى جماعات كل جماعة من خمسين فرد أو من أربعين ثم تقدموا نحو «المسيح» الذى أخذ الخمسة الأرغفة فكسرها الى قطع صغيرة وهو يقول «باسم الله» وظل يناول التلاميذ خبزا وسمكا ليحملوه الى الجماعات التى اصطفت على العشب فى حلقات وقد شخصت العيون من الدهشة وكل منهم يسأل نفسه «أحقا ما أرى أم أننى واهم هل أنا مستيقظ أم أن ما أراه هو رؤيا نائم». ظلوا يأخذون الطعام

من المسيح ويعطونه للجالسين على العشب ثم جلسوا هم ليأكلوا ، شبع الجميع من خمسة أرغفة وسمكتان وكان الليل قد هبط وأحس الجميع بالتعب بعدما شبعوا فناموا ودخل «المسيح» إلى كهفه يصلى.

وفى الصباح إختار «المسيح» تلاميذه إثني عشر رجلا وأخبرهم أنهم سيصبحون رسله إلى قرى ومدن بنى اسرائيل وأمرهم ان يجمعوا كسر الخبز التى تبقت من عشاء الأمس فملأت اثنتى عشرة قفة فأمر أن يحمل كل واحد منهم قفة وأن يسبقوه الى شاطئ الأردن فحمل كل واحد منهم قفته ثم ذهبوا . وبدأ الناس يستيقظون وتجمعوا حول «المسيح» فأمرهم بالعودة الى أهلهم وأن يجتهد كل واحد منهم فى طلب رحمة «الله» ومغفرته فبدأ الناس ينصرفون الإسبعين رجلاً أصرؤا على البقاء معه وصحبته أينما ذهب فقبلهم «المسيح» لما رأى إيمانهم وأخبرهم أنهم سيصبحون تلاميذا له وسيجعلهم رسلا الى الشعب وأمرهم أن يأتوا معه الى الناصرة حيث كان قد عزم على العودة ليوصل من هناك دعوته.

كان «المسيح» قد سأل ربه أن يمنح بعض القدرة التى وهبها له لمن يختارهم من أتباعه ليجعل منهم رسلا إلى بنى اسرائيل يطوفون بالقرى والمدن يبشرون بالملكوت ويصحجون اعتقاد الناس فى «المسيح» ويدعون الشعب الضال الى العودة للسير فى طريق «الله».

(٢٠)

«طريق العودة»

«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما آلهكم الله واحد

فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين،

«فصلت ٦»

أدرك «المسيح» ومعَه الرجال الذين أُصروا على صحبته التلاميذ الإثنى عشر وكل منهم يحمل قفة مملوءة بكسرات الخبز التى تبقت من عشاء الأمس فأمرهم بالتوجه إلى شاطئ الأردن ثم جلسوا ليستريحوا ثم اغتسلوا وصلى بهم وبعد الصلاة قال لهم :

(٢٣٤) «رأى نبي الله إيلياس (إيليا أو إيلياهو) رجلاً أعمى يبكي فسأله «لماذا

تبكي يا أخى ؟»

قال الأعمى «لأننى أحب رؤية قدوس «الله» إيلياس ولا أستطيع»، قال إيلياس «أيها الرجل يجب أن تكف عن هذا البكاء لأنك ببكائك هذا تخطيء .»

فقال الأعمى مندهشاً «أرؤية النبي الذى أحيى الموتى وأنزل النار من السماء تعد خطيئة».

قال «أيلياس» «إنك لا تنطق بالصدق فإن «أيلياس» لم يفعل شيئاً مما قلت فإنه رجل مثلك والمخلوقات جميعاً لا تستطيع أن تحيى ميتاً أو أن تخلق ولو ذبابة واحدة» .

قال الأعمى «لا بد إنك تكره قدوس «الله» «إيلياس» ولذلك قلت ماقلت لعله وبخك على بعض خطاياك».

قال «إيلياس»: «عسى أن تكون قد نطقت بالحق أيها الرجل فإننى كلما أبغضت «إيلياس» فإننى أزداد حبا «الله». بقدر إبتعادى عن «إيلياس» يزداد قربى من «الله».

قال الأعمى: «تالله إنك لرجل فاجر أيمن لأحد أن يدعى حب «الله» وهو ييغض نبيه إنصرف. عنى أيها الملعون فإننى لا أحب أن أستمع إليك» .

قال «إيلياس» «الآن تستطيع أن تنظر بعقلك أيها الأخ إنك كنت تتمنى أن ترى «إيلياس» ولكنك تكره «نبي الله» وتحقر تعليمه» .

قال الأعمى وقد استحال عليه أن يتمالك نفسه من الغضب "إبتعد عنى أيها الشيطان لأنك تريد أن تجعلنى أخطىء إلى نبي الله»

قال «إيلياس» «وقد غلبه البكاء على أمره "لقد نطقت بالحق أيها الأخ فإننى كنت بالنسبة إليك الشيطان الذى يحول بينك وبين «ربك» فإن جسدى الذى كنت تبكى شوقا إلى رؤيته هو الذى يفصلك ويفصلنى عن «الله»» .

قال الأعمى وقد استبد به الغيظ «ومن قال لك إننى كنت أريد أن أراك والله لو كانت لى عينان لأغمضتهما حتى لا أراك» .

حينئذ قال «إيلياس» مسرورا «اعلم أيها الأخ إننى أنا «إيلياس» الذى تبكى لعجزك عن رؤيته» .

قال الأعمى «إنك كاذب ولا تنطق بالحق» .

فصرخ تلاميذ «إيلياس» "أيها الأعمى إنك تكلم «إيلياس» نبي الله نفسه»

فأطبق الوجوم على الأعمى وأصابته حيرة شديدة ثم قال «إن كان هو إيلياس النبي فليخبرنى من أى ذرية أنا وكيف أصابنى العمى» ؟

قال «إيلياس» «إنك من سبط لاوى وقد صرت ضريراً لأنك وأنت فى الهيكل وبجوار

المحراب نظرت إلى امرأة جميلة كانت تقف هناك واشتهيتها فأزال آلهنا القدير
بصر عينيك».

فبكى الأعمى قائلاً اغفر لى يا نبي «الله» الطاهر لأننى أخطأت إليك فى الكلام ولو
كنت بصيراً ما أخطأت فاعذرنى ».

فقال «إيلياس» ليغفر لنا آلهنا أيها الأخ ولكنى أعلم أنك فيما يخصنى قد نطقت بالحق
فكلما ازددت بغضا لنفسى ازددت قرباً من «الله» وأنتى كنت بالنسبة إليك الشيطان لأننى
بصورتى التى كنت تشتهى أن تراها أحول بينك وبين أهلك الذى خلقك وهو الوحيد الجدير
بأن يبكى الإنسان لا حتجابه عنه، إن «إيلياس» لم يخلقك بل «الله» هو الذى خلقك وهو
الذى يستحق أن نحزن وبكى لإحتجابه عنا وعجزنا عن رؤيته ولو كنت رأيتنى لخدمت
رغبتك فى رؤيتى وهي رغبة آثمة لا يرضى عنها «الله» والآن تستطيع أن تدرك أنه لم يكن
لك نور فى قلبك يريك الحق من الباطل فلذلك إحتقرت تعليمى مع أنك كنت تبكى لعدم
رؤيتك صورتى فأعلم أيها الأخ أن الكثيرين يأتون إليّ من بلاد بعيدة لرؤيتى وآخرون
يتمنون رؤيتى وهم مع ذلك يحتقرونى إذ يحتقرون تعليمى لذلك كان من الأفضل لهم
لخلاصهم ألا يكون لهم عيون فكل من يحب شيئاً مخلوقاً راعباً من كل قلبه أن يتصل به
واجداً لذة فى القرب منه تاركاً من أجله كل شئء حزينا لفراقه فإنه قد أقام صنما فى
قلبه جاعلاً من هذا الشئء المخلوق آلهاً يعبد من دون «الله» أياً كان هذا المخلوق حتى إن
كان نبياً مرسلأً من «الله» لهداية البشر .

ثم تنهد «المسيح» قائلاً "أفهمتم كل ما قاله «إيلياس» للأعمى؟؟ قالوا: «نعم ولكننا فى
حيرة لأنه لا يوجد على الأرض إلا قليل جداً من الناس الذين لا يعبدون الأصنام .»

قال «المسيح»: "نعم لقد نطقتم بالحق وها أنتم ترون أن الشعب أبناء أسرائيل النبى
كانوا عازمين على إقامة صنم فى قلوبهم إذ قالوا عنى إننى إله وترون الكثيرين يأتون من
قرى ومدن بعيدة ليرونى وآخرين يتمنون رؤيتى ولكنهم فى الحقيقة يستهزئون بى ويهينونى

إذ لا يحترمون تعليمي ولا يعبأون بمواعظي ولا يعملون بكلماتي، إنهم يقولون في أنفسهم إنني أحمق أو مجنون إذ أرضى أن أعيش معيشة الفقراء متنقلاً من قرية الى أخرى لا استقر في مكان مع أنه في وسعي أن أصير ملكاً لليهود وأن أعيش معيشة الملوك والسادة العظماء الذين يسكنون القصور ويتقلبون في النعيم .

«ما أشد تعاستك أيها الإنسان تحترم النور الذي يشاركك فيه الذباب والعقارب والحيات وتحترق النور الذي تشترك فيه مع الأنبياء والملائكة المطهرين وأصفياء الله» .
«قوموا لنواصل الطريق» .

وسار ركب «المسيح» بجوار نهر الأردن صاعداً نحو «الجليل» .

والتقى ركب «المسيح» بالنبي «يحيى بن زكريا» حيث كان جالساً بجوار النهر مع نفر قليل من تلاميذه فقام الشيخ الجليل «يحيى بن زكريا» وهرول ليتلقى «المسيح» في حضنه وتعانق النبيان ثم جلسا يتحدثان في صوت هامس والتلاميذ تلاميذ «يحيى» وتلاميذ «عيسى» ينظرون إليهما ويتعجبون .

ثم ودع كل منهما صاحبه وقام تلاميذ «عيسى» ليرحلوا معه واستأذن بعض تلاميذ «يحيى» ليصحبوا «المسيح» فآذن لهم. وبعد أن ابتعد الركب قال بعض تلاميذ «يحيى» في غيظ : يا معلم أنظر إلى ذلك الرجل الذي شهدت أنت له (٢٣٥) لقد صار يعمد أيضاً مثلك وأصبح الجميع يذهبون إليه» كانوا يتوهمون أن ثمة منافسة بين «يحيى» و«عيسى» كما لو كان النبيان تاجرين يتنافسان على اجتذاب الزبائن أو قائلين يتصارعان أيهما أكثر أتباعاً قال «يحيى» «لا يستطيع أحد أن يأخذ شيئاً إلا إذا أُعطي من «الله» وأنتم أنفسكم قد شهدتم أنني اعترفت أمام الجميع أنني لست «المسيح» بل أنا «نبي» مرسل أمامه لأبشر به وأشهد له .»

«من له العروس فهو العريس أما صديق العريس الذي يحبه فهو يقف مع المدعوين

للعرس ويفرح من قلبه عندما يسمع صوت العريس. لقد اكتمل فرحى اليوم وينبغي للعريس أن يظهر وينبغي لى أن أخفى. إنه يشهد بما رأى وبما سمع ولكن شهادته لا يكاد يصدقها أحد إنه يتكلم بكلام «الله» ومن يقبل كلامه فقد أقر أن «الله» صادق ولكن من بين كل هؤلاء يكاد لا يؤمن به أحد. إن «الله» لا يعطى «الروح» بمكيال (٢٣٦).

بعد أن أكل الركب من كسرات الخبز المجموعة فى الإثنى عشرة قف وَاغتسلوا بماء الأردن صلى بهم «المسيح» وجلسوا ليستمعوا إلى كلمة «الله».

قال «المسيح» سأرسلكم إلى خراف بنى إسرائيل الضالة فى جميع القرى والمدن فى الجليل واليهودية لتدعوا المبتعدين عن طريق «الله» إلى التوبة وتندروهم أن الفأس قد رفعت توشك أن تهوى لتقطع الشجرة من جذورها لأن غضب «الله» قد اشتد على الشعب الذى نقض ميثاقه معه يوشك أن ينتزعه من رحمته ليلقى به إلى الجحيم وتبشروهم أن من يؤمن «بنبى» لم يره بدعوة «نبى» آخر فأجر «نبى» يأخذ. (٢٣٧) أخبروهم أننى أنا «مسيح الله» «عيسى بن مريم» المولود من العذراء الطاهرة نون أب من البشر اية من الله إلى الناس جميعا وإننى «نبى» أرسله «الله» إلى بنى إسرائيل ليعيدهم إلى طريقه المستقيم. جئت إلى الدنيا مبشرا «برسول الله» الذى يختم «الله» به النبوة وإننى لست إلا عبداً من عباد «الله» أرجو أن أكون من الصالحين. أطلعنى «الله» على كتاب علمه وعلمنى التوراة التى أنزلها على موسى بن عمران وعلمنى التبشير (الإنجيل) بالنبى الأسمى العربى الأمين الذى يؤمن «بالله» وكلماته قد سلطنى «الله» على كل مرض واستجاب لدعاء عبده ولم يحتقر طلبه فمُنحكم أيضاً القدرة على كل مرض فامسوا المرضى وصلوا عليهم «لله» فيمنحهم «الله» بإذنه الشفاء.

اندفع تلميذ يقول يامعلم لكن ماهى التوبة ؟ وكيف نتوب ؟ ماهى الطريقة التى ينبغى بها تحقيق التوبة إن سئلنا عن هذا فماذا نقول (٢٨٩) ؟.

تهلل وجهه «المسيح» وأجابه قائلاً «إذا أضع رجل كيس نقوده الذى يحفظ فيه كل ماله فكيف يبحث عنه ليسترده؟ هل يجلس ويدير عينيه في أرجاء المكان لعله يعثر عليه؟ أم أنه يسأل عنه بلسانه فقط ويطلب من الآخرين البحث عنه وإذا رآه هل يمد يده فقط ليتناوله؟» .

أم أنه يبحث عنه بكل كيانه ويستعمل كل قوته وجميع قدراته ليجده ويلتفت إليه بكل جسده؟ من المؤكد أنه يفعل هذا أليس هذا صحيحاً؟
قالوا «بلى» .

قال «وعلى هذا النحو ينبغي تحقيق التوبة» . (٢٣٩)

«التوبة هى عكس الحياة الشريرة فينبغى على التائب أن يتصرف على النقيض من سلوكه وهو فى الخطيئة ينبغى عليه أن يستعمل حواسه على نحو يناقض ما كان يفعل قبل توبته فإذا كان الخاطيء يقضى وقته ضاحكا مسرورا فيجب على التائب أن يبكى حزينا على نفسه وإذا كان الخاطيء يمارس معيشته كسولا باحثا عن اللذة مثرثا بالباطل فينبغى على التائب أن يصوم بدلا من الإفراط فى الملذات وأن يسهر بدلا من النوم وأن يتعب بدلا من الكسل وأن يحول الثثرة إلى صلاة وتأمل والبخل والجشع والأثرة الى تصدق وزهد وإيثار وإن لم يستطيع أن يفعل هذا فعليه أن يروض جسده .

قالوا «كيف نستطيع أن نفعل كل هذا كيف نحزن وكيف نبكى وكيف نصوم وكيف نصلى كيف نتعب وكيف نزهد فى ملذات الدنيا وكيف نصمت وكيف نتأمل وكيف نعاقب أجسادنا؟»

قال «سأجيبكم عن كل ما سألتكم بإذن «الله» فاقربوا منى وأصيخوا السمع إلى ما أقول وما أقوله لواحد منكم أقوله للجميع .»
قال : «لماذا يجب علينا أن نتوب؟»

«إن كل بناء إذا أُزيل أساسه الذى عليه يقوم تساقط خراباً أليس هذا صحيحاً ؟
قالوا «بلى» إنه لصحيح .

قال «المسيح» «إن أساس خلاصنا من الجحيم هو «الله» ولا نجاة لنا بدونهُ ولكن
الخطيئة تحجب «الله» عن الإنسان فيفقد الإنسان أساس خلاصه ومن هنا من الأساس
يجب أن نبدأ ..

«قولوا لي إذا أخطأ خادم وأغضب سيده فحزن الخادم لغضب سيده عليه ولكن
الخادم لم يحزن لأنه أخطأ سيده الذى كان يحسن إليه بل لأنه سوف يخسر العطايا
الكثيرة التى كان سيده يفيض بها عليه حين سروره به وعلم سيده سبب حزنه فهل تراه
يغفر له إيساعته ويعود إلى الإحسان إليه أم أنه يزداد غضباً عليه لأنه لم يهتم بغضبه عليه
بل بالجزاء الذى كان يحصل عليه قبل خطئه ؟ »

"لا ريب أنه يزداد غضباً عليه ."

«الحق أقول لكم إن «الله» يزداد غضباً على الذين يدعون أنهم يتوبون لأنهم
بالخطيئة خسروا الجنة التى فيها يحصلون على ما يشتهون. لقد حزنوا لأنهم فقدوا العطاء
غير مبالغ فيه بغضب المعطى عليهم. إن الشيطان اللعين نفسه حزين أشد الحزن لأنه فقد
الجنة وأصيب بجحيمهم إلى الأبد ومع ذلك فلن يجد من «الله» رحمة فهل تعلمون لماذا ؟
«لأنه لم يتب لأنه لا يحب خالقه بل ييغضه ولا يريد أن يتواضع لعظمته ومجده .»

(٢٤٠) «الحق أقول لكم إن كل دابة على الأرض تحزن لفقد ما تشتهى فهل يعد ذلك
الحزن توبة، كلاً.»

«فيجب على التائب أن يكون نادماً صديقاً حزيناً لأنه أغضب خالقه بعصيانه
مقراً بخطئه لئلاً لنفسه رغباً فى الإقتصاص منها استرضاءً لربه لا يجرؤ على أن يطلب
فى صلاته الجنة شاعراً أنه مستحق للجحيم بعدل «الله» الذى لا يظلم أحداً مثقال ذرة

يسجد لربه مضطرب الفكر يقول بقلبه انظر يا رب إلى الخاطيء الذى أغضبك دون سبب فى الوقت الذى كان ينبغى فيه أن يطيعك لذلك أطلب إليك يارب أن تؤدبنى لكى تطهرنى فأكون عبداً لائقاً بسيد عظيم مثلك فأبذل نفسي فإني لا تعذبني بقدر ما أستحق لأنك أنت الغفور الرحيم فأنتقذني ولا تسلمني بخطيئتي إلى يد الشيطان حتى لا يشمت اللعين بصنعة يدك. إن سار الخاطيء على هذا الطريق المستقيم فسيجد الله غفورا رحيمًا وسيظفر من «الله» بأكثر من العدل الذى كان يتوهمه .»

«إن هذه الدنيا كما قال «داود» هى وادى الدموع إذن فإن ضحك الخاطيء هو حقاً شىء دنس ومكروه .»

(٢٤١) «كان هناك «ملك» يسير على الطريق فوجد إنساناً فقيراً جائعاً مريضاً عرياناً لا يقدر على شىء فأواه وتبناه وجعله سيدياً على كل ما يملك فى حقله وقصره ولكن الإنسان أساء إلى سيده «الملك» بسعاية مآكر خبيث فوقع هذا التعيس تحت غضبة الملك ففقد كل ما كان يملكه باسم «الملك» وفقد مكانته فى الحقل والقصر وأخذ الجميع يسخرون منه ويستهنئون به لقد انتزع «الملك» منه كل ما كان قد أعطاه وطرده إلى الطريق فعاد فقيراً جائعاً عرياناً مريضاً لا يقدر على شىء .

«أتظنون إن مثل هذا الرجل يضحك مرة ما ؟ »

قالوا «كلاً ، لا يمكن أن يضحك .»

قال: «ولو عرف الملك إنه يضحك لأمر بقتله لأنه سيقول فى نفسه أنه «لا يعبأ بغضبى عليه .»

إذن على الخاطيء أن يبكى حزينا على نفسه ليلاً ونهاراً .

ثم بكى «المسيح» وقال بصوت تخنقه الدموع:

«ما أتعسك أيها الإنسان لقد جعلك «الله» خليفة له فكنت له بمثابة الابن لأبيه ووهبك

الجنة ولكنك أيها التعميس سقطت بعمل الشيطان تحت غضب «الله» فطردك من الجنة وحكم عليك بالإقامة في هذه الدنيا النجسة حيث لا تنال شيئاً إلا بالكدح وكل عمل صالح تقوم به يُحْبَط بتوالي ارتكابك للخطايا ولكنك أيها التعميس الذي لا يدري شقاءه تضحك والذي يخطئ أكثر من غيره يضحك كالمجنون أكثر من غيره وكما رأيتم فإن «الله» يحكم بالموت الأبدى على الخاطئ الذي يضحك ولا يبكي على خطيئته .»

«ويجب أن يكون بكاء الخاطئ مثل بكاء أب على ابنه الوحيد المشرف على الموت .»
 "ما أشد جنون الإنسان الذي يبكي على الجسد الذي تفارقه النفس بالموت ولا يبكي على النفس التي تفارقها رحمة «الله» بالخطيئة ."
 «قولوا لى إذا قُدِّرَ للنوتى الذى كَسَرَتِ العاصفة سفينته الوحيدة التى لا يملك غيرها إذا قُدِّرَ له أن يسترد بالبكاء كل ما خسره فماذا يجب عليه أن يفعل ؟!»
 «من المؤكد أنه لا يتوقف عن البكاء .»

«ولكن علّام يبكي الانسان ؟!»

الحق أقول لكم إن بكاء الإنسان خطيئة إلا على خطيئته . فكل شقاء ينزل بالإنسان في الدنيا إنما ينزل من «الله» ليظهره من ذنوبه ويساعده على التحرر من قبضة جهنم ولذلك كان على الإنسان أن يتהלّل وأن يفرح لكل مصيبة تنزل عليه لأن فيها رحمة «الله» ولكن الإنسان يحزن لما يأتية من رحمة «الله» ولا يحزن على الخطايا التى تأتية من الشيطان الذى يعمل بكل قوته على جذبه إلى اللعنة معه .»

«حقاً إن الإنسان لا يدرك أنه يسعى إلى خسارته وهو يظن أنه يسعى إلى فوزه .»
 (٢٤٢) قال واحد من الجمع «ولكن ماذا يفعل ياسيد من لا يستطيع أن يبكي لأن البكاء غريب على قلبه ؟»

قال «المسيح» «ليس الباك هو كل من يسكب العبرات . لعمر «الله» الذى تقف نفسى

فى حضرته يوجد قوم لم تسقط من عيونهم عبرة واحدة لكنهم بكوا أكثر من الذين يسكبون العبرات أكثر من ألف مرة، فليس المقصود بالبكاء هو إفراز الدموع من العينين بل الحزن العميق على النفس لإرتكابها الخطيئة وهو حزن يطهر القلب من الهوى فهو يحرق الأهواء ويمحو سحب الباطل لتسطع شمس الحقيقة .»

«كما أنه يوجد جم غفير من الناس الذين لم يبكوا قط مع أنهم تفيض الدموع من عيونهم فيضاً، أولئك هم الذين بين يجمعون محبة المعصية فى قلوبهم وانسكاب العبرات من عيونهم إنهم سيكون بسهولة ولذلك فبرغم فيض الدموع من مآقيهم فإنهم يهرولون فى الخطيئة ويزداد اندفاعهم إلى المعصية كلما زادت دموعهم فمثلم كمثّل الحصان الذى تزداد سرعة عدوه كلما خفت الأحمال التى على ظهره .»

«فعند البكاء ينظر «الله» إلى القلب لا إلى العين ويزن الحزن فى القلب لا كمية الدموع التى تخرج من العين .»

قال «يحيى» (يوحنا) بن زبدي «كيف يا معلم يكون البكاء على غير الخطيئة خطيئة وكيف يكون خسارة ؟ قال «المسيح» إذا أعطاك «هيروودوس» رئيس الجليل رداً لتحفظه عندك أمانة ثم جاء ليطلبه منك أياكون هذا باعاً لقلبك على الحزن والبكاء ؟!»

قال «يحيى»: لا

قال «المسيح» «فاعلم أن «الله» هو مالك كل شىء وحده ومن ثم فله وحده القدرة على التصرف فيما يملكه فلماذا يحزن الإنسان إذا ما فقد شيئاً أو فاته شىء مما يريد أليس كل ما يقع للإنسان إنما يأتية من يد «الله» ؟ . بلى .

«أيعارض الإنسان المخلوق إرادة «الله» خالقه فى التصرف فى أشياءه التى تفرد بملكيتها !!»

«ألا يكون الإنسان غيباً إذا حزن وبكى على شىء وقع له بيد «الله» الرحيم به، لا

يملك الإنسان إلاّ خطيئته وعليها وحدها يجب أن يبكى ومن الخطأ أن يبكى على أى شىء آخر، فإنه حينئذ يبحث لا محالة عن الخسارة . فاندفع أحدهم يقول «لقد اعترفت يا معلم أمام كبير الكهنة وجموع الناس أن ليس «الله» شبه بالبشر وها أنت تتحدث عن يد «الله» فإن كان «الله» يد فهو شبيه بالبشر». (٢٣٤)

قال «المسيح» «إنك لفي ضلال كبير ولقد ضل أكثر الناس لأنهم لا يفقهون الكلام إذ ينبغي على الإنسان ألاّ يتوقف عند ظاهر الألفاظ بل يبحث عن المعنى المستور فى الألفاظ فليست اللغة البشرية إلا بمثابة ترجمان ينقل لنا المعنى الذى يريد «الله» أن يفصح عنه. «الألفاظ» وسيط بيننا وبين «الله» يحمل المعنى الذى يريد «الله» إبلاغه لنا وعلينا ألاّ نتحجر أمام الألفاظ بل أن نغوص وراء المعنى. ألا تعلمون أن «الله» لما أراد أن يكلم بنى إسرائيل عند الجبل فى سيناء أدرك أبأؤكم أنهم لن يستطيعوا الثبات أمام كلام «الله» ولذلك صرخوا فى موسى «قائلين» بل كلمنا أنت يا «موسى» لانريد أن يكلمنا «الله» لكى لا نموت. إذن فقد اختاروا مضطرين وسيطا بينهم وبين «الله» هو «موسى بن عمران» الذى منحه «الله» أن يثبت عند التكليم وليس لكل واحد من البشر أن يتلقى الكلام من «الله» إلاّ الذين اختارهم «الله» ليكونوا وسطاء بينه وبين خلقه ومن هؤلاء الوسطاء نتلقى «الألفاظ» التى تحمل المعانى التى أفصح «الله» عنها .»

قال «الله» على لسان «أشعيا» «كما بَعُدَتِ السموات عن الارض بَعُدَتِ حكمة «الله» عن حكمة البشر وارتفع كلام «الله» عن كلام البشر .»

«إن السماء الأولى التى تحمل الكواكب والنجوم التى ترونها فى الليل تحيط بالأرض التى ليست بالنسبة إليها إلا كثقب أبرة فى بيت أو خاتم فى صحراء شاسعة والسماء الثانية تحيط بالسماء الأولى والثالثة تحيط بالثانية وهكذا تحيط كل سماء بالتي قبلها حتى السابعة وكل سماء بالنسبة للتي بعدها كالخاتم فى صحراء ممتدة أو كقطرة الماء بالنسبة إلى البحر والارض والسموات السبع التى تتراكب فوق بعضها يحيط بكل ذلك كرسى

«الله» ثم يحيط بالكرسى عرش «الله» كل سماء تحوى التى قبلها وكل واحدة تعد بالنسبة للتى بعدها كقطرة فى المحيط أو خاتم ملقى فى الصحراء والسموات جميعها بالنسبة لله صغيرة كحبة رمل على شاطئ فهل هذه العظمة يمكن قياسها؟ قالوا «كلا لا يمكن قياسها».

قال «إن «الله» لا يحيط به علم ولا يدركه قياس إلى حد أننى أرتجف من وصفه فانظروا الآن إن كان «الله» شبهً بالبشر الذى ليس إلا قطعة طين تتحرك بروح «الله» على الأرض فانتبهوا جيداً وأحذروا أن تأخذوا الكلام بظاهر ألفاظه بل اجتهدوا أن تصلوا إلى المعنى إن أردتم أن تظفروا بالحياة الأبدية؛ رحمة «الله» الدائمة التى لا يستطيع وصفها».

«لا يستطيع أن يعرف «الله» إلا «الله» وحده هو بمفرده الذى يقدر أن يعرف نفسه.

«إنه حقاً «إله» محتجب عن الحواس البشرية كما قال «إشعيا». هذا هو الحق ولكننا سنعرف «الله» فى الجنة كما يمكننا الآن فى الدنيا أن نعرف البحر من قطرة ماء أخذت منه».

«وأعود الآن إلى حديثي عن الخطيئة فأقول لكم إن «الإنسان» يجب أن يبكى على خطيئته فقط لأنه يفقد «الله» خالقه ويفارق رحمته».

«ولكن قولوا لى كيف يمكن أن يبكى حزينا من يحضر الولائم ومجالس الطرب؟ إن أعطى الثلج ناراً فإن ذلك الإنسان الشره يمكنه أن يبكى».

«فعليكم إذن أن تتحولوا عن الولائم ومجالس الطرب إلى الصوم إن أحببتم أن يكون لكم سلطة على حواسكم فبالصوم تتحقق سلطة إلهنا».

قال «تداوس» «إذن فالله «حاسية» يمكن التسلط عليها بالصوم». أجاب «المسيح» فى ضجر أتعبدون للقول بأن «الله» كذا وأنّ ليس «الله» كذا. كفوا عن هذا اللغو ولا تقولوا عن «الله» إلا ما قاله عن نفسه كما أخبرنا على لسان أنبيائه وقوموا إلى الصلاة».

بعد الصلاة قال «المسيح» «قولوا لى ماذا يعبد الكفار ؟ ! فأخذتهم الحيرة ثم أجاب «إنهم يعبدون حواسهم التى تندفع بهم باحثة من اللذة. يعبدون «الهوى» فيتجاوزون حدود «الله» ويعرضون عن نداء العقل فيخطئون إذ يعرضون أنفسهم للهلاك الأبدى الذى لا لذة فيه على الإطلاق».

«إنن فأول شىء يجب على الخاطيء الذى يريد أن يتوب أن يعمل بعد أن يحزن لأنه اقترف الخطيئة هو الصوم». (٢٤٤)

«فعندما يرى الإنسان أن الإفراط فى تناول طعام ما قد أمرضه فإن أول شىء ينبغى عليه أن يقوم به بعد الحزن على إفراطه فى أكل ذلك الطعام المضر هو أن يمتنع عن تناول ذلك الطعام. الشهوات هى التى دفعت الإنسان إلى الخطيئة وإندفاع الانسان وراء حواسه الباحثة عن اللذة وحدها هو الذى يجعله يخطئ ويعرضه للحرمان من ربه الذى له وحده أن يهبه الحياة الأبدية. هكذا يكون الاندفاع وراء الحواس طريقا للوقوع فى جهنم حيث الحرمان الأبدى من كل لذة».

«فعلى الإنسان إذن أن يهذب حواسه بالصوم. إن الإنسان طالما أنه يحى على الأرض فى هذا الثوب الطينى لا يستطيع أن يستغنى تماما عن طيبات هذه الدنيا ولكن يجب عليه أن يسيطر على حواسه بأن يجعل الجسد تحت سلطان «الروح» وبهذا وحده يصير يحق عبدا «الله» ولا سبيل إلى ذلك إلا بالصوم. إن الحواس تمقت الصوم وتدعو الإنسان للإنصياع وراء نداء اللذة فعلى الإنسان حينئذ أن يضع نُصْبَ عينه عذاب جهنم حيث لا لذة على الإطلاق بل ألم لا يحتمل وأسف لا ينتهى وأن يذكر نفسه بمسرات الجنة التى تفوق لحظة واحدة من نعيمها كل ما على الأرض فى الدنيا كلها من بدايتها حتى نهايتها من نعيم بهذا يتمكن الإنسان من القيام بالصوم الذى يمنحه الصبر ويجعل الجسد خاضعا لسلطان الروح فيتمكن الإنسان من السيطرة على حواسه».

إن القناعة بالقليل لنيل الكثير خير من إطلاق العنان فى القليل مع الحرمان من كل شىء بعد ذلك والبقاء من الجحيم».

«لكن على السائر فى طريق التوبة أن يكون متيقظا لخداع الشيطان».

«لأن الشيطان لا يكره أحداً من الخلق أكثر من التائب لأنه قد انقلب عليه إذ تحول من عبد مطيع وجندى مخلص من جنوده فى الخطيئة إلى عدو عنيد بمحاولته العودة إلى العبودية «الله» لذلك يعمد الشيطان إلى محاولة إبطال كل عمل صالح يشرع الراغب فى التوبة فى القيام به فهو يحاول أن يثنيه عن الصوم بشتى الطرق والأعذار فمرة بسبب المرض ومرة بسبب شدة الحر ومرة بسبب كثرة العمل الذى ينبغى القيام به وهكذا فإن لم ينجح فى مسعاه حاول تشجيع التائب على المبالغة فى الحرمان والغلو فى الصوم إلى الحد الذى قد يسبب المرض أو الاضطراب فى سياق معيشتة حتى يكره التائب الصوم فينقلب ضده مندفعاً إلى الشراهة مبتعداً عن طريق التوبة، لكن العبد قد يكون صبوراً وقوى الإرادة إلى الحد الذى يُعجز الشيطان فى مسعاه فحينئذ يحاول الشيطان أن ينحدر بالصوم إلى مجرد الحرمان الجسدى مع إغراق العبد فى الخطايا فيصير العبد صائماً بالجسد محرماً على نفسه ما أحل «الله» له ولكنه يرتكب الخطايا على الدوام لأن الشيطان ينفخ فى قلبه سم الكبرياء فيحتقر العبد الصائم الذين لا يصومون حاسباً نفسه أفضل منهم ويأخذ فى السخرية منهم والاستهزاء بهم وهكذا يحرم جسده من لذته ويملاً قلبه بالكبرياء... الباب الأكبر من أبواب جهنم الذى يؤدى إلى أعظم دركات العذاب».

«قولوا لى أيقظ للمريض الذى فرض عليه الطبيب «الحمية» أن يفاخر بها ويظن أنه أفضل من الذين لم يُفرض عليهم مثل هذا الحرمان أو يقول عنهم أنهم مجانين لأنهم لا يفعلون مثله ؟!»

«كلاً! بل ينبغى عليه أن يكون حزيناً من أجل مرضه الذى إضطره إلى أن يُحرّم من بعض أنواع من الطعام ولو كان سليماً مكتمل الصحة لم يُحرّم من شىء».

وكذلك الصائم لا ينبغي له أن يفتخر بصومه أو يحتقر الذين لا يصومون بل يجب أن يكون حزيناً لأن نفسه الراغبة في الخطيئة تضطره إلى علاجها بالصوم (٢٤٥). فمتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمراثين فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين، الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم، أما أنت أيها التائب فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تبدو صائماً، ولا يجب علي التائب الذي يتعالج بالصوم أن يجهز لنفسه أشهى الأطعمة عند انتهاء صومه بل عليه أن يقتصر على الطعام الخشن لأن الإنسان لا يكافئ الحصان الذي رُبط بالسلاسل ومُنِعَ عنه الطعام من أجل تأديبه لأنه كثير الرفس يميل إلى إيذاء الآخرين لا يكافئ الإنسان بتقديم أشهى الأطعمة إليه بل يجب أن تُقدَّم إليه الأطعمة التي تعافها نفسه حتى يكتمل تأديبه وكذلك ينبغي أن يكون الصائم.

«والآن أسيخوا السمع لتعرفوا ماهو «السهر»، إن لكل شيء وجهان ظاهر وباطن ومن ثم فإن «النوم» نوعان نوم الجسد عندما يسترد «الله» «النفس» فتتحرر من حصار الجسد لها ولكن دون أن تفقد اتصالها به حينئذ يفقد الجسد نشاطه ويسترخى فتضعف قبضته على «النفس» التي تتحرر من أسره لكنها تبقى متصلة به وإلا مات «الجسد» لأن موت الجسد هو مفارقة النفس له بحبسها عنه في قبضة الغيب ولا يمكن حينئذ أن تعود إليه إلا بآية من «الله» يعنى بقوة «الروح» الذي يعيد إسكانها في الجسد. نوم الجسد هو النوم «الظاهر» الذي جعله «الله» آية تتكرر كل يوم ليعلم بها الإنسان أنه في قبضة «الله» التي تحيط به وتهيمن على كل شيء وأنه لا يملك من «نفسه» شيئاً إذ لا يختار لحظة دخوله إلى عالم «النوم» ولا لحظة خروجه إلى عالم «اليقظة» لأن «النفس» هي كلمة «الله» التي يحملها الإنسان فهي تظهر وتختفي تبعا لمشيئة المتكلم بها وحده إن شاء نطق بها فتظهر وإن شاء سكت فتختفي .

أما «النوم الباطن» فهو نسيان القلب لكلام «الله» وغفلته عن لقاء «الله» وعن حضوره الدائم بين يديه وكما أن «نوم الجسد» هو «إنذار» بموته فإن «نوم النفس» هو إنذار بموتها

وهو مفارقتها رحمة «الله» بحبسها في العذاب الى الأبد. وذلك هو الموت الحقيقي الذي ينبغي على التائب أن يفر من الوقوع في قبضته «بالسهر».

«وللسهر» وجهان ظاهر وباطن فأما الظاهر فهو «سهر» الجسد بقيامه في الليل والناس نيام للصلاة وأما «السهر الباطن» فهو يقظة القلب بالتدبر في كلام «الله» والتفكير في آيات «الله» التي ملأت الأرض والسموات والإستعداد للقاء «الله» في يوم الحساب الرهيب وهو «سهر» يؤدي إلى رؤية «الله» في كل شئ وشكر «الله» على كل شئ والانتباه الى حضور «الله» الدائم الذي لا ينقطع فيظفر الإنسان «بوجود» «الله» وهو الحياة الحقيقية حينئذ يصبح الإنسان في عبادة دائمة «لله». إن القلب اليقظ هو القلب الذي يتردد في سماعه على الدوام نداء «الله» لمخلوقاته للمثول بين يديه للحساب (٢٤٦)

«النفس السهرانة» هي النفس الحية «بالله» التي تعاین أنها تنال من «الله» في كل لحظة نعمة من فيضه الذي لا يتوقف وهذه هي الغاية التي يسعى إليها «السهر» .
«قولوا لي أيمكننا أن نرى في الليل وعلى نور النجوم أفضل أم في النهار وعلى نور الشمس؟»

قالوا «بل في النهار وعلى نور الشمس».

قال : «ففي الليل وبالرغم من بزوغ النجوم فإننا لانرى في وضوح جبلا قريبا منا أما في النهار وفي نور الشمس فإننا يمكننا أن نرى أصغر الحبوب على الأرض».

«ولذلك فإننا في الليل نسير بخوف أما في النهار فإننا نمضي في طريقنا بإطمئنان»

«وبذلكم يكون سير الإنسان الذي استيقظت نفسه «بالسهر». إن الإنسان لا يستطيع أن يبقى دون نوم فإن حرمان الجسد من الرقاد أمر مستحيل وهو عذاب لاضرورة له ولاحكمة فيه لذلك ينبغي على التائب أن يمنح جسده بعض الرقاد وقليل من الراحة ولكن الإفراط في النوم والاستغراق في الراحة هو ما يجب مقاومته بكل قوة لذلك يجب على

السائر فى طريق «الله» أن يتجنب كثرة الطعام وزيادة الإنشغال بأمور الدنيا لأن هذين يثقلان الجسد عن القيام «لله» إذ يجذبان به إلى الأرض ويحولان بين الإنسان و«السهر»،

«ولكن يجب عليكم أن تحذروا أن يبقى الجسد ساهرا بينما القلب نائم لأن هذا هو الخطأ الفاحش الذى يقع فيه من يريد التوبة وهو خطأ يجعله أشبه بالجنون، قولوا لى مارأيكم فى رجل أراد السير فى طريق وعر لايعرفه طريق ملئ بالأشواك والعثرات وخوفا من أن تصطدم قدمه بحجر أخذ يسير على رأسه رافعاً قدميه نحو السماء» (٢٤٧)

أجاب التلاميذ «ياله من رجل تعيس، لاريب أنه مصاب بالجنون»،

قال «المسيح» «الجسد هو قدم الحياة الذى تعيش به النفس على الأرض والقلب هو رأس الحياة الذى تحيي به النفس مع الملائكة والأنبياء وتشهد به حضور «الله» لأن القلب هو «وعاء الروح» الذى له وحده أن يعرف «الله» وأن يعاين شهوده فمن يستيقظ بالليل ليصلى بجسده ولكن قلبه يكون غافلاً عن «الله» فهو «يسهر» بجسده الذى هو قدم حياته وينام بقلبه الذى هو رأس حياته فهو أشد جنونا من الذى يسير على رأسه خوفا من أن تصاب قدميه باصطدامها فى صخور الطريق فيقطة القلب هى المقصود «وسهر» النفس هو الغاية المطلوبة

ولكن إذا كان يجوز لنا أن نرقد بأجسادنا بعض الوقت كل ليلة فإن رقاد النفس الذى يعنى غفلتها عن «الله» لايجوز أبداً ولو للحظة واحدة (٢٤٨)

فاندهش الجمع الذى كان يصيخ سمعه إلى كلمات «المسيح» واندفع «تلميذ» ليقول «ولكن يامعلم كيف يمكن لنا أن نذكر «الله» على الدوام يلوح لنا أن ذلك شئ محال»،

قال «المسيح» : «إن مصدر «الشقاء» هنا على الأرض هو أن الانسان لايستطيع أن يذكر ربه على الدوام ولكن الأطهار أصفاء «الله» يستطيعون لأن اتصالهم «بالله» قد توثق فاستمر ولم يعد ينقطع. لقد إستقر فى قلوبهم «نور الله» فاستيقظت قلوبهم ولم تعد تنام عرفوا أنهم أوعية «لروح الله»، إنهم أبناء «الملوكوت» الذين لايقدرّون أن ينسوا «الله» لأن

«روح القدس» النبی الأبدی القائم أبداً بین یدی «الله» قد حل فیهم، فهم یدکرون «الله» على الدوام أو بالأحرى لا یدکرونه أبداً لأنهم لا ینسونه فى أى لحظة إنهم فى شهود دائم. وشخصت إلیه الأعمین غیر مصدقة «هل هذا ممکن ؟»

قال : «ألم تروا إلی الرجال الذین یعملون فى تقطیع الأحجار بالآلات الحدیدیة إنهم یضربون بالآلهم الحجر وهم یتکلمون مع بعضهم البعض لا ینظرون الى حركة أذرعهم ولا آین تقع آلآتهم ومع ذلك لا یخافون أن تصاب أیدیهم لأنهم لرغبیهم فى الإیقان ولطول التمرن یتستیعون أن یعرفوا آین تقع آلآتهم دون أن یلتفتوا إلیها».

«وكذلكم یجب علیکم أن تفعلوا أن أردتم أن تصبخوا أطهاراً أصفیاء: «الله» لاتغفلون عنه طرفة عین.»

«ارغبوا أولاً أن تكونوا أطهاراً إذا أحببتم أن تتغلبوا تماماً على شقاء «الغفلة» ثم علیکم بالتمرن المستمر فمن المؤكد أن الماء یتستیع أن یشق أقوى الصخور وأشدها قسوة بقطرة واحدة منه إذا تكرر وقوعها علیها فى نفس الموضع زمناً طویلاً .

«أتعلمون لماذا لم تتغلبوا على هذا الشقاء ولماذا تظنون أن الوصول إلی هذه الحال مستحیل ؟»

«لأنکم لا تعتقدون أن الغفلة عن «الله» طرفة عین هى خطیئة فلو أدركتم أنها خطیئة لأسرعتم إلی التوبة عنها وحينئذ تعلمون أن لا شیء مستحیل أمام رحمة الله .»

«إذا أعطاک «ملك» هبة ألیس من الخطأ وسوء الأدب أن تغض عینیک أو أن تلتفت عنه أو أن تدیر له ظهرک وهو یناولك الهبة ؟ »

قالوا «بلى» قال «ألا ینعم «الله» علینا فى كل لحظة وعلى الدوام نعمه التى لا نستطیع

عدها أو تقديرها فإنه وجود علينا بالنفس الذى نتنفسه فى كل لحظة ونبقى به أحياء
أليس هذ صحيحاً ؟ !

قالوا « بلى »

قال « الحق أقول لكم إنه يجب علينا أن نقول فى كل لحظة طوال حياتنا ومع كل نفس
نتنفسه « الحمد لله » (٢٤٩) نشكرك يا أللهنا . فمن الخطأ أيها الإنسان أن تغفل عن « الله » ولو
طرفه عين لأنه لا يغفل عنك طرفه عين ويهبك فى كل لحظة هبات عظيمة لا تستطيع
حصرها أو إدراكها .

قال « يحيى بن زبدي » إن ما تقوله يا معلم هو الحق فعلمنا الطريقة التى نبلغ بها هذه
الحال السعيدة ؟ »

قال « المسيح » « الحق أقول لكم إنه لا يتاح لأحد من البشر أن يصل إلى هذا بقدرة
بشرية بل هى رحمة « الله » التى يختص بها من يختار من عباده . »

« لكن من المؤكد أن الإنسان لا ينال ما لا يشتهى فإذا جلستم إلى المائدة فهل تتناولون
الأطعمة التى لا تحبونها بل حتى تأنفون من مجرد النظر إليها ؟ !
« كلا إن هذا محال » .

« ولكنكم تتناولون ما تحبون وتمدون أيديكم إلي ما تشتهون أكله وإذا كان الطعام
الذى ترغبون فيه بعيدا عنكم لا تستطيعون الوصول إليه بأيديكم فإن صاحب المائدة الذى
دعاكم يرى إلى أى شىء تتجه أعينكم فيسارع بتقريبه إليكم حتي تتناولوه . »

« من المؤكد أنكم لن تنالوا ما لا تشتهون ، فعلى الإنسان أن يشتهى الصالح فحينئذ
يهبه « الله » له . إرغبوا فى الطهارة يمنحكم « الله » أياها فى أقل من طرفه عين فإن إللهنا
الرحيم بنا على كل شىء قدير ولكنه يريد منا أن نطلب وأن ننتظر عطيته لكى يشعر
الإنسان بقيمة الهبة فيعرف بها الواهب . »

« ألم تنظروا إلى الجنود الرماة وهم يحاولون إصابة الهدف ؟ »

«حقاً إنهم يرمون مرات عديدة ولدة زمن طويل خارج الهدف ولكنهم فى النهاية يستطيعون إصابة الهدف بكل يسر بل ربما دون أن يبذلوا جهداً ملحوظاً. قد يرى الناظر إليهم فى البداية أنهم يرمون عبثاً ولكنهم لا يرغبون مطلقاً رغم كثرة أخطائهم فى أن يرموا عبثاً فهم يؤملون دائماً وفى كل مرة أن ينجحوا فى إصابة الهدف حتى يصلوا إلى ما يشتهون.»

«فافعلوا مثلهم حتى تظفروا ومتى غفلتم عن «الله» فنوحوا على أنفسكم حينئذ يهبكم «الله» رحمته لتتألوا شهوده.»

«إن صوم القلب عن الخطيئة وخلصه من الغفلة عن «الله» هما الغاية المرجوة من الصوم والسهرة أما صوم الجسد وسهره فينبغي أن يكونا على قدر احتمال العبد فكما أن كل إنسان يرتدي من الملابس ما يكون على قياسه الخاص وما يناسبه فكذلك ينبغى على العبد التأب أن يتناول من صوم الجسد وقيام الليل ما يقدر عليه، يوجد دائماً مرضى وحوامل ومرضعات ومن يمتنعون مهناً شاقة ومن يكونون على سفر متواصل وهناك الشيوخ الذين صاروا مثل الأطفال وهناك الواهنون أصحاب البنية الضعيفة فيجب على كل واحد أن يختار صومه وسهره واضعاً نصب عينيه على الدوام أن «الله» هو الغاية من كل عبادة وأن العبادة نفسها ليست غاية بل وسيلة لمعرفة الله.»

«ولكن احذروا فإن الشيطان قد يحمل أحدكم على أن يسهر طوال الليل ثم يتركه ينام بعد ذلك طوال النهار تاركاً وصايا الرب وغافلاً عن كل الأعمال التى يجب أن يقوم بها طبقاً لشرعية «الله» إنه لا يصلى ولا يصغى إلى كلمة «الله» بل يقاوم رغبته فى النوم. قولوا لى إذا دعاكم أحد أصدقائكم إلى مأدته ثم أخذ يأكل اللحم ويناولكم العظام التى بقيت منه أترضون بعمله وتعدونه صديقاً ؟»

قال «بطرس» : «كلا يامعلم فإنه يُعد مستهزئاً لا صديقاً» فشجعه «المسيح» قائلاً «بالحق نطقت يا بطرس لأن من يغالى فى سهره الجسدى أكثر مما يطيق فيظل يقاوم

النعاس وهو مثقل الرأس نائم القلب فى حين أنه ينبغى عليه أن يكون منتبها للصلاة ومصغيا إلى كلام «الله» فذلك التعيس إنما يستهزئ بربه تحت دعوى قيام الليل ويكون بسهره الذى لا معنى له مرتكبا للخطيئة وفوق ذلك فإنه لص يسرق الوقت الذى ينبغى أن ينفقه فى سبيل «الله» .

«دعا رجل أهل قريته لحضور عرس ابنه الوحيد فأجابه كل أهل القرية حتى أعداءه فأخذ الرجل يسقى أعداءه من الخمر التى أعدها حتى إذا صار الشراب حثالة وجاء «الملك» إلي العرس أخذ التعيس يسقى ملكه حثالة خمره فماذا تظنون أيسر سيده بهذا الشراب فيرضى عنه أم يغتاظ ويغضب عليه ؟ !

«حقا إن «الملك» يأمر جنوده بإحضار ذلك التعيس ثم يأخذ فى ضربه بل ربما أمر بقتله بغيظ عادل طبقا لشرائع الدنيا وعرف الناس .»

فماذا يفعل «الله» بالعبد الذى ينفق أفضل أوقات نشاطه فى مشاغل الدنيا حتى إذا ثقل جسمه ومالت رأسه ونام قلبه قام للصلاة ومطالعة كتاب «الله» .

«ويل للإنسان لأن قلبه مثقل بالخطايا»

«وأعود لأخلص لكم كل ما قلت، إن الضحك يجب أن ينقلب بكاء ويجب أن يكون البكاء من القلب لا من العين لأن إلهنا الذى خلقنا مستاء جداً منا وأن تنقلب الولائم إلى صوم لكى تكون لكم السلطة على حواسكم وصوم القلب عن الخطيئة هو الغاية المرجوة من الصوم وأن ينقلب الرقاد إلى سهر وخلاص الإنسان من غفلته عن حضور «الله» هو المقصود من السهر وأن طاعة «الله» بالجسد يجب أن تكون بقدر ما يطيق الجسد فإن «الله» لا يكلف أحدا من خلقه ما لا يطيق» . (٢٥٠)

كان التعب قد استولى على الجميع وقد نفذ الطعام الذى حملوه فصرفهم «المسيح»

ليرتاحوا ويذهبوا لإحضار الطعام وخلا هو بنفسه وجلس مطرقاً إلى الأرض وبعض التلاميذ والأتباع يراقبونه من بعيد .

لقد ساروا معه أياماً طويلة على شاطئ الأردن لا يتناولون إلا كسرات الخبز التي جمعت في «القفف» وما كان مع بعضهم من الطعام ويشربون من نهر الأردن أو من عيون الماء التي يجدونها في الطريق فكان هذا التقشف الذي فرض عليهم فجأة مع السير الطويل والصلوات الكثيرة التي اضطروا إلى أدائها والانتظار أوقاتاً طويلة حتى يفرغ «المسيح» من صلواته ويخرج إليهم تضافر كل ذلك ليزيد من شعورهم بالتعب والملل فما أن أذن لهم «المسيح» بالراحة والخروج للبحث في القرى المجاورة عن طعام حتى انطلقوا في جماعات صغيرة يريدون التخفف من ثقل تلك التعاليم شديدة الوطأة. لقد خرجوا ليحضروا طعاماً يواصلون به الرحلة ولكنهم كانوا يريدون التحرر من القيود التي تفرضها عليهم صُحبة «المعلم» يرغبون في الإستغراق في الراحة بعد كل هذا التعب الذي تكبدوه ولكنهم في النهاية وبعد تباطؤ عابوا للمسيح الذي كان ينتظرهم .

«لقد أطلع عدة آلاف بسمكتين وخمسة أرغفة فلماذا لا يطعمنا نحن الذين صحبناه وسرنا معه طوال الطريق، لماذا يتركنا نذهب لنبحث عن الطعام وقد قيل لنا إن رزقه في يده فلماذا لا يعطينا طعاماً دون مشقة وقد عزمنا على طاعة «الله»، ألا نستحق مكافأة على كل هذا التعب الذي تحملناه؟» قال لهم «المسيح» .

«قولوا لي ما الذي أضافه إلى الدنيا ذلك الإنسان الذي يرغب في أن يستريح؟ ماذا صنع ذلك الذي يود أن يقضى عمره في الراحة طالبا من جميع الأشياء أن تعمل في خدمته ؟ !»

«من المؤكد أنه قد نزل إلى الدنيا عريانا ضعيفا لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئاً ومن ثم فمن المؤكد أن كل ما يتمتع به الإنسان في معيشته هو ثمرة عمل الآخرين وكدهم ولذلك ينبغي على الإنسان أن يقدم حساباً عن كل النعم التي وجد نفسه يتمتع بها دون أي

مجهود منه فإنه لم يكن أكثر من متصرف فيما صنعه الآخرون بتعبهم. فبأى حق يريد الإنسان أن يقضي عمره فى الكسل قائلاً فى كل لحظة «آن لى أن أستريح»، إن «الله» لم يجعل الدنيا بيتاً نرتاح فيه بل حقلاً نعمل فيه وميداناً نجاهد فيه فواجب على كل إنسان أن يعمل. ومن الخير للإنسان أن يأكل بعمل يده وقد جعل «الله» التعب فى سبيل الحصول على الرزق باباً لمغفرة الخطايا وطريقاً للحصول على البركة .

قال «يحيى بن زبدى» نعلم يا معلم أن العمل شىء حسن ولكن الفقراء هم الذين ينبغى عليهم أن يعملوا من أجل معيشتهم ولكن الأغنياء يكونون غير مضطرين للعمل (٢٥١).

قال «المسيح» : «نعم ينبغى على الفقراء أن يعملوا لأنهم لا يستطيعون غير ذلك، ولكن ألا تعلم أن العمل لا يُعدُّ صالحاً إلا إذا تحرر من قام به من الضرورة وأنبعث للقيام به بإختياره. هل قال «الله» يعيش الفقير من عرق وجهه أم أنه قال للإنسان وهو يخرج من الجنة «بعرق وجهك تأكل خبزك» فهذا الأمر موجه إلى الإنسان إلى كل من يمكن وصفه بالإنسان ومن ثم فإن غير الإنسان هو الذى يمكنه أن يعفى نفسه من هذا الأمر الإلهى. وإذا كان «الله» قد أمر الإنسان بأن يعمل وأن يأكل خبزه بعرق وجهه فلا بد أن هذا الأمر يحمل «رحمة الله» للإنسان ولذلك قال «داود النبى» «إننا إذا أكلنا من تعب أيدينا نتبارك .» وإذا كان «النبى داود» وابنه «سليمان» وكانا ملكين على بنى إسرائيل قد عملا بأيديهما وأكلا من ثمرة كدهما فكم يجب على الخاطئين الذين ليسوا أنبياء ولا ملوكاً أن يعملوا لذلك قال «أيوب» نبى الله «كما أن الطير مولود للطيران والسماك للسباحة فى البحر فإن الإنسان مخلوق للعمل فى الأرض .»

«يجب على كل إنسان أن يعمل حتى وإن كان غنيا وعليه أن يختار العمل الذى يناسب.»

« لا شيء أضر على الإنسان من الكسل الذى هو بمثابة المرحاض الذى تتجمع فيه الخطايا ومن الشهوة الآثمة الممقوته من «الله» لأنها تتحدر بالإنسان إلى رتبة الدواب غير الناطقة التى تهيم على وجه الأرض. ويحذر الإنسان فإن عدوه من أهل بيته بل من نفسه التى بين جنبيه. ليس ثمة مكان لا يوجد فيه عدو للإنسان وما أكثر الذين أهلكوا بسبب الشهوات الآثمة .»

قال «يعقوب من زبدى» «يا معلم ما هى الشهوة الآثمة (٢٥٢) ؟

قال «المسيح» «الشهوة الآثمة هى كل حب لشيء مخلوق غير مكبوح الجراح يتجاوز حدود شريعة «الله» ولا يرشده العقل ولما كان الإنسان لا يعرف حقيقة نفسه ولا يعلم ما الذى يضره وما الذى ينفعه لذلك فإنه يندفع إلى حب أشياء يكون فيها هلاكه فهو يحب ما يجب عليه إبعاضه ويبغض ما يجب عليه حبه فيهلك .»

الحق أقول لكم إنه إذا أحب الإنسان شيئاً ليس باعتباره هبة وهبها «الله» أياه بل أحبه لذاته فقد زنى وأشرك «بالله» لأنه بهذا الحب الآثم طلب أن تتحد نفسه بغير «الله» ولهذا وبخ «الله» الأمة على لسان «إشعيا» النبى قائلا «إنك قد زנית بعشاق كثيرين ولكن إن رجعت إلى قبلك .»

«لعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرتة لو لم يكن فى قلب الإنسان حب المعصية واللذة بالذنب لما ارتكب الجسد المعصية فإذا أقتلعت الجذر فإن الشجرة سرعان ما تموت.»

«ليكن الرجل قانعاً بالمرأة التى أعطاها أياه خالقه زوجاً وليغض بصره عن كل امرأة أخرى لا تحل له . لينسى كل امرأة أخرى .»

قال «إندراوس» بصراحة «ولكن كيف يا معلم يستطيع الإنسان أن يغض البصر وينسى النساء الأخريات والمدينة التى يعيش فيها تمتلاً بهن .»

قال «المسيح» «حقاً يا «إندراوس» فإن العيش في المدينة يجذب الخطايا كما يمتص الإسفننج الماء لذلك يجب على الإنسان الذي يعيش في المدينة أن يكون مثل الجندي في الحرب عندما يحيط به أعداؤه من كل جانب إن عليه أن يحتمي بحصن حصين ليدفع عن نفسه هجمات الأعداء من الخارج وأن يكون منتبهاً على الدوام حذراً من خيانة أهله في الداخل فكما يكون الإنسان معرضاً لإغراء الخطيئة بواسطة الآخرين فإنه أيضاً يجذب إليها بنفسه المحبة للمعصية وحواسه المندفعة إلى اللذة والتي لها شغف شديد بكل الأشياء الدنسة التي حرمها «الله». كيف يستطيع الإنسان أن يدفع عن نفسه الخطيئة إذا لم يكبح جماح عينه التي تكون بحق أوسع الأبواب إلى الخطايا الحق أقول لكم إن من أفقده «الله» بصر عينيه فقد آمنه من عذاب جهنم إلا ما كان إلى الدركة الثالثة أما الذي منحه بصر العينين فقد تعرض إلى عذاب جهنم حتى الدركة السابعة. فإذا لم تحفظ عينيك يا «أندراوس» من النظر إلى محارم «الله» فإنني أقول لك إن عدم الانغماس في الخطايا يكون حينئذ من المحال» (٢٥٣) .

«لذلك بكى النبي «أرميا» قائلاً «عين لص يسرق نفسه» وصلى النبي «داود» إلى «الله» بأشد رغبة من أجل أن يحول عينيه عن النظر إلى الباطل .

«كان لرجل فلسان فقط فهل يشتري بهما خبزاً ليقيم أوده أم يذهب ليشترى بها سمّاً؟» (٢٥٤)

«فعلى الإنسان أن يستخدم بصر عينه مع بصر قلبه لكي يطلب معرفة «الله» خالقه وألا يجعل غايته أحد المخلوقات أياً كان ذلك المخلوق» .

«وهبك أحد أصدقائك شيئاً لتحفظه عندك ليكون تذكراً له فتظل تذكره به لكلك أعجبت بالشيء جداً إلى الجد الذي أنساك صديقك الذي منحك أياه أو رأيت الشيء الذي أخذته يساوي ثمننا كبيراً فذهبت فبعته لتشتري شيئاً آخر أحببته أكثر من صديقك الذي وهبك التذكار و علم صديقك بما فعلت فماذا يكون جزاءك عنده ؟!» .

«كذلك منح «الله» الإنسان كل شيء ليذكره الإنسان في كل شيء وبكل شيء لكن الإنسان نسي «الله» الذى منحه الأشياء جميعها وجعل تلك المنح المخلوقة غاية فكفر بنعمة ربه عليه وجعل تلك المنح التى خلقت من أجله آلهة من دون «الله» فانظروا الى جحود الانسان!!»

«فمن ينظر إلى المرأة التى خلقها «الله» ويشتهيها الى الحد الذى ينسى فيه ربه الذى خلق تلك المرأة ويكون مستعداً لمخالفة شريعة «الله» من أجلها فإنه قد عبد تلك المرأة واتخذ منها إلهاً بدلاً من «الله» ولذلك فهو يحب كل شيء يذكره بالمرأة التى أحبها واشتهاها إلى هذا الحد وكما أن السفينة لا يمكن أن تسير بدون الريح الذى يحركها فإن الجسد لا يمكن أن يخطى بدون «الحس» الباحث عن اللذة ولا يمكن أن يوضع «الجسد» تحت سلطان «الروح» إلا بالسيطرة على «الحس» ولا سبيل إلى ذلك دون وضع لجام للعينين (٢٥٥)»

«إذا تمكن رجل من تحويل التراب إلى ذهب أو الى سكر فما رأيكم فى العمل الذى ينبغى عليه القيام به؟» قالوا «ينبغى عليه ألا يعمل شيئاً سوى صناعة الذهب أو السكر».

قال «وكذلك ينبغى أن ينفق التائب الوقت الذى منحه «الله» أياه فى الصلاة بدلاً من إضاعته فى الثثرة. إن تحويل الثثرة إلى صلاة أكثر ربحاً للإنسان من تحويل التراب إلى ذهب أو إلى سكر فلماذا لا ننفق الوقت الذى وهبنا «الله» فى الصلاة بدلاً من الثثرة. إن هذا مما يقول به العقل حتى إن لم يكن وصية من «الله». «هل يمكن لأخرس متهم فى قضية أن يدافع عن نفسه أمام قاضى أعمى؟»

«لعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته إن قدرة الإنسان على أن يكون صالحاً بدون صلاة لهى أقل من قدرة الأخرس على الدفاع عن نفسه أمام أعمى».

«هل يمكن لرجل بلا يدين أن يتناول شيئاً أو أن يدفع عن نفسه عدواً مهاجماً؟»

«الحق أقول لكم إن الصلاة هي يدا حياتنا اللتان يدافع بهما المصلى عن نفسه أمام
«الله» فى يوم الحساب.»

«هل يمكن مداواة جرح بدون مرهم أو مهاجمة عدو بدون سلاح أو حفظ اللحوم بدون
ملح أو إقلاع سفينة بدون ريح أو سيرها بدون دقة ؟ »

«الحق أقول لكم إن الصلاة هي دواء النفس وهي سلاح المؤمن وهي لجام «الحس»
الذى يحفظه فى حدود الشريعة وهي ملح الجسد الذى يحفظه من الفساد بالخطيئة إذ
تصون الإيمان فى القلب وتحفظه من أن تدخل فيه النوايا الشريرة وهي الريح الذى يدفع
سفينة الجسد فى طريق البر والدفة التى تسيّر القلب فى صراط «الله» المستقيم فينال من
«الله» كل ما يطلب وهي شفيع النفس فى يوم الدين (٢٥٦) .

«إن الإنسان يخطئ فى كل كلمة قبيحة ينطق بها ويمحو «الله» خطيئته بالصلاة .»
«كان هناك «ملك» منح عبده مدينة ليحكمها ويعيش فيها ولكن العبد بعد أن أخذ
المدينة كوّن جيشاً وأثار حرباً ضد الملك .»

«كذلكم أعطانا «الله» الوقت فى حياتنا الدنيا لتعبده لكننا أخذنا الوقت
لنحارب به بالمعاصي .»

سلعمر «الله» الذى تقف نفسى فى حضرته لو علم الناس إلى أى صورة بشعة
ينحدر الإنسان بالكلام الباطل لفضلوا أن يعضوا ألسنتهم بأسنانهم بدلا من النطق
بالباطل .»

«ما أتعس بنى اسرائيل اليوم لأن الناس لم تعد تذهب إلى الهيكل للصلاة بل إن
الشیطان يجمعهم فى أروقة الهيكل بل فى الهيكل نفسه للتكلم بالباطل بل لما هو شر
من ذلك .» (٢٥٧)

«إن الكلام الباطل يوهن البصيرة إلى حد أن يصير الإنسان غير مستعد لقبول الحق فالرجل الذى اعتاد أن يضيع وقته فى المزاح عندما يريد أن يصلى يأخذ الشيطان فى تذكيرة بكل الفكاهات التى قالها أو استمع إليها من قبل فيستغرق الإنسان فى الضحك فى الوقت الذى ينبغى عليه أن يبكى على خطاياہ طالبا من «الله» المغفرة والرحمة فيثير بضحكه غضب «الله» فيطرده من رحمته .»

«وإذا كان «الله» يمتق المازحين بالباطل والمتكلمين باللغو فماذا يفعل بالمتذمرين الذين يعلنون سخطهم على قضاء «الله» أو الذين يغتابون جيرانهم وأهلهم أو الذين يفترون الإثم على غيرهم طلبا للريح .»

«إن ذلك العالم الدنس لا يستطيع أن يتصور الصرامة التى يقتص بها «الله» منه فعلى من يريد أن يتوب أن يجاهد نفسه ولا يعطى كلامه إلا بثمن الذهب .»

قالوا «وكيف يجاهد نفسه ومن الذى يشتري الكلام بثمن الذهب لاشك أن الإنسان سيصبح طماعاً جداً .»

قال «المسيح» «إن قلوبكم ثقيلة جداً لا أستطيع أن أرفعها ولذلك فأننا مضطرون أن أشرح لكم كل كلمة أقولها . لا تحزنوا ولا تغضبوا ولكن أشكروا «الله» أن أتاح لكم أن تعرفوا «الحكمة» . إننى لا أقصد أن التائب ينبغى عليه أن يبيع كلامه بثمن الذهب ولكننى أقصد أن التائب عندما يريد أن يتكلم وجب عليه أن يحسب أنه يخرج من فمه ذهباً لاهواء فكما أن الإنسان لا يبعثر ما يملك من الذهب ويلقى به على الأرض وكما أنه لا يشتري به ما يضره فهو لا ينفق ما معه من الذهب إلا عند الضرورة الشديدة وعندما يكون متأكداً أن هذا الإنفاق سيعود عليه بالنفع لا بالضرر فعليه أن يتكلم على هذا النحو. (٢٥٨)

أصدر الحاكم أمراً بسجن أحد الأشخاص ثم أرسل إليه ليستجوبه أمام القاضى والكاتب يسجل الأقوال .»

«قولوا لى كيف يتكلم مثل هذا الرجل ؟»

قالوا «إنه يكون حذراً فلا ينطق إلا إذا سُئِلَ وإذا أُجَابَ فعلى قدر السؤال حتى لا يزج بنفسه فى التهم وعليه أن يكون فى منتهى الحذر حتى لا يقول شيئاً يغضب الحاكم وإن استطاع أن يقول شيئاً يحمل الحاكم على أن يطلقه فعليه أن يسرع بالنطق به وإلا فليصمت (٢٥٩) .

قال «المسيح» «وكذلك ينبغي أن يكون كلام التائب فإن «الله» قد سجن الإنسان فى هذا الجسد ووضع عن يمينه وشماله كاتبتين يسجلان عليه أقواله فإن أحب الإنسان أن يطلقه «الله» من هذا السجن إلى الرحمة فليزن الكلام الذى ينطق به بأدق مما يزن الذهب والإفانته سيذهب من هذا السجن إلى سجن آخر أشد ضيقاً لا خروج منه .»

«إن أعطاكم «هيروُدوس» بستاناً لتزرعوه له وتاكلوا منه ثم أرسل إليكم فى نهاية الموسم بعد الحصاد عبيده ليحملوا إليه الثمر الذى جُمِعَ من بستانه فرفضتم أن تسلموا العبيد الثمر مدعين أن الثمر ثمركم والزرع زرعكم والبستان بستانكم وأن «هيروُدوس» ليس له شىء عندكم فلا يحق له أن يطالبكم بشىء .»

«ألا تكونون بذلك قد جعلتم أنفسكم ملوكاً على البستان الذى منحكم الرئيس «هيروُدوس» أياه» قالوا «بلى» .

قال «المسيح» «فماذا يفعل بكم ١٩»

«إنه يطردكم من البستان ويلقى بكم فى السجن ويستبدل بكم قوماً غيركم. أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا «بلى»

قال «وكذلك يفعل «الله» مع البخيل لأن البخيل قد جعل من نفسه إلهاً على الثروة التى منحها «الله» أياه وهو يقول بعمله وإن لم ينطق لسانه «لا إله إلا أنا ولا إله غيرى»

ولذلك فهو ينفق كل ما أعطاه «الله» علي ملذاته الخاصة محاولاً جمع كل ما يستطيع من المال ومتوهمًا أن ذلك يضمن له الخلود رغم أن العقل بمفرده يصرخ فيه «إن هذا عبث لا طائل من ورائه وأن ما يقوم به باطل لا معنى له». إنه يغفل حتى عن بدايته المنظورة حيث ولد عريانا لا يملك شيئا ويغفل عن نهايته المنظورة حيث يموت عريانا لا يملك شيئا تاركا وراءه كل ما ضيع حياته في جمعه. فكما تكون نهاية اللص السجن فإن نهاية البخيل هي جهنم حيث لا لذة على الإطلاق فمن المستحيل أن ينال البخيل خيراً من الجنة».

ثم رفع «المسيح» يديه إلى السماء وقال «آلهنا الرحيم القدير .

أنت خلقتنا فنحن صنعة يديك .

نقر بأننا عبيدك.

ونشكرك على أن رفعتنا إلى رتبة الإنسان وجعلتنا علي دين «رسولك» ونشكرك على كل نعمك التي نعترف بأننا لا نستطيع أن نحصيها أو نقوم بشكرها. نريد أن نعبدك وحدك كل أيام حياتنا نادمين على خطايانا مصلين ومتصدقين صائمين مجتهدين في فهم كلمتك مكابدين الآلام من أعدائك حباً فيك وبإذلين أنفسنا للموت في سبيلك راغبين في تعليم الذين يجهلون مشيئتك فنجنا يا رب من الشيطان ومن أنفسنا ومن كل أعدائك إكراماً لرسولك الذي من أجله خلقتنا وكرامة لجميع أنبيائك ورسلك كما نجيت المؤمنين من عبادك تمجيذاً لذاتك التي تتعالى على كل وصف» وكانوا يكررون وراءه «آمين آمين».(٢٦٠)

ثم صرفهم «المسيح» ليستريحوا واعتزل بنفسه ثم اضطجع قليلاً على الأرض .

وفي الفجر أيقظ «المسيح» تلاميذه وأتباعه حيث أمرهم بالإغتسال ثم صلى بهم وجلس يعلمهم بينما كانت الشمس تشرق ونورها النازل إلى الأرض يبديد الظلمة ويضيء الأشياء

قال «المسيح» :

«في مثل هذا اليوم (وكان يوم جمعة) خلق «الله» الإنسان من كتلة من الطين لقد

نَفَخَ فيها من «روحه» الحياة فكان «الإنسان» وانتشر «سر الحياة» فى كل أجزاء الجسد ونتج عن ذلك «الحس» ثم نزلت «النفوس» بقوة «الروح» لتستقر فى «القلب» فتتسلط من هناك على سائر الجسد .»

«ثم نُور القلبَ ليعرف الإنسان حقيقته ويعلم من هو ويدرك أن «الله» هو غايته هذا النور هو الذى يسميه الناس «العقل» (٢٦١) ثم وضع «الله» الإنسان فى الجنة. لكن «الحس» الباحث عن كل لذة استطاع أن يغرى «العقل» بالخطيئة بغواية الشيطان فعصى «الإنسان» ربه فطُرِدَ من الجنة ففقدت «النفوس» براعتها فزال عنها الجمال الذى كان لها فى الجنة وفقد «الجسد» راحته فصار عليه أن يكابد الألم والموت وفقد «الحس» اللذة التى يبحث عنها ولا يحى إلا بها وأوشك الإنسان على الهلاك الأبدى بمفارقتة رحمة «الله» إلا أن رحمة «الله» أدركته فأعادت «النور» الى قلبه فاسترد الإنسان «عقله» وهذه هى توبة «الله» على عبده. أن يعيد نورالعقل إلى قلبه فيأخذ الإنسان بهذا النور فى السير إلى ربه.

«وكما ترون فإن الإنسان لا يستطيع أن يتوب إلا بمعونة «الله» لأن «الله» هو الذى يتوب على عبده بإعادة النور إلى قلبه فيأخذ العبد فى التوبة إلى ربه فلا توبة إلا من «الله» لأنها تجديد حياة القلب ولا يملك ذلك إلا «الله» وحده. ربنا هو الذى ينعم علينا لتتوب لذلك قال «داود» «هذا التغيير يأتى من يمين الله» (٢٦٢) فلنشكر «الله» ربنا الذى وهبنا اليوم أن أبلغ كلمته .»

«وأحب أن أعود الى البخل الذى حدثتكم عنه الليلة الماضية فأقول لكم إن البخل هو عطش «الحس» إلى اللذة التى فقدها بالخطيئة التى طردت الإنسان من الجنة .»

«إن «الحس» يطلب اللذة ولكن الإنسان يفقد نور العقل بخطيئته لذلك فإن «الحس» يضل الطريق فى بحثه عن المسرة فلا يجد له هادياً إلا النور الذى يصل إليه من العيين ولكن عين الجسد لا ترى إلا الباطل لأنها لا تستطيع أن تدرك إلا رسوم الأشياء ولذلك فإن الحس يأخذ فى حث الإنسان على جمع الأشياء الأرضية وإحاطة نفسه بها لعله يتعزى عن

اللذة التي فقدتها بخطيئته خادعا نفسه بأن يجد فيها بديلا عن جنة «الله» موهماً نفسه بأنه قد يظفر بالخلود وكلما رأى نفسه بعيدا عن «الله» محروما من رحمته كلما ازداد بخله قوة فازداد تشبثه بالأشياء الدنيوية وهكذا كلما حصل البخيل على المال ازداد عطشه إليه وازداد حرصه عليه ولايملاً عينه إلا التراب».

«إن البخل يجب أن يتحول إلى تصدق فمتى رأى الإنسان نفسه راغباً فى الحصول على شئ أو شديد الحرص على شئ فليسأل نفسه أولاً هل هذا الشئ له نهاية أم لا ؟»
«ومن المؤكد أن جميع الأشياء لها نهاية فمن الجنون إذن أن يحبها الإنسان وأن يشتد حرصه عليها لأن الإنسان لاينبغى له أن يحب إلا الأبدى الذى لانهاية له ولايحرص إلا على الباقي الذى لايفنى فليخلص الإنسان من البخل موزعا بالعدل ماأدعاه بالظلم» (٢٦٣)

«ولكن يجب هنا أن أحذركم من الرياء فينبغى على التائب عندما يتصدق ألا تعلم يده اليسرى ما أعطت اليمنى. إن الإنسان يأخذ أجرته ممن يشتغل عنده والمرأون يحبون أن ينظر إليهم الناس وأن يمدحهم وهذا هو كل جزاءهم على صدقتهم الكاذبة التى لم يريدوا بها وجه «الله». فإن أراد المتصدق أن يأخذ أجرا من «الله» فعليه أن يبتغى بصدقته وجه «الله» وذلك بأن يعتقد جازما أنه يعطى «الله» مال «الله» حبا فى «الله» الذى منحه هذا المال طالبا منه أن يرضى عنه وأن يغفر له خطاياها وأن يرحمه. »

«فلاتبطنوا فى العطاء ولاتعطوا إلا خير ما عندكم».

«قولوا لى أحببون أن تتالوا من «الله» شيئا رديئا ؟» «كلأ لا أحد يحب ذلك».

«فلماذا أيها الطين تعطى آلهك شيئا رديئا وأنت تدعى أنك تحبه. هو الذى خلقك ووهبك الحياة من «روحه». ألا تتصدق خيراً لك من أن تتصدق بشئ ردى تعافه نفسك لأنه يمكن الاعتذار عن عدم العطاء ولكن يا أيها التراب الذى منحك «الله» «روحه» ماهو عذرك فى أن تتصدق بشئ خبيث لاقيمة له مع احتفاظك بالأفضل لنفسك ؟» (٢٦٤)

«لكل ذلك أقول لكم لا أمل للإنسان فى التوبة إلا اذا أعاد «الله» تنوير قلبه ليتبين الإنسان فى نور «الله» الطريق إليه فيأخذ فى السير وبدون ذلك النور المنبعث من «روح الله» فإن علم كل العلماء وحكمة كل الحكماء لاتجدى شيئا»

قال «يحيى بن زبدي» «إذن فما هى الجدوى من كلام الإنسان ؟»

قال «المسيح»: «إن الإنسان من حيث هو مخلوق لا يستطيع تحويل خاطئ إلى التوبة ولكن الإنسان من حيث وسيلة يستعملها الله يستطيع أن يجدد الحياة فى قلب الإنسان لأن «الله» هو الذى يعمل فى الإنسان ليخلصه من الشقاء ويعيده إلى الجنة حيث الرحمة الدائمة لذلك يجب على الإنسان أن يصغى لكل إنسان حتى يستطيع أن يظفر بالذى يريد «الله» أن يكلمنا به .»

فقال «يعقوب» شقيق «يحيى» «ولكن يامعلم إن أتى معلم كاذب أو مدعى نبوة وأدعى أنه يريد أن يعلمنا ويهدينا فماذا نفعل؟» (٢٦٥)

قال «المسيح» «يذهب الرجل الى البحر ليصطاد فيلقى شباكه ثم يخرجها وي طرح ما فيها ويأخذ فى فحص الصيد فيحتفظ بالجيد ويلقى بالردئ بعيدا» (٢٦٦)

«وكذلك يجب أن تفعلوا . تصغوا إلى الجميع ثم تفحصوا ماسمعتم فتقبلوا الحق فقط لأن الحق وحده هو الذى يحمل إليكم الحياة الأبدية .»

قال «إندراوس» «ولكن كيف نعرف الحق» ؟!

قال «المسيح»: «إن «الله» واحد ولذلك كان الحق الذى ينطق به واحد ومن ثم فإن التعليم الذى جاء به جميع الانبياء المرسلين من «الله» من بدء الدنيا حتى زوالها واحد ولذلك يكون كل ما أتفقت عليه أقوال الأنبياء صادرا عن «الله» . الحق أقول لكم لو لم يُنمَح الحق من كتاب موسى إذ أزال منه الأحبار والكتبة مايكرهون وأضافوا إليه بأهوائهم مايشأعن لو لم يحدث هذا ما أنزل «الله» رسالات جديدة مع أنبياء جدد وما أعطى

«داود» كتابه ولو لم تُدُنس كتب الأنبياء بالباطل الذى أحدثه الكهنة والشيوخ ما علمنى «الله» التوراة» و«التبشير» ولكن «تبشيري» أيضاً سيدنس بأقوال الذين لا يتقون «الله» ولذلك سيرسل «الله» رسوله «روح القدس» الذى يغلق باب النبوة وسيحفظ «الله» وحيه حتى تقوم الساعة إذ لن يكون نبي بعده فيبقى كتابه صحيحاً لأيدُنس لأنه يحمل كلمة «الله» الأخيرة الى البشر. إن «الله» واحد وثابت لا يطرأ عليه تغيير ورسالته الى البشر واحدة نطق بها جميع الأنبياء فى كل الأمم ولذلك متى جاء نبي «الله» الأخير فإنه يصحح الأخطاء التى وقعت فى كتب الأنبياء بفعل الأيدي الخبيثة ويظهرنى من الإثم الذى يلحقه الفجار بى فيرفع عنى «العار» الذى يحاول الشيطان أن يدمغنى به ويظهر كتابى من الدنس وفى ذلك يكون عزائى كما قلت لكبير الكهنة وأمام الجموع» .

قال برنابا «لكنك يا معلم قلتُ أمام كبير الكهنة أن أنبياء كذابين سيظهرون وسيعطون الناس تعاليماً فاسدة ومن ثم فلا بد أن شريعة «الله» سيصيها الفساد فماذا نفعل حينذاك»؟! (٢٦٧)

قال «المسيح» «إن هذا أمر عظيم ولذلك أقول لكم إن الذين يظفرون بالخلاص فى مثل هذه الفتنة قليلون لأن أكثر الناس لا يؤمنون لأنهم لا يبالون ولا يفكرون فى المصير الذى يندفعون إليه دون أن يشعروا»

«فيجب عليكم أن تعلموا أن كل تعليم يحول بين الإنسان وأله الذى خلقه ويقف حجر عثرة أمام الغاية التى ينبغى للإنسان أن يسعى إليها وهى الوصول إلى «الله» كل تعليم يفعل ذلك فمن المؤكد أنه تعليم فاسد. فانظروا فى كل تعليم إلى ثلاثة أشياء محبة «الله» والرحمة بخلق «الله» وكراهية النفس التى تُغضب «الله» كل لحظة بالمعصية فكل تعليم ينطق بذلك ويحقق هذه الثمار لديك فهو تعليم صالح جاء من «الله» وكل تعليم يخالف ذلك هو تعليم فاسد يحمل للإنسان الهلاك»

ثم قال «المسيح» «هذا كل ما أملك أن أقوله لكم فى التوبة»، قالوا «إلى متى تستمر التوبة» ؟

قال «المسيح» «تستمر التوبة ما استمرت الخطيئة ولأن النفس البشرية تخطئ على الدوام فيجب عليها أن تجاهد نفسها وتتوب دائما فهل تُعدُّون أحذيتكم أفضل من نفوسكم؟»

«لأنه كلما أنفتق الحذاء أسرعتم تصلحونه» (٢٦٨) فهل حذاءك أكرم عليك من نفسك يا أيها الإنسان ؟».

(٢١)

(الشريعة)

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم
وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله
يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب،

(الشورى ١٣)

قام المسيح ونادى على الجمع الذى يصحبه فى طريق العودة فأصطفوا أمامه
فخطبهم قائلا (٢٦٩)

« ها أنا أرسلكم الى بنى اسرائيل مثنى مثنى »

« لأنكم الآن شهداء على أنى رسول من الله الى بنى اسرائيل فكما تطلب شريعة الله
شهادة رجلين على الحق فأتا أرسلكم كل رجلين معاً، إذهبوا وبشروا كما سمعتم منى .
قولوا لبنى اسرائيل إن « ملكوت الله » قد اقترب وبشروهم أن من يؤمن ببنى لم يأت بعد
بدعوة نبي قد جاء فأجر نبي يأخذ فطوبى لمن آمن ولم يرى .

« وأعلموا أن من يقبلكم فإنما يقبلنى ومن يقبلنى فإنما يقبل الذى أرسلنى ويكون أهلاً
لأن يحل فيه « روح القدس » فيصير مثلى « إبننا للملكوت » وأن من يعمل صالحاً إستجابة
لدعوتكم ولو أن يسقى طفلاً صغيراً كأس ماء بارد فى يوم شديد الحر فالحق أقول لكم
إنه لا يضيع أجره . وأعلموا أن ليس تلميذ أفضل من معلمه ولا رسول أفضل من الذى
أرسله ولا عبد أفضل من سيده . غاية التلميذ أن يصير كمعلمه والرسول أن يطيع الذى
أرسله والعبد أن يقترب من سيده . لاتظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض بل حرباً
ماجئت لألقى سلاماً بل نارا فما يضيرنى إن أضمرت؛ فإنى جئت لأفرق فيقوم الإنسان
ضد أبيه والإبنة ضد أمها والأخ ضد أخيه والكنة ضد حمايتها بل الرجل ضد امرأته بل

ضد نفسه واعلموا أن عدو الإنسان هو أهل بيته بل نفسه التي في قلبه وأن من أحب شيئاً وإن كان أباه أو أمه أو إبنه أو امرأته أو نفسه أكثر من الله فلا يستحق أن يكون لى تلميذاً . من يحرص على حياته فإنه يضيع نفسه ومن يبذل نفسه للموت فى سبيل الله فإنه يجد حياته .

ماقلته لكم فى الخفاء فأعلنوه للناس وماهمست به إلى أذانكم فنادوا به من فوق الأسطح .

إنى أرسلكم كغنم بين الذئاب فكونوا حكماء كالحية التي لاتدع أحداً يمسك بها ويسطأ كالحمام الذي يبحث عن رزقه وهو القادر على الطير فى السماء بين القمامة وفضلات الناس .

لاتسيئوا الظن بأحد ولا تحسنوا الظن بأحد ولكن أذكروا الناس فإنهم سيسلمونكم إلى المحاكم والجامع ويسوقونكم أمام الرؤساء والولاة فتحبسون وتجلدون وتقتلون شهادة عليهم من الله ولكن لاتخافوهم فإنهم لايقدررون إلا على الجسد أما القلب فإنهم لا يستطيعون أن يصلوا إليه . إنما ينبغى عليكم أن تخافوا من الله وحده لأنه هو وحده الذى يقدر على النفس وعلى الجسد هو وحده القادر على هلاك الجسد بالموت وإهلاك النفس بجهنم . من الله وحده يجب أن يكون خوفنا .

إن عصفورين صغيرين يباعان بفلس واحد لايمكن أن يسقط أحدهما على الأرض إلا بإذن الله فلا تخافوا فإنكم عند الله أفضل من عصافير كثيرة .

لاشئ يحدث دون علم الله وإذنه فحتى شعور رؤوسكم جميعاً محصاة ولا تسقط منها واحدة إلا بإذن الله .

ومتى أمسكوا بكم فلا تهتموا بما تقولون أو كيف تدافعون عن أنفسكم لأنكم تعطون فى تلك الساعة العصبية ماتتكمون به فليستم أنتم المتكلمون بل «روح القدس» أبوكم الذى

يأتى إليكم ليتكلم فيكم لاتتكلوا على أحد من الخلق لأن الأخ سيسلم أخاه والأبن أباه والأب ولده راضياً أن يلقى به إلى الموت وسيقوم الأولاد على آبائهم ليقتلوهם والآباء على إبنائهم وستكونون مبغضين من الجميع من أجلي ولكن الذى يصبر إلى النهاية فهو الذى ينجو .

إن طردوكم من مدينة فأهربوا إلى أخرى لتبشروا فيها .

لقد قالوا عن «روح القدس» أنه رئيس الشياطين إذن فقد سموا رب البيت شيطانا فانظروا كيف سيصفون أبناءه الذين يبشرون به .

لاتحملوا شيئاً للطريق اللهم إلا عصا -

لاتحملوا خبزاً ولا نحاساً ولا تقتنوا ذهباً ولا فضة -

ولاتحملوا ثوبين بل يكفى الواحد منكم نعلان وثوب واحد -

ولاتكلموا أحداً فى الطريق حتى تدخلوا القرية التى تقصدونها فإذا دخلتموها فانظروا البيت الذى يستحق أن تنزلوا فيه فسلموا على أهله فإن كان هناك ابن للسلام نزل سلامكم عليه وإلا فقد عاد السلام عليكم وأعرضوا دعوتكم فإن قبلكم فأبقوا فى هذا البيت ولا تغادروه حتى تخرجوا من القرية كلها .

بشروا كما سمعتم منى وأدعوهم إلى التوبة وأزيلوا من بنى اسرائيل كل الضلالات وأبلغوهم كلمة الله كما كلمتكم بها وكما نطقت بها أمام كبير الكهنة .

أخرجوا الشياطين وأشفوا المرضى فإن الله قد سلطنى على كل مرض وقد منحكم كما منحنى بل يمكنكم أن تحيوا الموتى فبقدر إيمانكم تأخذون، مجاناً أخذتم مجاناً يجب أن تعطوا كلوا مما يقدم لكم أهل البيت الذى قبل أن يضيفكم فإن الفاعل مستحق طعامه .

لاتدخلوا مدن السامريين وإلى طريق الأمم لاتمضوا بل أذهبوا إلى بنى اسرائيل فألى خراف بنى اسرائيل الضالة قد أرسلنى ربى ومن لا يقبلكم ولا يحب أن يستمع لدعوتكم

فاخرجوا من عنده وأنفضوا غبار نعالكم قائلين حتى الغبار الذى التصق بأحذيتنا من قريرتكم نرده عليكم وأعلموا أنه كذلك ينفضكم الله من رحمته ولكن إعلموا أن «ملكوت الله» قد اقترب. الحق أقول لكم إن قوم لوط سيكون لهم يوم القيامة حالاً أفضل مما لأولئك الذين رفضوا «تبشيري» ولم يؤمنوا بى إذ لم يقبلوا رسلى .

ثم أشار «المسيح» إليهم أن تقدموا إلى فتطلعت أعينهم إلى وجهه الذى أخذ يتلألأ وتفويض منه «مهابة» لا يُستطاع وصفها أو التحديق فيها فخشعت أبصارهم وأصواتهم وأطرقوا إلى الأرض وقد أحنوا رؤوسهم وهم يتقدمون إليه فى احترام وقد ملأت مهايته القلوب فراح «المسيح» يمسح رؤوسهم بيده وهو يقول : «بسم الله» ليباركهم. شعروا أن ثمة نور قد قذف فى قلوبهم وأدركوا أن هذا «الرجل» حقاً مرسل من الله ثم طلب المسيح منهم أن يختار كل رجل صاحبه ليذهب الإثنين معاً إلى قرية من قري اليهودية والجليل .

وودعهم «المسيح» طالباً منهم الإنصراف إلى رسالتهم بكل كيانههم وأداء الأمانة التى استودعهم الله وأستبقى بعض تلاميذه معه ليظلوا فى صحبته ليكونوا شهداء على كلمة «الله» التى ينطق بها. انصرف الرسل كل اثنين معاً ليؤدوا شهادة الله ولم يبق مع المسيح إلا الذين اختارهم ثم أمرهم أن يسبقوه إلى الناصرة إذ أراد أن يعتزل منفرداً بنفسه بعض الوقت .

ركب «التلاميذ» المختارون سفينة صغيرة كانت تبحر الى الشمال قاصدة بحر الجليل (بحيرة طيرية) تاركين المسيح لصلاته كما ركب بعض الرسل سفناً أخرى لأنهم اختاروا أن يذهبوا الى القرى الواقعة حول بحر الجليل ليبشروا فيها (٢٧٠) وفى المساء عندما اقترب الظلام اضطرب الجو فعصفت الرياح وعلت الأمواج وأخذت السفينة الصغيرة تتأرجح بصفغات الماء الغاضب توشك أن تغرق واستولى الفرع على الجميع وظلت الرياح تعاكسهم والبحر يفتح فمه يريد أن يبتلعهم وقد عم الظلام إذ استمر هبوط الليل وتكاثفت السحب السوداء فغطت النجوم ولم يكن هناك قمر .

أحاط بهم الموج من كل جانب وأخذ يقتحم عليهم سفينتهم الصغيرة «المفروعة» وظنوا أن أحيط بهم ، ثم فجأة في الهزيع الأخير من الليل عندما كان الفجر يوشك أن ينبلج وهم معذبون في قلب البحر الهائج لا يعرفون إلى أين تتجه سفينتهم. رأى التلاميذ كأن شبحا يسير فوق الماء يقترب من سفينتهم فظنوا أن الشيطان الذي يقال أنه يسكن في أعماق البحر قد خرج إليهم من مخبئه يريد أن يلتهمهم فأخذوا يصرخون ويندبون حظهم العاثر الذي أوقعهم في هذه المصيدة المخيفة بينما كان السائر على الماء ينادى عليهم «لاتخافوا لاتخافوا أنا معلمكم ياتلاميذي أنا المسيح عيسى بن مريم» لكنهم ظلوا في فزعهم وقد أمسك الرعب بألسنتهم فلم يستطيعوا أن ينطقوا بحرف واحد. جفت أفواههم وتعالى ضربات قلوبهم وشخصت عيونهم الى الشبح الذي يسير على الماء مقتربا منهم وقد أضأ وجهه فاستطاعت عيونهم في غمرة الفزع أن تصطاد ملامح «المعلم» الذي ظلوا يستمعون إليه أياما طويلة .

«ياتلاميذ المسيح إطمئنوا إننى هو»

قال «بطرس» : إن كنت هو حقا فمرنى أن أتى إليك على الماء كما تسير أنت الآن» قال «المسيح» : «تعالى يابطرس على الماء لتعرف إننى المسيح حقا» فاندفع «بطرس» من السفينة وقد استولت عليه الرغبة في التحقق وألقى بنفسه إلى الماء يريد أن يسير عليه لكنه بدلاً من يرفع وجهه نحو «المسيح» الذي وقف على سطح الماء هادئاً كأنه يقوم على الأرض نظر الى سطح الماء الهائج وأحس أنه لن يستطيع أن يثبت عليه. أدرك أنه يغوص في فم البحر الذي فُتِحَ ليبتلعه فصرخ «يارب نجنى» فأسرع «المسيح» إليه والتقطه كأنه طفل صغير وهول يحمله إلى السفينة فدخلها في هدوء ووضع بطرس الذي كان يرتعش من الفزع على أرض السفينة وجلس «المسيح» سائدا ظهره إلي جدارها، ونظر إلى السماء وهو يتمتم بكلمات لم يسمعه أحد من ركاب السفينة ثم نظر الى البحر فأنقشعت السحب الداكنة وبدت السماء صافية بنور الصباح الذي قد أتى وهدأ البحر وتعجب من في

السفينة والسفن الاخرى مما يرون فظلوا ينظرون صامتين الى «المسيح» فى دهشة وهو يقول لبطرس الملقى على أرض السفينة .

«يا قليل الإيمان لماذا شككت» .

سكن ارتعاش «بطرس» ونهض جالسا مطرقا وهو يغرق فى الخجل.

نزل المسيح من السفينة واصطحب معه الذين اختارهم للزمته بينما واصلت السفينة رحلتها قاصدة «بيت صيدا» سار «المسيح» على البر وخلفه الجمع الصغير الذى لم يزل مأسورا فى قبضة الحيرة .

قال «المسيح» «ماذا يجب علينا الآن ١٩»

كرر السؤال ثلاث مرات والجمع «المتحير» لا يعرف جوابا فأجاب «المسيح» «يجب علينا الآن أن نصلى شكرا لله على نجاتكم فيها اغتسلوا من البحر وصلوا وأطلبوا فى صلاتكم الإيمان لتكونوا أهلا للهبة العظيمة التى شاعت رحمة الله أن تمنحها لكم .»

ثم أخذ «المسيح» يشق طريقه الى الناصرة يتوقف بين الحين والآخر للصلاة وكما مر على قرية صغيرة فى طريقه دخلها لبعض الوقت فإن عرفه أهلها وقبلوه وعظمهم وشفى بإذن الله مرضاهم لكنه كان متعجلا الذهاب الى الناصرة ليشم عطر الجنة عند قدمي أمه الطاهرة .

وكانت الأنباء قد سبقت «عيسى» إلى الناصرة إذ أذاع الذين ركبوا السفن آية سيره على الماء كما أن محاورته مع كبير الكهنة قد أكسبته احترام الشعب الذى ابتدأ ينظر إليه كنبى ويصدق ماظل «يحيى بن زكريا» يقوله عنه وهكذا عندما عاد «عيسى» الى الناصرة وجد أن أهلها قد قبلوا نبوته كما آمن أهل نينوى «بيونس» (يونان) لما رجع اليهم بعد غيابهم فى البحر ساكنا بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال سويًا . اجتمع عند «المسيح» فى بيت يوسف النجار زوج أمه جمع غفير من الناس من الناصرة وغيرها من القرى فى الجليل بل

إن بعضهم قد أتى من أورشاليم نفسها وقرى اليهودية وكان من بين هؤلاء بعض الفريسيين والكتبة ، كما اندس بين الجميع بعض «عيون» الهيكل ليروا ماذا سيفعل هذا المزعوم ملكا لليهود ويسمعوا ماذا سيقول ليلغوا المتربصين فى الهيكل .

لقد أتى الكثيرون من كل صوب يحملون مرضاهم لعلهم يظفرون بشفائهم وأزدهم البيت بالناس حتى لم يعد فيه موضع لقدم بل إن الساحة الواسعة التى تمتد أمام البيت قد زُرعت أرضها بالناس وتذمر أخوة «عيسى» «إننا حتى لانستطيع أن نتناول طعاما فى بيتنا أو نجد راحة» أصاب الضيق والضجر يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا أبناء يوسف النجار من هذا «الغريب» الذى يقتحم عليهم منزل أبيهم ويملاؤه بالمجانين والمرضى الذين أتى بهم الحمقى من أهلهم لهذا الذى كانوا يسمونه وهو طفل «المخبول»، كانوا يتسألون مندهشين ما الذى فى هذا «المخبول» يجعله قادرا على جذب كل هؤلاء الناس. ليس فيه شئ غير عادى فماذا أصاب الناس ؟

(٢٧١) لكن الناس ظلوا يتوافدون يطلبون رؤية «المعلم» الذى سمعوا عنه وعن آياته ويسألونه شفاء مرضاهم وجاءت جماعة صغيرة من الرجال يحملون رجلا مشلولا على سريره . لم يستطيعوا من شدة الزحام أن يصلوا الى الحجرة التى يجلس فيها «المسيح» لذلك هداهم تفكيرهم إلى أن يصعدوا على السطح وأن يدلوا بمريضهم المشلول على سريره الى «المسيح» بواسطة الحبال عن طريق شق صنعوه فى سقف الحجرة ووجد «المسيح» رجلا عاجزا عن الحركة مطروحا على سريره يتدلى إليه بالحبال من السقف، تعجب الحاضرون فى الغرفة من هذا العمل الغريب ونظر «المسيح» الى المريض المطروح على سريره وإلى الرجال الذين ينظرون إليه من الفتحة التى صنعوها فى سقف حجرته ورأى «إيمانهم» فقال للمريض المستسلم لعجزه «ثق يابنى مغفورة لك خطاياك».

فتذمر الكتبة والفريسيون وتهامسوا «من هذا الذى يجدف على الله ؟ من يملك أن

يغفر الذنوب إلا الله ؟! أيزعم أنه هو الله حتى أنه يدعى مغفرة الخطايا ياله من فاجر جرىء ..»

وأدرك «المسيح» مايقولون فى أنفسهم ومايتهامسون به فوجه إليهم خطابه قائلاً :
«لماذا تسينئون الظن بى وتقولون من هذا الذى يجدف على الله. كلاً والله إننى لم أجدف على ربى. أيها الحمقى أيما أيسر أن يُقال لمريض مغفورة لك خطاياك أم أن يقال لمفلوج عاجز عن الحركة قم وأحمل فراشك واذهب الى بيتك»؟!

«ولكن لكى تعلموا إننى لا أتحدث من تلقاء نفسى بل أنطق بما يقوله لى ربى فإننى أقول لك أيها المريض قم وأحمل فراشك واذهب الى بيتك سليماً معافاً بإذن الله» .
فاندھش الجميع حتى المريض نفسه ولكنه قام وهو لا يكاد يصدق جسمه الذى يتحرك ثم انحنى ليقبل يد المسيح ثم حمل فراشه وأسرع يخرج الى أهله وهو يكاد يطير من الفرح وتعالّت أصوات التسبيح فى الجمع المحتشد أما الكتبة والفريسيون فقد أظرقوا الى الأرض وهم صاغرون ثم أخذوا ينسلون من وسط الناس الذين كانوا لايتمالكون أنفسهم من كثرة مارأوا من آيات الشفاء ويندهشون أن الله أعطى مثل هذا السلطان لإنسان قائلين «قد رأينا اليوم عجباً». ولكن المسيح أدرك أن اخوته المتذمرين من هذا الاضطراب الذى يقضى على راحتهم فى منزلهم قد بدأوا يفقدون صبرهم وأوشكوا ألا يتمالكوا أنفسهم بعدما رأوا «المجانين» الذين أحدثوا الثغرة فى سقف الحجرة خاصة وأن أباهم يوسف النجار قد صار مريضاً وأصبح يلزم الفراش ويحتاج الى الهدوء فصرف «المسيح» الجموع وخرج من المنزل وهو عازم على أن يجد لنفسه بيتاً آخرأً ليطرح لإخوته بيتهم.

(٢٧٢) سار فى الليل مع تلاميذه فرأى «لاوى بن حلفى» العشار الذى يعرف بـ «متى» جالسا عند مكان الجباية. كان «متى» قد أظرق إلى الأرض وقد استغرقه التفكير فى مصيره. إن «العشار» فى المجتمع اليهودى حين ذاك كان هو الشيطان مجسداً فى صورة آدمية وكان العشَّارون يُختَّارون من حثالة المجتمع ولذلك كانت طائفة «العشارين» منبوذة

فى الشعب اليهودى فلم يكن يجلس مع العشائر إلا عشائر خاطئ مثله ولا يعرف العشائر من النساء إلا الزوانى اللاتى يبعن أجسادهن لطالبى المتعة المحرمة .

كان «متى» يسأل نفسه «أيمكن بعد كل هذا العمر الذى قضاه فى الخطيئة أن يصبح رجلا صالحا ؟»

«أيمكن أن يغفر الله له ذنوبه ؟»

«هل مثله يمكن أن يدخل الجنة ؟»

لقد سمع عن «المسيح» وعن آياته لكن الذى استحوز على قلبه هو قول «المسيح» «إن الله يفرح بتوبة الخاطئ وصوت بكائه نادما على ذنوبه أكثر مما يفرح لتسبيح الملائكة» وكان يسأل نفسه أحقا يمكن أن يقبلنى الله وأن يغفر لى. لقد كره نفسه وحياته ونظرة الإحتقار التى تطل عليه من عيون الناس أينما ذهب. كان يرغب من كل قلبه أن يحدث «تغييراً» فى حياته يريد أن يتطهر ولكن لم يكن يعرف كيف ولا بأى شئ يبدأ فقد كانت حياته كلها مفعمة بالخطايا تفيض قذارة وكان احتقار الشعب له ولطائفته يزيد من شعوره بالمرارة وإصراره على الخطيئة متحديا «المنافقين» الذين كان يعتقد أنهم لا يقلون عنه قذارة لكنهم يدعون الطهارة .

كان يدرك كلما استغرقه التفكير أنه لن يستطيع أن يخرج من اليأس الذى يغرقه إلا إذا انتشبلته يد الله وأحس «متى» بيد تربت على كتفه فعاد من شروده ورفع وجهه فرأى وجه «المسيح» يطل عليه فى حنان وقال له «قم فأتبعنى فقد اخترتك اليوم تلميذاً لى» فقام مأخوذاً وسار معه وخرج «المسيح» إلى أطراف الناصرة حيث جلس على مقربة من القبور وكان التعب قد إستولى على التلاميذ فسرعان ما استسلموا لسلطان النوم. أقبل الفجر فأيقظ تلاميذه إلا «متى» الذى كان مستيقظا يراقب «المسيح» وهو يصلى.

وقال «متى» فى نفسه إن قَبِلَ الله توبتى فإن «مسيحه» سيقبل دعوتى وينزل على

ضييفا فى بيتى. وفى الصبح بعد الصلاة فاجأ «المسيح» «متى» بقوله «أتقبلنى يا «متى»
ضييفا عليك وتلاميذى».

وبكى العشائر لأن الله قد قبل توبته. كان يحاول أن يستجمع فى ذهنه الكلمات التى
يجب عليه أن يقولها حتى يُقْنِع «المسيح» بالنزول عليه ضيفا لكن هاهو «المسيح» يعرض
عليه أن يكون ضيفه .

استولى الفرح على قلب «متى» لنزول «المسيح» مع تلاميذه فى البيت الذى لم يدخله
من قبل إلا العشائر الخطاة والزواني وأعلن أنه سيصنع لنبي الله الذى قبل النزول عنده
وليمة كبرى تظل الناصرة تتحدث عنها زمنا طويلا وهكذا أخذ «متى» يستدعى زملاءه
وأصحابه ليساعدوه فى إقامة وليمة عظيمة تليق بضيفه العظيم. وفى المساء كان كل شئ
قد أعد فجاء «المسيح» ومعه تلاميذه وجلسوا أمام بيت «متى» حيث أصر «المعلم» أن يجلس
هناك على الأرض ليتناول الطعام ورضخ «متى» لرغبة «المعلم» وجهزت الوليمة ودعا
«المسيح» كل المتسولين والفقراء والأطفال الذين تصادف مرورهم بالطريق وجلس يأكل مع
تلاميذه من وليمة العشائر الذى استضاف كل أصحابه. أخذ الكتبة والفريسيون يقتربون
وينظرون فى تعجب لهذا الذى يزعم نفسه نبيا مرسلا من الله ماباله يجلس مع الخطاة
الذين لا يصلون ولا يتصدقون بل يرتكبون الفواحش ويأكلون الحرام ١٩.

وقفوا على مقربة ينظرون الى هذا المشهد الغريب. «المعلم» يجلس على الأرض وحوله
جمع من العشارين والمتسولين والأطفال الذين يضعون على أجسادهم القذرة ملابس
ممزقة أشد قذارة من أجسادهم وأيديهم تمتد فى لهفة إلى الأطعمة الشهية التى حُرِّموا
منها طويلا وبعد أن أكل الجميع ورفعت الصحاف جلس «المسيح» ليعلم أصحابه والذين
تجمعوا ليروا هذا النبي الذى يخالط الأشرار .

همس الكتبة إلى تلاميذ «المسيح» يقولون لهم «كيف يسمح معلمكم أن يأكل مع

الخطاين وهو الذى يقول أنه جاء ليعيد بنى اسرائيل الى طريق الله ومابالكم صرتم تجالسون أحط الناس وأكثرهم بعداً عن الإيمان»

وعلا صوت «المسيح» وهو يقول «أيها الكتبة والفريسيون قولوا لى إلى من يذهب الطبيب إلى المريض أم إلى الصحيح ؟»

قالوا «يذهب الطبيب إلى المريض لأن الصحيح لا حاجة به إلى طبيب».

قال «فمن يحب الطبيب أكثر المريض أم الصحيح ؟»

قالوا «المريض لأن الصحيح لا حاجة به إلى طبيب فلماذا يحبه». قال «ألا تعلمون أن الخطي هو المريض بقلبه توشك نفسه على الهلاك لذلك يرسل الله إليه رسله، لينقذوه، إن الله يريد رحمة لا ذبيحة. جئت إلى الدنيا لأدعو الخطاة الى التوبة أما الذين يظنون أنفسهم أبراراً فإن الله لا يعبأ بهم.»

«صعد رجلان إلى الهيكل يقصدان الصلاة، كان أحدهما كاتباً فريسيا وكان الآخر عشائراً فأما الفريسي فقد شخص بعينه إلى السماء وقال : «أشكرك يا إلهى لأننى لست مثل الناس الآخرين الخطافين والظالمين والزناة ولست مثل هذا العشائر القذر الذى يقف رغماً عنى إلى جوارى لأننى أواظب على الصلوات كلها وأصوم يومين فى الأسبوع وأعشر كل ما أقتنيه ولا أفعل مثل بقية الناس الذين لا يتوقفون عن إرتكاب المعاصى فى كل لحظة». أما العشائر فقد وقف خاشعاً منحنياً الى الأرض مطرقاً لا يجسر على رفع رأسه نحو السماء ولا أن يشخص بعينه الى المحراب شاعراً أنه ليس أهلاً للوقوف للصلاة بين يدى الله لأنه أخطأ كثيراً بل لم يتوقف لحظة واحدة عن الخطأ ولم يجد شيئاً يقوله سوى أن ضرب صدره بكفيه وهو يخر ساجداً صارخاً بصوت لم يسمعه أحد إلا الله قائلاً «اللهم أغفر لعبدك الخطي فإنه قد اخطأ كثيراً فارحمه» (٢٧٣)

«الحق أقول لكم إن العشائر قد نزل من الهيكل مغفوراً له لأن الله يحب أن يغفر

لعباده الذين يعترفون أنهم قد اخطأوا وهو قادر على مغفرة جميع الخطايا ولا يبالى بعددها أما الفريسي فقد نزل من الهيكل مغضوباً عليه من الله الذى لا يحب المتكبرين لأن إلهنا العادل الرحيم قد رفض كل أعماله التى يختال بها على خلق الله ماقتاً نفسه».

وامتلاً الفريسيون والكتبة الحاضرون بالغضب وتذمروا كيف يدعى هذا «الفاجر» أن الله يغضب على فريسي كاتب يخدم الشريعة ويغفر لعشار إثمًا وتركوا المكان وهم ساخطون على هذا المعلم الكذاب الذى «لو لم يكن خاطئاً لما جلس وأكل مع العشارين والخطاة».

أما «المسيح» فقد واصل حديثه للجمع الذى بقى معه قائلاً: «أيقظ للفأس أن تختال وتتكبر على الإنسان لأنها قطعت له شجرة مع أن الإنسان هو الذى صنعها بيده وضرب بها بقوة ذراعه وهو الذى أنبت الشجرة وأعد البستان كله؟ (٢٧٤)

وأنتبهت القلوب إلى حديثه الغريب وأصاحت السمع.

«فكيف يفتخر الإنسان لأنه عمل شيئاً حسناً والله هو الذى خلقه من الطين وأودع فيه «روحاً» من «روحه» وصنع فيه كل الخير الذى يأتى به، لماذا يا أيها الإنسان تحترق أخاك الخاطئ؟ ألا تعلم أنه لولا حفظ الله لك من الشيطان لكنت أسوأ منه بل أسوأ من الشيطان نفسه؟

«بأى حق يريد الإنسان أن يحيى على هواه وأى سلطان يخوله أن يعيش فى الدنيا بلا خوف من عذاب الله؟»

«ويلٌ لك أيتها الطينة التى تتغطرس على آلهها الذى خلقها لإنك ستوضعين تحت الأقدام ويركلك الملعونون فى أعماق الجحيم.» «يا أخوتى إن الشيطان وحده من بين كل ما خلق الله هو الذى يقول عن نفسه أنه أشرف من غيره لأنه من نار مقدسة لذلك فإنه

لن يجد رحمة الله أبداً لأنه لا يمكن إصلاحه فكيف يتم إصلاحه وهو يعتقد أنه لا يخطئ أبداً .

«ألم تقرأوا يا أخوتي ما قاله النبي «داود» إن إلهاً يذكر دائماً أننا من تراب وإلى التراب نعود وأن «روحنا» يتركنا ويمضي إليه لذلك يرحمنا.» (٢٧٥)

«طوبى للذين يعرفون هذه الكلمات لأنهم لا يخطئون إلى ربهم فإنهم بعد أن يخطئوا يتوبون فلا تدم خطيئتهم لأن الله يمحوها بالمغفرة فلا تبقى لهم إلا الرحمة.»

«أتعرفون لماذا يحب الله توبة الخاطئين ويفرح لبكائهم أكثر من تسبيح الملائكة؟»

«لأن الخاطئ الذي يتوب هو الذي يظهر أكثر من غيره رحمة الله.»

«ويلٌ للمتكبرين لأنهم سيعانون مذلة رهيبية على جمرات الجحيم؟»

«قولوا لى يا أخوتي هل يوجد سبب واحد يحمل الإنسان على الغطرسة ؟

«كلاً فلينظر الإنسان إلى السماء الواسعة هل هو أكبر من الشمس أو القمر أو الكواكب والنجوم هل يستطيع الإنسان أن يظل حياً لو اقتربت الشمس قليلاً أو اختفت بعض الوقت،

«فليذكر الإنسان عدد الذين ماتوا من شدة حرارة الشمس أو الذين ماتوا من شدة البرد أو الصقيع والصواعق والسيول ،»

«ولينظر الإنسان إلى الأرض هل هو أكبر من الجبال أو أوسع من البحر وليذكركم عدد الذين ابتلعهم البحر عند هياجه أو التهمتهم الأرض عندما تفتح أفواهها بالزلازل أو الذين تهشمت أجسادهم تحت الصخور عندما تتساقط الجبال.»

«أستطيع أحد أن يحصى عدد الذين افترستهم الوحوش أو نهشتهم الأفاعى والحيات بل كم عذد الذين ما توا فى الأويئة والمجاعات أو حتى الذين خنقهم الطعام وهم يأكلون .

«فبأي سلطان يتكبر الإنسان ؟»

«أيقول الإنسان عن نفسه أنه صالح ؟ أ»

«أيمكن أن يوجد صلاح على الأرض ؟»

«كلّا فإنّ «سليمان» النبي يقول «إن كل ما تحت الشمس باطل»

إن الإنسان لا يكاد يطلب إلا الخطيئة فلولا رحمة الله علينا ما صنع أحدٌ منا شيئاً طيباً .»

«فصدقوني يا أخوتي إن الكبرياء ليس إلا إغلاق باب رحمة الله وبذلك فإن الإنسان بدلاً من أن يطلب رحمة الله فإنه يطلق بابها ليفتح باب جهنم. لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرة إن الله يمكن أن يرحم إبليس لو أنه أقر أنه أخطأ. ولكن اللعين لا يعترف بخطئه قلن يجد رحمة. إن الكبرياء هو الذي أسقط الإنسان وكان السبب في طرده من الجنة .»

قال واحد منهم «يا معلم كيف تقول إن الإنسان قد سقط بكبريائه وأنه قد طرد من الجنة بسبب ذلك مع أنك قد قلت من قبل أنه طُرد لأنه أكل من الشجرة عاصياً أمر ربه بغواية الشيطان ؟»

قال «المسيح» «ولماذا أطاع الإنسان «إبليس» وعصى ربه ؟»

«لأن إبليس أوهمه أنه إذا أكل من الشجرة فسوف يصبح خالداً لا يموت ويصير نداً لله وأن الله لم ينه عن الأكل منها إلا ليمنعه من أن يصير مثله فلو لم يُرد الإنسان أن يصير نداً لله ما أطاع الشيطان وما هو الكبرياء ؟! أليس أن يتوهم المخلوق أنه صار مثل الله الذي خلقه أو يظن أنه قادر على الإستغناء عن الله ؟»

«بالكبرياء سقط كل من الشيطان والإنسان ولكن الشيطان تشبث بكبريائه وأصر على خطيئته لذلك لم يرحمه الله أما الإنسان فإنه أقر بخطئه وتضرع لله باكياً أن يغفر له ويرحمه ولذلك تاب الله عليه.»

وفى الليل بعد الصلاة قال التلاميذ «للمسيح» يا معلم كيف نتخلص من الكبرياء» (٢٧٦)

قال «من منكم رأى فقيراً مدعواً إلى بيت سيد عظيم ليأكل على مائدته .»

قال «يحيى بن زبدي» «أنا فقد مر «هيروُدوس» ذات يوم علينا ونحن نفحص السمك الذى اصطدناه فأعجب بسمكة كبيرة فرجوناها أن يأخذها فقبل فحملتها إلى بيته ثم أمرنى أن أتى إليه كلما اصطدت شيئاً ممتازاً وحدث ذات يوم أننى اصطدمت سمكة كبيرة جدا وكانت حقا سمكة نفيسة فأحببتُ أن أحملها إلى «هيروُدوس» لعله يكافئنى عليها بثمن وبالفعل ذهب إلى بيته وأعطيت الخدم السمكة وتصادف . أن كان هناك بعض الضيوف العظماء الذين دعاهم «هيروُدوس» ليتناولوا فى قصره الطعام فلما أخبروه سرُ جداً منى فأعطانى ثمناً كبيراً وأصر أن أبقى معه لأتناول مع ضيوفه الطعام وأصابنى الذهول فكيف سأجلس مع هؤلاء العظماء وكيف أستطيع أن أكل على مائدة رئيس الجليل نفسه وفي حضوره وبالفعل عندما أعدت المائدة لم أستطع أن أجلس مع هؤلاء الرؤساء والعظماء وظللت واقفاً بعيداً لا أجلس على النظر إليهم فتحن على «هيروُدوس» ونادى على وناولنى قطعة صغيرة من «السمكة» ورغيفاً من الخبز فأخذتهما وكأن العالم كله يوضع على يدي وجلست لأكل لا أكاد أصدق نفسى من كرم «هيروُدوس» على . لقد كنت مجرد صياد وبائع سمك فقير أرتدى ملابس رثة أما هؤلاء الضيوف فكانوا يلبسون ثياباً فخماً وأغلبهم كانوا من الرومان ، وربما جاءوا من روما نفسها والله لولا أننى سمعت من النبى «يحيى بن زكريا» أن «هيروُدوس» رجل كافر لأنه لا يحترم شريعة الله بل يجاهر بفجوره ويستهزئ بأحكام الشريعة علناً لولا ذلك لقبلت أن أقضى عمري كله فى خدمة هذا السيد العظيم الذى كان كريماً معى إلى أقصى حد وعلى نحو لم أكن أتصوره .»

قال «المسيح» «فهل طلبت يا يحيى أن تجلس فى المقاعد الأولى بجوار «هيروُدوس»

نفسه أو أخذت تتكلم على المائدة دون إذن من «الرئيس» صاحب البيت أو دون أن تسأل وهل كنت تظن نفسك أكثر إستحقاقا بالجلوس إلى المائدة أكثر من الآخرين وهل طلبت أن يقدم إليك أشهى الأطعمة أو أخذت تقلب بصرك فيما وضع على المائدة أمامك ثم أعلنت عدم رضائك عما قُدم إليك وطلبت غيره .

قال «يحيى» «كيف يا معلم وقد كنت لا أجرؤ على رفع عيني ١٩» .

قال «المسيح» «لاشك يا يحيى أنك كنت مخطئاً أشد الخطأ تلك المذلة المهينة التي تصرفت بها أمام مخلوق مثلك ليس إلا قطعة صغيرة من الطين صارت إنسانا بنفخة «الروح» فيها ولقد خشيتُ أن يطرحنا الله فى الهاوية وأنت تتكلم بهذا التواضع الممقوت لغير الله» فأرتعد الحاضرون من كلام «المسيح» الذى وأصل قائله «ولكن الله أذن بذلك لتصير اليوم معلمنا يا يحيى» .

«فانظروا يا أخوتي إلى تصرف أخيكم على مائدة أمير من الأمراء. إن هذه الدنيا هى بمثابة بيت الله وهذه الأرض التى نعيش عليها هى مائدته التى ملأها برزقه ودعانا لنأكل منها مع الأنبياء والأطهار. نحن ضيوف على مائدة الله وكما تصرف «يحيى» على مائدة «هيرودوس» ينبغى أن يتصرف كل انسان على مائدة الله بل بتواضع أعظم بمقدار الفرق بين عظمة ما يسبغه الله علينا من نعم وتفاهة ما أعطى «هيرودوس» وبقدر الفرق بين عظمة الله القابر على كل شىء وعجز «هيرودوس» الذى لا يستطيع أن ينفع أو يضر أحداً حتى نفسه إلا بإذن الله .»

«هكذا تكونون خالين من الكبرياء .»

«ويل للذين يعيشون فى كبرياء لأنهم سيموتون فى مهانة وسيذهبون إلى الإضطراب».

وأصبحت الناصرة ملتقى وموضع نظر الكثيرين لأسباب شتى ومتناقضة فكان

يقصدها المرضى طلباً للشفاء على يد «المعلم» الذي تناقلت الألسنة والأذان أخبار «معجزاته» وكان يقصدها طلاب المعرفة الذين يرغبون في سماع الحكمة وكذلك المغرمون بجمع الطرائف والعجائب وعلى الجانب الآخر فإن رجال الهيكل كانوا يعانون من الحيرة والإضطراب خاصة بعد أن أخذ تلاميذ «المسيح» يجوبون القرى والمدن يبشرون بدعوته ويصنعون الأعاجيب . هل «الساحر» القدير يدبر لتنصيب نفسه ملكاً على اليهود وهامو يرسل رجاله ليمهدوا له الطريق في كل القرى والمدن من الجليل وحتى أقصى جنوب اليهودية وأفصحوا عن مخاوفهم للسادة الرومان لعلهم يأخذون حذرهم وكذلك أصاب القلق «هيرودوس» وأخذ كل من رجال الهيكل و«هيرودوس» في إرسال «العيون» لاستطلاع أمر هذا الملك المنتظر .

خرج «المسيح» في صباح يوم سبت قاصداً المجمع وكان قد قضى الليل كله في الصلاة بعد أن ظل يستقبل الناس الذين وفدوا إليه من كل مكان وشعر بالجوع إذ لم يكن قد تناول طعاماً طوال الأمس وكان يجتاز بين الحقول التي تلالاّت بسنابل القمح فمد يده وتناول بعض السنابل وأخذ يفركها بين يديه^(٢٧٧) ثم أكلها وكذلك فعل تلاميذه الذين كانوا معه وكانت «العيون» ترصد ما يحدث، أما الفريسيون الذين أهانهم يوم وليمة «متى» العشار فقد ظنوا أنهم أمسكوا به متلبساً بخطيئته إذ كيف يسمح لنفسه وتلاميذه بقطف سنابل القمح «وفركها» وهو ما لا يحل فعله في السبت فأسرعوا إلى المجمع ليحاكموه على خطيئته قالوا له «لماذا تفعلون ما لا يحل فعله في السبت ؟!»

في بساطة أجابهم «أما قرأتم قط أن «داود» عندما جاع هو وجنوده الذين كانوا معه دخل إلى بيت الله وأكل من خبز التقدمة وأعطى جنوده لياكلوا وهو ما لا يحل أكله إلا للكهنة فقط» فلم يعرفوا كيف يجيبوه أما هو فقال لهم «إنما جعل السبت من أجل الإنسان ولم يخلق الله الإنسان من أجل السبت وها هنا أعظم من الهيكل» وأشار إلى صدره -

« لكنكم لاتعلمون فلو كنتم تعلمون لما حكمتكم على الأبرياء ألم تقرأوا أن الكهنة فى الهيكل يدنسون السبت دون أن يفعلوا شيئاً » فأنصرفوا وهم يمتثلون بالغيب لأنهم لم يستطيعوا أن يردوا عليه ولأنه قال عن نفسه أنه أعظم من الهيكل وأتهمهم بالجهل وأتهم الكهنة بتدنيس السبت وعجزوا عن أن يقولوا له شيئاً رغم كل ذلك .

ونقل جواسيس «هيرودوس» إليه أن المدعو «عيسى» الناصرى ابن «يوسف» النجار يذكره فى أحاديثه لاتباعه ويقول أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لأحد فهو لا يضر ولا ينفع وهو رجل عاجز تافه لا يستحق أن يكون رئيساً كما أن المدعو «يحيى» ابن الكاهن زكريا وهو قريب «لعيسى» يقول فى أحاديثه أن «هيرودوس» رجل فاجر لا يحترم شريعة الله ولا يحق له أن يحكم ومن المؤكد أنه يساعد قريبه ليصبح ملكاً لليهود فقد أخذ رجال «عيسى» يجوبون البلاد ينشرون دعوته ويعدون الناس لقبوله ملكاً للبلاد وقد أعطاهم بعض «سحره» ليبهروا به العوام ليقنعوهم بأن «ملكهم الموعود» لانظر له . وأجتمع «هيرودوس» مع حاشيته لبحث معهم هذه الكارثة التى تعصف بكل طموحه إذ كان «هيرودوس» يسعى منذ زمن طويل لإستمالة قلوب أصحاب القرار فى «روما المقدسة» لمنحه لقب «الملك» وإعطائه إرث أبيه «هيرودوس بن انتيباتروس» لأنه أحق أبناء أبيه بالملك فإن شقيقه الأكبر «أرخيلاوس» أثبت أنه مندفع أحق لا يستطيع إدارة الحكم بحكمة وقد تم عزله وتعيين «بيلاطس» حاكماً رومانيا على «أورشاليم» واليهودية أما فيليب (فيلبوس) رئيس بادية الشام (الجولان) فإنه شخص ضعيف لا يستطيع الإمساك بزمام الأمور وإمعانا من «هيرودوس» فى إذلال أخيه «فيلبوس» فإنه اغتصب منه أمراًته «هيروديا» وأقام معها علاقة أئمة صارت حديثاً يتسامر به الناس فى جلساتهم لأن المرأة الفاجرة كانت كثيراً ما تترك زوجها وتأتى الى «هيرودوس» لتقيم معه وقتاً قد يمتد إلى أيام بل أحياناً إلى شهور ومعها ابنتها الفاتنة «سالومي» التى بهرت «هيرودوس» بجمالها الذى لا يقاوم، كانت «هيروديا» امرأة قوية يجرى فى عروقها عشق السلطة تقول لنفسها إن الله كان يجب عليه أن يخلقها

رجلاً لا امرأة وأنه لوفعل لأصبحت «ملكا عظيما» ربما خضعت له الأرض كلها لكنها قد خُلِّقَتْ رغما عنها أنثى وأجبرتها الأقدار أن تتزوج رجلا ضعيفا خائفا لا يصلح للملك . لقد أحببت شقيقه «هيرودوس أنتيبياس» . كانت ترى فيه الرجل الذى يُمكنها من الجلوس على «العرش العظيم» الذى كانت تحلم به . وجدت فيه الوسيلة التى تصل بها الى العرش المأمول وكان يعجبها فيه «عشقه» للسلطة وعدم إكترائه بالأوهام والطقوس والتقاليد التى لامعنى لها ، وإمعانا منها فى إذلال زوجها «الحقير» كما كانت تصفه فإنها تذهب علنا إلى «هيرودوس» فى قصره تتباهى بتعاليلها على «القيود» التى تحاول «أساطير» الآباء وخرافاتهم أن تمنعها من الحصول على كل ما تشتهيه ولم تكن تتورع عن شئ وإذ أدركت أن يد «الزمن» قد عبثت كثيرا بجمالها فإنها وجدت فى جمال ابنتها البديل عن جمالها المفقود وأسهرت تستخدم هذا الجمال كسلاح فتاك فى حربها «المقدسة» للحصول على «العرش» لأنها كانت تعرف أن «هيرودوس» الشره لن يقنع بجمالها الذابل فلا بأس من إغرائه «بسالمى» الفاتنة لابقائه تحت السيطرة وإملاء شروطها عليه . كانت تطمع فى أن تتزوج «هيرودوس» الرجل الوحيد الذى يليق بها ليتعاونوا سويا لتأسيس مملكة عظيمة وأسرّة ملكية «مقدسة» يتوارث أبناؤها العرش جيلا بعد جيل وإلى الأبد . لاشك أنها بسيف جمال «سالمى» تستطيع إقناعه بأن يتزوجها وأن يزوج ابنتها لأبنة البكر ومن ثم يؤول العرش الموعود لها ولأبنتها من بعدها ومن السهل عليها بعد ذلك أن تتخلص من نساته الأخريات ليبقى المجد لها ولأبنتها . لكن يجب أن يتم طلاقها من «الحقير» أولاً ولابد من المزيد من إذلاله حتى يرضخ ويذعن .

أما «هيرودوس» فقد وجد فى عشق «هيروديا» له سكيئا يضعها على رقبة أخيه ليجبره على التنازل له عن نصيبه من «إرث أبيه» : فيستطيع إقناع «روما المقدسة» ومجلس شيوخها الموقر أنه من الأفضل أن يؤول نصيب أخيه إليه وإن تحقق هذا فيمكن التقدم خطوة أخرى بتنحية «بيلاطس» الوالى الرومانى وإعطاء ولاية «أورشليم واليهودية» إليه

وبذلك يتحقق «الحلم العظيم». يصبح «هيرودوس» الابن ملكا مثل أبيه ويؤضع الأساس لمملكة عظيمة تدوم الى الأبد وتظل على الدوام فى ذاكرة الناس لايملون الحديث عن «مجدها».

وجاءت الأنباء التى حملها «الجواسيس» لتقلب هذه الخطة رأسا على عقب فها هو «يحيى» يقول للناس أن «هيرودوس» الفاجر لايصح أن يكون حاكماً ورئيسا للشعب وهاهو «عيسى الناصرى» يقول : عنه أنه عاجز وهاهم رسله يطوفون فى القرى والمدن يمهدون لاستيلائه علي العرش فماذا يفعل ؟!

هذا مااجتمع من أجله «هيرودوس» مع رجاله بعد أن أمعن النظر فى الأمر بمفرده معتزلا بنفسه ليالٍ طويلة ولم يهتد الى شئٍ لأنه لا يستطيع التصرف من تلقاء نفسه دون استشارة «روما المقدسة» وأصحاب القرار فيها. فوجئ «هيرودوس» أن نفوذ «عيسى الناصرى» قد أمتد الى قصره وإلى رجاله فقد علم أن «يونا» امرأة خوزى^(٢٧٨) وكيله قد ذهبت لتُشْفَى على يد هذا «الساحر» بل فوجئ أن بعض رجاله يتكلم عنه بإحترام شديد وتبدو عليهم الكآبة ويظهرون الإمتعاض عندما يتحدث عنه «هيرودوس» بطريقة غير لائقة وجن جنونه «هيرودوس». إذن فقد أصبحت «الكارثة» وشيكة وهى قادمة لامحالة. وجاءه وفد من الهيكل ليتباحثوا معه فى هذه الفتنة الهوجاء التى أصبحت تهدد باقتلاعهم. كان الوفد يضم بعض كبار الكهنة وشيوخ الفريسيين الذين تلقوا «الأنباء» من «عيونهم» وكان «الساحر» لا يترك فرصة إلا وأهان الكهنة والفريسيين مدعيا أنهم سبب ضلال الشعب وفساد أحواله «لو صار هذا «الساحر» الشيطان ملكا فإنكم ستفقدون كل شئ». وبالطبع فإن رجال الهيكل لا يستطيعون التصرف بإرادتهم إذ لابد من الرجوع الى الوالى الرومانى الذى لسوء حظهم لا يشاركهم مخاوفهم ويرى أن الرجل لاخطورة منه ولا يبدو أنه يطلب «الملئك» وبعد بحث طويل مدقق وتقلب الأمر على أوجهه المختلفة اتفق المجتمعون مع

«هيروودوس» فى قصره أن يكلفوا مجموعة من الجواسيس سيكون عليهم أن يضعوا المدعو «عيسى» وقريبه «يحيى بن زكريا» تحت المراقبة لنقل الأخبار باستمرار إلى الهيكل وإلى «هيروودوس» وليتعاون الفريقان فى جمع المعلومات ويتشاورا باستمرار قبل اتخاذ القرارات والخطة العامة هى أن يتم إصطياد «الرجلين» «عيسى» ، «يحيى» ببعض الأقوال التى يمكن أن تكون موجهة ضد سلطة «روما» ويسهل الإدعاء بإنها تدعو الشعب للتمرد على حكامه ، وبهذا يُلْقَى القبض عليهما ثم الحكم بقتلهما ويتم القضاء على الخطر المحقق بمكانتهم وثروتهم .

وبالطبع فإن على الكهنة والفريسيين أن يكتموا غظيهم وأن يتظاهروا بإحترامهم «للمعلم» وقريبه حيث تندس «العيون» بين التلاميذ والأتباع تحت دعوى طلب العلم والبحث عن الحكمة ويتم توجيه الأسئلة «ذات المغزى» فيندفع الرجل المطلوب صيده نحو الفخ الذى نصب له ويتم إصطياده .

وتم تدبير أول محاولة إذ قام أحد شيوخ الفريسيين بدعوة «المعلم» ليتناول الطعام فى قصره مع تلاميذه حيث أعد الفريسي الثرى وليمة عظيمة تليق بمكانة «المعلم العظيم» الذى جاء لينقذ شعب الله!! بالطبع سيكون على المائدة وسط الضيوف عيون «هيروودوس» و«عيون الرومان» الذين سيكون عليهم إخبار سادتهم بالأقوال الخطيرة التى نطق بها «المعلم» والأمر متروك بعد ذلك «لحكمة» روما وحزمها .

ولبى «المسيح» الدعوة ورحب بها ففرح الشيخ الفريسي . ذهب «المسيح» مع بعض تلاميذه فى يوم السبت التالى إلى قصر الذى دعاه .

فى الطريق لاحظ الفقراء العجزة الذين يجلسون على الأرض . وعند باب القصر وجد كومة من المتسولين من الرجال والنساء الشيوخ والعجائز يبحثون عن الطعام فى القمامة الملقاة ومعهم بعض الأطفال العرايا الذين لاتستتر عوراتهم تلك الخرق البالية التى وضعت

على أجسادهم الهزيلة ومجموعة من القطط والكلاب تبحث معهم عن طعامها ولفت «المسيح» أنظار تلاميذه الى مايرى.

ثم دخل القصر الفخم فقام «الشيخ» الفريسي بالإحتفاء به وقدمه الى الضيوف على أنه «معلم» الشريعة الذى جاء «لينقذ الشعب» !! ولاحظ «المسيح» أن فى الضيوف بعض الكهنة والكتبة الذين جاؤا من أورشاليم وبعض الذين يعملون فى قصر «هيرودوس» كما كان هناك بعض الضباط الرومان الذين كانوا ينظرون فى دهشة الى هذا «المعلم» الغريب الذى جاء الى هذه المائدة الفخمة بمثل هذه الملابس الرخيصة وأتباعه الذين لايمكن أن يكونوا إلا من حثالة الناس «أيمكن أن يكون هذا الرجل مطالباً بعرش أورشاليم وهل هؤلاء السوقة يمكن أن يكونوا حاشية ملك ؟»

دعا صاحب القصر «المعلم» الذى جاء «ليخلص» الشعب ! إلى التقدم نحو المائدة الواسعة التى احتشدت عليها أشهى الأطعمة وتلألأت الأكواب والأباريق والكؤوس التى تناثرت فى جميع أرجاءها .

أسرع الضيوف من «الكهنة» والشيوخ بغسل أيديهم بتدقيق شديد ثم هرولوا يتسابقون كل واحد منهم يريد أن يكون فى صدر المائدة بجوار صاحب القصر والقواد الرومان ؟.

جلس «المسيح» بهدوء على المقعد الذى أشار إليه صاحب الدعوة ولم يذهب ليغسل يديه ولم يجد تلاميذه الذين جاؤا معه مقاعداً ليجلسوا عليها فأضطرب الفريسي صاحب الدعوة أن يأمر خدمه بإحضار بعض المقاعد الإضافية فجلس التلاميذ على الناحية الأخرى وهم ينحشرون بين الضيوف كأنهم متطفلون غير مرغوب فيهم ولذلك كانوا يفرقون فى الخجل من أنفسهم وهم يتطلعون بانبهار شديد إلى الفخامة التى ينطق بها كل شيء فى القاعة المائدة والمقاعد والجدران والأوانى.... كل شيء يفصح عن الثراء والنعيم ولم يغسل التلاميذ أيديهم كمعلمهم وبدأوا يأكلون لما رأوا أن المعلم بدأ يتناول الطعام تبادل الكهنة والشيوخ النظرات والهمسات الساخرة المستهزئة. أي معلم هذا الذى لا يحترم الشريعة

ولا يعرف تقاليد الشيوخ. إن اليهودى لا يجب أن يجلس إلى المائدة ليتناول الطعام قبل أن يغسل يديه بأشد تدقيق، وإن كان قد قدم من السوق فعليه أن يغتسل قبل أن يأكل. ولهم في كل موضع أدعية وألفاظ لا بد من ترديدها قبل الأكل وعند شرب الماء وأثناء تناول الخبز وعند القيام بعد الإنتهاء من الطعام. كانت تلك العادات والتقاليد «عبادات مقدسة» لا يخرج عليها إلا الخاطيء الذي لا يحترم الشريعة وها هو الذي يزعم نفسه حكيماً ومعلماً للشريعة لا يبالي بها. لقد تناول الطعام دون أن يغسل يديه.

إن «المسيح» لم يفعل سوى أن همس لنفسه «بسم الله» ثم أخذ يأكل صامتا فى هدوء وفرغ من الأكل بسرعة وهمس لنفسه قائلا «الحمد لله» وجلس يراقب الذين جلسوا يراقبونه .

ولم يعد فى وسعهم السكوت أكثر من هذا فاندفع واحد من الفريسيين وقال على وجهه ترتسم السخرية " «يامعلم مابال تلاميذك يأكلون بأيدي قذرة ولا يغسلونها قبل الأكل مخالفين شريعة الله - ومتجاوزين تقاليد الشيوخ الأجلاء» (٢٧٩)

قال «المسيح» «وأنا أسألكم» لماذا أبطلتم شريعة الله لتتمسكوا بتقاليد شيوخكم الفاسدة !!»

فتوقف الجميع عن الأكل وأمتلأ الجو بالاضطراب إذ بدا كأن معركة مريعة توشك أن تندلع وارتسمت على الوجوه الغاضبة الحيرة كيف يتهمنا هذا «الأفاق» بأننا أبطلنا الشريعة! هل تقاليد الشيوخ الأجلاء فاسدة!؟

واصل «المسيح» كلامه «تقولون لإبناء الفقراء قدموا للهيكल قربانا عن آبائكم وأنذروا لله نذورا وهم لا يقدمون القربان ولا ينذرون النذور إلا من النزر اليسير الذى جعلوه للإنفاق على آبائهم فإذا احتاج الآباء والأمهات لشيء من المال وسألوا أبناءهم أن يعطوهم صرخ الأبناء فيهم «ليس معنا لكم شيء مامعنا إلا الذى نقدمه لله فهذه النقود لله» فيصيب الآباء والأمهات فى شيخوختهم العاجزة ضيق شديد وغم ويتذمرون من الشريعة التى

تفرض هذه القسوة، أيها الكذابون المرأون أيستعمل الله هذه النقود؟! يأخذ الله هذه النذور؟! أم أنه يأكل هذه القرايين؟! إن الله لا يأخذ النقود ولا يأكل اللحوم أو يشرب الدماء .

«أيها الكذابون المرأون إنكم إنما تقولون هذا لأنكم تريدون أن تملأوا كيس نقودكم لقد تركتم أثقل مافى الناموس محبة الله والرحمة بخلقه وأخذتم تعشرون النعناع والسذاب والبقول وتتوهمون أنكم تقيمون شريعة الله. الحق أقول لكم إنكم قد أبطلتم شريعة الله لتحافظوا على تقاليد الشيوخ الباطلة.»

«أيها الكذابون المرأون أنتم الذين قال عنهم الله على لسان «أشعيا» النبي هذا الشعب يكرمنى بشفتيه أما قلبه فمبتعد عنى بعيدا. بالباطل يعبدوننى إذ يتركون شريعتى ويعملون بوصايا الناس.»

«الحق أقول لكم إن كل شر نزل الى الدنيا إنما جاء من التمسك بتقاليد الناس الباطلة إن تقاليد الشيوخ هى التى تحول عبادة الله الى عبادة أصنام.»

«لقد قال «موسى» أكرم أباك وأمك ومن يشتم أبا أو أما فليهلكه الله إهلاكا أما أنتم فتقولون للأبناء يكفى أن يقدم الإبن قربانا للهيكل لكى يفعل كل ما عليه نحو والديه ولا عليه أن يفعل بعد ذلك لهما شيئا مبطلين شريعة الله. الحق أقول لكم إن الأكل بأيدي غير مغسولة أو حتى بأيدي غير نظيفة لا ينجس الإنسان فلا شئ من خارج الإنسان يستطيع أن ينجسه. ما يخرج من الفم لا يمدخل فيه هو الذى يمكنه أن ينجس الإنسان» فاندفع أحد «الكتبة الناموسيين» الذى يعدون أنفسهم فقهاء الشريعة وقال فى إمتعاض «يا هذا إن أكلت لحم خنزير أو شربت خمرا أو دماً أو غير ذلك من المحرمات التى منعها شريعة موسى - أفلا يتنجس ضميرى».

قال «المسيح»: «إنك إن تناولت شيئا مما ذكرت فإن قلبك يتنجس لأنك تناولت طعاما او شرابا محرما. إن العصيان لا يدخل الى الانسان بل يخرج منه فإن قلبك يتنجس قبل أن

يصل الى فمك شئ مما ذكرت لأنك أردت المعصية. إرادة المحظور هي التي تنجس القلب
لا الطعام أو الشراب المحظور .

ثم إندفع «المسيح» قائلاً : «ويل لكم أيها الكتبة لأنكم تستغرقون حياتكم الدنيا في
توضيح أشد الطرق وضوحاً للآخرين ولاتسيرون فيها أنكم تعسرون شريعة الله على
الناس وتضعون على عواتق الآخرين أحمالاً ثقيلة لا يطاق حملها ولكنكم أنتم أنفسكم
لاترغبون حتى في مسها بإحدي أصابعكم.»

«أيها الفريسيون والكتبة إنكم مثل القبور المختفية في الناس من الخارج تبدو بيضاء
لأنها مطلية وفي الداخل عفن وود وقذارة». صعد الحاضرون من الفريسيين والكتبة وقال
واحد منهم «إحذر يا هذا فإنك تشتمنا أيضا.»

فقال «المسيح» «بل لكم الويل أيها الناموسيون لأنكم تبنون قبور الأنبياء الذين قتلهم
آبائكم فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتله الأنبياء آباءكم قتلوهم وأنتم تبنون
قبورهم إنكم إذن تتممون عملهم وتشهدون على أنفسكم بأنكم راضون عن عملهم
ولذلك تكملونه» !! .

«لقد اقتضت حكمة الله أن يرسل إليكم أنبياء ورسلاً لتقتلوا بعضهم
وتطردوا بعضهم.

أولاً تذكرون دم زكريا الذي سَفَكَ في الهيكل قريباً من المذبح. الحق أقول لكم إنكم
ستأخذون جزاء عادلاً على كل هذا " .

«لكم الويل أيها الناموسيون لقد أخذتم مفتاح المعرفة؛ شريعة الله ثم أغلقتكم الباب
فلا دخلتم أنتم ولا تركتم الناس يدخلون بل الذين يريدون الدخول تمنعهم فويل لكم .»

وأصبح الموقف على شفا الانفجار. إمتلاء الكتبة والفريسيين بالغضب المجنون ولم
يعرفوا ماذا يقولون أو يفعلون وفسدت الخطة فإنهم الآن لا يمكنهم إصطياده بشيء فلم

يعد في وسعهم التفكير الهادئ ولا التدبير الحكيم وأراد صاحب الدعوة أن يلطف الجو
لعلهم في الهدوء يستطيعون عمل شيء فقال كاظمًا غيظه ومحاولاً تماك نفسه لإنقاذ ما
يمكن إنقاذه من خطتهم التي أوشكت على الفشل التام .

قال «يا معلم» ما هي أعظم خطيئة ؟ .

فأجاب «المسيح» «أى خراب فى البيت يكون أعظم ؟ .»

فسكت الجميع إذ لم يعرفوا كيف يجيبون على هذا السؤال المفاجئ فقال «المسيح»
وهو يشير بأصبعه إلى الأرض «خراب الأساس لأنه إذا تزعزع الأساس سقط البيت ولم
يعد يصلح لشيء إلا أن يُعاد بنائه من جديد بأساس جديد ولكن فساد أى جزء آخر يمكن
إصلاحه» فنظروا إليه مندهشين من سرعة بديهته وفصاحته ثم فاجأهم بسؤال آخر قال
«فما هو أساس حياتنا ؟».

فواصلوا الصمت. فأجاب «أساس حياتنا هو عبادة الله وحده لأنها هي التى تُبقي
الله معنا ولذلك فإن عبادة الأصنام هي أعظم خطيئة لأنها تجرد الإنسان تماما من الإيمان
فتحجب «الله» عنه أما كل خطيئة أخرى فإنها لا تغلق باب الرحمة بل تترك للإنسان أمل
أن ينال رحمة ربه» «قال أحد الكتبة» : «يا هذا لقد تكلمت كثيراً عن عبادة الأصنام كأننا
شعب يعبد الأصنام مع أننا شعب يعبد الله. إنك تسيء إلينا. لا يوجد لدينا أصنام فى
الهيكل ولا فى أى مكان آخر فعن أى أصنام تتكلم».

قال «المسيح» : «أعلم تماما أنه لا يوجد أصنام من حجر أو خشب فى إسرائيل ولكن
يوجد أصنام من جسد وأنتم لها عابدون» .

فصاحوا فى غضب «إنك لتجرؤ على القول بأننا عباد أصنام» ؟! قال «المسيح» : نعم
أقول الحق. إن شريعة الله لم تقل أطع الرب إلهك أو إخضع للرب إلهك بل قالت «أحب
الرب إلهك» بكل نفسك ومن كل قلبك أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا صاغرين «بلى» .

قال «إذن فما هو الصنم ؟»

فسكتوا .

قال «الصنم هو كل شيء غير الله يحبه الإنسان إلى الحد الذي يترك من أجله كل شيء صنم الزانى هو الزانية وصنم البخيل هو المال الذهب والفضة وصنم السكير هو الخمر وصنم الأكل هو الطعام الشهى فانظروا الآن هل يوجد فى بنى اسرائيل عباد أصنام أم لا ؟»

«لذلك لم يكن عبثا أن قال الله على لسان الأنبياء موسى ويوشع وداود وسائر الأنبياء فى ناموسه الدائم الذى لا يتغير قال مخاطبا كل واحد فى بنى اسرائيل «لا تصنع لك تمثالا لشئ فى السماء أو لشئ تحت السماء ولا تصنع لك صنما لشئ فوق الأرض أو تحت الأرض ولا فوق الماء ولا تحت الماء لأننى أنا الله إلهك واحد وقوى وغيور» .

«تذكروا أن آباءكم قد صنعوا العجل من الذهب الذى سرقوه وعبدوه حتى أن الله أمر بقتل كل من عبد العجل فانظروا إلى شدة غضب الله على عبدة الأصنام وأنظروا هل عبد بنو اسرائيل الأصنام أم لا ؟ لماذا كل هذه الكبرياء .»

وبينما كانوا يستمعون إليه مبهورين وقد عاينوا أنهم لا يستطيعون مجاراته وأنه لا يمكن الرد عليه إندفع أحد المتسولين وألقى بجسده عند قدمى «المسيح» بينما الخدم وعبيد صاحب القصر يهرولون وراءه ليمنعوه من دخول القاعة الفخمة التى أقيمت فيها الوليمة العظيمة. كان الرجل يعرج فى مشيته إذ أصيبت ذراعه اليمنى وساقه بالشلل منذ زمن طويل لكنه أفلح فى أن يفلت من قبضة الخدم. نظر إلى «المسيح» نظرة استرحام وفاضت الدموع من عينيه وهو يرفع بيده اليسرى ذراعه اليمنى التى تيبست .

وكان المتسول قد سمع أن «عيسى الناصري» نبي الجليل قد جاء فاندفع ليسأله الشفاء من الشلل الذي أصابه. قال «المسيح» مخاطبا الكتبة والفريسيين «أيحل الإبراء في السبت أم لا ؟» .

فواصلوا صمتهم الذليل لأنهم يؤمنون إن الإبراء محظور في السبت فقال «المسيح» «إذن ماذا يحل في السبت فعل الخير أم فعل الشر .إنقاذ نفس حية أم إهلاكها ولكي تعلموا أنني مرسل من الله وأننى أنطق بالحق أقول لك يا أيها الانسان»، والتفت إلى المتسول - «مد يدك فقد أزال الله ما بها وأمضى فقد صرت معافا بإذن الله» .

فحرك الرجل يده وقام مسرعا وهويسبح الله «الذى أعطى الإنسان كل هذا السلطان».

«الحق أقول لكم إن تقاليد الشيوخ الباطلة هى التى تفسد شريعة الله وتفسد على الناس حياتهم. إن إحراق مدينة كاملة أفضل من ترك عادة رديئة تستشرى فيها ولقد أعطى الله الملوك والرؤساء السيف ليمحوا الأثام من الأرض ولكنهم يستعملون سيف الله لإبقاء الإثم ومن أجل ذلك يغضب الله عليهم» إنتبهوا لأن حديثه تحول إلى الملوك والرؤساء لكنه فجأة قال للفريسي الثري صاحب القصر الذى دعاه (٢٨٠).

«إذا صنعت طعاماً أو أردت أن تقيم وليمة فلا تدع إليها أصحاب السلطة أو أصدقاءك ولا تدع إليها جيرانك الاغنياء لأن كل هؤلاء يمكنهم أن يكافئوك علي وليمتك ولن يكون لك إذن مكافأة عند الله بل أدع العمى والعرج والمبتورين والفقراء والمساكين. إنهم على مقربة منك ستجدهم علي باب قصرك وهم لن يستطيعوا أبدا مكافئتك ومن ثم فإن مكافئتك تكون عند الله الذى يكافئك علي حسن عملك في قيامة الصالحين» واستشاط صاحب الدعوة غضبا وبدا الحنق عليه لكن «المسيح» واصل اندفاعه حيث لم يعد فى امكان واحد منهم أن يوقفه

قال : « أيها الفريسي الأعمى كان يجب عليك ان تنقى الكأس من الداخل أولاً قبل أن تنظفها من الخارج إليس الذى صنع ما فى الخارج يعلم ما بالداخل أيضاً!! »

«إنكم معشر الفريسيين تحرصون على نظافة الأواني والأباريق والاكواب وطهارة الجسد والملابس ولكن باطنكم مملوء بالعفن والقذارة قلوبكم تنضج بالخبث، كان يجب أن تنظفوا قلوبكم أولاً وستجدون أن كل شئ لكم صار توأً نظيفاً ، لو أنك أعطيت ماعندك صدقة لصرت نقياً».

وصعق الثرى «صاحب الدعوة» وأخذ ينظر حوله فى اضطراب وحيرة الى ضيوفه «المحترمين» وقد جف حلقه وفرت كل الكلمات من لسانه، ثمة ابتسامة ساخرة تلوح على وجه السادة الرومان الذين لم يكن فى وسعهم متابعة كل شئ بتدقيق ولكن كان من الواضح لهم أن ذلك الرجل الوديع الذى يرتدى جلباباً أبيضاً رخيص الثمن ويبدو عليه وعلى أصحابه الفقر كان الواضح أنه قد انقلب الى أسد مخيف بينما تحول صاحب القصر وضيوفه الآخرين إلى فئران مذعورة تفر من وجه الأسد الذى يعلو صوته بين الحين والآخر ولايجسر الآخرون على الرد عليه لإسكاته أو حتى مجرد التحديق فى وجهه بغضب .

وكان من الواضح أن الخطة قد فشلت تماماً «لايمكن إستدراج هذا الساحر الي شئ يمكن اصطياده به ؟»

ثم قال «المسيح» وقد أطبق الصمت على الجميع:(٢٨١)

«كان رجل غنى يعيش مرفها يلبس الثياب الفخمة ويبحث فى كل يوم عن متعة جديدة نهماً يحب الأكل ويكثر من إقامة الولائم العظيمة، على بابه كان يقف رجل فقير اسمه «لعازر» جسده الهزيل يمتلى بالقروح، يرقد على الأرض يبحث عن طعامه فى البقايا التى تخلصت عن ولائم الغنى، لم يكن يطعم فى أكثر من أن يسد جوعه من الفتات الذى ألقى من على الموائد.

لم يتحنن عليه الغنى أبداً رغم أنه كان يراه كلما خرج من قصره أو أتى إليه ولم يرغب فى أن يعطيه شيئاً بل كان يطلب من خدمه أن يبعدوه عن القصر حتى لا يشوه بهيئته القذرة جمال الطريق الذى يقوم عليه القصر ولم يتصدق عليه أحد من الناس بل كانوا يسخرون منه ويستهزئون به. ربما لم ينل خيراً من أحد إلا من الكلاب التى كانت تشاركه البحث عن الطعام فى القمامة فإنها أحيانا كانت تلحس بألسنتها قروحه وحدث أن مات «لعازر» فحملته الملائكة الى الجنة حيث إتكا مع ابراهيم وأبينا ومات الغنى أيضاً فحمل إلى العذاب الشديد حيث أصبح يعانى من كل شئ من حرارة جهنم وبردها ومن العطش الشديد الذى لا يطفئه «الحميم» ومن الجوع الشديد الذى لا يزيله أكل الاشواك والعقارب الحية بل يزداد ألماً بتقطيع أمعائه وهو يجأر بالعذاب من كل جارحة فى جسده يستصرخ رحمة الله ولا مجيب .»

«وحدث أن الغنى المتعذب فى جهنم لمح «إبراهيم» خليل الله متكئاً فى الجنة وفى حضنه «لعازر» فصرخ الغنى قائلاً
«يا أبت ابراهيم إرحمنى».

فقال له «إبراهيم» : «تذكر أنك نلت كل طيباتك فى الدنيا وأنتك إستوفيت أجرك وكانت البلىا من نصيب «لعازر» فمن العدل أن تنال أنت الآن عذابك وأن يتعزى «لعازر» عما أصابه فى الدنيا .»

قال الغنى وهو يتعذب فى الهاوية «يا أبت فأسمع بأن يأتى إلى «لعازر» لحظة واحدة ليبل بطرف أصبعه لسانى الذى يحترق فى هذا اللهب»

قال «ابراهيم» : ألا تعلم أن بيننا وبينكم هوة مستحيلة لا يمكن عبورها فالذين عندنا لا يستطيعون أن يصلوا إليكم حتى لو أرادوا وهم لا يريدون كما أنكم لا تستطيعون أن تصلوا إلينا رغم أنكم تحبون الآن ذلك .»

قال المتعذب «فأسألك يا أبت أن ترسله الى بيتى فإن لى أبناء وأخوة فليكلهم بما نشهد حتى يأخذوا حذرهم فلا يصلوا إلى موضع العذاب هذا» .

قال «إبراهيم» «عندهم الأنبياء فليسمعوا منهم» .

قال «المتعذب» : «كلا يا أبت بل إن قام واحد من الأموات وكلمهم فإنهم يصدقون»

قال «إبراهيم» «كلاً فإن الذى لا يصدق الأنبياء فإنه لا يصدق الموتى عندما يقومون»

«ويل للذين يعيشون لخدمة أجسادهم فإنهم عباد أصنام ولن ينالوا خيراً فى الحياة الآخرة بل عذاباً لا ينتهى»

وعلى من يريد أن يعرف ماهو الجسد فليذهب الى القبور هناك سيقراً فى كتاب القبور ويعرف ماهو الجسد الذى يقضى عمره كله فى خدمته (٢٨٢) ما أشقى أولئك الذى يحملون أجساد الآخرين الى الدفن ليعطوها طعاماً للود ولا يتعلمون الحق بل على النقيض من ذلك يعيشون فى الدنيا كأنهم سيخلدون فيها فهم يشترون أملاكاً كثيرة ويبنون بيوتاً فخمة ويعيشون فى الكبرياء يفرون من الموت كأنهم لن يلاقوه مع أنه لابد آتيهم.

والتفت إلى شيوخ الفريسيين الذين تراحموا وحرصوا على أن يظفروا بالجلوس فى صدر المائدة على المقاعد الأولى بجوار السيد صاحب القصر وقال (٢٨٤) إذا دعاك صديق إلى عرس أو وليمة لتأكل عنده طعاماً فلا تسرع إلى المقعد الأول لعل واحداً أكرم منك عليه يكون قد دعى فعندما يأتى سيقول لك الذى دعاكما قم وأعط المكان لهذا فحينئذ يصيبك الخجل وتقوم لتبحث عن مكان فلا تجد إلا الموقع الأخير وربما لاتجد لك مكاناً لأن جميع المقاعد تكون قد وجدت الجالسين عليها لكنك إذا جلست فى المقعد الأخير فإن صاحب الدعوة متى رآك فإنه يقول لك يا صديق ليس هذا مكانك قم لتجلس فى الأمام وحينئذ تشعر بالسعادة لأن كل من فى الحفل ينظر اليك باحترام. إن من يرفع نفسه يتضع ومن يتواضع لله يرفعه» فأخذ الشيوخ الفريسيون يتذمرون لأنهم يعلمون أنهم هم

المقصودون من كلامه، لم يترك لهم شيئاً قالوه أو فعلوه إلا خطأه ولكنه واصل حديثه قائلاً «تذكروا أن الكبرياء هو الذى مسح ملكاً جميلاً كان يختال على سائر الملائكة فى السموات بجماله إلى شيطان لعين لا يستطيع أحد من الخلق أن يحدق فى بشاعته يوم يأتى على حقيقته فى القيامة وبالكبرياء تحول أكمل مخلوق خلقه الله على صورته إلى كائن يكابد الشقاء والألم والموت فى الأرض التى طرد إليها ليعانى الإبتلاء، فانظروا كم يجلب الكبرياء على صاحبه إن الشيطان لم يخذل إلا بتشبثه بكبريائه» .

قال النبى «إشعيا» موبخاً «إبليس» «كيف سقطت من السماء ياكوكب الصبح يامن كنت بجمال الملائكة تشرق كالفجر حقاً إن كبرياءك قد سقطت على الأرض» زاد تذرهم وأخذوا يقولون «ما هذه التجاديف!!»

فقال لهم «ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تحبون المقاعد الأولى فى المجمع وأن يحييكم الناس فى الأسواق ويعظمونكم قائلين «ياسيدى» فويل لكم» .

وأنصرف «المعلم» مع التلاميذ الذين كانوا يرتجفون من الخوف خشية أن يأمر السيد صاحب القصر خدمه بضربهم أو قتلهم، خرج «المسيح» وتلاميذه أمامه يهرولون وحاول الكهنة والفريسيون أن يتمالكوا أنفسهم بعد أن ذهب «الساحر» فأخذوا يتناولون الأطعمة الشهية التى احتشدت على المائدة ولكن دون فائدة فقد استولى عليهم غم شديد وشعروا أنهم أهينوا أهانة بالغة لكنهم لم يعرفوا كيف يتصرفون وزاد من غيظهم أن السادة الرومان «وعيون» بيلاطس قد أصبحوا مقتنعين تماماً أن «عيسى الناصرى» لا يدعو لتنصيب نفسه ملكاً وأنه ليس إلا رجل دين وحكيم يدعو لإصلاح شعبه أما خلافاته مع رجال الهيكل فإنها لاتعنيهم فى شئ ومن الناحية الأخرى فإن جواسيس «هيروودس» قد استقروا على نفس الرأى وكانوا أكثر الحاضرين سرورا بالمهانة التى عاناها الشيوخ والكهنة والكتبة ولاريب أن «هيروودس» عندما علم بما دار أستخف به الطرب لأنه إذا كان «الناصرى» يدعو للتنديد بتقاليد الشيوخ ويوبخ التزمت الدينى فإنه يجب تشجيعه على هذا فهذه

التقاليد هي أشد أعداء «هيرودوس» لأنها تقف حجر عثرة أمام رغبته العارمة في التمتع بجسد «سالومي» البديع الذى سحره وهى التى تحول بينه وبين الإستيلاء على نصيب أخيه من «المُلْك» دون تأنيب من بقية ضميره الذى يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة .

ازداد الكتبة والشيوخ غيظا لأنهم فشلوا فى إقناع كلا من الرومان ممثلين فى الوالى «بيلاطس» من ناحية و«هيرودوس» حاكم الجليل من الناحية الأخرى بمشاركتهم فى معركتهم ضد المدعو «عيسى» الناصرى.

وأجتمع الكتبة والشيوخ مع كبار الكهنة واتفقوا على أن كلا من «بيلاطس» «هيرودوس» غيبان إذ لايدركان خطورة «عيسى» وقريبه «يحيى» على السلطة فى البلاد وأنهم أى رجال الهيكل لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا لإخماد تلك «الفتنة» العارمة التى تنذر باقتلاع كل شئ فى طريقها إلا بإقناع أصحاب السلطة بخطورة هذين الرجلين إنن فإن إفساد العلاقة بين السلطة من ناحية و«عيسى» و«يحيى» من الناحية الأخرى هو الحل الوحيد فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

وهكذا تفرغ رجال الهيكل للتفكير فى الوسائل التى يمكن بها إشعال الحرب بين السلطة والنبين حتى يمكنهم القضاء على رسالة «عيسى» والتمتع بنعيم القرب من السلطة.

أما التلاميذ الذين فرحوا بقدرة «معلمهم» على إفحام خصومه فقد أخذوا يسألونه عن معنى الكلمات التى نطق بها فى الوليمة وهم يسرون معه والخوف يسيطر على قلوبهم قالوا له «هل تعلم يامعلم أن الفريسيين قد غضبوا جدا عليك ولابد أنهم سيفعلون شيئا » فقال لهم ليزيل خوفهم «لاتخشوا إلا الله فإن كل زرع لم يزرعه بيده فإنه يُقْتَلَع ويزول فلا يبقى، دعوهم فإنهم عميان يقودون عمياناً. إن كان أعمى يقود أعمى فلا بد أن الإثنين سيقعان كلاهما فى حفرة» زایلهم بعض خوفهم فسأله «بطرس» «فسر لنا يامعلم هذا المثل» فقال «المسيح» أى مثل ؟ إنه لم يتفق بأمثال .

قال «بطرس» : «مايخرج ويدخل الفم ؟»

قال «المسيح» «أحتي الآن لم تفهموا بعد ؟!

«ماذا يدخل الفم إنه الطعام والشراب فيسير في مجراه ويستفيد منه الجسد بقدرة الله ، ثم يخرج من المخرج فلا يصل إلى قلب الانسان ، أما الذي يخرج من الفم فإنما يصدر عن القلب فمن فيض القلب ينطق اللسان فالرجل الصالح من كنز قلبه الصالح ينطق بالصالحات والرجل الشرير من كنز قلبه الشرير ينطق بالسيئات. من القلب تخرج النوايا الخبيثة والأفكار الشريرة القتل والخطف والزنا وشهادة الزور والتجديف على الله والكبرياء والجهل ، وهذه هي التي تنجس الإنسان ، أم الأكل دون أن يغسل يديه فلا ينجس الإنسان.»

«الحق أقول لكم إن كل كلمة شريرة يتكلم بها الإنسان سوف يقدم عنها حسابا عسيرا يوم الدين لأنه بلسانك يمكنك أن تنجو وبلسانك يمكنك أن تُدان ليلقى بك في الجحيم» (٢٨٤) قال «يحيى بن زبدي» يامعلم أوجب علينا التطهر والاعتسال كما تفرض شريعة «موسى» (٢٨٥)

قال «المسيح» وقد أفصح صوته عن غضبه وتعجبه من غلاظة أفهامهم «أتظنون أني جئت لأنقض شريعة موسى أو أبطلها. لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرتي إنني لم آت إلا لأحفظها بعد أن أفسدتها أوهام البشر وتقاليدهم الفاسدة. شريعة الله واحدة وقد نطق الله بها لجميع أنبيائه وكل الأنبياء يعلمون على حفظها.»

«إن تغيير كلام الله هو أكبر الآثام وسوف ينال الذي اجتراً على كلام الله وحاول تغيير شريعته أكبر هوان يوم القيامة لأنه يحقق مايروم الشيطان تحقيقه فهل تتصورون أن نبياً مرسلًا من الله يمكن أن يقدم على أكبر خطيئة ؟!

«إن الله قد أمرنا بلسان جميع أنبيائه بالاعتسال فيجب علينا إذن أن نغتسل ولا يمكن

لأحد أن يقدم لله صلاة مقبولة إلا إذا كان طاهرا وإلا فإنه يحمل نفسه وزر خطيئة تقترب من عبادة الاوثان ولكن لنفهم جيدا ما قاله الله بلسان «إشعيا» النبي : «إغتسلوا وكونوا أنقياء وأبعدوا أفكاركم عن عيني» يعنى فى الصلاة. الحق أقول لكم أنه إذا كان قليل من الماء يمكنه أن يطهر الجسد ، فإن ماء البحر كله لا يمكن أن يغسل القلب الذى يحب المعصية ويفرح بارتكابها.»

قالوا «يامعلم» علمنا كيف نصلى ؟

قال : «الحق أقول لكم إن الذين يقيمون الصلاة قليلون وهؤلاء هم الذين يحاربهم الشيطان لأنهم أعدائه ، أما أكثر المصلون فهم جنوده ولذلك يمقتهم الله لأنهم يكرمون الله بشفاهم يطلبون الرحمة فى الهيكل بالسنتهم ولكنهم يستصرخون عذاب الله بقلوبهم التى تحب المعصية وتهول إلى ارتكابها قال الله لإشعيا «قل لهذا الشعب أن يبتعد عنى فإننى لم أعد أحب صحبتهم لأنهم يحترموننى بشفاهم أما قلوبهم فإنها تفر منى» (٢٨٦) .

«الحق أقول لكم إن الذى يذهب ليصلى دون أن يتدبر فيما يفعل ويقول فإنه يستهزئ بالله.»

«إذا أساء إليك أحد الناس ثم أنحنى لك وقال بشفتيه «إغفر لى» ثم قام فضربك على وجهك أو قفاك ثم أسرع يركع ويسجد عند قدميك وهو يصرخ بشفتيه «إغفر لى» ثم قام ليضربك مرة أخرى وأستمر على هذا النحو دائما فماذا تسمى صنيعه ذاك وهل تغفر له أم تغضب عليه. إنه يستهزئ بك ولاشك أنك ستنتقم منه »

«وكذلكم يفعل الله مع الذين يقولون بشفاهم «يارب أرحمنا» وهم يهملون فى قلوبهم بخطايا جديدة»

فبكى التلاميذ وتضرعوا قائلين : «يامعلم علمنا كيف نصلى» (٢٨٧)

قال «ألقى الحاكم الرومانى عليكم القبض وحكم عليكم بالإعدام وجاء جنوده ليسوقوكم إليه لينفذ فيكم حكمه !!»

وشعر التلاميذ بالرعب إذ توهّموا للحظات أن ذلك شئ قد وقع ثم أنتبهوا .

قال : «أمعنوا النظر متأملين فيم يجب عليكم فعله وقوله وأنتم ماثلون بين يديه ترغبون من كل قلوبكم أن تكلموه حتى يعفو عنكم، على هذا النحو ينبغي أن تكون صلاتكم مع إدراك الفرق العظيم بين الحاكم الرومانى الذى لا يملك إلا أن يأمر بإهلاك جسدكم إن أراد الله ذلك لأن كل مخلوق حتى الحاكم نفسه لا يعمل إلا ما أراد الله أما الله فإنه يملك إهلاك النفس فى جهنم ولا أمل إلى الأبد فى الخلاص منها بهذا يمكنكم أن تعرفوا كيف يجب أن تكون صلاتكم .»

«هل يمكن أن يقف الرجل منكم أمام «بيلاطس» أو «هيرودس» ولا يعرف لماذا هو يقف بين يديه ولماذا يريد منه؟ كلا لا أحد يفعل هذا لأن كل الناس عند وقوفهم بين يدي الحاكم يعرفون بالضبط ماذا يريدون منه وكيف يطلبون ما يحبون الحصول عليه ويذلون كل مافى وسعهم لإستمالة قلبه حتى يُصغى إليهم لعله يحقق لهم ما يرغبون أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا : «بلى»

قال « فكيف يجب على الإنسان أن يقف بين يدي ملك السماوات والأرض الجبار الذى يفرض مشيئته على كل المخلوقات القادر على كل شئ.»

«ماذا يطلب الإنسان من الله ؟»

«يجب عليه أن يطلب الرحمة والمغفرة لخطاياہ ويشكر ربه على نعمه الكثيرة التى يستحيل حصرها أو تقديرها، هل يمكن لأحدكم وهو ماثل بين يدي الحاكم أن يوليه ظهره أو يلتفت يمناً ويسرة أو يفكر فى أى شئ آخر غير ما يريد أن يحصل عليه من الحاكم»

«هل يمكن لأحدكم وهو عند «هيروودوس» أن يتحدث عن الأشياء التي يكرهها أو يذكر «بيلاطس» الوالى الرومانى بخير وهو يعلم كم يبغضه «هيروودوس» (٢٨٨) «بالطبع لا.»

«فكيف يقف الواحد منكم بين يدى ربه فى الصلاة ثم يلتفت عنه ويفكر فى أمور معيشته بل تبلغ به الوقاحة أن يفكر فى خطايا جديدة ويظل قلبه مشغولا بما ينوى ارتكابه من ذنوب لم يزل قلبه محبا لها لم يتب عنها. إن الانسان حين يفعل هذا إنما يعطى وجهه للشيطان ويولى ظهره لله الذى يغضب عليه بدلا من أن يرحمه.»

«صلوا دائما دون إنقطاع»

«كان فى مدينة قاضٍ لا يخشى الله ولا يهاب إنسانا وكانت هناك أرملة مظلومة لها قضية عند ذلك القاضى فكانت كثيراً ماتت إلى وتصرخ قائلة : «إنصفنى من خصمى» ولكنه كان قاسى القلب فلم ينظر إليها ولم يرحمها وظل ممتنعا عن الحكم فى قضيتها غير راغب فى إنصافها ولكنها ظلت تلح عليه وصارت تزعجه فى الليل والنهار وأينما ذهب فإنها تطارده قائلة : «إنصفنى من خصمى».

«فقال القاضى فى نفسه : «يجب أن أنصفها من خصمها حتى تتوقف عن إزعاجى فحكم لها وأنصفها. فانظروا إلى ما فعله القاضى الظالم مع المرأة المظلومة التى ظلت تلح عليه.»

«أفلا ينصف الله القاضى العادل عباده المختارين الذين يلحون عليه صارخين إليه بالليل والنهار وهو يتمهل عليهم يحب سماع صوتهم، الحق أقول لكم أنه ينصفهم سريعا» (٢٨٩)

«فلعلى عندما أرجع إلى الأرض أجد إيماناً عليها» (٢٩٠)

«من منكم يأتيه صديقه بعد منتصف الليل ويطلب الباب قائلاً أقرضنى يا صديقى ثلاثة أرغفة فقد نزل على ضيف وليس عندنا ما أقدمه له من منكم يقول حينئذ لصديقه

أذهب الآن فإنني مع أولادي في الفراش والوقت قد تأخر والباب مغلق. إن لم تقم له من أجل أنه صديقك فمن أجل لجاجته تقوم وتعطيه ما يحتاجه لأنك لن تقدر أن ترتاح دون أن تفعل هذا.

«من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً أو يسأله سمكة فيعطيه حية أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً.»

«فإن كنتم وأنتم أشرار تستطيعون أن تعطوا أبناءكم أشياء طيبة أفلا يستطيع الله البر الرحيم أن يعطي «روح القدس» للذين يسألونه» (٢٩١)

«إسألوا تعطوا فكل من يسأل لا بد أن يأخذ.

أطلبوا تجدوا فكل من يطلب لا بد أن يجد

أقرعوا يفتح لكم فكل من يقرع لا بد أن يفتح له» (٢٩٢)

«ولكن العبرة ليست بكثرة الكلام فلا تكونوا مثل الأمم التي لم يتفضل الله عليها بعلم كتابه ، فإنهم يتوهمون أنه بكثرة الكلام وكثرة الصلوات يستجاب لهم ، فلا تتشبهوا بهم ، لأن الهكم الذي خلقكم ويعلم ما في قلوبكم لا بد أنه يعلم ما تحتاجونه قبل أن تسألوه»
«فإذا صليتم فلا تكثر من الكلام ولا تكرر دونه تدبر»

«ومتى صليتم فلا تفعلوا مثل المرآئين الذين يحبون أن يصلوا في المجمع أمام الجميع وفي زوايا الشوارع لكي يراهم المارين إنهم يحبون أن يُظهروا صلاتهم للناس ليقول الناس عنهم أنهم أبرار. الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم أما أنتم فإذا أردتم الصلاة فادخلوا إلى المخدع وأغلقوا عليكم الباب وصلوا لله في الخفاء فإن الذي يراك وحدك في الخفاء يجازيك علانية.»

«إن الله ينظر إلى القلب وكما قال على لسان «سليمان النبي» «يا عبيدي أعطني قلبك»» (٢٩٣)

(٢٢)

قبضة القدر

«إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيب ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس با'ى تموت» . إن الله عليم خبير ،

(لقمان ٣٤) .

أوشكت «الناصره» أن تصبح العاصمة الدينية للشعب اليهودى بفضل السيد «المسيح» الذى كانت رسله تجوب القرى والمدن تنشر دعوته وتصنع الآيات بفضل «البركة» التى نالوها منه وأثار هذا الانتشار القلق فى دوائر السلطة الرومانية وعند «هيرودوس» رئيس الجليل الأومى المتهود الطامع فى إسترداد عرش أبيه ، وفى دوائر الهيكل حيث أشرف رجاله على فقدان مكانتهم فى الشعب وأهميتهم بالنسبة للسلطة الحاكمة .

أصبح من المألوف أن يتوافد الناس على «الناصره» قادمين من كل القرى والمدن فيذهبون الى المجمع ينتظرون «المعلم» فى يوم السبت إذ أعتاد أن يذهب لإلقاء الموعظة ولشفاء المرضى أو يبحثون عنه فى بيت «يوسف بن يعقوب» النجار زوج أمه أو فى بيت «متى» العشار حيث نزل ضيفا بعد ما ترك بيت زوج أمه ثم فى أى بيت آخر حيث كان الناس يستدعونه للمس المرضى والصلاة عليهم فإن لم يجده فى كل تلك المواضع خرجوا يبحثون عنه فى الطرق والأماكن المنعزلة الموحشه أو عند القبور . كان لا يستقر فى مكان شديد الرغبة فى العزلة لا يصحب معه إلا القليل من تلاميذه ليكونوا شهودا على كلمة الله التى ينطق بها وكثيرا ما تسلل فى الخفاء لينفرد بنفسه غير راغب فى صحبة أحد من الناس حتى تلاميذه .

فى صباح يوم سبت خرج «المسيح» فى صحبة قليل من أصحابه اذ كان قد أرسل

أغلبهم ليبشروا فى القرى والمدن وذهب إلى المجمع حيث كان ينتظره جمع غفير من المرضى مع أهلهم جاء أكثرهم من قرى ومدن بعيدة وأثار ذلك غيرة رئيس المجمع «يايروس» الذى كان يدهشه هذا الجم الغفير من الناس الذين أصبحوا يترددون على المجمع الصغير بالناصره بينما كان هذا المجمع نفسه قبل المدعو «عيسى» يشكو من قلة الناس الذين يذهبون إليه لسماع الموعدة والصلاة .

من بين الجموع المحتشدة التفت «المسيح» إلى امرأة تقترب من الشيخوخة وقد أخذت تسير على يديها وركبتها (٢٩٥) انحنى ظهرها على نحو أثار ينبوع الرحمة فى قلب النبى فتقدم إليها ووضع يده ظهرها ودعا الله فى سره ثم همس قائلا «بسم الله» فانتصبت المرأة وهى لا تكاد تصدق جسدها الذى يقف مستقيما بعد سنوات عديدة قضتها تسير على أربع كأنها أرتدت على «سلم الحياة» إلى ما قبل الإنسان فجاء «المسيح» اليوم بمسحة «روح القدس» الذى أيدته الله به فوضع يده على ظهرها فأعادها إنسانا كما كانت قبل أن يمسه الشيطان .

انحنى المرأة على يد «المسيح» تقبلها وفاضت عيونها شكرا لله وتعالى أصوات التسبيح والتحميد من الجموع التى ملأت المجمع وأحاطت به وأستولى الحسد على قلب «يايروس» رئيس المجمع وكان معه بعض «الضيوف» القادمين من «أورشاليم» جاءوا ليوصوه بمراقبة المدعو «عيسى» وإبلاغ الهيكل بكل شئ لأنهم يعدون العدة للإجهان عليه والقضاء على فتنته، لم يتمالك «يايروس» نفسه فاندفع يوبخ «المسيح» قائلا «أيها الطبيب لديك ستة أيام فى الأسبوع لإبراء مرضاك» والتفت إلى الناس قائلا : «لا مانع لدينا من المجئ إلى المجمع للإستشفاء فى جميع الأيام إلا يوم السبت فهذا اليوم هو لخدمة الله فقط، أمامكم ستة أيام فى الأسبوع للعمل والإستشفاء فاحفظوا السبت ولا تدنسوه» .

«أيها الناس هذا الرجل ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت إذ أبرأ فيه مريضا وهو ما لا

يجوز « فأجابه «المسيح» قائلاً : "يا مراثنى ألا يفك الواحد منكم قيود ثوره أو حماره ويذهب به ليسقيه فى يوم السبت، إن سقط لأحدكم خروف فى يوم السبت ألا يسرع إليه ليقمه من عثرته أليس الانسان أفضل من الخروف ؟ "

«وهذه إينة إبراهيم قد ربطها الشيطان ثمانى عشرة سنة أفلا يحل لى أن أحل رباطها فى يوم السبت، ألا يجوز لى أن أبطل عمل الشيطان فى يوم السبت، فما الذى يحل عمله فى السبت ؟ ألا يحل فى السبت تقديم الصلاة من أجل خلاص الآخرين؟» وغرق «يايروس» وضيوفه فى الخجل، مضى «المسيح» عائداً إلى بيت «متى» ولم يرغب فى إلقاء موعظة فى المجمع وهرولت الجموع خلف «المسيح» تاركة «يايروس» وضيوفه فى المجمع الذى خلا عليهم وقد أخذت نار الحقد تأكل قلوبهم .

تقدم إليه بعض تلاميذ النبى «يحيى بن زكريا» وقد لاحظوا خلال مراقبتهم «للمسيح» وتلاميذه أنه لا يصوم، إندهبوا لأنه يلبى الكثير من الدعوات التى تأتية لحضور الولائم وحفلات العرس حيث يشارك الناس طعامهم وتعجبوا لأنهم لم يسمعه يأمر تلاميذه وأتباعه بالصوم بينما «يحيى» معلمهم « يأمرهم كثيرا بالصوم وكذلك شيوخ الفريسيين يأمرون تلاميذهم بكثرة الصيام فقالوا له:

«لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيرا أما تلاميذك فإنهم لا يصومون بل نراهم يأكلون ويشربون طوال الوقت ؟» (٢٩٦) .

لم يراقبوه إلا فترة قصيرة ورغم ذلك حكموا عليه بأنه كثير الأكل عاجز عن الصيام رغم أنه فى الحقيقة كان أكثر الناس صياما ربما مر عليه بضعة أيام دون أن يأكل شيئا وإن أكل فبعض البقول أو قليلاً من الفاكهة ولا شئى أكثر من هذا وقد أوصى تلاميذه كثيرا بالصوم ولكن تلاميذ « يحيى» يتسرعون فى الحكم وقد تكلموا بنفخة الكبر يتفاخرون بأنهم كثيرون الصوم ،حقاً إنهم لم يظفروا بالغاية التى من أجلها شرع الله الصوم لعباده.

قال لهم «المسيح» «هل تستطيعون أن تجعلوا أهل «العريس» ينوحون ويعافون الأكل والعريس معهم. كلا لأنه في العرس ينبغي أن يفرح الناس وأن يأكلوا ولكن ستأتى على تلاميذى أيام حين يرفع «العريس» فحينئذ سيكون عليهم أن ينوحوا وأن يصوموا .

استعمل «المسيح» فى وصف نفسه لفظ «العريس» وهو نفس اللفظ الذى يستعمله «يحيى بن زكريا» فى وصف «المسيح» لكى يشير إلى أنه يتفق مع «يحيى» وأنه لا تناقض أو اختلاف بين تعاليم «يحيى بن زكريا» وتعاليم «المسيح» «عيسى من مريم» فكلاهما نبيان مرسلان من الله الواحد الذى نطق برسالة واحدة على لسان جميع انبياءه لكن تلاميذ «يحيى» لم يقتنعوا بكلام «المسيح» ولم يفهموا ماذا يعنى بهذا المثل الذى ضربه. إنهم لا يفهمون إلا شيئا واحدا هل الصوم أمر مفروض على العبد أم لا ؟ فإن كان أمرا فرضه الله فلماذا لا يصوم تلاميذ «عيسى» كما يصومون هم وكما يصوم الفريسيون يومين فى الأسبوع وإن لم يكن أمرا فرضه الله فلماذا أمرنا به «يحيى» ؟ من هو المخطئ «يحيى» أم «عيسى» ؟

وبدا له على وجوههم ما يدور فى قلوبهم فأراد أن يبين لهم أن لا أحد مخطئ غيرهم فقال: «إن كان لدى أحدكم ثوب قديم قد تخرق فليس من الحكمة فى شئ أن تعمدوا إلى قماش جديد فتقطعوا منه رقعة لتسدوا بها الخرق الذى حدث فى الثوب القديم لأنكم بهذه الحماقة تفسدون القماش الجديد وفى نفس الوقت لا تصلحون الثوب القديم لأن الرقعة الجديدة لا تناسب الثوب القديم وهى قوية شديدة فلا بد أنها ستشد الثوب القديم فتزيد من الخرق ويصير أردأ فإن كان ثوبك القديم يمكن إصلاحه فأصلحه بقطعة منه فإنها مثله وتليق به أما إن كان لا يمكن إصلاحه فاتركه وأصنع لنفسك ثوبا جديدا من قماش جديد يليق بك ، فإنهم لا يضعون الخمر الجديدة فى أوعية قديمة لأن الخمر الجديدة قوية لا تتحملها الأوعية القديمة المتهاكة فإنها تتشقق وتتسرب منها الخمر الجديدة وتضيع. لذلك يجب أن يأتوا بأوعية جديدة ليضعوا فيها الخمر الجديدة حتى يحفظوا كلاهما الأوعية

والخمر فيجب أن تظفروا بقلوب جديدة لكي تحصلوا على التعاليم الجديدة». لكنهم لم يفهموا ما قال وأصروا على أنه لا بد يكون أحدهما «يحيى» أو «عيسى» خاطئاً وما هذه الأمثلة المضروبة إلا تلاعباً بالألفاظ للهروب من الإجابة على السؤال .

أخذ تلاميذ «يحيى» ينصرفون متذمرين من هذا «المعلم» الذي لا يحترم شريعة الله وتقاليد الشيوخ ، بينما كان «المسيح» يخاطب تلاميذه بالجمع المحتشد قائلاً: «إن الذي إعتاد على القديم لا يستطيع أن يقبل الجديد بسرعة لأنه دائماً يقول إن العتيق أطيب .»
«بماذا أشبه هذا الجيل ؟» (٢٩٧)

«إنهم يشبهون رجالاً متبطلين لا عمل لهم يجلسون على الطرقات لا يشعرون بشيء ولا يعرفون شيئاً جاءهم أصحابهم يبكون ويلطمون الخدود لكنهم لم يشاركوهم أحزانهم ولم ينوحوا معهم ثم جاءهم يضحكون ويزمرون لهم يدعونهم للقيام والعمل معهم لكنهم لم يقوموا ولم يطربوا لضحكهم وزمرهم فصرخوا فيهم ماذا نفعل لكم بكينا فلم تبكوا وضحكنا وزمرنا لكم فلم تطربوا وترقصوا فتبا لكم من قوم لا يريدون أن يفهموا . جاءكم «يحيى» زاهدا صواما لا يأكل خبزا فقلتم مجنون به مس من الشيطان وجاءكم «ابن الانسان» يأكل ويشرب معكم فقلتم رجل خاطيء أكول وشريب يصاحب الخطاة والعشارين .»

وأخبره تلاميذه الواقفون بجواره أن أمه وأخته على الباب يطلبونه ولكنهم لشدة الزحام لا يستطيعون الوصول إليه فقال لهم «من أمي» ؟

«ومن أخوتي» ؟

وأشار إلى الجمع المحتشد الذي جاء ليسمع منه كلمة الله ويطلب الهداية «هؤلاء هم أمي وأخوتي . إن من يطيع الله هو أمي وأخي وأختي» (٢٩٨) واندفع إليه مقتحماً الجمع المتزاحم «يايروس» رئيس المجمع وخر عند قدمي «المسيح» باكياً ثم رفع وجهه متضرعاً إلى

السيد «المسيح» بصوت تخنقه العبرات «يا سيد أدركنى فان إبنتى على آخر نَفْسٍ ولقد عجز الأطباء عن علاجها فتحنن على أيها السيد العظيم» (٢٩٩)

كان هذا هو أبلغ إعتذار «للمسيح» من الرجل الذى حاول إهانتته فى الصباح وأتهمه بتدنيس السبب لأنه أبرأ المرأة التى كانت تسير على أربع منحنية الظهر.

وتحنن «المسيح» عليه وقال «أتى معك لأصلى من أجلها» لكن الزحام حوله كان شديداً فتعسر عليه الخروج فقد أسرع إليه الجميع كلٌ يريد أن يسأله الشفاء ومدت امرأة يدها من بين الأجساد المتزاحمة حوله فمست ثوبه وأحس «المسيح» بمن يلمسه فى ظهره فالتفت وقال «من لمسنى» ٩.

وصمت الجميع ولم يجبه أحد فكرر «من لمسنى» ٩ «من لمسنى» ٩.

فقال له التلاميذ الذين معه «يا معلم الجميع يزحمونك ويتدافعون نحوك وأنت تقول من لمسنى» ولكنه لم يلتفت إلى ما قالوا وظل واقفا ينتظر إجابة عن سؤاله فلما رأت المرأة أنها لم تستطع أن تتخفى أقبلت نحوه وهى ترتعد من الخوف والحياء قالت وألفاظها تتعثر على لسانها: «يا نبي الله لقد أيقنت أن الله قد سلطك على كل مرض وأنا مريضة منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة وأحمر وجهها من الخجل - وخفت صوتها وهى تقول «أعانى نزيفا لا ينقطع» ثم واصلت «ولقد أنفقت كل مالى على الأطباء دون فائدة. لم أنتفع منهم بشيء فلما سمعت بك جئت لك لعل أظفر بالشفاء فلما رأيته آمننت أنى سأشفى لكنى لم أستطع أن أصل إليك من الزحام وعلمت أنك الآن ستذهب فأسرعت نحوك وقلت لنفسى لو أن الله مكنتى من أن ألمس ثوبك سأشفى وغلبها البكاء على أمرها ويكى «المسيح» لبكائها وقال لها «إنذهبى يا امرأة فإن إيمانك قد شفاك».

فذهبت المرأة والجميع ينظرون إليها ويتعجبون وجاء الخدم من عند بيت «يايروس» وأخبروه أن البنت قد ماتت فلاداعى لأن تتعب «المعلم» فقد حل القضاء وفات الوقت.

فتهاوى الرجل على الأرض باكيا وتعالى نسييه ثم غاب وعيه فانحنى إليه «المسيح» وربت على كتفه فأفاق وأقامه وهو يقول له «ثق يا رجل فإن الصبية ستقوم، إنها فقط نائمة وسأذهب لأوقظها» «لقد أتعبها المرض وستتعافى منه بإذن الله»، ارتسمت على وجهه الخدم الذى جأعوا من بيت رئيس المجمع ضحكات السخرية من هذا «المعلم» الذى يدعى علم الغيب ويقول أن الله يعلمه وهو لا يستطيع أن يدرك أن البنت قد ماتت بالفعل وأن النسوة هناك يصرخن ويلطمن الخدود عليها لكن «يايروس» صدق ما قال «المسيح» فقام وسار معه وهو يجز ساقيه اللتين لا تكادان تستطيعان حمله والخدم من وراءهما يتبادلان الهمسات المستهزئة والنظرات الساخرة من هذا «المعلم» «الأفاق» الذى سوف يصطدم بعد خطوات قليلة بالموت وجها لوجه فماذا يفعل معه ؟

عندما اقتربوا من بيت رئيس المجمع كان بوسع الجميع أن يسمعوا صياح النسوة وهن ينحن على الصغيرة التى ذهبت مسرعة بلا عودة إلى الأبد. تقدم «المسيح» ومعه بطرس ويعقوب ويحيى ابنا زبدي ولم يسمح لأحد بالدخول إلى الغرفة إلا أم الطفلة وأباها .

إقترب من جثمان الصبية الذى يرقد فى إسترخاء بلا حراك على السرير. كان وجهها البريء ساكنا وقد ثبتت عليه إلى الأبد دهشة غريبة وعيناها المتسعتان قد جمدتا على نظرة شاخصة إلى «الروح» الصاعد إلى صاحبه. إقترب «المسيح» وانحنى إليها وهو يهمس بكلمات لم يسمعها أحد فقبلها بين عينيها فعاد «الروح» لينزل فى الجسد وأرتعشت العينا كأنهما تحتضنان «الروح» العائد وأمسك «المسيح» بيد الصبية وقال بصوت ملأه الفرح «يا صبية أقول لك باسم الله قومى» فانتبهت ونهضت لتجلس فى السرير وعيناها تدوران فى أرجاء الغرفة حتى استقرتا على وجه «المسيح» الذى كان يزداد تألقا وأطلقت الأم صيحة الفرح وهوت عند قدمي «المسيح» تقبلهما وعيناها تفيضان وأسرع «المسيح» يخرج من الغرفة وهو يقول لأبيها «إعطوها لتأكل فإنها الآن جائعة» وهول وراءه تلاميذه وأندفع الناس المنتظرون فى الخارج ليملاؤا الغرفة ويشهدوا آية عودة الروح وقيامه الأموات .

تذكر «المسيح» أن أمه كانت تريده فأسرع إليها فوجدها تبكى عند جثمان «يوسف» زوجها الذى غادر البيت عائداً إلى ربه فى رحلة الأبد فقبل وجه الرجل الذى أحبه أكثر من أبنائه الذين من صلبه وجلس يبكى مع أمه على الرجل التقى الذى رحل .

لكن «عيسى» لم يستطع أن يمكث بجواره أمه لأن كثيراً من رسله عادوا إليه ليخبروه بما صنعوا فاستأذن أمه وخرج ولم يستطع أن يمكث فى بيت «متى» لأن الجموع الكثيرة التى ظلت تتوافد عليه خاصة بعد ذبوع نبأ إحياء بنت رئيس المجمع حالت بينه وبين الجلوس مع رسله ليسمع منهم وينظر كيف تصرفوا فأسر إليهم أن يخرجوا من الناصرة ويسبقوه إلى «بيت صيدا» على بحر الجليل وتزود الرسل العائدون للطريق وخرجوا سرا لينتظروه فى مكان منعزل ثم انسل «المسيح» من الناصرة بعد ما صرف الجموع التى احتشدت حوله وشق طريقه متخفياً ليلتقى برسله .

لقد إنتهى رجال الهيكل إلى أن الطريقة المثلى للخلاص من «عيسى» و «يحيى» هى تأكيد مزاعمهم أن المدعو «عيسى الناصرى» يعمل على إعلان نفسه ملكاً لليهود ويدعو إلى خلاص الشعب من الخضوع للسلطة الرومانية وأن قريبه «يحيى» يساعده وذلك بإثارة القلاقل الاضطرابات خاصة فى «أورشاليم» عن طريق جررسل «عيسى» وأتباعه الذين أظهروا إيمانهم به إلى إبداء رأيهم فى آلهة «الرومان» وسيندفع «المتحمسون» إلى سباب آلهة الرومان وتحقيرها وسيجدون من كلام «عيسى» ما يؤيد هذا السباب ثم ينقلبون إلى الحديث عن خطيئة الرضى بخضوع «شعب الله» لقوم كافرين يعبدون الأصنام وبهذا يتهيا الجو للتحرش بالجنود الرومانيين الذين لن يقصروا فى الدفاع عن مجد آلهتهم وهيبه «القيصر» الذى يحكمون بإسمه، وأندلعت الاضطرابات فى أورشاليم ، وذهب رجال الهيكل إلى «بيلاطس» يقولون له ها هو الرجل الذى ظللنا نحذركم منذ وقت طويل من خطورته هاهم رسله وأتباعه يدعون الشعب للثورة على سلطة روما ولا بد أن تفعل شيئاً لتحفظ النظام وتبرهن على ولائك للجالس على العرش فى «روما المقدسة» وهكذا إندفع بيلاطس

يُظهر قدرته على البطش بكل من تسول له نفسه الخروج على سلطة «روما» وأبدى في ذلك قسوة غير معتادة منه لأن كبير الكهنة وشيوخ الفريسيين أُلحوا إلى إضطرارهم لإبلاغ «روما» بما حدث في «أورشاليم». بهذا التحول حقق رجال الهيكل أول خطوة في طريق نجاحهم في التخلص من «عيسى» إذ أقنعوا «بيلاطس» بمشاركتهم في المعركة ضد «ملك اليهود» المنتظر وبالنسبة «لهيرودوس» رئيس الجليل فقد كان تدبيرهم أن يجروا الناس للحديث عن مبادئ «هيرودوس» وإستهانتهم الفظيعة بشريعة الله وتقاليده الآباء المقدسة وكان الناس في كل مكان في الجليل يتحدثون بالفعل في هذا ولكن المطلوب هو أن تغلو هذه الأصوات التي تتحدث عن خروج رئيس الجليل على شريعة الله وإحتقاره لتقاليد الشعب حتى تصل إلى سمع «هيرودوس» باستمرار عن طريق جواسيسه ولا بأس من تشجيع هؤلاء «الهيرودوسيين» على الإفاضة والمبالغة في تصوير الأمر للحاكم الذي يطمع في إسترداد عرش أبيه وهكذا وجد «يحيى» نفسه مضطراً للإجابة عن سؤال ظل يطارده في كل مكان ينزل فيه «ما حكم الشريعة فيما يفعله «هيرودوس» حيث يعاشر امرأة أخيه معاشرّة الأزواج وهي تقيم علناً في قصره هي وإبنتها التي يقال أنه يطمع في الزواج بها رغم أنه عمها ؟ »

ثم يساق الحديث إلى صلاحية «هيرودوس» لمقام الحكم ثم يبلغ «الرئيس» بكل شيء أولاً بأول حتى شعر كل من «هيرودوس» و«هيروديا» بخطورة الرجل على مستقبلهما بل على حياتهما وذهب «يحيى بن زكريا» إلى الناصرة ليقوم بتعزية «مريم» في وفاة زوجها وكانت الخطة أن يتم إستدراج الرجلين «يحيى» و«عيسى» للكلام عن «هيرودوس» في حضور جواسيسه وجنوده فيتم القبض على الرجلين ويتخلص رجال الهيكل من العدو الذي يهدد مكانتهم وينذر بزوال سلطانهم لكن «عيسى» لم يكن في الناصرة عند قدوم «يحيى» إذ خرج سرا ليقابل رسله فتم القبض على «يحيى» وحده وأودع السجن. لقد فر الناس الذين تجمعوا حول «يحيى» حين جاء جنود «هيرودوس» ليمسكوا به. أسرع كل

واحد منهم إلى بيته وأهله وأغلق عليه بابه تاركاً «النبي» في قبضة أعدائه. ربما بكى عليه بعضهم سراً داخل الغرف المغلقة ولكن أكثر الناس ارتدوا عن إيمانهم به إذ رأوا في هزيمته أمام جنود «هيرودوس» دليلاً يؤكد كذبه «لو كان حقاً نبياً مرسلًا من الله لأنتصر على أعدائه». زال إيمان الشعب بنبوة «يحيى زكريا» في لحظة واحدة عندما داهمه جنود «هيرودوس». وجاءت ليلة الإحتفال بيوم ميلاد «هيرودوس» وكان قد أعد لذلك اليوم «العظيم» حفلاً هائلاً دعا إليه كثيراً من أهل النفوذ وأصحاب القرار في «روما المقدسة» ليريهم أنه حقاً جدير بلقب «الملك» وجاءت المفاجأة المذهلة من الفاتنة «سالومي» إذ وعدت «الملك» أن ترقص في الحفل رقصة تخلب بها ألباب ضيوفه العظماء القادمين من «روما» وأن تهب له نفسها شريطة أن يابى لها كل ما تطلب فوعدها وأقسم لها بشرفه أنه يعطيها لها كل ما تطلب إن أوفت بوعدها .

ورقصت «سالومي» عارية لا يكاد يغطي جسدها البديع إلا غلالة شفافه حمراء اللون تكشف مفاتها وتزيدها سحراً .

وكانت الخمر قد لعبت برأس «هيرودوس» إذ أخذ يعب منها وهو يمنى نفسه بليلة لا تنسى مع معبودته «سالومي» وكان جسدها البديع وهو يهتز ويتثنى على أنغام الموسيقى أقوى من كل خمر فلم يتمالك «هيرودوس» نفسه وهو يلتهم بعينه الشاخصتين «الفاتنة» التي لا تقاوم، قال لها وهي تقترب منه في دلال «بماذا تأمرني يا ألهي» قالت «أريد رأس يحيى بن زكريا على طبق» (٢٠٠)

وصدمه الطلب حتى أوشك أن يفيق لكنها اقتربت منه أكثر وأسكره قريبا وهو يمعن النظر إلى جسدها وهو يتموج فصرخ بأعلى صوته ليميت ما بقي من همس ضميره

«فلتأتوا برأس «يحيى بن زكريا» على طبق» .

واضطرب الحفل، أسرع «سالومي» تدخل غرفتها حيث كانت أمها في أنتظارها

فقبلتها مهنئة وأسرع الجنود إلى السجن حيث وجدوا «يحيى بن زكريا» ساجدا على الأرض يناجى ربه فسهرل لهم سجوُّده ذبحه فهوى أحد الجنود بالسيف على عنقه فسقطت الرأس الشامخة التى لم تسجد إلا لله واندفعت الدماء الزكية فاخططف جندى آخر الرأس المقطوعة وأسرع إلى «هيرو دوس» حيث قدمها له كما أمر على طبق ولكنه لم يطق النظر إليه فاغمض عينيه والتفت بعيدا وقال «اذهبوا به» فذهب الجنود إلى «سالومى» وأمها فتعالت ضحكاتهما ثم أمرت «هيرو ديا» بإعادتها إلى جسده الملقى على الأرض فى أحد غرف السجن المظلمة (٣٠١).

أما ضيوف «هيرو دوس» فقد أفزعتهم تلك الرأس المقطوعة والجنود يدخلون بها إلى القاعة يحملونها علي طبق، كانت قسوة بشعة لا نظير لها فاحتج بعضهم وتذمر آخرون وانتهى الاحتفال البهيج أسوأ نهاية وظل «هيرو دوس» جالسا على كرسيه مذهولا ساهم النظرات شاردا الفكر لا يعرف بالضبط ما الذى حدث ؟ !

كان «المسيح» يجلس مع رسله يسألهم، قال لهم «أخبرونى ماذا صنع الله بكم ؟» قالوا : «يا معلم لقد أبرأنا عددا لا يحصى من المرضى وأخرجنا شياطين كثيرين كانوا يعذبون الناس (٣٠٢)

قال : «يغفر الله لى ولكم يا أخوتى من الخطأ أن نقول أبرأنا وأخرجنا لأن الله هو الذى فعل ذلك كله وليس لنا من فضل إلا أن وهبنا أن نكون شهودا عليه» .

قالوا: «لقد تكلمنا بغباوة فاغفر لنا وعلمنا كيف نتكلم قال : يغفر الله لنا جميعا، فى كل عمل صالح يجب أن تقول صنع الله كذا وفى كل عمل ردىء ينبغى أن تقول صنعت كذا إذ أخطأت فعملت كذا» .

ثم قال : «ماذا يقول الشعب عنى الآن وقد رأوا أن الله يصنع كل هذه الآيات على أيديكم كما صنع على يدي» ؟ قالوا يقولون «إنك نبى مرسل من الله» قال وقد تهلل وجهه

«الحمد لله القدوس الذي لم يحتقر طلب عبده» وقال بعضهم فى فرح «يا معلم لقد رأينا الشياطين تخضع لنا بإسمك» .

فقال لهم: «يمكنكم أن تأخذوا من الله سلطاناً أكبر من هذا حتى أنكم تدوسون الحيات والعقارب وكل جنود الشياطين ولا يضركم شئ» ولكن لا تفرحوا بهذا بل يجب أن تفرحوا إن كُتِبَتْ أَسْمَاؤُكُمْ فى سَفَرِ الحياة» .

إنهم إذن لم يتحدثوا عن التوبة ولم يذكروا التبشير بالملكوت فأين الرسالة التى بُعِثُوا من أجلها إلى بنى إسرائيل ١٩، لكن الناس خرجوا يبحثون عن المسيح فى كل مكان كانوا كغنم لاراع لها حتى عثروا عليه جالسا مع رسله فى مكان خال فاتجهوا إليه يطلبون شفاء مرضاهم جم غفير من المرضى مع ذويهم صاروا يأتون إليه ويمكثون عنده. ومالت الشمس إلى الغروب وكان الطعام قد نفذ فقال له التلاميذ إصرف الجموع إلى القرى والمدن لعلهم يبتاعون طعاما قبل هبوط الليل .

قال : «ولكنهم مكثوا معنا ثلاثة أيام وأخشى أن أصرفهم الآن وهم جائعون - فتخور قواهم ومعهم اطفالهم فيهلكون» .

«أعطوهم أنتم ليأكلوا ؟»

قالوا «ليس معنا طعام»

قال «أليس معكم شئ»

قالوا «ليس إلا سبعة أرغفة وبعض الأسماك الصغيرة» ؟

قال : «فأتوني بما معكم من طعام وأجلسوا الناس فى جماعات» فأحضروا السبعة أرغفة والأسماك الصغيرة فشكر الله ثم بارك الطعام بيده وأخذ يعطى التلاميذ ليتناولوا الناس حتى أكل الجمع كله وبقيت أرغفة تملأ سبعة سلال فأمر تلاميذه أن يجمعوها (٣٠٣) رغم أن «هيرودوس» حاول قدر جهده أن يتكتم نبأ ذبح «يحيى بن زكريا» فأمر جنوده

بدفنه سرا وأوصى رجاله بالانتباه والحزم للقضاء على أى فتنة فى مهدها قبل أن تستفحل وزاد من الحراسة حول قصره وأمر كلا من «هيروديا» وأبنتها «سالومي» أن تختفيا من الجليل كله والأفضل أن تعودا إلى «فيليبس» فى بادية الشام حتى لا يهيج بقاؤهما فى قصره غضب الشعب الذى كان يحترم «يحيى» ويعدّه بمثابة نبي إن لم يكن نبيا مرسلًا من الله رغم كل ذلك فقد أنتشر خبر ذبح «يحيى» فى السجن فى كل القرى والمدن وعرف به «المسيح» ورسله فأصاب الرسل فزع رهيب لهذه النهاية القاسية التى أنتهت بها حياة «يحيى». خافوا أن يصيبهم مثل ما أصابه وشعروا بخطورة صحبتهم «المسيح» وبدأت الرغبة فى التخلص من الإلتناء إليه تجتاح قلوبهم حتى أنهم نسوا أن يحملوا معهم خبزا فذهبوا الى الشاطئ ينتظرونه علي مضض إذ وعدهم أن يلحق بهم بعد أن يصرف الجموع التى أتت إليه زاحقة من كل القرى والمدن .

عادت الحيرة لتعصف بقلوبهم من جديد والخوف من المستقبل المجهول والمصير الغامض الذى ينتظرهم عاد ليملاً قلوبهم بالأضطراب .

الى أين سنذهب مع هذا «المعلم» الغريب الذى لا يكف عن الترحال ؟ ترى ماذا يخبىء لنا القدر فى قبضته ؟. لمّا صعد إلى السفينة معهم قال لهم «انتبهوا وتحرزوا من خمير الفريسيين وخمير الصدوقيين وهيرودوس. (٣٠٤)

لقد نسوا أن يأخذوا خبزا معهم وحزنوا لذلك فقالوا فى أنفسهم «عن أى خمير يتكلم، إنا نسينا أن نحضر خبزا معنا». ولم يفهموا فقال لهم «يا قليلى الإيمان لماذا تحزنون لأنكم نسيتم أن تأخذوا خبزا معكم» .

«ألا تذكرون كم أطعمت خمسة أرغفة وكم قفه أخذتم .»

«ألا تذكرون كم أطعمت سبعة أرغفة وكم سلة ملأتم .»

«أحتى الآن لم تفهموا عن أى خبز أتكلّم ؟ ما أغلظ قلوبكم. لكم أعين ولا تبصرون

ولكم أذان ولا تسمعون. خمير الفريسيين هو الرياء وخمير الصدوقيين وهيرودوس هو حب الدنيا، «وشعروا بالإهانة لتوبيخه وأطبق عليهم الصمت وهم صاغرون. كانوا يعانون من عجزهم عن فهمه والخوف من المصير المجهول يبدد أفكارهم .

لقد أدرك «المسيح» أن رجال الهيكل قد أعلنوا الحرب عليه فهاهم قد سعوا إلى قتل «يحيى» كما قتلوا أباه من قبل ولا بد أنهم يسعون الآن لتدبير التخلص منه، إنهم العقبة الكؤود التي تحول بين الناس وبين «الإيمان» ولا بد من إزالتها. فى هذه اللحظة عزم «المسيح» على أن يجوب قرى ومدن بنى اسرائيل بنفسه وبصحبته من يبقى معه من تلاميذه ورسله.

إن رجال الهيكل لن يهدأوا إلا بعد أن يتمكنوا من إبطال رسالته وإخراص صوته إلى الأبد ولا بد من المواجهة. لقد صارت الحرب بينه وبين رجال الهيكل أمرا لا مفر منه. هؤلاء التلاميذ والرسل لم يستطيعوا رغم طول صحبتهم له وكثرة ما قاله وأفاض فى شرحه لم يستطيعوا أن يفهموه ولا أن يدركوا معنى رسالته. لابد أن يسير بنفسه إلى الشعب فى كل مكان من أطراف الجليل وحتى أقصى جنوب اليهودية وفى أورشاليم نفسها ليقول للشعب من هو ولماذا جاء إلى الدنيا، إن من أكلوا معه وشربوا وساروا معه واستمعوا إلى كلمة الله من فمه لم يعرفوه حتى الآن ولم يؤمنوا به ولم يعرفوا لماذا أرسله الله الى الدنيا لقد بهرتهم «معجزات الشفاء» وإحياء الموتى وأعجبتهم فصاحته وقدرته التى لا نظير لها على فهم كلام الله وعلى إفحام خصومه إذ لم يستطع واحد منهم مجاراته أو الثبات فى مجادلته ولكن ماذا بعد هذا ؟ لا شىء بل ربما جعلوا منه صنما وما أسوأه من مصير .

عليه أن يبدأ رحلة جديدة مرة أخرى، رحلة طويلة تنتهى فى «أورشاليم» ليقبض سلطة رجال الهيكل إلى الأبد ويحرر «المعبد» من السوق الخبيثة التى ابتلعت فى باطنها

المظلم. هذا ما انتهى إليه «المسيح» وهو جالس في السفينة الصغيرة التي تسبح في بحر الجليل منفردا بنفسه مبتعدا عن رسله وتلاميذه الذين تجمعوا على الجانب الآخر وقد أطبقت عليهم الحيرة وأغرقهم الإضطراب ينظرون الى ذلك المعلم الغريب الذي يحدق في الماء وقد بدا لهم أنه يبتعد عنهم بُعدَ تلك السماء التي لا يستطيعون الوصول إليها عن هذه الأرض التي تركوها وما عادوا يقدرّون على الرجوع إليها .

وأشار إليهم أن يتجهوا إلى «كفر ناحوم» .

كان «المسيح» يسير مطرقا صامتا وقد علت الكآبة وجهه ومن معه من التلاميذ والرسل يسيرون على مسافة منه ويتبادلون النظر والهمس يتساءلون عن سر حزنه ويتلاومون كل منهم يدعى أن غيره هو سبب غضب «المعلم» عليهم وتطور اللوم الهامس إلى سباب ومشاجرة ولم يلتفت إليهم «المسيح» بل ظل يواصل سيره إلى «المجمع» في كفر ناحوم .

عندما دخل المجمع وأتباعه من ورائه بوغت الناس به وأفصحت وجوههم ونظرة الفزع في عيونهم عن رغبتهم في إبعاده عن قريرتهم الصغيرة التي كانت مسكنا لعدد من كبار الضباط الرومانيين وكان نبأ ذبح «يحيى بن زكريا» قريب «عيسى الناصري» قد انتشر في كل القرى وتهديدات «هيروُدوس» بقتل كل من يثير الاضطراب تملأ قلوبهم بالخوف .

لقد هموا بالإنصراف مسرعين تاركين المجمع ليهربوا إلى بيوتهم ويغلقوا عليهم أبوابهم .

قال لهم «المسيح» : «أيها المتعبون بالأحمال الثقيلة تعالوا إلىّ لأضع عنكم الأحمال التي تثقلكم. تعالوا إلىّ وستجدون راحة نفوسكم فإنني وديع ومتواضع. تعالوا إلىّ لتتعلموا مني إحملوا نيري بدلا من أوزاركم فإن نيري هين وحملّي خفيف (٣٠٥).

لكن القوم لم يسمعوا له وأسرعوا يخرجون وقد أخذ كل رجل ينادي على أهله

وأطفاله ويأمرهم بالإسراع إلى البيت واندفع رجال منهم يقولون له «ما الذين جاء بك إلى قريتنا، إبتعد عنا أيها الغريب، إننا لا نريدك ولا نريد المتاعب أخرج من قريتنا»، لم يبق إلا الأطفال الذي اندفعوا نحو «المسيح» يريدون تقبيله ومصافحته فأخذ أتباع «المسيح» ينتهرونهم ويأمرونهم أن يبتعدوا عن «المعلم» ولا يزعجوه فانتهر «المسيح» تلاميذه قائلا «دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تمنعوهم عنى (٣٠٦) فلمثل هؤلاء يعطى الله ملكوته» .

«الحق أقول لكم إنكم لن تظفروا بملكوت الله حتى ترجعوا أطفالا فمن لا يقبل على ملكوت الله كطفل يهرول إلى أبيه العائد إليه بعد غياب طويل فلن يظفر به» .

وراح يضع يده على الأطفال الذين كانوا يتجمعون حوله ويلتصقون به ويقبلهم وقال لتلاميذه ورسله الذين كانوا ينظرون فى دهشة «انتبهوا لا تحتقروا واحداً من هؤلاء الصغار الذين آمنوا بى لأنى أقول لكم إن حراسهم من الملائكة فى السموات ينتظرون أمر الله إن أصابهم أحد بمكره» . (٣٠٧)

«الحق أقول لكم إن من أعرثر واحدا من هؤلاء الصغار المؤمنين بى كان من الخير له لو علق فى عنقه حجر الرحى أو أغرق فى لجة البحر من أن يعثر طفلا صغيرا من هؤلاء، من أجلهم يمهل الله الدنيا لكى تتوب» .

«بماذا كنتم تتكلمون فى الطريق ؟» (٣٠٨)

«أكنتم تتشاجرون أياكم أعظم ؟»

وأخذ «المسيح» طفلاً صغيراً كان يقف شاخص العينين مشدوها ينظر الى «المسيح» فقبله وأقامه وسطهم وقال موبخاً لهم :

«لو أننى أرسلت طفلاً كهذا فمن قبله فإنما يقبلنى ومن يقبلنى فإنما يقبل الذى أرسلنى، من وضع نفسه مثل هذا الطفل فهو الأعظم عند الله» .

ثم قال : « لك الحمد يا رب السموات والأرض لأنك أظهرت حقيقتي للأطفال وأخفيتهما عن الذين يزعمون أنفسهم حكماء وفهماء هكذا أقتضت حكمتك (٣٠٩) .

ثم تقدم وخرج من المجمع واتجه إلى الشاطئ يريد ركوب السفينة فأسرع إليه واحد من الأترياء كان يهرول نحوه ليدركه ثم توقف وهو يلهث أمامه . قال بصوت متقطع « يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ »

قال « المسيح » : « إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا » (٣١٠)

قال الرجل الغنى : « أية وصايا . »

قال « المسيح » : « ألا تعرف الوصايا لا تقتل . لا تزني . لا تسرق . لا تشهد الزور . أكرم أباك وأهلك وصايا موسى . »

قال الغنى وقد بدا عليه الإستخفاف بما قاله « المسيح » : « هذه كلها قد حفظتها منذ حداثنى »

فنظر إليه « المسيح » نظرة متفحصة ثم قال له : « إن أردت أن تدخل الحياة وتكون كاملاً فإنه يعوزك شيء ؟ »

قال الرجل : « ما هو ؟ »

قال : « إذهب فبيع كل أملاكك ووزعها على الفقراء والمحتاجين وتعالى لتتبعنى وثق أنه سيكون لك كنز فى السماء خير لك من كل ما بيعته . »

فاغتم الرجل وبدت على وجهه الكآبة وأطرق الى الأرض ثم انسحب راجعاً إلى بيته فقال المسيح لمن معه

« ما أسرع دخول الأغنياء إلى الجنة » .

«إن مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من دخول غنى إلى الملكوت» .

فاغتم كل الذين سمعوا «المسيح» وصاح بعضهم «فمن الذى يستطيع إذن أن ينجو»؟

قال «المسيح»

«لا يوجد شىء غير مستطاع لله فما يظنه الناس عسيرا غير مستطاع يكون يسيرا على قدرة الله القادر على كل شىء» .

«يا أبنائى ما أعسر دخول المتكئين على أموالهم إلى ملكوت الله»

«كان إنسان غنى له حقول وبساتين فاختر واحداً ليكون وكيلاً له فى أملاكه، لكن أحد الأشرار الذين يحسدون الوكيل وشى به عند «السيد» متهماً بأنه يبذر أموال سيده فغضب «السيد» على وكيله وأرسل إليه ينذره بأن يسلم المفاتيح والأوراق للعبد الذى سوف يرسله لأنه قد أنهى وكالته إذ علم أنه غير أمين على أملاك سيده .

ففزع الوكيل وأخذته الحيرة ماذا يفعل الآن ؟

لقد قرر «السيد» أن يأخذ منه الوكالة وليس له ما يعيش به بعد طرده لأنه لم يدخر لنفسه شيئاً .

إنه لا يستطيع أن يتحول إلى لص يقتحم المنازل ، كما أنه لا يستطيع أن يجلس فى القرية يسأل الفلاحين الصدقة وهو الذى كان بمثابة السيد الذى يحكمهم بإسم سيده صاحب الأملاك فماذا يفعل ليعيش بعد طرده من الوكالة؟!

وبعد حيرة شديدة هداه تفكيره العميق إلى الحيلة التى يخرج بها من الورطة التى وقع فيها بسبب وشاية الخبيث .

استدعى المزارعين الواحد بعد الآخر وأعطى كل واحد صك دينه الذى للسيد صاحب الأملاك فقال للؤلؤ كم عليك لسيدى ؟

قال المدين الأول مائة .

قال : خذ صكك وأكتب خمسين .

ففعل المدين وهو يشكر للسيد الوكيل حسن صنيعه إليه .

وقال للثاني ماذا عليك لسيدى ؟

قال : مائة جوال من القمح

قال : فخذ الصك وأكتب ثمانين .

وهكذا فعل مع كل المدينين لسيدهم فشكروا له رحمته بهم وقال فى نفسه والآن إن أرسل إلى السيد ليطر دنى من الوكالة أمكننى أن أنزل ضيفاً على أهل القرية كلهم لأننى أحسنت إلى الجميع يمكننى أن أجد الطعام والمأوى دائماً لدى واحد منهم لأن الجميع سوف يقبلوننى فى بيوتهم لأننى أحسنت إليهم .

ثم جاء «السيد» صاحب الأملاك بنفسه ليستطلع الأمر فوجد أن أهل القرية مسرورين به ويوكيله لأنه رفع عن كاهلهم بعض أثقالهم وظنوا أنه فعل ذلك بأمر سيده.

وفكر «السيد» صاحب الأملاك فى أنه لو طرد وكيله الذى يحبه أهل القرية فربما لا يجد من هو أفضل منه فبالرغم من عيوبه الكثيرة إلا أنه أفضل من غيره فأمر «السيد» صاحب الأملاك وكيله بالبقاء فى وكالته لأن أهل القرية يحبونه ولا شك أن ذلك ييسر العمل فى المزارع ومدحه على حسن صنيعه وحبطت وشاية الحاقد وخرج الوكيل من الورطة التى وقع فيها .

وأنا أقول لكم أصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم الذى معكم حتى إذا جاكم الفناء وأوشكتكم على الهلاك وجدتم من يقبلكم فى المظال الأبدية أم أن أهل الدنيا يظنون أنفسهم أكثر حكمة من أبناء النور فى جيلهم» (٣١١) .

وركبوا السفينة ليبتعدوا عن كفر ناحوم .

بعد تردد شديد قال «بطرس» «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا سيكون لنا؟ وما هو مصيرنا ؟ (٣١٢) .

قال «المسيح» وقد أفصح صوته عن الأسف «كل من ترك شيئاً من هذه الدنيا في سبيل الله مبتغيا وجهه فسوف يأخذ من الله مئة ضعف بل أضعافاً مضاعفة ثم في الآخرة يرث الحياة الأبدية» .

«من ترك أمراًته أو أبنائه أو حقوله أو أملاكه أو أمه أو أباه أو أخوته أو أصدقائه من أجل التبشير فسوف يعوضه الله بأفضل مما ترك من أجل الله في هذه الدنيا وفي الدهر الآتي ولكن الأولين آخرون والآخرين أولون فإن ملكوت الله يشبه رجلاً رب بيت له حقول فخرج في الصباح ليستأجر فعلة للعمل في حقله .

فاتفق مع الفعلة الذين قابلهم في الساعة الأولى على دينار في اليوم ثم أرسلهم إلى الحقول للعمل .

ثم خرج في الساعة الثالثة ورأى قوماً آخرين واقفين في السوق بطالين بلا عمل فأمرهم بالذهاب إلى الحقول على أن يعطيهم ما يحق لهم كما اتفق معهم وخرج في الساعة السادسة ثم التاسعة وفعل أيضاً نفس الشيء فلما أقبلت الساعة الحادية عشرة وأوشك النهار على الإنصرام خرج فوجد قوماً بطالين في السوق فقال لهم .

لماذا وقفتُم النهار كله هكذا بلا عمل .

قالوا له «لأنه لم يستأجرنا أحد» فقال لهم إذن أسرعوا بالذهاب إلى الحقول لتعملوا قبل أن تغيب الشمس وستأخذون ما يحق لكم أجر يوم فقبلوا وأسرعوا فلما غابت الشمس وجاء الليل أرسل صاحب الحقول إلى وكيله وقال له أدع الفعلة ليأخذوا أجرتهم على أن

تبدأ من الآخرين إلى الأولين فدعا الوكيل أصحاب الساعة الحادية عشرة وأعطى كل واحد منهم ديناراً كما اتفق معهم وطفق يدعو الفعلة ويعطى كل واحد ديناراً حتى جاء أصحاب الساعة الأولى الذين عملوا أكثر من غيرهم فظنوا أنهم سيأخذون أجراً أكبر لكنهم أعطوا كل واحد منهم ديناراً فتذمروا واحتجوا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخريين لم يعلموا إلا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين عملنا من أول النهار وأحتملنا المشقة اليوم كله .

فاختار واحداً منهم ليكلّمه وقال له يا صاحب ما ظلمتك ألم اتفق معك على دينار واحد في اليوم وما أنذا قد وفيت فخذ ما أتيتك واذهب لأنني أريد أن أعطى غيرك أيضاً مثلاً أعطيتك ولكن الأجير تذر فغضب رب البيت عليه قائلاً أولاً يحل لى أن أفعل بمالى ما أريد أن تغضب لأننى رحيم إذن فإن عينك شريرة لأننى لم أخطئ .

وكذلك يكون الآخرون أولين والأولون آخريين فإن الكثيرين يدعون ولكن الذين يُختارون قليلون» (٢١٣) وعاد إلى بيت صيدا حيث رفض الناس أن يستقبلوه وطلبوا منه أن يبتعد عن قريتهم ولم يقبله إلا رجل أعمى مع أهله جاؤا إليه طلباً لشفائه فأخذ بيد الأعمى وسار به إلى خارج القرية ثم تفل فى عينه ووضع يديه عليهما ثم رفعهما وقال له هل تبصر شيئاً فأخذ الرجل يتطلع إلى الأشياء بعينيه شاخصتين وقال أرى كأن الناس أشجار تتحرك فأخذه وتفل فى عينه مرة أخرى ووضع يديه عليهما ثم قال له هل ترى شيئاً فقال نعم : أبصر كل شيء جيداً وبوضوح فأرسله ليعود الى بيته (٢١٤)

وترك السفينة واتجه إلى «كورزين» حيث طرده الناس ولم يسمحوا له بدخول قريتهم فعزم «المسيح» على العودة إلى قريته الناصرة وأخذ يوبخ القرى التى رفضته رغم أنه قد صنع فيها بإذن الله آيات كثيرة

«ويل لك يا كورزين» ويل لك يا بيت صيدا فلو صُنِعَتْ في صور وصيدا قديماً الآيات

التي صنعت فيكما لتأبنا ولم يمسهما العذاب ولكن صور وصيدا ستكون لهما يوم القيامة حالة أفضل مما لكما .

«وأنت يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء بكبريائك ستهبطين إلى الهاوية فلو صُنعت في ثمود الآيات التي خُلقت فيك لما هلكت ولبقيت حتى اليوم ولكن الحق أقول لكم أن ثمود ستكون أفضل حالة من كفر ناحوم حين يأتى أوان الحساب أمام الله» (٣١٥).

رجع إلى الناصرة حيث وجد في انتظاره بقية تلاميذه ورسله الذى أتوا من القرى والمدن ليخبروه عما وقع لهم كما كان ينتظره جمع من الكتبة الفريسيين. كان النقاش محتدما بين أتباع «المسيح» والكتبة حول إخراج الشياطين من جسد الإنسان إذ كان رجل قد أتى بأبنة الذى يتلبسه الشيطان وكان قد قدمه إلى تلاميذ «المسيح» ليعالجوه ولكنهم فشلوا وسخر منهم الكتبة القادمون من «أورشليم» وقالوا لهم «إن معلمكم هو الذى يستطيع وحده إخراج الشياطين لأنه يعمل بقوة رئيس الشياطين الذى يؤيده ولذلك تخضع له الشياطين أما أنتم فلا !!».

وأندلع الجدل ولم يصل الطرفان إلى شىء بل كادوا يشتبكوا بالأيدى حينما أقبل «المسيح» فهرول تلاميذه وأتباعه إليه ليرحبوا به ولكنه ظل مكتئبا وأسرع نحوه الرجل والد الشاب الذى فشلوا فى علاجه وجثا على ركبتيه أمام «المسيح» وهو يبكى متضرعا .

قال «أيها المعلم» العظيم أقدم لك ابنى. إن به شيطان أخرس كثيرا ما ألقاه فى الماء حتى أشرف على الغرق عدة مرات أو يلقي به فى النار حتى أوشك على الهلاك أكثر من مرة. إنه يتلبسه فيتشنج جسده ويرتجف ويتخشب ويصر على أسنانه ويقطع لسانه ويخرج من فمه زبد مخيف. قدمته إلى تلاميذك فلم يستطيعوا أن يخرجوا الشيطان منه .

قال «المسيح» «أيها الجيل الملتوى غير المؤمن إلى متى أحتملكم إلى متى أبقي معكم قدموه إلى» (٣١٦) .

فأندفع الرجل وأهله يسوقون الشاب إلى «المسيح» وعلى حين فجأة أمسك به الشيطان فأخذ جسده يتلوى وتهوى على الأرض يتمرغ فى التراب ويجأ بصوت مخيف والزبد يخرج من فمه فقال «المسيح» لأبيه «منذ متى وهو على هذه الحال» ، قال الرجل : «منذ صباه ، كان طفلاً رائعاً لاشئ فيه ثم فجأة بدون سبب وجدناه قد أصيب بما ترى» .

«يا سيد لقد أوشك على الموت أكثر من مرة لولا رحمة الله التى جعلتنا ننقذه فى اللحظة المناسبة فإن كنت تقدر أن تصنع من أجلنا شيئاً فتحن علينا وأعنا» .

قال «المسيح» : «إن كنت تؤمن أن الله قادر على خلاص إبنك من قبضة الشيطان فإن شفاء ابنك مستطاع فكل شئ ميسور للمؤمن بالله القادر على كل شئ» فبكى الرجل وهو يقول : «أبسبب عدم إيمانى كان هذا ؟»

«الآن يا سيد أؤمن أن الله قادر على كل شئ» .

فقال «المسيح» «أيها الشيطان الأبكم الأصم بإسم الله أمرك، أخرج من هذا الإنسان ولا تعد إليه مرة أخرى» فاندلع من الشاب صراخ شديد وأستولت الرجفة على جسده ثم سكن الجسد كأنه ميت حتى أن جموع الناس التى اندفعت وتزاحمت لترى ما يحدث قالوا «لقد مات ..»

لكن «المسيح» إنحنى إلى الشاب وأخذ بيده فأقامه فوقف الشاب هادئاً وأخذ يتكلم بألفاظ مفهومة ويسمع ويرى فى وضوح فاستولت الدهشة على الجميع وشخصت أعينهم وهم يسبحون الله وهوى الرجل على يد «المسيح» يقبلها وهو يبكى ثم أخذ غلامه وهزول عائداً .

قال «المسيح» مخاطباً تلاميذه والجمع المحتشد «هل يستطيع العدو أن يدخل بيت القوى الذى تسليح وأن ينهب أمتعة ؟»

«كلاً إذا تمكّن من أن يوثق صاحب البيت وأن ينزع منه أسلحته فحينئذ فقط يمكنه أن يدخل وأن ينهب الأمتعة التي يريد ..»

«إن الشيطان هو عدو «الإنسان» وهو يريد أن يدخل جسده ليستحوذ على قلبه ولكنه لا يستطيع أن يفعل هذا إلا إذا ربط الإنسان ونزع أسلحته فإذا أُخْرِجَ الشيطان فإنه يتحرك في الأماكن القذرة التي ليس فيها ماء يطلب الراحة ولا يجدها فيقول لنفسه لماذا لا أراجع إلى بيتي الذي طردت منه لعلّي أجد هناك راحة فيرجع فيجد الإنسان مهيناً لقبوله كبيت أعد لإستقبال الضيوف فيأخذ ذلك الشيطان سبعة شياطين آخرين أكثر منه شراً معه ويدخلون عائدين إلى الإنسان الذي تصير آخرته أسوأ من بدايته كهذا الجيل الملتوى غير المؤمن» - وأشار إلى الكتبة القادمين من «أورشليم» - «الذي جاء يطلب آية ولن تعطى له» وبوغت الكتبة بما قال لأنهم بالفعل قد جاءوا من «أورشليم» موفدين من الهيكل ليطلبوا من «المسيح» أن يعطيهم آية واضحة لاشك فيها على أنه هو «المسيح» المنتظر إذ كان رجال الهيكل يريدون حسم الاختلاف الذي لم يزل يطل رأسه فيما بينهم. قلة قليلة من شيوخ الفريسيين وبعض الكتبة يقولون أنه ربما كان المدعو «عيسى الناصري» صادقاً لعله هو مسيح الله المكتوب عنه في الأسفار لأن الآيات التي صنعها أكبر من أن يزورها ساحر مهما كانت قدرته وعلمه بنصوص الكتب لا نظير له وفهمه الدقيق لها لا يجارى وكان «يحيى بن زكريا» قبل موته يؤكد ذلك فلكل هذه الأسباب يجب علينا أن نجلس إليه وأن نستمع منه أما الأكثرية من رجال الهيكل فرأت أن «عيسى» ليس إلا ساحراً قديراً أوتى مقدرة عجيبة على خداع الناس والإستحواذ على قلوبهم وأذهانهم وأن بقاءه في الشعب كارثة على الهيكل حصن شريعة الله وهذا يعنى ضياع شعب الله وفقدان الأمل في إسترداد مجده فيجب التخلص من المدعو «عيسى الناصري» لإنقاذ الناس من الضلال الذي ينشره والذي يهدد بفناء الشعب الذي اختاره الله. وحتى يحسم رجال الهيكل خلافهم ويبريء الذين يريدون هلاك «المسيح» ضميرهم المثقل من «دمه» الذي أوشكوا أن

يصدروا. فتوى بحله اتفقوا على أن يرسلوا إليه وفداً يطلب منه أن يظهر لهم آية لا غموض فيها على أنه هو حقا «المسيح» المنتظر ففاجأهم «المسيح» بعلمه بالغرض الذي جاؤا من أجله لكنهم استشاطوا غضبا لأنه أهانهم أمام الشعب وذكر أن آخرتهم ستكون أكثر سوءاً من أولها هم فتذمروا وأنصرفوا والغيط يملأ قلوبهم وكانت هناك امرأة تراقب ما يحدث فاندفعت تقول بحماسة «الإيمان» «طوبى للبطن التي حملتك والثدين اللذين أرضعاك» فترقرقت عينا «المسيح» بالعبرات وهو يتذكر أمه التي صارت الآن أرملة إنه لم يرها منذ وقت بدا له في هذه اللحظة دهرا كاملا فقال بصوت يحاول مقاومة البكاء «بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه.»

ولما انفرد تلاميذه به سألوه «لماذا لم نستطع نحن أن نخرجه ؟»

قال: «لعدم إيمانكم، إن الشيطان قد اتخذ من ذلك الإنسان بيتا فلن تستطيعوا إخراجه منه إلا إذا كنتم أقوى منه إلى حد أنكم تربطونه وتنزعون سلاحه ولا يكون ذلك لكم إلا بالصلاة والصوم إن هذا الجنس من المخلوقات لا يخرج إلا بالصلاة والصوم» قالوا «يا معلم زدنا إيماناً.»

فأجابهم معترضا: «بل لو كان لكم قطرة واحدة بل مثقال ذرة من الإيمان الحقيقي لصار كل شيء لديكم ممكنا كنتم تقولون للجبل قم من مكانك ولا يملك إلا أن يطيعكم فبالإيمان ترجع الأشياء جميعا للخضوع للإنسان ولا يصبح ثمة شيء غير ممكن». فبهتوا من كلامه وأطبق عليهم الصمت .

(٢٣)

« الطريق الضيق »

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين »

(يوسف ١٠٣)

كان مقتل « يحيى بن زكريا » قريب « المسيح » وأكبر مؤيديه نقطة التحول فى الدعوة المسيحية اذ أدرك « المسيح » بحق أنه بمثابة تأكيد ديموى من رجال الهيكل أنهم مصرون على موقفهم وأنهم لا يتورعون عن شىء فى سبيل المحافظة على مصالحهم الدنيوية إلى حد قتل الأنبياء لا أمل فى إصلاحهم إن « ذبح » « يحيى » هو إنذار له وتهديد . إنهم قد يحاولون الضغط عليه لإجراء « مصالحة » معهم تنتهى بتضييع رسالته مقابل المحافظة على حياته . حياة الجسد وهى كل ما يعنى رجال الهيكل . لا ريب أنهم هم العدو . إنهم أخطر أعدائه وأشداهم خبثاً وأقواهم تسليحاً على الرغم من ضعفهم الظاهر إذ يبدون وكائهم لا حول لهم ولا قوة . إن الرومان على الرغم من قوتهم الظاهرة ليسوا هم أقوى أعدائه بل لعلهم يكونون أضعفهم لأنهم عدو ظاهر لا يخفى عداوته بل يجاهر بها إنهم لا يطلبون أكثر من إخضاع الشعوب لسلطانهم طمعاً فى المال وتحقيقاً لسيادتهم الموهومة على الأرض . ربما حاربوا معتقدات الشعب وتقاليدهم وحاولوا فرض معتقداتهم ونمط حياتهم كما فعل أسلافهم اليونانيين من البطالة والسلوقيين من قبل إن بدالهم أن ذلك ييسر لهم إخضاع الشعب ويستأصل روح التمرد من قلبه ولكنها فى الحقيقة حرب مفيدة ومضمونة النتيجة إذ تدفع الشعب المغلوب على أمره إلى البحث عن مصدر قوته ونبع حياته . فى نار المواجهة مع أعدائه يكتشف الإنسان حقيقته ويعرف سر قوته ويمكن ضعفه .

لو أعلن الرومان الحرب على « التوراة » وحاولوا إبطال شريعة الله لكانت تلك الحرب

هى أفضل خدمة يقدمها الرومان للتوراة وأكبر قوة يعطونها لشريعة الله لأن تلك الحرب ستجبر الشعب الذى يدعى التمسك بكلام الله ويزعم القيام بشريعته ستجبره على إمعان النظر فى حقيقة موقفه وستضطره إلى إكتشاف زيفه ومن ثم فقد يندفع إلى تصحيح موقفه ويرغب فى التطهر طلبا للنصر على أعدائه. تحت وطأة المذلة والهوان قد يهرول الشعب المقهور إلى نبع حياته ومصدر قوته. إلى الله الذى وهب الحياة بكلماته. فى نار المواجهة قد يتمكن الشعب من تمييز الطيب عن الخبيث وفى هذا نجاته. ليس الرومان هم العدو بل لعلمهم يكونون أشد الاصدقاء لو أنهم أعلنوا حربا على الشعب راغبين فى محو عقيدته وإبطال شريعته لأنهم بتلك الحرب يعينون «الإنسان» على اكتشاف حقيقة نفسه .

أما رجال الهيكل فهم العدو الحقيقى لأنهم صاروا أعداء الحقيقة .

هم الذين يقفون عقبة أمام الشعب يحولون بينه وبين الإتصال بنبع حياته بل أنهم يسممون هذا النبع بتشويه رسالة «الله» وتقديم تعاليم زائفة وطقوس فاسدة تهلك الإنسان إذ تدفعه بعيدا عن رحمة الله ويجنون هم ثمناً قليلاً من المال الحرام وإن كثر .

إنهم يعلنون الحرب على رسل الله الذين هم لسان الله فى خلقه بإسم الله نفسه الذى أرسل هؤلاء الرسل. يسرقون مجد الله ويغتصبون سلطته. يحاربون الله مدعين أنهم يحاربون أعداءه وفى هذا تكمن قوتهم ويختفى خبيثهم وتتعسر مقاومتهم فهم كالشيطان يأتى الإنسان من داخله لا من خارجه فيسهل عليه نزع أسلحته وإبطال دفاعه عن نفسه فيتاح له أن يقيد بالاعلال ثم يلقى به مستهزأ إلى الجحيم .

جاء إلى السيد «المسيح» بعض الفريسيين موفدين من «هيرودوس» بالإتفاق مع رجال الهيكل جاؤهم فى ثوب الناصح الأمين يعرضون عليه أن يهرب لأن «هيرودوس» قد أنتوى قتله (٣١٧) كما فعل بإبن خالته «يحيى بن زكريا» «ليس من الحكمة فى شئ أن يلقى الإنسان بنفسه فى مصيدة الموت» لهجتهم تنضح بالثقة فى أنفسهم والسخرية منه ونظرة

عيونهم وملامح وجوههم المسرورة تفضح زيف حزنهم عليه وتباكيهم الكاذب على مصيره البائس .

كان لسان حالهم يقول له : «أيها الفأر المذعور لا تخف سوف نفتح باب المصيدة ونسمع لك بالهروب متظاهرين بأننا لا نراك وأنت تهرب ليكون في فرارك المذعور وأنت تعدو وتتلفت عبرة لكل من تسول له نفسه التمرد على سلطة الهيكل المقدس أو الخروج على سلطان روما «المقدسة» التي لا تقهر».

يريدون تحطيمه في أعين أتباعه المعجبين به وبهذا يزول في ظنهم كل خطره لاح على شففى «المسيح» شبح إبتسامة ساخرة أفصحت عن استهزائه بهم وبمن أرسلهم بقدر ما أفصحت عن شعوره بالمرارة وعميق أسفه لإستحالة إيمانهم .

كان يحدق البصر في «مكر الله» الذى جعل شيوخ الفريسيين أصحاب الدعاوى العريضة في المحافظة على شريعة الله وتراث الشعب المقدس. «مكر الله» الذى جعلهم يسارعون إلى «هيرودوس» يتعاونون معه على كتم كلمة الله رغم أن «هيرودوس» لم يكن يكره ويحتقر شيئا أكثر من الفريسيين وتراث الشعب المقدس ذلك الذى يحول بينه وبين التمتع بكل اللذات التى يتحرق شوقا للظفر بها .

ما أشد خفاء حكمة الله وما أعجب القدر .

قال «المسيح» «قولوا لهذا الثعلب إن «للمسيح» مهمه سيؤديها في «أورشاليم» وإنه وإن خرج من الجليل فليس خوفا منك لأنك لا تستطيع شيئا لم يشأ الله خلقه ولكن سيخرج ليبلغ كلمة الله إلى الذين لا يحبون سماعها ليكون في ذلك شهادة عليهم أمام الله الذى يعلم ما فى قلوبهم».

وأنصرف الوفد حاملا الخيبة والفرع فلم يحقق الغرض المنشود وما هو يخبر أنه

سيسير الى «أورشاليم» من أجل مهمة سيؤديها ، هل سيجوز جيشاً من أتباعه
المفتونين به؟!

أيمكنه التغلب على جيش روما ؟ حقاً إن جيش روما قوى ولكنه «ساحر» شديد
المراس صنع أشياء عجيبة فهل سيكون نصره على روما هو إحدى عجائبه ؟ ياله من رجل
غريب يحير الأذهان لا يستطيع أحد سبر غوره ولا معرفة سر قوته التى تمده بكل
هذه الثقة !؟ .

أسرع الرجال إلى «هيرودوس» يبلغونه رسالة «المسيح» وذهب آخرون إلى
«أورشاليم» ينظرون الهيكل بما ينتوى «المسيح» عمله ليستعدوا ويتجهزوا للمواجهة .

كان «المسيح» يدرك بوضوح تام أن «هيرودوس» لن يجرؤ على قتله لأنه أوشك أن
يفقد تمالكه لنفسه بعد قتله «يحيى» . لقد أصبح سجين الكوابيس المرعبة التى لم تكف عن
بث الفرع فى نفسه . بات عليه أن يستيقظ من النوم مفزوعاً أكثر من مرة فى الليلة الواحدة
ليفلت من قبضة الكابوس الذى يطبق عليه ليجد نفسه يصرخ فى ظلمه الليل وحيداً فى
غرفته التى صار ينأى فيها بمفرده لأن امرأته قد هجرته وأيقنت أنه على وشك الجنون
فخافت على نفسها منه وكانت قد كرهته حتى الموت لتبذله السفية الذى أهان كبرياءها
كأمرأة وحط من مكانتها كزوجة لرئيس الجليل الذى يطمع فى أن يصير ملكاً للبلاد كلها .

وأصبح «هيرودوس» يشك فى كل أحد ، لقد ارتكب جريمته الكبرى ليحافظ على خطته
الرامية لا ستعادة ملك أبيه فكانت جريمته نفسها هى الشيء الذى أفسد تلك الخطة
فساداً لا أمل فى إصلاحه إذ بدأ السادة الرومان يفقدون ثقتهم فيه كرجل يستطيع أن
يحافظ على الإستقرار فى تلك البقعة المزعجة من العالم التى تعج بالفتن
وتموج بالأضطرابات .

وضاعت منه «سالومى» إلى الأبد فلم يعد فى قدرته إستدعائها ليروى بصره
الظامى إلى جمالها الذى لا يستطيع نسيانه .

لقد طرد من جنتها وحرم من لذة وصالها فى نفس اللحظة التى أوشك فيها على أن
يقطف ثمرتها .

خطفتها من يده رأس «يحيى» التى قطعها من أجل أن ينالها .

«ياله من حظ سىء وخطة خبيثة محكمة وقعت يا «هيرودوس» فى مصيدتها . ولقد
أغلق بابها إلى الأبد.» تهاوى الأمل فى إسترداد عرش أبيه ولم يعد يهتم بذلك. لا يعنيه
الآن إلا أن يسترد سروره الذى كان له قبل أن يرى تلك الرأس المقطوعة ولكنه لا يستطيع
يفرط فى شرب الخمر ويطلق لنفسه العنان لينال كل مايشتهي لكن دون فائدة.

يقوم من النوم مفزعا ويصرخ ويستغيث ولكن لا مجيب. كل الذين فى القصر أدركوا
أن السيد الرئيس قد وقعت عليه لعنة رأس «يحيى» التى ستظل تطارده إلى الموت .
مثل هذا يستحيل أن يصدر مرة أخرى قراراً بالموت. هل من ينتوى أن يقتل أحدا
يرسل إليه ليحذره ؟ !

وجاء إلى «المسيح» رجال آخرون يخبرونه بالمذبحة الرهيبة التى صنعها «بيلاطس»
حاكم «أورشاليم» ومنطقة اليهودية إذ أصر على أن يذبح بعض الرجال الجليليين الذين
أثاروا الشغب فى «أورشاليم» وأصر على أن يخطط دماغهم بدماء ذبائحهم التى قد موها
إلى الهيكل (٣١٨)

كان المتحدثون يريدون قطع أمل «المسيح» فى أن يستنجد «ببيلاطس» فى صراعه
ضد رجال الهيكل فها هو الحاكم الرومانى قد رضخ لإبتزاز الهيكل .

لقد اضطّر الحاكم الرومانى بإلحاح الكهنة والشيوخ أن يشاركهم معركتهم ضد
«ملك اليهود» القادم من ناصرة الجليل التى يحكمها «هيرودوس» العدو اللدود «لبيلاطس»
والذى يرى أن الحاكم الرومانى قد أغتصب عرش أبيه «هيرودوس» الكبير ، وربما ظن
«بيلاطس» أن «هيرودوس» هو الذى يهيج «الناصرى» وأتباعه لإثبات أنه غير جدير بالحكم
عاجز عن الأمساك بزمام الأمر .

تحدث الرجال بصوت ينبىء عن شعورهم بأن الذين ذبحوا وخلطت دماؤهم بدماء قرابينهم لا ريب أنهم كانوا خاطئين وإلماً سمح الله أن يلقوا مثل هذه النهاية البشعة وأنتاب نفس الشعور الذين إستمعوا إلى هذه الأنباء المرعبة وهم يمتلاؤن بالفزع أن يصيبهم مثل ما أصاب أصحابهم وعزموا على الفرار من الإنتساب إلى المدعو «عيسى» الناصرى وهذا هو الهدف الذى جاء من أجله الذين أخبروا «المسيح» بالأنباء وأفاضوا فى وصفها لينشروا الرعب فى القلوب الواجفة .

قال «المسيح» «أَوَ تظنون أن هؤلاء الذين ذُبحوا ذبح الأغنام وخلطت دماؤهم دماء أغنامهم كانوا خاطئين أكثر من كل الجليليين الذين لم يكابدوا مثل هذه النهاية القاسية».

«كلاً ، أفكان النبى «يحيى» بن زكريا» الشهيد ابن الشهيد أكثر خطأ من كل بني اسرائيل حتي أنه ذبح وهو في السجن ووضعت رأسه على طبق تلبيه لرغبة غانية كانت تباع جسدها .»

«كلا. فما أعظم «يحيى بن زكريا» عند الله. هو الآن مع أبيه وسائر النبيين والصالحين ولعله يشكر الذين ذبحوه وقطعوا رأسه لأنهم قد دفعوه دفعاً إلى النعيم المقيم الذى لا يزول .»

«ما أهون الدنيا على الله ولكنكم قوم لا تعلمون ؟ أَوَ تظنون أن الثمانية عشرة الذين سقط عليهم البرج فى «سلوام» وهشم أجسادهم أتظنون أن هؤلاء كانوا خاطئين أكثر من جميع سكان «أورشليم» الذين لم يصبهم مثل ذلك.»

«كلا. الحق أقول لكم إن الهلاك الحقيقى ليس هلاك الجسد بالموت فإن «الروح» يبقى بعد الموت إما إلى الجنة أو الى النار» .

«لكن الهلاك الحقيقى هو مفارقة النفس لرحمة الله. ذلك هو الموت الأبدى الذى لا رجعة منه إلى الحياة .

إن الأموات الذين فارقت أنفسهم أجسادهم بقبض «الروح» سوف يعودون أحياء مرة أخرى أما الأموات الذين فارقت أنفسهم رحمة الله وحُبست إلى الأبد فى جهنم فإنهم لا يرجعون أحياء مرة أخرى وذلك هو الهلاك الذى ينبغى أن نفر منه وأن نحاذر من الوقوع فى قبضته أما الموت الذى يحملنا إلى حياتنا إذ يسوقنا إلى الله فما أكرمه من ضيف عزيز يحل علينا وليته يسرع فى مجيئه ؟ «

«فتوبوا إلى الله جميعا ولا ستهلكون».

وقام «المسيح» وأنفض الناس من حوله وهم واجمون .

ذهب «المسيح» الى أمه يريد رؤيتها قبل رحيله ولقيه أخوته وكانوا لا يؤمنون به ويعتقدون أنه يلقي من الإهتمام فوق ما يستحق بكثير. قد ظل يسرق منهم أباهم حتى مات والمررة الوحيدة التى كان يمكنه فيها أن يصنع شيئا مفيدا للرجل الذى أحبه أكثر منهم رغم أنهم أبناءه من صلبه فى تلك المرة الوحيدة لم يستطع أن يفعل شيئا بل تركه يموت ولم يتكرم عليه حتى بالقيام من مجلسه وسط الحمقى الذين أتوا إليه من كل مكان بل ظل جالسا معهم ورفض أن يخرج إلى أمه وأخوته عندما ذهبنا إليه لعله يستطيع شفاء من يزعم أنه يحبه .

قالوا له والسخرية تكاد تقفز من وراء كلماتهم «لماذا لا تنتقل من هنا وتذهب إلى «أورشاليم» حيث الهيكل ليرى الناس أعمالك التى يقولون أنك تستطيع عملها».

«لا أحد يبقى مختفيا فى قرية صغيرة ، وهو يريد أن يصير مشهورا فإن كنت تفعل كل ما سمعنا عنه فلماذا لا تذهب إلى «أورشاليم»^(٣١٩) وها هو «عيد المظال» قد اقترب وسوف تزدهم «أورشاليم» بالناس القادمين من شتى القرى والمدن الذين يمكنك أن تبهرهم بأعمالك .أظهر نفسك للناس».

يريدون أن يقولوا له جم غفير من السوقه والحمقى سوف تمتلأ بهم «أورشاليم» فلماذا لا تعرض هناك لأعيبك العجيبة فمن المؤكد أنك ستجد جمهورا أكبر وكانوا يريدون إبعاده عنهم تجنباً للمضايقات الكثيرة التى يمكنه أن يجلبها عليهم إن بقى معهم وأسرها «عيسى» فى نفسه ولم يبدها لهم .

قال متغاضيا عن السخرية والكراهية «إن وقتى لم يحن بعد أما وقتكم فحاضر فى كل حين. يمكنكم أن تذهبوا إلى «أورشاليم» فى أى لحظة أما أنا فلا. إن أهل أورشاليم وأهل الدنيا كلهم لا يبغضونكم ولكنهم يبغضوننى لأننى أشهد عليهم بأن أعمالهم شريرة.» من يظن نفسه هذا المخبول ؟ لقد عاد إلى الهذيان مفصحا عن أوهامه التى لا وجود لها إلا فى رأسه المريضة ، الدنيا كلها تكرهه ياله من مجنون لا يعرف ماذا يقول ؟! وانصرفوا وهم ممتعضون .

تركوهما معا «المسيح» وأمه. وتطلع الوجهان كلٌ إلى صاحبه. لم يكن أحدهما فى حاجة إلى أن يقول شيئا للآخر. يعرفان بعضهما دون أن يتكلما . وفاضت الدموع إنها لحظة الفراق .

كانا يدركان معا أن الأرض لم تعد تحتل لقاكما وأن موعدهما السماء فتعانقا عناق الفراق .

فى ظل الإرهاب انفض عن «المسيح» أغلب أصحابه. ذاب أكثر الرسل فى صخب الدنيا ولم يبق معه إلا اثنتى عشر رجلاً هم الذين أصرروا على البقاء معه وإن لم يتبينوا فى وضوح ما هى الغاية من بقائهم معه وما هو الهدف الذى يسعون لبلوغه .

مازال يتردد فى الأسواق والمجامع أنه قد يكون «ملك اليهود» الموعود الذى يرد الملك لبنى إسرائيل ويعيد المجد الذى هوى ومازال الناس البسطاء ينادونه «يا بن داود» وهو يجيبهم ولا يرفض هذه التسمية مع أنه يسمى نفسه فى أغلب الأحيان «ابن الانسان» ويقول أنه «ابن مريم» يا له من معلم غريب لا نعرف بالضبط كيف جاء إلى اليهود ؟ أترأه

ذاهباً إلى «أورشاليم» لهذا الهدف وكيف سيصبح ملكاً؟ هل سيكون جيشاً يحارب به روما؟!

أم أنه بقدراته الخارقة سيستطيع التغلب عليهم؟ هل ستنصب حاشية الملك ووزرائه أم ستنجح كالأغنام مثل «إبن زكريا» الذى يقول عنه أنه أعظم عند الله من كل اليهود هل؟ وكيف ولماذا؟.....

وأمر «المسيح» من بقى معه أن يستعدوا للرحيل من الناصرة فرضخوا للأمر وساروا صامتين يتفكرون .

مر «المسيح» مع تلاميذه على قرية فى السامرة فأرسل بعضهم إلى أهل القرية يخبرونهم أن «المسيح» يريد أن يدخل القرية ليمكث فيها قليلاً وهو فى طريقه إلى «أورشاليم» لكن شيوخ القرية رفضوا (٢٢٠) أن يدخلها «المسيح» لأنهم علموا أنه متجه إلى «أورشاليم» وكانت قد وصلت إلى أسماعهم أقوال عن أنه سوف يعلن نفسه ملكاً لليهود. فطلب منهم رسل «المسيح» أن يبيعوهم خبزاً فرفضوا ذلك أيضاً وطردوهم شر طردة مهددين أيأهم بالقتل .

فرجع الرسل إلى «المسيح» وأخبروه بما حدث لهم من أهل القرية فغضب التلاميذ غضباً شديداً وأندفع يعقوب ويحيى (يوحنا) ابنا زبدى يقولان «يا معلم» ألا يجب أن نصلى لله ونضرع إليه أن يرسل نارا من السماء على أهل هذه القرية كما فعل نبي الله «إيلياس». فالتفت إليهما «المسيح» غاضباً وقال لهما «إنكما لا تدریان أى روح يدفعكما إلى أن تقولاً هذا الكلام. إن «ابن الانسان» قد جاء إلى الدنيا لينقذ أنفس الناس من الهلاك لا ليهلكها. ألا تذكرون قصة «يونس» مع أهل نينوى عندما غضب منهم وتركهم دون إذن من الله الذى أرسله إليهم غير عابىء بما سوف يحل عليهم من نقمة الله، وخرج يريد الخلاص منهم فدبر الله له بمكره الذى لا يستطاع فهمه أن يلقى فى البحر وأن يبتلعه الحوت حيث مكث فى بطنه ثلاثة أيام. ثم صعد به الحوت وقذفه إلى الشاطئ غريباً وحيداً

بلا أنيس فأنبت له الله يقطينة تظلمه فكانت له الصديق الذى يبدد وحشته ثم هلكت اليقطينة فحزن عليها «يونس» حزناً شديداً لأنه فقد صديقه الوحيد الذى يزيل غربته فحينئذ قال له «الله» إنك قد حزنت على شجرة واحدة هلكت وأنت لم تخلقها فكيف لا تحزن على هلاك قرية كاملة بكل ما فيها من خلق الله وكيف يكون الله الذى خلقهم ؟ فلما عاد «يونس» إلى أهل نينوى وقد عرف رحمة الله بخلقه وعرف قومه آية الله فى عودته ناداهم للتوبة فتاب الله عليهم. قولوا لى إذا أصيب أخ لكم بجنون فهل تشجون رأسه أو تقتلونه لأنه يتكلم بالسؤ ويؤذى كل من يقترب منه فيسبب لكم المتاعب ويجلب لكم العار ؟ ألا تحاولون أن تسترجعوا سلامة عقله بالأدوية والطرق التى تظنون أنها كافية لهذا الغرض .»

«إنكم بالفعل تحاولون ذلك .»

«لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرتة إن الخاطيء مجنون قد أصيب ذهنه بالمرض فوجب على أخوته الخاطئين مثله أن يحاولوا إسترجاع صحته بدعوته إلى التوبة والصلاة لله من أجله لا أن يضطهدوه محاولين قتله فإن هذا منهم هو أشد الجنون قولوا لى أنتم خلقتم أهل هذه القرية الذين رفضوا دخولنا إليها ؟ .»

«كلاً ولكن الله الذى خلقها والذى يعلم أنها رفضت دخول رسوله إليها لم يزل يرزقها ويفيىض عليها من رحمته فكيف تودون أنتم إهلاكها وحرمانها من الرحمة وأنتم لم تخلقوها ولم تعطوها أى شىء »

«ويلٌ للذين يطلبون النعمة لأنها تحل بهم. إن كل انسان يستحق نعمة الله لولا رحمته.»

قالوا «يامعلم أتريد أن نصلى ونضرع إلى الله أن يهدى أهل هذه القرية إلى التوبة؟ »

قال : «نعم. إن هذا هو العمل الجدير حقاً بتلميذ «المسيح» أن يضرع إلى الله من

أجل الذين يفعلون الشر والذين يسيئون إليه ألم تقرأوا ما صنعه نبي الله «داود» عندما لعنه «شمعاي» ورماه بالحجارة ؟ ».

«إن الذين يحبون «داود» إندفعوا إلى «شمعاي» يريدون قتله وأمسك به «أيوب» يريد خنقه لأنه أهان نبي الله الملك «داود» لكن «خليفة الله» قال له ماذا يعنيك أنت يا أيوب لماذا تريد أن تقتل «شمعاي» دعه يلعننى لأن هذا إنما يقع بإرادة الله الذى سيحول برحمته هذه اللعنات إلى بركة تدوم الى الأبد» .

«هكذا فعل «داود» وكذلك فعل كل أنبياء الله مع الذين آذوهم وأرادوا قتلهم. كذلك فعل «إشعيا» و«أرميا» و«حزقيال» و«دانيال» وكذلك فعل «زكريا» الذى قتل فى الهيكل؟»
«قل لى أيها الإنسان من هو عدوك ؟ »

«ليس عدوك هو من يؤذيك أو يسبك أو حتى يحاول قتلك. كلاً عدوك الحقيقى هو نفسك التى تأمرك بالسوء وتسول لك معصية خالك. عدوك هو جسدك الذى يدعوك إلى ارتكاب الخطايا عدوك هو من يمدحك ويثنى عليك ولا يوبخ خطاياك» .

«الحق أقول لكم لو كان الانسان سليم القلب صحيح العقل لقبل يد الذين يعيرونه وقدم هدايا للذين يضطهدونه ويوسعون ضربه لماذا ؟ »

لأنه لا شئ من ذلكم يقع إلا بإرادة الله فإن ورقة واحدة من شجرة واحدة لا تتحرك إلا بإرادة الله المهيمن على كل شئ ولا يصيبك من الأذى إلا بسبب خطاياك الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى فكلما عُرِّت واضطُهدت وأصابك الألم فى هذه الدنيا بسبب خطاياك فأفرح لأن ذلك يخفف من أثقالك يوم القيامة» .

«وإذا كان الناس قد اضطهدوا الأنبياء وأسأوا إلى الصديقين وشوهوا سمعة الصالحين وإذا كان الله قد سمح بهذا فماذا تنتظر أنت أيها الإنسان الخاطيء الذى يستحق الجحيم ؟ أظن نفسك أفضل من أصفياء الله ؟ وإذا كان الأنبياء والصديقين

والشهداء والصالحين قد صبروا على ما أصابهم بإذن الله وصلوا من أجل الذين أضطهدوهم فلماذا تسخط أنت أيها الانسان الخاطيء وتريد أن تهلك الذين لم يصيبوك بمقدار ما تستحق ؟ !»

«فإذا كنت في ضيق فلا تفكر في مقدار ما احتملت ولا تلعن من أصابك بمكروه بل تأمل كم تستحق من العذاب في الجحيم على يد الشياطين بسبب خطاياك وأنظر إلى رحمة الله الذي عجل لك عذابك في هذه الدنيا التي أودع فيها قطرة من رحمته فخفف من عذابها وأنقذك بهذا من العذاب الأبدى الذي لا رحمة فيه .»

«إنكم حانقون على هذه القرية التي لم تقبلنا ولم تبع لنا خبزا وتودون هلاكها فقولوا لى :

« هل أنتم الذين خلقتموهم ووهبتموهم قريتهم ؟ »

« هل هؤلاء القوم عبيدكم ؟ »

« هل أنتم الذين زرعتم لهم قمحهم أو ساعدتموهم فى حصاده ؟ »

« كلاً ثم كلاً ثم كلاً .»

«فإنكم ليسوا أكثر من غرباء فقراء مروا على هذه القرية ذات يوم فلماذا كل هذا الكبرياء وما هذه الأقوال التي نطقتم بها .»

فصمت الإثنا عشر رجلاً ثم قال «يعقوب» و«يحيى» «يا سيد لقد أخطأنا فليرحمنا الله ويغفر لنا .

قال «المسيح» «أمين» (٣٢٠)

«سمعتم أنه قيل للقديسين عين بعين ولسن بلسن .

«أما أنا فأقول لكم : لا تردوا على الإساءة بمثلها .

«فمن لطمك على خدك الأيمن فقدم له خدك الأيسر أيضا »

«ومن أراد أن يغتصب منك ثوبك فاتركه له وأعطه رداك أيضاً معه. إعطوا كل من سألکم حتى الذين حرموكم فإن أحسنتم الى الذين يحسنون اليكم فقط فأى فضل يكون لكم إن الخطاة يفعلون ذلك فإنهم يحسنون إلى من يحسن اليهم .»

«وأقرضوا كل الذين يطلبون منكم ولا تردوهم فإن اقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم أموالكم فأى فضل يكون لكم إن الخاطئين يفعلون ذلك أيضا .»

«ومن أخذ منكم شيئا فلا تطالبوه. عاملوا الناس كما تحبون أن يعاملوكم. إفعل ما تحب أن يُفعل بك .»

«سمعتم أنه قد قيل أحب قريبك وأبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى الذين يسيئون إليكم وصلوا من أجل الذين يضطهدونكم ويطردونكم . لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم فقط فأى فضل يكون لكم إن الخاطئين يفعلون ذلك أيضا وإن سلمتم على الذين يسلمون عليكم فقط فأى فضل يكون لكم إن الخاطئين يفعلون ذلك أيضا .»

«لأنكم يجب أن تكونوا كاملين متشبهين بالهكم فإنه يشرق بشمسه على المتقين والفجار ويفيض برحمته على المحسنين والمسيئين وينعم على الشاكرين والجاحدين فإنكم حينئذ تستحقون أن تكونوا أبناء له . فكونوا رحماء كما أن إلهكم رؤوف رحيم .(٣٢١)

وذهب «المسيح» مع تلاميذه ومن قبل صحبته إلى شاطئ الأردن حيث كان «يحيى بن زكريا» يبشر قبل قتله وأندلعت الشائعات تقول أن «يحيى» قد بعث من الموت وأنه عاد

ليسير عند شاطئ الأردن كما كان يفعل قبل أن يقطع «هيرودوس» رأسه وأن الآيات التي يتوالى ظهورها في القرى والمدن حول الأردن إنما يصنعها «يحيى» العائد من الموت (٢٢٢).

إن الشعب الذليل الذي أهان «يحيى بن زكريا» حقاً عندما تخلى عنه وتركه فريسة سهلة في أيدي أعدائه ليلقى حتفه تلبية لرغبة امرأة فاجرة رقصت عارية في حفل صاحب امتلاً بالمجون طلبت رأس «النبي» ثمناً لبيع جسدها. ذلك الشعب الذليل أراد أن يعوض النبي بأن يكرمه بالباطل بعد أن أهانه بالفعل .

لقد تلقف الجهال بعض أقوال «المسيح» التي ابتدأ يقصص بها عن رفعه من الأرض وعودته إليها قرب نهاية الدنيا وأن «يحيى» و«إدريس» سوف يسبقانه بالعودة إلى الأرض ويكون رجوعهما بعد الموت دليلاً على صدق الله الذي أخبر أن الموتى يبعثون وتمهيدا لرجعة «المسيح» فشوهوا الأقوال ولم يحفظوها. تلقفوا نبأ عودة «يحيى» فتوهموا أن عودته قد وقعت، وخرجوا يبحثون عنه بشاطئ الأردن يريدون أن يتحققوا من صدق ما قيل ويكفروا عن خطيئتهم الثابتة في حق «ابن زكريا» بوهم لا تثبت نبت في قلوبهم المظلمة التي لم تعد تحتل قبول النور .

خرجوا ليقابلوا «يحيى» ويظهروا له إيمانهم حتى لا ينسأهم عندما يصعد على العرش لكنهم فوجئوا بأن الذي يبشر عند الأردن هو المدعو «عيسى الناصري» كانوا يتوهمون أن «يحيى» العائد لا بد أن يكون لابساً أفخر الثياب التي تليق بأهل الجنة وبملك يستولى على العرش وظنوا أنه لا بد أن ينتقم من «هيرودوس» الذي ذبحه ذبح الاغنام ولا بد أن ينصب نفسه ملكاً لليهود ليعيد إليهم المجد الذي ضاع .

لقد ذاعت تلك الأقوال إلى حد أن «هيرودوس» نفسه أوشك أن يفقد ما بقي من عقله وهم يخبرونه أن «يحيى» ربما يكون قد قام من الأموات وأمتلاً الرجل بالفرع لأنه لو صحت هذه المزاعم فسوف يكون عليه أن يحارب شبحاً خارجاً من ظلمات الموت فأثني له

مقابلته وأخذ يصيح «كيف تقولون هذا، إننى قطعت رأسه بالسيف ورأيت هذه الرأس البشعة والدماء تقطر منها فكيف تدعون أنه قد رجع» لكنه فى قرارة نفسه كان يخشى أن يكون قد عاد بالفعل فما أعجب الحياة ومن ذا الذى يستطيع أن يكون متأكدا من أى شىء؟!

لقد صدمت رؤية «المسيح» الجموع التى خرجت لرؤية «يحيى» وأخذوا يطيلون النظر إلى وجهه وملابس الخشنه التى لا تفصح عن أى نعيم ولا تشير إلى أى ملك منتظر . فقال لهم «المسيح» «لقد خرجتم إلى البرية فماذا أردتم أن تنظروا؟ أقصبه تحركها الريح ؟ !»

«ماذا خرجتم لتنظروا ؟ » .

«إنساناً لا بساً ثياباً ناعمة ؟» .

«لديكم من يلبسون الثياب الناعمة فى بيوت الملوك والرؤساء ؟ » .

«ماذا خرجتم لتنظروا ؟ » .

«أنبياء أردتم أن تنظروا ؟ »

«نعم كان نبيا بل أفضل من نبى لأنه قد قتل فى سبيل الله » .

«الحق أقول لكم أنه ليس فى بنى اسرائيل من هو أفضل من «يحيى بن زكريا»...»

«ولكن الأصغر (يقصد نفسه) أعظم عند الله، إن الأنبياء منذ بدء الدنيا وحتى «يحيى بن زكريا» كانوا يبشرون بملكوت الله ولكن الغاصبون يحاولون اختطافه كل منهم يحاول أن ينسبه لنفسه وقد أرسلنى لأبشر بقرب مجيئه فإن أردتم أن يقبلكم الله فأمنوا وطوبى لمن لا يعثر فىها هو أحمد (إيليا) قد أزمع أن يأتى، تزول السماوات والأرض ولا تزول كلمة واحدة بل ولا حرف واحد من كلام الله الذى نطق به أنبياءه حتى يكون الكل.»

ومن له أذنان للسمع فليسمع.

لكن الجموع التي خرجت لتري «يحيى» العائد بملابس الملوك للإنتقام خاب أملهم برؤية «المسيح» الجالس عند نهر الأردن بملابس العبيد فأنفضوا من حوله وتركوه مع تلاميذه .

وجاءه جمهور غفير من الذين سمعوا عن معجزاته وعلموا أنه يتقدم سائرا نحو «أورشاليم»، كانوا يسيرون معه ويستمعون إليه يريدون أن يروا المعجزات، ونفذ الطعام الذى كان مع تلاميذه وانتظر الجمع أن يظهر معجزاته كما سمعوا، فوقف «المسيح» يقول لهم (٢٢٣) «الحق أقول لكم أنكم تطلبوننى ليس من أجل أن تسمعوا كلام الله فتؤمنوا بل لأنكم تريدون أن تأكلوا خبزا فتشبعوا دون أن تعملوا، الخبز هو ما تريدون لا كلمة الله» .
«إعملوا للطعام الدائم الذى لا يفنى، الطعام الذى يهبكم الحياة الأبدية ذلك هو خبز الله الذى صنعه الله بيده وهذا هو العمل الذى يطلبه الله منكم»، قالوا «ما هو العمل الذى يطلبه الله منا ؟» .

قال «أن تؤمنوا بالذى أرسله وأن تعملوا بما يقوله لكم» .

قالوا «فاصنع لنا آية نراها لكى نؤمن بك ؟»

«قل لنا ماذا ستصنع لنا ؟» .

«أباؤنا أكلوا المن فى البرية كما هو مكتوب «لقد أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا» .

قال «المسيح» «أباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا» .

«وليس ذلك هو خبز الله النازل من السماء لأن من يأكل خبز الله لا يموت أبداً بل تكون له حياة أبدية» .

قالوا «وما هو خبز الله الذى من يأكله لا يموت أبدا ؟»

قال : «كلام الله الذى يهب من يؤمن به الحياة الأبدية. أنا خبز الله النازل من السماء لأننى كلمة من الله فأمنوا بى يعطيكم الله الحياة الأبدية. كل من يؤمن بى تكون له حياة لا تفنى. نزلتُ من السماء لأنفذ مشيئة الذى أرسلنى فمن يقبل علىّ ويؤمن بى فإننى أهبه الحياة الأبدية وإن مات وأقيمته فى اليوم الآخر لكى لا يموت من بعد ذلك أبدا .»

«هذا هو خبز الله النازل من السماء الذى يهب من يؤمن به الحياة الأبدية» فتذمر الجمع الغفير من كلمته وقالوا من هذا الذى يقول عن نفسه أنه خبز الله أليس هو «عيسى» ابن يوسف النجار الذى سمعنا كثيرا ما يقال عن أمه وكيف حملت به من يظن نفسه هذا المجنون ؟!

أيستطيع هذا المنافون أن يمنع المؤمنين به من الموت ١٩

وأنفضوا من حوله وهم يسخرون منه كيف سنأكله هذا الخبز النازل من السماء إنه يجوع ويأكل الخبز. حقاً ما أغرب كلام المجانين. إن الخبز يأكل نفسه .

قال لهم «لا تتذمروا. لا يستطيع أحد أن يقبل إلىّ ويؤمن بى إلا الذى جذبه من أرسلنى .»

«أولئك الذين استمعوا إليه من قبل أن يولدوا وأصطبغوا بصبغته. هؤلاء هم الذين يقبلون علىّ ويؤمنون بى .»

وتركه كل الذين جاؤا إليه وحتى التلاميذ تذمروا فيما بينهم وقالوا هذا كلام صعب من يستطيع أن يسمعه أو يفهمه فنأداهم وقال لهم «أهذا الكلام يعثركم فاسمعوا جيّدا لكى تفهموا» (٣٤٥) .

«الروح» هو الذى يُحيى فلا حياة بدون «الروح».

«أما الجسد بمفرده فليس ألا قبضة من التراب تعود إليه عندما يُسلَب الروح منها»
«أليس هذا صحيحاً ؟

قالوا «بلى» .

قال : «كلام الله الذى ينطق به الأنبياء إنما يتلقونه من «روح الله» الذى وهب كل شئ الحياة فمن يؤمن به فإن قلبه يَحْيَى إلى الأبد لأن النور المنبعث من «روح الله» يستقر فى قلبه. هذا هو الإيمان وبهذا يتصل القلب بسر الحياة فيبقى حياً على الدوام أما الجسد فإنه يموت بزوال الروح منه عند مفارقة النفس. فالذين يؤمنون يظفرون بالحياة الدائمة وإن ماتت أجسادهم فى الدنيا ولا بد أن تموت لأن الله قد كَتَبَ الموتَ على كل نفس ولكنهم عندما يقومون فى البعث فإنهم يظفرون بالخلود فى رحمة الله لأن قلوبهم ظلت بعد موت أجسادهم حية بما أودع فيها من الإيمان» .

«والكلام الذى أكلمكم به الآن هو من «روح الله» الذى يتكلم بلسانى فمن يؤمن به فإنه يحيى على الدوام حتى وإن دفن جسده فى التراب أتفهمون !؟»

قالوا «نعم» .

قال: «قولوا لي... أين يذهب الأنبياء بعدما يموتون هنا على الأرض. أين ذهب «زكريا» وأين ذهب «يحيى» وأين ذهب من قبلهم إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب وأين يكون موسى الآن؟»

«إنهم فى السماء رغم أنهم قد دفنوا فى التراب هنا على الأرض ولقد أقترَب موعد ذهابى إلى السماء أتفهمون !؟»

قالوا «نعم»

قال « ولكن فيكم من لا يؤمنون» !؟ .

تراجع كل الذين صحبوه حتى التلاميذ فكروا فى ان يتركوه ويدأوا يتملصون فقال لهم وقد شعر بما يدور فى قلوبهم : «لعلكم تريدون أنتم أيضا أن تذهبوا فإن أحببتهم أن

تتركونى فأمضوا» فبكى بعضهم وقال «بطرس» «يا معلم أين نذهب وكلام الحياة الأبدية معك فقام» المسيح» ليمضى فى طريقه الى قرية أخرى وفى الصمت المثقل بالخوف من المجهول وتحت وطأة الانتظار والترقب قالوا له «يا معلم أ قليل هم الذين ينجون ؟»

قال «إجتهدوا لكى تسيروا فى الطريق الضيق ولكى تدخلوا من الباب الضيق فإنه يفضى إلى سعة لا حدود لها، إن الطريق الرحب والباب الواسع يؤدى إلى الهلاك وكثيرون يدخلون منه».

«ما أعسر الطريق وما أضيق الباب الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه».

«الحق أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولكن لا يقدرّون لأن رب البيت يكون قد قام وأغلق الباب وحينئذ تجدون أنفسكم فى الخارج مطرودين والباب مغلق فتأخذون فى قرع الباب وتصرخون يا رب أفتح لنا» فيأتيكم الجواب «من أين جئتم إننى لا أعرفكم».

فتصرخون وتصرخون «يا رب أفتح لنا».

ويأتيكم الجواب «من أين جئتم إننى لا أعرفكم».

«أبتعدوا عني أيها الظالمون».

وها هم آخرون يكونون أوليين وأولون يكونون آخرين (٣٢٥) ومن له أذنان للسمع فليسمع .

(٢٤)

فضل الله

ولا أقول للذين تزددى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم

(هودا ٣١)

سأقترب «المسيح» من أريحا ومعه التلاميذ الإثنا عشر وجمع من الناس الذين آثار فضولهم سير «المسيح» الى «أورشاليم» وأخذ بأذهانهم التعجب من كثرة الآيات التي سمعوا عنها كانوا يريدون أن يروا ماذا سيفعل في «أورشاليم» هل حقا سيصبح ملكا لليهود ؟ .

وعلى الطريق المؤدى إلى أريحا كان «بار تيماس» الأعمى جالسا باسطا يده إلى الناس يسألهم الصدقة فلما قرع سمعه دبيب الأقدام التي تقترب سأل المتسولين الذين يجلسون بجواره عما يحدث وما سبب هذا الضجيج فقالوا له أن «عيسى الناصري» يتقدم في جمع من أصحابه، «سمعنا منذ أيام أنه سيذهب إلى «أورشاليم» . وكان قد سمع عن معجزات «الشفاء» التي قام بها المدعو «عيسى الناصري» فأخذ يصيح بأعلى صوته «يا بن داود أرحمنى يا بن داود أرحمنى .»

فأنتهره الجالسون بجواره والسبائرون في المقدمة «أصمت أيها الأعمى من ذا الذى يسمعك فى هذا الضجيج» لكنه ظل يصرخ ويزيد من صياحه حتى انتبه إليه «المسيح» فتوقف وقال لمن فى جواره «أنتونى به .»

فهرولوا إليه وهم يقولون «اسكت فإنه قد سمعك . كف عن الصياح . هو ذا ينادى عليك» فانتفض الأعمى مسرورا حتى أنه ترك رداءه المخرق على الأرض . ودفعوه ليقف أمام «المسيح» فقال له «ماذا تريد .»

قال «يا سيد أن أبصر» .

قال: «أتؤمن أن الله قادر على أن يرد إليك بصرك كما قد أخذه منك من قبل ؟».

قال: «نعم يا سيد أؤمن»

قال : « أبصر فإن إيمانك قد شفاك». (٣٢٦)

إندفع النور إلى الأعمى فأبصر فأخذ يعدو وهو يكاد يطير من الفرح ويصرخ «انتبهوا يا قوم فإن نبي الله قد جاء.»

«قوموا فإن ابن داود قد جاء اليكم» «لقد حضر ملك اليهود» وظل الرجل يصيح وهو يطرق الأبواب وينادى على الناس أن يخرجوا لاستقبال ابن داود ملك اليهود .

فخرج الناس ليرى ما يحدث وأخذوا يتجمعون حول «المسيح» وهو يتقدم نحو المجمع فى أريحا .

كان «زكا» العشار جالسا فى بيته يعد نقوده. إنه لم يعد يشعر بالسعادة التى كانت تملأ قلبه من قبل وهو يمتع قلبه وعينه ويديه بعد النقود ثم يضعها فى الخزانة كأنه يضع طفله الوحيد على سريريه بعد أن يهدده ثم يغلق الخزانة بإحكام ليغضى ابنه الوحيد يريد حمايته من غوائل الزمن وعيون الحاسدين .

كان «زكا» هو رئيس العشارين فى مدينة أريحا. لقد صار ثريا مثل كل العشارين الذين أدركوا أكثر من غيرهم أهمية المال فى عصر صار فيه المال هو الإله المعبود. عرفوا أنهم باسنتحواذهم على «الصنم» المعبود يستطيعون أن يظفروا بالإحترام وأن يجبروا الناس على أن يزيلوا من عيونهم نظرة الإزدراء التى كانت تطل عليهم باعتبارهم حثالة المجتمع والرمز المجسد للشيطان فى الصورة الأدمية .

لقد استطاع الكثير من العشارين أن يكتنوا الأموال إذ عرفوا كيف يأخذون أكثر مما

فَرَضَ فيختسلون لأنفسهم نصيباً مفروضاً وكيف يبتزون الكثيرين بالتهديد بالوشاية بهم إلى أهل السلطة .

وأصبحوا يعيشون معيشة الأثرياء ولكن إحترام الناس لهم لم يزد كثيراً بل ربما تحول الإحتقار إلى كراهية بسبب الحقد عليهم لثرائهم الذى حصلوا عليه بطرق خبيثة. وكان «زكا» أكثر حظاً إذ استطاع أن يكتز مالا وفيرا أثار حسد الآخرين لكنه بدأ يفقد ولعه بالمال وبحته عن الإحترام وحرصه على إذلال الآخرين عندما يُضْطَرُّون للمجيء إليه للإقتراض. بدأ يشعر أن الزمن يمضى بسرعة وأن كل المال الذى جمعه لن يحميه من قبضة الموت عندما تمتد إليه يده ولن يؤنسه فى وحشة القبر عندما يهيلون التراب عليه. كان الإيمان بعودة الروح والبعث من القبور قد بدأ يتسرب إلى قلبه ربما فى اللحظات القصيرة التى تسبق استغراقه فى النوم أو عند ما يتأمل على حين فجأة غروب الشمس ثم يتذكر أنها غداً ستشرق مرة أخرى .

سمع عن «المسيح» النبى القادم من الناصرة الذى يجلس مع العشارين ويأكل معهم فأنفتح باب الأمل فى قلبه وعندما أرتفع الصوت الذى ينادى على الناس بالخروج للقاء «عيسى الناصرى» انتفض من مكانه وأطل من النافذة فكانت دهشته فوق الوصف عندما رأى «بارتيمائوس» الشحاذ الأعمى يَعدُو فى الطريق وهو يصرخ وَيَبْدُو من حركته أنه يبصر جيداً. نظر على البعد فرأى جمعا من الناس يسرون نحو المجمع وأدرك أن لابد أن «عيسى الناصرى» فى هذا المجمع وأستولت عليه الرغبة فى رؤية الرجل الذى سمع عنه كثيراً. كان بدينا جداً وقصير القامة إلى حد أثار سخرية الناس منه طوال عمره وكانت تلك السخرية المريرة هى أشد الأشياء إيلاما له وأقوى الأسباب التى تدعوه إلى المبالغة فى إذلال الذين يجيئون ليقترضوا منه المال. أيقن أنه بقامته القصيرة هذه لن يستطيع أن يرى «النبى» القادم فماذا يفعل وقد استولت عليه الرغبة فى رؤيته. نزل بسرعة وصعد إلى شجرة جميز على الطريق ليرى «المسيح» وهو يسير. ظل هناك بين الأغصان يحرق البصر

فى الجمع المقرب نحوه غافلاً عن جسده البدين غير شاعر بالآلم. لقد تحول إلى «عين» صنعتها رغبة جارفة فى رؤية «المسيح» ولم يكن يضايقها إلا ذلك الغبار الذى تثيره الأقدام الزاحفة الى الجمع لأنه يمنعها من الرؤية الواضحة .

اقترب الموكب وشخصت «العين» تريد أن تستبين وجه «المسيح» فى ذلك الغبار ثم وقعت الواقعة إذ وقف «المسيح» على حين فجأة عند الشجرة وتطلع بعينه إلى القابع بين الأغصان وقال بصوت واضح :

«إنزل يا «زكا» لأننى سأقيم فى بيتك» (٣٢٧) .

لم يصدق «زكا» أذنيه ولا عينيه ونزل مهرولا دون أن ينتبه إلى جسده البدين حيث احتضن «المسيح» وقبَّله وأسرع إلى البيت ليعد للسيد القادم من الناصرة متكئا لا ثقا .

دخل «المسيح» مع تلاميذه إلى بيت «زكا» الذى كان لا يتمالك نفسه من الفرح وأعد «للمسيح» وليمة عظيمة لم يُسمع بمثلها فى «أريحا» دعا إليها وجهاء القرية والشيوخ الفريسيين وأعلن أنه يرحب فى بيته بكل إنسان يحب أن يأتى تكريما للسيد «المسيح» الذى تحنن عليه ورضى أن ينزل عليه ضيفا .

تذمر الفريسيون لأن ذلك «المعلم» الغريب يصر على إهانتهم وإهانة شريعة الله التى يرون أنهم هم أهلها وحفظتها بإختياره بيت عشار خاطىء ليقم فيه وبقبوله أن يأكل وأن يجالس الخاطئين مفضلا أياهم على الفريسيين رجال الحق المتمسكين بشريعة الله .

لكنهم ذهبوا إلى الوليمة التى صنعها «زكا» يدفعهم الفضول والرغبة فى رد الإهانة بإجراج ذلك المعلم الدعى الذين يهين الله بإهانة رجاله الحافظين لكتبه وشريعته «سوف يظهرون للشعب أنه جاهل لا يعرف شيئا لعل الجهلاء الآثمين من العوام يخرجون من أوهامهم ويتبينون «الحق» الذى يعرفه الفريسيون وحدهم .»

فأجأهم «المسيح» بقوله «لعمري الله الذى تقف نفسي فى حضرتة إن الله يرسل الأنبياء والرسل من أجل أن يتوب الخطاة ولو كان الناس أطهارا لا يحتاجون التوبة ما أرسل الله المرسلين فإن الطاهر لا يحتاج إلى الإغتسال. لذلك أقول لكم لو أنكم كنتم فريسيين حقيقيين للآكم السرور بدخولى على الخاطئين ليتوبوا من أجل خلاصهم من الجحيم الواقعين فى قبضته (٣٢٨) .

هكذا بدأت المعركة. لقد باغتهم ونزع عنهم الشرف الذى يدعون حمل رايته فيها هو يقول لهم أنهم ليسوا فريسيين حقيقيين فمن يكونون إذن ؟ .

ثم واصل هجومه .

«أتعرفون من هم الفريسيون ؟ وما هو أصلهم وماذا تعنى كلمة «فريسي» »
والجمتهم المفاجأة .

فأستأنف حديثه بصوت المعلم الحقيقى الذى يحب من كل قلبه أن يهدى أخوته من البشر .

قال «أصيخوا السمع إلى كلامى فإنكم حقا لا تعرفون .»

«إن كلمة «فريسي» تعنى يطلب الله وقد أطلقت فى البداية على سبيل السخرية والتهكم من الرجال الذين يعتزلون الناس وينأون بأنفسهم فى الجبال والكهوف يريدون الإنقطاع لعبادة الله .»

«كان المستهزون بهم يريدون أن يقولوا لهم أيها المجانين الذين «تفرزون» أنفسكم عن بقية الناس العقلاء الذين وجد كل واحد منهم صنماً يعبده عم تبحثون ؟ !» .

«لقد ظفر كل واحد منا بإله يراه فلماذا خرجتم إلى الجبال والكهوف .إنكم لن تروا شيئا لعلمكم تبحثون عن الهواء فعودوا إلى العقل وأرجعوا إلى بقية الناس .»

«لكن الفريسيين الحقيقيين كانوا أشد «جنونا» مما تصور «العقلاء» ولذلك استمروا

فى «جنونهم» حتى ظفروا بالفردوس ولم يحصل «العقلاء» إلا على الجحيم أتعرفون ماذا تعنى كلمة «الفردوس» ؟ !

وأطبق الصمت على الجميع .

وأنطلق صوت «المسيح» «إنها تعنى ظفر بالله» .

«لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته لقد كان فى زمن النبى إيلياس (إيليا أو إيلياهو) الذى عاصر ملك إسرائيل الفاسق «أخاب» كان فى زمنه ما يقارب سبعة عشر ألف فريسي يحييون فى الجبال يطلبون الله خالقهم وربما لم يكن بينهم منبوذ واحد» .

«أما الآن فإننا نعلم أن فى بنى إسرائيل ما يزيد عن مائة ألف فريسي فلعل أن يوجد بينهم فريسي واحد صادق غير منبوذ من كل ألف من المنبوذين» (٣٢٩) .

وصاح الفريسيون الحاضرون فى حنق «أنحن منبونون وديانتنا منبوذة ١٩» .

قال : «إنى لا أعد ديانة الفريسيين الحقيقيين منبوذة بل إنها الديانة الحقيقية وإننى عن طيب خاطر أقدم نفسى فى سبيلها» .

«الحق أقول لكم إن كل أنبياء الله ورسله كانوا فريسيين ولكن بالفعل وليس بالإدعاء مثلكم لأن الأنبياء والرسل قد طلبوا الله خالقهم وأحبوه حتى أنهم تركوا كل شىء فى سبيل معرفته. من كان منهم غنيا كان يبيع كل أملاكه ويعطيها للفقراء حبا فى الله فهل أنتم تفعلون مثلهم بل تعالوا لننظر هل أنتم فريسيون حقاً ؟ »

«لو كنتم فريسيين لعرفتم الكتاب الذى كتبه نبى الله «إيلياس» إستجابة لتضرع تلميذه النبى اليسع (أليشع) وأودع فيه الحكمة الفريسية كلها فى ألفاظ بسيطة. فهل تعرفون هذا الكتاب وماذا كتب فيه ؟ هل تعرفون كتاب «إيلياس» أصل الطائفة ١٩ ؟» .

واستولى الفرع عليهم فما هى فضيحتهم قد أصبحت مشهودة لكل الحاضرين من السوقه فإنهم لم يكونوا يعلمون أن «إيلياس» الذى تنتمى إليه الطائفة فى أصلها قد كتب

كتابا وأخذ كل واحد منهم يتهياً للإنصراف ويبحث فى ثنايا ذهنه المضطرب عن ذريعة يخرج بها من هذه المحاكمة القاسية. وعندما هموا بالإنصراف وقد اصطاد كل واحد منهم المبرر الذى يخرج به واصل «المسيح» هجومه الكاسح ولم يكن فى وسع واحد منهم أن يوقفه :

قال «لو كنتم فريسيين حقيقيين لتركتم كل شغل وجلستم لتعرفوا ماذا كتب أبوكم لأن الفريسي الصادق هو الذى يطلب الله وحده وأين ستجد الله إلا فى كلام الأنبياء ألا تحبون أن تعرفوا ماذا كتب أيلياس ؟ ، ، ، .

«فاسمعوا هذا المثل ،. أرتبكوا وأضطروا أن يعوبوا للجلوس وهم صاغرون .

قال (٢٣٠) «إنسان عظيم صنع عرساً لإبنه. أعد وليمة عظيمة وأرسل عبيده ليدعوا أهل المدينة لكنهم كانوا لا يحبونه وإن كانوا لا يستطيعون أن يعلنوا ذلك ولذلك كرهوا أن يحضروا عرس الابن وأخذ كل واحد منهم يبحث عن سبب يعتذر به عن تخلفه فقال واحد لقد اشتريت حقلاً جديداً وأنا ذاهب الآن لأنظره فقل لسيدك أن يعفنى من حضور العرس وقال الثانى لقد اشتريت خمسة أزواج من البقر وأنا ماضٍ الآن لامتحانها فقل لسيدك أن يقبل عذري لأننى لا أستطيع أن أحضر العرس وقال ثالث لقد تزوجت امرأة وأحب أن أدخل عليها الآن » .

«وهكذا. وكان هناك من هم أسوأ من أولئك المعتذرون وهم الذى بلغ بهم الغيظ والحقد على الإبن أن أخذوا يشتمون عبيد السيد ويضربونهم. وأرسل السيد عبيداً آخرين يحثون المدعوين على الإسراع قائلين لقد أعد كل شئ. الثيران والمسمنات قد ذبحت والأطعمة كلها قد أعدت والمائدة قد جهزت فهللوا إلى العرس لكنهم أبوا. فلما عاد العبيد إلى سيدهم وأخبروه بكل ما وقع لهم غضب السيد العظيم على المدعوين وقال لعبيده. إذا كان المدعوون غير مستحقين لحضور العرس فإن العرس قد تهيأ ولا بد من حضوره فاذهبوا إلى الطرق البعيدة والمفارق والسيارات وأحضروا كل من وجدتموه وألبسوه ثوب العرس

وأدخلوه ليزوق طعامي. فخرج العبيد فأحضروا الفقراء والمساكين والعمى والجرحى والطرش والمبتورين وألبسوهم ثوب العرس وأجلسوهم على المائدة. ثم قام السيد لينظر فقال له عبيده لقد تم كل ما أمرت. أحضرنا كل من وجدناه وألزمناهم بالدخول وألبسناهم ثوب العرس فنظر السيد فوجد هناك واحداً من المدعوين الذين أبوا أن يحضروا أولاً وقد تسلل إلى البيت ولذلك لم يكن عليه ثوب العرس فأمر جنوده أن يحضروه أمامه ثم سأله موبخاً «كيف دخلت إلى هنا أيها الغريب لا بد أنك تسلكت كالسارق ولذلك ليس عليك ثوب العرس».

فشعر اللص بالمهانة وأطرق ذليلاً إلى الأرض فقال السيد بصوت غاضب «ربطوا رجله ويديه وألقوه في الخارج فقد أقسمت ألا يزوق طعامي واحد من الذين دعوتهم فلم يستجيبوا لي».

«هناك يكون البكاء وصرير الانسان».

«الحق أقول لكم إن كثيرين يدعون ولكن قليلين هم الذين يُختارون». (٣٣١) ولم يطق الفريسيون المكوث أكثر فبدأوا ينصرفوا وقلوبهم تشتعل ناراً من الحقد على هذا «المعلم» الذي أهانهم كما لم يفعل أحد من قبل وواصل «المسيح» حديثه «هذا هو ما كتبه «إيلياس» (٣٣٢).

«إيلياس عبد الله يكتب هذا لكل من يريد أن يسير مع الله».

«من يريد أن يتعلم كثيراً فعليه أن يخشى «الله» قليلاً ومن يخشى الله يكتفى بأن يعلم ماذا يريد الله منه».

«من يطلب كلاماً مزوقاً فإنه لا يطلب الله لأن الله لا يفعل إلا توبيخ خطايانا».

«على من يريد أن يكون صالحاً أن يحاسب نفسه فقط لأنه لا يفيد الإنسان شيئاً إن يربح الدنيا ويخسر نفسه فلا يحكم إلا على نفسه».

«على من يحب أن يجد الله أن يبحث عنه في نفسه فإنه لن يجد الله خارجه وعليه أن يُحْكِم إغلاق أبواب ونوافذ بيت الله حتى لا يخرج الله من بيته، ألا أن بيت الله هو قلب الانسان والله يكره أن يوجد خارج بيته.»

«على من يريد تعليم الآخرين أن يكون أفضل من الآخرين بالفعل في حياته لا بالدعاء فإن الانسان لا يستفيد شيئاً ممن هو أقل منه كيف يتوب الخاطيء إذا تلقى النصيحة ممن هو شر منه ١٩»

«على من يريد أن يجد الله وأن يكلمه الله أن يفر من محادثة البشر والإختلاط معهم فإن موسى بن عمران كان وحده على جبل سيناء حين تلقى كلام الله.»

«ولأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده دائماً في هذه الدنيا فعليه أن يقلل من إنشغاله بشئون معيشتة في قليل من الوقت ففي يوم واحد يمكن أن يدبر معيشتة لمدة عامين.»

«عليه إذا أكل أن يقوم عن المائدة قبل أن يشبع وأن يكتفي بثوب واحد من جلود الانعام وعلى التراب ينام فإنه كان كتلة من التراب ويكفيه قليل من النوم كل ليلة وألا ينتظر الغد وإذا تكلم فليقل ما هو ضروري فقط وإلا فليزِم الصمت وأن يقضى وقته كله في التفكير في آيات الله ومتى صلى فليُنظر إلى موضع سجوده ولا يكثر من الكلمات وليتصور أنه واقف أمام الله في يوم الحساب فليُنظر إذن ماذا يقول حينئذ وماذا يريد.»

«وعليه ألا يبغيض أحداً إلا نفسه التي تسول له الخطيئة فإن فعل كل ذلك متمسكا بشريعة الله فلا بد أن يجد الله وحينئذ سيشعر في كل وقت وفي أى مكان أن الله فيه وأنه في الله.»

كان الفريسيون يواصلون التسلل فراراً من الإستماع وقال «زكا» أنظر يا معلم فإنني أعطى نصف أموالى للفقراء وإن كنت قد وشيت بأحد فإنني عن طيب خاطر أرد أربعة

أضعاف ما أخذت حبا في الله وأرد أربعة أضعاف ما أخذت بالربا لعل الله يغفر لعبده الذي أخطأ كثيراً (٣٣٢) وجلس «زكا». وهو يبكي كطفل فتهلل وجه «المسيح» وقال : «اليوم ظفر هذا البيت بالخلاص وهو الآن ابن لإبراهيم».

«حقا حقا إن كثيراً من العشارين والزواني والمرذولين سيحضرون إلى الجنة بعد ما يموتون وسيذهب الذين يتوهمون أنفسهم أبرارا ليكابدوا نيران جهنم» فاستبد الحق بمن بقى من الفريسيين وأندفع أحدهم وقد استشاط غضبا «كيف تقول هذا عن الخاطئين لا بد أنك واحد منهم» (٣٤٥) .

فقال «المسيح» «لماذا تنظر إلى القشة التي في عين أخيك ولا تنتبه إلى الخشبة التي تخترق عينك وتكاد تشج رأسك».

«كيف تقول لأخيك دعني أخرج القشة من عينك وها هي الخشبة في عينك تعميك فلا تستطيع أن ترى. يا مرأى أخرج الخشبة من عينك أولاً وحينئذ فقط تستطيع أن ترى وتعرف كيف تخرج القشة من عين أخيك الخاطيء مثلك لا تدينوا لكي لا تدانوا لأنكم بالكيل الذي تكيلون به يكال لكم»

ولم يتمالك من بقى من الفريسيين أنفسهم فأندفعوا يخرجون وهم يتميزون من الغيظ وحاول بعض الحاضرين أن يهدئوهم ويطيّبوا خاطرهم يدعونهم للبقاء للإستماع الى «المعلم» لكنهم أشاحوا عنهم بوجوههم وهم يلوون أعناقهم لا يطيقون الإستماع إلى أحد .

فقال «المسيح» «لا تطرحوا الجواهر الثمينة أمام الخنازير لكيلا تدوسها بأقدامها الملوثة ثم تلتفت إليكم فتمزقكم».

«أتركوهم فإن «القدس» لا يعطي «روحه» للكلاب (٣٣٥) .

«ماذا تظنون ١؟» .

«كان لإنسان إبنان فقال لهما أذهبا إلى الحقل اليوم لتعملا بدلا منى فقد صرتما الآن قادرين على ذلك».

«فقال الأول يا أبت أتركني فإنني اليوم لا أريد وذهب ليلعب وقال الثاني سمعا وطاعة يا أبى ثم أنصرف ولكنه لم يذهب للحقل ليعمل بل ذهب أيضا للسوق ليلعب .

ولكن الأول ندم فأسرع دون أن يقول لأحد إلى الحقل وأخذ يعمل قبل أن تغيب الشمس أما الثاني فظل يلعب حتى غابت فأتى الإبنين أطاع أباه؟» قالوا «الأول» .

قال «المسيح» «الحق أقول لكم إن العشارين والزواني وكل الخاطئين الذين ندموا على أنهم قد عصوا الله يسبقون أولئك الذين قالوا بالسننهم سمعنا وأطعنا وهم لم يسمعوا ولم يطيعوا فويل لهم . لقد جاء «يحيى بن زكريا» سائراً في طريق الحق فمن الذى آمن به؟ إنهم العشارون والزواني هم الذين آمنوا به فندموا على ما فعلوه أما الذين يظنون أنفسهم أبراراً فلم يندموا ولم يؤمنوا فسحقاً لهم .»

«ماذا تظنون» ؟ (٣٣٦) .

«إن كان لأحدكم مائة خروف ثم ضاع واحد منها أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال فى البرية ويذهب ليجده حتى يجده وإن وجده أفلا يفرح به أكثر من التسعة والتسعين حتى أنه يضعه على منكبيه ويمضى فرحاً إلى بيته ويمر على أصدقائه وجيرانه ويقول لهم تعالوا لتفرحوا معى بالضال الذى وجدته .»

«دلونى على امرأة ليس عندها إلا عشرة دراهم إن ضاع منها واحداً ألا توقد السراج وتكنس البيت وتفتش عنه باجتهاد حتى تجده !! فإن وجدته فإنها تفرح به أكثر من الدراهم التى لم تضيع منها .»

«الحق أقول لكم إن الله يفرح بخاطيء واحد يتوب أكثر من ذلك الرجل وتلك المرأة» .
«وإنه يكون فى السماء فرح بتوبة خاطيء واحد أكثر من عبادة تسعة وتسعين من الذين يظنون أنفسهم بارين غير محتاجين الى التوبة» .

«إن دفع واحد من المتكئين معه على المائدة يقول : «طوبى لمن يأكل خبزاً عند الله (٣٣٧) .

فقال «المسيح» «كان لإنسان إبنان فجاء الأصغر وقال له يا أبت أعطني نصيبى من المال فحزن الأب لأنه علم أن أبنه يريد مفارقتة وأنه سيشقى بعيدا عنه ولكنه لم يشأ أن يرفض طلبه فقسم لهما المال وأعطى كل واحد منهما نصيبه فبقى الأكبر فى جوار أبيه أما الأصغر فلم يلبث إلا قليلا ثم باع نصيبه من ملك أبيه لأنه كان يريد أن يعيش كما يهوى وسافر إلى قرية بعيدة وأخذ يشرب الخمر ويعاشر الزانيات وينفق بالإسراف حتى نفذت كل أمواله ولم يعد معه شيء ثم حدث جوع شديد فى تلك القرية البعيدة ولم يجد ما يأكله فالتصق بأحد الأهالى من تلك القرية وطلب أن يعمل عنده أجيراً فأمره أن يذهب ليرعى له الخنازير فكان يملأ بطنه عندما يستبد به الجوع من البقايا التى تتخلف من طعام الخنازير وحزن التعيس على المصير البائس الذى آل إليه وقال فى نفسه عند أبى أرزاق كثيرة ويعمل عنده الكثير من الأجراء الذين يأكلون الخبز النظيف والفاكهة إن ما يتبقى من الواحد منهم يكفينى أو أمكث هنا حتى أهلك من الجوع وعند أبى كل هذه السعة؟ كلاً سأذهب إلى أبى وسألقى بنفسى عند قدمه وأقول له حقا يا أبت لقد أخطأت فاغفرلى إننى لا استحق أن أدعى ابناً لك

..... فأتضرع إليك أن تقبلنى كأحد خدمك وعبيدك الذين يعملون بالأجر عندك وبالفعل فر التعيس من تلك القرية البعيدة وذهب إلى أبيه لكنه لم يجسر على الدخول عليه فظل واقفاً غير بعيد عن البيت لا يعرف كيف يذهب إليه وبأى وجه يستطيع مقابلته .

وحدث أن الأب خرج من البيت فرأى أبنه واقفاً غير بعيد منكس الرأس فهول الأب إلى ابنه وركض الإبن نحو أبيه ثم ألقى بنفسه عند قدميه يريد تقبيلهما فرفعه الأب إليه قائلاً .

«قم يا بنى فليس هذا مقامك .»

قال الأب «يا أبت لست مستحقاً أن أسمى أبناً فأقبلنى كأحد أجراءك» قال الابن : لا تقل هذا يا بنى فإنك ابنى لا أسمح أبداً أن تصير عبداً لى .»

ثم نادى الأب على خدمه وعبيده قائلاً «ألبسوه أفضل الأثواب وأجعلوا الخاتم فى يده وأعطوه بُعَينَ جديدين وأذبحوا العجل المسمن وليكن الآن فرح وطرب لأن أبنى هذا كان ضائعاً فوجدته وميتاً ثم عاد إلى الحياة».

وبينما كان الجميع يفرحون فى البيت حيث تعالت الضحكات وأصوات الغناء كان الابن الأكبر قادماً من الحقل بعد أن ظل يعمل حتى غروب الشمس فلما اقترب من البيت أدهشه ما يرى ويسمع فقال لأحد الخدم الواقفين عند الباب :

«لماذا هذا الطرب؟»

قال الخادم «لقد عاد أخوك فذبح له أبوك العجل المسمن وقال ليكن الآن فرح وطرب». فاعتاظ الأكبر غيظاً شديداً وأندفع غاضباً إلى أبيه الذى قام له وهو يضحك ويقول له تعالى يا بنى لتفرح معنا فإن أخاك قد عاد فقال الأكبر : «لقد خدمتك خير خدمة سنين طويلة فلم تذبح من أجلى حملاً صغيراً ، إننى لم أتركك ولم أخالف أمرك وعملت كل ما أمرتنى به ومع ذلك لم تفرح ولم تصنع لى مثل ما صنعت مع هذا الخسيس الذى هجرك وأنفق أموالك على الزانيات وجلب لك العار ولكنه ما أن جاءك حتى فرحت به وذبحت له العجل المسمن ...»

قال الأب «يا بنى إننى معى فى كل حين وكل أموالى تحت يدك ولم أبخل عليك بشيء ولكن أخاك هذا كان ميتاً فعاد إلى الحياة وكان ضائعاً فوجدناه فتعالى معنا لنفرح سوياً». لكن الأكبر ازداد غضباً من كلام أبيه وقال له «إجلس أنت لتأكل أما أنا فلا أجلس على مائدة الزناة» وأنصرف من البيت دون أن يأخذ حتى قطعة واحدة من النقود وترك القرية حيث ضاع إلى الأبد. (٣٣٨)

(٢٥)

روح القدس

«أم خلقوا من غير شيء»

«أم هم الخالقون؟»

(الطور ٢٥)

خرج «المسيح» من أريحا قاصدا جبل الزيتون في طريقه الى «أورشليم» وكانت أنباء مسيرته قد انتشرت في كل القرى والمدن من الجليل شمالا إلى اليهودية جنوبا مروراً بالسامرة وعبر الأردن. زلزلت تلك المسيرة «أورشليم» التي كانت تستعد لإستقبال ضيوفها في عيد المظال الذي كان على الأبواب .

وكان الهجوم الشديد الذي شنّه «المسيح» على الفريسيين في «أريحا» قد قطع كل رجاء في إمكان إبرام «مصالحة» بينه وبين رجال الهيكل إذ أسرع الفريسيون الذين تلقوا صفعاته على مائدة «زكا» بالهرولة إلى الهيكل لإبلاغ كبار الكهنة والشيوخ بالسباب المقرع المبهين الذي كاله المدعو «عيسى الناصري» للطائفة وللهيكل بون حساب وتغلب الرأي الذي ينادى بالقضاء على «عيسى الناصري» بقتله حماية للشعب من الضلال ومحافظة على «الهيكل» المقدس وأضطر القليل من شيوخ الفريسيين الذين كانوا يحترمون «المعلم» في قرارة نفوسهم إلى كتم ما يعتقدون في صدورهم وهم يرون الغضب الشديد يحتاج الكهنة والشيوخ إذ أصبح بقاء «المسيح» حيا أمرا يهددهم بفقدان كل شيء .

وبدأ رجال الهيكل في التخطيط واتخاذ التدابير للخلاص من هذا «الساحر» الخطير. والطريقة معروفة ومجربة ومضمونة النتيجة. إرسال بعض «الجواسيس» إلى حيث يعلم

الرجل المطلوب إصطياده لمعرفة القضايا التي يتكلم فيها ، ثم يرتدى هؤلاء «الجواسيس» ثوب المؤمنين المتحمسين الراغبين في معرفة الحق ومن ثم يبدأون في إلقاء أسئلتهم ذات المغزى ليتلقوا الإجابة التي يمكن تأويلها إن لم تكن صريحة لبيان أن ذلك «المعلم» يعطى الشعب تعليماً فاسداً يدعو للتمرد على السلطة وحبذا لو كانت الإجابات صريحة لا تحتاج لجهد كبير في التأويل وفي حضور رجال السلطة حيث يُسهل ذلك إثبات الجريمة و «أذل الغنم» لن يفعلوا شيئاً ليفسدوا تلك الخطة المحكمة. لقد نجحت الطريقة مع «يحيى» وستنجح مع «عيسى». أبلغ رجال الهيكل «بيلاطس» بأن مثير القلاقل المدعو «عيسى الناصرى» يزعم أن يقتحم «أورشليم» في عيد المظال الوشيك وأنه الآن في جبل الزيتون يستعد مع رجاله فعليه هو الآخر أن يستعد حتى لا يفاجأ بالأمر وعليه أن يبرهن على ولائه لروما المقدسة التي يحكم بإسمها وأن يثبت أنه جدير بهذه المهمة العسيرة وإلا فإن هناك كثيرين مستعدين لإثبات ذلك .

وبدأت «أورشليم» تتحدث عن مجيئ «المسيح» إليها فهل سيكون ذلك اقتحام الفاتحين المنتصرين ؟! وأي جيش ذلك الذى يستطيع «عيسى الناصرى» أن يكونه ليصمد أمام جيش روما في «أورشليم» وعادت القلوب ذكريات فتح «أورشليم» على يد الملك «داود» فهل سيثبت «عيسى» أنه حقا جدير بأن يكون ابناً لداود ؟! هل رضى الله أخيراً عن شعبه وسيعود المجد القديم بعد طول انتظار ؟! ولم تطق «أورشليم» صبراً ولا ضيوفها القادمين للإحتفال بعيد المظال فأخذت الجموع تتوافد على جبل الزيتون تبحث عن «المسيح» وتستمع إليه وتفكر كيف سيدخل «الملك» ابن داود عاصمة أبيه لينتزع عرشه من لغاصب الغريب وتتساءل في حيرة واضطراب «تُرى أين يخبئ جيشه ؟! .»

إننا لا نرى خيولاً ولا سيوفاً أو دروعاً كالتى كان «داود» يتقن صنعها . «أين يخبئ جيشه ؟!» فى هذه الجموع كانت «العيون» تنقل الأخبار للمتربصين فى الهيكل الذين

ملاهم السرور لأن «المعلم» كان يتناول في بعض أحاديثه خطايا «أسرائيل» التي يعاقبه الله عليها بالحكام الظالمين والجبابرة الذين لا رحمة عندهم وهو إتجاه يفيد الخطة الموضوعة مع حثه لبيان حكم الشريعة المقدسة وتشجيعه على إقامة حدود الله بهذا يدخل المصيدة ونرتاح من ازعاجه إلى الأبد .

وبدأ التلاميذ الملتفون حول «المعلم» في الجيل يفقدون قدرتهم على التماسك وهم واقعون تحت ضغوط الخوف من المصير المجهول إذ أن المستقبل بالنسبة إليهم أما أن يكون حاشية الملك المحيطة بالعرش حيث السلطة والمال والوجاهة أو أن يكون «الصليب» حيث يلقون حتفهم معلقين على خشبة وهم محتقرون وملعونون مثل قطاع الطرق والمشايخين الذين تمسك بهم السلطة الرومانية إذا فشلت الخطة ؟ ولكن أى خطة إنهم لا يعرفون لماذا جاء بهم هذا «المعلم» الغريب إلى هنا تاركين أهليهم وأعمالهم وأملاكهم حقاً لماذا جاء إلى هنا ولماذا يريد أن يذهب إلى «أورشاليم» ؟ .

إنه لم يقل لنا فلماذا أخفى عنا هذا . ألسنا تلاميذه الذين تبعناه تاركين كل شيء من أجله فلماذا أخفى عنا ؟ ! .

لقد ذهب بعضهم إلى «أورشاليم» لبيتاعوا طعاماً وهناك عرفوا أن «أورشاليم» تستعد للقاءه وسمعوا عن الملك المنتظر وعن رياح المجد التي هبت لكنه لم يخبرهم عن شيء من هذا فلماذا ؟ ! .

هل سيتخلّى عنهم ويستغنى عن خدمتهم بعد أن يظفر بعرش أبيه ؟

هل سيكون ذلك جزاؤهم بعد أن تركوا كل شيء من أجله ؟

كيف سيواجه الجيش الروماني ؟

إنه لم يُعدّ لذلك شيئاً . صندوق المال الذي وضعه في يد «يهوذا الإسخريوطى» ليس

فيه ما يكفى لشراء شىء من الأسلحة اللهم إلا قليلا من السيوف فهل سيفتح «أورشاليم»
بسيوفين أو ثلاثة ؟

بل إنه حتى لم يأمر بشراء شىء من الأموال التى جمعناها من تبرعات وصدقات
الأثرياء الطيبين إلا الطعام فقط فكيف سيحارب وهل سيأمرنا بالقتال. نحن لم نقاتل أبدا
من قبل ولم يطلب منا أن نتدرب على القتال. أم تراه سينزل ملائكة من السماء ليقاتلوا
معه نستمعه يتحدث مع من لا نراه فهل أتفق مع الملائكة أن ينزلوا من السماء فى اللحظة
المناسبة ليفاجئوا الجيش الرومانى ويأخذوه على حين غرة ؟!

ولكنه أيضا لم يخبرنا عن شىء من ذلك حتى يطمئن قلوبنا على الأقل. فلماذا يتركنا
فى كل هذا الفزع ويجلس هادئا يعلم القادمين إليه أو يصلى غير عابىء بنا وقد وضع
مصيرنا فى مهب الريح ؟ .

جاءه رجل يشكو من سوء خلق أمراته وأنها تسيء إليه وطلب مشورته هل يطلقها ؟.
فأمره «المسيح» أن يمسكها وحذره من مغبة طلاقها . وحينئذ إندفع واحد من الفريسيين
الذين جاءوا إليه يريدون أن يصطادوه بخطأ لعلمهم يستطيعون أن يردوا إليه بعض
الإهانات التى أفرط كثيرا فى صبها عليهم قال وقد أحسوا أن الفرصة قد جاءت أخيرا
للنيل من هذا «المتغطرس» الذى لا يحترم أحدا . «أولا يحل للرجل أن يطلق
أمراته ؟» (٣٣٩).

قال «المسيح» «أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى. ذكرا واحداً
وأنثى واحد. وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه يلتصق بأمراته ويكون
الإثنان واحداً» .

«إذن فقد صار الإثنان بكلمة الله واحداً. لقد جمع الله الإثنين وجعلهما واحداً فكيف
يمكن للإنسان المخلوق أن يفرق ما جمعه الله الخالق» .

فاعترض الفريسي الحانق قائلا «فلماذا إذن أمر «موسى» بالطلاق وأوصى أن تُعطى المطلقة كتاب طلاق؟»

فصدمه «المسيح» بقوله : من أجل غلاظة قلوبكم أننَ لكم أن تطلقوا نسائكم ولكن فى البدء لم يكن الأمر هكذا ...،

فصمت الفريسي ولم يجد ما يقوله إنه لم ينقض شريعة «موسى» أو يخطئها بل أقر بها ولكنه بيّن أن الطلاق إنما شرع ليمارسه غلاظ القلوب الذين لم يرتفعوا ليدركوا سر الزواج ويتذوقوا مودة الله ورحمته التى تفيض عند جماع الذكر والأنثى الذى جعله الله طريقا لمعرفة التوحيد وصولا إلى مطالعة الوحدة المترفعة وراء أحجية الكثرة الظاهرة. أفحتى فى هذه المسألة وعند هذه اللحظة التى بدت مواتية استطاع أن يصفعهم مرة أخرى دون أن يقدرُوا على رده وانصرفوا ساخطين. عندما أنفرد التلاميذ «بمعلمهم» فى الليل سألوه عن هذه المسألة أيضا إذ استعصى عليهم أن يفهموا سر بغضة للطلاق فأخذ يشرح لهم كيف أنه من قسوة القلب أن يهجر الرجل المرأة التى أختارها الله له والتى أعطته نفسها وكشفت له راضية عن عورتها وتخلت معه عن حياتها متنازلة عن كبريائها وهى تفصح عن رغبتها فى الإتصال وأخذت منه ميثاقا غليظا أن يكون لها وتكون له وفى لحظة الوصال يصير الإثنين كما قال الله واحداً وتحمل له أبناءه الذين هم مخلوقات الله فى بطنها فيتغذون من جسدها ثم يرضعون من ثديها فكيف يجرؤ بعد كل هذا على أن يطلقها وكيف يجرؤ على أن يحرم أمّاً من أطفالها ثم قال لهم «فليرضى كل رجل بالمرأة التى اختارها الله له وليصبر على عيوبها فإن ذلك له أفضل .»

فقال التلاميذ وقد تعسر عليهم فهم كلامه وقبوله «إن كان شأن المرأة مع الرجل كما تقول فالأفضل ألا يتزوج الرجل حتى لا يائتم»

فقال «المسيح» «ليس جميع الناس يستطيعون أن يتحملوا هذا الا الذين أُعطى لهم

فكما أنه يوجد خصيان ولدوا على هذا النحو من بطون أمهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس فإنه أيضا يوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل الملكوت ومن استطاع فليفعل ولكن إذا كنتم قد سمعتم أنه قيل لا تزن فأننا أقول لكم إن من نظر الى امرأة لا تحل له بشهوة فقد زنى بها فى قلبه .»

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل (٣٤٠) .

أقترب العيد ولم يفصح لهم «المعلم» عن شىء وزاد من فزعهم كثرة «الغرباء» الذين كانوا يندسون وسط الجموع التى أقبلت على «المسيح» تنتظر تحركه نحو «أورشاليم» .

كان هؤلاء «الغرباء» يكثر من الأسئلة ويمعنون النظر فى كل شىء ويتدقيق شديد وتردد التلاميذ على «أورشاليم» يتتبعون الأخبار ويحاولون قراءة المستقبل المفعم بالغموض. ولم يتغير فى «المعلم» شىء فهو على حاله يطيل الصلاة والسهر وبالليل يناجى ربه ويتكلم مع من لا يرى وفى الصباح يستقبل الذين يأتون إليه لأسباب شتى ولم يعد فى إمكانهم أن يصبروا أكثر من هذا على صمته المريب فاندفعوا يقولون : يا سيد من المؤكد أن الفريسيين قد اتفقوا مع الكهنة ولا بد أنهم سيصنعون شيئا فماذا سنفعل ؟ .

قال «المسيح» فى هدوء (٣٤١) : «الحق أقول لكم إن الرؤساء وشيوخ شعبنا من الكهنة والفريسيين يتربصون بى يريدون قتلى ولقد اقتربت لحظة مغادرتى الدنيا لأعود إلى السماء!؟» .

استولى الفزع على الجميع إذن فلن يكون هناك مجد مُسترد ولا عرش مُنتزع بل لن يكون هناك قتال بل قتل. قد جئنا إلى هنا وتحرشنا بالجميع لكى نذبح فى النهاية ذبح الاغنام ربما لنصير مثل «يحيى بن زكريا» الذى لا يوجد له مثل فى بنى إسرائيل .

آه من جنون الإنسان وما أشد حماقتنا أن إنسقتا وراء هذه الأوهام. ماذا سنفعل الآن ما هو مصير رعاياك يا ملك اليهود المزعوم!؟ .

وصرخ «بطرس» وهو يدفع معلمه «قائلا هيا فلنهرب الآن لن نذهب إلى «أورشاليم»، كان كالطفل المذعور الذى استولى عليه الخوف يريد أن يجذب أباه بعيدا عن الوحش المسعور الذى يراه فدفعه «المسيح» بعيداً عنه وقد أحمر وجهه من الغضب وعلا صوته «إذهب بعيدا عنى يا شيطان، إنك عثرة لى، أتخشى الناس ولا تخشى الله الذى خلقك وخلق جميع الناس إنك لغبى ولا تدرى ماذا يقول لسانك !؟»

«ألا تعلم أنه يجب على أن أحتمل الإضطهاد كما أحتمله كل الانبياء والصديقين ولن أقول لك ما قاله «داود» «إذا كان الله معنا فمن يكون علينا ولكننى أقول لك لا تكن جبانا إلى هذا الحد فإنه على الأقل يوجد قوم معنا كما يوجد قوم علينا .»

وأنصرف «المسيح» غاضبا وواصل صعوده على الجبل حتى أختفى عن أعينهم .
«قوم معنا وقوم علينا» إذن هى الحرب بم سناحارب ولم يجهز أسلحة لم يطلب إلا سوطاً جدلناه له من الحبال أقبهذا السوط سيهجم على جنود روما المدججين بالسلاح .!؟
وجلس التلاميذ يفكرون فى الهاوية السحيقة التى دُفِعُوا إلى حافتها يوشكون أن يسقطوا فيها .

ربما فر من هنا وتركنا وحدنا فى هذا الجبل كما فعلها من قبل فيأتى جنود «بيلاطس» وخدم الهيكل ليأخذونا الى السجن ثم إلى الصليب أو السيف لنصبح أعظم رجال بنى اسرائيل، ياله من مجد عظيم جاعاً على غير انتظار !!.

وأوشك النهار أن ينصرم فاندفع «بطرس» و«يعقوب» و«يحيى» أبنا زبدى» و«برنابا» ليروا أين ذهب «المسيح»، كان الفرع يملأ قلوبهم أن يكون قد فروتركهم كما فعلها من قبل عند «قيصرية» «فيليبس» حيث هرب إلى دمشق، كلاً إن هذه المرة جد مختلفة فإن الكهنة والشيوخ يشحنون السكاكين، يجب أن نعثر عليه وأخذ الأربعة يقتفون أثره يريدون الحصول عليه صاعدين على الجبل وعلى حين فجأة وجدوه قائما يصلى على قمة الجبل

وهيئته تتغير (٣٤٢) إذ أبيض وجهه وتلاأ كائنه الشمس وأبيضت ثيابه كأنها قد صنعت من الثلج وجاء الغمام فغشيهم ولحت أعينهم الشاخصة كأن رجلين قد أتيا فى الغمام ثم غاب كل شىء ولم ينتبهوا إلا على يد «المسيح» وهى تقيمهم لأنهم سقطوا فأخذوا يفركون عيونهم كأنهم يستيقظون من «رؤيا». وبعد أن أفاقوا ... قالوا «للمسيح» «من الرجلان اللذان ظهرا كالشمس وسط الغمام ؟»

قال «هما أحمد (إيليا) وموسى قد أتيا يتكلمان معى عما سيحدث عندما أعود إلى الأرض بعد أن أرتفع من هنا» ولم تزدهم أجابته إلا تعجباً. «إيليا» الذى لم يولد بعد و «موسى» الذى مات منذ أكثر من ألف عام جاء معاً ليتحدثا إليه على هذا الجبل وما معنى أن يعود إلى الأرض بعد أن يصعد كما يقول من هنا ؟ .

أيتحدث عن البعث من القبور وقيامه الأموات ؟!

فإن كان هذا صحيحاً فمتى سيأتى «إيليا» الذى يقول عنه «أحمد» وأصابهم النوار فسألوا «يا معلم فلماذا يقول الكتبة إن «إيليا» يجب أن يأتى أولاً ، قبل قيامة الأموات؟ (٣٤٤). قال «المسيح»: «حقاً إنه سيأتى قبل قيامة الأموات، يجب أن يأتى أولاً ليبين كل شىء ثم أنزل أنا ثم تنتهى الدنيا لنقوم مع الأموات .»

ما كل هذه الحيرة وما معنى هذا الاضطراب، عمن يتحدث هذا الرجل، أه من هذا الكلام الذى لانستطيع أن نفهمه لكن رؤيته وهو يتحول إلى البياض ومجىء الغمام والرجلين المشرقين كالشمس فى وسطه كانا أكبر من أن يجحدا فوق فى قلوبهم أنه صادق وأن كلامه صحيح وإن لم يفهموا بوضوح ما يعنيه، كانت هذه هى أول آية تحدث لهم ويكونون شهداء عليها على نحو يخالف شهودهم للمعجزات الأخرى ،لقد شاركوا فى هذه «المعجزة» فقد رأوه وهو يتلاأ وغشيهم الغمام وسقطوا مغشياً عليهم بعد أن عجزت عيونهم عن أن تواصل الرؤية وثقلت أذانهم عن الاستماع لكنهم تأكدوا أن ثمة شىء حقيقى

قد وقع وأن هذا «الشيء» قد مسهم وشعر هؤلاء الشهود بالفخر فقال: «بطرس»: «جميل يا «معلم» أن كنا هنا فإن شئت صنعنا على هذا الجبل ثلاث «مظال» لك ولموسى وإيليا». كانوا يريدون تخليد هذه اللحظة لكن «المسيح» واصل صمته وهم ينزلون إلى بقية التلاميذ الذين كانوا ينتظرون في حيرة وقد هبط الليل فلما أحسوا أن «المعلم» قد جاء وأنه لم يهرب ويتركهم زایلهم بعض خوفهم وبات الجميع ليلتهم وهم يتقلبون يفكرون «ثرى ماذا سيحدث في الغد ؟ ...»

في الصباح وقف «المسيح» خطيباً أمام الجمع الذي زحف إليه وكان قد عزم على السير إلى «أورشليم» فقال :

«من أراد أن يتبعني فليترك نفسه ويحمل صليبه أولاً فليتركني، فإن من يرد أن ينجو بنفسه يهلكها ومن يبذل نفسه في سبيل الله ينقذها، ماذا ينفع الإنسان لو ربح الدنيا كلها وخسر نفسه، إنه لا يستطيع حينئذ أن يستردها لأن الله لا يقبل فداءً عن نفس الإنسان .

«فماذا ستعطى يا أيها الإنسان فداء عن نفسك وأنت لا تملك حينئذ شيئاً ؟ ..»

«الحق أقول لكم أنه من آمن بى في هذا الجيل الفاسق فإنه سيحصل على الحياة الأبدية عند ما يأتى ابن الانسان مع الملائكة يوم يحاسب الله كل انسان على عمله .»

«الحق أقول لكم أنه يوجد قوم لا يزوقون الموت بعد أن يقتلوا من قبضة الأرض حتى يروا ابن الانسان عائدًا، أولئك هم الذين نالوا حقاً نعمة الله (٢٤٤) إنهم يصعدون بعد أن يخلعوا أجسادهم بالموت ويتكئون مع الأنبياء والرسل ويشهدون «ملكوت الله» عندما يأتى.»

وتوجهت الحماسة في قلوب المستمعين وزحفوا خلف «المسيح» إلى «أورشليم» ولكن التلاميذ كانوا يتلفتون من الحيرة والخوف، لا يعرفون ماذا يُراد بهم، كان الجمهور الصاخب الذى أنضم الى المسيرة يتوهم أن «المسيح» سيعلن نفسه «ملكاً» لليهود فى الهيكل وأن المجد العتيق قد صار على بعد خطوات قليلة فأخذ يعلو صوتهم «مجدنا فى

الأعلى مباركة مملكة «داود» ومباركة مملكة أبنه. استعدى يا «أورشاليم» قد جاءك الملك. ها هو ملكك يابنت صهيون قد أتك منكصورا (٣٤٥) .

وأنضم إلى المسيرة الصاخبة كل الذين كانوا يقصدون «أورشاليم» حتى أن كثيرا من الفريسيين وإن أكل قلوبهم الحقد على هذا «الملك» إنضموا أيضا للمسيرة الصاخبة حتى لا تفوتهم الفرصة .

وبلغ «الحماس» ببعضهم أن فرشوا ثيابهم على الأرض حتى يسير عليها «المسيح» وذهب آخرون وأحضروا أغصانا من الشجر وكانت الأصوات تتعالى حتى خيل للجميع أن «أورشاليم» تهتز وأخذ الناس يقولون «هذا هو النبي القادم من الناصرة» .

وأندفعوا يتزاحمون ليعرفوا ماذا سيفعل في «أورشاليم» وأسرع كثير من الفريسيين ليكونوا في الصف الأول بالقرب من «المسيح» رغم النار التي تشتعل حسدا في قلوبهم من هذا الرجل الذي لم يترك فرصة واحدة إلا وأهانهم يحاولون أن يكونوا في الواجهة حتى تقع عليهم عيناه ولكنهم لم يتمالكوا أنفسهم لما تعالت صيحات الناس مرحبة «بالمسيح» وهو يدخل «أورشاليم» فقالوا له «يا معلم» قل لإتباعك أن يكفوا عن هذا الصراخ «الزعج» فنظر إليهم «المسيح» بإذراء وقال لهم : «لو سكت هؤلاء فإن هذه الحجارة ستصرخ» .

وأسرعت «العيون» تبلغ رجال الهيكل بالمسيرة التي تقترب وأسقط في يد الكهنة والشيوخ ولم يعرفوا ماذا يصنعون. إن الرجل قد أتى في جمع من الناس لا يحمل سيفاً ولا درعا فلا يستطيعون أن يتهموه بأنه أتى ليستولى على الهيكل بالقوة وليس مع أحد من رجاله أى سلاح وفوق كل ذلك فإنهم لا يعرفون ماذا يريد بالضبط؟ لماذا جاء إلى «أورشاليم» في هذا العيد؟ ماذا ينوى أن يفعل؟ هذا ما عجزوا تماما عن الوصول إليه أو حتى تخمينه وهم لا يستطيعون أن يرسلوا إليه من يقتله وهو في هذا الحشد من أتباعه الذين يتفجرون بالحماس. لم يكن أمامهم إلا الانتظار والترقب .

على باب «أورشاليم» وقف «المسيح» فجأة فاضطرب الجمع المندفع ثم توقف وأشار «المسيح» لمن حوله أن يجلسوا وأن يصمتوا ففعلوا ثم أخذ الجميع يجلسون وهم يتحIRON حتى إذا خيم الصمت على الجالسين وهم يتطلعون إلى «مشرق الوجه» بعيون شاخصة .

قال : (٣٤٦) «إنسان شريف الأصل أصابه السأم لأن أهل قريته لم يقدره حق قدره فأراد أن يسافر إلى مدينة بعيدة فيها ملك البلاد كلها ليأخذ منه شارة الإمارة ثم يرجع إلى قريته لعلهم يقبلونه «ملكاً» عليهم بعد أن يروا «العلامة» التي وهبها له الملك .

«ولكنه لم يشأ أن يترك أهل قريته الذين أحبهم رغم أنهم لم يحبوه دون أن يترك لهم شيئاً فأختار من بين خدمه عشرة عبيد من أهل القرية وقال لهم سأعطى كل واحد منكم قطعة نقود واحدة لتتاجروا فيها حتى أرجع من غيابى الذى سيطول كثيراً فتا جروا بنقودي حتى أعود إليكم» .

«أما أهل قريته فقد كانوا يبغضونه حتى أنهم أرسلوا وراءه رسلاً إلى الملك يقولون له لا نريد أن يرجع هذا إلينا ليكون ملكا علينا فلا تعطه شيئاً . لكن الملك رفض طلبهم لأنه يعلم أنهم أشرار فأعطى الإنسان الشريف «العلامة» وعاد إليهم رغماً عنهم ملكاً عليهم» .

«أول شيء فعله بعد أن عاد هو أنه استدعى عبيده العشرة الذين أعطاهم نقوده قبل أن يسافر ليعرف ماذا فعلوا بفرضته أثناء غيابه» .

«فجاء الأول وقال يا سيد قد تاجرت وهى قطعة نقودك قد ربحت عشرة فقال «الملك» نعماً أيها العبد الصالح . لأنك كنت أميناً فى القليل الذى أخذته فسوف أعطيك الكثير فأذهب وليكن لك سلطان على عشر مدن» .

«ثم جاء الثانى فقال يا سيد قد تاجرت كما أمرتنى وهى قطعة نقودك قد ربحت خمسة فأعطاه سلطاناً على خمس مدن وظل يستدعى عبيده ويسألهم ويكافئهم على قدر أمانتهم فيما تركه لهم حتى جاء الأخير فقال يا سيدى هاهى قطعة نقودك قد وضعتها فى

منديل ودفنتها فى التراب حتى تعود فأردها إليك لأننى كنت أخاف منك لأنك إنسان صارم وقاس فكيف تريد أن تأخذ منى ما تعبْتُ أنا فيه أتريد أن تحصد مالم تزرع إن هذا لظلم!!

فقال الملك «من فمك أدينك أيها العبد الشرير .

كيف عرفت أننى قاس أريد أن آخذ مالم أتعب فيه وأحصد ما لم أزرع ١٩.

لو كان الأمر كما تقول فلماذا قبلت قطعة النقود منى ؟

ولماذا احتفظت بها وأخفيها . كان جدير بك أن تضعها على موائد الصيافة وتتركها فكنت استردها مع ما ربحت عندما أعود .

ثم قال الملك لجنوده خذوا قطعة النقود منه وأعطوها لمن ربح عشر قطع .

فتعجب الجنود كيف يعطى من عنده أكثر ١٩.

فقال لهم الملك إن من عنده أكثر يأخذ ومن ليس عنده فالذى معه يؤخذ منه وي طرح مع أعدائى . أولئك الذين لم يحبوا أن أصبح ملكا عليهم .

أيها الجنود أنتونى بهم وأذبوهم أمام عيني .»

لم يكن محتاجا بعد هذا المثل البليغ إلى أن يقول أنه قد أوشك أن يرحل من الأرض وأنه لم يأت إلى «أورشاليم» قاصدا أن ينصب نفسه ملكاً فإن وقت ملكه لم يأت بعد فلا بد أن يرتفع إلى السماء صاعداً إلى ربه الذى سوف يعطيه الملك ثم يعود إلى الأرض ليكون ملكاً يحكم بإسم الله وأن قومه لم يؤمنوا به بل مقتوه إلى حد أنهم لا يحبون عودته وأنه لن يترك لهم إلا «التعليم» الذى علمه الله له ولن يعطيه إلا لبعض خلائه الذين اختارهم من قومه المبغضين له وأنه عندما يرجع من سفره الطويل سوف يحاسب الذين أنتمنهم على «تعليمه» فيكافئ الذين كانوا أمناء فى حفظ رسالته ونشرها صحيحة بين الناس وهذا هو معنى التجارة فى المثل وسوف يعاقب الذين خانوا رسالته فيكون مصيرهم مثل

مصير أعدائه الذين كرهوه وأعلنوا الحرب عليه. فكلا الفريقين سيكون مصيره الهلاك. لم يكن محتاجا إلى أن يقول شيئا لأن المثل كان واضحا حتى للذين لم يفهموه على نحو دقيق. نبرة الحزن فى صوته والدموع التى فاضت من عينيه وهو يلتفت إلى «أورشاليم» لم تكن تحتاج إلى شرح أو تفسير.

لقد أراد أن ينبه الشعب السادر فى غيه إلى أنه لم يأت إليهم لينصب نفسه ملكا وأن «الملوك» الذى جاء الى بنى اسرائيل ليبشرهم به ليس هو أن يصبح ملكا عليهم ليرد إليهم المجد الذى ضاع منهم وإنما هو النبوة الكاملة التى ستظهر للدينا فى صورة «النبي» الذى يختم الأنبياء «النبي» الذى سيرسله الله إلى الناس جميعا. إلى كل الشعوب والقبائل ليدعوهم الى الدخول فى رحمة الله هذا هو «الملوك» الذى جاء الى «أورشاليم» ليبشر به ويدعوهم للإيمان به واعداء أيهم بأن من يؤمن بنى بدعوة نبي آخر فأجر نبي يأخذ. جاء الى الدنيا ليقول لهم أن «روح القدس» الذى خلق الله منه كل شيء قد أوشك أن يأتى وأن مجيئه هو نفسه من العذراء التى لم تكن تعرف الرجال دليل على أن «روح القدس» يسعى للظهور لكنهم لم يكونوا يريدون «النبوة الكاملة» بل يريدون الدنيا يتحرقون شوقا لعودة المجد الديوى الذى أسرع بالضياح من بين أيديهم. لقد ضاع المجد لأن الذين يستحقون المجد قد ماتوا لكن القوم كانوا يصرون على أنهم يستحقون المجد مهما كانت خطاياهم. فأنى يجدون رحمة الله؟

لقد سكبت خطبته ماء باردا على حماسهم المشتعل ثم جاءت دموعه وهو يتجه حزينا الى «أورشاليم» مقتربا من الهيكل لتطفئ البقية الباقية من حماسهم .

زالت حماسهم وخمدت الأصوات وتباطأت الخطوات وأضطربت القلوب وسَمِعَهُ الذين فى جواره وهو يقول باكيا كبائه يرثى المدينة التى كانت تتربص به «آه لو علمت ما هو لسلامك. آه لو تعرفين من الذى تحملين الآن فى يومك هذا لكنه قد أخفى عن عينيك

ستأتى الأيام التى يحيط فيها بك أعداؤك يحاصرونك من كل جانب، سيهدسونك ويشتتون أبنائك ولا يتركون فيك حجرا على حجر لأنك بقسوة قلبك لم تعرفى زمان افتقارك (٣٤٧). وفر الفريسيون من جانبه وذابوا وتراجعت الجموع عن السير حتى التلاميذ تباطأوا عنه وهو يتقدم نحو الهيكل، إنه فى الحقيقة كان يسير وحده !! .

دخل الهيكل بمفرده حتى تلاميذه وقفوا على مبعده منه وأنهال ضربا بالسوط على التجار الواقفين فى الهيكل مع أبقارهم وأغنا مهم ففروا من أمامه وقد أمتلات قلوبهم بالرعب منه وهم يجذبون أنعامهم ثم التفت إلى باعة الحمام فأنتهرهم وأمرهم أن يأخذوا بضاعتهم إلى خارج الهيكل ثم قلب موائد الصيارفة وكب الدراهم على الأرض وصرخ فيهم :

«بيت الله قد جعل للصلاة وأنتم قد حولتموه إلى مغارة لصوص» (٣٤٩) وهوى الصيارفة على الأرض يحاولون جمع قطع النقود التى تبعثرت على الأرض مع الصكوك التى سجلت عليها الديون ثم أسرعوا يهربون الى الخارج وهم ينظرون للكهنة والشيوخ الذين كانوا واقفين مذهولين قد أجمتهم المفاجأة «كيف تسمحون لهذا الرجل بفعل هذا»، كانت عليه مهابة لا يستطيع وصفها ويتصرف بسلطان من يعرف أنه لا يمكن مقاومته أو اعتراضه، فرض مشيئته على الجميع واندفعت الجموع الى داخل الهيكل لترى ما يحدث اذ أثار فضولهم خروج الباعة مع أنعامهم والصيارفة وهم يمسون بنقودهم وصكوكهم، يفرون هاربين كأن زلزالا قد حدث داخل الهيكل فأطبقت الدهشة على الجميع وهم يرون «المسيح» يضرب بالسوط وينتهر الجميع ولا أحد يملك أن يقاومه حتى الكهنة والشيوخ وقفوا وقد سلبت أراذتهم لا يستطيعون قولاً أو فعلاً .

ثم أفاق الكهنة والشيوخ من «قهرهم» وتقدم إليه كبير الكهنة وقد انتبه إلى أن مهابة رجال الهيكل فى عيون «الرعا» قد أتهزت بعنف.

كان يحاول أن يتمالك نفسه يستجمع أشلاء شجاعته التى تبعثرت على الأرض وهو يتقدم نحو السيد «المسيح» الذى وقف شامخاً كأنه الجبل .

وحاول رئيس الكهنة أن يعطى صوته المهابة التى تليق بكبير الكهنة ولكن دون فائدة فخرج صوته مرتعشاً يقطر بالمذلة قال : «من أعطاك سلطاناً لتصنع ما صنعت ؟!» .

قال «المسيح»: «الله الذى أيدنى «روح القدس» وبه أصنع ما رأيت .»

قال كبير الكهنة: «وما هو «روح القدس» هذا ؟!» .

قال «المسيح»: «القوة التى خلق الله بها كل شىء، النور الذى أعطى كل نبي نبوته وكل مؤمن إيمانه «روح الله» الذى وهب كل شىء حياته .

قال الكاهن «أوتَجَرُّ يا هذا على الزعم بأن قوة الله معك .»

قال «المسيح» «نعم، الحق أقول لكم إننى لا أحمل قوة الله بل إن قوة الله هى التى تحملى فإن «روح القدس» الذى وهبى حياتى هو الذى وهبكم حياتكم أيضاً ولكنكم لا تعلمون .

قال الكاهن «ومادليلك على ما تقول ؟!» .

أرنا آية تبرهن بها على صدق ما تدعيه !!» .

قال «المسيح» «أنسى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن «الله» (٣٤٩)

وأنفخ «المسيح» يخرج من الهيكل وأنفخ الجميع وراءه يريدون أن يتحققوا من صدق ما قاله .

إنحنى إلى الأرض فاقتطع قطعة من الطين ثم سكب عليها بعض لعابه وأخذ يشكلها

فى صورة طائر بأصابعه كأنه صانع تماثيل ثم قرب الطائر الطينى من فمه فنفخ فيه فإذا بالطين يتحول إلى طائر بديع يطير بجناحيه، إنطلق طائر «المسيح» وطفق يحرك جناحيه كأنما يؤكد للجميع أنه طائر حقيقى وأن «مسيح» الله صادق ثم أخذ يُحَوِّم فوقهم والعيون شاخصة إليه قد أسرها سلطان «الروح» الذى وهب الطين حياة طائر خرجت من فم «المسيح»، كانت آية الله أكبر من أن تجحد فبُهِتَ الكهنة والشيوخ وأنبهرت الجموع التى شهدت «المعجزة» واستعاد التلاميذ والأتباع شجاعتهم فاندفعوا يتسابقون نحو «المسيح» الذى أمر بالأُ يجتاز أحد مهما كان «حرم الهيكل» وهو يحمل متاعاً، وأسرع يدخل متجهاً نحو دكة الوعظ ليلقى على الشعب كلمة الله .

قال (٣٥٠) إنسان رب بيت خرج من بيته وأعد حقلاً أحاطه بسياج حتى لا تدوسه الأنعام وبنى فيه برجاً ثم سلمه إلى فعلة اتفق معهم على أن يزرعوا الحقل ويأكلوا منه نظير أن يؤدوا إليه نصيباً من الثمار يرسل بعض عبيده ليتسلموها منهم ثم سافر عائداً إلى بيته .

«فلما جاء وقت الثمار أرسل عبيده إلى فعلته يطلبون نصيبه لكن الفعلة ضربوا العبيد وجلدوهم وصرفوهم من الحقل خالين .»

«وصبر رب البيت لعل الفعلة يرجعون عن خطيئتهم وجاء وقت الثمار فى العام التالى فأرسل عبيده لكن الفعلة أهانتهم فرجموا بعضهم وقتلوا بعضهم وأرسلوا الباقيين خالين وصبر رب البيت لعلهم يرجعون .»

«أخذ يرسل عبيده فى مواسم الحصاد لكن الفعلة لم يعطوه نصيبه المتفق عليه معهم وأخيراً قال رب البيت أرسل إليهم ابنى لعلهم عندما يرونه يهابوننى فيرجعون عن خطيئتهم ويعطون النصيب المتفق عليه لكن الفعلة لما رأوا الإبن قالوا فى أنفسهم لقد أرسله ليأخذ الحقل منا فهذا هو الوارث الذى يستغنى به رب البيت نحنا هلموا نقتله لنصبح نحن ملاك

هذا الحقل فأمسكوا بالإبن ودفعوه الى خارج الحقل يريدون قتله وعلم رب البيت بما يريدون فعله فأرسل جنوده، قولوا لى متى جاء رب البيت ماذا يفعل مع هؤلاء الفعلة ؟ .
قال أحد الحاضرين : «إنه يقتلهم شر قتلة ويسلم الحقل لفعلة آخرين يعطونه الثمار فى أوقاتها .»

قال «المسيح» «أما قرأتم قط فى الكتب الحجر الذى تركه البنائون قد صار رأس الزاوية ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط عليه الحجر يسحقه. من عند الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . الحق أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تؤدى أثماره ويل لكم لأنكم كفرتم بالأنبياء وقتلتموهم (٣٥١)

واشتعلت قلوب الكهنة والشييوخ بالحقد عليه لأنهم عرفوا أنه يقصدهم بهذا المثل ويخبر أن الله ينزع النبوة من بنى إسرائيل ولكن ماذا يفعلون له والجموع التى شهدت تحقق صدقة قد أندفعت نحوه تريد أن تلمسه أو تقبل يده بينما كان يشق طريقه إلى خارج الهيكل. وخرج إلى المدينة فتقدم إليه المرضى من كل نوع يسألونه أن يصلى من أجلهم ثم شق طريقه إلى جبل الزيتون يتبعه التلاميذ وجم غفير من الذين شهدوه فى الهيكل .

كانت سيطرة «الساحر» القدير على الجمهور أكبر من أن يستطيعوا مقاومتها كما أن دخولهم فى مواجهة صريحة معه أمام الناس سوف يفقدهم ما بقى لهم من احترام فى أعين الناس لأن «الساحر» القدير لن يتورع عن إهانتهم وقد أيقنوا أنهم لن يستطيعوا مجاراته ولذلك اتفق كبار الكهنة والشييوخ على ألا يتركوه ينفرد بالشعب المنبهر «بمعجزاته» عليهم أن يشغلوه على الدوام بالأسئلة الجريحة التى تؤدى به إلى إغضاب السلطة الرومانية. هذا هو أفضل طريق للإطاحة به دون أن يتحملوا أمام الشعب إثم دمه المسفوك تماماً كما صنعوا فى «يحيى بن زكريا» الذى يظن الشعب أن «هيرودوس» وحده

هو الذى قتله ومن ثم فهو يصب جام غضبه ولعناته على رئيس الجليل «الفاسق» الذى ذبح الرجل الصالح ويخرجون هم من حمأة الأثم دون أن تتلطح سمعتهم عند الناس، وإن لم يحققوا نجاحهم بهذه الطريقة السهلة فعليهم أن يلجأوا الى إثارة الخلافات وتهيج الفتنة فى الشعب فيمكن إتهامه أمام السلطات بأنه مثير للقلق وعلى السلطة أن تتخذ الإجراءات التى تضمن استقرار الأمور أو على الأقل فإن تلك الأسئلة الكثيرة الصعبة قد تظهر بعض نقاط ضعفه فتقلل من تأثيره على الشعب .

وبدأ تنفيذ المكيدة، اقترب «المعلم» مع تلاميذه ومن صحبوه يريد دخول الهيكل وأندفع المرضى من كل جانب يريدون أن يجعلوه يلمسهم أو يمسح عليهم أو حتى ينظر إليهم لعلمهم يجدون شفاء لأمراضهم .

ودخل الهيكل جمع كبير من النساء وهن يحملن أطفالهن وتعالى بكاء الأطفال وصراخهم واختلط بأصوات الصياح التى كان يطلقها أطفال آخرون يقولون «المجد لابن داود» يحاكون الأصوات التى هزت «أورشليم» بالأمس .

واستشاط الكهنة والفريسيون غضباً مدعين المحافظة على وقار الهيكل وهم الذين كانوا حتى الأمس فقط يسمحون للأبقار والأغنام أن تدنس الهيكل بمخلفاتها ويأذنون للتجار والسيارة بممارسة نشاطهم داخل الحرم :..... صاحوا فى غيرة زائفة على الهيكل قائلين له «أسمع هؤلاء» وأشاروا إلى الأطفال ،

فقال فى هدوء «نعم أما قرأتكم قط فى الكتب من أفواه الأطفال والرضع هيأتُ تسبيحا» (٣٥٢) ثم تركهم وأنصرف فقابله جماعة من الفريسيين وقالوا فى تأدب كاذب يتصنعون أنهم قد جاعوا يطلبون معرفة الحق «يا معلم نعلم أنك صادق وأنتك تنطق بالحق وتعلم الناس بالحق شريعة الله وأنتك لا تنظر إلى وجوه الناس ولا تبالي بأحد لأنك لا تخشى إلا الله وحده فقل لنا بالحق أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا ؟»

نريد أجابة محددة نعطي أم لا نعطي (٣٥٣)١٩.

قد أخذوا يكيلون له الثناء ليدفعوه إلى إجابة عنيفة ليظهر أمام الجمهور فى صورة القائد البطل الذى لا يخشى قوة «ورما» وجبروتها وبهذا يحصلون على هلاكه بأبسط وسيلة وأخذ هو يمعن النظر إلى وجوههم وقلوبهم الخبيثة ثم قال فى بساطة «يامراؤون لماذا تريدون الفتنة». صدمتهم أجابته ولكنه واصل قائلاً : «أرونى معاملة الجزية» فأسرع كل واحد منهم يخرج بعض قطع النقود من جيبه فتناول «المعلم» ديناراً من أحدهم وعلى أحد وجهيه صورة قيصر وتسأل مدعياً الجهل «لن هذه الصورة ؟! .»

فقالوا : «لقيصر»

قال : «إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

أجمعتهم أجابته فلم يستطيعوا أن يصطادوه، إنه لم يُفْتِ بابإاحة أن يعطى الشعب الجزية إذ لم يصرح بجواز إعطائها لأنه تحدث عن الصورة المرسومة على العملة فإنهم إن أشاعوا أن «المعلم» الذى يدعى العلم بالشرعية يبيع أن يعطى «شعب الله» الجزية لحاكم كافر وقد بنى الفريسيون «مجدهم» عند الشعب بإدعاء أنهم يرفضون خضوع «شعب الله» للحكام الغريباء ذلك الخضوع الذى يتمثل أوضح ما يكون فى دفع الجزية .إن فعلوا ذلك لكانوا هم الذين يحرضون الشعب على الإمتناع عن دفع الجزية لأنهم يوبخون الذى أباحها ومن ثم يظهرون هم فى صورة المتمردين على سلطة «روما» وفى نفس الوقت فإن إجابته الماكرة لم ترفض إعطاء الجزية هكذا وقفوا واجمين لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً .

لقد أراد «المسيح» أن يفضحهم أمام الشعب الذى تجمع لينظر فهاهم الذين يدعون أنهم يرفضون الخضوع للحاكم الغريب ويدعون أنهم يريدون العودة إلى تقاليد الشعب المقدسة هاهم يتعاملون مع السلطة الكافرة كأوثق ما يكون التعاون ويحرص كل واحد منهم على أن يحتفظ بأكبر قدر يمكنه الحصول عليه من عملة السلطة الكافرة وهم يقبلون

دفع الجزية فعلاً ولا يجسرون على المجاهرة برفضها فليس سؤالهم إلا للإيقاع به وهو
 ما لم يستطيعوا الظفر به .

لقد فشلت الطريقة الأولى فلنجرب الثانية .

تقدم إليه جماعة من الصدوقيين الذين لا يؤمنون بقيامة الأموات وحجتهم في ذلك أن
 أسفار موسى الخمسة كما تسلموها لا تذكر البعث من القبور ولا تنبئ عن خلود الروح
 أو قيامة الأموات .

قالوا (٣٥٤) «يا معلم» لقد كتب لنا «موسى» أنه إن مات رجل دون أن ينجب فعلى
 أخيه أن يتزوج امرأته ليقيم منها نسلاً لأخيه وكان عندنا سبعة أشقاء تزوج الأول امرأة ثم
 مات دون أن يكون له أطفال فتزوجها الثانى ومات دون أطفال فتزوجها الثالث وهكذا ظل
 السبعة يتعاقبون عليها دون أن تنجب أطفالاً ثم فى النهاية ماتت المرأة فإن قام الأموات لمن
 تكون تلك المرأة فى القيامة وقد كانت للسبعة فى الدنيا ولم تنجب من أى واحد منهم ؟ » .

قال «المسيح» «إنكم تضلون ضلالاً بعيداً إذ تجهلون كلام الله الذى نطق به انبياءه
 وإذا لا تعرفون قدرة «الله» خالقكم القادر على كل شيء .»

إن الناس فى الدنيا يتزوجون ويتناسلون لأنهم يموتون فلا أحد من الخلق لا يموت.
 التكاثر بالزواج هو الطريق التى منحها الله للمخلوقات لكى يقاوموا الموت الذى لا ينجو
 منه أحد من الخلق وبذلك يحفظوا الحياة على الأرض مدة مكث الدنيا .»

«أما فى الآخرة عندما تزول الدنيا فإن الناس سيصبحون مثل الملائكة. فمنذ البعث
 من القبور لن يموت أحد من الذين أُعْطُوا أن يكونوا أهلاً للحياة الأبدية فمن وهبه الله أن
 يكون صالحاً للبقاء فى رحمته لن يذوق الموت أبداً. إذن فلن تكون هناك حاجة إلى التناسل
 والتكاثر على النحو المشهود فى الدنيا لأنه لن يكون هناك موت. وفى الجنة حيث السعة

التي لا حدود لها والوفرة التي لا تنتهي يعطى الله كل واحد من مختاريه الحياة التي يرضى بها ولن يكون هناك غل أو حسد. إنكم تضلون ضلالاً بعيداً إذ تجهلون كلام الله الذى نطق به أنبيأؤه وإذا لا تعرفون قدرة خالقكم القادر على كل شىء. أما من جهة قيامة الأموات التي تنكرونها فقد ثبتت من كلام «موسى» الذى تزعمون أنكم تؤمنون به !!

وأصابهم الفزع «كيف؟» قال «ألم يصف الله نفسه عندما نادى موسى قائلاً أنا إله إبراهيم واسحق ويعقوب فلو كان إبراهيم واسحق ويعقوب يعدمون بالموت ولا يبقى منهم شىء وهم الآن كما نعلم أموات فكيف يصف الله نفسه بأنه إله لهم أيكون إلهاً للأموات؟! أيكون إلهاً للعدم؟! كلا».

«إذن فلا بد أن إبراهيم واسحق ويعقوب أحياء يعبدون الله ولذلك وصف نفسه عندما نادى موسى بأنه إله لهم وإذا كانوا أحياء أفلا يكون بوسعهم أن يعودوا إلى أجسادهم عندما يشاء الله الذى وهبهم الحياة. إنهم الآن أحياء عند ربهم فى السموات مثل الملائكة وسيعودون إلى أجسادهم عندما يبعثهم «روح الله» من القبور».

وبهت الصدوقيون إذ نقض إعتقادهم بنفس النص الذى يدعون أنهم يؤمنون به وأنصرفوا خائبين .

وكان هناك بعض الفريسيين الذين أعجبهم رده على الصدوقيين وأدهشتهم قدرته الفريدة على فهم النص وإستخلاص المعانى منه. لقد جادلوا الصدوقيين كثيراً فى أمر قيامة الأموات ولم يلتفت واحد منهم إلى أن أسفار موسى كما دُوت يمكن أن تبرهن على قيامة الأموات على هذا النحو البديع الذى أظهره «المعلم». كم مرة قرأوا قول الله «أنا إله إبراهيم واسحق ويعقوب» ولم يدركوا أن هذه الكلمات نفسها تثبت قيامة الأموات .

وأندفع إلى «المعلم» واحد من الكتبة الفريسيين الذين طاب لهم إفحام خصومهم الصدوقيين فقال له «حسناً أجب يا «معلم» فهل تسمح بأن نخبرنا أى الوصيا أعظم فى

الناموس (٣٥٥) كان هذا الكاتب الفريسي هو «نيقود يموس» أحد شيوخ الفريسيين الذين يخطبون في الشعب. قال «المسيح» :

«أول الوصايا وأعظم الوصايا هي قول الله إسمع يا إسرائيل الربُّ إلهك واحد يجب أن تحب الرب إلهك من كل قلبك وبكل فكرك وبكل قدرتك هذه هي الوصية الأولى وهي أولى الوصايا بالاتباع .

ثم بعدها الوصية الثانية تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يقوم الناموس كله ومن أجلهما جاء كل الأنبياء .

قال الفريسي الكاتب «حسنا يا «معلم» أجبت. فإن الله واحد ولا إله سواه ومحبته من كل القلب وبكل الفهم وعلى قدر الجهد ومحبة القريب كالنفس أفضل عند الله من جميع المحرقات والذبائح.»

فنظر إليه «المسيح» بإمعان وأحبه وقال له : يا أخى إنك لست بعيداً عن الملكوت» ولكن الفريسيين الآخرين الذين كانوا يشهدون هذا الحوار خافوا أن يظن الناس أن الفريسيين قد آمنوا بنبوة المدعو «عيسى الناصري» فاندفع واحد منهم قائلاً «ومن هو القريب ؟ من هو قريبى ؟ !» .

كان يريد أن يقطع سريان المودة الذى سال بين «المعلم» والكاتب الفريسي «نيقود يموس» الذى أُعجب به يحاول أن يثير الخلاف القديم بين اليهود العبرانيين والسامريين والذى أدى فى النهاية وبعد صراع طويل وحروب مريعة إلى القطيعة الكاملة حيث اعتبر شيوخ اليهود أن «السامريين» قوم مرتدون عن شريعة الله ولا يستحقون أن ينالوا شرف الإنتماء إلى «شعب الله» المختار بينما اعتبر السامريون أن أنبياء «بنى إسرائيل» الذين جاؤا من بعد موسى ليسوا بأنبياء صادقين مرسلين من الله بل هم ملوك ورؤساء للشعب العبرانى وليس أكثر وأن الأسفار المقدسة الجديرة بالاعتبار هي أسفار موسى فقط اما ما

زاد على ذلك فهو تاريخ للشعب اليهودى العبرانى لا يعنيه فى شىء وكان من بين الإتهامات التى قرر الكهنة والشييوخ أن يلصقوها «بالمسيح» إتهامه بأنه رجل سامرى غير معروف الأصل من جهة أبيه فالأرجح أن يكون سامرياً والدليل على ذلك أنه يدخل قرى السامريين ويتعامل معهم ويخالف بذلك أوامر الشييوخ التى يقولون عنها بالسنتهم أنها شريعة الله لذلك سأل الفريسي الغليظ القلب «المعلم» من هو قريبي ؟ ليكون هذا السؤال مقدمة للكلام عن السامريين الذين يستحيل دخولهم تحت إسم «القريب» لأنهم مرتدون عن شريعة موسى ويؤثم «المسيح» بأنه يؤيد السامريين ويندلع الخلاف وتهتز صورة المعلم فى عيون المعجبين به من اليهود وقرأ «المسيح» بإسم الله ما يدور فى قلب الفريسي لذلك أجاب على سؤاله قائلاً : (٣٥٦).

«كان انسان نازلاً من «أورشاليم» إلى «أريحا» فوقع بين لصوص أمسكوا به وجربوه من ثيابه وضربوه حتى أشرف على الهلاك ثم تركوه على الطريق بين الحياة والموت .
وحدث أن كاهنا مر بالطريق عند ذلك الموقع فلما رأى الجريح الذى أوشك على الهلاك لم يأبه به وسار فى طريقه حتى دون أن يلقى عليه التحية ثم مر عليه «حبر» من سبط «لاوى» فالتقى عليه نظرة ثم مضى فى طريقه دون أن يفعل له شيئاً .

ثم مر رجل سامرى فلما رأى الجريح ملقى على الأرض بين الحياة والموت تحزن عليه فنزل من فوق فرسه ثم أخذ الجريح فطهر جراحه ببعض الخمر الذى كان معه ثم دهنها بالزيت وضمدتها ثم حملة ووضعها على فرسه وسار به الى أول نزل قابله فسلمه لصاحب النزل ليعتنى به وفى الصباح لما أراد ان يذهب اعطى صاحب النزل بعض النقود وقال له : «إعتني بهذا الجريح حتى يبرأ ولا تبخل عليه بشىء ومهما أنفقت عليه فإننى عند رجوعى سوف أدفع لك كل شىء أنفقت عليه ..

ثم قال للمصاب «لاتحزن يا أخى. إصبر حتى أعود اليك فإننى سأرجع من سفرى وبسأذهب بك الى بيتى لتعيش معى»

«قل لى أى الثلاثة كان قريبا للرجل الجريح»

فأضطر «الفريسي» أن يقول «الذى صنع معه رحمة»

قال «المسيح» «بالحق أجبت فإن قريبك هو الذى صنع معك رحمة وأقرب أقربائك هو أرحم من رحمك فإذهب يا أيها الفريسي وأصنع كما صنع السامري فإن لك فيه أسوة حسنة»

نزلت كلمات «المسيح» كالخنجر فى قلب الفريسي لأن «الفريسي» يرى أنه من الإهانة التى لا تغتفر أن يشبّهه أحد بسامري فما بالك بالذى يجعل السامري مثلاً وقدوة تحتذى. لم يستطع أن يقول شيئاً فلقد أبطل «المسيح» بالمثل الذى ضربه. الكلام الذى كان ينوى أن يقوله بعد سؤاله.

وقال الفريسي غليظ القلب لنفسه إن الشيطان يركب ظهر هذا «الساحر» الماكر وينبئه بكل شئ !!

وانقضى النهار كله فى جدال أرادوا به اصطلياد «الساحر» القدير وتشويه صورته فى أعين الجمهور الذى احتشد فى الهيكل ولكن لم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً !!

(٢٦)

الأكف

«فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور»

(الحج ٤٦)

جاء «المسيح» من جبل الزيتون يحيط به تلاميذه الإثنا عشر الذين صاروا يلتفون حول «المعلم» الذى أظهر قدرة لانظير لها فى التغلب على خصومه وأعدائه وصنع أشياء لا يستطيع أحد غيره أن يقوم بها . ويجوار التلاميذ كان يتزاحم الناس الذين أتوا من كل مكان يريدون رؤية «النبي» القادم من ناصرة الجليل الذى صنع « المعجزات » .

وأصبح «المسيح» يفرض سلطانه على الهيكل فلم يعد أحد يستطيع أن يتجاوز «الحرم» وهو يحمل متاعا ولم يعد تجار الأنعام أو الصيارفة يجرأون على الإقتراب من «حرم» الهيكل وأصاب الكهنة والشيوخ غم شديد بسبب هذا «الساحر» الغريب الذى يتصرف بسلطان لا حدود له ولكن لم يكن فى أيديهم شئ للقضاء عليه بطريقة مأمونة العواقب.

إن الحل الحاسم هو قتله ولكن كيف السبيل الى ذلك «الخلاص». إنهم لا يستطيعون أن يستأجروا بعض القتلة المحترفين لأن الجميع صاروا يرهبونه ويعتقدون فى قرارة نفوسهم أنه مزود بقدرة خارقة. حتى الكهنة والشيوخ يعترفون بذلك لأنفسهم ولبعضهم البعض ويقولون عن ذلك أن الشيطان الأكبر رئيس الشياطين يركب ظهره ويخبره عن كل شئ يدور فى الخفاء فكيف يمكن محاربة الشيطان الأكبر مع ضمان الفوز عليه أو على الأقل تحقيق الهدف المطلوب بأقل خسائر .

كيف يمكن قتله وهو فى وسط هذه الجموع التى لاتفارقه أينما سار ولايتركونه إلا فى الليل عندما لا يستطيعون أن يقاوموا التعب ويأخذهم النوم فى سلطانه. ويسهر هو فى

جبل الزيتون . لا يمكن الوصول إليه إلا إذا أنفردنا به فى مكان محصور يمكن السيطرة عليه عندما يكون بمفرده أو وسط عدد قليل من أتباعه . أما فى هذه الجموع الصاخبة فمن ذا الذى يستطيع قتله .

ثم ما هو رأى «بيلاطس» الوالى الرومانى . إن الكهنة والشيوخ لا يستطيعون أن يتخذوا قرارا بإعدام المدعو «عيسى الناصرى» لأن السلطة الفعلية فى يد «روما» التى يمثلها «بيلاطس» فى «أورشاليم واليهودية» و«هيرودوس» فى «الجليل» المنطقتان التى يتحرك «عيسى الناصرى» فى نطاقهما .

يجب أن نقنع كلا الرجلين بخطورة هذا «الساحر» والحمد لله لقد نجحنا فى هذا وإن كان «بيلاطس» على وجه الخصوص يحتاج إلى ضغط أكبر لإقناعه بضرورة المشاركة «بحماس» فى القضاء على الفتنة التى يثيرها هذا الرجل المتمرد على كل سلطة ... سلطة «روما» وسلطة الكهنة وسلطة الشيوخ «المتغطرس» العنيد الذى لا يأبه بأحد .

واتفق قادة الشعب؛ كبار الكهنة وشيوخ الفريسيين والوجهاء على ضرورة أن يبذلوا جهدا أكبر فى تأليب كلا من «هيرودوس» فى «الجليل» و«بيلاطس» فى «أورشاليم» ضد المدعو «عيسى» بالضغط المستمر على مقولة أنه يدعو لتنصيب نفسه ملكا لليهود داعيا لتمرّد الشعب اليهودى على كل سلطة أجنبية .

وأعترض «نيقوديموس» على هذا الأسلوب الذى يليق بالقتلة واللصوص لا برجال دين ييثون الحق ويجتهدون فى الوصول الى الحقيقة فهده كبير الكهنة وزملاءه الشيوخ بأنه ربما يكون من أنصاره وسأله «هل أنت من الجليل أيضا» وكانوا يعرفون أن «نيقوديموس» رغم أنه يسكن فى «أورشاليم» إلا أن أصوله تعود إلى منطقة «وادي قدور» على الحدود بين السامرة والجليل فأضطّر الرجل الى كتم رأيه وكظم غيظه من رجال الدين الذين انحدروا ليكونوا قتلة ولصوص كذابين .

وفكروا فى أن يبعثوا إلى «روما» يشكون من القلاقل التى يثيرها هذا «الساحر»

ولكنهم خشوا أن يعد «بيلاطس» هذا العمل منهم تجاوزا لسلطته فيأخذه العناد ويركب رأسه فيعمد إلى الإساءة إليهم ويعطف على «الساحر» الشرير خاصة وقد كانوا يحسون بإحترامه له وتعاطفه معه منذ أن استمع إليه في المحاوراة التي جرت من قبل عندما ظهر «المسيح» على شاطئ الأردن بعد اختفائه وهم يريدون أن يضمّنوا تأييد «بيلاطس». العقبة الأساسية كانت هي الأمر الذي أصدره مجلس الشيوخ الروماني بشأن «عيسى الناصري» «نبي اليهود» والذي يهدد بالقتل كل من يثير شغبا بشأن «عيسى الناصري» وهو الأمر الذي صدر عندما وقعت الفتنة في الشعب اليهودي بسبب الخلاف حول «طبيعة» الرجل القادم من الناصرة المولود من العذراء.

فإن بعض الشيوخ خشي أن تكون محاولة قتله أو حتى الشكوى منه هي نوع من الشغب في شأنه والذي توعدت «روما». من يرتكبه بالقتل خاصة إن لم ينل الأمر تأييد «بيلاطس» الوالي الروماني الذي يحكم باسم «روما». لذلك استقر رأي المجتمعين للبحث عن وسيلة للخلاص من «الساحر» على أن يعملوا ما في وسعهم لضمان تأييد «بيلاطس» لمساعدتهم ولا بأس من دفع النقود على سبيل التشجيع والتلميح إلى تصعيد الأمر إلى «روما» على سبيل التهديد. هذا هو الطريق الوحيد المأمون للقضاء على «الساحر». «سنجد طريقة ما للإيقاع به فلا شيء غير ممكن أمام قدرة الله». وحتى يجدوا الطريقة المثلى فعليهم كل يوم أن يحاولوا.

دخل «المسيح» الهيكل في يوم السبت ثم اعتلى دكة الوعظ وقال: (٣٥٧) «كان لإنسان رب بيت بستان أمام بيته وقد زرع فيه شجرة تين وأوصى البستاني الذي يعمل عنده أن يعتنى بها جيدا حتى تثمر.

وفي السنة الأولى جاء فلم يجد عليها ثمراً فقال لعبده البستاني لماذا لم أجد ثمراً فاعتذر العبد البستاني وقال دعني أعتنى بها عاما آخر لعلها تثمر.

وبعد سنة جاء مرة ثانية فلم يجد ثمراً فقال لعبده استأصل هذه الشجرة الرديئة من

بستانى وألق بها فى الخارج لأنها تثقل على الأرض وتؤذى بقية الأشجار فضلاً عن أنها تخفى واجهة بيتى فتشوه صورته وتحجب رؤيته.

فقال العبد : «ياسيدى دعها فإنها شجرة جميلة» فقال السيد «اسكت فإنك لاتعلم ماتقول. ثم إننى لايهمنى جمالها الذى ترى إن كان بلا ثمرة فقد كان عندى فى صحن دارى شجرتان نخلة وبلسان وكانا أجمل من هذه التينة الخبيثة وقد زرعتهما بنفسى فى بيتى وأحطتهما بسياج ثمينة لكنها لم يحملتا ثمراً بل أوراقا أخذت تتراكم حتى خشيت أن تفسدا البيت فأخرجتهما من بيتى. أفترى أيها الجاهل أن أعفو عن تينة رديئة لم تعط ثمراً مرتين وأنا لم أعف عن الشجرتين الجميلتين اللتين كانتا فى بيتى؟»^{١٩}

إن هذه الشجرة تثقل على الأرض وتؤذى الأشجار الأخرى ولم أعد أحتملها بعد. فانزعها من الأرض.

وتضرع العبد إلى سيده أن يتركها سنة أخرى فقط قائلاً «دعنى أصلح التربة فأزِيل منها الأسمدة الكثيرة وأشذب الأغصان لعلها تثمر هذه المرة الأخيرة.»

فقبال السيد «فأذهب وأصنع كما قلت وإننى منتظر أكون ثمر أم لا ؟ أفهمتم هذا المثل؟»

والتفت «المسيح» إلى الجمع المندهب وقد شخصوا بأبصارهم الى «وجهه المشرق» فقال : «رب البيت وصاحب البستان هو الله وأنا العبد الذى استعمله والتينة الرديئة هى هذا الشعب الذى أغلق قلبه عن كلمة الله. أنتم التينة الخبيثة التى لاتعطى ثمراً بل أوراقا لافائدة فيها والنخل والبلسان هما إبليس والإنسان. فإذا كان الله قد طرد «إبليس» من رحمته لأنه أصر على خطيئته وطرد الانسان من جنته لأنه أكل من الشجرة المحرمة. لقد حوله من مخلوق كامل يتنعم فى جنة الله إلى رجل يكابد الشقاء والموت لأنه عصى الله مرة واحدة فماذا يصنع الله بكم وأتم تصرون على خطاياكم وترفضون رسالته. أفمن طرد

«أدم» من الجنة لأنه عصاه مرة واحدة لايطردكم «كأبليس» من رحمته وأنتم تقتلون أنبياءه ورسله. ألا فلتعلموا أن هذه هي المرة الأخيرة لكم.»

«فأقول لكم جاهدوا أنفسكم وأعرفوا خطاياكم لتتوبوا عنها.»

وأطبق الصمت على الجمهور وأطرقوا ثم بدأوا ينصرفون، وشعر كبار الكهنة والشيوخ بالسعادة لخمود حماسة الشعب وإنصرافهم متبرمين من خطبة «المسيح» كما أخبرتهم «عيونهم» بما حدث في الهيكل لأنهم كانوا قد استقروا على أن يتركوا الهيكل له يتحدث فيه ولايدخلونه إلا بعد أن ينصرف هو منه ليحاولوا محو تأثيره على الناس «وإصلاح ما أفسده». كانوا يتركون في الهيكل الخدم وبعض صغار الكهنة يستعملونهم كجواسيس تخبرهم بما يحدث أولاً بأول، ثم بدأت المحاولات الجديدة.

تقدم بعض الجنود الرومانيين الى «المسيح» ليتحرشوا به كما أترفقوا مع الكهنة والكتبة وأخذوا منهم نقوداً كثيرة نظير ذلك.

قال الجنود : «أيها السيد هل يجوز إشعال الحرب» (٣٥٨)

كان من الواضح لكل ذى عينين أن هؤلاء الجنود لايجيدون تمثيل الدور المكلفين بأدائه إذ تقدموا إلى «المسيح» في إرتباك وتكلموا مضطربين. من الواضح أنهم مدفوعون من قبل رجال الهيكل للقيام بهذا ولكن المسألة الهامة تتوقف على إجابة «المسيح» فإن قال «نعم» يكون السؤال التالي «من هم الذين تجب محاربتهم» ثم «هل يجوز شرعا محاربة الرومان الكفرة عباد الأصنام الذين يفرضون على شعب الله الجزية ؟»

وتندلع الفتنة ويقبض على «المسيح» باعتباره مثيرها .

وإن قال «لا». لايجوز إشعال الحرب «فسيندفع» بعض الكهنة والكتبة ليقولوا «ولماذا أشعل موسى وأنبياء الله جميعا الحرب وبهذه الطريقة أيضاً تندلع الفتنة لكن «عيسى»

أجاب : «إن ديننا يقول لنا أن حياتنا على الأرض هي حرب مستمرة». لم تستطع الأسئلة الأخرى أن تنطلق لكن الجنود قالوا له وقد تذكروا تحريض الكهنة والشيوخ لهم:

«أيها السيد هل تريد أن نترك ديننا وأن تحولنا إلي دينك».

«أتريد أن نعبد إلهك الذي تقول عنه أنه واحد ونترك آلهتنا الكثيرة ولاأحد يعرف أين يكون إلهك هذا لأنه غير منظور على عكس إلهتنا فإننا نراها. ربما يكون إلهك ليس إلا وهماً تتخيله»!!

كان الجنود يتكلمون مثل التلاميذ الصغار الذين يحاولون تذكر مالقنه لهم معلومهم «والمسيح» يطيل النظر إليهم ويفكر في الهاوية السحيقة التي ألقى الكهنة والكتبة فيها أنفسهم إذ بدلاً من أن يبينوا لهؤلاء الوثنيين خطأهم صاروا يحسنون لهم عبادة الأصنام ويقولون لهم أن الاصنام الكثيرة التي نراها أفضل من الله الواحد الذي لانراه.

ماذا يستطيع أن يقول الشيطان أسوأ من هذا ؟

قال «المسيح» «لو كنت أنا الذي خلقتكم لحاولت تغييركم لكن إلهنا هو الذي خلقكم كما خلقنا وخلق كل شيء فإن أراد تغييركم لفعل». قالوا : «كيف تقول أنه خلقنا ولا أحد يعلم أين هو ونحن لا نراه ولا أحد رآه. إرنا إلهك الذي تزعم ونحن مستعدون أن نصير يهوداً مثلك».

قال «المسيح» : «لو كانت لكم عيون لكنت أريتمكم آلهنا ولكنكم عميان فكيف أستطيع أن أجعلكم ترونه».

قالوا : «حقاً إنك لمخبول كما قالوا ويبدو أن التعظيم الشديد الذي تلقاه من شعبك المفتون بك قد أصابك بالجنون. أيها الأبله ألا ترى أن لكل واحد منا عينان في رأسه فكيف تقول عنا أننا عميان يامجنون».

قال : «إن عين الجسد لاتبصر إلا الصور ومن ثم فإنها لاتستطيع أن ترى إلا الآلهة

الزائفة الخشبية أو الحجرية أو الفضية أو الذهبية التي تعبدونها مع أنها لاتفعل لكم ولا لغيركم شيئاً ولاحتى لأنفسها وكما قال النبي «داود» إن إلهة الأمم من ذهب وفضة من صنعة يد البشر ليس لها عين تبصر ولا أذن تسمع ولا لسان يتكلم ولا قدم تسعى عليها ولا يد تبطش بها وسيكون مثلها عاجزاً كل من يصنعها بل كل من يعبدها أو يتوكل عليها . يا للكبرياء التي لم يُسمع بمثلها قط كبرياء الإنسان الذي ينسى خالقه ويود أن يصنع له آلهة أخرى حسب هواه لايأمره بشئ مع أن الله هو الذي خلقه من تراب. حقا إنه يستهزئ بهدوء وبكل بساطة بالله ويقول بعمله أن لافائدة من عبادة الله فانظروا إلى أى هاهوية سقطتم أما نحن اليهود فلنا عيون أخرى تتكون لنا من تقوى الله وتمكننا من رؤية آلهنا فى كل مكان.»

قال الجنود فى غضب «إحذر أيها السيد أن تحتقر آلهتنا وإلا سلمناك ليد الوالى الذى ينتقم لآلهتنا القادرة على كل شئ»

قال «المسيح»: «لو كانت قادرة على كل شئ كما تقولون فاسمحوا لى أن أعبدها.» فاندعش الجنود لكلامه ولم يعرفوا ماذا يقولون له ولا ما هو سر تغييره المفاجئ وبدأ السرور يخالط دهشتهم لكنه عاد ليقول «ولكننا هنا لسنا فى حاجة إلى كلمات لافائدة منها بل إلى أعمال فاطلبوا من آلهتكم أن تخلق الآن ذبابة واحدة وإنى على استعداد أن أسجد لها الآن ١٩»

وألجم الجنود ولم يعرفوا ماذا يقولون. حقا إن هذه التماثيل لايمكنها أن تخلق شيئاً فنحن الذين خلقناها قال «المسيح» «فإذا كانت إلهتكم التى تزعمون لاتستطيع أن تخلق ذبابة واحدة فإننى غير مستعد لأن أترك إلهه الوحيد الذى خلق كل شئ بكلمة واحدة من أجل تلك الأوهام التى لاتعنى شيئاً. إن ذكر إسم آلهنا يروع جيوشا.»

فقال الجنود «لنرى الآن كيف يستطيع أهلك أن ينقذك من أيدينا» وأنقضوا عليه ليمسكوا به لكن «المسيح» دعا ربه فى سره فتدحرجت الجنود على الارض ثم قاموا وقد

ملأ الر م فأخذوا يجرون بسرعة وهم يلعنون الكهنة والكتبة الذين إشاروا عليهم وشجعوهم بالمال على الدخول فى هذه المصيدة المخيفة.

خاب رجاء الكهنة والشيوخ وملاهم الغيظ وهم يقولون إنما فعل هذا بقوة الشياطين التى توحى إليه بكل هذه المعرفة وتمده بكل هذه القدرة.

كان «المسيح» ما يزال على دكة الوعظ فقال (٢٥٩) «لقد أمر إلهنا بالأ نسرُق قريبنا ولكن هذه الوصية قد أُنْتَهَكَت حرمتها فامتلات الدنيا بالخطيئة التى لاتغفر إلا إذا رُدَّ إلى صاحبه ما أُخْذَ ظُلماً.»

فقال أحد الكتبة وقد أمتلأ بالغيظ من هذا «المعلم» المتعالى الذى يتحدث بكلمات غامضة عسيرة الفهم «كيف ملأت السرقة الدنيا مع أنه لا يوجد بنعمة الله إلا القليل من اللصوص والمشاعبين وهم لا يجرون على الظهور لأن الجنود يسكونهم ويحكم الوالى بصلبهم». قال «المسيح»: «من لا يعرف المال لا يستطيع أن يعرف السرقة أو اللصوص. الحق أقول لكم إن أكثر الناس يسرقون ولكنهم لا يعلمون ولذلك كانوا أكثر خطأ من الذين يسرقون وهم يعلمون لأن المريض الذى لا يعرف مرضه لا يُشْفَى أبداً إذ أن المرض غير المعزوف لا يُعالَج أبداً». فاحتدم الكاتب لعجزه عن الفهم وقال «إن كنت وحدك تعرف الحق فعلمنا»

قال «المسيح» «لا أقول لكم أنى وحدى أعرف الحق.»

«ولقد أخطأت أيها الكاتب بذكرك لفظ «وحدك» لأنها تختص بالله وحده فالله وحده هو الذى يعرف الحق وإن ادعيتُ ذلك أكون قد صرت أعظم سارق لأننى أكون قد اغتصبت مجد الله لنفسى. أيها الكاتب إنك قد أخطأت بقولك وإن كنت قد تكلمت تريد الفتنة فخطيئتك قد تضاعفت مرتين.»

فالقم الكاتب الحجر فى فيه ولم ينطق بينما كان «المعلم» يواصل «ومع أنى لست

الوحيد الذى يعرف الحق إلا أننى الوحيد الآن الذى له أن يتكلم لأن الله قد أعطانى كلمته فأصيحوا السمع إلى أنكم سألتمونى ولأنكم حقاً لاتعلمون».

«إن الله هو مالك الأشياء كلها وحده فلايحق أن يدعى الإنسان أنه يملك أى شئ حتى نفسه أو جسده أو أى عضو من جسده. »

«ولذلك يحق لله أن يتصرف فى جميع الأشياء كما يريد لأنه مالكها الوحيد لكن الإنسان عندما يتصرف بالحرية التى وهبها الله له فى الأشياء التى يملكها الله لاكما يحب الله بل بما يخالفه أفلاً يكون بهذه المعصية مدعياً أنه يملك شيئاً هو فى الحقيقة ملك لله وحده. فكل من يرتكب الخطيئة مهما كان ذنبه هو لص لأنه يسرق النفسَ والحياةَ والوقتَ وكل ماوهبه الله من أجل أن يعبدته ويعطيه للشيطان عدوه فهو بذلك يكون أسوأ لص ».

«بل عندما تقولون سنفعل ذلك غداً أو سنذهب باكراً إلى فلان فانتهم حينئذ لصوص لأنكم تدعون ملكية ما لا تملكون فلا أنتم تملكون غداً ولا تملكون أن تفعلوا فيه ما تقولون. قولوا لى أليس الساخط الذى يتذمر من قضاء الله لصاً لأنه لا يقبل حكم الله فهو إذن يدعى «مشاركة الله فى الحكم بل يدعى ما هو أسوأ من ذلك وهو أن حكمه هو الموهوم أفضل من حكم الله الحق فهو إذن أكبر مذنب والذى يستمع إليه راضياً عما يقول مذنب أيضاً. إن الشيطان يقبل لسان الأول الذى ينطق بالسخط ويقبل أذن الثانى الذى يستمع إليه راضياً. »

«ألم يأمر الله بحفظ الأموال والأنفس والأعراض ؟

«فإن حاول أحد أن يسرق أموالك أو يقتلك فقاومته وقتلته ألا يعد صنيعك هذا شيئاً حسناً ؟»

«نعم هو كذلك لأن الله أمر به ؟»

وإن حاول أحد أن يسرق عِرْضَكَ ألا يأمرَك الله بالدفاع عن شرفك ؟ أم أن المال أفضل من العِرْض ١٩»

«فماذا يكون جزاء المتذمرين الذين يسرقون مجد الله الذين ينتهكون شرف الله. «إن آبائنا كُتِبَ عليهم أن يكابدوا في الصحراء أربعين سنة من أجل أنهم تدمروا ولم يرضوا بحكم الله»

ولم يجد الكتبة شيئا يمكنهم أن يخطئوه به فامتثلوا بالحق عليه.

وأرسل رئيس الكهنة من مخبئة بعض رجاله ليسألوا «المسيح» لعله يتلعثم ويضطرب فتتهز صورته أمام الناس.

قال الأول «أيها المعلم الصالح لماذا منع الله أبويننا من الأكل من الشجرة بعد أن جعلهما يريانها كان الأجدر به أن يسمح لهما بالأكل منها وإلا فكان يجب عليه أن يخفيها عنهما إن كان لا يريد أن يطردهما من الجنة».

قال «المسيح» : «لاتدعنى صالحا لأنك تخطئ فإن الله هو الصالح وحده وإنك أشد خطأ لأنك تريد أن يعمل الله طبقاً لإرادتك أنت المخلوق الذى خلقه الله من التراب.»

«هل يخطئ الله لأنه لم يعمل طبقاً لهواك يالكبرياء الباطلة.»

«هل يجب على الله أن يوفق عمله ليتفق مع أهوائنا.»

«من الذى يعتمد على الآخر الخالق أم المخلوق ؟»

«يجب على الانسان ألا يطلب راحة نفسه بل يجتهد ليتفق عمله مع مايجبه خالقنا ولكنى مع ذلك أجييك.»

«لو أعطى الله الإنسان كل شئ لظن نفسه ندا لله كما فعل «إبليس» فكان يتوهم نفسه سيد الجنة ويطلب كما فعل «إبليس» أن يصير إلها ندا لله. فلو لم يخطئ «آدم» ماعرفنا أنا ولا أنت رحمة الله. إن الله خلق الانسان حرا قادرا على أن يكون صالحا ليتال

خلاصه أو يكون شريرا لينال لعنته فلو لم يخلق الله الانسان قابلاً للخطيئة مانال الإنسان رحمة الله الكاملة لأنه لاينالها إلا بالتوبة عن خطاياها التي تخلصه من كبريائه فكبيرياء الإنسان الباطلة هي التي تطرده من الرحمة.»

«من كان له نور في قلبه فإنه يرى بالنور الذي معه في الظلمات أم الأعمى فإنه لايدرك إلا الظلمات في النور» فُبُهِتَ رسول الكاهن وانصرف مرتبكا

ونزل «المسيح» من فوق دكة الوعظة وخرج الى رواق «سليمان» وجلس ينتظر الصلاة في الظهيرة (٣٦٠)

فاقترب منه كاهنين شيخين وهو جالس ليستريح وسط تلاميذه وجمع من الناس قال أحدهما «لماذا أكل الإنسان من الشجرة هل أراد الله ذلك أم لا ؟ وكان ظن «رئيس الكهنة» أن يعجز «المسيح» عن الرد. فإن قال أراد ذلك قالوا له فلماذا نهاهما وإن قال بل أكل بدون أرادة الله أو ضد أرادة الله قالوا له « إذن فأنت تقول أن الإنسان أعظم من الله لأنه يفعل ما لايريد الله فعله بل ضد ما يريد الله».

نظر «المسيح» إليهما بإمعان وهو يتأمل ملامح وجهيهما .

«شيخان كبيران طعنا في السن ولايزالان يعبثان في الدنيا يلهوان بكلام الله ويبحثان عن فتنة رسوله وإضلال خلقه. ما أشد ضياع شعب يكون هؤلاء هم قواده.»

قال «المسيح» «إن سوءالكما يبدو لي كطريق مخوف على جبل عال له حرفان عن اليمين وعن الشمال إن ملت لأحدهما سقطت وهلكت لذلك فأنا أسير في الوسط».

فلما استمع الشيخان إلى كلام «المعلم» أدركا أنه قد قرأ ما في قلوبيهما.

وواصل «المسيح» كلامه: «إن الله لايعمل ليسد حاجة في نفسه بل هو يفيض بجوده كما يهب الملك عبده حريته ويعطيه ماله ليُظهِر ثروته وليجعل عبده أشد حبا له بسبب عطائه الذي لا حاجة له إليه ولاضرورة فيه. لذلك خلق الله الإنسان حرا يمكنه كبح الشر في

نفسه كما يمكنه عمل الخير ولو أراد الله أن يمنع الخطيئة لمنعها ولكنه رغم قدرته على ذلك لم يزد لأن جود الله لا يتناقض مع قدرته إذ ليس عند الله تناقض فلم يقاوم الخطيئة في الإنسان من أجل أن ينال الإنسان رحمته ويعرف محبة الله له التي لا يظفر بها إلا بالتوبة من الخطيئة فيحب إليه الذي أحبه وأية صدقي أن رئيس الكهنة قد أرسلكما لتسالاني هذا السؤال وهذه هي ثمرة عمره الذي قضاه في «الكهنوت».

وأخرست المفاجأة الرجلين فهرولا مرتبكين يسرعان إلى رئيس الكهنة الذي احتدم من الغيظ وهو يقول لمن معه من رجال الهيكل «إن وراء هذا «الساحر الملعون» شيطان يلقيه كل شيء وهو يطمع أن يصير ملكاً علينا ولكننا حتما سنجد طريقة للخلاص منه ونفوض فيه الأمر لله.»

لما صلى في الظهيرة خرج من الهيكل فرأى شاباً أكهما (ولد أعمى) يجلس عند أحد أبواب الهيكل يسأل الناس الصدقة

فقال له تلاميذه: «يا معلم» من الذي أخطأ فيه فأصيب هذا بالعمى منذ ولادته أم أم أبوه^(٣٦١)؟ يظنون أن العمى هو عقاب على خطيئة ولما كان قد ولد به فيستحيل أن يكون هو المخطئ.

قال «المسيح»: «لا أمه ولا أبوه ولكن لتظهر آية الله فيه». إذ أوحى الله إليه أنه يرد بصر هذا الأكمه «إن الله قد خلقه على هذا النحو ليظهر آيته لتكون شهادة لتبشيري» وطلب من تلاميذه أن ينادوا على الشاب ، فأسرعوا إليه يقولون قم فإن «عيسى الناصري» النبي القادم من الجليل ينادى عليك فقام الشاب مهرولاً حيث دفعوه أمام «المسيح» الذي أخذ قطعة من الطين وتفل عليها ثم وضعها على عيني الرجل وقال له «إذهب إلى بركة «سلوام» وأغتسل لترتد بصيراً»

وأسرع الرجل إلى البركة وأغتسل ولم يصدق نفسه وهو يرى الأشياء لأول مرة في حياته الماء والسماء والسحاب والأشجار والناس.

فخرج من الماء يجرى وهو يصيح «لقد صرت بصيرا» «لقد شفانى النبى القادم من الناصرة» وتعجب الناس الذين رأوه وهم لا يصدقون أنه ذلك الأعمى الذى كان يجلس عند باب الهيكل يسأل الناس الصدقة وأمسك به بعضهم وسأله «ألسنت أنت الرجل الأعمى الذى كان يجلس عند باب الهيكل يتسول»؟

قال «نعم أننى أنا هو» قالوا «فكيف صرت بصيرا». قال «نادى على رجل وأخذ بعض الطين اللزج ووضع على عيني ثم أمرنى بالإغتسال فى البركة ففعلت كما أمرنى فصرت بصيرا كما تروننى فالحمد لله».

فأخذته الناس رغماً عنه إلى الهيكل ليعرضوه على الكهنة والشيوخ حيث كان رئيس الكهنة وكبار الشيوخ قد عادوا الى الهيكل لما أُبلغوا أن «عيسى» قد خرج منه ففوجئوا بالناس يدفعون الرجل الذى كان أكمهاً وأوقفوه أمام «قيافا» كبير الكهنة ومعه جمع من كبار الكهنة وزعماء الفريسيين وقصوا عليهم ما قاله الرجل.

فطلب «قيافا» من الرجل أن يتقدم نحوه وأن يقف باحترام وأن يتكلم بالصدق مؤدياً شهادة أمام الله.

ثم سأله «هل ولدت أعمى أيها الرجل»؟

قال الرجل وهو يرتجف من الخوف «نعم»

قال «قيافا» فأعط مجداً لله وأخبرنا أى نبى من أنبياء الله ظهر لك فى المنام وأعطاك

نور بصرك.....

«هل هو أبونا إبراهيم أم موسى صاحب الشريعة أم نبى آخر؟»

كان «قيافا» يحاول أن يوجه إلى الرجل بالإجابة التى يجب أن يقولها ويتمنى من كل قلبه أن ينطق الرجل بالكذب فيختار واحداً من الأنبياء الذين ذكرهم له وعلى سبيل التحذير ختم بقوله «فإن واحداً غير هؤلاء لا يستطيع أن يفعل شيئاً كهذا»؟

قال الرجل «ياسيدى الكاهن العظيم إننى لم أكن نائما ولا رأيت أحداً فى حلم ولكننى كنت جالسا كما اعتدت عند باب الهيكل أسأل الناس أن يعطوننى لأننى كما قلت ولدتُ أعمى فلم استطع أن أكسب عيشى من أى مهنة وجاعنى رجال طلبوا منى أذهب إلى رجل ففقت معهم ثم صنع الرجل ما قد سمعته فصرت بصيرا وهذا هو كل شئ»

قال «قيافا»: «قل لى ماذا فعل بالضبط؟»

قال الرجل متحيراً «وضع شيئاً من الطين اللزج على عيني ثم أمرنى بالإغتسال فى بركة «سلوام» أمام الهيكل ففعلت كما أمرنى فصرت بصيرا. هذا هو كل ما أعرفه.»

«لقد ذهبت بالطين على عيني ثم عدت بنور عيني كما أخبرنى هو بالضبط ولا أعرف ماذا أقول أكثر.»

قال «قيافا» «هل تعرف اسمه ؟»

قال «سمعتهم يقولون «عيسى» النبى القادم من الناصرة.»

قال قيافا «هل تعرفه هل رأيته من قبل؟»

قال الرجل «ياسيدى الكاهن إننى ولدت أعمى وظلمت أعمى وظلمت أعمى حتى ذهبت إلى البركة منذ لحظات كما أمرنى فكيف أكون قد رأيته من قبل والله إننى حتى هذه اللحظة لم أراه!!»

«وإن كان واقفا الآن بيتنا فإننى لأستطيع معرفته»

قال «قيافا» «متى حدث هذا ؟»

قال الرجل وقد بدأ ينفذ صبره «الآن ياسيدى منذ لحظات قصيرة كما قلت»

قال «قيافا» : «إذن فقد أبرأك فى السبت.»

قال الرجل «إن كان اليوم هو السبت فقد أبرانى فى السبت»

فقال «قيافا» : انظروا أيها الناس إلى الرجل الخاطئ الذي لا يحفظ السبت..»

ولم يتمالك الفريسيون الواقفون أنفسهم فأخذوا يسألون الرجل مرات كثيرة عما حدث وكيف حدث ولماذا يظن أن «عيسى» القادم من الناصرة هو الذي أبرأه وكيف يكون قد أبرأه وهو لا يعرفه وهل وَضَعُ الطين على العين يعد وسيلة لعلاج العمى وعشرات من الأسئلة التي جعلت الرجل يفقد أعصابه ثم سألوه «ألا تعتقد أن الذي يبرئ في السبت يعد خاطئاً لأنه لا يحفظ سبت الله» فصاح الرجل غاضباً :.

«إننى لست أعلم إن كان خاطئاً أم لا. لا أعلم شيئاً أكثر من أننى كنت أعمى منذ ولدتنى أُمى فصرت بصيراً وأن هذا حدث اليوم مع هذا الرجل الذى وضع الطين على عيني ولا أستطيع أن أقول شيئاً أكثر من هذا..»

ولكن الفريسيين لم يصدقوا وطلبوا من كبير الكهنة أن يرسل إلى والدَي الرجل ليعطيا الشهادة فأرسلوا إليهما وحذرهما. المرسلون من مغبة الثناء على «عيسى الناصرى» أمام رئيس الكهنة والشيوخ وإلّا تعرضا للحرمان من الهيكل وجبى بالوالدين وتم التحقيق معهما بكل تدقيق فلم يجد الأب ولا الأم محيصاً غير قول أنهما لا يعلمان شيئاً عن كل ما يقال وأن هذا هو ابنهما كما يعتقدان وإن كان ابنهما قد وُلِدَ أعمى أما هذا الرجل الذى يقف أمامهما فإنهما على الرغم من اعتقادهما أنه ابنهما إلّا أنهما لا يستطيعان التأكيد على ذلك لأنه بصير أما ابنهما فإنه أعمى وأنه لا يجب سؤالهما عن شئ لأن الرجل الواقف أمامهما بالغ ورشيد فيمكن أن يُسأل وأن يجيب عن نفسه.

وجن جنون الرجل الذى كان أكمها من كل هذا الجحود والعناد والجدال الذى لامعنى له فقال فى صوت واضح أفصح عن الغضب بقدر ما أفصح عن الاحتقار:

«ياسيدى الكاهن وأنتم أيها الشيوخ الأجلاء من المؤكد إننى كنت أعمى وأننى الآن بصير بفضل هذا الرجل الذى تقولون عنه أنه حاطى لكننى أعلم أنه منذ خلق الله

والسموات والأرض لم ينل رجل ولد أعمى نور عينيه إلا بفضل الصلاة وأن الله لا يجيب صلاة الخطاة!!

وأحنتهم أن يعلمهم هذا الشاب المتسول فأخذوا يعيدون سؤاله عما حدث فقال لهم «لقد أخبرتكم أكثر من مرة فلماذا تسألون أخرى أتريدون أن تصبحوا تلاميذاً له ؟»

فاستشاط بالغضب القريسيون والكهنة وشتموا الرجل ولعنوه قائلين «مثلك يكون تلميذاً لمثله أما نحن فتلاميذ موسى وأبناء إبراهيم ،إن الله كلم موسى وأعطاه الشريعة أما هذا الذى نتكلم عنه فلا نعرف من أين جاء ولا من أبوه ولا من الذى يكلمه؟»

فقال الرجل : «لولا لم يكن هذا الرجل نبيا مرسلًا من الله لما استطاع أن يفعل ما فعل».

قالوا « فى الخطيئة ولدت وعشت بجملتك أفتأتى أيها الملعون لتعلمنا ؟ أغرب عن وجوهنا الآن » وأخذ خدم الهيكل يضربون الرجل ويسبونه وهم يطردونه.

وأمر رئيس الكهنة بطرد الرجل من الهيكل وأن يحظر عليه الصلاة مع الطاهرين من أبناء اسرائيل «لقد صار اليوم ملعونا ومطرودا من شعب الله لإيمانه بالمدعو «عيسى الناصرى» وعزم الكهنة والشيوخ على أن يطلبوا من «بيلاطس» أن يستصدر من «روما» أمراً يهدد كل من يؤمن «بعيسى» ويتحزب له بالموت واستقروا على أن هذه هى أقوى وسيلة لتخويف الناس وإجبارهم على الابتعاد عن «عيسى» «الساحر الملعون».

جلس الرجل على الأرض يبكى فجاء إليه «المسيح» وقال له : «لاتبك فإنك لم تكن مباركاً فى يوم من الأيام أكثر منك فى يومك هذا لأن «روح الله» الذى تكلم بلسان «داود» قال «هم يلعنون وأنا أبارك» وتكلم بلسان ميخا فقال «إنى ألعن بركتك وأبارك لعنتك»

فقال الرجل : «من أنت ؟»

قال «المسيح» «ألا تعرفنى ؟»

قال «أنت عيسى الناصري» النبي القادم من الجليل..

فتهلل وجه «المسيح» وقال «أتؤمن؟»

قال الرجل : «نعم» وهوى عند قدميه ساجداً يبكي.

(٢٧)

«والابصر»

«قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم»

(الزمر ٥٣)

قال «المسيح»: «من أجل إدانة هذه الأمة الأثمة أرسلنى الله لأكون فى يوم الحساب
شاهدا عليهم»

«لقد جئتُ إلى الدنيا لكى يبصر الأعمى ويعمى الذين كانوا يبصرون. (٣٦٢) قال
بعض القريسيين الذين استمعوا إليه «لعلك تعدنا عميانا لكننا بنعمة الله مبصرون» .

قال «لو كنتم عمياناً لما حُسِبَتْ عليكم خطيئة ولكنكم بالسننكم تقولون أنكم مبصرون
إذن فخطيئتكم باقية لا تزول» .

ومضى فى طريقه يتبعه التلاميذ وكل الذين يريدون سماعه أو يطلبون الشفاء
على يده .

وأصبحت آية «الأكمه» مصدر إزعاج شديد لرجال الهيكل لأن الرجل ظل يجلس
بجوار الهيكل وكلما مر عليه قوم من الذين كانوا يرونه من قبل كانوا يسألونه عن
«المعجزة» التى أعادت النور إلى عينيه وكان الرجل يتحدث فيتسأل الناس هل يمكن
لخاطىء أن يرد النور إلى أكمه ؟ لو كان «عيسى الناصرى» يعمل بقوة الشيطان فكيف
يعطى نوراً للأعمى. إن الشياطين قد تصيب بالأعمى أو الصمم أو الشلل أما أن تعيد النور
لرجل ولد أعمى فهذا ما لم يسمع به أحد من قبل .

وإذا لم يكن ذلك «الناصرى» نبيا فمن يكون إذن ؟ هل الأنبياء الذين قرأنا وسمعنا

عنهم هل فعلوا أكثر مما فعل ؟ وإذا لم يكن هو «المسيح» المنتظر فمن يكون ؟ هل يمكن «للمسيح» إذا جاء أن يصنع معجزات أكثر من هذا . لكنهم يقولون أن «المسيح» إذا جاء الى الأرض فلا بد ألا يعرف أحد من أين جاء ولا كيف أما هذا فنحن نعرفه ونعرف من أين جاء !! (٣٣٦)

تلك الأسئلة كانت تصدع رؤوس الكهنة والكتبة الذين رفضوا «المسيح» وتشدد من أزد القلة الضئيلة التي كانت تحترم «المسيح» وتقدر علمه الذي لا نظير له بالأسفار وأحس الشيوخ أنه لا بد من عمل حاسم وسريع لإستئصال هذه الفتنة من جذورها قبل أن يستفحل أمرها وتدمر الهيكل فزادت المساعي المحمومة من جانب رجال الهيكل لدى «بيلاطس» وحاشيته من أجل استصدار أمر يكفل تخويف الناس من المدعو «عيسى الناصري» والأفضل إصدار أمر بحبسه فى السجن أو منعه من دخول «أورشاليم» حتى يتسنى القضاء عليه .

«المهم أن يتم حصاره وكف إضلاله للناس حتى نجد الفرصة المواتية .»

أما «عيسى» الذى علم من الله أن أجله قد أقترَب وأن بعثته الأولى قد أشرفت على نهايتها فقد أشدَّ حماسه لإعطاء آخر وصاياه إلى تلاميذه محاولاً قدر جهده أنقاذ ما يمكن أنقاذه من الأمة التي حل عليها غضب الله لنقضها «ميثاقها» معه . أصبح يعلن تحديه السافر لسلطة الهيكل ولا يترك فرصة لإستفزازهم إلا وتشبث بها مؤكداً بكلامه وأفعاله أنه لا يخشى إلا الذى أرسله وأنه مطمئن إلى مصيره وكان يظن أنه سيلقى حتفه مقتولاً ليُظفر بشهادة القتل فى سبيل الله كما ظفر بها من قبل «زكريا» و «يحيى» فوق شهادة النبوة .

كان يعد نفسه للقتل فى سبيل الله عالماً أن الله سيرفع جسده بعد موته إلى السماء ولن يدع جسده فى أيدي أعدائه ، كما رُفِعَ جسد «إدريس» من قبل (٣٦٤) وسيظل هناك فى السماء الثانية ملكاً مقرباً حتى تُمسي الدنيا مقتربة من نهايتها وتوشك «الساعة» أن تلقى

بمرساها فحينئذ ينزل إلى الأرض ليؤدي رسالته الثانية التي سيحصل فيها على «شارة» الملك من ملك السموات والأرض إذ يصير خليفة لله يحكم بشريعته مدة أربعين سنة ثم يموت ويدفن في الأرض ينتظر البعث كما أخبر تلاميذه الأربعة على الجبل حين رأوه وهيئته «تتغير» عندما أتى إليه «أحمد» (إيليا) و«موسى» في الغمام.

كان يتنسم عطر الجنة ولقاء الأحبة فيفيض الحنين وتومض الذكريات الموهلة في القدم ويتوهج حماسه وهو يجوب القرى والمدن حول «أورشاليم». يبيت أكثر لياليه في جبل الزيتون وكلما واثته الفرصة للدخول إلى الهيكل والقاء الخطبة على دكة الوعظ أو أجابة أسئلة المستفسرين عن كلام الله لم يضيعها مما زاد من حقد رجال الهيكل وأشعل مساعيهم المحمومة للقضاء عليه.

تقدم إليه رجل من «بيت عينا» وهي قرية صغيرة تقع جنوبى «أورشاليم» وجثا على ركبتيه أمامه وقال بصوت متضرع «يا نبي الله إن شئت أن تطهرنى فأتضرع إليك أن تفعل محبة في الله» ورفع إليه وجهها تفيض منه الدموع .

كان الرجل وأسمه «سمعان» مصابا بالبرص الذي كان ينتشر على وجهه وجسده كله بصورة بشعة .

وتحركت الرحمة في قلب «المسيح» وقال «بسم الله تطهر» ووضع يده على رأس الرجل فتغير جلده كله في طرفة عين حتى صارت بشرته جميلة ناعمة كأنها بشرة طفل عمره أيام قليلة. تحولت صورة الرجل وأوشك ألا يعرفه كل الذين جاعوا معه أو شهدوا تضرعه إلى السيد «المسيح» .

ونفض الرجل فقبل يد «المسيح» فقال له «لا تمض من هنا قبل أن تذهب إلى الهيكل وترى نفسك للكهنة وتقدم القربان الذى أمر به «موسى» شكرا لله الذى طهرك وشهادة عليهم إلى يوم القيامة» (٣٦٥)

فقام الرجل وقد إمتلأ قلبه بحماسة «الإيمان» فدخل إلى الهيكل وفعل كما أمره «المسيح» وأخذ يقص على الناس فى فرح لا يمكن كبحه ما حدث والكهنة يزدادون غيظا على غيظهم وزيادة فى النكّاية بهم أعلن «سمعان» الأبرص - كما كان يُعرّف - أنه يستضيف السيد «المسيح» نبي الله وتلاميذه وكل من يحب فى بيته وخرج ورجا «المسيح» أن يقبلَ دعوته فقبلها «المسيح» وسار معه وبصحبته التلاميذ إلى «بيت عنيا».

واتجه الباحثين عن الشفاء أو التوبة أو الراغبين فى الجدل أو الذين بهرتهم المعجزات وأرادوا التمتع بمشاهدة المزيد منها إلى «بيت عنيا» حيث يذهبون إلى منزل «سمعان» الأبرص كما أن جواسيس الهيكل كانوا أيضا يذهبون .

وعندما أعد «سمعان» الذى كان أبرصا وليمة فاخرة تكريما «للمسيح» وتلاميذه ودعا إليها كل من يريد جاءت «مريم» أخت «مرثا» و «ليعازر» وإذ دخلت بيت «سمعان» وسارت وسط الجمع المحتشد إمتعض الناس لحضور هذه «الموسمة» التى كانت سمعتها السيئة على كل لسان. كانت قد تركت «بيت عنيا» منذ سنوات وأصبحت تقطن فى «المجدل» لكنها كانت غائبة مشهورة شاهدها الكثيرون فى «أورشليم» فى المواسم والأعياد «الدينية» وهى بصحبة الضباط الرومانيين أو فى صحبة الأثرياء من اليهود وغيرهم .

وكان أشد الناس امتعاضا هو «سمعان» نفسه صاحب البيت الذى كره أن يتلوث بيته بحضور هذه المرأة القذرة فيه .

«إمرأة رائعة الجمال لا يبدو عليها أنها مصابة بأى مرض ولم تزل تحتفظ بجمالها ونضارتها فما الذى جاء بها ١٩ » كان هذا هو حديث الذين لا يعرفونها .

ووسط دهشة الجميع أندفعت «مريم» المجدليه لتقف خلف «المسيح» ثم هوت بجسدها عند قدميه حيث بكت بكاء حارا حتى أن صوت نحيبها الذى كانت تحاول كتمه بكل قوتها دون جدوى صار مسموعا لكل الذين فى الحجرة رغم الإزحام وتسأل جميع الذين يعرفونها كيف يسمح «المعلم» لمثل تلك «القذارة» أن تلوث قدميه وتذمر كثير من الحاضرين

فانصرفوا إذ «كيف يقبلون أن يبقوا في مكان واحد مع زانية» حتى «المسيح» الذي كان يتحدث مع الجالسين توقف إذ أدرك أن الجمع صار يلتفت إلى القابضة عند قدميه وتحركت «مريم» قليلا إلى الوراء ولكنها ظلت تضع وجهها على قدمي «المسيح» وتبكي في صمت وهي تحاول أن تمسح بشعرها قدمي «المسيح» من قطرات الدموع التي تفيض من عينيها وتدهنهما بالطيب الذي أحضرته في قارورة. لم تقل شيئا ولم تطلب من «المسيح» بلسانها أى شيء ظلت تبكي وتمسح قدمي «المسيح» بشعرها وتدهنهما بالطيب وتقبلهما بحرارة وهي تواصل الصمت. «إن كان نبيا حقا لعرف من هي وماذا تصنع. كيف يقبل أن تلمسه امرأة «مومسة» ١٩ .

قال «المسيح» «إسمع يا سمعان عند شيء أقوله لك» (٣٦٦)

فقال «سمعان» «قل يا معلم فإنني أحبك وأحب كلامك» .

قال «المسيح»: «كان لإنسان مدينان الأول مدين بخمسين فلساً والآخر بخمسمائة قطعة من الذهب ثم جاء موعد السداد فذهبا إلى السيد صاحب الأموال الغنى وأخذا يعتذران له عن عدم قدرتهما على الوفاء ويطلبان أن يمهلها بعض الوقت والأى ينزل بهما العقوبة.

وتجن الغنى عليهما إذ نظر الى دموعهما وعرف فقرهما ، ولما كان يدرك أنهما فى الحقيقة غير قادرين على الوفاء أبداً فمن أين يأتیان بالأموال وهما فقيران لا مال لهما تحركت الرحمة فى قلبه وسامحهما. أسقط الدين عن كليهما بالكلية ففرح المدينان لرحمة سيدهما وشكراه .»

«فقل لى يا «سمعان» من تظن أنه كان أكثر معرفة برحمة السيد الغنى وأشد حبا وأكثر شكرا له ١٩»

قال «سمعان» «أظن يا «معلم» أنه المدين بالأكثر لأن السيد الغنى رفع عن كاهله العبء الأكبر». قال «المسيح» «بالحق أجبت يا «سمعان». فانظر الآن إلى نفسك وإلى هذه

المرأة السَّاجدة عند قدمي. لقد كنت مصاباً بالبرص بسبب الخطايا التي عليك وهي دَيْنُكَ عند ربك فجئتَ متضرعاً تطلب الشفاء فعفا الله عنك ورفع عنك دَيْنُكَ فبرأتَ من البرص بصلاتي إلى ربي .

وهذه المرأة مصابة بالخطيئة التي هي بمثابة «برص النفس» وهو أثقل عبثاً من برص الجلد لأن الخطيئة تدفع الإنسان للهلاك الأبدى. جاءت متضرعة تبكي تطلب التوبة دون أن ينطق لسانها بكلمة واحدة تريد أن تُشفى من «برص النفس» فتحن ربنا عليها فغفر لها ذنوبها وتاب عليها فهي الآن طاهرة ولأنه رفع عنها العبء الأكبر لذلك فهي تحب الله أكثر منك وتعرف رحمته وتشكر له أكثر منك فأنظر إليها لقد جلست عند قدمي تبكي وغسلتهما بدموع عينيها وبكاء قلبها ومستحتهما بشعر رأسها ودهنتهما بالطيب الذي معها وقبلتهما أما أنت فلم تعطني ماء لأغسل قدمي وقبلة واحدة لم تقبلني وبزيت لم تدهن رأسي .

لذلك أقول لك أنها قد غُفِرَتْ لها خطاياها الكثيرة لأنها أحبت أكثر فمن يُغْفَر له القليل يحب قليلاً ومن يُغْفَر له الكثير يحب كثيراً .

«قومي يا امرأة قد غُفِرَتْ خطاياك وأذهبى فى سلام من الله إن إيمانك قد خلصك .»

فقال «سمعان» «اغفر لى يا معلم» فإنتى قد أخطأت .»

قال «المسيح» «استغفر الله فإليه قد أخطأت.»

دخل «المسيح» ذات يوم إلى الهيكل يريد الصلاة وأنتظر فى رواق «سليمان» فدنا منه «نيقوديموس» الكاتب وقال له «يا معلم» لقد وقفت مرات عديدة خطيباً وفى خاطرى آية من الكتاب لا أستطيع فهمها» (٣٦٧).

قال «عيسى» «وما هى ؟»

قال «نيقوديموس» «هى قول ربنا لأبينا إبراهيم أنى أكون جزاءك العظيم فكيف وبأى شىء يستحق الإنسان هذا الجزاء وما معناه ؟»

فتهلل وجه «المسيح» وقال «حقاً إنك غير بعيد عن الملكوت إعطنى سمعك حتى تفهم ما أقول. إنك تقول إن الإنسان مخلوق كائن محدود وله نهاية فكيف يحصل على الله جزاء له والله غير محدود وليس له نهاية .»

«أليس هذا هو موضع شبهتك؟»

فبكى «نيقوديموس» وهو يقول «يا معلم» إنك تقرأ قلبي وتعرف ما يدور فيه فأخبرني بالحق فإننى أحب أن أعرفه ؟ .»

فقال «المسيح» : الحق أقول لكم إن الإنسان لا يستحق حتى النَّفس من الهواء الذى يتناوله دون مشقة كل لحظة .»

فأصاب الذهول كل من يستمع إليه وأعرض التلاميذ فى قلوبهم قائلين فى أنفسهم كيف قال لنا من قبل أنه مهما بذلنا فى سبيل الله فسوف نأخذ من الله مائة ضعف بل ربما أكثر ونظفر بالحياة الأبدية وها هو يقول إن الإنسان لا يستحق شيئاً حتى النَّفس من الهواء .

ملאתهم الحيرة وأخذوا ينظرون فى شك إلى تقلب «المعلم» وتغير كلامه من وقت لآخر .

قال «المسيح» «صديق غنى أقرضكم مائة قطعة من الذهب فأخذتم قرضه ثم بدأتُم تنفقونه بإسراف شديد حتى نفذ ثم شعرتُم بحاجتكم إلى بيت تستقرون فيه وليس معكم مال لتشتروه وفذهبتم إلى صديقكم الغنى وقلتم له «يا صاحب أعطنا بيتاً نستقر فيه بعد التعب وسوف نعطيك ثمناً له ورقة عنب متعفنة!!»

«هل تستحقون ذلك البيت الذى تطلبون بهذه الورقة العفنة ؟! هل ورقة عنب عفنة لا معنى لها ولا فائدة تعد ثمناً للبيت الذى تريدونه؟ هل يجب على صاحبكم الغنى أن يعطيكم البيت الذى له مقابل الثمن الذى تعرضونه عليه. إنكم حتى لم تردوا الدين الذى أخذتموه؟!»

قال «نيقوديموس»: «كلأ يا معلم» بل يجب أن نرد الدين أولاً ثم إذا أردنا أن نشترى شيئاً فعلينا أن ندفع ثمننا لا ثقا بماذا تنفع ورقة متعفنه ١٩ .

قال «المعلم»: بالحق أجبت أيها الأخ فانظروا الآن أن الله خلق الإنسان بعد أن كان لا شيء ووهبه كل شيء لأن هذه السماوات والأرض بكل ما فيها مسخرة لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان صرف كل هبات الله له في محاربة الله بالمعصية فانقلبت الأشياء لتكون حرباً على الإنسان فكان الشقاء الذي يكابده في الدنيا ثم هو يطلب من الله البقاء الدائم في الرحمة ولا يقدم ثمناً لذلك إلا أعمالاً عفنة أفسدتها الخطيئة لأن الخطيئة تفسد كل عمل الإنسان لذلك قال «أشعيا» النبي ، «إن صلاحنا ليس أفضل من خرقة حائض .»

«كيف يكون للإنسان استحقاق عند ربه وهو غير قادر على ترضيته بل هو يصير على إسقاطه بإصراره على المعصية .»

«فهل هناك إنسان لا يخطئ؟»

«هل تظنون الإنسان لا يخطئ؟»

«إليكم ما قاله «داود» نبي الله «إن الصديق يخطئ في اليوم الواحد أكثر من سبع مرات ؟ فكم مرة يخطئ الفاجر ١٩»

«وإذا كان صلاحنا مكروها فاسداً بخطايانا فكم يكون فجورنا ممقوتا .»

«إن أوجب شيء على الإنسان أن يتركه هو قوله إني «أستحق» فلو عرف الإنسان حقيقة ما قدمته يداه لأدرك على الفور أنه لا يستحق إلا الجحيم»

«الحق أقول لكم

إن كل عمل صالح يقوم به الإنسان هو هبة من الله .»

«إن الله خلق الإنسان وأرسل إليه الأنبياء ليعلموه طريق النجاة ويحفظونه من

الشیطان وسخر كل شيء لخدمته حتى الملائكة فانظروا كم يكون الدینُ الذى علينا كبيراً وأنظروا هل يمكننا رده حتى نقول أننا نستحق بعد ذلك الحياة الأبدية. ومن جود الله الذى لا يستطيع وصفه أنه لا يريد فقط أن يمنحنا جنته بل يريد أيضاً أن يمنحنا «روحه» لنتمكن من رؤيته ونعرفه فنحیی به ويتجلى فينا وبهذا يكون الله هو جزاؤنا العظيم كما قال «لأبراهيم». إن «إبراهيم» لا يستطيع أن يقول هذا جزائى أو أنى استحق بل يقول هذه هبة الله. إن الله يحب التواضع الحقيقى ويمقت الكبرياء .»

شكر «نيقوديموس» «المعلم» وكان قد عزم أثناء حديث «المسيح» إليه أن يتخلص من «النفاق» فأخذ قراراً بأن يستضيف «المسيح» فى بيته مع تلاميذه قائلاً «يا سيدى هل تسمح لى أن أنال شرف نزولك عندى فى البيت فإن خادمك يريد أن يقدم لك ولتلاميذك طعاماً ، وأراد «المسيح» أن يكافئه على شجاعته فقال «أذهب الآن معك على أن تعدنى أن تدعونى أخاك وليس سيدك فإنك أخى لا خادمى .»

ذهب «المعلم» مع تلاميذه ليقیموا فى بيت «نيقوديموس». خرجوا من الهيكل بعد الصلاة والكهنة والكتبة يتميزون من الغيظ بما فعله «نيقوديموس» الذى كان يعد أعلم شيوخ الفريسيين وأكثر الكتبة فقهاً وها هو ينخدع بسحر «الساحر» وويستضيفه فى بيته. أما بسطاء الناس فقد تعجبوا وأخذوا يتساءلون هل اقتنع رجال الهيكل أخيراً أن هذا القادم من الناصرة هو «المسيح» فعلاً وهل آمنوا بنبوته وهل سيتعاون رجال الهيكل مع «الناصري» ويساعدونه لتنصيبه ملكاً لليهود ؟

وبينما كان «المعلم» مع تلاميذه على مائدة «نيقوديموس» الذى ملأه السرور ينزل «المعلم» فى بيته سأل «يا معلم» ما معنى التواضع الحقيقى وهل هناك تواضع كاذب أو غير حقيقى ١٩» (٣٦٨)

قال «المسيح» «التواضع الحقيقى هو أن تعود طفلاً صغيراً .

ولن تدخلوا الملكوت إلا إذا عدتم أطفالاً.»

وتعجب الجمع من كلامه فقالوا : «وكيف نرتد أطفالاً. إن هذا كلام عسير .»

قال «المسيح» «إذا سألتكم طفلاً عن ثوبه من الذى أعطاه له فيقول لكم أبى وإذا سألتموه عن البيت وعن الحذاء وعن الطعام وعن أسمه وعن كل شيء له يقول لكم إنه لأبى وأبى هو الذى أعطانيه فإذا قلتم مالمّا نرى رأسك معصوبة بالأربطة. من الذى شج رأسك وكيف سقطت ١٩.»

«يقول لكم أنا الذى سقطت لأن أبى علمنى المشى ولكننى أحببت أن أسرع قبل أن أتعلم جيداً فوقعت لأننى لم أكن مستنداً إلى أبى فشجّ رأسى وجاء أبى ليضمدها لى وعصبتها بتلك الأربطة.»

«هكذا يشعر ويقول الطفل الصغير عن أبيه وكذلك ينبغى أن يكون شعور الانسان المخلوق إزاء الله خالقه.»

«التواضع الحقيقى هو أن يشعر الإنسان أن آلهه الذى خلقه ووهبه كل شيء هو مصدر الخير الوحيد وأن نفسه نفس الانسان هى مصدر كل شر لأنها هى التى تأمره بالسوء وتسول له المعصية.»

«أما التواضع الكاذب فهو إدعاء التواضع فإن الكاذب يقول بلسانه أنه متوغل فى الخطيئة ويعد نفسه أكبر المذنبين لينال استحسان المستمعين إليه فإذا قال له واحد يا خاطيء أو إنك مخطيء امتلأ بالغضب وأخذ يضطهده. هو الذى يقول أن الله قد أعطاه كل شيء وأجزل له العطاء ولكنه من جانبه لم يقصّر فقد صنع كل شيء بإحكام واتقان حتى حصل كل هذا الثراء بسبب صلاحه ومجهوده كما هو حال الفريسيين فى هذا العصر التعس.»

وانفجر الكاتب الفريسي «نيقوديموس» باكياً وهويقول : «أيها الزمن القديم كم كنت

قاسيا معنا إذ أخذت منا الفريسيين الحقيقيين وتركت لنا الكاذبين الذين انتحلوا لأنفسهم إسم الفريسيين وثيابهم ولكنهم فى الحقيقة ليسوا أكثر من كنعانيين عبدة أصنام وليت شرهم يقف عند حدودهم بل هو يتعدى إلى غيرهم لأنهم يُضِلُّون البسطاء الذين لا يعلمون الكتاب ويجبرون غيرهم من الذين يريدون أن يقولوا الحق على الصمت بما لهم من سيطرة.»

قال «المسيح»: «يغفر الله لك يا أخى إن الزمن لم يقسو علينا ولم يأخذ منا شيئا بل هو الذى أعطانا كل شئ وعبادة الله للحق بالحق ممكنة فى كل وقت ولكن الناس يفسدون بالإندماج فى العادات الرديئة والتقاليد الفاسدة والتعاليم الزائفة.»

كان «المسيح» يتحدث فى بيت «نيقوديموس» مجتهداً أن يبلغ الناس آخر ما عنده من كلام الله حين طرقت الباب «مريم» المجدلية حيث أَلْقَتْ بنفسها عند قدمي «المسيح» باكية وهى تقول بصوت يقاوم النحيب «يا نبي الله إن أخى لِعازر قد سقط مريضاً ولقد تركته مشرفاً على الموت وخرجت أبحث عنك فى كل مكان فى «أورشليم» حتى دلتنى بعضهم على هذا البيت فإن شئت يا نبي الله أن تأتى معى لتضع يدك عليه وتصلى من أجله لينال شفاءه» (٣٦٩) ثم غلبها البكاء على أمرها فقال لها «المسيح»: «إهدنى يا مريم ولا تخشى شيئا فإنه سيستعيد صحته أين بيتك وإنى أذهب الآن إلى هناك إن شاء الله» قالت: «يا سيدي إن بيتى فى «المجدل» ولكننى تركته وتركت كل شئ هناك منذ أن نلت رحمة الله بصلاتك وأننى أعيش الآن مع أخى «ليعازر» وأختى «مرثا» فى «بيت عنيا».

فقال لها «المسيح»: «فأذهبنى الآن إلى إخيك وأمكثى فى جواره وإنى أتى لأشفيه بإذن الله فأذهبنى بسلام». فخرجت المرأة مسرعة ومكث «المسيح» فى بيت «نيقوديموس» يومين يعلم التلاميذ طريق النجاة محاولاً أن يصلح ما أفسدته التعاليم الفاسدة والنصوص الخاطئة .

(٢٨)

إخراج الموتى

«يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ،

(الحج آية ٥)

ثم تذكر «المسيح» «ليعازر» ووعد «لمريم» فاستأذن من «نيقوديموس» ليذهب ليرى المريض الذى ينتظره.

وكان «نيقوديموس» قد أخبر «المسيح» والتلاميذ بما يحاول الكهنة وكبار الكتبة القيام به للتخلص من «المعلم» فامتلا التلاميذ بالرعب وقالوا «يامعلم إن الشيوخ والكهنة يطلبونك فدعنا نهرب من هنا» فلم يلتفت إليهم «المسيح» وقال «أعلم أن ساعتى قد اقتربت وأعلم أنهم يدبرون لقتلى لكن الذى يمشى فى النور يعلم من أين أتى وإلى أين سيذهب ولذلك فإنه لا يخاف لأنه يمشى فى النور أما من يمشى فى الظلمة فإنه لا يعرف إلى أين سيذهب ولا بد له أن يخاف لأن النور ليس معه ومن المؤكد أنه سيعثر.» (٣٧٠)

«أليس النهار إثنى عشرة ساعة . فلماذا لانعمل مادام هنا نور. يجب أن نعمل بطاعة الله مادام معنا نوره لأنه سيأتى الوقت الذى ينزل فيه الظلام ويستحيل علينا العمل».

ثم سكت لحظات وعاد ليقول «إن «ليعازر» حبيبنا قد نام لكنى سأذهب بإذن الله لأوقظه» فقال التلاميذ ولم يزل الخوف يملأ قلوبهم يودون القرار من «اليهودية» كلها «يامعلم» مادام قد نام فلا بد أن يكون قد استراح فهو سيشفى من مرضه» يقصدون فلاداعى للذهاب إليه وتعريض أنفسنا للخطر. ربما قبض علينا رجال الهيكل وأسلمونا للسلطة تحت أية تهمة.

فقال «المسيح» ليصحح خطأ فهمهم «إن ليعازر قد مات» و«أنا أفرح من أجليكم لتؤمنوا.»

وتحمس «توما» وقال للتلاميذ «يجب أن نذهب مع «المعلم» وإن قتلوه فلنمت معه.»

وسار الجمع الصغير متجها إلى «بيت عنيا» لإخراج «ليعازر» من قبضة الموت (٣٧١)

عندما وصلوا إلى مشارف «بيت عنيا» إتجه «المسيح» إلى القبور وأرسل بعض تلاميذه يسألون عن بيت «مريم» ويخبرونها أن «المعلم» قد جاء وأنه ينتظرها عند القبور.

ووصل رسل «المسيح» حيث وجدوا البيت يزدحم بالزوار الذين جاعوا يعززون «مريم» وأختها «مرثا» فتقدموا إلى «مريم» وأختها وأخبروها بما قاله «المعلم» لكن «مريم» كانت حزينة جدا وغاضبة من «المعلم» الذي وعدها أن أخاها لن يموت وهاهو قد مات ودفن منذ أربعة أيام وعدها أنه سيأتى ليرى أخاها المريض الذى يحبه والذى كان فى أمس الحاجة إليه ولكنه تأخر ولم يف بوعده حتى فات الوقت ولم يعد فى الإمكان إرجاع ماقد ذهب إلى الأبد. رفضت أن تقوم لتذهب إلى «المعلم» فاضطرت «مرثا» أن تذهب مع التلاميذ رسل «المسيح» إلى القبور حيث قابلت «المعلم» معاتبة وقالت «لو كنت معنا أيها المعلم ما مات أخى» «لو أنك جئت فى موعده لكنت تستطيع أنقاذه لكنك تأخرت كثيرا حتى...» وغلبها بكاء حار ومزير يعبر عن أسف عميق لايمكن علاجه فقال لها «المسيح» «لاتبك ولا تخزنى فإن أخاك سيقوم من رقادته. إنه راقد الآن وقد جئت لأوقظه».

قالت «أيها السيد لقد مات ودفن منذ أربعة أيام».

قال «ثقى يا بنية أنه سيقوم من رقادته».

قالت «يا معلم إننى أعلم أنه سيقوم من رقادته الذى تقول عندما يبعث الله من فى القبور. أعلم أنه سيقوم فى يوم الحساب عندما ينفخ الملاك فى البوق.» «تقصداً كنت جئت لتلقى علينا موعظة فى الموت والبعث فلسنا فى حاجة إليها فإننا نؤمن بما تنوى قوله.»

لكن «المسيح» فاجأها بقوله : «صدقينى أنه سيقوم الآن من رقادته وليس يوم القيامة لأن الله قد أستمع لصلاتى وأعطانى قدرة على رقادته»

فألجمت المفاجأة «مرثا» وقبل أن تفيق من ذهولها قال لها «أذهبي وأخبري «مريم» أن المعلم ينتظرها عند القبور».

فهرولت «مرثا» إلى أختها وأسرت إليها بما قاله «المعلم» فأسرعت «مريم» تعدو خارجة من البيت والذين جاؤا إليها لتعزيتهما تعجبوا وهم يرونها تجرى وتتركهم فبعضهم انتظر في البيت ولكن كثيرين منهم ذهبوا وراءها لأنهم ظنوا أنها تذهب الى القبر لتبكي على أخيها الشاب الذي رحل قبل الأوان «إن موته المفاجئ قد ذهب بعقلها».

اقتربت «مريم» من «المسيح» وخرت عند قدميه وبكت «ياسيد لو كنت هاهنا معنا مامات أخى لماذا لم تأت كما وعدتني».

وبكت المرأتان في حرارة وبكى «المسيح» لبكائهما وبكى بعض الحاضرين تأثرا وقالوا «أنظروا كيف كان يحبه».

ثم قال «المسيح» «لاتبكوا. كفوا عن البكاء إنه ليس أكثر من رقاد وقد أتيت لأوقظه».

فقال بعض الفريسيين الذين جاؤا وراء «مريم» «ليتك ترقد أنت هذا الرقاد» همسوا بذلك فيما بينهم ساخرين لكن «المسيح» أدرك ما قالوا فالتفت إليهم وقال لهم «لاتتعجلوا فإن ساعتى لم تأت بعد ولكن متى جاءت فإنها لاتأخر لحظة واحدة ولاتتقدم وسأصعد ثم أعود».

فذابت الإبتسامة الساخرة من وجوههم وتحيروا من كلامه الذى يشبه كلام المجانين

ثم قال «لاتبك يا «مريم» فإنه سيقوم إنني سأوقظه لماذا إذن قد جئتُ إليك الآن».

توقف الجميع عن البكاء وانتظروا متربصين يريدون رؤية «المعجزة».

قال «المسيح» «دلونى على القبر» فقالت «مريم» و«مرثا» «ياسيد له أربعة أيام لابد

أنه قد أُنْتِن» (٣٧٢)

قال «المسيح» فى إصرار «دلونى على القبر».

فتقدم بعضهم نحو القبر ورفع الحجر من فوق فوهته كما أمر «المسيح» إذ كان القبر يشبه المغارة وأنبعثت رائحة نتنة من الفوهة فابتعد الجميع لأن الرائحة كانت شديدة تزكم الأنوف وشخصوا بأبصارهم لينظروا ماذا سيفعل ذلك الانسان «الغريب».

وقف المسيح قريباً من القبر ونطق بصوت سمعه كل الذين كانوا حاضرين قال «رب إبنى أشكرك إذ أجبت نداء عبدك ليؤمنوا أنك قد أرسلتني بالحق اللهم رب ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب أرحم هاتين المرأتين وأعط مجداً لإسمك القدوس».

ثم صاح بصوت مهيب «لِعازر هلم خارجاً».

فصدم عيونهم منظر الميت الملقوف بالأقمطة يغطى رأسه المنديل وهو يندفع من القبر كأن شيئاً قد قذفه الى الخارج وطفق يحاول جاهداً أن يفك الأربطة حول جسده والمنديل الملقوف حول رأسه يغطى وجهه ويضايق نفسه فقال «المسيح» «فكوا أربطته» فاندفع التلاميذ يحررون «لِعازر» من قيوده فسار نحو «المسيح» فى هدوء وثقة وانحنى ليقبل يده فمسح «المسيح» على رأسه بيده وقال «تبارك القدوس الذى يحيى الموتى» وعاد «المسيح» الى بيت «لِعازر» وسط الجمع الفرحان بعودة الميت الى الحياة ليُفاجأ الذين قدموا لتعزية «مريم» و«مرثا» فى شقيقهما بالمتوفى يرجع الى بيته مع الرجل القادم من الناصرة وتلاميذه.

وأسرع الكثيرون الى «أورشاليم» ينشرون الخبر وزاد اضطراب رجال الهيكل وحقدهم على هذا «الساحر» الذى لا يتوقف عن إظهار ألعابه وعجائبه التى تبهر الناس خاصة وأن «الفصح» كان على الأبواب وبدأ الكثيرون من كل القرى والمدن يذهبون الى «أورشاليم» للتطهر وحضور العيد فى الهيكل. اجتمع الكهنة والكتبة ليتدبروا أمرهم وفكروا فى قتل «لِعازر» (٣٧٣)

لأن حركته فى الطرق وأكله وشربه بين الناس كان يجدد الحديث عن معجزات «الناصرى» ومال الكثيرون ليكونوا «نصارى» لكن قتل «ليعازر» ربما أثار فتنة أكبر وأعطى «الناصرى» تأييدا يمكن أن ينقلب فى لحظة واحدة إلى نقمة عارمة تحل على رجال الهيكل القتلة من الشعب الذى يتوهم أن «الناصرى» قد أتى لخلاصه ورد الملك إليه.

جلس «المسيح» على المائدة فى بيت «ليعازر» حيث أقام العائد من الموت وليمة كبيرة تكريما «للمسيح» وابتهاجا برجوعه إلى الحياة وحضرها مع التلاميذ جمع كبير من الذين كانوا قد جاؤا للتعزية فى «ليعازر» من أهل «بيت عنيا» والقري التى حولها ومن «أورشاليم» نفسها وجلست «مريم» أخت «ليعازر» عند قدمي «المسيح» لم تفارقه أبدا. ظلت تجلس إلى جواره وهو على المائدة لا تريد أن تبتعد عنه لحظة واحدة وهى تصيح سماعها الى مايقول وتمعن النظر فى معنى كلامه وترمقه بين الحين والآخر بنظرة متطلعة كأنها كانت تودعه إذ أحس قلبها الذى تظهر بالنور أن «المسيح» على وشك مغادرة الدنيا الفاجرة التى لم تؤمن به رغم كل الصخب الذى يظهرونه إزاء رؤية «المعجزات».

وكانت «مرثا» منشغلة جداً بإعداد الطعام وتجهيز الصحاف إلى حد الارتباك فنظرت إلى أختها القابعة فى هدوء تستمع فى صمت الى «المسيح» وقالت «أنظر يا معلم الى «مريم» إنها لاتبالى بك ولاتتعب نفسها فى خدمتك وخدمة الضيوف تتركنى أعمل وحدي فمرها أن تقوم لتساعدنى»

قال «المسيح» : «انتبهى يا «مرثا» فإنك إنما تضطربين وترتكين لإنشغالك بأمر كثيرة ولكن الحاجة دائما إلى واحد فانظرى يا «مرثا» إلى «مريم» لتعرفى مايجب عليك أن تفعله إن «مريم» قد اختارت نصيبها الصالح الذى لن ينزع منها إلى لابد.»

ولم تفهم «مرثا» وظلت تغدو وتجيئ لتعد المائدة.

قال «المسيح»: «إخوتى لم يبق لى معكم على الأرض إلا لحظة قصيرة من الزمن لأن موعد انصرافى قد اقترب لذلك أحب أن أوصيكم فأذكركم بكلام الله بلسان «حزقيال»

النبي عندما قال «أقسم بذاتي أنا الحى الذى لايموت إن النفس الخاطئة تموت ولكن إذا تاب الخاطئ فإنه لن يموت بل يحيى الى الأبد» «إعلموا يا أخوتي أن موت الجسد الذى نشهده بحواسنا فى هذه الدنيا ليس هو الموت الحقيقى الذى قصده الله فى كلام «حزقيال» بل الحق أقول لكم إن هذا الموت لأبعد إلا نهاية لموت طويل استمر سنوات طويلة هى كل عمر الانسان فى هذا الجسد».

«إن الجسد عندما يفقد «الحس» بالغيبوبة فإنه ينتظر أن يرجع إليه «الحس» ليقوم وكذلك المدفون فإنه ينتظر أن تعود إليه «نفسه» بقوة «الروح» ليقوم كما قام «ليعاذر» وأنت تشهدون».

«موت الجسد ليس إلا أن يُسلب منه «الروح» لتفارقه «النفس» راجعة الى الغيب. إن النفس ترتبط بالجسد كما تمسك اليد بالعصفور بواسطة الخيط فإن أمر «الرأس» اليد أن تقلت العصفور انبسطت اليد وانطلق العصفور وكذلك تنتقل النفس عائدة الى ربها تحملها الملائكة الذين وكلهم الله بقبض الأنفس».

«لكن الموت الحقيقى هو مفارقة النفس لرحمة الله. إن أنفسنا طالما ظلت فى رحمة الله فهى كما قال النبي «داود» «كعصفور أفلت من الصياد». «إن الأصدقاء سيكون عندما يموت صديقهم مع أن «الله» هو الذى حكم بهذا ولا يجب أن نعترض ولكنهم لا يكون عندما يخطئون مع أن النفس بالخطيئة تفارق الحياة إذ تفارق رحمة الله وهو الحياة الحقيقية».

«وإذا كان الجسد الميت يصير شيئاً بشعاً كريهاً لمجرد أن النفس الحاضرة بقوة «الروح» قد فارقت فكيف تكون النفس التى أهلكها الله بشعة كريهة إذ تفارق رحمة الله. أمعنوا النظر إلى جثة متعفنة ثم حاولوا أن تدركوا كيف ستكون النفس التى انفصلت عن ربها بشعة ممقوتة. كان الله هو الذى يُجملها لأنه هو الجمال الحقيقى. إنه هو حقيقة الجمال» (٣٧٤)

فقال «ليعازر»: «يا نبي الله هذا البيت وكل ما أملك قد صار لله خالقى الذى وهبى الحياة وقد وهبت كل ما أملك لخدمة الفقراء فإن كنت يا نبي الله فى يوم من الأيام محتاجاً لك تلاميذ كثيرون تعولهم فتعالوا إلى هنا متى شئتم وأننى أخدمكم حبا فى الله».

قال «المسيح» (٣٧٥)

«انظروا ما أطيب الموت، إن «لِعازر» مات مرة واحدة فقط لبضعة أيام ولكنه قد تلقى تعليمًا لا يعرفه الحكماء الذين أفنوا عمرهم بين الكتب.»

قال «يحيى بن زبدي» «يا معلم لماذا لم ينعم الله على الناس بأن يموتوا مرة واحدة ثم يرجعوا كما حدث مع «لِعازر» إنهم بهذا يعرفون أنفسهم ويعرفون خالقهم !؟»

فأجاب «المسيح»: «كان هناك رب بيت لديه حقل نمت فيه أشجار كثيرة حتى حُجبت بيته عن الناظرين.»

«فأستأجر عاملاً وأعطاه فأساً جديدة وقال له إذهب إلى الحقل وشذب الأشجار» فذهب العامل ولكنه نسي الفأس الجديدة التى أعطاهها له رب البيت وأخذ يشذب الأشجار بيديه فأصابه عنت شديد وأخذ يقول لنفسه ماذا لو أعطانى السيد فأساً حتى لو كانت قديمة لتساعدنى فى عملى، لقد أخطأ رب البيت وكان قاسياً معى إذ لم يعطنى فأساً قديمة. فجاء رب البيت وقال له يا أحمق أنسيت الفأس الجديدة التى أعطيتها لك ثم ضربه بها على رأسه وقال له «لقد أُعْطِيتَ فأساً جديدة لتعمل دون تعب فنسيتها وهما أنت تطلب الآن فأساً قديمة مع أنها ستضطررك للتعب ولن يكون عملك متقناً لأننى أريد الأخشاب المقطوعة أن تكون مستقيمة فبماذا تنفعلك القديمة وقد تركت الجديدة» ثم قال «أليس صاحب البيت على حق».

قال «يحيى»: «نعم هو على حق.»

قال «المسيح»: «الفأس الجديدة هى منظر دفن الميت وتحول الجثة إلى شيء يشع فلو

استعمل الإنسان هذه الفأس فى إزالة الغشاوة من على قلبه لأزال غابة الخطيئة من نفسه دون ألم ونال رحمة الله ونعمته فظفر بالحياة الأبدية دون مشقة لأن أعماله سوف تكون صالحة ولكن الناس يغفلون عن الموت وهم يدفنون كل يوم إنسانا. يضعونه فى التراب وينسون أنهم سيموتون مثله ثم يقولون آه لو رأينا العالم الآخر لعلنا أعمالا صالحة يا يحيى ما أحكم الذين يتعلمون من سقوط الآخرين كيف يقفون على أقدامهم .»

«أما الذين ينتظرون ويسوفون فإن الله سينزل عليهم غضبه وليضربنهم بالموت ولن ينالوا خيرا من بعده أبدا.»

تضاربت أفكار ومشاعر الذين استمعوا الى حديث «المسيح» فبينما استولى الحزن على بعضهم إذ أعلن أن موته قد أوشك استولى الفزع على آخرين. لأنه تحدث كما تحدث «نيقوديموس» عن تدبير رجال الهيكل لقتله ، لأن التنكيل بأتباعه وتلاميذه الذين لازموه سيكون أمرا محتماً وبدأ كل واحد من التلاميذ يفكر فى المصير التمس الذى انتهى إليه سيرهم. هل يا ترى سيُذبَحون بالسيف أم سيصلبون كالمشاغبين طبقا للقانون الرومانى ؟! وأستولت خيبة الأمل على الجميع خاصة التلاميذ الذين كانوا يأملون فى صعود «ملك اليهود على العرش .أطبق الصمت وزالت الفرحة بعودة «ليعازر» من الموت. حل مكانها الغم الذى ملأ القلوب. لقد نصبت مصيدة الموت .هل يهربون وإلى أين وكيف يستطيعون الإختفاء؟؟؟ وماذا سيعملون بعد هروبهم؟! أسئلة كثيرة أخذت تدور فى الرؤوس وتديرها حتى أوشك الجميع أن يفقدوا تمالكهم .

قامت «مريم» من عند قدمي «المسيح» وأختفت قليلا. نظروا إليها دون إهتمام لأن الإهتمام الحقيقى كان بالمصير المجهول الذى يفتح فمه ليبتلعهم ثم عادت فى هدوء وهى تحمل قارورة تمتلأ بالعطر فسكبتها على رأس «المسيح» وجسده .(٢٧٦)

لقد فاحت رائحة العطر النادر حتى ملأت البيت كله ولم يتمالك التلاميذ أنفسهم

خاصة «يهودا الأسخريوطى» وكان «المسيح» يترك معه صندوق المال الذى تُجمَع فيه الهدايا والصدقات التى تقدم «للمسيح» لينفق منها على نفسه وتلاميذه والمحتاجين .

اندفع يهوذا وقد بدأ يفقد أعصابه بعد حديث «المسيح» عن الموت الوشيك قال غاضبا «ما هذا يا امرأة إن عطرا كهذا يساوى أكثر من ثلثمائة قطعة من الفضة...»

«لماذا هذا الإلتلاف الذى يحرمه الله كم فقير كان يمكنهم أن ياكلوا بثمن هذه «القارورة». كان يمكنك أن تبيعينها وتعطينى ثمنها لأضعه فى الصندوق». اضطربت المرأة وأصابها الفزع من غضبة يهوذا الإسخريوطى ونظرت «للمسيح» تستغيث به .

قال «المسيح» «أسكت يا يهوذا ودعها . لماذا تمنعها . إن الفقراء معكم فى كل وقت أما أنا فلا .»

«إنها فعلت ذلك من أجل تكفينى .»

. «الحق أقول لكم أنه حيثما يذكر «المسيح» فى الدنيا فإن ما فعلته هذه المرأة سيذكر ليظل تذكارا خالدا لها .»

كانت «مريم» لا تحب شيئا أكثر من العطور وتحفظ دائما بأثمنها . فلما أدركت أن «المسيح» أوشك أن يغادر الدنيا حزينا لكفر الناس به ورفضهم لتبشيريه أرادت توديعه ومواساته فأعطته أفضل ما تملك . أثمن زجاجة عطر عندها سكبتها بين يديه تعزية له عن سفره الشاق وقد أوشك أن يعود صفر اليدين .

أما «يهودا» فظل يقول «يا معلم كان يمكن أن يباع بثلاث مائة قطعة من الفضة فانظركم فقير كان يمكن أن ياكل منه .»

ولم يلتفت «يهودا» إلى ما قاله «المسيح» لأن كل قلبه كان يمتلأ بخيبة الأمل التى حاقت به فبعد أن كان يأمل أن يصير وزيراً على الأقل فى مملكة «عيسى» ملك اليهود واستبشر خيراً لأن السيد «المعلم» قد جعله أميناً لصندوق المال فكان يأخذ لنفسه العُشْرَ

من كل ما يُعطى «للمسيح» بإعتباره «المقدار الشرعى» الذى يجب للهيكَل أن يأخذه من أموال رعاياه لكن ها هو «المعلم» الغريب يقضى على كل أماله بحديثه الذى لا معنى له عن الموت .

أبعد أن تركنا أهلنا وأموالنا وسرنا على الأقدام متنقلين من قرية الى أخرى ومن مدينة الى أخرى ننام فى أى مكان كالكلاب الضالة التى لا صاحب لها ونأكل على موائد الآخرين كأننا متسولون وكنا نصبر حتى يتحقق الحلم ويتغلب ملكنا الموعود على أعدائه لنظفر بالمال وبالسطة ونعوض كل أيام الشقاء يأتى هكذا فى لحظة واحدة لينهى كل شىء بحديث ممجوج لا معنى له عن «الموت». لماذا لم يتكلم صراحة. ليقول إننى خائف من رجال الهيكَل وإنهم سوف يقتلوننى وإننى لا أستطيع الدفاع عنكم يا تلاميذى الأعزاء فقد زال عنى «السحر» الذى كان يهبى قوتى وعدتُ شخصا عاديا لا حول ولا قوة له .

كان يجب أن يكون شريفا وصادقا معنا نحن الذين تركنا كل شىء من أجله .

لقد تحرش بكل القوى وأهان جميع الطوائف حتى جلب على نفسه وعلينا بغض الجميع ولكنه قد أدرك مؤخرا أنه لا قبل له بمواجهة جبروت «روما» وسلطة الهيكَل ففضل أن يتحدث عن هزيمته المحتممة بطريقة نبيلة تخفى المذلة التى سوف يعانها لكنه إذا كان قد اختار أن يموت بشرف كما يتوهم فإننى يجب أن أنجو بنفسى وأعيش شريفاً كما أريد ولا سبيل إلى ذلك إلا باللجوء إلى رجال الهيكَل والتعاون معهم .

عزم «يهوذا الأسخريوطى» على أن يذهب سراً إلى رئيس الكهنة ويتفق معه على أن يساعداه على الإمساك بالمدعى «عيسى الناصرى» مقابل ثمن معقول فإن كانت الغلبة للهيكَل فقد فُزْتُ بالمال والحظوة عند رجال الهيكَل بعد زوال «الساحر» وإن كان الفوز من نصيب «معلمنا» فمن سيذكر إتفاقي مع الهيكَل بعد زوال سلطانه؟! يجب أن أسرع قبل أن يسرع غيرى من الذين ينافقونه و«المخبول» يتوهم أنهم يؤمنون به ومستعدون للقتال معه .

وقام «المسيح» يودع «ليعاذر» و«مريم» و«مرثا» واعدأ أياهم بأن ينزل عندهم ضيفا
كلما حل بالقرب من «بيت عنيا» ثم شق طريقه إلى جبل الزيتون إذ استولت عليه
الرغبة فى الإعتزال والصلاة استعدادا للإبتلاء القادم. كان يريد أن يجهز نفسه ويتطهر
لللقاء الله.

وبينما كان «يهوذا الأسخريوطى» فى «أورشاليم» لشراء بعض الطعام «للمعلم»
وزملائه التلاميذ تسلل متخفيا إلى «رئيس الكهنة» الذى كان فى اجتماع مع كبار الكهنة
والشيوخ يفكرون كيف يصطادون «الساحر» الناصرى بعد أن نجحوا أخيرا فى إستصدار
أمر يهدد بالموت كل من يدعى أن «عيسى الناصرى» «ملكا لليهود». لقد استراب الكاهن
الأكبر وبقية المجتمعين معه فى هذا الشخص الغريب الذى يكاد يخفى وجهه كله ويطلب أن
يجتمع مع كبير الكهنة على انفراد لأمر هام جدا وبعد تردد شديد وافق كبير الكهنة على
اللقاء فى غرفة منفصلة بعد أن أتخذ التدابير الكافية لأنه كان يخشى أن يكون هذا الغريب
القادم فى الليل متخفيا هو أحد أتباع «عيسى» وقد جاء للإنتقام إذ لا بد أن «شياطينه»
وجنوده قد أبلغوه بالأمر الذى استصدره «بنيلاطس» والذى كان على وشك إعلانه فى
الهيكل منقوشا على لافتة من النحاس كالأمر السابق الذى سبق إصداره والذى كان يهدد
بالموت كل من زعم أن «عيسى الناصرى» هو الله أو إبن الله .

طلب كبير الكهنة من زائره أن يكشف له عن وجهه قبل أن يتكلم معه إذ لا يُعَقَل أن
يتكلم كاهن الله مع رجل يتخفى فى حضرته والإقليد هب دون لقاء فأضطر «يهوذا» إلى
الكشف عن وجهه وخشية أن يكون كبير الكهنة قد رآه من قبل فى صحبة المدعو «عيسى
الناصرى» أو علم من أحد بأنه من الذين يلزمون «المعلم» الناصرى فى تجواله الذى لا
ينقطع بادر «يهوذا» يقول فى صوت ذليل «يا سيدي الكاهن الأكبر إنني واحد من الذين
كانوا مخدوعين فى المدعو «عيسى الناصرى» ظناً منى أنه رجل صالح وحكيم جاء يعلمنا
شريعة الله حتى تبين لى أنه رجل مخادع جعلنا نترك كل شىء من أجل أوامره المجنونة.»

كان «كبير الكهنة» يمعن النظر إلى وجه «يهوذا» الذى يحاول أن يبدو فى صورة العبد الخاطيء الذى جاء مستغفراً يريد أن يتوب .

لكن «كبير الكهنة» ظل يرتاب فى أمره ويريد أن يعرف سر هذه الزيارة الغريبة فاسرع «يهوذا» يحقق المطلوب قائلاً : «لكننى لما تبينت خطاه إذ رأيته يهين الهيكل ولا يوقركهنة الله وشيوخ الشعب لما تبين كل ذلك لى أسرع بالمدىء إليك عازماً على التكفير عن خطيئتي وحماقتي بإتباعه أثناء انخداعى به وذلك بأن أسلمه إليك مقبوضاً عليه فى فرصة موالية وأعتقد أنكم ستقدرون لى هذه الخدمة التي أؤديها للهيكل المقدس ورجاله العظام... نعم ستقدرونها خير تقدير خاصة إذا علمتهم أننا بسببه تركنا أهلنا وأموالنا وتحولنا إلى متسولين يجوبون القرى والمدن ويأكلون علي موائد الأغراب».....

«أعتقد أنه من حقى أن أحصل على تعويض عن فترة الضياع تلك .»

«مجرد خائن باحث عن المال» هذا ما حدث به كبير الكهنة نفسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة جمعت بين فرحته بالنجاح الوشيك الذى تعددت طرق الوصول إليه وبين الشبماته فى ذلك «المعلم» المتغطرس الذى لم يحترم أحداً والإحتقار لهذا الخائن الذى باع سيده لكنه رحب «ببهوذا» قائلاً «مرحباً بك يا بنى وأنت تعود إلى صوابك ولا شك أن الهيكل المقدس سيقدر لك هذه الخدمة الجليلة التى تقدمها لله وستجد التعويض الكافى عن ضياعك الذى تحدثت عنه أثناء انخداعك بذلك «الساحر» الشرير الذى يبدو أن سحره قد زال أخيراً .»

وأبتسم «يهوذا» وهو يسمع أنباء التعويض الكافى لكن كبير الكهنة عاد ليقول «ولكنك تعلم يا بنى أن الفصح بعد يومين فقط ، بل أقل من يومين فما نحن فى آخر الليل وأوشك الفجر أن يأتى ولاشك أن «أورشاليم» المقدسة ستمتلاً بضيوها الذين يأتون إليها زاحفين من كل القرى والمدن للتطهر وحضور الفصح ولا شك أيضاً أن نسبة كبيرة من كل هؤلاء قد أنخدعوا مثلك بأوهام «الساحر» الناصرى ولذلك فإن القبض عليه فى مثل هذه الظروف

أمر يهدد بإشعال فتنة في الشعب لا يعرف أحد إلى أين ستنتهي .»

وأجاب «يهوذا» وهو يشعر أن كبير الكهنة يساومه لتقليل قدر التعويض المطلوب
«بالطبع يا سيدي الكاهن الأكبر فإننا لن نتمكن من الإمساك به في مثل هذه الظروف ولكن
عندما تأتي فرصته موالية».....

«ولا بد أنك تعلم يا سيدي الكاهن الأكبر أنه غالباً ما يبيت في العراء في جبل الزيتون
أو تحت الأشجار على الطريق وفي الأماكن النائية ولا شك أننا نستطيع بإذن الله أن
نمسك به في واحد من تلك المواقع ثم «(وحرك يهوذا يده على رقبته إشارة للذبح) وواصل
كلامه « وينتهي كل شيء .»

وأنتبه الكاهن إلى ما في كلام الخائن من إحتقار له فهو يكلمه كما لو كان صديقاً له
في عصبية من القتلة وصاح غاضباً «ماذا تقول أيها الأحقق .»

ففزع «يهوذا» «ما الذي أغضبك يا سيدي الكاهن العظيم .»

قال «أو تظن أننا نريد قتله كما تقول .»!

«أيها الخاطيء الغبي إننا نريد أن نمسك به ونقدمه إلى محاكمة عادلة تنزل بـ
القصاص العادل لفتنته وإضلاله للشعب الذي خُدع به» فقال «يهوذا» متملقاً الكاهن
المنافق «نعم نعم يا سيدي الكاهن ولكن السؤال هو كيف يمكن تقديمه لمحاكمة عادلة كما
تقول يا سيدي» .

قال الكاهن وقد هدأ قليلاً وبدأ التفكير يستولى على ذهنه «إنك لا تعلم أن أمراً قد
صدر بالقبض على كل من يزعم أن «عيسى الناصري» هو ملك اليهود ونحن الآن ندبر
كيف يمكن إثبات أنه يدعو لتنصيب نفسه ملكاً أمام بعض الشهود الذين سوف يرضون
بأداء الشهادة أمام «بيلاطس» ويقوم «بيلاطس» بصلبه بإعتباره مشاغبا متمرداً على سلطة
«روما». على هذا النحو يمكننا الخلاص منه بون أن نلوث أيدينا أو نثقل ضمائرنا الطاهرة

بدمه. ليتحمل «بيلاطس» قتله وليظل الهيكل يا بني نظيفاً مقدساً. إننا نريد أن ننقذ الشعب المخدوع من ضلاله».

قال «يهوذا» وهو ممتلاً بالغیظ من هذا الكاهن المنافق الملعون الذى يريد أن يستغنى عن خدمته ليضئع عليه المكافأة المطلوبة أو على الأقل يساومه لتقليلها «نعم يا سيدى ولكن السؤال هل ستستطيعون أن تصطادوه؟! حقا يا سيدى. إنه ضال ولكننا يجب ألا ننكر أنه ماكر جدا. إنه مثل الحية التى لا يستطيع أحد الإمساك بها. يروغ ممن يطلبه مثل الثعلب وينتبه للفع الخصب المنسوب له فى الخفاء فيدوسه دون أن يقع فيه وأخشى يا سيدى ألا تنجحوا فيما ترمون إليه. الأفضل «عمل مباشر» فى ظرف مناسب ولا تخش الشعب يا سيدى فإنه لن يفعل شيئا وهل فعل شيئا وقد ذبح «يحيى» فى السجن ذبح الأغنام. لم يزل «هيروودوس» رئيساً للجليل كما نعلم». وابتدأ الكاهن يفكر بعمق فيما قاله «يهوذا». حقا يبدو أن هذا «الخائن» على حق. وأرتسمت على وجه «يهوذا» ابتسامة ساخرة وهو يدرك أنه قد استطاع أن يستعيد الكاهن الأكبر إلى المصيدة حتى لا تضيع المكافأة.

قال الكاهن «نعم يا بني. ربما كان ما تقول صواباً ولكن ينبغي الحذر والحرص ومراعاة كل الظروف والإحتمالات حتى لا تفلت الأمور من أيدينا».

قال «يهوذا» وقد تأكد من فوزه بالغنيمة «سيراعى كل ذلك يا سيدى الكاهن لاتخش شيئا. سيكون كل شئ على مايرام»

فتسأل الكاهن فى حيرة «كيف يا بني؟!

قال «يهوذا» فى ثقة «عليكم الآن أن تدبروا قوة كافية من خدم الهيكل وبعض الجنود الذين يمكن ضمان حماستهم ببعض الأموال ولاشك أن أموال الهيكل كثيرة – أليس كذلك يا سيدى؟! فتقاضى الكاهن عن سؤاله الوقع وقال له فى غضب «أكمل ثم ماذا ؟»

قال «لتكن هذه القوة تحت الطلب بحيث يمكن استدعاؤها فى أى لحظة ولتزود بأسلحة كافية ومشاعل لأنه من الأفضل أن يكون وقت القبض عليه ليلا حتى إذا كان فى مكان محصور يمكن السيطرة عليه والوقت ليلا والناس نيام انقضضنا عليه وأمسكنا به ثم لتقدمه بعد ذلك للمحاكمة العادلة التي تراها، ولاشك أنك لن تعدم شهودا على التهم التي تريد أن تلصقها به فأموال الهيكل كثيرة ياسيدى الكاهن أليس كذلك ؟!»

«أيها الخائن الطماع» ولكنه كتم مشاعره وأخذ يفكر فيما قاله «الخائن الطماع».

فوجد أنه تدبير حكيم جدا. يجب أن نمسك به أولاً ثم ماأسهل تدبير محاكمة عادلة تنتهى بصلبه والتخلص من شره.

فقال «ليهوذا» «حقا يابنى سيسكر الله لك ماصنعة من أجل خدمة هيكله المقدس وسنكون نحن كهنة الله مسرورين جدا بك».

«أين المكافأة» «أين التعويض المناسب. ماذا سأفعل أنا بسرور كهنة الله» قال «يهوذا» للكاهن «بلاشك ياسيدى الكاهن ولكننا لم نتفق بعد ؟!»

«كيف يابنى لقد اتفقنا على كل شئ سأذهب لتوى لأبشر بقية الكهنة والشيوخ وسأدبر لإعداد قوة كافية لتكون تحت الطلب».

فقاطعته «يهوذا» «ولكن أين المكافأة أين تعويضى عن زمن ضياعى. لم تقل لى كم ستدفع ؟» - «يابنى سأدفع لك كل ماتطلب ولكن بعد أن أراه مقيدا بالأغلال وأسلمه الى الوالى الرومانى ليصلبه فلاتخف سأعطيك كل ماتطلب».

- «ومن يضمن لى ياسيدى الكاهن أنك لن تنسى فى غمرة فرحك بالقضاء على «الساحر» الشرير تنسى أن تعطينى أجرى».

- «بالطبع يابنى لن أنساك»

— «ولكن من يضمن لى»

— «ومن يضمن أن خطتك المحكمة هذه ستنجح فعلاً وسنمسك بالمدعو» عيسى
الناصرى «فى أيدينا ؟»

— «إذن فأنتم لا تثقون فى»

— «كلاً يا بنى ليست مسألة عدم ثقة فىك لكن المسألة هى أننا يجب أن ندفع ثمننا
حقيقياً مقابل شئ حقيقى. إننا ندفع الثمن مقابل البضاعة التى نتسلمها من البائع وليس
مقابل وعد بتسليم البضاعة لقد وعدتنا أن تسملنا «عيسى الناصرى» بالقوة التى سنعطيهها
لك ونحن وعدناك بأن نعطيك ماتطلب إذا فعلت هذا فكما ترى نحن على ثقة تامة فى وعدك
فكن على ثقة كاملة فى وعدنا ، والله على ما نقول شهيد».

«الكاهن الملعون يريد أن يحصل على طلبه دون أن يدفع شيئاً! ، كلاً هذه خيانة قذرة!!
لا بد أن يدفع شيئاً» قال «ياسيدى الكاهن لا بد أن أحصل على شئ حتى أستطيع أن أفكر
جيداً وأنا اتحسس النقود فى جيبى»

— «كم تريد ؟»

— «يمكنك ياسيدي أن تقدر قيمة هذه الخدمة وأنظر كم خسرت الهيكل منذ طرد
«الساحر» الشرير منه الصيارفة وتجار الأبقار والاغنام والحمام ؟»

« أيتها الخائن الطماع تريد أن تسرقنا» وقال له : «قل كم تريد ؟»

— «لن أثقل عليك أعطنى ثلاثين قطعة من الفضة الآن لأننى خسرت بالفعل هذا المبلغ
منذ قليل ولكن هذا سيكون مجرد مقدمة أما الأجر الكامل فسيكون ثلاث مائة قطعة من
الذهب وأظن أن «الساحر الشرير» يساوى أكثر من هذا كما أن الهيكل المقدس لديه
الاموال الكثيرة ويمكن بعد أن يرجع الصيارفة والتجار إليه أن يحصل أكثر من ذلك بكثير
أضعافاً مضاعفة».

– «الآن ١٩ كيف وأنت لم تقل لنا أين هو الآن ومتى ستأتي به وكم جنديا تطلب و...»
 «إن خطتك البارعة لم تزل في رأسك وليس من العدل أن ندفع نقوداً حقيقية مقابل
 بعض الأفكار الرائعة التي لاتعنى شيئاً إلا إذا تاملنا «الساحر» الشرير في أيدينا»
 «أيها البخيل الملعون وهل هي أموالك أو أموال أبيك. إنكم لصوص تبيعون للناس
 الأوهام وتأخذون أموالهم مقابل أفكار رائعة لاتعنى شيئاً علي الإطلاق. ولكن لا بأس سنتفق
 وسأحصل على أجرى كاملاً منك أيها الملعون البخيل» قال «ياسيدي يجب أن نتفق الآن
 حتى يمكنني أن أستمّر في خدمتي وإلا فلننسى كل ما قيل الآن وكأن شيئاً لم يكن».
 وأضطرب الكاهن «ماذا يريد هذا الخائن الطماع ١٩»
 وعاد «يهوذا» ليقول : «وصلتُ إلى حل وسط ستعطيني ثلاثين قطعة من الفضة يوم
 أن أتى إليك لأخذ الجنود على أن تعطيني بقية أجرى عندما تتسلم ماتريد. اتفقنا ؟»،
 قال الكاهن : «اتفقنا»
 وخرج «يهوذا» محاولاً تغطية وجهه لأن الليل كان قد أوشك أن يذهب ونور الفجر
 يتقدم. كان يسرع بالخروج من بيت رئيس الكهنة قبل أن يراه أحد ليلحق «بالمعلم» المنقطع
 للصلاة في جبل الزيتون.
 وأسرع كبير الكهنة الى الذين كانوا ينتظرونه على أحر من الجمر ويتسألون فيم كل
 هذا التأخير حتى ضاع الليل كله .

(٢٩)

الإنذار الأخير

«وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شئ عليم ،
(التوبة ١١٥)

مكث «المسيح» فى الصلاة بينما التلاميذ يتبعثرون فى جبل الزيتون تشتتهم الحيرة
ويمزقهم الخوف وهم يفكرون ما هو المصير ؟

وأين المفر ١٩

لقد تركوا كل شئ المال والأهل والسكن وظلوا يجوبون الطرق من الجليل بل من
بادية الشام (الجلولان) شمالا حتى حدود أدومية جنوبا ينتقلون من قرية إلى مدينة
ومن مدينة إلى قرية يستمعون إليه وهو يعظ فى الجامع وفى الهيكل ويشهدون
عجائبه ومعجزاته.

لقد بهرتهم قدراته الخارقة وطلاقة لسانه ومقدرته التى لانظير لها على إفحام
خصومه والهروب من الفخاخ التى تنصب له فى يسر ومهارة حسده الجميع من أجلها
لكنه هاجم الجميع وأستهزأ بكل الطوائف والفئات ولم يترك له ولما . جلب على نفسه وعلىنا
نحن الذين لازمناه عداوة الجميع ولكننا كنا نقول سيهزم الجميع وسيصعد فوقهم ملكا
متوجا لا يستطيع أحد أن يغتصب منه عرشه وسنصعد إلى جواره فى المجد الذى ناله لكن
هاهو يتركنا بمفردنا بلا حول ولا قوة فى مواجهة الجميع الذين شحذوا سيوفهم وكشروا
عن أنيابهم لياكلونا كذبيحة العيد فى هذا الفصح.

سنكون ذبيحة هذه السنة وإلى الأبد. نعم لابد أن يقتلونا بعد أن ينتهوا منه.

فأين المفر ؟ هل نهرب والى أين ؟!

كانت «أورشاليم» تميد من صخب زوارها الذين أتوها ليشهدوا العيد وكان الجميع يتساعون أين ذهب السيد «الناصري» الذي قالوا أنه «ملك اليهود» الذي سيرد إليهم مجد أبائهم ويستعيد ملك أبيه «داود». هل تراه فر هاربا ولم يجد نفسه أهلاً لمحاربة الرومان الذين أصدروا أمراً بقتل كل من يزعم أن «عيسى» هو ملك اليهود. لقد علقوا اللافتة النحاسية في الهيكل التي سجل عليها هذه الأمر ، فهل تراه أثر السلامة لينجو بنفسه.

إن فراره سيذبح آمال كل الذين تطلعوا إلى وجهه وتنسموا نسيم المجد العائد بعد طول غياب أم أنه سيظهر فجأة ممتطيا ظهر جواده الذي لا يکبو رافعا سيفه الذي لا يقهر مناديا بأعلى صوته «أنا الملك» «المجد لإسرائيل شعب الله».

هل لم يكن أكثر من مغامر طائش استطاع أن يسرق حواس جمهوره ويسلب أفئدتهم «بسحره» ثم زال سحره فعاد عبداً مسكيناً من الشعب اليهودي الذي يرعى في مملكة «روما» «المقدسة» .

وخرج «المسيح» من صلاته.

انتبه التلاميذ إلى ظهوره من الكهف الذي كان يصلى فيه فأسرعوا إليه يريدون أن يعرفوا أين سيدفع بهم هذه المرة الأخيرة. كان وجهه شاحبا ممتقعا. كل شيء فيه يقول «لقد تعبت وأريد أن استريح» ورغم ذلك أشار بوجهه إلى أنه ذاهب إلى «أورشاليم». هل هذا وجه ملك يستعد لتسلم عرشه وهل هذه مشية فاتح يريد أن يقتحم «أورشاليم» «سيدة المدن» ويستردها من الرومان «لقد هلكنا ورب الهيكل. نحن الآن نسير رغما عنا إلى حتفنا».

ظل «المسيح» يسير هادئا صامتا مطرقاً إلى الأرض ينظر إلى الطريق الحجري الذي يعبره وتحيط به الصخور القاسية من كل جانب والتلاميذ يسترقون النظر الى وجهه من حين لآخر .

وجهه الحزين وصمته المخيف ونظرة عينيه كل ذلك كأن يقول لهم بأفصح عبارة «إننا نقترّب من الكارثة».

(٣٧٧) وأعتصره ألم الجوع. إنه لم يتناول شيئاً منذ عاد من «بيت عنيا» فسار هادئاً إلى شجرة تين بدت له على البعد. كانت مشيته تفصح عن تعبهِ وسأر التلاميذ وراءه. عندما اقترب من التينة لم يجد إلا ورقاً ولم يجد فيها ثمراً فقال لها «منذ الآن لن يكون منك ثمر إلى الأبد» وبدأت التينة في الحال تعاني من التيبس أخذت تجف وتضمر وهي تنثّر كأنها ميت يُحتَضَر والتلاميذ ينظرون ويتعجبون.

وشعر بالتعب فجلس على الأرض

(٣٧٨) وأرسل اثنين من تلاميذه قائلاً «ستجدان هناك» - وأشار بيده - «جحشاً مربوطاً فحلاه وأتيا به إليّ وإن وجدتم أحداً من البشر هناك وسألكم ماذا تفعلان أو لماذا تحلانه فقولاً له إن «المعلم» محتاج إليه فسوف يتركه لكم».

جلس ينتظر وبقية التلاميذ يتعجبون كيف عرف أن هناك جحشاً مربوطاً ويتساءلون هل يدخل الملك راكباً جحشاً صغيراً ليفتح سيدة المدن ؟!

عندما وجد التلميذان الجحش كما وصف «المعلم» بالضبط بكيا بكاءً مرّاً لأنهما سخرأ في الطريق من «المعلم» الذي أذهب الجوع والخوف بعقله وفرشاً ثيابهما على الجحش الصغير إذ أحبا أن تلامس ملابس السيد «المسيح» ملابسهما لعلهما يظفران ببركة «مسحته».

وجاء الجحش الصغير يتقدم التلميذين الباكيين فتهلل وجه «المسيح» وقام نشيطاً ليدخل «أورشاليم» التي كانت تنتظره في اضطراب. دخل «المسيح» سيدة المدن راكباً جحشه الصغير اخترق السوق وسط دهشة الجموع الغفيرة التي كانت تنظر إليه في تعجب أهكذا يدخل «الملك» مدينته، ؟!

لقد فرح الذين كانوا يقولون أنه لابد أن يأتى إذ يستحيل ألا يكون فى «أورشاليم» فى الفصح وخاب أمل الذين توقعوا هروبه وظنوا أنه فر خوفاً من أمر «بيلاطس» المعلق فى الهيكل ومن كيد رجال الهيكل لكن وجهه الحزين وجحشه الصغير صدموا الجميع الذين فرحوا به والذين خاب أملهم.

ونزل «المسيح» عن جحشه وأسرع الى الهيكل والجموع الغفيرة تسرع وراءه لتتظرو ماذا يحدث ؟

استولى الإضطراب على رجال الهيكل الذين كانوا قد أوشكوا على الراحة لإعتقادهم أن المدعو «عيسى» قد هرب لينجو بنفسه ورغم أنهم كانوا قد أعدوا كل شئ لإيقاعه فى المصيدة إلا أن هروبه وذوبانه فى صخب الدنيا الواسعة كان أفضل لهم حتى من نجاحهم فى إصطياده لأن هروبه كان يعنى هزيمته الى الأبد. كان يعنى موته حقيقة وإن استطاع أن ينفذ بجلده من أحد ثقوب المصيدة التى أعدوها له . لو كان قد هرب لكانوا قد حققوا فوزاً غالياً دون أدنى تعب.

أما الآن فإن عليهم مرة أخرى أن يحاولوا اصطياده من جديد.

«مأدمت قد عدت يا «عيسى» وأصررت على المواجهة فلا بأس أنت وماتريد. أنت الذى تصر على أن تجعل معركتنا حتمية ودموية ولا بد فيها من منتصر ومن مقتول.»

وأخرجوا الفخاخ التى كانوا قد أعدوها لإصطياده (٣٧٩)

تقدم إليه واحد من الجمع باكيا يقول له «يامعلم قل لأخى أن يعطينى نصيبى من الميراث». المطلوب هو أن ينطق «المعلم» بحكم الشريعة ويدعو الأخ الظالم لإعطاء حق الله الى المظلوم وبهذا يمكن إحضار «الشهود» الذين يشهدون صادقين على أنه كان يحاول أن ينفذ حكم الله فى الشعب فهو إذن يظن نفسه ملكاً يحكم رعيته.

قال «المسيح» «أيها الإنسان من الذى أقامنى عليكما قاضيا أو مقسماً»، ثم ألتفت للجميع وقال «انتبهوا وأحذروا من الطمع. هل حياة الإنسان بأمواله ؟»
«هل الذى عنده مال أكثر يحيى أكثر من غيره ؟»
«هل المال يقى صاحبه من الموت ؟»
«إسمعوا هذا المثل».

«كان انسان غنى أخصبت أرضه وفاض محصوله حتى لم يجد مكانا فى مخازنه يضع فيه الثمار الكثيرة التى استطاع جمعها وبدلا من أن يتصدق على الفقراء بما زاد حتى على مايمكنه تخزينه. بدلا من أن يفعل الخير قال لأبنين مخازنا جديدة واسعة تكفى لتخزين كل هذه الثمار الوفيرة ثم أخذ يهدم مخازنه القديمة ليبنى مكانها أخرى أوسع وهو يمنى نفسه بأنه سيستطيع أن يجمع فى مخازنه كل مااستطاع أن يحصده. ستكون مخازنى الجديدة كافية لحفظ كما أحتاجة حتى آخر عمرى فاكل وأشرب واستريح سنين طويلة بلاكد ولا تعب ونام وفى هذه الليلة نفسها التى جدد فيها مخازنه جاءه «الموت» وقال الله له «أيها الغبى ستؤخذ منك نفسك الآن فتلك المخازن الجديدة قل لى لمن أعددتها».

«وهذا هو حال المستغنى بماله عن «الله» الذى خلقه». وفشلت الخطة ولكن لابس من المحاولة مرة أخرى.

دخل «المسيح» إلى الهيكل واتجه ناحية الخزانة حيث جلس على الأرض يريد أن يعلم الناس الذين اجتمعوا إليه فأشار إليهم أن يجلسوا على الأرض وقبل أن يبدأ وعظه (٢٨٠)
اندفع إليه بعض الفريسيين ومن بينهم كتبة وهم يدفعون أمامهم امرأة مكشوفة الشعر مهلهلة الثياب قد بدا الرعب فى وجهها. أخذوا يجرونها فى غلظة حتى أوقفوها فى الوسط وفى أصوات غليظة قاسية صاحوا «يامعلم هذه المرأة قد أمسكت فى زنا. أمسكت

وهى فى ذات الفعل وهؤلاء هم الشهود الذين يشهدون عليها . لقد أوصانا موسى فى
الناموس أن مثل هذه ترجم فماذا تقول أنت يا «معلم»؟ (٢٨٠)

«هل ترجمها أم لا ؟»

المهم أن يصدر حكماً سواء وافق الشريعة أو خالفها لأن المطلوب هو أن يشهد بعض
الناس أنه يتصرف كما لو كان ملكاً يقضى بحكمه بين أبناء شعبه .

وأخذوا يصيحون ماذا تقول يا «معلم» ؟

«ما هو حكمك على هذه الزانية الفاجرة ؟ أن ترجمها أم لا ؟»

ظل «المسيح» جالساً مطرقاً وهو يكتب على الأرض بأصبعه كأنه يرسم والكتبة
والفريسيون يلحون عليه ويصيحون «قل لنا حكمك» "ما هو حكمك؟!"

ثم قام وأشار بيده إلى الموضع الذى كان يرسم فيه بأصبعه وقال «من كان منكم بلا
خطيئة فليترجمها بحجر» ورغما عنهم نظروا إلى موضع إشارته فبدأ لأعينهم كأن هناك
مرأة ظهرت عليها سيئاتهم فرأى كل واحد منهم رجسه فأخذوا يجرون بسرعة من أمامه
كأن أسداً قد أقبل عليهم والناس من حولهم تنظر فى دهشة ولا تعرف ما السبب فى
هروبهم المذعور هذا ولا ما يجرى بالضبط أما المرأة الواقفة فى مذلة فقد أخذت تبكى فى
صمت وهى تشعر بالهانة وفى غمرة الدموع التى أغرقت قلبها انساب فى الظلمات نور
هادئ كأنه يأتى من بعيد يشق طريقه فى صمت ودون صخب بيدد الظلمات التى لا تستطيع
أن تحتل حضوره .

قال لها «المسيح» «أيتها المرأة أين المشتكون عليك أما أدانك أحد منهم؟!»

قالت وهى تحاول أن تنظر الى وجهه المشرق الحنون من وراء المطر الذى ينزل
من عينيها .

«لا أيها السيد قد انصرفوا جميعاً فإن صفت عني فإننى لا أخطئ أبداً بعد الآن»

قال «المسيح»: «تبارك الله القدوس ولا أنا أدينك وقد غفر الله لك، اذهبي في سلام
الله ولا تخطئي من بعد.»

وتجمع الناس حوله ورؤساء الكهنة والشييوخ لا يعرفون ماذا يفعلون، كان زعر الذي
ذهبوا بالمرأة الزانية سبباً في قلب كل خطيئتهم رأساً علي عقب فمن الذي سيجرؤ الآن
على الذهاب لإصطياده ، هل يستطيع أحد أن يدخُل هذا «الساحر» القدير في المصيدة ؟
يبدو أنه لابد من «العمل المباشر» «لنرسل بعض خدم الهيكل» وأخذوا
يفرونهم بالمال ليمسكوه.

(٣٨١) وجاء بعض الأغنياء يختالون في مشيتهم وراحوا يلقون النقود في الخزانة وهم
يضحكون وتتعالى أصواتهم والجميع ينظرون إليهم وإلى كثرة أموالهم وجاءت امرأة عجوز
فأخرجت من منديلها فلسين وألقتهما في الخزانة في هدوء وذابت في صمت وسط الجمع
المحتشد حول خزانة الهيكل فلقت «المسيح» انظار تلاميذه والجمع الملتف حوله وقال
«أنظروا الى هذه الأرملة المسكينة. الحق أقول لكم أنها وضعت في الخزانة أكثر مما ألقى
كل هؤلاء الأثرياء لأنها أعطت كل مالها قربانا للرب، ألقى في الخزانة كل معيشتها ، أما
هؤلاء فإنهم يلقون ما فاض بعد كل إنفاقهم.»

ووقف الخدم الذين جاؤا ليمسكوا «بعيسى» يستمعون إلى ما يقول «وسحرهم»
بوجهه المشرق وصوته الحنون الحزين والحكمة التي ينطق بها لسانه «ليس هناك انسان
آخر في هذا الهيكل يتكلم بمثل هذا السلطان. لأحد منهم يستطيع. فليذهبوا هم ليمسكوا
لو استطاعوا أمّا نحن فلا».

ورجع الخدم إلى رئيس الكهنة والمجتمعين معه دون أن يمسكوا «بالمسيح» فصاح
فيهم غاضبا لماذا لم تأتوا به ؟

(٣٨٢) قالوا «لأنستطيع، ما رأينا إنساناً قط يتكلم مثله» فصاح كبير الكهنة هل ضللتم أنتم أيضاً أيها الملاعين؟».

وصاح الشيوخ المجتمعون فى غضب «إن هذا الشعب الملعون الذى لا يفهم الناموس سوف يلقي به فى جهنم.»

ولم يتمالك «نيقوديموس» نفسه من الغضب فصاح «هل ناموسنا الطاهر يدين إنساناً لم نسمع منه، لنسمع أولاً مايقول، إننا لم نعرف ماذا فعل بل فى الحقيقة لم نسأله من أنت وماذا تريد. هل ناموسنا الطاهر يبيع قتل إنسان لم نسأل أنفسنا من هو؟ وماذا يريد؟»

فاندفع الشيوخ الآخرون والكهنة يقولون «لعلك قد ضللت أنت أيضاً يا «نيقوديموس» «ولم لا ألسنت من الجليل أصلاً؟ ألا فلتعلم أنه لم يقيم قط نبى من الجليل. قد أصبحت «ناصرياً». ربما كنت من الناصرة أيضاً؟»

«إذهب وفتش. لم يقيم نبى من الجليل هذا مؤكداً». وكتم «نيقوديموس» غيظه وذهب إلى بيته ولم يجد كبير الكهنة والمجتمعون معه بدأ من الخروج إليه لمواجهة. كان لابد من المواجهة الحاسمة فيها هو أحد كبار الكتبة يؤمن به ويعلم ذلك فى حضور كبير الكهنة والشيوخ وهام الخدم خدّم الهيكل يقولون مارأينا. أحداً مثله والناس قد التفتت حوله غير عابئة باللافتة التى تتوعد بالموت كل من يزعم ان «عيسى الناصرى» هو ملك اليهود.

وجاء كبير الكهنة وبطانته

(٣٨٣) قالوا «إن كنت أنت «المسيح» فقل لنا علانية إلى متى تعلق نفوسنا؟»

قال «قد قلتم لكم ولكنكم لا تؤمنون والأعمال التى يظهرها الله بى تشهد لى ولكنكم لا تريدون أن تصدقوا». قالوا «كيف تكون أنت «المسيح» والمسيح يجب أن يكون من نسل

داود ويخرج من القرية التي ولد فيها داود، من بيت لحم يجب أن يأتي مسيح الله أما أنت
فإننا لانعرفك ولانعرف من أين جئت ولا من هو أبوك ١٩»

قال : «تكذبون إذ تقولون أنكم لاتعرفون من أنا ولا من الذى أرسلنى»

«وها أنذا أقول لكم إننى «المسيح» عيسى بن مريم» أرسلنى الله إليكم فلم أت إليكم
من تلقاء نفسى بل الله هو الذى أرسلنى إليكم ولكنكم لاتؤمنون به ولذلك لاتؤمنون بى».
فاندفع بعض الفريسيين يقولون له «أنت تشهد لنفسك» (٣٨٤) «فشهادتك
ليست حقا ١٩»

قال : «وإن كنت أشهد لنفسى فإن شهادتى حق لأننى أعرف من أين أتيت وإلى أين
أمضى أما أنتم فلا تعرفون من أين أتيتم ولا إلي أين تمضون ولكن فى ناموسكم أن
شهادة رجلين تكفى وقد شهد لى «زكريا» وأبنة «يحيى» أفنتكرون ١٩»

وأطبق الصمت على الجميع ولم يستطع أحد أن يعترض وواصل «المسيح» كلامه
«وسيشهد لى «رسول الله» الذى سيرسله الله رسولا إلى الناس أجمعين ولكنكم
لاتعرفونه لأنكم لم تؤمنوا بى فلو آمنتم بى لعرفتونه !!»

قالوا : «من أنت ومن هو أبوك ؟ أأنت ابن الزنا الذى حملته أمه سفاحا ١٩»

قال : «منذ كم من الوقت وأنا اقول لكم من أنا أفحتى الآن لاتعلمون. أبى هو «روح
القدس» الذى أعطى كل شئ حياته وأعطى كل نبي نبوته وكل مؤمن إيمانه، ولدتنى أمى
دون أب من البشر آية للناس أجمعين ليعلموا كيف خُلِقُوا وكيف تخلق الاشياء وليعرفوا
قدرة ربهم القادر على كل شئ الذى خلق الإنسان من طين وخلق «آدم» دون أب يحمله
فى صلبه ودون أم تنبته فى رحمها، أنا «ابن الانسان» الذى أظهر «روح القدس» للعالم
وسيشهد لى «روح القدس» عندما يبعثه الله رجلاً بشراً رسولاً إلى كل الشعوب والقبائل.
لو آمنتم بى عرفتم الحق والحق يحرككم.»

(٣٨٥) قالوا «إننا أبناء إبراهيم ولسنا عبيداً لأحد فكيف تحررنا أنت؟»

قال : «الحق أقول لكم إن كل من يعمل خطيئة فهو عبد للخطيئة فإن آمنتم بى كما يحب الله وتحررتم من الخطيئة صرتم بالحق أحرارا وكما أن رب البيت لا يبقى فيه إلا أبناءه لأن العبيد لابد أن يخرجوا فكذاكم لن تبقوا فى رحمة الله إلا بالإيمان بى لأن من يؤمن بى فإنما يؤمن بالذى أرسلنى .»

«إننى أعلم أنكم ذرية ابراهيم ولكن هل أنتم حقاً أبناءه؟»

«إن الابن يعمل أعمال أبيه فهل أنتم تعملون أعمال إبراهيم. إننى إنسان أكلكمم بالحق الذى سمعته من الله.»

«أليس هذا هو ماصنعه ابراهيم؟»

«إننى أكلكمم بما رأيته وسمعت من الله ولم أت إليكم من تلقاء نفسى بل الله هو الذى أرسلنى إليكم وآياته التى صنعها بيدي تشهد لى فلماذا لاتفهمون كلامى. إنكم تكرهوننى لأنى أكلكمم بالحق لذلك لاتستطيعون أن تسمعوا لى. أنتم تريدون قتلى.»

«فهل هذا هو ماصنعه إبراهيم. هل إبراهيم كان قاتلا لكنكم مثل «أبليس» لأنه منذ بدء الدنيا كان قتلاً للناس ولم يثبت فى الحق مثلكم ومتى تكلم فإنه يتكلم بالكذب مثلكم.»

«من منكم يستطيع أن يكتنى على خطيئة؟!»

«فإن كنتم تكرهوننى لأننى أقول الحق وأعمل به وتكذبون وتريدون قتلى فأنتم إذن أبناء «أبليس» وشهوات أبيكم الملعون تعملون لأن الذى من الله يسمع كلام الله ويؤمن به ولكن لأنكم أبناء «أبليس» فلذلك لاتسمعون كلام الله ولا تؤمنون به فانظروا الآن أبناء من أنتم.» قالوا : «نحن أبناء الله ولم نولد من زنا.»

قال : «لو كنتم أبناء الله حقاً لكنتم آمنتم بى وأحببتمونى ولكنكم لاتؤمنون وتريدون قتلى.»

قال «كبير الكهنة»: «حقاً إنك مجنون من ذا الذى يريد أن يقتلك بلا شك أنت سامرى يركب الشيطان ظهره فهو يضلك ولذلك لاتحترم كاهن الله ولاشعب الله وتتهمنا كذباً بأننا نريد قتلك».

قال «المسيح»: «حقاً إننى لست سامرياً ولايركب الشيطان ظهري ولكننى أريد أن أطرد الشيطان من هذا الهيكل الذى انحدر ليكون بيتاً للشيطان بعد أن كان بيتاً لله ولهذا يثير الشيطان ضدى حرباً شعواء»

(٣٨٦) قال كبير الكهنة: «فما المراد إذن يا عيسى بالمجيئ إلى الهيكل بكل هذا الجم الغفير من الناس ؟ أتريد أن تجعل نفسك ملكاً لليهود. هل أنت ملك شعب إسرائيل. إحذر من أن يحل عليك خطر عظيم من إدعائك هذا!!»

قال «المسيح»: «لو كنت أطلب الملك وأريد نصيباً من هذه الدنيا ما فررت من أهل «نايين» حينما أرادوا أن ينصبونى ملكاً. إننى لأطلب مجد نفسى بل مجد الذى أرسلنى. حقاً لست أطلب شيئاً من هذه الدنيا ولذلك يثير الشيطان ضدى حرباً شعواء ولو كنت أطلب مجدى وأريد أن أصبح ملكاً لإسرائيل لعبدتنى أنت وأمثالك ولكننى أقول الحق لذلك تبغضوننى وتريدون قتلى».

(٣٨٧) «أصيخوا إلى السمع أخبركم من الذى يركب ظهره الشيطان؟!»

«إنه الذى يعمل مايحبه الشيطان هذا هو الذى ركب الشيطان ظهره ووضع عليه لجام إرادته فهو يديره أنى شاء حاملاً أياه على الإسراع إلى كل إثم ورغم أن البشر جميعاً من طينة واحدة فإنهم يختلفون حسب إرادة الذى يعمل فيهم فالذين تعمل فيهم إرادة الشيطان هم بحق أبناء الشيطان»

«إن كنت قد أخطأت فلماذا لم توينى كأخ بدلاً من أن تبغضنى كعدو ؟»

«وإن كنت لم أخطئ فلماذا لاتسمعون لقولى» ١٩

«حقاً إن المؤمنين كلهم مثل أعضاء الجسد الواحد، إن أعضاء الجسد الواحد تحس جميعها بالألم الذى يشتكى منه عضو منها لماذا ١٩»

«لأنها جميعاً ترتبط بنفس «الرأس». فلو كنتم ترتبطون بنفس الرأس الذى كان إبراهيم يرتبط به لأمتمم بى ولو كنتم قد أخطأت كنتم توبخوننى كأخ وحينئذ تكونون طائعين لله لكن لأحد فيكم يمكنه أن يوبخنى على خطيئة فلماذا تكرهوننى لماذا تريدون قتلى ١٩»
«حقاً إنكم لستم أبناء إبراهيم كما تتوهمون ولستم أبناء الله كما تزعمون بل أنتم أبناء إبليس ١٩»

«أتزعمون أنكم أبناء إبراهيم وهو الذى لم يكتف بتعطيم الأصنام وقضاء عمره كله مهاجراً فى سبيل الله تاركاً المال والأهل والوطن بل عزم أيضاً على ذبح ابنه البكر طاعة لله ٩»

حينئذ قال «رئيس الكهنة» وقد وجدها فرصة ليوقف هجوم «عيسى» الكاسح وربما استطاع أن يؤلب الشعب عليه.

«يا هذا لسنا نريد قتلك ولكننا نريد سؤالك ٩»

قال «عيسى» «سؤالى عن ماذا ٩»

قال : «من ابن إبراهيم الذى كان سيذبحه ٩»

قال : «عيسى» «إن كنتم تريدون الكذب فإننى لا أكذب »

ثم احتدم وعلا صوته «يا الله إن غيرة شرفك تؤججنى هل يمكننى أن أسكت، كلاً، الحق أقول لكم إن إسماعيل كان هو ابن إبراهيم ومن سلالته ينبغى أن يأتى النبى الذى تتبارك به أمم الأرض جميعاً كما وعد الله خليله».

فقال «رئيس الكهنة» فى حنق وهو يمتلأ بالغیظ «انظروا إلى هذا الفاجر الذى یجذف على شریعة الله وعلى موسى».

فقاطعه «عیسی» «الحق أقول لكم إن من یؤمن بكلامى فله الحیاة الأبدیة»

(٣٨٨) فاندفع الكهنة والفريسيون يقولون «الآن علمنا أن فىك شیطان. قد مات ابراهيم والأنبياء من بعده وأنت تقول أن من یؤمن بك لا يموت أبداً. هل تظن نفسك أعظم من ابراهيم إن الانبياء جميعاً قد ماتوا فمن تجعل نفسك ؟»

قال «المسیح» : «أه من قلوبكم القاسية التى لاتريد أن تؤمن وأفئدتكم المظلمة التى لا تقبل النور. لست أجد نفسى لأن الله الذى أرسلنى هو الذى یمجدنى.»

"إنكم تزعمون أنه آلهكم ولكنكم لستم تعرفونه أما أنا فأعرفه لأنه هو الذى أرسلنى إليكم ولو قلت أنى لأعرفه صرت مثلكم كاذباً ولكننى أعرفه واحفظ كلامه الذى قاله لى. إن أباكم ابراهيم تهلل يوم مولدى وتمنى أن یرى يومى فرأى

«قالوا» «لم تبلغ الخمسين سنة وتزعم أنك رأيت ابراهيم ؟»

قال : «الحق أقول لكم إننى كنت فى السماء قبل أن یكون ابراهيم على الأرض».

فلم یتمالكوا أنفسهم من الغضب ولكنه واصل كلامه بينما بدأوا یستعدون «للعمل المباشر».

«الحق أقول لكم إنكم تطلبون قتلى ولكنكم ستهلكون بخطیئتكم وحيث أمضى أنا فإنكم لاتستطيعون أن تصلوا لأن الله سیرفعنى الى السماء كما كنت قبل أن أولد من رحم أمى أما أنتم فستبقون فى الأرض ولن تستطيعوا أن ترتفعوا.»

«الحق أقول لكم إنه لا یدخل من الباب إلا الراعى. أما السارق فإنه یأتى من موضع آخر» (٣٨٩)

«راعى الغنم یأتى من الباب والبواب یفتح له والخراف تعرفه فهى تسمع صوته وهو

يناديهـا بأسمائها فتستجيب له وتخرج معه ويسير فتسير وراءه أما السارق فإنها تهرب منه ولا تتبعه»

«الحق أقول لكم إننى أنا الراعى الصادق لذلك أتيتُ من الباب ولم أقفز من موضع آخر إن السارق يأتى ليسرق ثم يذبح أو يضيع أما أنا فقد أتيت لأهب الحياة لمن يؤمن بى ويتبعنى، إن خرافى تعرفنى وتسمع صوتى وتفهم كلامى ولذلك فهى تتبعنى ولى خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة ولابد أن أرجع إليها لأخذها وأهبها الحياة لتكون فى النهاية رعية واحدة وراع واحد» .

وزاد الإنشقاق بسببه فمن قائل لاتستمعوا له إنه مجنون قد مسته الشياطين وقال آخرون ليس هذا بكلام مجانين ولا من به مس الشياطين .

وقال بعضهم : «أرنا آية نؤمن بك» .

قال : «الآيات التى أظهرها الله على يدى تشهد لى ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي ولذلك ستهلكون ولن تكون لكم الحياة الأبدية أما خرافي فلن يستطيع أحد أن يخطفها من يدى» .

«قالوا» «أرنا آية نؤمن بك ؟» .

قال «إهدموا هذا الهيكل وأنا أبنيه لكم فى لحظة واحدة دون أن استعمل يداً واحدة» .
والجمتهم المفاجأة ولم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً .

صاح بعضهم «هذا الهيكل الذى بنى فى سنوات عديدة تبنيه أنت ودون أن تستعمل يداً واحدة»

قال «اهدموه ولنرى !!»

ماذا سنفعل مع هذا الساحر القدير الذى لا يستطيع أحد أن يمسه به» وبينما بدأ

رئيس الكهنة ومن معه يتيقنون أنه ما من سبيل إلا «العمل المباشر» كان المسيح يواصل هجومه الكاسح وقد علا صوته ولا أحد في الهيكل يستطيع أن يرد عليه. صاح قائلاً (٣٩٠) «على كرسي «موسى» جلس الكتبة فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وأعملوا به ولكن حسب أعمالهم هم لا تعملوا لأنهم منافقون يقولون مالا يفعلون».

«إنهم يحزمون أحمالا ثقيلة ويلقونها على اكتاف الناس ولكنهم لا يريدون أن يمسوها بأطراف أصابعهم. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرآؤون تعرضون عصائب رؤوسكم وتطيلون أهداب ثيابكم وتحبون المتكأ الأول في الولايم والمجالس والصفوف الأولى في المجمع والتحيات في الأسواق وأن يقول لكم الناس ياسيدى ياسيدى».

«أيها المرآؤون يامن تأكلون أموال اليتامى والأرامل ولعلّ تطيلون الصلاة أمام الناس كل أعمالكم تحبون أن ينظرها الناس لذلك فإنكم ستنالون عقاباً أعظم من كل الناس»

«وانتم أيها الكهنة»

«أيها القادة العميان القائلون من أقسم بالهيكل فلا يلتزم ولكن من أقسم بذهب الهيكل وجب عليه الوفاء أيها العميان أيهما أعظم الهيكل أم الذهب. إن الهيكل هو الذى يقدس الذهب».

«تقولون أن من حلف بالمذبح فليس بشئ ولكن من حلف بالقربان الذى على المذبح يلتزم.»

«أيها الجهال أى شئ أعظم القربان أم المذبح الذى يقدس القربان. من حلف بالهيكل فقد حلف به وبالسكن فيه ومن حلف بالسما فقد حلف بعرش الله والجالس عليه.»

«أيها القادة العميان الجهال إنكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا قطعة فضة واحدة ومتى حصلتموها كنزتموها لتجعلوا منها إبناً لجهنم حيث يتضاعف هناك به عذابكم. أيها

القادة العميان الجاهل إنكم تدققون فى البعوضة وتبلعون الجمل، أيتها الحيات السامة
يا أبناء الأفاعى من الذى أوهمكم أنكم ستقتلون من قبضة جهنم».

«لقد أرسل الله إليكم أنبياء ورسلا فكذبتموهم وقتلتم بعضهم وطاردتم آخرين من
مدينة إلى مدينة. يا أبناء قتلة الأنبياء إنكم ستملأون كأس أبائكم. الحق أقول لكم إنه
سيحل عليكم غضب من ربكم».

«يا أورشاليم» يا «أورشاليم»

«يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع أبناءك كما تجمع
الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولكنكم لم تريدوا. أيتها المدينة القاسية القلب لقد ضل
عقلك. كذلك يقول لكم الرب الذى أرسلنى إليكم «لقد أرسلتُ إليك عبدى لى يعيدك إلى
طريقى ويخرجك من الظلمات. ولكنك يامدينة البلبلة قد نسيت كل ما أنزلته بالجبارين الذين
عاندا. نسيت فرعون وماوقع لمصر والآن تطلبين قتل عبدى الذى جاء لينقذك من غضبى»

«أتظنين أنك تبقين وحدك دون عقوبة؟»

«أتتوهمين أنك تعيشين إلى الأبد؟»

«هل تنقذك كبرياؤك من يدى؟»

«كلا سيأتى إليك الجبارون بالجيوش فيحيطون بك وسأسلمك إلى أيديهم لتهبط
كبرياؤك إلى الجحيم».

«لأصفح عن الشيوخ ولا الارامل».

«لا أصفح عن الأطفال».

«سأسلمكم جميعاً إلى الجوع والسيف والسخرية. الهيكل الذى كنت أنظر إليه
برحمتى سأدمره حتى تصيروا مثلاً بين الأمم».

وتوقف لحظة كمن رأى شيئاً فجأة ثم قال «ها هو بيتكم يترك لكم خراباً ليس فيه

حجر علي حجر». ولم يكن هناك بد من «العمل المباشر وقد أعدوا لذلك عدتهم فقال رئيس الكهنة «ارجموا الفاجر الذي يجدف على الله وشريرة موسى»^(٣٩١) فاندفع الراجمون يلقيون بالحجارة التي جهزوها وينقضون عليه يريدون إهلاكه.

لكنه ذاب من أعينهم فأخذ بعضهم يضرب في بعض إذ توهم كل ضارب أنه يرى المدعو «عيسى الناصري» بينما كان «المسيح» قد خرج من الهيكل. أخذوا يشتبكون بالأيادي مع بعضهم كأن جنونا عارما قد أصابهم ورئيس الكهنة والقواد ينظرون في ذهول إلى ما يحدث ويصرخون في الجمع المجنون أن يهدنوا وأن يكفوا عن هذا العبث فلم يهدنوا إلا بعد أن سقط الكثيرون علي الأرض وسالت الدماغافاقوا من جنونهم ووقفوا مذهولين لا يعرفون ما الذي حدث بالضبط وكيف أفلت من أيديهم وكيف شبّه لهم حتى أن كل واحد منهم كان يراه وهو يضرب بالحجر وينقض يريد قتله.

^(٣٩٢) لما خرج «عيسى» من الهيكل والجمع المجنون يموج في الداخل بعضه في بعض رآه التلاميذة فأسرعوا وراءه. وكانوا يتعجبون جدا من كلامه. لا يصدقون أن هذا الهيكل العظيم سوف يهدم فقالوا له لما أدركوه «أنظر يا «معلم» الى هذا الهيكل العظيم ما أشد بنيانه وأقوى أحجاره وأنظر يا «معلم» إلى زخارفه وزينانه ما أبدعها ؟

يريدون أن يقولوا له هل يمكن أن يهدم كل هذا ، فنظر إليهم «المسيح» وهو يتعجب من قلة إيمانهم وغلظة قلوبهم وقال مؤكداً نبوته:

«الحق أقول لكم إن هذا الهيكل قد أوشك أن ينقض ولن يترك فيه حجر على حجر» وسار «المسيح» حزينا مطرقاً مذهولا من قسوة قلوبهم وكان التلاميذ مأخوذين بما شهدوا لا يصدقون ما سمعوا وما رأوا هذا الهيكل العظيم سيهدم؟ وما معنى أنه سيرتفع الى السماء ثم يعود مرة أخرى قبل أن تنتهي الدنيا وعن أى حظيرة أخرى يتحدث؟ ماكل هذا الاضطراب؟ لكنهم ظلوا صامتين طوال الطريق لأن غضب «المسيح» وصوته المحتدم في الهيكل قد أربع الجميع .

بينما كان «المسيح» يجلس بمفرده على جبل الزيتون ينظر إلى «أورشليم» التي تغرق في الظلام اقترب منه التلاميذ الحائرون وبعد تردد طويل سأله «يا معلم» متى يحدث هذا الذي قلته اليوم وما هي علامة رجوعك وانقضاء الدنيا (٣٩٢) ؟

قال «المسيح» : «إنتبهوا وأصيخوا إلى السمع حتى لا يضلكم أحد لأن كثيرين سوف يأتون بإسمي قائلين كل واحد منهم أنا «المسيح» ويضلون كثيرين. سيقول كل واحد منهم أنا هو «المسيح» وأن الزمان قد اقترب فلا تصدقوهم ولا تمشوا وراءهم.»

«ينبغي أولاً أن يتألم «ابن الإنسان» ويرفض من هذا الجيل ليرتفع إلى حيث كان قبل أن يولد».

«وينبغي أن يبشر «بالإنجيل» في جميع الأمم وحينئذ سيلقون عليكم الأيادي ويسلمونكم إلى الضيق ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم من أجل إسمي . سيأتي وقت يظن فيه من يعذبكم أنه يؤدي خدمة لله. سيطردونكم ويسلمونكم إلى المجمع والسجون وتساقون أمام الولاة والملوك الظالمين من أجل إسمي فيؤول كل ذلك لكم شهادة فلا تهتموا حينئذ كيف تدافعون عن أنفسكم ولا ماذا تقولون لهم وكيف تحتجون لأن «روح القدس» سيعطيكم حينئذ الحكمة التي لا يستطيع جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها. ولكن لا تتكلموا على أحد من الخلق لأن الأب سوف يسلم أبنه والإبن يسلم أباه وسيقوم الأخ على أخيه والأقرباء والأصدقاء على بعضهم البعض وهذه كلها هي مبتدأ الأوجاع. لكن الذي يصبر إلى النهاية فذلك هو الذي ينجو فبصبركم إقتنوا أنفسكم فإن شعرة واحدة من رؤوسكم لا تهلك. ولكن في هذه الفتن لا بد أن يعثر الكثيرون ويسلمون بعضهم البعض ويقوم الأنبياء الكذبة يفسدون تبشيري (انجيلي) ويضلون كثيراً من الناس وتبرد محبة الكثيرين وترون «أورشليم» محاطة بالجيوش فحينئذ إعلموا أنه قد اقترب خرابها.»

«وسوف تسمعون بحروب وأنباء حروب فانتبهوا وانتظروا ولا ترتاعوا لأنه لا بد أن يكون

كل هذا وليس هذا هو المنتهى لأنه لابد أن تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ويبشر ببشارة «الملوك» في كل الأرض شهادة لجميع الأمم ثم يأتى المنتهى».

«فتكون مجاعات وزلازل فى أماكن كثيرة وتكون رجسة الخراب التى قال عنها «دانيال» النبى قائمة فى المكان المقدس حيث لاينبغى فحينئذ ليهرب الذين فى «اليهودية» الى الجبال والذين فى وسطها فليفروا الى الخارج لأن هذه ستكون «أيام إنتقام» كما هو المسطور فى الكتاب. وويل للحبالى يومئذ والمرضعات. فى تلك الأيام سيكون ضيق وسخط شديد على هذا الشعب سيقع بكلمة السيف ويسبى إلى جميع الأمم وتكون «أورشليم» مداسة من الأمم حتى تكتمل الأزمنة وسيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكى يضلوا لو استطاعوا المختارين أيضا وسيكون حينئذ ضيق لم يكن أبداً مثله منذ بدء الدنيا ولو لم يقصر الله تلك الأيام من أجل مختاريه مانجا أحد ولكنه من أجل المختارين قصرها ثم ينزل حينئذ «ابن الانسان» ليقضى على تلك الفتن وتكون رعية واحدة وراع واحد. من أجل ذلك يحبني الله. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم فإن قالوا لكم هاهو فى البرية فلا تخرجوا وإن قالوا هاهو فى المخادع قد جاء الى بيوتكم فلا تصدقوا.»

«لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر فى المغارب كذلككم يكون أيضا مجيئ «ابن الانسان» حين يعود إلى هنا ومن شجرة التين تعلموا فعندما ترون أغصانها طرية وقد أخرجت أوراقها علمتم أن الصيف قريب كذلككم يجب أن تحدث كل هذه الأشياء التى ذكرتها لكم قبل عودتى فإن رأيتم هذه العلامات صائرة علمتم إننى على الأبواب. هاأنذا قد سبقت وأخبرتكم فلا تضلوا من بعدى إن قالوا لكم هاهو «المسيح» فى البرية أو هاهو فى المخادع فلا تصدقوا ولا تسيروا وراءهم». (٣٩٣)

«ثم تأتى بعد ذلك «النهاية» فتكون علامات فى السماء تظلم الشمس والقمر لايعطى نوره والنجوم تتبععثر وأبنية السموات تنزعزع وتضطرب الأمم فى الكرب والحيرة والبحر

يصرخ والأمواج تضج ويغشى الناس خوف مما ينتظر الأرض وتنوح جميع الشعوب والقبائل.»

«أما ذلك اليوم تلك «الساعة» التي تنتهى فيها الدنيا فلا أحد يعلم بها لا أبن الإنسان ولا الملائكة المقربون ولا أحد من الخلق فإنه لا يعلمها إلا الله وحده، كما كان الناس فى أيام نوح يأكلون ويشربون ويتزوجون الى اللحظة التي ركب فيها الفلك مع المختارين ثم جاء الطوفان وهم لا يعلمون فأخذ الجميع كذلك تأتى النهاية.»

«وكما كان الناس فى أيام لوط يأكلون ويشربون ويرتكبون الفاحشة ويبيعون ويشترون الى اليوم الذى خرج فيه لوط مع بناته ثم نزل المطر الحارق من السماء فأهلك الجميع كذلك تكون «الساعة» التي تنتهى فيها الدنيا.»

«فمن كان على السطح فليهرب ولا ينزل الى البيت ليأخذ حاجاته ومن كان فى الحقل فليجرب ولا يرجع الى البيت واذكروا امرأة لوط التي نظرت وراءها لتتحقق من العذاب وترى هل ستنجو منه أم لا فأخذها فى قبضته.»

«الحق أقول لكم أن من يطلب أن ينجو بنفسه يهلكها ومن يطلب أن يهلكها فى سبيل الله ينقذها.»

«ستكون اثنتان تطحنان فتؤخذ واحدة وتترك الأخرى ويكون اثنان فى الحقل يزرعان فيؤخذ واحد ويترك الآخر سيكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ واحد ويترك الآخر»

قالوا : «أين يكون ذلك يا معلم؟»

فأجاب «حيثما تكون الجثة تجتمع النسور.»

«ثم يُنفخ فى البوق ويأتى ابن الانسان فى مجد أبيه مع الملائكة ليجمع الله مختاريه فمتى رأيتم ذلك فانتصبوا وأرفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم بدأت تقترب.»

«السماء والأرض تزولان ولكن كلام الله لا يزول فاحترزوا لأنفسكم لكيلا تغفل قلوبكم

فى مشاغل الحىاة الدنيا فىصافكم ذك الیوم بفترة وأنتم عنه غافلون، إنه مثل الفخ المنصوب لجمیع السائرین على وجه الأرض فاسهروا وتضرعوا فى كل حین لکی تُحسَبوا أهلاً للنجاة من جمیع هذا المزعم أن یكون،»

«إسهروا لأنکم لاتعلمون فى أية ساعة یأتى ربکم، لو عرف رب البیت فى أى هزیع من اللیل یأتى السارق لاستراح اللیل كله وأستیقظ فى الوقت الذی یعلمه ولم یدع ببیته یُنْقَب ولكنّه لایعلم متى یأتى، لذلك علیه أن یسهر اللیل كله حتى لا یدع ببیته ینقب کذلکم یجب أن تكونوا مستعدين.»

«كأنما إنسان رب بیت أراد أن یسافر فترك ببیته فى ید عبده بعد أن أوصاه برعاية البیت وحدد لكل واحد من الخدم عمله وأوصى البواب أن یسهر، فإن قال العبد الردى فى نفسه إن السید رب البیت ییطئ قدمه ولذلك یأخذ فى الأكل والشرب باسراف ویترك البیت ویسهر مع السکارى ثم یضرب العبیید الآخرین رفقاء فى البیت ویؤذیهم ثم یفاجأ برب البیت عائدا فى وقت لایتوقعه فیمسك به واقعا فى معصيته فیطرده من البیت ویحبسه مع أعدائه المرأئین، هناك حیث البكاء وصریر الاسنان.»

«طوبى لذلك العبد الامین الحکیم الذی یأتى سیده فى یوم لایعلمه وساعة لایعرفها فیجده قائما بكل ما أمره یرعى الخدم ویعطیهم طعامهم فى حینه، الحق أقول لکم إنه یقیمه على کل أمواله»

«فاسهروا لأنکم لاتعلمون متى یأتى رب البیت.»

«أمساء ؟ أم نصف اللیل ؟ أم صیاح الدیک ؟»

«لكیلا یأتیکم بفترة فوجدکم نیاما، اسهروا»....

قال بطرس «یامعلم هل هذا المثل تقوله لنا أم للجمیع ؟»

قال «المسیح» : «ما أقوله لکم أقوله للجمیع»

(٣٩٤) «حينئذ يشبه «الملكوت» عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وكان منهن خمس حكيما وخمس جاهلات فأما الجاهلات فقد أخذن المصابيح دون أن يكون معهن زيت.»

«أما الحكيمات فقد أخذن المصابيح وزيتاً في أنيتهن.»

«وأبطأ العريس وتأخر قدومه فغلبهن النعاس ونمن جميعا. وبينما هن راقداً انتبهن على صوت صراخ «هوذا العريس قد أقبل فأخرجن للقائه» فقامت جميع العذارى وأخذت كل واحدة مصباحها وأصلحته لينير لها الطريق لكن الجاهلات لم يجدن زيتاً فقلن للحكيما أعطينا من زيتكن لأن المصابيح تنطفئ ولا نعرف كيف نتقدم فقالت الحكيمات ولكننا نخشى أن يكون الزيت الذى معنا لا يكفي للطريق «فارجعن وأطلبن زيتاً ثم إئتينا» وفيما هن راجعات ليطلبن الزيت جاء العريس فأخذ المستعدات ودخلن معه ثم أغلق الباب فلما جاءت الجاهلات وجدن أن الباب قد أغلق فأخذن يصرخن قائلات «ياسيد افتح لنا» فجاءهم النداء من وراء الباب المغلق «من أنتن، الحق أقول لكن أنى ما أعرفكن.»

«فاسهروا واستعدوا لأنكم لا تعرفون الى متى يبطئ ولا تعرفون اليوم ولا الساعة»

«ليس كل من يقول يارب يدخل «الملكوت» بل الذى يطيع الله، كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم أليس بإسمك قد بشرنا وبإسمك أخرجنا الشياطين وبإسمك صنعنا آيات كثيرة فحينئذ أصرخ فيهم «إنى لم أعرفكم قط.» اذهبوا بعيدا عنى يا فاعلى الإثم» (٣٩٥)

«احترزوا من الانبياء الكذبة والمسحاء الكذبة الذين يأتونكم فى ثياب الحملان ولكنهم فى قلوبهم ذئاب خائفة.»

«من ثمارهم تعرفونهم» (٣٩٦)

«هل يجنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً وكذلك كل شجرة طيبة تعطى ثماراً

طيبة وكل شجرة خبيثة تعطى ثمارا خبيثة لاتقدر الشجرة الطيبة أن تعطى ثمارا خبيثة
وكل شجرة لاتعطى ثمارا طيبة تقطع وتلقى فى النار فمن ثمارهم تعرفونهم.»

«إنكم مثل أناس ينتظرون رجوع سيدهم من العرس الذى ذهب إليه حتى إذا عاد
إليهم وقرع الباب يفتحون له، فلتكونوا مستعدين.»

«طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم وجدهم ساهرين، الحق أقول لكم إنه
يتمنطق ويُجلسهم على الأرائك ويتقدم هو لخدمهم وإن أتى فى الهزيع الثانى من الليل أو
أتى فى الهزيع الثالث من الليل.»

«أما ذلك العبد الذى يعلم أوامر سيده ولايعمل بها ولايستعد لرجوعه فإنه يجب أن
يضرب أكثر من غيره من الذين لايعلمون فمن أخذ أكثر فإنه يطالب بالأكثر.»

«ومتى جاء «الله» ليحاسب خلقه فى يوم الدين فإنه يميز بينهم كما يميز الراعى بين
الخراف والجداء فيجعل الخراف على اليمين ويضع الجداء على اليسار ثم يقال للذين على
اليمين تقدموا أيها المباركون لتراثوا الجنة التى أعدت لكم قبل خلق السماوات والأرض لأننى
جعت فأطعمتمونى وعطشت فسقيتمونى كنت عريانا فكسوتونى ومحبوسا فأتيتم إلى
لتخرجونى وغريبا فأويتمونى ومريضا فزرتمونى.»

«فيقول الصالحون حينئذ يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك
ومتى رأيناك عريانا فكسوتناك أو محبوسا فأتيينا إليك ومتى رأيناك غريبا فأوييناك أو
مريضا فزرتناك»

«فيقول لهم الملك «الحق أقول لكم بما أنكم قد فعلتم كل ذلك بواحد من عبادى فبى
قد فعلتم.»

«ثم يقال للذين على اليسار اذهبوا بعيداً عنى أيها الملعونون الى النار الأبدية المعدة
قبل خلق السماوات والأرض لإبليس وجنوده.»

«لأننى جعت فلم تطعمونى وعطشت فلم تسقونى وكنت عريانا فلم تكسونى ومحبوسا فلم تأتوا إلىّ وغريبا فلم تأوونى ومريضا فلم تزورونى فيتعجبون قائلين يارب متى رأيناك جائعا أو عطشانا أو غريبا أو محبوسا أو عريانا أو مريضا ولم نخدمك فيقول الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوا ذلك بواحد من عبادى فبى لم تفعلوا». فيمضى الذين على اليمين إلى الحياة الأبدية ويذهب الذين على اليسار إلى العذاب الابدى (٣٩٧)

«وكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل حكيم بنى بيته على الصخر فلما هبت الريح وهطلت الأمطار وأنهمرت السيول ظل هذا البيت قائما لم يسقط لأنه كان مؤسسا على الصخر وكل من يسمع أقوالى هذه ولايعمل بها يشبه رجلاً أحمقاً بنى بيته على الرمل فلما هبت الريح وهطلت الأمطار وأنهمرت السيول صدمت ذلك البيت فأقتلته فسقط وكان سقوطه عظيما» (٣٩٨)

«وهاهوذا بيتهم يُترك لهم خراباً لن يبقى فيه حجر على حجر».

كان الليل يمضى ذاهبا يريد أن يرحل فقال «المسيح» لتلاميذه الذين كانوا يستمعون إليه بعيون شاخصة تحديق في الظلام «دعونى أدخل الآن فى الصلاة لأننى سأعود لأفك أسر المحبوسين هناك».

وأشار إلى أورشاليم» التى كانت قد غرقت فى الظلام فتركه التلاميذ وحيداً لصلاته ونزلوا إلى السفح لايعرفون ماذا يفعلون قد أطبق عليهم الصمت وأصابتهم الحيرة بالدوار.

(٣٠)

الفتنة الأخيرة

«هناك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً،

(الأحزاب ١١)

بعد ما استطاع كبير الكهنة ومن معه من الكهنة والشيوخ أن يعيدوا الهدوء إلى الهيكل بعد ذهاب «المسيح» صعد إلى دكة الوعظ وأخذ يطلب من الحاضرين أن يكفوا عن الصخب وأن يصمتوا حتى خيم الصمت عليهم فقال : «ماذا نفعل أيها الأخوة»؟ (٣٩٩)

«كما رأيتم لقد أضل الشعب بعمله الشيطاني ويسحره الخبيث جعلنا نشتبك مع بعضنا ويضرب بعضنا بعضاً حتى سالت الدماء فى هذا الهيكل المقدس، لقد دنس الهيكل المقدس بعمله الشيطاني!!»

«انظروا كيف جعلنا نؤذى بعضنا واختفى هو عن أعيننا دون أن ندري فإذا لم يكن ساحراً خبيثاً فمن يكون!؟»

«لقد جدف على الله وعلى كتاب موسى وعلى كتب الأنبياء».

«انظروا كيف أهان كهنة الله وشیوخنا الأجلاء».

«ولقد جدف على «مسيح الله» الذى هو أمل اسرائيل وأنظروا كيف أهان شعب الله وأدعى كذباً أن الله ينزع منه النبوة، إنه «إسماعيل» ملعون لذلك يقول ان «الملوكوت» يكون فى سلالة «إسماعيل» ابن الجارية، انظروا كيف يدعى أن الله يفضل تلك الأمة الجاهلة الغبية على شعبه المختار لذلك أقول لكم إذا لم يُقتل هذا الكذاب الملعون ويُسْتَأْصَلَ من الدنيا كلها فإن الله يغضب علينا لأننا تركناه يعيش بعد أن دنس الهيكل المقدس وأهان شعب الله ويمعونة الله سوف نتمكن من القضاء عليه فأطمئنوننا وكونوا على ثقة فى رجال هيكل الرب المقدس».

واقتنع الحاضرون بما قاله كبير الكهنة وأعرضوا عن «عيسى» خاصة وأن كبير الكهنة قد تكلم بثقة كبيرة عندما تحدث عن الخلاص من «عيسى» فمن ذا الذى يؤيد ملكا مهزوما أو يناصر قائدا خسر المعركة» لقد قتلوا من قبل زكريا ثم أبنه «يحيى» فلماذا لا يكون فى استطاعتهم قتل المدعو «عيسى الناصرى» .

وذهب رئيس الكهنة ووفد كبير من كبار الكهنة ورؤساء الشيوخ إلى «بيلاطس» الوالى الرومانى وذكروا أن المدعو «عيسى» الناصرى قال أنه «ملك لليهود» وأن الشعب اليهودى لا ينبغي أن يدفع الجزية لقيصر وطلب من الناس أن يهدموا الهيكل الذى بناه «هيرودوس» تحت رعاية «روما» المقدسة وأنه قادر على أن يبني هيكلا آخرأ أفضل منه دون أن يستعمل يدا واحدة بل بمجرد أن ينطق بفمه لأنه أعظم من الامبراطور الرومانى نفسه بل أعظم من كل مخلوق وأنه لا يخاف من أحد من البشر لا من الوالى ولا من الامبراطور ولا من أى أحد على الاطلاق وقد اندلعت معركة عنيفة بين أنصاره الذين يؤيدون مزاعمه وبين رجال الهيكل وقد سالت الدماء فى الهيكل بسبب هذا ويمكنك أن تسأل فى هذا الجنود والضباط الرومانيين الذين شهدوا هذه المعركة العنيفة داخل حرم الهيكل»

لكن «بيلاطس» الذى استمع إلى «عيسى الناصرى» من قبل ووقع فى قلبه احترامه لم يستطع أن يجارى رئيس الكهنة فى حملته الشعواء ضد «عيسى» إلا أنه لا يستطيع بحكم منصبه أن يتجاهل الأمر بالكلية لأنه عندما تحدث الممارك ويشتبك الناس بالأيدي والأحجار وتسيل الدماء فمعنى هذا أنه حاكم غير جدير بمنصبه، إنه متأكد أن الكهنة والشيوخ يحقدون على «عيسى» وأنهم بالأموال قادرون على شراء الشهود الذين يُدينون الرجل لكن ماذا يفعل؟! لابد أن يتخذ قرارا. لو كان الأمر بيده لأصدر أمراً بقتل كل هؤلاء الكهنة والشيوخ الحاسدين الذين يسببون له ازعاجا دائما ولأصدر قراراً بهدم هذا «الهيكل المقدس» الذى لا يرى له أية فائدة غير أنه قد أصبح مصدرا للإضطراب المستمر فى هذه البقعة الغربية من الأرض، لكن ماذا يفعل فليس الأمر بيده ولا بد من ترضية هؤلاء الأوغاد

الحاقدين ولو بكلام الشفاعة فقال لهم : «إن استطعتم أن تمسكوا به وأن تأتوا بالشهود الذين يقررون بكل وضوح أنه قد أدعى ذلك وكان سببا في كل ماقلتم أنه حدث فإننى أصدر أمرا بصلبه ليكون عبرة لمن يتجرأ على سلطة «روما» المقدسة» وضغط على الكلمات الأخيرة من حديثه حتى لايشئ به القوم عند السادة فى «روما» مدعين أنه لا يظهر الولاء الكافى للقيصر الذى يحكمهم بإسمه. وخرج الوفد من عنده وهم غير راضين ولكنهم لم يكونوا ساخطين كل السخط. كانوا يفضلون أن يصدر قرارا لضباطه وجنوده بالبحث عنه وإلقاء القبض عليه ثم صلبه أمام الناس وبهذا يتخلصون منه دون أن تتحمل ضمائرهم المثقلة عبء قتله ولكن هاهو «الماكر» يكلفهم مشقة البحث عنه ومحاكمته وإدانته ثم يقوم هو بصلبه دون أن يتحمل «إثم»ه فهو حينئذ ليس إلا منفذا لإرادتهم، لكن لابس فهو على الأقل قد وعد بمشاركتهم المعركة ولأ يعارضهم فيما يفعلونه.

خرج رجال الهيكل من عند «بيلاطس» وهم أشد اقتناعا بأن خطة «يهوذا الاسخريوطى» هى أحكم الخطط فطفقوا يتفقون مع بعض خدم الهيكل وبعض الجنود على أن يكونوا تحت الطلب فى أى وقت وخزائن الهيكل المليئة بخيرات الله ستكون تحت أيديهم إن نجحوا فى اصطياذ «الساحر» الملعون ابن الزنا الذى دنس هيكل الرب

عاد «عيسى» إلى الهيكل رغم معارضة التلاميذ الذين قالوا له «كيف تذهب الى الهيكل مرة أخرى وقد رجموك بالحجارة» وكان «بطرس» هو أشدهم صراحة فى الاعتراض ولكن «المسيح» لم يلتفت إليهم وشق طريقه من جبل الزيتون إلى «أورشليم» قاصداً الهيكل صامتا هادئا والتلاميذ من ورائه يسيرون فى خوف يتلفتون إلى كل ناحية خشية أن ينقض عليهم من يريدون قتلهم.

وكان بعض الناس قد حملوا مرضاهم الى الهيكل منتظرين «المسيح» لعله يأتى فيشفى مرضاهم فلما رآه مقبلاً أسرعوا إليه وهم فرحين وطلبوا إليه أن يصلى من أجل مرضاهم وأن يلمسهم فذهب «المسيح» الى المرضى وصلى عليهم ولمسهم فقالوا شفاهم

بإذن الله والناس تسبح الله في «همس» لأن جواسيس الهيكل كانوا ينتشرون ويبلغون الأخبار ولكن السيد «المسيح» كان يتكلم بصوت عالٍ ويتصرف بهدوء ووضوح وثقة. قال (٤٠٠) «ألا تعلمون أن هناك مرضى آخرون. من له مريض فليأت به لينال بإذن الله شفاء».

«لعمري الله الذي تقف نفسي في حضرته إن أصحاب القلب في «أورشاليم» أقل عددا بكثير من مرضى الجسد»

وجاءه قوم ييكون لما سمعوا عن غضب الله على «أورشاليم» وتضرعوا إليه أن يصلي لله من أجل أن يرحم المدينة المقدسة فقال لهم «المسيح» «لو بكت «أورشاليم» على خطاياها وجاهدت لتعود إلى طريق ربها فإنه يغفر لها ناسيا أثامها ولا يُنزل بها شيئا مما ذكرتُ ولكن «أورشاليم» تكي على دمارها لاعلى إهانتها له لذلك ازداد غضب الله عليها وأقسم قائلا «أقسمت بذاتي أنا الحي القيوم الذي لا يموت لوصلى من أجل هذا الشعب إبراهيم وموسى وصوئيل وداود ودانيال وأيوب فإن غضبي على «أورشاليم» لا يهدأ»

فانتفض القوم الذين جاعوه فزعين وقد جفت دموعهم قائلين في أنفسهم «حقا إنه «إسماعيلي» ملعون كما قال كبير الكهنة لذلك فإنه يكره «أورشاليم» ويكره هيكل الرب المقدس».

(٤٠١) وتقدم إليه بعض الفريسيين قائلين «يا معلم إنك تبشر بالتوبة وتدعو إلى المغفرة وإننا خطاة لذلك فإن الله سيرحمنا».

فقال لهم «المسيح» وهو يعلم أنهم قد جاعوه من أجل الجدل لا أكثر وأنهم يستهزون به لأن الفريسي يعتقد أن أكبر إهانة يمكن أن توجه إليه هي أن يقال له إنك خاطئ.

قال «إن كنتم خاطئين وتزعمون أنكم ابرار منكرين خطيئكم فأنتم غير ابرار وإذا كنتم تحسبون في قلوبكم أنفسكم ابراراً وتقولون بالسننكم أنكم خطاة فقد تضاعفت خطيئكم

مرتين. أين الأبرار في جيلكم الفاجر هذا؟ لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن عدد الفجار الذين يظنون أنفسهم أبراراً لعظيم جدا في هذا الجيل الفاجر وإن حالهم لتشبه حال «ابليس».

فقال له بعضهم (٤٠٢) «متى يأتي «الملوكوت» الذي تبشر به ١٩»

قال : «لايأتي «ملوكوت الله» بمراقبة فإنه يأتي على غير انتظار. لا يستطيع أحد من الخلق أن يقول هاهذا، ولكن لماذا تنتظرون مجيئه وأنتم تشكون فيه وهاهنا في أنفسكم. إنه الآن ماكن معكم أليس هو الذي وهبكم الحياة ويعطيكم الحياة الأبدية لو أنتم به» فلم يجد واحد منهم شيئاً يقوله. لقد جف ينبوع الجدل عندهم كما جفت دموع الذين جاءوه متضرعين وكان لابد من حسم الأمر فشق «المسيح» طريقه في داخل الهيكل حيث اعتلى دكة الوعظ ووقف شامخاً ينتظر حتى ساد الصمت وتطلعت الأعين الشاخصة الى «وجهه المشرق» وانتظر الجميع ماذا يقول.

حينئذ انساب النور من بين شفثيه قائلاً :

«يا بني اسرائيل إنني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» (٤٠٣)

قد جنتكم بأية من ربكم

انني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً
باذن الله وابريء الأكهم والأبرص واهيى الموتى باذن الله

وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم

إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين «

«ومصداقاً لما بين يدي من التوراة

ولأجل لكم بعض الذب حرّم عليكم

وجئتكم بأية من ربكم

فاتقوا الله واطيعون»

«إن الله ربى وربكم فاعبدوه

هذا صراط مستقيم (٤٠٤)

وأنظر «عيسى» إجابته على هذا النداء...

وطال أنتظاره ولم يقل واحد منهم شيئاً.

«فلما أحس عيسى منهم الكفر» (٤٠٥) وأراد أن يستخرج منهم المؤمنين

علا صوته فى الهيكل الذى أطبق عليه الصمت.

«قال من أنصارى إلى الله؟ (٤٠٥)

من ينضم إلى فى طريقى إلى الله. من يتقدم ليسير معى فى الطريق إلى الله.

وحينئذ أوحى «الله» لمختاريه الحواريين أن يأمنوا. ألقى إليهم «روح القدس» **«أن آمنوا**

بى وبرسولى» (٤٠٥)

فاندفع الحواريون القوم المختارون من الحاضرين وأسرعوا نحو «المسيح» الواقف عند

دكة الوعظ ومدوا إليه أيديهم يبايعونه.

«قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا وأشهد بأننا مسلمون»

«ربنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين» (٤٠٧)

قبائع «المسيح» من تقدم إليه ولم يستطع الكهنة والكتبة والشيوخ أن يفعلوا شيئاً فقد كف

الله أيديهم عن «المسيح» والذين آمنوا به وخرج «المسيح» من الهيكل والذين آمنوا به

يسيرون وراءه رجال الهيكل ينظرون مذهولين فقد سلبهم «القهار» إرادته (٤٠٨)

فذهب «المسيح» والذين بايعوه الى «بيت عنيا» حيث أقاموا عند «لعاذر» الذى أقامه من الأموات وفى الليل (٤٠٩) جاءه «نيقوديموس» سراً وقال له إن رجال الهيكل قد عزموا على قتلك وأنهم قد اتفقوا مع «بيلاطس» على صلبك وحتى لو تخلى «بيلاطس» عن الاتفاق معهم فإنهم مصرّون على الخلاص منك بأى وسيلة وبأى ثمن فقد أدركوا أن «أورشاليم» لا تحتمل بقاء كما معا فإما أنت أوهم. كان «نيقوديموس» لم يزل مترددا فهو يعتقد أن «المسيح» رجل صادق عليم بكلام الله ولكنه بإعتباره شيخا من شيوخ الفريسيين لم يكن يحتمل تعاليم «المسيح» التى تريد أن تقتلع تقاليد وطقوس مرت عليها مئات السنين حتى استقرت فى القلوب جيلا بعد جيل وعاش عليها الكهنة والشيوخ والشعب من حولهم.

كان يرفض الكيد الخبيث الذى يدبره الكهنة والشيوخ ويتحسر على رجال الله الذى هوى إلى مباءة القتل والكذب والخيانة والرشوة لكنه كان يطمع فى حل مستحيل إذ كان يتوهم أنه يمكن اجراء مصالحه بين «المسيح» ورجال الهيكل بحيث يتعاون الطرفان على إصلاح الشعب وتخليصه من المهانة التى سقط فيها.

جاء إلى «المسيح» متخفيا بالليل وقدم لحديثه معه بقوله «يامعلم أعلم أنك قد أتيت من الله لتعلمنا إذ يستحيل فى نظرى أن يستطيع أحد من الخلق أن يفعل ماأنت قد فعلته مالم يكن مؤيدا من الله....»

فأحب «المسيح» أن يختصر له الطريق ويساعده على التخلص من تردده ليرى استحالة الحل الذى يتوهم إمكانية تحقيقه.

قال «المسيح» : «الحق أقول لك إن لم يولد الإنسان مرة أخرى فلن يستطيع أن يدخل ملكوت الله»

فقال «نيقوديموس» وقد عجز عن فهم كلام «المسيح» «يامعلم كيف يولد من صار شيخا أيستطيع أن يدخل بطن أمه من جديد حتى تلده مرة أخرى؟!«

قال «المسيح» : "لا أتكلم عن ولادة الجسد ولكننى أتكلم عن ولادة الروح عن انطلاق الروح من أسر الجسد وصعوده من القلب. لا أتكلم عن الولادة التى تحدث فى الرحم بل عن الولادة التى تحدث فوق حيث تنبعث الريح، إن الريح تنبعث وتهب الى حيث تشاء وأنت تسمع صوت سيرها أفلاً تعلم من أين أتت ولا إلى أين تذهب كذلك يكون الروح»

قال «نيقوديموس» «يا «معلم» لأعلم كيف يكون هذا ١٩»

قال «المسيح» «أنت معلم اسرائيل ولست تعلم هذا لقد كلمتهم بما سمعت ومارأيت عند الله ولكنهم لم يقبلوا شهادتى»

قال «نيقوديموس» «يا «معلم» إنهم عازمون على قتلك وقد أتفقوا مع «بيلاطس» على صلبك وسوف يمثلون بجسدك ليجعلوا منك عبرة لكل من يتمرد على سلطان الهيكل» .

قال «المسيح» «لن يظفروا بجسدى لأن الله سيرفعنى إلى السماء حيث لا يستطيعون أن يصلوا إلى سائرُفَعُ كما رُفِعَ إدريس (إخنوخ) من قبل. صدقنى كما رَفَعَ «موسى بن عمران» الحية فى سيناء فعادت كما كانت عصاته كذلك سيعود ابن مريم ليكون فى السماء كما كان قبل أن يولد ولن يصلوا إلى حيث امضى. لن يستطيعوا أن يأتوا كما قلت لهم فى الهيكل. كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يحب أن يأتى إليه حتى لا تُفْضَحَ أعماله لذلك أحب الناس الظلمة لأن أعمالهم شريرة. إن الجمل لا يذهب ليشرب من العين الصافية حتى لا يرى قبح وجهه بل يذهب ليشرب من الماء العكر. أما الذين يعملون الصالحات فإنهم يحبون النور ويسعون إليه لأنه فى النور يتبين أن الله هو الذى عمل كل شئ.»

لم يستطع «نيقوديموس» أن يفهم ماقاله «المسيح» ولم يستطع أن يتقبل أبداً مسألة الرفع وعودة الحية إلى أن تكون عصا فى يد «موسى» كما كانت قبل. ولكنه كان يحترم «المسيح» ويؤمن أنه رجل صادق ولذلك أحب من كل قلبه أن ينقذه من النهاية البشعة التى يعدها له رجال الهيكل وظل فى قلبه الأمل رغم كل ما يعلم فى إمكان إتمام هذه المصالحة الموهومة بين «المسيح» وخصومه!!

فقال له : «يا معلم إن لى بيتنا وبستاننا وراء جدول «وادی قد رون» فأضرع إليك أن تذهب إليه مع من تحب من تلاميذك وأن يختبأ بقية أتباعك هنا فى «بيت عنيا» الى أن يزول حقد الكهنة عليك وإننى سأقدم لك وتلاميذك كل ماتطلبون لأن الله يعول الجميع ومن يحب أن يمكث فى بيتى الذى فى «أورشاليم» فمرحبا به.»

وكان «المسيح» قد أدرك أنه لن يؤمن به إلا من قد آمن وأن رسالته الأولى على الأرض قد أشرفت على نهايتها فقبل عرض «نيقوديموس» وأختار اثنتى عشر رجلاً من الذين اختارهم من قبل رسلاً عندما خرج من كهفه بجبل الزيتون. كان يريد أن يحمل هؤلاء التلاميذ آخر وصايا قبل أن يرحل فأخذهم وأرتحل سرا من بيت «لعازر» فى «بيت عنيا» قاصدا وادی قدرون ليملك فى بيت «نيقوديموس» إلى أن تأتى اللحظة الموعودة التى لانتأخر لحظة ولاتتقدم عن ميعادها المحتوم.

كان التلاميذ الذين اختارهم «المسيح» ليكونوا شهود نهايته وحملة وصاياه الى الناس يسيرون خلفه وقد امتلأت بالخوف قلوبهم من النهاية التى صارت وشيكة جداً ومحتومة ومجهولة لأنهم رغم كل ماقاله لهم لم يستطيعوا أن يتبينوا فى وضوح كيف ستكون النهاية وماهو مصيرهم بعد كل هذا وقاض الحزن من نفوسهم المتعبة على هذا الأمل الذى سرعان ماخبا فى اللحظة التى بدا لهم أنه على وشك أن يتحقق.

لقد ذاب «ملك اليهود» فى الظلمات وهاهو يسير متخفيا وسط الحقول وفى الطرق الموحشة قاصدا «وادی قدرون» ليلقى هناك حتفه. قال لهم «المسيح» محاولاً إنزال السكينة فى قلوبهم المضطربة (٤١٠) «لاتخف أيها القطيع الصغير لأن الله معنا. ولاتحزن لأن الله قد سره أن يعطيكم ملكوته. طوبى للحزانى لأنهم يحصلون على عزائهم من الله. طوبى للباكين الذين ينوحون فى هذه الحياة الدنيا لأنهم سيشحكون كثيراً عند الله وويل للضحكين الآن لأنهم سيحزنون ولايجدون عزاء وسيكونون دون أن يكون لبكائهم فائدة.»

«طوبى للجياع والعطاش فى سبيل الله لأن الله هو الذى يطعمهم ويسقيهم على مائدته والملائكة المطهرون تقوم على خدمتهم.» «طوبى للإنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.»

«طوبى للرحماء لأن الله يرحمهم.»

«طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.»

«طوبى للمساكين المطرودين من أجل الله لأنه يعطيهم «الملكوت» وويل للأغنياء الشبعانين المستكبرين لأنهم قد أذهبوا كل طيباتهم فى حياتهم الدنيا وسيجوعون ويهانون إلى غير نهاية.»

«طوبى لكم إذا ابغضكم الناس وعيروكم وطردوكم وأعلنوا أسماءكم كأشرار كما فعلوا بإبن الانسان افرحوا حينئذ وتهللوا لأنهم كذلك يفعلون بالأنبياء المرسلين من الله وأعلموا حينئذ أن أجركم عظيم عند الله.»

«وويل لكم إن أثنوا عليكم وأجمعوا على إطرائكم فإنهم كذلك يفعلون بالأنبياء الكذابين»

«أنتم ملح الأرض الذى يحفظها من الفساد والملح جيد لأن كل ذبيحة يجب أن تحفظ بالملح ولكن إن فسَدَ الملحُ نفسه فبماذا يملح ؟ إنه لا يصلح لشيء بعد إلا أن يلقى على الأرض ويداس بالاقدام.»

«لا يوجد أحد يوقد سراجا ثم يضعه تحت السرير أو تحت المكيال لأن السراج ينبغى ألا يُخْفَى بل يضعه على المنارة ليضيئ لجميع الذين فى البيت والبعيدون يرون بنوره فيأتون ليدخلوا. أنتم نور الدنيا. المصابيح التى أوقدها الله فليضيئ نوركم الطريق أمام الناس بأعمالكم الصالحة فيمجدوا ربكم الذى أناركم فانظروا كيف تسمعون.»

«سراج الجسد هو العين» فإن كانت عينك بسيطة فإن جسدك كله يصبح نيراً وإن كانت عينك شريرة فإن جسدك كله يصير مظلماً.»

«إن كان النور الذى فىك ظلاماً فالظلام الذى فىك كم يكون ؟ »

«لاتنقلوا قلوبكم بشهوات الجسد الذى يشدكم الى الارض ولا تهتموا بحاجات الجسد قائلين من يطعمنا ومن يكسونا أن الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس»

«انظروا إلى الطيور إنها لاتزرع ولا تحصد ولا تجمع الى المخازن ولكن الله يعطيها رزقها كل يوم ولا ينساها . أستم أنتم يا أبناء الإنسان الذين أحب أن يعطيكم «روح» أفضل عنده من طيور كثيرة تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو . إنها لاتتعب ولا تغزل ولكن الحق أقول لكم إن «سليمان» نفسه نبى الله والملك العظيم لا يستطيع بكل مجده أن يلبس كواحدة منها . فإن كان نبات الحقل الذى يعيش اليوم ثم يطرح غداً فى التور يلبسه الله هذه الاثواب البديعة أكون الله أقل حقاوة بكم؟ يا لقله إيمانكم!!»

«من منكم إذا أهتم أبلىغ إهتمام وبذل كل ما فى وسعه يستطيع أن يضيف إلى قامته بوصة واحدة أهنك أصغر من ذلك؟ فإن كنتم لاتقدرون على الأصغر فلماذا تهتمون بما هو أصعب ؟»

«لاتطلبوا ماتاكلون وماتشربون وماتلبسون ولا تهتموا بكل ذلك فهذه الاشياء يطلبها الناس جميعاً فى كل الأمم وألهم يعلم ماتحتاجون إليه أكثر مما يعلم الأب حاجات إبنه فاطلبوا أولاً «ملكوت الله» وكل هذه الاشياء يعطيها الله لكم بل يزيد لكم أكثر مما تحتاجون دون أن تسأله فهو يعلم حاجاتكم قبل أن تحتاجوها أو تسألوها.»

«اذكروا كيف أطعم الله أباعكم فى البرية المن والسلوى وكيف سقاهم من الحجر واذكروا كم أطعمت سمكتان وخمسة أرغفة وكم أطعمت سبعة أرغفة وكم وكم وكم.»

«كونوا فى الدنيا كسياح عابري سبيل هل يتخذ السائح لنفسه على الطريق قصوراً أو يشتري حقلاً ؟»

«كلا بل إنه يحمل أشياء خفيفة تكون ذات نفع له فى طريقه .»

«ومن كان بيته فى «أورشاليم» لا يبنى لنفسه قصراً ويشترى حقلاً فى «السامرة» وكلما زاد الإنسان من جمع حطام هذه الدنيا فأعلموا أن لا شئ له فى الآخرة.»

«لا تهتموا بما يكون فى الغد لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفى اليوم شره.»

«لا يستطيع عبد أن يخدم سيدين لأن بقاء سيدين على اتفاق أمر محال ومن ثم فإن العبد مضطر إلى أن يبغض أحدهما ويتركه ليلازم الآخر الذى يحبه أكثر. كذلك لا تقدر أن تخدموا الله والمال فإما الله أو المال أما الإثنين معاً فمحال.»

«إن الدنيا قد نبتت فى الخطيئة وتزدهر فى النفاق والجشع لذلك لا يجد المؤمن راحة فى الدنيا بل يجد دائماً إضطهاداً ومشقة فماذا على المؤمن أن يفعل !؟»

«عليه أن يحتقر الدنيا ويعبد الله وحده حينئذ يجد راحة قلبه ويظفر بنفسه.»

«أصيحوا السمع إلى كلامى فإنى اخترتكم لتكونوا تلاميذى وخلفائى من بعدى فإن أبغضتكم الدنيا فأنتم بالحق تلاميذى لأن الدنيا أبغضتنى والناس دائماً كانوا أعداء عباد الله الصادقين تذكروا الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله وانظروا ماذا صنع الناس لهم. أواه من الدنيا الفاجرة التى لاتعرف الله !!»

«ولكن صدقونى عندما أقول لكم إن الدنيا كلها ترهبكم إذا حفظتم كلامى لأنها لو لم تكن تخشى فضح فجورها لما أبغضتكم واضطهدتكم.»

«فإذا رأيتم الناس يستهينون بكلامهم ويستهزئون بكم فلا تحزنوا بل أنظروا كيف أن الله وهو أعظم منكم قد استهان به الناس أيضاً حتى حُسِبَ كلامه أوهاماً وعُدَّتْ حكمته جهالة فكونوا كإلهكم الذى ينشر رحمته على البر والفاجر والمحسن والمسيء ولا تجازوا الإساءة بالإساءة بل جازوا الإساءة بالاحسان فإن النار لا تُطْفَأُ بالنار بل بالماء يطفئون

النار. كذلك لا تغلبوا الشر بالشر بل بالخير وحده». «لا تكنوا لكم كنوزاً في الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون.»

«بل أكنزوا في السماء عند الله حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص فإن قلبك يتبع كنزك وحيثما يكون كنزك هناك قلبك فانظر أين تحب أن تجد قلبك.»

«إن العبد يلبس الأثواب التي ترضى سيده ولا تنفره. أثوابكم هي أرادتكم فأحذروا ان تريدوا شيئاً لا يرضى عنه ربكم وتأكلوا أن الله ييغض بهرجة الدنيا وشهوات الجسد التي يهلك الناس في الهات وراعا.»

وتوقف المسيح وتركهم ليستريحوا وابتعد عنهم ليصلى. وعاد بطرس للشجار مرة أخرى مع أخيه «اندراس» ثم تقدم إلى «المسيح» وهو جالس في الطريق ليستريح قائلاً «يا معلم كم مرة يخطئ إلى أخى وأنا أغفر له.»

فنظر «المسيح» إليه بإمعان وهو يتعجب كيف يتخاصم الشقيقتان وهما في صحبة المعلم الذي اختارهما ليكونا من بين خلفائه وشهداء على صعوده السماء ثم قال (٤١)

«أراد الملك أن يحاسب عبيده فلما ابتدأ في المحاسبة دفع إليه بمدين عليه عشرة آلاف وزنة ولم يكن للعبد المدين ما يمكنه من سداد دينه فهو فقير جداً حتى أنه لو باع نفسه وأمراته وأولاده ما وفى دينَ الملك فخر العبد عند مليكه ساجداً وتضرع إليه قائلاً يا أيها الملك تمهل على حتى أوفى كل ما على فتحنن الملك عليه ولما كان يعلم أن ليس بمقدوره الوفاء أسقط الدين وأطلقه حراً فلما خرج العبد قابل أحد رفقاءه وكان مديناً له بمئة وزنة فطالبه بردها ولكن رفيقه لم يكن عنده ما يوفى فأمسك به وأخذ يعنفه مصراً على الوفاء قائلاً في غلظة «أوفنى ما عليك وإلا وضعتك في السجن» فخر العبد الرفيق عند قدميه قائلاً يارفيق تمهل على حتى أوفى كل ما على» لكنه لم يرحمه بل مضى به إلى الشرطى وأبقاه في السجن حتى يوفى الدين الذي عليه. فلما رأى العبيد الآخرون رفقاءهما ما حدث

حزنوا جدا وذهبوا ليبلغوا الملك بما صنع عبده فاستدعاه بين يديه وقال له أيها العبد الشرير تركت لك كل الدين الذي كان عليك لأنك رجوتني متضرعا، أما كان ينبغي عليك أن ترحم رفيقك كما رحمتك أنا.»

«وغضب سيده عليه وسلمه إلى المعذنين فألقوه في السجن حتى يوفى كل ماعليه ولن يستطيع إذ هو فقير ليس عنده حتى مايكفيه.»

(٤١٢) «حينما تذهب مع خصمك إلى الحاكم فابذل كل جهدك وأنت في الطريق لتتخلص من المخاصمة لئلا يدفعك إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الملك فيلقيك في السجن الحق أقول لك أنك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلوس الأخير فكن دائما مرضيا لخصمك مادمتا في الطريق.»

«سمعتم أنه قيل للقديس لاتقتل ومن قتل يكون مستوجب القتل أما أنا فأقول لكم إن من يغضب على أخيه بالباطل ومن قال لأخيه يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم.»
«إن قدمت قربانك إلى المذبح في هيكل الرب وتذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك القربان وأذهب سريعا لتصالح أخاك وبعدئذ تعال لتقدم قربانك.»

وقام «المسيح» ليواصل الطريق وقد أطرق حزينا وهو يقول «كيف تطلبون من الله أن يغفر لكم وأنت لا تتركون للناس زلاتهم إن غفرتهم للناس غفر الله لكم.»

قال بطرس (٤١٣) «هأنح قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون جزاؤنا ١٩»

قال «المسيح» وصوته يقطر أسفا «الحق أقول لكم إنكم إن صدقتم فإنكم تجلسون يوم الحساب على الكراسي لتشهدوا على أسباط إسرائيل الإثني عشر.»

كان الليل قد نزل فجلس «المسيح» صامتا ثم قال وقد كشف صوته في الظلام عن حزنه (٤١٤) «سمعان سمعان هو ذا الشيطان قد طلبكم ليغربلكم مثل الحنطة، إن كنتم

مؤمنين حقا فإن الشيطان يستعمل كل قوته ليهلككم ولكنى تضرعت من أجلكم الى الله لكى لايهلك إلا الذى يلقى لى الحبائل

صاح «يحيى بن زيدى» : «يامعلم كيف النجاة» فقال «المسيح» لا تخافوا فإنه سيحاربكم مثل كلب مربوط لأن الله قد استمع لصلاتى..»

(٤١٥) «الحق أقول لكم إن المؤمن لابد أن يمتحن وكما قال نبي الله «سليمان» عليك يامن تريد أن تتقى الله أن تستعد للتجارب» هكذا اقتضت حكمة الله وعده الذى لا يظلم مثقال ذرة.

«قولوا لى إذا أعطاكم «هيرودوس» رئيس الجليل بيتا لتحفظوه له حتى يرجع إليه فيقيم فيه أستمحون وأنتم عبيد «هيرودوس» «ليلاطس» الوالى الرومانى وعدو «هيرودوس» اللدود بأن يدخل بيته ويضع فيه متاعه ١٩ إن كنتم عبيدا مخلصين حقاً «لهيرودوس» فإنه ينبغى عليكم أن تمنعوا «بيلاطس» من الإقتراب من البيت لا أن يدخل فيه ويضع متاعه»

«بيت الله هو قلب الإنسان الذى يريد الله من الإنسان أن يحفظه طاهراً بإقامة شريعته ومحبه وحده حتى يعود الله للإقامة فيه إلى الأبد فينبغى أن يمنع الشيطان عدو الله من الإقتراب من بيت الله ولا نسمح له بدخوله ووضع متاعه فيه ومتاع الشيطان هو الأفكار الشريرة التى يبيتها فى القلب ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يمتحن الإنسان الأفكار كما يمتحن الصراف قطعة النقود ؟»

قال «يحيى» «وكيف يكون إمتحان الفكر مثل إمتحان النقود ؟»

قال «المسيح» : «ألم تنظروا الى الصراف وهو يقلب قطعة النقود فى يده عدة مرات ليرى هل هى سليمة أم زائفة ويمعن النظر فى صورة قيصر عليها هل هى صحيحة أم خاطئة ثم يفحص العيار ليرى كم تزن وكذلك يجب أن يكون إمتحان كل فكرة. هل هى تتفق مع تقوى الله أم تنافىها ثم هل هى تتطابق أو تتماثل مع سلوك الأنبياء المرسلين من

الله أم تخالفه لأنهم القدوة التي يجب احتذائها مثل صورة القيصر الصحيحة على العملة ثم كم تزن هذه الفكرة في ميزان محبة الله لأن حب الله هو الغاية من كل الشريعة التي جاء من أجلها جميع الأنبياء فإذا سار الإنسان على هذا النحو في امتحان الأفكار فإنه بإذن الله يستطيع أن يحفظ بيت الله الذي هو قلبه طاهراً مهيناً لعودة الله إليه. قالوا «وكيف يستطيع الإنسان أن ينجح في هذا الامتحان؟»

قال «المسيح» «بالتمرن الكثير وترك الكسل والصمت الطويل وترك اللغو وإدامة الصلاة التي لا يجب أن تنقطع أبداً وألا تكون صلاتك مقتصرة على حركات البدن بل بقلب متدبر»

«لا يكفي للنجاة من الشيطان والتغلب على الشر مجرد العلم بل يجب العمل بالطاعات»

(٤١٦) «كان هناك رب بيت استأجر ثلاثة عمال ليزرعوا له حقله فأما الأول والثاني فكانا لا يعرفان كيف يزرعان وأما الثالث فكان عليماً بالزراعة. فمضى الأول إلى حقله الذي استأجره من سيده ولم يفعل شيئاً لأنه لم يكن يعلم كيف يزرع.»

«أما الثاني فذهب إلى الثالث ليعلمه فشرح الثالث له بكل تفصيل كيف يزرع وقام الثاني بتنفيذ ما تعلمه.»

«واكتفى الثالث بتعليم الثاني وظل يتحدث حتى مر الوقت وجاء موعد الحصاد حيث يجب على كل مستأجر أن يدفع قدره مما عليه من الدين في صورة مقدار من الثمار يجب إعطاؤها للسيد صاحب الأرض. جاء الأول فاعتذر لأنه لم يكن يعرف كيف يزرع فوبخه سيده قائلاً أكنت وحدك في هذه الدنيا الواسعة لماذا لم تذهب لتسأل وتتعلم؟»

«فإن تحزن عليه سيده بسبب جهله فإنه سيأخذ منه الأرض ويستغنى عن خدمته.»

وجاء الثاني فأعطى سيده من ثمرة محصوله دين سنتين لأن الحصاد كان وفيراً فلما

جاء الثالث تعجب «السيد» لأنه لم يستطع أن يسدد من دينه شيئا وكيف لم تعط الأرض غلة رغم أن العبد عليم بالزراعة ١٩».

«فسأل السيد صاحب الأرض العبد الثاني مندهشاً كيف استطاع الحصول على غلة وفيرة رغم أنه كان جاهلاً بالزراعة بينما لم يحصل الثالث على شئ بالرغم من علمه فقال العبد الثاني «ياسيد إن زراعة الحقل لا يكفي فيها العلم والكلام لأنه لابد من حرث الأرض ووضع البذور ورعاية النبات بالماء ثم اجتثاث الحشائش الضارة وتشذيب الأغصان. لابد لمن يريد أن يحصل على ثمر أن ينضج منه كل يوم عرق قميص».

«ولاريب أيها السيد لو أن عبدك العليم بالزراعة قد عمل كما يعلم لأستطاع أن يعطيك أجرة خمس سنوات ولكنه اكتفى بالكلام».

«فأوقف السيد صاحب الأرض العبد الثالث ووبخه ساخراً منه قائلاً لاريب أنك تستحق منى مكافأة عظيمة «أيها الخدم خذوه فائقوه في السجن ليضربه الجراد الغليظ القلب كل يوم» ولم يرد أبداً أن يطلقه رغم شفاعاة الأصدقاء.

«قولوا لى هل أعطانا الله الشريعة لنعمل بها أم لنعلمها ونتكلم بها. إن الحكمة هي أن تعمل بما تعلم»

«لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته إن الذى يعلم الحق ويعمل بما يناقضه ينزل به عذاب شديد حتى أن الشياطين نفسها التى لاتعرف الرحمة طريقاً إليها ترثى له من شدة عذابه».

ثم علا صوت «المسيح» فى ظلمات الليل وهو يتكلم كأنه يحذر ويهدد

«إنك لأشد جنونا من كل المجانين أيها الإنسان الذى تعرف الله بإدراكك ولكنك تختار الدنيا بهواك وتعرف السماء بإدراكك ولكنك تختار الأرض بيدك وتعرف ملذات الجنة بإدراكك ولكنك تختار شقاء الجحيم بأعمالك فويل لك ثم ويل لك ثم ويل لك»

«إن الذى فى الظلام يشتهى النور ليرى الطريق فيسير آمناً إلى بيته ولكتك أيها الشرير لم تمتنع فقط عن الذهاب الى البيت فى النور الذى وهب الله لك بل أحتقرت النور أيضاً مفضلاً عليه الذهاب الى الظلمات.».

«ما أشقاك وما أجدرك بالمهانة والإحتقار يا من لا تكفى فقط بالإمتناع عن فعل الخير بل تستخدم ما تعرف من الخير لتفعل الشر فإنك تشبه الذى يستخدم الهبات ليقتل بها الواهب» .

«إن ثمرة من يطيع الشيطان هى أن يحصل على النيران الابدية» وسكت «المسيح» وأطبق الصمت المفعم بالإضطراب على الجمع الصغير الجالس فى الظلمات.

وفي نور الصباح طفق « المسيح» يلقي عليهم وصاياهم مؤكداً لهم أهمية أن يتعلموا شريعة الله وأن يقتدوا بالانبياء وإذا كان الانبياء أنفسهم مثل ابراهيم وأيوب لم يتعلموا فذلك لأنهم أهل العرس الذين لا يدعون إلى حضوره لأنهم فى البيت الذى فيه العرس يسكنون .

«إن الرغبة فى عبادة الله ومعرفته قائمة أبداً فى قلب الإنسان وإن خبا نورها بالخطيئة فإنه لا ينطفى لذلك فإن جميع البشر فى كل الأمم يطلبون الله وإن أخطأوا الطريق إليه فعبدوا بدلاً منه الآلهة الزائفة» .

«إن الله قد أرسل الانبياء ليعلّموا البشر الطريق إلى الله ويساعدوهم على السير فيه. إنهم النور الذى أغاث به الرحيم عباده ليعرفوه كما أن الأعمى والذى فى عينه رمد يجب أن يُقَادَ بالبصير حتى يصل الى البيت فإنه هناك يبصر وحده. وإن الانبياء وإن ماتوا فإن كلامهم وسيرتهم مدونة فى الكتب فيجب المحافظة على كلام الانبياء دون زيادة أو نقص حتى لا يضل الناس من بعدهم كما ضل بنو اسرائيل.»

«إن الله قد أعطى الشريعة لتكون طريقاً إليه فهى ليست الغاية بل معرفة الله هى

الغاية وهى غاية يستحيل الوصول إليها بدون الحب فههدف الشريعة أن تثمر فى القلب محبة الله..»

«إن الأمم التى لم يرسل الله إليها الأنبياء ليست بعيدة عن رحمة الله لأن إرسال الأنبياء إبتلاء يظفر فيه بالرحمة من آمن ويبيوء بالعذاب من كفر وإن الإنسان الذى يعيش على فطرته مهتديا ببقية النور الذى فى قلبه لايفعل للأخرين مالا يحب أن يفعلوا له. مثلُ هذا الإنسان غير بعيد عن رحمة الله بل هو قريب ربما كان أقرب كثيراً من كثير من الذين أعطاهم الله شريعته بواسطة أنبيائه»

«كان إنسان صاحب أملاك كبيرة من بينها أرض قاحلة لاتنتب إلا الشوك والأشياء التى لاثمار لها وحدث ذات مرة بينما كان سائراً أنه عثر وسط تلك الأرض القاحلة على نبات غريب بديع الهيئة شهى الثمر فتعجب كثيراً من حسنه وأمرعبيده أن يأخذوا هذا النبات الحسن ويضعوه فى بيته رغم أنه كان قد عزم على إحراق كل تلك الأرض التى لاتعطى أى ثمر. فاعلموا أن رحمة الله واسعة لاتترك من كان فى قلبه مثقال ذرة من الخير».

وأنتهى الطريق وجاء بيت «نيقوديموس» وبستانه خلف الجدول فى «وادي قدرون» على الحدود بين الجليل والسامرة.

عندما خطا «المسيح» داخل البستان وجال ببصره فى أرجائه ثم نظر إلى المنزل القائم فى وسطه أدرك بوضوح أن هاهنا تكون نهاية الرحلة وبداية الرحلة الأخرى.

ههنا سيقتل ليظفر بشهادة القتل فى سبيل الله وسيُرفع جسده الى السماء ليبقى هناك حتى تشرف الدنيا على نهايتها فحينئذ يدفع به إلى الارض مرة أخرى ليقتل «المسيح» الكذاب «ملك اليهود» البشع الأعور الذين يتحرقون شوقاً لرؤيته ليعيد إليهم المجد الذى أبى الله ألا يعود.

هنا سيذوب جسده في النور ويرتفع ليصير ملكاً مقرباً في السماء الثانية ليلحق بالشهيد «زكريا» و«يحيى» ويلقى الأحبة الذين يعرفونه ويحبونه ويحزنون لبعاده ويستبشرون بآيائه. لقد أتى إلى هنا من أجل هذه اللحظة. جاء بهؤلاء الرجال ليشهدوا آية الله فيه. لقد ألقى الله إليهم «روحه» في الهيكل فبايعوه وهو الآن يريد أن يعطيهم آخر وصاياه ليحفظوا تعليمه الذي جاء إلى الدنيا ليعلّم الناس وليكونوا خلفاء له من بعده يحملون كلمة الله إلى الناس جميعاً ويبشرون الذين ينتظرون رحمة الله أن «ملكوت الله» قادم لا محالة وأن «عيسى بن مريم» الذي أوشك أن يرحل من شهود الدنيا الآن هو آية مسعاه للظهور. جلس «المسيح» مستنداً إلى شجرة جامعا تلاميذه حوله يريد أن يخبرهم عما سيشهدونه بعد قليل ويهيئهم ليكونوا رسله بعد ذهابه إلى لقاء ربه، وهو يتذكر نبي الله يعقوب وقد حضره «الموت» فجمع أبناءه الأسباط الاثني عشر أباء هؤلاء التلاميذ الاثني عشر. قال لهم «إن لي كأساً عند الله لا بد أن أشربها ولى صبغة لا بد أن أصطبغ بها فكيف أحضر في الأرض قبل أن أصطبغ بها. فلا بد لي إذن أن أعود بعد ما ارتفع من هنا».

(٤١٧) واندفع يعقوب ويحيى ابنا زبدي ليقولا له قبل أن يكمل حديثه الذي لم يكن فيهم واحد يفهمه قالا «يا معلم نريد أن نطلب منك شيئاً. ونريد أن تعطينا أيّاه مهما طلبنا منك !؟»

فقال «المسيح» وهو يتأسف لعدم فهمهما كلامه وعجزهما عن إدراك حقيقة اللحظة التي هم فيها الآن «ماذا تريدان ؟»

قالا : «نريد أن نجلس واحد منا عن يمينك والآخر عن يسارك عندما تأتي في مجدك يوم القيامة».

يريدان المقعدين الملاصقين لمقعد السيد «المسيح» من المقاعد الإثني عشر التي وعدهم

باعتلائها عند الله إن ثبتوا على الإيمان به ليكونوا شهودا على الأسباط الاثنى عشر شعوب اسرائيل.

إذن لقد ضاعت سدى نصائحه التي ظل يكررها موبخا الفريسيين الذين يحبون المتكثات الأولى في المجالس والصفوف الأولى في الجامع.

إن الكبرياء التي تدفع الانسان ليرفع نفسه فوق أخوته من البشر في الدنيا هاهي قد تركت الدنيا وتسلك إلى الآخرة كما تسلك «إيليس» إلى الجنة ليفتن آدم وحواء ويعمل على طردهما من رحمة الله. كان «المسيح» يريد منهما أن يسألاه عن «الكأس» وعن «الصبغة» لكنهما كانا مشغولين بأمر آخر كانا مشغولين بالكبرياء التي تطرد الإنسان من رحمة الله فقال لهما وصوته الحزين يقطر أسفاً :

«أستطيعان أن نشربا الكأس التي أعدها الله لي وأن تصطبغا بالصبغة التي سأصطبغ بها».

يريد أن يجعلهم يفكرون وأن يسألوا إن كانوا لا يعلمون ولكن يعقوب ويحيى إندفعا وبون أن يفهما المراد من الكأس والصبغة فقالا «نستطيع» هكذا إذ ظنا أن ذلك شرط لإعتلائهما المقعدين المرموقين.

فعاد «المسيح» ليقول وأسفه لم يزل يفيض «نعم. فأما الكأس التي سأشربها فستشربانها وأما الصبغة التي سأصطبغ بها فأرجو أن تصطبغا بها فلانجاة لأحد بغيرها أما الجلوس عن يميني ويساري فلا أملكه لكما لأنه للذين أعد لهم منذ البداية عند الله».

«الكأس هي الموت والصبغة هي أن نسلم وجوهنا لله هذه هي الكأس التي لا بد لكل نفس أن تشربها وتلك هي صبغة الله التي وهبها لمختاريه الذين يحبهم ويحبونه فأرجو أن أكون منهم وأرجو لكما أن تكونا». لقد صدمهم كلامه ورغم أنه لم يضمن للشقيقتين تحقق

ما يطلبان إلا أن بقية التلاميذ العشرة الآخرين ابتدأوا يغتاظون بسبب رغبة يعقوب ويحيى فى الإرتفاع عليهم وأخذوا يتذمرون ويتفرقون من حوله «والمعلم» الحزين الذى جاء بهم الى هنا ليشهدوا نهايته وآية الله فيه يتعجب متأسفا ونادى عليهم «تعالوا إلى هنا ياتلاميذى اقتربوا منى يا بنيائى» فأخذوا يتجمعون تحت ضغط ندائه.

(٤١٨) ثم قام وأحضر بنفسه دلو ماء ومنشفة من البيت وأخذ ينادى على تلاميذه واحداً بعد الآخر فيجلسه ويصب الماء على قدميه ويغسلهما ثم يمسحهما بالمنشفة التى كان متزدا بها والتلاميذ مذهولين مما يرون إلى جاء الدور على «بطرس» الذى كان اسمه «سمعان» وقد عاد «المسيح» فى النهاية ليناديه بإسم «سمعان» مرة أخرى فقال : «ياسيد أنت تغسل قدمى والله لا يكون هذا أبدا».

قال «المسيح» : «والله لست تعلم ماتقول الآن ولأنت تفهم ما أقول ولا ما أصنع لك ولعلك تفهم فيما بعد».

لكن «سمعان» أصر وهو مندهش «لن تغسل قدمى أبدا» فهدده «المسيح» قائلاً : «إن كنت لا تغسل قدميك الآن فلن يكون لك نصيب معى بعد الآن !؟ فأندفع «بطرس» باكياً وقال : «لا ياسيدي ليس فقط قدمى بل إليك يدي ورأسى وكل جسدى» .

قال «المسيح» : «من طهر قلبه فقد طهر جسده كله ولم يعد فى حاجة إلا إلى غسل قدميه لأنهما لم يزلا على الأرض».

ثم أجلسهم وجلس ليقول لهم «أتفهمون ما قد صنعت لكم. أنتم تدعوننى معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأننى معلمكم وسيدكم إذ يعلمكم الله بلسانى وأقودكم إلى رحمة الله على طريقه المستقيم. ولكننى وإن كنت أنا المعلم والسيد قد غسلت أقدامكم فكيف يجب عليكم أن تعملوا مع بعضكم البعض. ها أنذا أعطيتكم المثل وكما صنعت معكم فاصنعوا مع بعضكم ولعلكم تذكرون أننى قلت لكم من قبل أن ليس عبد أفضل من سيده ولا تلميذ أفضل من

معلمه ولا رسول أفضل من الذى أرسله. غاية العبد أن يكون كسيده والتلميذ كمعلمه والرسول أن يطيع الذى أرسله طوبى لكم إن علمتم هذا وحفظتموه».

«ملوك الأمم ورؤساؤها يتسلطون على الناس ويرفعون أنفسهم عليهم والناس تدعوهم صالحين ومحسنين وهم ليسوا كذلك فلا يجب أن يكون الأمر فيكم كما فى الأمم».

«من أراد أن يكون سيّدا للجميع فعليه أن يخدم الجميع ومن أراد أن يكون أولاً فليتأخر ولا يقدم نفسه ومن أراد أن يكون أعظم الجميع فليتصرف بإعتباره أقل شأنا من الجميع».

(٤١٩) «يا أولادى أنا معكم لحظة قصيرة وبعدها لن نكونوا معى ولا تستطيعون أن ترونى أو تأتوا إليّ وكما قلت فى الهيكل سامضى إلى حيث لا تستطيعون أن تأتوا إليّ فدعونى أعطيك الآن وصية جديدة آخر وصاياى قبل أن أذهب» «أحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا أحبوا بعضكم بعضاً بهذا فقط يعلم الجميع أنكم تلاميذى» فقال له «سمعان بطرس» «ياسيد إلى أين تذهب» قال «المسيح» «إلى حيث لا تقدر أن تأتى إليّ»

قال «بطرس» «أينما تمضى ياسيد فإننى أتبعك»

قال «المسيح» «إنك لا تقدر أن تتبعننى الآن ولكنك ستتبعننى أخيراً لأننى ياسمعان صليت من أجلك» «فتعجب سمعان وقال محتجا» «ياسيد لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟»

«أينما تمضى أذهب معك وإن جاؤا يقتلونك فإننى أضع نفسى فداء عنك يامعلم إننى مستعد أن امضى معك الى السجن أو الموت»

فقال «المسيح» : «أضع نفسك عنى؟»

«الحق الحق أقول لك قبل أن يصيح الديك ستكرنى يا سمعان ثلاث مرات وتلعننى ثلاث مرات» فألجمت المفاجأة «سمعان» والآخرين وأطبق عليهم الصمت انتظاراً للكارثة الوشيكة وتحيروا من هذا الإصرار من «المسيح» على أنهم لا يحبونه ولا يؤمنون به بالقدر

الكافى للنجاة ولكن «المسيح» واصل كلامه مفضيا إليهم بآخر وصاياه قال : (٤٢٠) «أنا شجرة حقيقية وأبى هو الزارع».

«هل يستطيع غصن أن يأتى بثمر إذا لم يثبت فى الشجرة، كلا»

«فأنا الشجرة وأنتم الأغصان فاثبتوا فى يا أغصانى ولا تتركونى فتهلكوا، من يثبت فى يأتى بثمر كثير ويحب الزارع ولكنكم بدونى لاتستطيعون أن تفعلوا شيئا، لاتستطيعون أن تاتوا بثمر وكما أن كل غصن ميت لا يأتى بثمر ينزعه الزارع من الشجرة ويلقى به على الأرض حتى يجف ثم بعد ذلك يطرحه فى النار، كذلك يكون كل من تركنى منكم بترك وصاياى.»

«فاثبتوا فى بحفظ وصاياى وحينئذ تاتون بثمر كثير وكل من يأتى بثمر فإن الزارع ينقيه حتى يأتى بثمر أكثر وأكثر وبهذا يتجمد الزارع، إن ثبتتم فى بحفظ وصاياى فإنكم بإذن الله تستطيعون أن تفعلوا كل ما كنتم أستطيع بإذن الله أن أفعله، بل كل ماتطلبونه تجدونه وكل ماتريدونه يكون لكم، كما أحببى الله أحببتكم أنا فأحبونى كما أحببتكم وأثبتوا فى محبتى بحفظ وصاياى احفظوا وصاياى كما حفظت أنا وصايا الله وأثبتوا فى محبتى كما ثبت أنا فى حب الله؟».

«لستم أنتم الذين اخترتمونى بل أنا الذى اخترتكم وأقمتكم وجعلتكم رسلا لتذهبوا وتأتوا بثمر وليدوم ثمركم، أكلكم بهذا لكى يثبت فرحى بكم ويكتمل.»

«إن أحببتهمونى كما أحببتكم صرتم بالحق أحبائى وإن أسميكم بعد ذلك عبيدا لأن العبد لا يستطيع أن يدرك مايفعل سيده،

لقد علمتكم ماسمعه من الله من أجلكم فأحفظوه وعلموه لغيركم وبهذا تصيرون بالحق أحبائى ولاتصيرون بعد عبيدا»

«هذه هى وصيتى لكم، أحبوا بعضكم البعض.»

«إذا كان العالم سييغضكم فلا تحزنوا لأنه قد أبغضنى من قبلكم. الدنيا تعرف أهلها وتحبهم الحب الذى يهلكهم فلا تكونوا من أهلها. أذكروا ماقلت لكم ليس عبد أفضل من سيده ولا تلميذ من معلمه ولا رسول من الذى أرسله.»

«فإذا كانوا قد أبغضونى وأضطهدونى ويريدون الآن قتلى فسيبغضونكم ويضطهدونكم ويريدون قتلکم.»

«وإذا كانوا لم يؤمنوا بكلامى ولم يقبلوا تبشيرى فلن يؤمنوا بكلامكم ولن يقبلوا تبشيركم. بقدر ما حفظوا كلامى سيحفظون كلامكم ولكن عليكم أن تقولوه شهادة عليهم عند الله.»

«لو لم أكن قد جئتُ إليهم ماكانت عليهم خطيئة ولكننى قد جئتُ فتحقت خطيئتهم»
«لو لم أكن قد أظهرت لهم من الآيات ما لم يفعلوا أحد قبلى ماكانت عليهم خطيئة لكنهم الآن قد رأوا الآيات ولم يؤمنوا فتأكدت لعنتهم سيبغضونكم ويضطهدونكم ويريدون قتلکم إن كنتم حقا تلاميذى ومن يبغضكم فإنما يبغضنى أنا لأنكم لى ومن يبغضنى فإنما يبغض الذى أرسلنى ليتأكد ما قيل فى الناموس أنهم قد «أبغضونى بلا سبب.»
«لماذا أنتم حزاني هكذا ؟»

«الأننى قلت لكم أننى ذاهب تحزنون ؟ أتحزنون لحسن حالى ! هل يحزن صديق حقيقى لحسن حال صديقه؟»

«لو كنتم تحبوننى حقا لكنتم حفظتم تعليمى وكنتم الآن تفرحون لأننى أمضى إلي ربى وهو أعظم منى فأنا الآن سأترك الأرض وأرتفع الى السماء فلماذا تحزنون ؟»
«ماذا تعطى الدنيا جزاءً لأهلها ؟»

«إن الإنسان يولد عريانا فيلفه أهله بالأقمطة ويموت عريانا فيلفه أهله بالأكفان هذا

هو الجزء الذى تعطيه الدنيا، لاشئ وإن أعطت قليلا من المسرات فإن مسراتها لاتدوم فأصيخوا إلى سماعكم لتعرفوا ماذا يعطيكم ربكم فى الجنة إلتى تدوم مسراتها؟»

«لقد رأى «داود» مجد الجنة فلما عاد إلى نفسه غطى عينيه بكتا يديه وصاح باكيا «لاتنظرى بعد يا عينائى إلى شئ فكل ما على الارض باطل وكل ما فى الدنيا ليس فيه شئ طيب».

«وقال «أشعيا» عن نعيم الجنة «لم ترعينا إنسان ولم تسمع اذناه ولم يخطر على قلبه ماأعده الله للذين يحبونه»

«أتعلمون لماذا لم ير الناس ولم يسمعوا ولم يدركوا بقلوبهم مجد الجنة؟ لأنهم يكونون فى الدنيا محاصرين فى إبدانهم غير مؤهلين للمشاهدة، إن «داود» رأى ولكن ليس بعيني جسده الترابى بل رأى بنفسه التى تحررت من أسر جسده وصارت متحدة «بروح الله» الذى له أن يعاين ما بنفسه.»

«هل تستطيع جرة صغيرة أن تحتوى ماء البحر المحيط؟»

«كلا وكذلك لا يستطيع إنسان أن يحيط بنعيم الجنة ومجدها.»

(٤٢١) «أنظروا إلى الفلاح فى زمن الصيف وقد أثمرت حقوله، ماأجمل الدنيا فى مساء الصيف حيث يحمل كل شئ ثمرًا.»

«إن الفلاح من فرط نشوته لا يتمالك نفسه فيغنى مسرورا حتى أن الجبال والأودية لتردد رجع غنائه لأنه يحب ما صنعت يداه كل الحب.»

«أنظروا إلى هذا ثم أرفعوا قلوبكم من الارض لتشهدوا مجد الجنة فإن هذا ظلُّ لذلك»

«لعمرك الله الذى تقف نفسي فى حضرته إن هذا يكفي تماما من يريد أن يعرف

الجنة... البيت الذي يخزن الله فيه مسراته للذين يحبونه، إن الأرض التي يدوسها الصالحون المباركون في الجنة لغالية جداً حتى أن درهما واحدا منها يكون أثمن من ألف كون من الأكوان التي تتعاقب على الأرض»

«وكما أن العبد المحب لربه لا يريد أن يجعل لعبادته نهاية فإن الرب المحب لعبده لا يريد أن يجعل لجزائه لعبده نهاية.»

«كيف يعطى «هيرودوس» رئيس الجليل واحداً من أشرف أخلائه؟»

قال «يحيى»: «إن ما يعطيه لواحد من هؤلاء يكفى مائة من المساكين مدى الحياة؟»

قال «فماذا يعطى فقير لا يجد قوت يومه «لهيرودوس» إن أراد أن يتقرب إليه؟!»

قال «يحيى» «فلسا أو فلسين»: قال «المسيح» «فكما يعطى الفقير «لهيرودوس» تعطى الدنيا لأهلها وكما يعطى «هيرودوس» لصديقه الشريف يعطى الله لعباده في الجنة فأنظروا وتأملوا..»

قال «بطرس» «أيذهب جسدنا إلى الجنة؟»

قال «المسيح» «إحذر يا سمعان أن تصير صدوقيا لأن الصدوقيين هم الذين يقولون أن الجسد لا يبيعث ولا توجد ملائكة ولذلك حرم الله عليهم دخول الجنة.»

«ألم تقرأوا ماقاله أيوب «أعلم أن إلهي حي وأننى سأقوم فى يوم القيامة بجسدى وسأرى بعينى إلهى منقذى أذكروا ماقاله أيوب جيدا حتى لاتصيروا صدوقيين.»

«ماجدوى الثمار التى فى الجنة وما معنى الأنهار الأربعة؟ إذا لم يكن هناك جسد فمن الذى سيأكل الثمار ويشرب من الأنهار ويتزوج من النساء المطهرات.»

«رجلان تعاوننا على خدمة سيدهما، واحد كان ينظر ويتأمل ثم يأمر والآخر ينفذ ماأمر به الأول أفمن العدل عندما يريد السيد أن يكافئ خدمه أن يجازى الأول الذى فكر

وقدر ويترك الآخر بلا مكافأة وهو الذى نفذ؟! من العدل أن يجازى الاثنين
كذلك النفس والجسد»

قال «بطرس» «يا معلم إن الجسد هو الذى يدعونا للخطيئة؟»

قال «المسيح» «وهل يمكن للجسد أن يخطئ دون «نفس» تأمره بالخطيئة هل يمكن
شهود جسد دون نفس هذا محال وكذلك لا يمكن شهود نفس دون جسد وإن لم يذهب
الجسد الى الجنة فمن المحتم أنه سيدخل الجحيم فإما الجنة أو الجحيم وإن حكمت على
الجسد بالجحيم فأنت تحكم على النفس أيضا.»

قال «بطرس» «وكيف يخرج الطعام دون نجاسة؟»

قال «المسيح» «إن الجسد فى الدنيا يأكل أطعمة قابلة للفساد فلا بد أن تخرج منه
النجاسة ولكنه عندما يأكل أطعمة طيبة غير قابلة للفساد يستحيل أن تنتج نجاسة فإنه لن
يخرج نجاسة وهل هناك نجاسة فى الجنة؟!»

«لقد طرد آدم من الجنة لأنه أكل طعاما قابلاً للفساد وكان لابد أن يخرج نجاسة
فكان لابد أن يخرج من الجنة.»

قال «أشعيا» متحدثا بإسم الله «يجلس عبادى على مائدتى فى بيتى ويتلذذون»
مبتهجين وسط أصوات السرور»

«أما أنتم يا أعدائى فتطرحون خارج البيت بعيداً عنى حيث تموتون فى الشقاء وكل
جنودى يمتهنونكم»....

«ماذا يعنى قوله «يتلذذون»؟ إنه يعنى دخول الجسد الى الجنة.»

«لكن صدقونى إن جسدنا هذا يتطهر لأن قلوبنا ستتطهر من كل نية شريرة فيعود
جسدنا كما كان قبل أن يعصى آدم ربه ويأكل من الشجرة المحرمة. قال : «برتولوماوس»
«ولكن يا معلم أليكون مجد الجنة لجميع من فيها سواء،؟»

«إن كانوا على السواء فهذا ظلم لأنهم كانوا مختلفين وإن لم يكونوا على السواء حسد الأصغر الأكبر وفي هذا ألم لايجوز في الجنة التي يجب أن تكون مبرأة عن كل شر؟»

قال «المسيح» «لن يكون على السواء لأن الله هو العدل ولكن يا «برتولوماوس» سيكون كل واحد قانع بما هو فيه.»

«تأمل سيداً غنياً عنده كثير من الخدم رجال وأطفال ونساء وقد ترك لهم ملابس كثيرة ليلبسوها فهل يفرض على الجميع زياً واحداً إذن سيحزن الأطفال الصغار لأن الزى لو كان على قياس الكبير سيعدون ذلك استهزاء بهم وسخرية ولو كان على قياس الصغار فإنه لن يليق بالكبار إرفع قلبك «يابرتولوماوس» ووسع لثري أن للجميع في الجنة مجداً واحداً وعلى كونه واحداً إلا أنه يكون كثيراً لواحد وقليلاً لآخر دون أن يتولد من ذلك حسد لأن القلوب قد تطهرت فلم يبق فيها إلا «الروح». قال «برنابا» «هل في الجنة نور؟»

قال «المسيح» «يا «برنابا» إذا كان الله ينور بالشمس والقمر سماء الدنيا المظلمة التي يعيش على أرضها الخاطئين أفلا ينور بيته الذي أعده للصالحين؟»

«يا «برنابا» إن الهنا هو شمس الجنة «ورسل الله» هو القمر والأنبياء هم النجوم وكما أن كل البشر نالوا خيراً من الأنبياء في الدنيا لأنهم أضاعوا لهم الطريق فكذلك ينالون الخير من الأنبياء في الجنة . لأنهم يكونون بمثابة المصابيح التي تضيء لهم بيوتهم» وأراد «المسيح» أن يعود إلى وصاياه لكن «بروتولوماوس» قال له : «يا معلم كن طويل الاناة؟»

قال «المسيح» «قل ماتريد؟»

قال «برتولوماوس» «لا بد أن الجنة ستكون واسعة جداً»

قال «المسيح»: «نعم ولا يستطيع أحد أن يدرك سعتها». قال «برتولوماوس» و«إننا نرى فيها ربنا لأنك قلت أنه هو شمس الجنة»

قال «المسيح» «نعم»

فاندفع «بطرس» يقول: «إذن فالجنة أكبر من الله لأننا نراه فيها»

قال «المسيح» «اسكت فإنك تجدف على غير هدى».

والتفت «المسيح» كأن أحداً لا يراه التلاميذ قد كلمه هامساً فتغير لونه ثم قال: «أسجدوا لربكم وعفروا وجوهكم في التراب».

وبعد الصلاة نادى «المسيح» على بطرس والتلاميذ وقال: «يا سمعان» إنك ترى بعين واحدة الشمس وهي أكبر من الأرض التي تحملك عدة مرات إنما الجنة وسيلة نرى بها الله فهي العين التي نرى بها ربنا ولو لم يكن جسدنا يذهب إلى الجنة فأين سيذهب جسدي الآن بعد أن يُرْفَع من هنا؟»

وأضطرب «يهوذا الأسخريوطي». هل أزمع الساحر أن يختفى الآن؟ أعله قادر على الصعود إلى السماء؟ إذن فقد ضاعت الثلاثين فضة والثلاثمائة ذهب. «أين سيذهب جسدك؟ إلى أيدي الكهنة بالضبط ليفعلوا به ما يحلو لهم ويعطونني ما يحلولى. قال «المسيح»: «بعد قليل سوف اختفى عن عيونكم ولن تستطيعوا أن ترونى ولكنكم بعد قليل سترونى وتستطيعون أن تأتوا إلى»

(٤٢٢) «بعد قليل لن يرانى العالم أيضاً أما أنتم فيمكنكم رؤيتي إن حفظتم وصاياى وثبتتم في محبتى وستعرفون حينئذ أننى حى وبحياتى هناك تكون حياتكم. الذى يُحببنى حقاً هو الذى يحفظ وصاياى وهذا هو الذى أظهر له ذاتى فيعرف أننى عند الله حى ويأتى إلىى لبنبنى سوياً عند الله بيتاً ولكن الذى لا يحببنى فإنه لا يحفظ وصاياى ولن يعرف أين أنا ولن يعرف الطريق ولن يأتى إلىى بل لن يعرف من أنا!!

الكلام الذى أقوله لكم الآن «الله» هو الذى يقوله لكم بلسانى إن الله قد أرانى كتابه
الذى سطر فيه كل شئ وما أراه أقوله
قالوا : «أفأنت الآن تقرأ ١٩»

قال : «نعم وقد أوشكت أن أنتهى من قراعتى.» قالوا «ياسيد إلى أين تذهب وماذا
حدث حتى أنك تقول أنك مزعم أن تختفى عن أعيننا وعن العالم أيضا»
قال : «بعد قليل سأموت وسيصعد ابن الانسان إلى السماء ينبغى لابن الإنسان أن
يرتفع إلى السماء»

قالوا : (٤٢٣) كيف تقول أنك ستموت وسمعنا من الكتبة أن الناموس مكتوب فيه أن
«المسيح» لا يموت بل يبقى إلى الابد وكيف تقول أن ابن الانسان ينبغى أن يرتفع من هو
ابن الانسان هذا ١٩»

قال «المسيح» وهو كالمذهول «بقيت معكم زمانا هذا طوله ولا تعرفون من هو
ابن الانسان ١٩»

قال (٤٢٤) فيلبس «ياسيد من هو أبوك أرنا أباك فقط وكفانا» ١٩

قال «المسيح» «صحبتم زمانا هذا طوله ولم تعرفنى يا «فيلبس» لو عرفتمونى حقا
لعرفتم أبى.»

«الذى رآنى فقد رأى أبى فأنا صورته التى تنوب عنه. فكيف تقول «يا فيلبس» أرنا أباك
ألست تؤمن أننا واحد إننى صورته وهو الذى وهبى حياتى الكلام الذى أقوله لكم الآن
يتكلم الله به على لسانى فصصدقونى من أجل الآيات التى أظهرها الله على يدى. هذه
الأعمال تشهد بصدقى لأن الله هو الذى يعملها بى. إننى ماضٍ الآن إلى الله فمن يؤمن
بى فإنه يمكن أن يصنع أكثر مما صنعت أنا فبقدر الإيمان يكون لك.» وأصابهم الوجوم
وأطبقت عليهم الحيرة من كل جانب وأخذوا يتذمرون.

(٤٢٥) ماهذا الذى يقوله لنا، بعد قليل لن ترونى وبعد قليل سترونى وتأتون إلى ماهذا القليل الذى يتحدث عنه إننا لانفقه كثيراً مما يقول !! لانعلم عما يتكلم وأرادوا أن يكلموه ولكن وجهه كان يتغير وبدا عليه حزن شديد وهو يقول لهم :-

«الحق الحق أقول لكم أنكم ستبكون وتنوحون بينما الدنيا الفاجرة تضحك أنتم ستحزنون ولكن حزنكم سيتحول إلى فرح يدوم ولن يستطيع أحد أن يسلبه منكم أما ضحك الفجار فإنه سينقلب إلى بكاء أبدي .»

«المرأة حين يأتيها المخاض تحزن وتبكي لأن ساعتها قد جاءت ولكن متى وضعت حملها لاتعود تذكر تلك الشدة التى كانت فيها لشدة الفرح الذى ينسيها كل ألم لأن انسانا قد ولد وأنتم الان تحزنون وستبكون من الشدة ولكن الشدة ستزول وسيتحول كل شئ الى فرح ولن يُنزع منكم ذلك الفرح.»

«قد كلمتكم بأمثال ولكن قد أتت اللحظة التى لأكلمكم فيها بأمثال بل علانية. كلاً بل إن «روح الله» يكلمكم علانية وقد طلبتُ من أجلكم هنا أشياء ولكن قد أتت اللحظة التى تطلبون فيها أنتم من ربكم فيعطىكم كل شئ تريونه. لأقول لكم أننى أسأل الله لكم بل إنكم أنتم الذين تطلبون وربكم هو الذى يجيبكم أن تثبتم فى محبته يعطيكم ماتسألون ولكى تؤمنوا أننى أكلمكم بكلام الله وأننى من الله قد جئت إلى الدنيا وإلى الله أخرج من شهودها لأعود إليها وهى تشرف على النهاية. من أجل أن تصدقوا أننى سأرتفع الى السماء وأن «روح الله» سيأتى إلى الأرض من بعدى من أجل أن تؤمنوا بى وبكل ماقلت لكم.....»

(٤٢٦) «اطلبوا من الله بإسمى أى شئ وهو يعطيه لكم».

«اطلبوا أى شئ يُعطى لكم حتى تؤمنوا». وسكتوا ولم يعرفوا ماذا يقولون أو ماذا يطلبون ولكنه عاد ليقول «من أجل أن تؤمنوا اطلبوا أى شئ يُعطى لكم !!»

(٤٢٧) «حتى الآن لم تطلبوا شيئاً؟»

«أطلبوا لتؤمنوا وليكون فرحكم كاملاً.» وفكروا ثم قالوا.

«يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟» (٤٢٨)

وصدمه طلبهم وصدمه أكثر طريقة الطلب التي تقطع بقلة إيمانهم وسوء تقديرهم لقدرة الله الذي أظهر أمامهم أكثر من غيرهم كثيراً من عجائبه. لم يقولوا «يا معلم» أو «يا نبي الله» بل قالوا «يا عيسى ابن مريم»

«قال إتقوا الله إن كنتم مؤمنين» (٤٢٩)

«قالوا نريد أن نأكل منها»

«وتطمئن قلوبنا»

«ونعلم أن قد صدقتنا»

ونكون عليها من الشاهدين (٤٣٠)

ورحم «عيسى» قسوة قلوبهم وغلظة أفعالهم وأقتنع بحججهم. إنهم خلق الله هكذا خلقهم وهم أعلم بهم.

«قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا (الذين شهدوا رسالتي الأولى) وآخرنا (الذين يشهدون رسالتي الثانية)

وآية منك وأرزقنا وانت خير الرازقين» (٤٣١)

ولم ينتظر «عيسى» الإجابة لأن المائدة كانت تنزل من السماء وعليها من ثمار الجنة

بمجرد أن أنهى «عيسى» كلامه، «قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد
منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين (٤٣٢)

ومد «الحواريون» أيديهم إلى المائدة وهم مذهولون كأنهم فى «رؤيا» وأخذوا يأكلون
وهم لا يصدقون أيديهم التى تتناول الثمار وأسنانهم التى تطحنها .

وحينئذ أوحى الله إليه أن «يهوذا الاسخريوطى» أحد هؤلاء الأكلين معك على مائدة
الله قد اتفق على تسليمك الى رجال الهيكل مقابل ثلاثين فضة سيأخذها من رئيس الكهنة
الذى أعد الخدم وبعض الجنود من أجل هذا ونظر «المسيح» إلى «يهوذا» الذى كان فى
أشد اضطراب وهو يمد يده الى المائدة .

فأضطرب «عيسى» وامتنع لونه وقال فجأة :-

(٤٣٣) «الآن نفسى قد اضطربت، الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمنى» ففزع
التلاميذ وتوقفوا عن الأكل وأخذ كل واحد منهم ينظر لصاحبه ثم ينظر «للمعلم» الذى كان
يقطر وجهه حزناً وهو يقول : «الذى يأكل معى رفع على عقبه، الذى يده على المائدة معى
يسلمنى» فصرخوا «من هو يا معلم قل لنا من هو ؟» قل لنا من هو حتى أخنقه بيدي» «أود
أن اقتله الآن» ولم يستطع «يهوذا الاسخريوطى» أن يتمالك نفسه أكثر من هذا .

لقد بغتته كلمات «المسيح» ولا يعرف ماذا يفعل، كان يقول لنفسه من المؤكد أن «المعلم»
لا يعرف حقيقة ما دار بينه وبين رئيس الكهنة ولما تركه يذهب معه ويختاره ليكون إلى
جواره فى النهاية التى يتحدث عنها وكان ذلك سبباً فى استهزاء «يهوذا» «بالساحر»
القدير، إن «الساحر» لا يعلم عدد الأموال التى يأخذها «يهوذا» من الصندوق الذى أعطاه
له ليكون أميناً عليه ، بينما يدعى أنه يعلم ما يدور فى السماوات وما سيحدث على الأرض
حتى نهاية العالم ولكنه الآن وبعد أن فضح «المعلم» حقيقة إتفاقه وقد كثر التلاميذ عن
أنيابهم لم يعد هناك معنى للبقاء هنا أكثر من اللازم وانتفض «يهوذا» قائماً وأسرع يجرى
هارباً و «المسيح» يقول له : «افعل ما أنت فاعله يا «يهوذا» ولكن أسرع !!» .

وكان «يهوذا» بالفعل يريد أن يسرع لأنه خشى أن يهرب «المسيح» من بستان
«نيقود يموس» ولن يتسنى له بعد الآن أن يعلم أين هو. «إن هرب وأختفى ضاعت
المكافأة». كان بالفعل يريد أن يسرع فاندفع يسرع وظل التلاميذ يسألون «المسيح» «من
هو الذى يسلمك يا «معلم» قل لنا من هو ونحن نقتله» .

قال : «إسكتوا فإنه لا يستطيع أن يفعل إلا ما قد فعل» وكانوا يظنون أن «المسيح» قد
أمر «يهوذا» بإحضار شىء أو شراء شىء لأن صندوق النقود كان معه فظلوا يصرخون
«من هو قل لنا يا معلم من هو» .

قال «المسيح» «إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه فى كتاب الله ولكن ويل
لذلك الرجل الذى يريد أن يسلمه كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد (٤٣٤) .

قالوا له : «يا معلم» «قل لنا من هو» ؟

قال «المسيح» «ها هو الذى يسلمنى قد أسرع الى «أورشاليم» ليأخذ الفضة ويأتى
بالرجال الذين يريدون الإمساك بى» فكادوا يصرخون من هول المفاجأة فى صوت واحد
«يهوذا الأسخريوطى». آخر من كانوا يتوقعون لأنهم ظنوا أن «المسيح» يأتى له ذلك أعطاه
صندوق المال ليكون أميناً عليه ولم يوبخه ولا مرة واحدة إلا يوم اعترض على «مريم
المجدلية» التى ألقى على «المسيح» زجاجة العطر ولم يكن يتكلم أبداً . لم يسأل «المسيح»
ولا مرة واحدة ولم يعترض على شىء أو يسخط أو يحتج بل كان دائماً صامتا فبدا
لِلناظرين كأنه أشد المؤمنين .

قال «المسيح» : «أنا اخترتكم وواحد منكم شيطان. لقد ذهب لىأتى بالرجال ليمسكوا
بى ولكنهم سيمسكون به لأن الله سيعطيه صورتي حتى يُخيل إلى كل من يراه أنه أنا بعد
ما أكون أنا قد صعدت إلى السماء سيعذب هو فى صورتي بالعذاب الذى أضمره الكهنة
لى والعذاب الذى أضمره الله له. أنا الآن أقول لكم ما سيكون قبل أن يكون حتى إذا وقع
لا تعثروا. إن «يهوذا الأسخريوطى» الذى ذهب الآن إلى «أورشاليم» ليُتِمَّ اتفاهه مع الكهنة

فيأخذ ثلاثين قطعة من الفضة ويأتى بالرجال إلى هنا ومعهم السيوف والعصى والمشاعل ليمسكوا بى لكننى بعد أن أموت سيرفع الله جسدى إلى السماء وسيعطى صورتي للخائن ليقدّم إلى المحاكمة ويصلب. سيقتل فى صورتي بدلا منى عقابا على خيانتته لله وسيلقى فى جهنم بمجرد أن تفارق نفسه الخبيثة جسده المصلوب فلا تدعوا أحداً يخدعنكم. إننى سأرتفع إلى السماء بجسدى وإن يهوذا الإسخريوطي هو الذي سيصلب ويقتل فى صورتي وبإسمي أقول لكم الآن حتى لاتضلوا من بعدي . كثيرون سيأتون بإسمي ويقول كل واحد فيهم «أنا المسيح» «الزمان قد إقترّب» فلا تصد قوهم ولا تمشوا وراءهم . إن قالوا لكم ها هو في البرية فلا تخرجوا وإن قالوا لكم ها هو في المخادع قد جامكم فلا تصدقوا . إن ابن الإنسان سيمضي في طريقه كما هو مكتوب عنه في كتاب الله»

قالوا : (٤٣٥) «ها أنت تتكلم الآن فى وضوح وعلانية ولا تقول مثلا واحدا. نحن الآن نؤمن أنك من الله قد أتيت وإلى الله تصير الآن ولسنا نحتاج إلى أن نقول لك شيئا أو أن نسألك عن شيء نحن الآن مؤمنون !!» .

قال : «الآن مؤمنون ؟ الحق أقول لكم أنه قد اقتربت اللحظة التي تتفرقون فيها» (٤٣٦) «كلكم ستشكون فى وكل واحد منكم سيمضي إلى أهل بيته مسرعا وستتركونى وحدى ولكننى أقول لكم إننى لست وحدى فإن الله معى. أقول لكم الآن من أجل أن تنالوا السلام حتى لا تضلوا من بعدى سيكون لكم فى الدنيا ضيق شديد ولكن ثقوا فى الله وثقوا أننى بالله قد غلبت الدنيا بأسرها» .

قوموا بنا ننطلق من هنا لأننى أريد أن أعطيكم آخر وصاياى.

(٤٣٧) وسار قليلا ثم وقف وقال لهم : «حين أرسلتكم بلاكيس أو مزود وبلا أثواب أو أحذية هل أعوزكم شيء ؟» .

قالوا «لا» .

قال لهم : « منذ الآن من له كيس فليأخذه ومن له مزود فليحمله معه ومن ليس له سيف فليذهب ليبيع ثوبه ويشتري سيفاً » فظن التلاميذ أنه ستحدث معركة بينه وبين الذين سيأتون للقبض عليه وتحمس بعضهم فقال « بطرس » « يا معلم معنا سيفان أهذا يكفي؟ » .

قال «المسيح» : «يكفى» كان فعلا يكفيه أن يشعر أنهم قد آمنوا به وأنهم مستعدون للدفاع عنه، أن تكونت في قلوبهم إرادة القتال في سبيل الله أما هو فكان يعرف أن ليس ثمة قتال سيقع لأنه سَيُقْتَل وسيهربون هم عند أول مواجهه. إن الله سيرفع جسده فهو ليس في حاجة للدفاع عنه. ولكنه يحب لهم أن يؤمنوا .

قال : « لكل مخلوق نهاية وها هي نهايتي قد أقتربت » فبكوا وقالوا «أين ستذهب يا معلم» وتركنا حري بنا أن نموت معك .» .

قال : « لا تضطربوا فلست أنا الذي خلقتكم بل الله هو الذي خلقكم وإذا كنت أنا سأموت بعد قليل فإن الله حي لا يموت وإن كنتم تؤمنون بالله فإنكم تستطيعون أن تظفروا بالحياة الأبدية التي ليس فيها أى موت. الذي يؤمن بى فإنه يؤمن بالذى أرسلنى لذلك فإن من يؤمن بى يحصل على الحياة الأبدية لأن الله الذى أرسلنى يحبه ويهبه حياته لا تضطرب قلوبكم فعند الله منازل كثيرة .» .

« الحق أقول لكم إن ذهابى خير لكم لأننى أمضى لأعد لكم مكاناً فإن مضيت الآن أعددت لكم مكاناً حيث تستطيعون أنتم أيضاً أن تأتوا لتتكوأ معي » . قال «توما» : « يا سيد لسنا نعلم أين ستذهب فكيف نقدر أن نأتى إليك ونحن لا نعرف الطريق .» .

قال «المسيح» «إن حفظتم وصاياى وثبتم فى محبتى فإنكم حينئذ ستعرفون الطريق وستأتون إلى فأمضوا أنى جئت من الله وأننى الآن ماض إليه وصدقوا كل ما قلته لكم وستعرفوننى وتعرفون الطريق .» .

(٤٣٨) «سلاماً أترك لكم، السلام هو ما يمكنني أن أعطيكم لكم إن آمنتم. لست أعطيكم كما تعطي الدنيا، لا تضطرب قلوبكم ولا ترهبوا، قلت لكم إنني الآن ذاهب ثم أتي لو كنتم تحبونني حقاً كنتم تفرحون لي لأنني ذاهب إلى ربي الذي هو أعظم مني، أقول لكم الآن قبل أن يكون لكم يؤمنوا»
«قوموا بنا ننطلق من هنا.»

«لا أترككم يتامى فإنني سأطلب من الله أن يرسل إليكم أبي، «روح القدس» الذي لم يستطع بنو إسرائيل أن يؤمنوا به لأنهم لم يروه ولم يعرفوه ولو آمنوا بي وعرفوني لرأوه وعرفوه. آه لو آمنوا بي ولكنهم لم يؤمنوا ولذلك فلن يعرفوه ولن يؤمنوا به عندما يأتي أماً أنتم فيجب أن تؤمنوا بي وأن تثبوا في محبتي لتعرفوه، إنه الآن ماكن معكم في أنفسكم فانظروا إنه النور الذي به تبصرون.»
«قوموا بنا ننطلق من هنا.»

«قد كلمتكم بكل هذا لكي لا تعثروا، سيخرجونكم من المجمع وسيطاردونكم بل وتأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يتقرب لله بخدمة وسيفعلون كل هذا بكم لأنهم لم يؤمنوا بي ولن يؤمنوا بأبي حين يرسله الله إلى الدنيا.»

«أكلكم بهذا لتكونوا شهودي ومتى جاءت «الساعة» التي أحتاج فيها إلى هذه الشهادة تتذكرون أني قد قلت لكم، لم أكن أكلكم هكذا منذ البداية لأنني كنت معكم أما الآن فإنني ماض إلى الذي أرسلني» ولما هم بعضهم بسؤاله مرة أخرى «إلى أين سيذهب» كان «المسيح» قد فاض به الكيل «فصاح لا يسألني واحد منكم إلى أين سأنذهب لأنني قد قلت لكم.»

«لكن الحق أقول لكم إن ذهابي خير لكم، خير لكم أن أنطلق من هنا لأنه لو لم أنطلق لن ياتي إليكم «رسول الله» لكنني إذا ذهبت أرسله الله، هو الذي سيعزيני وسيشهد لي

وسيوخبر الدنيا كلها من أنا وسيويخ بنى اسرائيل على خطيئتهم فى حقى بل فى حق الله بل فى حق أنفسهم. توجد أشياء كثيرة لم أقلها لكم ولكنكم الآن لا تستطيعون أن تحتملوا ولم يعد هناك وقت ولكن متى جاء ذاك، «روح الحق» فهو الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من تلقاء نفسه بل يضع الله كلامه فى فمه.»

«هو الذى سيمجدنى حقاً وسيخبر الدنيا بكل شيء عنى وعن أمور أخرى كثيرة آتية كما يسمع من الله فهو يتكلم. ذاك هو الذى يحمل لى العزاء. هو الذى يشهد لى فأشهدوا أنى قد أنبأتكم بمجيئه.»

«قوموا بنا ننطلق من هنا.»

كان الليل قد بسط ظلمته على الأشياء كلها واستولى التعب على التلاميذ كلهم وهم يسيرون من موضع لآخر فى «وادي قدرون» و «المعلم» الذى يكلمهم ينتقل كالمأخوذ بقوة أكبر منه توقفه ليتكلم ثم تسوقه الى السير. وأدرك «المسيح» أن التلاميذ لم يعودوا قادرين على السير معه أو الاستماع إليه إذ بدأ النوم يضعهم تحت سلطانه. كان الناس يثقل أجفانهم فأشار اليهم بالدخول الى بيت «نيقوديموس» فساروا بخطوات متناقطة يقاومون رغبتهم الشديدة فى النوم يريدون الذهاب الى مضاجعهم فقال لهم «المسيح» «كلكم ستشكون فى ولكنى صليت من أجلكم» فقال «بطرس» متحمساً «والله إن شك الجميع فيك فأننا لا أشك فيك أبدا.»

فقال «المسيح» «الحق أقول لك إنك قبل أن يصيح الديك ستنكرنى يا سمعان ثلاث مرات لكننى من أجلك يا سمعان قد صليت لكى لا يفنى إيمانك ومتى رجعت ثبت أخوتك» فقال سمعان «لو اضطررت أن أموت معك سأموت معك ولا أنكر» وتحمس التلاميذ كلهم.

فقال «المسيح» هامساً «مكتوب أنى أضرب الراعى فتتبدد الرعية.»

وتركوه فى البستان وذهبوا ليناموا لأن النعاس كان يغلبهم على أمرهم وبقى «المسيح» وحده فى البستان والليل المظلم يواصل نزوله ثم قام ليغتسل ويصلى .

ذهب ليوقظ تلاميذه الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم سيقاتلون دفاعاً عنه وسيموتون معه. ذهب ليوقظهم من النوم لا ليطلب منهم القتال بل الصلاة. أن يقوموا ليصلوا معه. كان يريد منهم أن يسهروا معه ويشاركوه الصلاة وهو يستعد لمغادرة الدنيا الفاجرة التى لم تؤمن به ولا بالذى أرسله ولكنهم كانوا قد استغرقوا فى النوم وعلا شخيرهم فأختار منهم شهوداً أربعة وأجلسهم وقال لهم (٤٣٨) «إسهروا معى. نفسى حزينة جداً أمكنوا ههنا وأسهروا معى ثم تقدم قليلاً وخر على وجه وقال : رب نجنى من هذه الساعة. لكننى من أجل هذه الساعة أتيت إلى هنا رب إن أمكن أن تُجِرَ عنى هذه الكأس فكل شئ مستطاع لديك فأجِرَ عنى هذه الكأس لكن كما تريد أنت لا كما أريد أنا» .

كان ساجداً على الأرض والعرق يفيض من وجهه كأنه مطر يهطل وصوت بكائه وتضرعه يصل إلى أسماعهم التى يثقلها النوم رؤوسهم تهتز كلما غفوا حتى غلبهم النعاس فقام إليهم فوجدهم نياماً فقال «لبطرس» «أهكذا ما أستطعت أن تسهروا معى ساعة واحدة» .

«اسهروا وصلوا كثيراً حتى لا تدخلوا فى تجربة «الروح» نشيط متيقظ لكن الجسد ضعيف .»

ثم مضى مبتعداً عنهم بعد أن أيقظهم وخر على الأرض ساجداً «رب إنك قادر على كل شئ فإن أمكن أن تُجِرَ عنى هذه الكأس فلتعبر عنى. إن لم يكن ممكناً إلا أن اشرب هذه الكأس فلتكن مشيتك» . وقام ليرى شهوده فوجدهم نياماً فأيقظهم ومضى ليصلى أما هم فقد عادوا إلى النوم إذ كانت عيونهم ثقيلة جداً ولم يعرفوا بماذا يجيبوه. «أيها الإله العظيم مجد إسمك. أظهرتُ إسمك للناس الذين أعطيتنى من الدنيا.»

«قلت لهم ما أمرتني أن أقوله. هم عبادك وأنت تفعل بهم ما تشاء. إننى أسأل من أجلهم لست أسأل من أجل الذين كفروا بك وأبغضونى ولكن من أجل هؤلاء أسأل لكى يؤمنوا لكيلا يهلكوا إلا أبني الهلاك الذى ذهب ليتم الكتاب» .

(٤٣٨) «رب إحفظهم فى إسمك الذى وهبني الحياة لنصير جميعا واحداً. إننى الآن سأتركهم وآتى إليك أما هم فسيبقون فى الدنيا. رب لا أقول لك خذهم من الدنيا بل أحفظهم من الشيطان لكيلا يهلكوا» .

«إحفظ الإيمان فى قلوبهم ليظفروا بالحياة الأبدية ويعرفوا أنك أنت الإله الوحيد»
وأستجاب الله لصلاة «عيسى» ونظر برحمته إلى تضرعه وبكائه «إذ قال الله يا عيسى إننى متوفيك ورافعك إلس ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلس مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفىهم أجورهم والله لا يحب الظالمين»
(٤٣٩) فعرف «عيسى» أنه لن يُقتل بل سيموت بالوفاة وأسرع يوقظ النيام لأن «يهوذا» ومن معه كانوا قد اقتربوا .

صاح فيهم «قوموا ها هوذا الذى يسلمنى يقترب» .

جمع كبير من خدم الهيكل يحملون العصى وأغصان الشجر وبعضهم يحمل المشاعل لأن الوقت كان ليلا والظلام حالكا وكان معهم بعض الجنود الذين استطاع الكهنة أن يشتروهم بالمال فجاءوا يحملون السيوف فأنتبه التلاميذ من نومهم مذعورين على أصوات الأقدام التى تزحف نحوهم وأفرعتهم السيوف التى لمعت فى نار المشاعل والعصى وقال «بطرس» «يا معلم أنضرب بالسيف؟» فقال «لا. الكأس التى قدمها لى ربى ألا أشربها» وأسرع «يهوذا» يتقدم نحو «المسيح» وكان قد أعطى الرجال علامة أن الرجل الذى يقبله

هو «عيسى الناصرى» المطلوب إمساكه فتقدم «المسيح» نحوه وقال له: «يا «يهوذا» أقبلة تسلم ابن الإنسان» بينما كان التلاميذ يتراجعون وقد ملأ الرعب قلوبهم فزال إيمانهم كأنهم فى كابوس رهيب كما لو أن «المسيح» لم يأت إليهم ولم يختبرهم أو يكلمهم عن كل ما يجرى الآن تحت أبصارهم التى أعماها الخوف من الموت .

قال «المسيح» للرجال الذين يتقدمون نحوه يريدون إمساكه «كأنكم على لص خرجتم بالعصى والسيوف والمشاعل وكنت معكم طوال الوقت أعلم فى الهيكل فلماذا لم تقبضوا على من تطلبون ١٩»

قالوا «عيسى الناصرى» قال فى صوت مهيب «ها أنذا إنى هو. رب قد أتت اللحظة فمجد إسمك» فأخذت الجمع الرجفة فسقطت المشاعل من أيدي حاملها ووقع الرجال على الأرض مغشياً عليهم لم يستطيعوا أن ينظروا إلى «المسيح» وهو يتحول إلى النور إذ تلاأ حتى صار كأنه شمس قريبة و«يهوذا» واقف كالمذهول يرى ما يحدث ولا يفهم شيئاً حتى أخذته هو الآخر الرجفة حينما التفت إلى «المسيح» وهو يصعد فسقط مغشياً عليه وأرتفع «المسيح» الى السماء فى صحبة الملائكة الذين جآوا لحمله وقد صار واحدا منهم (٤٤٠) .

ثم أفاق الرجال فقاموا مضطربين ليأخذوا أسلحتهم ومشاعلهم ووجدوا «يهوذا» وقد أرتسمت على وجهه ملامح «عيسى الناصرى» وإلى جواره الملابس التى كان يلبسها فظنوا أن «الساحر» قد أستطاع أن يسلب «يهوذا» ملابسه لما حدثت الرجفة فأسرعوا بمسكون به قبل أن يقلت قائلين : «أين تهرب يا ملك اليهود ؟»

ولم يتحمل «يهوذا» المفاجأة فصرخ «أيها المجانين ماذا تفعلون لقد صعد. لقد هرب ١٩»

قالوا له : «من الذى هرب ؟»

قال: «عيسى» الناصرى الذى جئنا من أجل القبض عليه لقد أفلت «الساحر» القدير.»

قالوا ساخرين «أهكذا سلبك الخوف عقلك يا ملك اليهود أين ذهب سحرك الذي سمعنا عنه كثيرا .»

وأنقضوا عليه فأوثقوه بالأغلال فى إحكام وقال بعضهم «إقبضوا على الخونة الذين كانوا معه» وكان التلاميذ قد أعطوا سيقانهم للريح يريدون الفرار فطاردهم الرجال حتى أن عبد رئيس الكهنة أوشك أن يمسه «سمعان» الذى كان يسميه «المسيح» «بطرس» فالتفت إليه «سمعان» وعاجله بضربة من السيف الذى كان معه فقطع أذنه فصرخ الرجل من الألم وأمسك بأذنه المجروحة يحاول إيقاف النزيف وهو يرقب بعينين متحسرتين «سمعان» الذى ألقى بجسده للريح وأوشك جندى آخر أن يمسه بيحيى ابن زبدي الذى كان يرتدى إزارا فقط على جسده فاندفع «يحيى» بأقصى قوته ليهرب تاركا الإزار ففر عريانا كما ولدته أمه. فأكتفى الرجال بإمساك الرجل الذى جآءوا من أجله مكتفين بالمكافأة التى وعِدُوا بها مفضلين الإسراع به إلى «أورشاليم» قبل أن تتغير الظروف ويقع ما لم يكن فى الحسبان ١١.

«مكر الله»

«ومكروا ومكر الله والله خير الماكزين»

«أل عمران ٥٤»

عندما صارت «أورشاليم» على مرمى البصر وأدرك الرجال أن المكافأة السخية التي وعدوا بها قد صارت قريبة من أيديهم ولم يحدث شيء لم يكن في «الحسبان» مدوا أيديهم وألسنتهم بالسوق إلى «ملك اليهود» الذي نجحوا في اصطلياده، كان ما يحدث فوق قدرة «يهودا» على الفهم وأيقن أنه ليس في وسعه أن يفعل شيئاً لهذا الجمع الذي أصابه جنون مروع كيف يقبضون عليه هو؟! «لقد صعد «الساحر» إلى السماء رأيتُهُ وهو يرتفع صاعداً حتى ذاب من عيني قبل أن أسقط على الأرض لأجد هؤلاء الغوغاء المجانين الذين أنفضوا على كابوس مرعب ليس له إلا الصبر والصمت حتى نصل إلى كبير الكهنة.»

وكان «قيافا» كبير الكهنة في مجلس مشورته من كبار رجال الهيكل وشيوخ الشعب ينتظرون على أحر من الجمر مجيئ الصييد الثمين الذي طال انتظاره كان يتحدث في اضطراب مع المجتمعين وهم يعدون العدة لتقديم «عيسى الناصري» للمحاكمة «العدالة» لقد أحضروا الشهود الذين يقرون أن المدعو «عيسى الناصري» أعلن نفسه ملكاً لليهود وادعى أنه أعظم من القيصر نفسه وإنه لذلك يستطيع أن يبني الهيكل المقدس دون أن يستعمل يد واحدة فهل القيصر يمكنه ذلك! لكن كل شيء يتوقف على النجاح في الإمساك به وكل ما يأتي بعد ذلك فميسور. وهم في هذا الانتظار المفعم بالتوتر وجدوا «عيسى الناصري» يندفع إلى داخل الحجرة وهو مكبل بالأغلال ليسقط عند قدمي كبير الكهنة باكية متذللاً.

«يا كاهن الله أخبر هؤلاء المجانين من أنا ؟»

قال الكاهن : «أخيرا تعلمت يا عيسى كيف تعامل كاهن الله ولكن للأسف فإن تعلمك هذا لن يفيدك شيئاً فقد أنتهي الأمر.»

قال : «ما هذا الجنون ؟! مع من تتكلم ياسيدى الكاهن ؟»

قال: «أوعدتَ إلى ضلالك القديم لكن لا بأس فعلى الصليب ستجد شفاءك من كل ضلال .»

قال: «يا سيدى قل لهم من أنا. لقد تركوا الساحر يفلت وأمسكوا بي أنا .»

قال: «عن أى ساحر تتحدث «يا عيسى» ومن أنت إلا ذلك الساحر نفسه !!»

قال: «يا سيدى ما الذى أصابك عفواً. يا سيدى الكاهن العظيم إننى أنا «يهوذا» الذى جئتكَ من قبل لأسلمكم «عيسى» الذى تريدون صلبه !!»

قال : «إلى هذا الحد بلغ الخوف بك ،إلى حد الجنون !!»

«لماذا تنكر نفسك أيها الساحر القدير لقد صنعت الأعاجيب كما يقولون وكنت تزعم أن تصنع أكثر فأظهر لنا الآن واحدة من أعاجيبك الكثيرة التى فتنت بها الشعب كله .»
تُرى ما الذى حدث لهم هل أصابهم الجنون أم أن سواد الليل قد أعمى أبصارهم ولكن المصاييح موقدة وأنا آراهم فى وضوح .

قال «يا سيدى الكاهن أنا يهوذا. ألا تعرفنى أنظر هذه هى الثلاثين قطعة من الفضة التى جئتُ فأخذتها منك فى هذه الحجرة وفى حضور هؤلاء الرجال العظام» ، ومد يده ليرى الكاهن والذين معه فى الحجرة الثلاثين قطعة من الفضة .

ألجمت المفاجأة الكاهن «حقاً إن هذا الصوت ليس غريباً عليه بل ربما بالفعل كان صوت «يهوذا» لقد تكلم معى من قبل ولكن ما هذا الجنون ؟! .

كلأ إن هذا الساحر الملعون يريد أن يوقعنا مرة أخرى فى أحاييله والآعيبه.

وهوى مرة أخرى عند قدمي «قيافا» يقبل حذائيه «صدقني يا أيها الكاهن العظيم يا كاهن الله أنا «يهوذا» ولست «عيسى» الذي تطلبون يا آلهي ما الذي جرى لهم»
وهاجت الحجرة بالصخب والإضطراب «ما هذا الجنون؟»

وأندفع الرجال الذين قبضوا عليه يركلونه بالأحذية وهو ساجد عند قدمي كبير الكهنة «قم أيها الملك المذمور وأرنا وجهك. تريد يا كلب جهنم أن تضيع علينا المكافأة لا تصدقه يا سيدي الكاهن هذه خزعبلات هذا هو «عيسى الناصري» بكل تأكيد وقد أمسكنا به وهو يحاول الهرب في ملابس الرجل الذي ذهبنا معه للإمساك به وما هي ملابسه تفضل وانظر يا سيدي الكاهن أما البائس الذي ذهبنا معه فقد هرب إذ حدثت مفاجأة لم تكن في الحسبان إذ اهتزت الأرض وأخذتنا الرجة حتي وقعنا جميعاً مغشياً علينا ولكننا بحمد «الله» أفقنا قبل أن يهرب «الساحر» الملعون الواقف بجوارك يا سيدي الكاهن، لقد سحرنا بعمله الخبيث فسقطنا على الأرض ولكن الله أنعم علينا وأنتبهنا بسرعة قبل أن يفلت من أيدينا أنظر يا سيدي هذه هي ملابسه !!»

وصرخ «يهوذا»: «لا يا سيدي لا تصدقهم أننى أنا «يهوذا».

فقال الكاهن «إهدأ قليلاً وأجب على أسئلتى سنوافقك إنك لست «عيسى» المطلوب صلبه. فقل لى لمن هذه الملابس» وأشار إلى ملابس «عيسى» الملقاة على الأرض ؟ قال :
«هي ملابس «عيسى» .»

قال : «حسناً والملابس التى عليك الآن ؟!

قال : «هي ملابسى أنا.»

قال : «فمن أنت؟!

قال : «أنا يهوذا»

قال : «فأين ذهب المدعو «عيسى» ؟»

قال : «لقد صعد يا سيدي» وحينئذ رأى «يهوذا» عيسى» جالسا في السماء وهو ينظر إليه في غضب فقال «ها هو يا سيدي جالسا في السماء.»
قال «من أيها المجنون الذي يجلس في السماء؟»
قال «أبن الانسان؟»

فصرخ الكاهن «ومن هو ابن الانسان؟»
قال الحاضرون «يقصد نفسه فإنه كان يسمى نفسه ابن الانسان.»
فشق رئيس الكهنة ثيابه علامة على احتجاجه وغضبه لانتهاك حرمة «الله» وقال «ما حاجتنا إذن إلى شهود وقد سمعتم تجديفه» (٤٤١) «خذوا هذا المجنون قبل أن ينشر فينا جنونه.»

فتقدم رجال الكاهن وأخذوا يسوقونه وهم يضربونه ويبصقون في وجهه ويدفعونه ليحبسوه في غرفة مظلمة أسفل بيت رئيس الكهنة وقد شددوا عليه الحراسة كما أوصاهم رئيس الكهنة بات «يهوذا» ليلة مظلمة أوشك فيها أن يفقد ما بقي من عقله لم ينم لحظة واحدة فقد ظل رأسه يدور فيما حدث وهو لا يعرف أفى كابوس مرعب هو مسجون ام أنه في يقظة لا تكاد تصدق ١٩.

وفي صباح اليوم التالي عندما بدأت أشعة الشمس تنفذ من خلال النافذة في الحجرة أحس بالعطش الشديد. إنه لم يشرب شيئاً منذ أمس فمد يده ليتناول الإناء الفخارى القذر الذي وضعوه بجانبه ليشرب منه فلما قرب الإناء من فمه ليشرب رأى ملامح وجه «المسيح» ترتسم على صفحة الماء فلم يصدق عينه وكان عقله قد فقد قدرته على التماسك فهوى مغشياً عليه وهو يهيمس «سبحان الله» وهوى الإناء على الأرض فتهشم وأنسكب ماؤه .

دخل الرجال إلى الحجرة وظلوا يصبون عليه الماء القذر ويضربونه بالأحذية حتى

أفاق، لقد أيقن أن الأمر فوق كل عقل وأن لا أحد سيصدقه إذا كان هو نفسه لم يصدق عينه. لقد فعلها الساحر القدير وليس أمامه إلا الصوم لينقذه «الله» من هذا الكيد الخبيث الذى وقع فى برائته. عزم على الصوم. لن يأكل ولن يشرب ولن يتكلم مع أحد حتى يخلصه الله. لقد رأى «ابن الانسان» وهو يصعد إلى السماء أليس من الممكن أن ينقذه «الله» من هذه المصيدة الملعونة التى أغلقت عليه ؟ بلى إن هذا ممكن .

ودفعوه إلى بيلاطس» وقد جهزوا الشهود فقال له «بيلاطس» أأنت ملك اليهود؟ (٤٤٢)

لكنه لم يجب وأخذ يكرر سؤاله والصائم لا يجيب قال له «أنظر كيف يشتكون عليك فدافع عن نفسك» ولكنه لم يتكلم ولم يدافع عن نفسه فماذا سيقول ومن ذا الذى يصدقه ولم يكن «بيلاطس» يريد أن يتحمل أمام ضميره عبء سفك دم هذا الرجل الذى كان يظن أنه «المسيح» فقد أستمع إليه من قبل وأحترم فيه علمه وحكمته ووقاره وهو يعلم أن الكهنة يحسدونه ولكن ماذا يفعل إنه يصر على السكوت والكهنة قد جأوا بالشهود. من المؤكد أنهم شهود زور ولكننى لا أستطيع أن أتجاهل كل شيء وإلاّ أتهمت بالإهمال فى المحافظة على هيبة «روما» والتخاذل فى الدفاع عن شرف القيصر الذى أحكم باسمه ووجد «بيلاطس» الفرصة ليهرب من مأزقه بإرسال المقبوض عليه إلى «هيرودوس» رئيس الجليل بإعتبار أن «عيسى الناصرى» المزعوم ملكا لليهود من أهل الناصرة (٤٤٣) وعندما التقى «هيرودوس» مع المقبوض عليه حاول أن يسأله عن أشياء كثيرة كانت تحير قلبه. كان قد أدرك أن العمر لم يعد فيه الكثير فأراد أن يستضىء بحكمة هذا الرجل الذى سمع الكثير عن حكمته وفصاحته لكن العازم على الصوم طلبا للنجاة كما نجا الذى صعد لم ينبس بكلمة وإحدة فأهانته «هيرودوس» وأعادته إلى «بيلاطس» وأرسل إليه رسالة مفادها ألاّ تجعل عطفك على هذا التعيس سببا فى إثارة القلاقل فى البلاد. كانت الرسالة تهديدا بتصعيد الأمر إلى «روما» المقدسة.

وقد أعطى شيوخ اليهود مالا كثيرا «لهيرودوس» من أجل أن يساعدهم على الخلاص من مثير القلاقل هذا وهكذا عاد إلى «بيلاطس» مرة أخرى صامتا مستبشرا خيرا لعل «الله» قد قبل صومه وأوشك أن يخرج من مصيدة الموت التى أحكم اغلاقها عليه. كان

يرى فى كل ما يحدث من تقاعس «بيلاطس» وتردده فى اتخاذ القرار باباً يخفى وراءه الأمل فى النجاة ولكن القوم كانوا قد عزموا على الضغط على «بيلاطس» ليتخذ القرار الحاسم لينهى هذه الفتنة التى طالت أكثر مما ينبغى فجمعوا جميعاً غفيراً من الناس وتوجهوا الى «بيلاطس» فى دار الولاية يطالبونه بالحكم على المشاغب المدعو «عيسى الناصرى» الذى يزعم أنه ملك اليهود وحاول «بيلاطس» أن يتخلص من عبء اتخاذ القرار الحاسم واعدأ بتأديبه بالجلد ثم إطلاق سراحه ولكنهم رفضوا وألحوا على صلبه وألحوا أنهم سيشتكون إلى «روما» تقاعس الوالى عن القيام بمهام منصبه ولم يكن هناك من مخرج بعد أن رفض الشيوخ والجمهور الصاخب الذى تجمع حول دار الولاية أن يطلق لهم سراح «عيسى» بعد تأديبه. فقام «بيلاطس» بغسل يده فى حركة مقصودة للدلالة على براءته من ذنب هذا التعيس وأمر بصلبه وأسلمه الى الجنود .

فأخذ الجنود وهم يسخرون منه فجروده من ملابسه وألبسوه رداءً أرجوانياً مهلهلاً ووضعوا على رأسه تاجاً من الأشواك والقاذورات وأخذوا يسجدون أمامه يحاكون السجود أمام الملوك قائلين: «السلام عليك يا ملك اليهود» ثم يقومون من سجودهم ليلطموه على وجهه وعلى قفاه ويبصقون فى وجهه ثم قيدوه بالأغلال وساقوه الى حيث يصلب والصائم صابر محتسب لعل الفرج يأتى قبل فوات الأوان

رُفِعَ على الصليب وخشى رجال الهيكل أن يأتى أعوانه وتلاميذه ليقاتلوا يريدون إنقاذه فدفعوا نقوداً للجنود لكى يستعملوا الطريقة السريعة حيث تقطع ساقا المصلوب بألة مخصصة لذلك حتى يلقى حتفه فى ساعات بدلا من أيام فلما حُمِ القضاة ورأى المصلوب أبواب جهنم وهى تفتح له أفواهها صرخ بصوت عظيم قائلاً :

«آلهى آلهى لماذا تركتني» (٤٤٤) .

«وهمت كلمة ربك صدقا وعدلا» (٤٤٥)

صدق الله العظيم .

هوامش وملاحظات

- (١) هو ملك مصر المعروف تاريخيا باسم «رمسيس الثانى» وسنبتين ذلك فى دراسة مستقلة موسعة عن «كليم الله» موسى بن عمران (عليه الصلاة والسلام) إن شاء الله تعالى .
- (٢) القرآن الكريم على سبيل المثال سورة البقرة الآية ٩٣ ، الأعراف الآية ١٧١ .
- (٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ١٣-١٦ ، تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم .(تأليف الأستاذ محمد عزة درزة).
- (٤) سورة المائدة الآية ٢٢ .
- (٥) سورة المائدة الآية ٢٤ .
- (٦) الكتاب المقدس ، سفر يوشع .
- (٧) تاريخ الأمة اليهودية . عصر القضاة ص ١٣ .
- (٨) سورة البقرة - الآية ٢٤٦ .
- (٩) سورة البقرة الآية (١٠٢)
- (١٠) سورة الإسراء - الآية (٥) .
- (١١) سورة البقرة - الآية (٢٥٨) .
- (١٢) تاريخ الأمة اليهودية ص ٤٧ .
- (١٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ٤٧ .
- (١٤) تاريخ الأمة اليهودية ص ٤٩ .
- (١٥) تاريخ الأمة اليهودية ص ٥٠ .
- (١٦) سنة ١٧٥ ق.م.
- (١٧) تاريخ الأمة اليهودية ص ٥٢ .
- (١٨) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٢ .
- (١٩) سورة المائدة الآية ٤٤ .
- (٢٠) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٥ .

- (٢١) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٤ .
- (٢٢) تاريخ الأمة اليهودية ص ٥٨ .
- (٢٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ٥٩ .
- (٢٤) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٨ .
- (٢٥) تاريخ الأمة اليهودية ص ٦٨ .
- (٢٦) سفر زكريا الأصحاح (١١) . (بتصرف) .
- (٢٧، ٢٨) ، (٣) تاريخ الأمة اليهودية ص ٧١ - ٧٣ .
- (٢٩) تاريخ الأمة اليهودية ص ٧٣ .
- (٣٠) تاريخ الأمة اليهودية ص ٧٤ .
- (٣١) تاريخ الأمة اليهودية ص ٧٦ .
- (٣٢) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .
- (٣٣) سفر زكريا - الأصحاح العاشر (بتصرف) .
- (٣٤) سفر زكريا - الأصحاح الثامن (بتصرف) .
- (٣٥) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .
- (٣٦) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .
- (٣٧) سفر زكريا - الأصحاح السابع (بتصرف) .
- (٣٨) سفر زكريا - الأصحاح الثامن (بتصرف) .
- (٣٩) سفر زكريا - الأصحاح الأول (بتصرف) .
- (٤٠) سورة آل عمران - الآية ٣٥ .
- (٤١) سورة آل عمران - الآية ٣٦ .
- (٤١) سورة آل عمران - الآية ٣٦ .
- (٤١) سورة آل عمران - الآية ٣٦ .
- (٤٢) سورة الأنبياء الآية ٨٩ .
- (٤٣) سورة آل عمران - الآية ٣٣ - ٣٤
- (٤٤) سورة الانعام ٨٤-٨٥ . لقد وضعت الآية الخامسة والثمانون (٨٥) من سورة آل عمران كل

من «زكريا» و«يحيى» و«عيسى» و«إلياس» في سياق واحد لحكمة لطيفة سوف تتضح لقارئ هذه الرواية.

- (٤٥) سورة آل عمران - الآية ٥٩ .
- (٤٦) سورة آل عمران - الآية ٤٤ .
- (٤٧) سورة آل عمران - الآية ٣٧ .
- (٤٨) سورة آل عمران - الآية ٣٧ .
- (٤٩) سورة آل عمران - الآية ٣٧ .
- (٥٠) سورة آل عمران - الآية ٣٧ .
- (٥١) سورة آل عمران - الآية ٣٧ .
- (٥٢) سورة آل عمران - الآية ٣٨ .

* يجب أن نلاحظ هنا أن «زكريا» عليه الصلاة والسلام لم يقل «رب هب لي ذرية طيبة» وهي عبارة تفي بالمطلوب ولكنه قال «رب هب لي من لدنك ذرية طيبة» فانظر إلى «من لدنك» هذه وتدبر . إذن فهو يقول «آلهي إمنحني من عندك يعنى من «الشئ» المائل بين يديك أو من «شئ» قائم في حضرتك إمنحني ذرية طيبة . فهذا الدعاء يشير الى أن الخلق ومنهم بالطبع الذرية الطيبة التي يطلبها زكريا إنما يصدر عن أو يخرجون من «لدى الله» أى من شئ قائم عند الله ... هذا «الشئ» هو مصدر الخلاق أو ينبوع الخلق ومنه طلب «زكريا» أن يظهر بذرية طيبة .

هذا الشئ هو «الملكوت» الذي صدر عنه كل شئ هو «روح الله» الذي به ظهرت جميع المخلوقات . إنه الواسطة بين الخالق والمخلوقات وهو الوسيلة التي يصل بها المخلوقات الى خالقهم .

- (٥٣) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٦ .
- (٥٤) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٦ .
- (٥٥) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٦ .
- (٥٦) سورة مريم (٤) .
- (٥٧) سورة مريم (٥) .
- (٥٨) سورة مريم (٦) .

(٥٩) سورة مريم الآية ٤ .

(٦٠) أنظر إليه وقد نسب الدعاء الى الله المدعو قائلًا «بدعائك» ولم ينسب الدعاء الى نفسه فلم يقل «بدعائي». إذن فالدعاء في الحقيقة من الله ولذلك نسبه إليه ومن ثم لابد أن يجاب .

(٦١) سورة آل عمران ٣٩ .

(٦٢) إن إسم «يحيى» المشتق من الحياة والذي عُرِف في بنى اسرائيل بلفظ «يوحنا» يشير إلى استمرار الحياة فربما دل ذلك على قتله في سبيل الله لأن الشهداء أحياء عند ربهم وربما دل على عودته إلى الأرض قبل الساعة سابقا «المسيح» ومهدا له فيكون بعودته دليلا على بقاء «الروح» أى استمرار الحياة وسبحان الله العليم الحكيم الذي اختار الاسم اللائق بتمام علمه بالمسمى .

(٦٣) مريم الآية ٧ .

(٦٤) آل عمران - الآية ٤٠ .

(٦٥) آل عمران الآية (٤٠) .

(٦٦) مريم الآية (٨) .

(٦٧) سورة الأنبياء الآية (٩٠) «فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجة» انظر إلى أنه قدم «وهب يحيى» على «إصلاح الزوج» المرأة العاقر يعنى قدم النتيجة على السبب لأنه في الحقيقة ليست أسباب بل إرادة الله الواحد القهار .

(٦٨) سورة مريم الآية (٩) .

(٦٩) يستحيل أن يكون في قوله تعالى «وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا» ردا على تعجب «زكريا» من إنجاب غلام من أبوين عاجزين عن الإنجاب إلا إذا كان المقصود بالخلق في الآية هنا هو خلق قديم ظهر فيه الإنسان دون أن يكون له أب أو أم يعنى خلق سابق اكتسب فيه الإنسان كيانا بدون التناسل المعروف المشهود لنا الآن في الدنيا وذلك لأن خلق زكريا في الدنيا بولادته من بطن أمه كان أمراً عاديا لم تكتنفه أية عجائب لافتة للنظر ومن ثم فمن المؤكد أنه لايرد على التعجب الذى أظهره زكريا من لطائف صنع الله ولكن إذا كان المقصود بالخلق هنا هو الخلق الأول الذى نبت فيه الإنسان من الأرض مع «آدم» كما تنبت الأشجار فإن فيه الرد الكافى على تعجب «زكريا» كائنه قال له «أنتتعجب يا زكريا من إنجاب غلام من والد طاعن في السن ووالدة

عقيم وتنسى أن الله قد خلقك من قبل ولادتك من بطن أمك دون أب يحملك في صلبه أو أم تنبتك في رحمها وإذا ابتك حينئذاك من الأرض نباتا ... كما تنبت الأشجار فإن تعجب فاعجب من خلقك الأول الذى ظهرت فيه من الطين دون أب أو أم فذلك هو الخلق الجدير بالتعجب .

وأنظر إلى قوله «من قبل» وتأمل . ماذا تعنى «من قبل» هنا ؟ إنها تشير إلى الخلق الأول الموغل في القدم والذى وقع قبل ولادة الجسد من الرحم بزمان سحيق .

(٧٠) آل عمران الآية (٤١) .

(٧١) آل عمران الآية (٤١) .

(٧٢) سورة مريم - الآية ١٠ .

(٧٣) سورة مريم الآية ١٠ .

لنا أن نتساءل هنا طلبا للعلم لماذا كانت ثلاثة أيام وثلاث ليال ؟ لماذا ثلاثة على وجه الخصوص، ولم لم تكن أربعة أو خمسة مثلا .

ثم لنتذكر أن الله قال في سورة الزمر وهو يتحدث عن مراحل خلق الانسان «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث - الزمر الآية (٦) ها هو رقم ثلاثة يظهر مرة أخرى !! إنه يشير إلى بقاء الإنسان مستورا في الخلق القديم ثلاثة أيام وثلاث ليال من أيام أو أحقاب الخلق السنة . وربما أتاح الله لنا أن نبين ذلك في دراسة مستقلة موسعة عن خلق الانسان .

(٧٤) سورة آل عمران - الآية (٤١)

(٧٥) سورة آل عمران (٤٢-٤٣) .

(٧٦) وردت أحاديث نبوية شريفة تفيد أن «مريم بنت عمران» هي إحدى زوجات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو أمر يمكن التيقن من صدقه . بالنظر في نص الآية الذى يقطع بأن مريم (عليها الصلاة والسلام) هي أفضل امرأة على وجه الإطلاق ومن ثم فهي الجديرة بأفضل رجل على وجه الإطلاق وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(٧٧) العالمين (جمع عالم) هم البشر قال الله على لسان «لوط» منكرا على قومه فاحششتهم «أتأتون الذكران من العالمين» إذن فالإنسان الفرد عالم والبشر هم العالمين أو العوالم .

(٧٨) مريم الآية (١٥) .

(٧٩) مريم الآية (١٢) .

(٨٠) سورة مريم الآية ١٢ .

(٨١) سورة مريم - الآية (١٣) .

الحنان : رأفة تتولد من معرفة أن أصل المخلوقات واحد فتملأ القلب بالعطف على المتألم ، وتدفعه

إلى إزالة الألم وهي هبة آلهية صدرت عن «الروح» «روح الله» الذي أشير إليه بقوله الله «لدينا» .

(٨٢) سورة مريم الآية (١٣) .

(٨٣) سورة مريم الآية (١٤) .

(٨٤) سورة مريم الآية (١٤) .

(٨٥) سورة آل عمران (٤٥-٤٦) .

(٨٦) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٨٧) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٨٨) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

(٨٩) سورة آل عمران الآيتين ٤٨-٤٩ .

(٩٠) إن اسم «عيسى» مكون من ثلاثة حروف السين والعين والياء وهي الحروف التي تكون لفظ

الفعل «يسعى» من «السعى» يشير الى أنه (عليه الصلاة والسلام) سيقضى حياته فى السعى

لإبلاغ كلمة الله متنقلا من مكان الى مكان لا يستقر في موضع. انظر الى العرب وقد سمت

الإبل «العيس» وهو أي «عيسى» ثمرة سعى «الروح» لإظهار نفسه فهو مقدمة ظهوره أو بشير

حضوره. كلفه الله بالتشبير بقرب ظهور «روح الله» المرموز اليه بالملكوت وهو النبي الأُمى الذى

تلقى كلمات الله وأمن بها النبوة الكاملة التى تتسربل بصورة الرجل العربى الذى عرفه التاريخ

الإنسانى بإسم «محمد بن عبد الله».

وإذا التفتنا إلى خاصية القلب التى تتميز بها اللغات السامية فإن «عيسى» تصبح «يسعى»

إذن فهو «يَسْعَى ابن مريم» الذى ستسميه اليهود «يسوع» أو «يهوشع» الذى يعنى سعى الرب

لإظهار روحه أو ملكوته . (صلى الله عليه وسلم) .

(٩١) «الكتاب» هنا هو كتاب العلم الألهى الذى سطر الله فيه علمه. إنه «ذلك الكتاب» الذى علمه

الله لجميع انبيائه ورسله .

انظر إلى قوله وهو يأخذ الميثاق على النبيين «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه» .
 وأنظر الى قوله «وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان» لعلمكم تهتدون . البقرة ٥٣ .
 إذن فموسى (عليه الصلاة والسلام) قد أعطاه ربه «الكتاب» و«الفرقان» الذي هو التوراة لأنها فُرِقتْ أى اقتطعت من ذلك «الكتاب» الذى سَطَرَ فيه علم الله وهما هو يخبرنا أن عيسى (عليه الصلاة والسلام) قد تعلم «الكتاب» «والحكمة» «والتوراة» (التي علمت لموسى) والإنجيل. إذن فالكتاب هو القاسم المشترك الذى ظفر به كل الأنبياء والمرسلين بل كل البشر إذ استودع الله فى قلب كل إنسان نسخة من «ذلك الكتاب» الذى لاريب فيه عندما كان يوحىه إلى رسوله الأعظم فى بدء الدنيا كاشفا عن علمه بعد تمام خلق السماوات والأرض التى سوف تكون بمثابة المجال الذى «يتحقق» فيه علم الله . إنه «ذلك الكتاب» الذى جاء «الرسول» ليذكرنا به لأننا قد نسيناه عند ولادتنا إذ تغطت القلوب بالأبدان فانطمس العلم المسطور فى ذلك الكتاب بظلمة النسيان . قال الله امرأ رسوله «فذكر إنما أنت مذكر» وطلب منه هو نفسه أن يتذكر إذ كرر أمره «وانذكر فى الكتاب» فالتذكر يكون لما سبق علمه أو تعلمه.

(٩٢) سورة مريم (١٦-١٧) .

(٩٣) سورة مريم ١٨ .

(٩٤) سورة مريم (١٨)

يجب أن نلاحظ أن القرآن المجيد يستعمل «إن» بمعنى النفي كما أنه يستعمل فى المقابل «ما» بمعنى «إن» الشرطية.

(٩٥) سورة مريم الآية (١٩) الزكاة تعنى الطهارة والرفعة والنمو . قال «إلا ما زكيتم» يعنى ما طهرتم وقال «فلا تزكوا أنفسكم» يعنى لا ترفعوا أقدار أنفسكم فوق ما تستحق والزكاة هى المال الذى ينمو وتعنى شرعا القدر الذى يفرضه الله على كل مال ينمو يؤخذ ليصرف فى المصارف الشرعية .

(٩٦) سورة مريم الآية ٢٠ .

(٩٧) سورة مريم الآية ٢١ .

(٩٨-٩٩) سورة مريم الآية ٢١ - إنظر إلى تحول الخطاب من صيغة المفرد الغائب «قال ربك هو

على هين» إلى صيغة الجمع المتكلم الحاضر «ولنجعله آية للناس ورحمة منا» إذن قد تحول الغائب إلى حاضر بفضل «الروح» الذى تمثل بشرا سويا وجاء إلى مريم فى الحجاب يكلمها بكلام الله ويهبها الغلام الذى خلقه الله .

(١٠٠) مريم - الآية ٢١ .

(١٠١) سورة مريم الآية (٢٢) .

(١٠٢) سورة مريم الآية (٢٣) .

(١٠٣) سورة مريم الآية ٢٣ .

(١٠٤) سورة مريم (الآيات ٢٤-٢٦) .

أمرها صوت «عيسى» إبنها المستور فى رحمها أن تدفع عنها فضول السفهاء إن رأت من البشر أحداً بقولها أنها قد نذرت أن تصوم لله ولذلك فهي تمتنع عن الكلام، هذه هي الطريقة التى تعتذر بها عن الحديث مع البشر فى يوم مولده (عليه الصلاة والسلام) إن رأت منهم أحداً وبالطبع فمن المستحيل أن يأمرها إبنها الذى يتلقى الوحي من الله بالكذب، محال أن يأمرها بإدعاء الصوم أمام الناس هروباً من الكلام معهم بينما هي فى الحقيقة غير صائمة أمام الله. إذن فهذا الأمر هو توجيه لها بالصوم فى يوم مولده (عليه الصلاة والسلام) ومعنى هذا أنها سوف تكون قادرة على الصوم أى أنها لن تكون نفساء فهذا الأمر هو تبشير لها بأنها لن تنزف فى الولادة ومن ثم تكون لائقة للصوم. لأن شريعة الله تمنع النفساء عن الصوم بهذا التبشير أدركت مريم (عليها الصلاة والسلام) أن وضع غلامها سوف يكون بفضل الله ميسراً بلا دماء. أنظر إلي قوله «نذرت». إن النذر لا يكون إلا بعبادة شرعية لأنه عبادة اختيارية يفترضها العبد على نفسه شكراً لله على حصوله على ما يحب كأن يظفر بمرغوب أو ينجو من مكروه، إذن فالصوم المذكور فى الآية هو صوم شرعى كما تفترضه شريعة الله الواحدة سواء جاءت فى التوراه أو القرآن ويفهم من الآية أن «الصمت» بمعنى الإمتناع عن الكلام مع الآخرين هو من آداب الصوم توقياً من الوقوع فى خطايا اللسان المهلكة كالكذب والغيبة والنميمة واللغو.

(١٠٥) سورة التحريم - الآية (١٢)

أنظر إلي قوله «كلمات ربها وكتبه» فقد فرق هاهنا بين «الكلمات» والكتب هنا تعني رسالات الله التى يحملها الأنبياء والرسل فما معنى «الكلمات» هنا؟! إنها تعني المخلوقات... الكائنات التى

صنعها الله والمعني أن «مريم» قد آمنت بأن المخلوقات هي كلمات لله... المخلوقات في حقيقتها هي كلمات نطق بها الله وإبناها «عيسى» هو الآية على ذلك وهذا هو معني تصديقها بكلمات ربها.

(١٠٦) سورة مريم الآية (٢٧) .

(١٠٧) سورة مريم الآية ٢٨ .

(١٠٨) سورة مريم الآية ٢٩ .

(١٠٩) سورة مريم الآية ٣٠ .

(١١٠) سورة مريم الآية ٣١ .

البركة هي نوام الحياة يعنى الاحتفاظ الدائم بسر الحياة الذى هو «الروح»، «مبارك» متصف باستمرار الحياة أى متمتع بالحياة الأبدية التى هي رحمة الله «تبارك الله» تعنى دامت حياته ولم تنقطع لأنه لا يموت فهو حى على الدوام والشئ «المبارك» هو الشئ الذى دام اتصاله بسر الحياة وهو «روح الله» فاكسب صفة بقاء الحياة أى الخلود فى رحمة الله التى تفيض من روحه.

(١١١) سورة مريم الآية ٣١ .

(١١٢) يفهم من الآية أن الصلاة والزكاة مفروضتان على عبد الله «عيسى ابن مريم» منذ كان جنيناً فى بطن أمه لأنه هناك فى الرحم يكون حياً ويصح بوصفه بأنه حى. إذن فليست الصلاة هي تلك الحركات الجسدية والألفاظ التى ينطق بها اللسان إذ يستحيل على الجنين المحبوس فى الرحم أن يقوم أو يركع أو يسجد ومحال أن يُسَمَّع له صوت يتلو النصوص المقدسة وإنما الصلاة هي رغبة القلب فى الإتصال بربه الخالق وهي رغبة تتولد فى قلب المخلوق أياً كانت صورته جنيناً محبوساً فى الرحم أو طيراً يطير فى السماء أو حتى حجر فى جدار وليست الألفاظ والحركات التى تفرضها الشريعة فى واجبات الصلاة إلا تعبيراً عن قيام تلك الرغبة فى القلب . فمن أدب واجبات الصلاة فقرأ النصوص وقام بالحركات دون أن تكون فى قلبه الرغبة فى الاتصال بخالقه فلا صلاة الله .

ومحال أن يكون الوليد الملفوف بالأقمطة قادراً على إخراج قدر من ماله ليعطيه الى المحتاجين إليه كما تفترض شعيرة الزكاة فهذا الملفوف بالأقمطة لامال له بل هو يعتمد فى رزقه على اللبن

الذى أودعه الله ثدى أمه . إذن الزكاة ليست هى القدر المفروض من المال الذى تلزم الشريعة الغنى بإخراجه لإنفاقه فى مصارف الزكاة بل الزكاة فى حقيقتها هى رغبة القلب فى التطهر وليست الزكاة المفروضة على الأموال إلا تعبير عن تلك الرغبة القلبية فى التطهر. إنها مظهر أو صورة تلك الرغبة وليست حقيقتها وإلا فمافى الزكاة بالنسبة لسلام حديث الولادة يعيش على ثدى أمه أو جنين محبوس فى ظلمات الرحم.

(١١٣) سورة مريم الآية ٣٢ .

(١١٤) سورة مريم الآية ٣٣ .

يفهم من نزول «السلام» على «عيسى» عندما يبعث حيا أن ذلك البعث يكون فى الدنيا حيث لم يزل «إبليس» وجنوده يشنون حربا شعواء على أولياء الله لأنه فى الآخرة يزول سلطان «إبليس» إذ يسترد الله كل شئ. إذن فعيسى (عليه الصلاة والسلام) يذكر هنا فضل الله عليه عندما يبعثه الله الى الأرض مرة أخرى قبل قيام الساعة إذ يقول أن الله سيتفضل عليه بنزول «السلام» فيحميه من أذى «إبليس» وجنوده الذين يكونون حينئذ فى أشد هياج إذ تشرف الدنيا على نهايتها ويقترب المصير المحتوم الذى قبله «إبليس» يوم أعلن تمرده على الله ورفض السجود للإنسان خليفة الله ومن فضل الله على «عيسى» وعلى الناس أن سيمكنه من التغلب على الشرير وأعوانه فى تلك المعركة الأخيرة حيث لا يكون بعدها لإبليس وجنوده إلا إنتظار أبواب جهنم أن تفتح عليهم أفواهاها .

السلام هو إنتفاء الصراع أو زوال التناقض والاختلاف بنويان إرادة المخلوق فى إرادة الله الخالق فلا تُشهد إلا إرادة واحدة هى إرادة الله الخالق التى لم تزل باقية وبهذا يتم سحق «إبليس» ويكتمل الفوز عليه لأنه هو الذى يؤجج فى قلب الانسان نار الحرب ضد الله «والسلام» هوبة الله لمختاريه الذين اصطفاهم ليكونوا شهداء وحدانيته فهو يفيض عليهم بإسمه السلام أو يتجلى لهم به فيشهدون وحدة الإرادة ويكتسبون القوة التى تنزع من «إبليس» سلطانه وبهذا لايمك اللعين ألا أن يفر من وجوههم مذعوراً إذ يفقد أمامهم قدرته على الغواية ويتحقق بهم قول الله له «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين .»

(١١٥) سورة مريم الآية (٣٦) .

(١١٦) سفر أشعاء الإصحاح السابع - الفقرة (١٥) .

- (١١٧) سفر ملاخي - الاصحاح الثالث
- (١١٨-١١٩) أنجيل لوقا الاصحاح الثالث .
- (١٢٠) سفر زكريا الاصحاح (١١) (بتصرف)
- (١٢١) سفر زكريا الاصحاح (١٣) (بتصرف)
- (١٢٢) سفر زكريا الاصحاح (١٤) (بتصرف)
- (١٢٣) سفر زكريا الاصحاح (١٣) (بتصرف)
- (١٢٤) سورة المؤمنون الآية (٥٠) .
- (١٢٥) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٩ .
- (١٢٦) تاريخ الامة اليهودية ص ٧٩ .
- (١٢٧) أنجيل لوقا - الاصحاح الثاني .
- (١٢٨) أنجيل لوقا - الاصحاح ٣ .
- (١٢٩) أنجيل لوقا - الاصحاح ٣ .
- (١٣٠) أنجيل لوقا - الاصحاح ٣ .
- (١٣١) أنجيل لوقا - الاصحاح ٣ .
- (١٣٢) سفر التكوين - الاصحاح ٤٩ «لايزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب»
- (١٣٣) سفر ملاخي - الاصحاح ٤ «هأنا أرسل إيليا النبي قبل مجيئ يوم الرب اليوم العظيم والمخوف .
- (١٣٤) نلاحظ هنا أن أنجيل «متي» قال على لسان «المسيح» في الاصحاح (١١) «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي .من له اذنان للسمع فليسمع» هاهو كاتب الانجيل يذكر على لسان «المسيح» نفس الإسم «إيليا» ويصفه بأنه مزمع أن يأتي يعني سوف يأتي بعد «المسيح» .فهذا نص صريح في متي بأن عيسى «عليه الصلاة والسلام» بشر برسول يأتي من بعده أعطاه كاتب الإنجيل إسم «إيليا» وهو الإسم الذي أشتُهر بين اليهود على أنه إسم لرسول سوف يأتي حتى أننا نلاحظ أن سؤالاً مثل «هل ظهر إيليا» أو «هل أنت إيليا» وهم يخاطبون

حسبي بن زكريا (يوحنا المعمدان) كان يتردد على ألسنة القوم ويدور في الأذهان كما يفهم بوضوح من نص الاناجيل .

وإذا انتبهنا إلى أن «إيليا» يساوي «أحمد» بحساب الجمل ، ذلك الإسلوب الغريب الذي كان كتّاب الأسفار «المقدسة»؟ يلجأون إليه عند كتابة أسماء الأشخاص الذين تدور حولهم نبؤات المستقبل أقول إذا انتبهنا إلى هذا فإننا نستطيع بكل وضوح وثقة أن نقول أن نص الاناجيل المتداولة بين أيدينا الآن يدل على نحو قاطع أن المسيح عليه الصلاة والسلام بشر «بأحمد» (إيليا) المزمع أن يأتى ولقد أتى (صلى الله عليه وسلم) والله الحمد والمنة .

(١٣٥) إنجيل لوقا الأصحاح ٣ .

(١٣٦-١٣٧-١٣٨) إنجيل يوحنا الأصحاح (١) .

إنظر الى سؤالهم عن «إيليا» وعن «النبي» لنعلم من اليهود كانوا ينتظرون .

(١٣٩) إنجيل متى الأصحاح (٣) .

(١٤٠) وُصِفَ النبي محمد «صلي الله عليه وسلم» بأنه أول المسلمين؛ في سورة الأنعام الآية ١٤ « قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم» إذن فقد صدر إليه الأمر من الله ليكون أول كائن يسلم نفسه لله وهو ما أكدّه في نفس السورة (الآية ١٦٣) بقوله «وأنا أول المسلمين» وعاد في «الزمر» ليقول «وأمرت لأن أكون أول المسلمين» ثم أعلنها صريحة في «الزخرف» إذ قال « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» (الزخرف - ٨١) فهذا نص صريح بأن محمداً (صلي الله عليه وسلم) هو أول من عبد الله والمعني «إن جاز أن يكون لله الذي وسع كل شئ في رحمته ولد فينبغي أن يكون أنا (محمد) لإنني أول من عبد الله فأستحق بتلك الأولوية شرف النبوة لله إن صح أن ينسب لله ولد وهو ما لا يصح كما أوضحت الآيات بنصوص قاطعة في أكثر من موضع لكن الآية تصرح أن «محمداً» هو أول من عبَدَ الله (صلي الله عليه وسلم) فهو أول كائن يعبد الله ولما كانت عبادة الله لا تتحقق إلا بمعرفته ومعرفته محال أن تتحقق إلا بوحيه إذ يستحيل أن «يُعرف» إلا بكلامه فمحمد (صلي الله عليه وسلم) هو أول من تلقى كلام الله فعرفه وعبدّه . إذن فهو أول نبي أو بالآخرى مصدر النبوة . ولست بالطبع محتاجاً لأن أقول أنني لا أحدث عن الجسد البشري الذي ولد من أمانة بنت وهب بمكة في القرن السادس بعد الميلاد لأن ذلك الجسد الذي دفن في المدينة المنورة هي صورة هذا النبي أو ظله الذي ظهر

- علي الأرض ولكن الكلام عن حقيقة النبي أو «روح» الأبدي والحديث عن ذلك يحتاج إستفاضة
لا يسمح بها المقام الآن فنكتفي بهذا المقدار إلي حين ولعل الله يأذن بفرصة مواتية.
- (١٤١) أنجيل متى - الأصحاح (٤) ، أنجيل مرقس الأصحاح (١) ، أنجيل لوقا الأصحاح (٤) .
- (١٤٢) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) وإنجيل برنابا الفصل (٦٥) .
- (١٤٣) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) .
- (١٤٤) إنجيل برنابا - الفصل الثاني عشر .
- (١٤٥) سورة الصف - الآية (٦) .
- (١٤٦) إنجيل برنابا - الفصل الثاني عشر .
- إنجيل برنابا - الفصل الثاني عشر .
- (١٤٧-١٤٨) سورة الزخرف الآية (٦٣) .
- (١٤٩) إنجيل برنابا - الفصل الثاني عشر .
- (١٥٠) سورة الزخرف الآيتين (٦٣-٦٤) .
- (١٥١) سورة الصف - الآية (٦) .
- (١٥٢) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) .
- (١٥٣) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) .
- (١٥٤) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) .
- (١٥٥) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) .
- (١٥٦) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) .
- (١٥٧) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٥) .
- (١٥٨) سورة الزخرف الآية (٦٥) .
- (١٥٩) إنجيل يوحنا - الأصحاح (١) .
- (١٦٠) إنجيل يوحنا - الأصحاح (١) .
- (١٦١) إنجيل يوحنا - الأصحاح (١) .
- (١٦٢) إنجيل متى - الأصحاح (١٩) وإنجيل برنابا الفصل (٦٦) .
- (١٦٣) إنجيل برنابا الفصل (٦٦) .

- . (١٦٤) إنجيل برنابا الفصل (٦٧) .
- . (١٦٥) إنجيل برنابا الفصل (٦٧) .
- . (١٦٦) إنجيل برنابا الفصل (٦٨) .
- . (١٦٧) إنجيل برنابا الفصل (٦٩) .
- . (١٦٨) إنجيل برنابا الفصل (٦٩) .
- . (١٦٩) إنجيل برنابا الفصل (٦٩) .
- . (١٧٠) أنجيل متى الاصحاح (١٢) وأنجيل لوقا الاصحاح (١١) وأنجيل برنابا الفصل (٦٩) .
- . (١٧١) إنجيل يوحنا - الاصحاح (٧) .
- . (١٧٢) إنجيل لوقا - الاصحاح (١٤) .
- . (١٧٣) إنجيل برنابا الاصحاح (٢٦) .
- . (١٧٤) إنجيل برنابا - الفصل (٢٦) .
- . (١٧٥) إنجيل برنابا - الفصل (٤٣) .
- . (١٧٦) إنجيل برنابا - الفصل (٤٤) .

(١٧٧) سفر التكوين - الاصحاح (٢٢) النص حرفيا يقول «خذ إبنك وحيدك الذى تحبه .. إسحق وأذهب الى أرض المُرِّيا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك» بالطبع إن كلمة اسحق مقحمة على النص لأن المعنى يتم بحذفها ولكن حذفها يؤدي بالقطع الى صرف المعنى الى اسماعيل لأنه بالإجماع هو بكر ابراهيم فهو الابن الوحيد الذى جاء عليه وقت كان فيه هو وحيد إبيه الذى يحبه ويؤكد هذا أن نص الاصحاح يقول بعد ذلك أن الله عندما تحن على ابراهيم وأراد أن ينقذ ابنه قال له بنص الاصحاح «الآن علمت أنك خائف (متقى) الله فلم تمسك إبنك وحيدك عني» انظر الى الإصرار على أنه الوحيد وفي نهاية الاصحاح يقول الله «إبنى من أجل أنك فعلت هذا الامر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك كثيرا كنجوم السماء وكالرمال الذى على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك فى نسلك جميع أمم الارض من أجل أنك سمعت لقولى». فى أول الاصحاح وفى وسطه وفى نهايته يصر على وصف الإبن المقدم قربانا لله بأنه وحيدك وهو إصرار مقصود لتحديد شخصية الذبيح اسماعيل (عليه الصلاة والسلام) ولننظر الآن الى المكان الذى ذكر الاصحاح أنه كان الموضع الذى حدث فيه

هذا الامتحان الالهى «أرض المريا» الا يشير هذا اللفظ «المريا» إلى المروة... جبل المروة الذي بمكة ولنتذكر أن ... الكتاب المقدس الموجود بين أيدينا هو ترجمة عربية لنسخة يونانية يعنى لابد أن حدث تغيير فى نطق الألفاظ الدالة على الأماكن أو الأشخاص، لاشك عندى أن جبل ارض المريا هذه هو المروة القائم بجوار الكعبة المشرفة ولاشك أن اسماعيل عليه الصلاة والسلام هو المقدم قربانا له لأنه هو الإبن الوحيد الذى يصح وصفه فى وقت من الاوقات بأنه وحيد ابراهيم الذى يحبه .»

(١٧٨) إنجيل يوحنا - الاصحاح (٤) .

(١٧٩) أنظر الى قول المسيح كما جاء فى إنجيل متى - الاصحاح (١١) «ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السموات يغصب والغاصبون يختطفونه»، إنه يشير إلى إدعاء كل فريق أنه يحمل كلمة الله الاخيرة أو النبوة الكاملة التى عبّر عنها «بالملكوت» .

(١٨٠) إنجيل يوحنا الاصحاح (٤) وإنجيل برنابا الفصول (٨١) ، (٨٢) ، (٨٣) .

(١٨١) إنجيل برنابا الفصل (٤٣) وإنجيل متى الاصحاح (٢٢) .

(١٨٢) بالحق لم تنطبق هذه النبوة إلا على محمد (صل الله عليه وسلم) لأنه هو النبى الرسول الذى حقق إنتصارا ساحقا على أعدائه وانتهت حياته على الارض وهو سيد قومه بلا منازع ثم صار اتباعه فى أقل من مائة عام هم سادة الدنيا كلها .

(١٨٣) إنجيل برنابا الفصل (٨٣) .

(١٨٤) إنجيل برنابا الفصل (٨٤) .

(١٨٥) إنجيل برنابا الفصل (٨٥) .

(١٨٦) إنجيل برنابا الفصل (٨٦) .

(١٨٧) إنجيل برنابا الفصل (٨٧) .

وإنجيل متى الاصحاح (٥) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٩) .

(١٨٨) إنجيل برنابا الفصل (٨٩) .

(٣١) أنظر الى قول المسلمين فى صلاتهم عندما يجلسون جلسة «التشهد» إنهم يقولون «السلام عليك يا أيها النبى ورحمة الله وبركاته» فهم يخاطبون الرسول النبى الامى خطاب الحاضر أمامهم وهم يجلسون فى الصلاة بين يدى الله . إذن النبى قائم دوما بين يدى الله ولذلك وجب

علي المؤمنين أن يلقوا إليه بالتحية عندما يقفون بين يدي ربهم في الصلاة .

(١٩٠) إنجيل برنابا الفصل (٤٣) .

(١٩١) «الْقُدُسُ» إسم يشير الى محبة الله أن يُعَرَفَ أى يكشف عن نفسه و«روح القدس» هو رسول الله المعبر عن هذه الارادة في الكشف فهو رسول ذلك المقام الإلهي الذي يتعرف فيه الخالق الى مخلوقاته أو تتعرف به المخلوقات على خالقها فهو واسطة المعرفة، إنه روح النبي الامي الذي تلقى علم الله قبل أن يكون آدم على الارض. منه نَفَخَ الله في الطين فقام آدم بشراً سوياً وإليه نلقى بالتحية ونحن في الصلاة. قائلين « السلام عليك أيها النبي»

(١٩٢) إنجيل برنابا الفصل (٤٤) .

(١٩٣) إنجيل برنابا الفصل (٤٤) .

(١٩٤) إنجيل متى الاصحاح (١٨) ، إنجيل برنابا الفصل (٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩) .

(١٩٥) إنجيل متى - الاصحاح (٨) إنجيل لوقا الاصحاح (٧) ، إنجيل برنابا الفصل (٣١) .

(١٩٦) إنجيل متى - الاصحاح (١٦) ، إنجيل لوقا الاصحاح (١٢)

(١٩٧) إنجيل متى - الاصحاح (١١) ، إنجيل لوقا الاصحاح (١٢)

(١٩٨) إنجيل لوقا الاصحاح (٤) .

(١٩٩) سورة الزخرف - الايتين (٦٣ ، ٦٤) .

(٢٠٠) إنجيل لوقا - الاصحاح (٤) .

(٢٠١) إنجيل لوقا الاصحاح (٤) .

(٢٠٢) انجيل متى الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٥) ، إنجيل مرقس الاصحاح (١) .

(٢٠٣) انجيل متى الاصحاح (١٨) ، إنجيل مرقس الاصحاح (١) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٤) .

(٢٠٤) انجيل متى الاصحاح (١٣) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٨) ،

وإنجيل برنابا الفصول (٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤) .

(٢٠٥) أنظر الى الاية الاخيرة من سورة الفتح «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار

رحماء بينهم تراهم سجداً يتبغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر

السجود ذلك مثلهم (أى وصفهم) في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره

فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار» لقد وصف المسيح المؤمنين بأنهم

«زرع طيب» أنبته الله ورعاه وها هو القرآن يؤكد صدق ماورد فى الانجيل فى هذا الشأن إذ يذكر أن وصف المؤمنين كما ورد فى الإنجيل الذى يقر به الله هو أنهم يشبهون زرعاً طيباً قوياً يخرج الثمار التى تعجب الزراع إن هذا المقطع من آية سورة الفتح يشير إلى ذلك المثل الذى نطق به «المسيح» وهو جالس على سفينة سمعان فى بحيرة طبرية يبلغ الناس الذين اصطفوا على الشاطئ رسالة ربه .

(٢٠٦) إنجيل متى الاصحاح (٨) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٩) .

(٢٠٧) إنجيل متى الاصحاح (٨) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٩) .

(٢٠٨) سماه «المسيح» بالارامية التى كان يتكلم بها «صَفَا» التى تعنى بالعربية «صخراً» وترجمت الى اليونانية «بطرس» فالكلمة التى خرجت من فم المسيح هى «صَفَا» وربما أراد «المسيح» بهذا الاسم توجيه سمعان الى أن يكون صخرة .. الإيمان ثابتاً لا يتزعزع كأنه قال له هذا ثابتاً فى الإيمان كأنك «صخر»

(٢٠٩) إنجيل متى - الاصحاح ١٣ ، إنجيل مرقس - الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٨).

(٢١٠) إنجيل برنابا - الفصل (٤٩) .

(٢١١) سورة ص - الاية (٢٦) .

(٢١٢) إنجيل برنابا الفصل (٥) .

(٢١٣) إنجيل برنابا الفصل (٨٨) .

(٢١٤) إنجيل برنابا الفصل (٥١) .

(٢١٥) إنجيل متى الاصحاح (٨) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٤) ، إنجيل لوقا الاصحاح (٨)

إنجيل برنابا الفصل (٢٠) .

(٢١٦) رنجيل متي الاصحاح (١٨) مرقس الاصحاح (٥) ، لوقا الاصحاح (٨) برنابا الفصل (٢١)

(٢١٧) إنجيل برنابا الفصل (٤٨) والفصل (١٣٨) وإنجيل لوقا الاصحاح (٧) .

(٢١٨) إنجيل متى الاصحاح (١٥) ، إنجيل مرقس الاصحاح ٧ وإنجيل برنابا الفصل ٢١ ،

والفصل (٢٢) ، (٢٣) .

(٢١٩) إنجيل متى الاصحاح (١٦) ، إنجيل مرقس الاصحاح (٨) ، إنجيل لوقا - الاصحاح (٩) .

إنجيل برنابا - الفصل (٧٠) .

(٢٢٠) ذكرت الأناجيل هذا الحديث على النحو التالي

- فى إنجيل مرقس «فأجاب بطرس وقال له أنت «المسيح» فانتهرهم كى لايقولوا لأحد عنه
الاصحاح (٨) .

- وفى إنجيل لوقا الاصحاح (٩) فأجاب بطرس وقال مسيح الله»

يعنى أنت مسيح الله فانتهرهم وأوصى أن لايقولوا ذلك لأحد وبالمطبع فليس فيما قاله بطرس طبقا لهاتين الروايتين مايستدعى غضب المسيح (عليه الصلح والسلام) حتى أنه انتهرهم وأوصاهم الا يقولوا ذلك لأحد فإذا لم يكن قد جاء إلى الدنيا ليخبر الناس إنه هو المسيح أو مسيح الله فلماذا جاء إذن وإذا لم يقل التلاميذ للناس أن معلمهم هو «المسيح» «مسيح الله» فماذا إذن سيقولون لهم ولماذا آمنوا أو بالأحرى بماذا آمنوا إذ لم يؤمنوا أنه المسيح مسيح الله.

أما فى إنجيل متى فقد وردت القصة على النحو الاتى فى الاصحاح (١٦) «فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحى فأجاب يسوع وقال له طوبى لك ياسمعان بن يونا» هنا لم يكن غضب ولا انتهار ولا تحذير من نشر هذا الوصف ولكن بعد بضعة سطور فقط يقول كاتب الانجيل «حينئذ أوصي تلاميذه أن لايقولوا لأحد أنه يسوع المسيح» ولا أدري ماذا يجب على التلاميذ أن يقولوا للناس عن معلمهم وبعد قليل من السطور أيضا فى نفس الاصحاح ويخبر المسيح بطرس وقال له «إذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لى» ولا أدري كيف يمكن لنبي راسخ العلم أن يتقلب على هذا النحو من التطويب إلى اللعنة فى موقف واحد أبعد أن يقول «طوبى لك ياسمعان بن يونا إن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ماتربطه على الارض يكون مربوطا فى السموات وكل ماتحلته على الارض يكون محلولاً فى السموات» أبعد هذا يقول له إذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لى» أيمكن أن يعطى المسيح مفاتيح الملكوت لشيطان؟ إن صدقنا الاولى فيجب علينا أن نكذب الثانية وإن صدقنا الثانية يجب علينا أن نكفر بالاولى إذ يستحيل علينا نحن المؤمنون بعيسى

مسيح الله ورسوله أن نصدق أنه يعطى مفاتيح الملكوت لمن وصفه بأنه شيطان يحاول أن يضل المسيح نفسه «أنت معثرة لى» يعنى وسيلة لوقوعى فى الخطيئة .
من الواضح إذن أن بطرس سمعان بن يونا (غفر الله لنا وله) إندفع متحمسا لمعلمه العظيم فوصفه بأنه المسيح ابن الله الحى وأن ذلك الوصف أغضب المسيح فانتهرهم وأوصاهم أن لا يذكروا ذلك لأحد وفى هذا الغضب الذى إجتاح المسيح غيرة على شرف الله قال لسمعان «إذهب عنى يا شيطان أنت معثرة لى» هذا هو السياق المنطقى الوحيد الذى يمكن به فهم هذه الايات من الانجيل ولكن حدث حذف وإضافة أدت إلي تناقض الروايات في الأناجيل الثلاثة .

(٢٢١) إنجيل برنابا - الفصل ٩١ .

(٢٢٢) إنجيل برنابا - الفصل (٩٢) .

(٢٢٣) إنجيل برنابا - الفصل ٩٢ .

(٢٢٤) إنجيل برنابا - الفصل ٩٣ .

(٢٢٥) إنجيل برنابا - الفصل ٩٣ .

(٢٢٦) إنجيل برنابا - الفصل ٩٤ .

(٢٢٧) إنجيل برنابا - الفصل ٩٥ .

(٢٢٨) إنجيل برنابا - الفصل ٩٦ .

(٢٢٩) إنجيل برنابا - الفصل ٩٧ .

(٢٣٠) نبؤة باهرة لسيدى المسيح (عليه الصلاة والسلام) حققها التاريخ أتم تحقيق إذ من «روما» جاء الظلام إذ انطلقت حملات القمع والاضطهاد التى أدت بالفعل كما تنبأ المسيح الى تغيير تعاليمه وتدنيس إنجيله (تبشيره) وحتى بعد أن دخل الرومان فى الديانة التى آلت اليها المسيحية فإن دخول الأباطرة فى الدين الجديد كان سببا فى مزيد من الفوضى العقدية والصراع السياسى الذى إصطبغ بالصبغة المذهبية وأدى فى النهاية الى الانقسام والتحزب والتعصب والحروب التى لطخت وماتزال تلطخ وجه الانسانية التعيسة البائسة .

(٢٣١) إنجيل برنابا - الفصل ٩٧ .

(٢٣٢) إنجيل برنابا - الفصل ٩٩ .

(٢٣٣) إنجيل لوقا الاصحاح ٩ ، إنجيل مرقس الاصحاح (٦) ، إنجيل متى الاصحاح (١٤)

وإنجيل برنابا الفصل ٩٨ .

(٢٣٤) إنجيل برنابا - الفصل ١١٦، ١١٧، ١١٨

(٢٣٥) إنجيل يوحنا الأصحاح (٣)

(٢٣٦) إنجيل متى - الأصحاح (١٠) «من يقبل نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ» نص صريح يقطع بأن «عيسى» يعد نفسه نبياً قد أتى يبشر بمجي نبي آخر وهو يعد من يؤمن بذلك أن يظفر بثواب الأنبياء عند الله وإنظر إلى قوله «باسم نبي» إذن هو يعد نفسه صورة لذلك النبي الذي جاء ليبشر به فهو «إسم» ظهر تحته ذلك «النبي» المبشّر به وكذلك كان كل الأنبياء، إنهم لم يكونوا أكثر من أسماء ظهر بها النبي الكامل أو صور قدم بها نفسه قبل حضوره الذي تجلى في الرجل العربي الذي ولد بأمر القرى مكة وبعث إلى الناس في الأربعين متخذاً في التاريخ إسم «محمد» (صلى الله عليه وسلم).

(٢٣٧) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٠)

(٢٣٨) إنجيل برنابا - الفصل (١٠١)

(٢٣٩) إنجيل برنابا - الفصل (٢٣٩)

(٢٤٠) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٣)

(٢٤١) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٤)

(٢٤٢) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٥)

(٢٤٣) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٧)

(٢٤٤) إنجيل متى - الأصحاح (٦)

(٢٤٥) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٨)

(٢٤٦) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٨)

(٢٤٧) إنجيل برنابا - الفصل (١٠٩)

(٢٤٨) إنجيل برنابا - الفصل (١١٠)

(٢٤٩) إنجيل برنابا - الفصل (١١١)

(٢٥٠) إنجيل برنابا - الفصل (١١٤)

(٢٥١) إنجيل برنابا - الفصل (١١٥)

(٢٥٢) إنجيل برنابا - الفصل (١١٦)

- (٢٥٣) إنجيل برنابا - الفصل (١١٨)
- (٢٥٤) إنجيل برنابا - الفصل (١١٩)
- (٢٥٥) إنجيل برنابا - الفصل (١١٩)
- (٢٥٦) إنجيل برنابا - الفصل (١١٩)
- (٢٥٧) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٠)
- (٢٥٨) إنجيل برنابا - الفصل (١٢١)
- (٢٥٩) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٢)
- (٢٦٠) الذي يطلق عليه في القرآن - «الفؤاد»
- (٢٦١) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٢)
- (٢٦٢) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٥)
- (٢٦٣) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٥)
- (٢٦٤) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٣)
- (٢٦٥) إنجيل برنابا الفصل (١٢٤)
- (٢٦٦) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٤)
- (٢٦٧) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٥)
- (٢٦٩) إنجيل متى الأصحاح (١٠) إنجيل مرقس الأصحاح (٦) إنجيل لوقا الأصحاح (٩)
- (٢٧٠) إنجيل متى الأصحاح ١٤ إنجيل مرقس الأصحاح ٦ إنجيل برنابا الفصل ٢٠
- (٢٧١) إنجيل متى الأصحاح (٩) إنجيل مرقس الأصحاح (٢) إنجيل لوقا الأصحاح (٥)
- (٢٧٢) إنجيل متى الأصحاح ٩ إنجيل مرقس الأصحاح ٢ إنجيل لوقا الأصحاح ٥
- (٢٧٣) لوقا الأصحاح ١٨ وبرنابا الفصل (١٢٨)
- (٢٧٤) برنابا - الفصل (١٢٩)
- (٢٧٥) إنجيل برنابا - الفصل (١٢٧)
- (٢٧٦) إنجيل برنابا - الفصل (١٣١)
- (٢٧٧) إنجيل متى - الأصحاح (١٢) وإنجيل لوقا الأصحاح (٦) وإنجيل مرقس - الأصحاح (٢)
- (٢٧٨) إنجيل لوقا - الأصحاح (٨)

(٢٧٩) إنجيل متى الأصحاح (١٣) ، الأصحاح (١٥) إنجيل مرقس الأصحاح (٧)

إنجيل لوقا الأصحاح (٦) ، الأصحاح (١١) ، الأصحاح (١٤)

إنجيل برنابا - الفصول ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤

(٢٨٠) إنجيل لوقا الأصحاح (١٤)

(٢٨١) إنجيل لوقا الأصحاح (١٦) وإنجيل برنابا الفصل (٢٤)

(٢٨٢) إنجيل برنابا - الفصل (٢٣)

(٢٨٣) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٤)

(٢٨٤) إنجيل متى الأصحاح ١٢ ، الأصحاح ١٥ إنجيل مرقس الأصحاح (٧)

(٢٨٥) إنجيل برنابا - الفصل (٢٨)

(٢٨٦) إنجيل برنابا الفصل (٣٦)

(٢٨٧) إنجيل برنابا - الفصل (٣٧)

(٢٨٨) إنجيل برنابا الفصل ٣٦

(٢٨٩) إنجيل لوقا الأصحاح ١٨

(٢٩٠) إنجيل لوقا الأصحاح (١٨) حرفياً يقول «ولكن متى جاء ابن الإنسان أُلْعَله يجد الإيمان

على الأرض ؟؟» وهذا نص يفيد أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يجد الإيمان على الأرض بل

وجد الكفر فعلى لله كثيرا من أجل أن يجد الأمة التي تؤمن به وتقدره حق قدره كما يريد الله

فوعده الله أن يظفر بتلك الأمة حين يعود إلى الأرض مرة أخرى في بعثته الثانية قبل قيام

الساعة حيث سيجد أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) التي ستؤمن به وتقدره حق قدره وعلى

هذا الوعد الآلهى عاش «عيسى» عليه الصلاة والسلام يتحمل عنت قومه صابرًا لحكم الله

منتظراً تحقق وعده إنه لا يخلف الميعاد .

(٢٩١) إنجيل لوقا - الأصحاح (١١)

(٢٩٢) إنجيل متى الأصحاح (٧) وإنجيل لوقا الأصحاح (١١)

(٢٩٣) إنجيل متى الأصحاح (٦) وإنجيل برنابا الفصل (٣٦)

(٢٩٤) إنجيل متى الأصحاح (٦) ، إنجيل لوقا الأصحاح (١١) إنجيل برنابا الفصل (٣٧)

النص في «متى» «ولوقا» حرفيا يقول «آبانا الذى فى السموات» وهو يؤكد أن البنوة لله المذكورة فى النص هي بنوة معنوية أو بالأحرى روحية فكل المؤمنين يُعدُّون أبناءً لله بهذا النص إذ يطلب منهم أن يتجهوا الى الله بقولهم «آبانا» والمسيح عيسى ابن مريم إبن الله بهذا المفهوم الذى وُجد أيضا عند المسلمين فى مثل قولهم «الفقراء عيال الله» أو قولهم لأى امرأة عند النداء عليها «يا أمة الله» فإنهم بالقطع لا يقصدون أن الفقراء هم أطفال الله الذين أنجبهم أو أن تلك المرأة المجهولة هي صاحبة الله التى يجامعها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا أو قولهم «أخي في الله» أو «يا أختي في الله» فهذا التعبير يعني أن المتكلم يرى أن المخاطب أو المخاطبين هم بمثابة أشقاء له فى أسرة أو عائلة واحدة «الله» هو ربها أي أنه (سبحانه وتعالى) هو «الأب» بهذا المفهوم الروحي وهو قول ينطق به الخطباء فى المساجد من فوق المنابر دون أدنى حرج وهو المعنى الذى ينطق به الإنجيل وهو يخالف بالقطع المفهوم الشاذ والدنس الذى اعتمدته «الديانة» التى آلت إليها المسيحية.

(٢٩٥) إنجيل برنابا - الفصل ٤٦ و إنجيل لوقا الأصحاح (١٣)

(٢٩٦) إنجيل متى الأصحاح (٩) ، إنجيل مرقس الأصحاح (٢)

إنجيل لوقا الأصحاح (٥) والأصحاح (٨)

(٢٩٧) إنجيل متى الأصحاح (١١) ، إنجيل لوقا الأصحاح (٧)

(٢٩٨) إنجيل متى الأصحاح (١١) إنجيل لوقا الأصحاح (٨) وإنجيل مرقس الأصحاح (٣)

(٢٩٩) إنجيل متى الأصحاح (٩) ، إنجيل مرقس الأصحاح (٥) وإنجيل لوقا الأصحاح (٨)

(٣٠٠) إنجيل متى الأصحاح (١٤) وإنجيل مرقس الأصحاح (٦) وإنجيل لوقا الأصحاح (٣)

(٣٠١) يؤيد هذه القصة وصف محمد (صلى الله عليه وسلم) ليحيى بن زكريا بأنه «الشهيد ابن

الشهيد» يعنى أنهما الأب والإبن قد ماتا مقتولين فى سبيل الله وقوله (صلى الله عليه وسلم)

«إن من هوان الدنيا على الله أن يحيى ابن زكريا قد قطعت رأسه تلبية لرغبة امرأة زانية كانت

تبيع جسدها - (الجامع الصغير للسيوطي)

(٣٠٢) إنجيل مرقس الأصحاح (٦) وإنجيل لوقا الأصحاح (٨) ، (١٠)

وإنجيل برنابا الفصل (١٢٦)

(٣٠٣) إنجيل متى الأصحاح (١٥) ومرقس الأصحاح (٨)

- (٣٠٤) متى - الأصحاح (١٦) وإنجيل مرقس الأصحاح ٨
 وإنجيل برنابا - الفصل (١٥١)
 (٣٠٥) إنجيل متى الأصحاح (١١)
 (٣٠٦) إنجيل متى الأصحاح (١٩) ، وإنجيل مرقس الأصحاح (١٠) وإنجيل لوقا الأصحاح (١٨)
 (٣٠٧) إنجيل متى الأصحاح (١٨) ، وإنجيل مرقس الأصحاح (٩) ، وإنجيل لوقا الأصحاح (١٧)
 (٣٠٨) إنجيل مرقس الأصحاح (٩) وإنجيل لوقا الأصحاح (٩) وإنجيل متى الأصحاح (١٨)
 (٣٠٩) إنجيل متى الأصحاح (١) وإنجيل لوقا الأصحاح (١٠)
 (٣٠١) إنجيل متى الأصحاح (١٩) ، مرقس الأصحاح (١٠) ولوقا الأصحاح (١٨)
 (٣١١) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٦)
 (٣١٢) متى الأصحاح (١٩) مرقس الأصحاح (١٠) لوقا الأصحاح (٨)
 (٣١٣) متى الأصحاح ٢٠
 هذا المثل تبشير واضح بأمة محمد (صلى الله عليه وسلم). «أمة الملكوت» فانظر إلى قول المسيح
 (عليه الصلاة والسلام) «أولون يكونون آخرين وآخرين أولين» الذي تكرر في أكثر من موضع
 في الأناجيل وتذكر قول محمد (صلى الله عليه وسلم) واصفاً أمته «نحن الآخرون الأولون
 والأولون الآخرون» يعنى الآخرون فى الظهور بالدنيا الأولون عند الحساب بين يدي الله يوم
 القيامة كما وضَّح المثل الرائع الذى ضرب به «المعلم» (عليه الصلاوقالسلام).
 (٣٢٤) إنجيل مرقس الأصحاح (٨)
 (٣١٥) متى الأصحاح (١١) ، لوقا الأصحاح (١٠)
 (٣١٦) إنجيل متى الأصحاح (٧٨) ، مرقس الأصحاح (٩) ، لوقا الأصحاح (١١)
 والأصحاح (١٧)
 (٣١٧) لوقا الأصحاح (١٣)
 (٣١٨) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٣)
 (٣١٩) إنجيل يوحنا - الأصحاح ٧
 (٣٢٠) إنجيل لوقا الأصحاح (٩) ، إنجيل برنابا الفصل (٦٣) ، (٦٤)
 (٣٢١) إنجيل متى الأصحاح (٥) ، لوقا الأصحاح (٦)

هذه الوصايا ليست بدعة نصرانية خاصة كما يتوهم الأديعاء وليست «سلبية» كما يزعم المتعالون الغوغاء وما علينا إلا أن نتذكر وصايا القرآن الكريم الذى أمر المؤمنين الذين يرغبون فى أن يكونوا محسنين أن يكظموا غيظهم وأن يعفوا ويصفحوا ويعفوا ترك العقاب أى التسخلى إختياريا عن حقه فى الرد على من أساء إليك والصفح ترك الملام والمغفرة نسيان الإساءة وأمرهم أن يحسنوا إلى من أساء إليهم ولذلك عاتب أبابكر الصديق «رضى الله عنه» عندما عزم على أن يحرم أحد الرجال الذين شاركوا فى تشويه سمعة السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر فعزم أبوها على حرمان ذلك الرجل من النفقة التى كان يعطيها لها فنزل القرآن معاتباً له قائلاً «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا ليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» سورة النور الآية ٢٢. إذن فقد أمره بالإحسان إلى من أساء إليه .

ولنتذكر وصايا الرسول الأعظم «صلى الله عليه وسلم» إلى خليفه أبى ذر «أوصانى خليلي أن أعفو عن ظلمي وأن أعطى من حرمنى وأن أصل من قطعنى» انظر إنها نفس الوصايا التى أمر بها المسيح (عليه الصلاة والسلام) تلاميذه ليكونون كاملين. حقا إنها رسالة واحدة من الله الواحد نطق بها جميع الأنبياء من لدن آدم حتى الخاتم (صلى الله عليه وسلم) .

(٣٢٢) متى -الأصحاح (١١) والأصحاح (١٤) ، ولوقا الأصحاح ٩

ومرقس الأصحاح (٦) ، ويوحنا الأصحاح (١٠)

(٣٢٣) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٦)

(٣٢٤) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٦)

(٣٢٥) لوقا - الأصحاح (١٣)

(٣٢٦) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٨) ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٠)

(٣٢٧) إنجيل لوقا الأصحاح (١٩) ، وإنجيل برنابا الفصل (١٤٣)

(٣٢٨) إنجيل برنابا - الفصل (١٤٤)

(٣٢٩) برنابا - الفصل (١٤٥)

(٣٣٠) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٤)

(٣٣١) إنجيل متى الأصحاح (٢٢)

- (٣٣٢) إنجيل برنابا الفصل (١٤٥)
- (٣٣٣) إنجيل لوقا الأصحاح (١٩) وإنجيل برنابا الفصل (١٤٦)
- (٣٣٤) إنجيل متى الأصحاح
- (٣٣٥) متى الأصحاح (٢١)
- (٣٣٦) متى - الأصحاح (١٨) ولوقا الأصحاح (١٥)
- (٣٣٧) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٤)
- (٣٣٨) إنجيل لوقا الأصحاح ١٥ ، إنجيل برنابا الفصول (١٤٦) ، (١٤٧)
- (٣٣٩) إنجيل متى الأصحاح (١٩) ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٠)
- (٣٤٠) إنجيل متى الأصحاح (٥)
- (٣٤١) إنجيل متى الأصحاح (١٦) وإنجيل مرقس الأصحاح (٨) وإنجيل لوقا الأصحاح (٩)
- وإنجيل برنابا الفصل (٤٢)
- (٣٤٢) إنجيل متى الأصحاح (١٧) وإنجيل مرقس الأصحاح (٩) ولوقا الأصحاح (٩) وبرنابا
- الفصل (٤٢)

قد وضحنا قبل ذلك أن الرجل الذي أعطاه كتاب الأنجيل إسم «إيليا» هو الرسول الذي يزعم أن يأتى أى سوف يأتى بعد المسيح كما نص إنجيل «متى» وهو الرسول الذي يرسله الله قبل يوم القيامة كما نص سفر ملاخى وهو أحمد (صلى الله عليه وسلم) .

(٣٤٣) نص إنجيل «متى» يقول «وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلاً لا تعلموا أحداً بما رأيتم حتي يقوم ابن الإنسان من الأموات وسأله تلاميذه قائلاً فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتى أولاً فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتى أولاً ويرد كل شيء - الأصحاح (١٧)

انظر إلى هذا النص وتأمل فيه لتعلم أن إرسال «إيليا» قبل البعث من الأموات وهو المعنى الذى فهمه التلاميذ من قيام ابن الإنسان من الأموات كان قولاً شائعاً يعلمه الكتبة للشعب وقد أقره المسيح أيضاً كما يتضح من رده على تلاميذه ه . كانت عقيدة شائعة فى الشعب أما قيامه من الأموات أو بالأحرى رجوعه إلى الأرض فالمقصود به عودته رسولا من الله إلى الناس قبل الساعة وهو أمر سيقع بعد إرسال «إيليا» الذى أرسل فعلاً بإسم محمد بن عبد الله (صلى

الله عليه وسلم) ورد كل شيء أى أعاد كل شيء إلى أصله ووضع الكون كله على طريق العودة إلى خالقه .

وبالقطع طبقاً لهذا النص من إنجيل «متى» فإن قيامة المسيح من الأموات ليست هى القيامة التى قيل أنها وقعت يوم الأحد التالى للصلب لأن «إيليا» الذى أقر المسيح أنه يجب أن يأتى أولاً لم يقل أحد أنه قد جاء فى الفترة بين حادثة الصلب التى قيل أنها وقعت يوم الجمعة والقيامة المزعومة حدوثها صباح الأحد التالى فى تلك الفترة من مساء الجمعة حتى صباح الأحد لم يأت أى رسول من الله ليرد كل شيء أماماً فهمه التلاميذ أن المعلم يقصد «يحيى بن زكريا» فهو ليس أكثر من عجز عن فهم المقصود من كلام السيد «المعلم» وهو أمر تكرر منهم طوال حياة المسيح (عليه الصلاة والسلام) وتوضح فى أكثر من موضع فى سياق الأناجيل كلها، لقد كانوا يعانون عجزاً دائماً عن فهمه، لكنه حقاً ما أغرب أن يقال أنهم فهموا أن يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) هو «إيليا»، لقد عرفوا يحيى وقابلوه أو سمعوا عنه وبعضهم رآه كما تنص الأناجيل فكيف يمكن إستنتاج أنه هو المقصود بإيليا، من المؤكد أن ثمة خطأ قد وقع إذ يستحيل طبقاً لنص الإنجيل نفسه أن يتوهم التلاميذ الذين عاصروا يوحنا المعمدان أنه هو «إيليا» الذى رآوه فى الغمام مع موسى وهما يتكلمان مع «المسيح»، من الواضح أن كاتب الإنجيل حاول أن يخفى شخصية «إيليا» فأضاف تلك الكلمات، «حينئذ فهم التلاميذ أنه يقول عن يوحنا المعمدان» هذه الكلمات أضافها كاتب الإنجيل الذى لم يعاصر الأحداث محاولاً إخفاء شخصية «إيليا» لأن التلاميذ عاصروا «يوحنا المعمدان» فلا يمكن أن يختلط فى ذهنهم مع «إيليا» ذلك الرجل الذى يزعم أن يأتى ولو كان الذى رآوه فى الغمام مع «موسى» هو «يوحنا المعمدان» لعرفوه فى الحال وسألوا عن الآخر فقط (موسى) لأنه مات قبل هذا الوقت الذى حدث فيه هذه الحادثة بأكثر من ألف عام (فى حدود القرن الثالث عشر قبل الميلاد).

(٣٤٤) إنجيل متى - الأصحاح (١٦) ومرقس الأصحاح (٨) ولوقا الأصحاح (٩) والكلام عن «المقربين» وهم عباد الله الذين ينالون الحياة بعد الموت إنهم الرفيق الأعلى «الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحون».

(٣٤٥) متى الأصحاح ٢١ ، مرقس الأصحاح ١١ ، لوقا الأصحاح (١٩)

(٣٤٦) إنجيل لوقا - الأصحاح (١٩) وإنجيل متى الأصحاح (٢٥)

(٢٤٧) لوقا - الأصحاح (٩)

(٢٤٨) إنجيل متى الأصحاح ٢٠ وإنجيل مرقس الأصحاح ١١ وإنجيل لوقا الأصحاح (١٩)

(٣٤٩) سورة آل عمران - الآية (٤٩)

(٣٥٠) إنجيل متى الأصحاح ٢١ ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٢) وإنجيل لوقا الأصحاح (٢٠)

(٢٥١) أنظر إلى قول الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) «متلى ومتلى الأنبياء من قبلى كرجل بنى بيتا أو جدارا إلا موضع لبنة (أى حجر) فجعل الناس ينظرون إلى الجدار ويقولون لولا وضع تلك اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين» إنه (صلى الله عليه وسلم) هو الحجر الأخير فى بناء النبوة وهذا هو مقصود النبی «عيسى» (عليه الصلاة والسلام) من النص الذي أشار إليه وهو مأخوذ من المزامير.

(٣٥٢) متى الأصحاح (٢١)

(٣٥٣) متى الأصحاح (٢٢) ، مرقس الأصحاح ١٢ ، لوقا الأصحاح (٢٠) وبرنابا الفصل (٣١)

(٣٥٤) متى الأصحاح (٢٢) ، مرقس الأصحاح (١٢) ، لوقا (٢٠)

(٣٥٥) متى الأصحاح (٢٢)

(٣٥٦) إنجيل لوقا الأصحاح (١٠) وإنجيل برنابا الفصل (٣٠)

(٣٥٧) برنابا - الفصل (١١٣) والفصل (١١٤) ولوقا الأصحاح (١٣)

(٣٥٨) برنابا - الفصل (١٥٢)

(٣٥٩) برنابا الفصل (١٥٣) ، الفصل (١٥٤)

(٣٦٠) إنجيل برنابا - الفصل (١٥٥)

(٣٦١) إنجيل يوحنا الأصحاح (٩) وإنجيل برنابا الفصل (١٥٦) والفصل (١٥٧)

(٣٦٢) يوحنا - الأصحاح (٩)

(٣٦٣) يوحنا - الأصحاح (٧)

(٣٦٤) أنظر إلى قول الله فى شأن إدريس «ورفعناه مكانا عليا» سورة مريم الآية (٥٧) وبينت

إحاديث المصطفى «صلى الله عليه وسلم» أنه فى السماء الرابعة ثم أنظر إلى قول الله لعيسى

عند نهاية حياته على الأرض

«يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى» لقد استعمل لفظ الرفع هاهنا فتأمل !!

(٣٦٥) متى الأصحاح (٨) ، ومرقس الأصحاح (١) ، لوقا الأصحاح (٣٦٦) إنجيل لوقا - الأصحاح (٧) وإنجيل برنابا الفصل (١٢٩) الفصل (١٣٠) (٣٦٧) إنجيل برنابا - الفصل (١٨٠) والفصل (١٨١) والفصل (١٨٢) (٣٦٨) برنابا - الفصل (١٨٣) ، الفصل (١٨٤) ، الفصل (١٨٥) (٣٦٩) إنجيل برنابا - الفصل (١٩٢) (٣٧٠) إنجيل يوحنا - الأصحاح (١١) (٣٧١) إنجيل يوحنا - الأصحاح ١١ ، وإنجيل برنابا الفصل (١٩٣) (٣٧٢) يجب أن نلاحظ هنا أن الكتب والفريسيين عندما طلبوا من المسيح (عليه الصلاة والسلام) آية يتبرهن علي صدقه فإنه ويخهم وأتهمهم «جيل شرير يطلب آية ولا يؤمن فلن تعطي له إله آية النبي يونان (يونس) (عليه الصلاة والسلام) فكما بقي في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم خرج حياً فكذلك يكون ابن الإنسان في قلب الأرض (يعني مدفوناً) ثلاثة أيام وثلاث ليال» يقصد ثم يخرج حياً آية من الله. هذه الآية التي تكلم عنها المسيح (عليه الصلاة والسلام) لا تنطبق بالحق إلا علي «لعازر» شقيق «مريم» و«مرثا» من قرية «بيت عنيا» لأنه بنص إنجيل يوحنا مكث في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليال فكانت المدة بين وفاته وإحياء المسيح (عليه الصلاة والسلام) له بإذن الله هي أربعة أيام كما صرحت شقيقته «للمعلم» كما جاء في إنجيل يوحنا. إذن فأبن الإنسان الذي بقي مدفوناً في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم خرج حياً بإذن الله آية من الله علي صدق إرساله للمسيح «عيسى بن مريم» هذا الإنسان هو «ليعازر» وهي آية أعطيت بالفعل للجيل الفاسق ولم يؤمن كما أخبر السيد المسيح. ونحب أن نلفت النظر هنا أن الأناجيل الثلاثة (متى، ومرقس ولوقا) التي ذكرت قضية الأيام الثلاثة واليالي الثلاثة لم تشر من قريب أو بعيد إلي قصة إحياء المسيح للرجل المسمى «ليعازر» مع أنها ذكرت بالإسم كأحد الذين صاحبوا المسيح ولأزموه فترة من الوقت في آخر حياته.... حياة المسيح وإنجيل الوحيد الذي ذكر قصة إخراج «ليعازر» من القبر هو إنجيل يوحنا بالإضافة بالطبع إلي إنجيل برنابا الذي أفاض في ذكر قصة «ليعازر» ومكوث «المعلم» في منزله «ببيت عنيا» وهذان الإنجيلان (يوحنا وبرنابا) لم يذكرنا موضوع الأيام والليالي الثلاثة لا من قريب ولا من بعيد. وبالتالي نستطيع أن نقطع أن قصة إخراج «ليعازر» من القبر قد حذفت من الأناجيل الثلاثة التي

ذكرت قضية الثلاثة أيام والثلاث ليال لأن الذين أعادوا صياغة قصة «المسيح» بعد رحيله وأحدثوا التغييرات التي تتطلبها الديانة الجديدة التي أقاموها علي أطلال تعاليم «المعلم» الذي رفع أرادوا أن ينزلوا تلك الآية (=العودة إلي الحياة أو القيامة من الموت) علي السيد المسيح نفسه وهو أمر مستحيل طبقاً لنص الإنجيل نفسه لأنهم يزعمون أنه قد صلب يوم الجمعة عند العصر أي بعد الظهر وأنزل من الصليب ووضع في القبر يوم السبت وعندما ذهب بعض النسوة من أتباعه لتطيبب الجثة ودهنها صباح الأحد وجدوه قد قام من الأموات إذن فالمدة بين الصلب والقيامة المزعومة هي من مساء الجمعة حتي صباح الأحد التالي مباشرة ومهمنا حاولنا فإنها لن تكون إبدأ ثلاثة أيام وثلاث ليال. إذن فالذي قام من الأموات بعد أن دفن في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال هو «ليعازر» شقيق «مريم» التي سكبت العطر علي «المعلم» تعزية له وليس «المسيح» نفسه الذي دفع الله جسده إلي السماء ولم يدعه في أيدي أعدائه إستجابة لصلاته.»

(٢٧٣) برنابا الفصل (١٩٤) وإنجيل لوقا الأصحاح (١٠)

(٣٧٤) إنجيل برنابا الفصل (١٩٥)

(٣٧٥) برنابا - الفصل (١٩٦) ، الفصل (١٩٧)

(٣٧٦) متى الأصحاح (٢٦) ومرقس الأصحاح (١٤) وبرنابا الفصل (٢٠٥)

(٣٧٧) إنجيل متى - الأصحاح (٢٠) إنجيل مرقس - الأصحاح (١١)

(٣٧٨) إنجيل متى الأصحاح (٢١) إنجيل مرقس الأصحاح (١١) إنجيل برنابا - الفصل ٢٠٠

(٣٧٩) إنجيل لوقا الأصحاح (١٢)

(٣٨٠) إنجيل يوحنا الأصحاح ٨ إنجيل برنابا الفصل (٢٠١)

(٣٨١) إنجيل لوقا الأصحاح (٢١) إنجيل مرقس الأصحاح ١٢

(٣٨٢) إنجيل يوحنا الأصحاح (٧)

(٣٨٣) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٠)

(٣٨٤) إنجيل يوحنا - الأصحاح (٨)

(٣٨٥) إنجيل يوحنا الأصحاح (٨)

(٣٨٦) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٦

- (٢٨٧) إنجيل برنابا الفصل (٢٠٧) ، (٢٠٨)
- (٢٨٨) إنجيل يوحنا الأصحاح ٨
- (٢٨٩) إنجيل يوحنا الأصحاح (٨) ، الأصحاح (١٠)
- (٢٩٠) متى الأصحاح (٢٣) ، برنابا الفصل (٢٠٣)
- (٢٩١) إنجيل برنابا - الفصل ٢٠٨
- (٢٩٢) إنجيل متى الأصحاح (٢٤) إنجيل مرقس الأصحاح (١٣) إنجيل لوقا الأصحاح (٢١)
- (٢٩٣) كرر المسيح عليه السلام التحذير ولكن كثيرين جأوا بإسم المسيح قائلين كل واحد أنا هو
وصدقهم التلاميذ فضلوا وأضلوا .
- (٢٩٤) إنجيل متى الأصحاح (٢٥)
- (٢٩٥) متى الأصحاح (٧)
- (٢٩٦) لوقا الأصحاح (٦)
- (٢٩٧) متى - الأصحاح (٢٥)
- (٢٩٨) متى - الأصحاح (٧)
- (٢٩٩) إنجيل برنابا الفصل (٢١٠)
- (٤٠٠) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٤ ص ٢٩٦ (طبعة المنار ١٩٠٨ - ترجمة خليل سعادة)
- (٤٠١) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٢ ص ٢٩٤ (طبعة المنار ١٩٠٨ - ترجمة خليل سعادة)
- (٤٠٢) إنجيل لوقا الأصحاح ١٧
- (٤٠٣) سورة الصف - الآية (٦)
- (٤٠٤) آل عمران ٤٩-٥١
- (٤٠٥) آل عمران ٥٢
- (٤٠٦) المائدة ١١١
- (٤٠٧) قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا وأشهد بأننا مسلمون آل عمران (٥٢ - ٥٣)
- «قالو آمنا وأشهد بأننا مسلمون» (المائدة ١١١)
- (٤٠٨) «ولمذ كفت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا الإسحر
مبين» سورة المائدة - الآية ١١٠ .

- (٤٠٩) إنجيل برنابا الفصل ٢٠٨ إنجيل يوحنا الأصحاح ٣
- (٤١٠) إنجيل لوقا الأصحاح (١٢) إنجيل متى الأصحاح (٦٠٥) إنجيل برنابا (١٦)
- (٤١١) إنجيل متى الأصحاح ١٨
- (٤١٢) إنجيل متى الأصحاح ٥ إنجيل لوقا الأصحاح ١٢
- (٤١٣) إنجيل لوقا الأصحاح ٢٢، ١٨
- (٤١٤) لوقا الأصحاح (١٨) برنابا الفصل (٧٢) إنجيل لوقا الأصحاح (١٨)، برنابا الفصل ٧٢
- (٤١٥) إنجيل برنابا الفصول ٧٣-٧٥ ص ١١ وما بعدها من طبعة المنار ١٩٠٨ م.
- (٤١٦) إنجيل برنابا الفصول ٧٦-٧٩ ص ١١٦-١٢١ من طبعة المنار ١٩٠٨ م.
- (٤١٧) إنجيل مرقس الأصحاح (١٠) إنجيل متى الأصحاح (٢٠)
- (٤١٨) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٣) إنجيل مرقس الأصحاح (١٠) إنجيل متى الأصحاح (٢٠)
- (٤١٩) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٣)
- (٤٢٠) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٥
- (٤٢١) إنجيل برنابا الفصول (١٦٩-١٧٩) ص ٢٥٨ وما بعده (طبعة المنار ١٩٠٨)
- (٤٢٢) إنجيل يوحنا الأصحاح (١٦)
- (٤٢٣) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٢
- (٤٢٤) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٤
- (٤٢٥) يوحنا الأصحاح ١٦
- (٤٢٦) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٤
- (٤٢٧) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٦
- (٤٢٨) سورة المائدة الآية ١١٢
- (٤٢٩) سورة المائدة الآية ١١٢
- (٤٣٠) سورة المائدة الآية ١١٣
- (٤٣١) سورة المائدة الآية ١١٤
- (٤٣٢) سورة المائدة الآية ١١٥
- (٤٣٣) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٣ إنجيل متى الأصحاح ٢٦ إنجيل مرقس الأصحاح ١٤

- (٤٣٤) إنجيل متى الأصحاح ٢٦ إنجيل مرقس الأصحاح ١٤
 (٤٣٥) يوحنا الأصحاح ١٦
 (٤٣٦) متى الأصحاح ٢٦ مرقس الأصحاح ١٤ لوقا الأصحاح ٢٢ يوحنا الأصحاح ١٣
 (٤٣٧) لوقا الأصحاح ٢٢ ومرقس (١٤) ومتى الأصحاح (٢٦)
 (٤٣٨) إنجيل يوحنا الأصحاح ١٧
 (٤٣٩) سورة آل عمران - الآية ٥٥ - ٢٥٧
 (٤٤٠) يقول الله في سورة الزحرف (٥٧-٦٠)
 ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ، (٥٧)
 وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ، (٥٨)
 «إن هؤلاء عبد أنعمنا عليه وجعلنا مثلاً لبنى إسرائيل ، (٥٩)
 ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلقون ، (٦٠)
 أنظر إلى قوله «سبحانه وتعالى» تعليقاً على الجدل الذي أثاره الكفار حول عيسى بن مريم ، قال
 «ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلقون» يعنى يخلقونكم أى يخلقون هيتكم البشرية
 (الآدمية) والمعنى أنه لو أرد الله أن يحولكم أيها البشر إلى ملائكة لاستطاع أن يفعل لأنه لا
 يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء يقصدكم فعل مع عيسى بن مريم ، فالآية إذن
 إشارة واضحة لمن يتدبر القرآن إلى أن عيسى بن مريم قد صار ملكاً يحيى في السماء الثانية
 التي تعلو السماء الدنيا (أى الأولى) كما رآه الذي لا ينطق عن الهوى وهو يحيى هناك في
 السموات مع الأنبياء وسائر المقربين الذين أنعم الله عليهم بالحياة بعد الموت والنعيم قبل البعث
 مع الرفيق الأعلى. الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون وحسن أولئك رفيقاً إنهم أرواح
 حية تتنعم بالجنة بعد الموت.
- (٤٤١) إنجيل متى الأصحاح (٢٦) ، إنجيل مرقس (١٤) ، إنجيل لوقا (٢٢)
 (٤٤٢) إنجيل متى الأصحاح (٢٧) ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٥) ، إنجيل لوقا (٢٣).
 (٤٤٣) إنجيل لوقا الأصحاح (٢٣)
 (٤٤٤) إنجيل متى الأصحاح (٢٧) ، إنجيل مرقس الأصحاح (١٥)
 (٤٤٥) سورة الأنعام - الآية ١١٥

فقر الرواية

هي قصة حياة المسيح في سياق عرض شامل للعصر الذي عاش فيه « عليه الصلاة والسلام » برؤية جديدة تقدمت في نور القرآن المجيد وهي رواية كتبها إنسان عشق القرآن منذ زمن بعيد وأحب المسيح وأمه الطاهرة سيده نساء العالمين .

إن الكتاب الفني هو ذلك الكائن الذي يتعانق فيه الحق والخيال والجمال .. تلك التجليات الخالدة للحقيقة الأبدية الأزلية الواحدة الخالدة أو هذه الألسنة التي يتكلم بها روح الإنسان ويؤمن أنه قنآن مسالم يتخذ من « الرواية » وعاء لفنه فهل تراه استطاع أن يقنع بعض القراء بمشاركته إيمانه وزعمه حينئذ يكتمل بإذن الله قرضه .

وبعد فإني قد رأيت « المسيح في الرؤيا » كأنه محبوس في قفص الاتهام وكنت كأني أحد شهود المحاكمة فتطلعت إلى وجهه المشرق الحزين وهو يطل من وراء القضبان ثم باعته بنظرة من عيني عيونتين كأنه قال لي : « قم فادافع عني » فأنتفضت مذهولاً كيف لأني أرى يدافع عن مثله ؟

وخرجت من الرؤية ثم نسيتهما وجرى في نهر الوقت ماء كثير ربما أكثر من عشرة أعوام حتى جاء صباح يوم مشرق من أيام الشتاء حيث وجدت على مكتبي بطاقة دعوة لحضور حفل زفاف أسعد زملائي النصراني وقرأت عليها قوله « أحفظهم في أسمك » فلا أدري تذكرت الرؤيا وتأججت في قلبي الرغبة في كتابة روايتي عن المسيح قبلها تكون دفاعة مقبولا ولعل الله يكون قد جعل « الرؤيا حقة » ولعله يرضي .

د . توحيد الزهيرى